

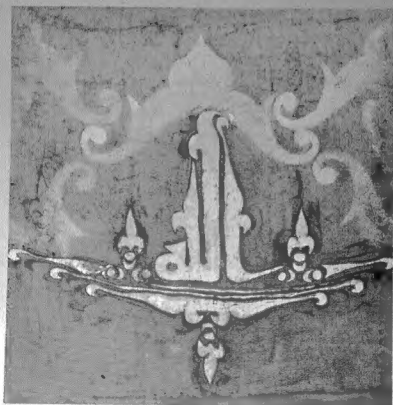


السراة



لجلائف الإشارات

للإمام القشيري



المجلد الثاني - الطبعة الثالثة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

قدم له وحققه وعلق عليه

د/ إبراهيم بسيوني

إهداء ٢٠٠٦
إلى مؤسسة التحريرية العامة للكتاب
القاهرة

لطائف الإشارات

تفسير صوفي هكامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثاني

الطبعة الثالثة

قدّم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني



التراث

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د . سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... أهلُ الجنة طابت لهم حدائقُها ، وأهل النار أحاط بهم سرادقُها ، والحقُّ — سبحانه — مُتَرَدِّدٌ عَنْ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ مِنْ تَعْدِيبِ هَؤُلَاءِ عَائِدَةً ، وَلَا مِنْ تَنْجِيمِ هَؤُلَاءِ قَائِدَةً .. جَلَّتِ الْأَحْدِيَّةُ ، وَتَقَدَّسَتْ الصَّمَدِيَّةُ .

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَفْرَةٌ فِرَاقِنَا ، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ خُطْوَةً لِدِينِنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحْنَا غَفَرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَنْ وَقَعَ إِلَيْنَا يَدًا أُجْرَلْنَا لَهُ رِغْدًا ، وَمَنِ اتَّجَا إِلَى سُدَّتِ كَرَمِنَا آوَيْنَاهُ فِي ظِلِّ نَيْمِنَا ، وَمَنْ شَكَا فِينَا غَلِيلًا ، مَهَّدْنَا لَهُ فِي دَارِ فَضْلِنَا مَقِيلًا»

عبر الكريم القرآن

عند

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسَّرْ

تَبَرُّأَنَا مِمَّا مِثْلَا مِنَ الْحَوْلِ وَالْمَنَةِ ، وَتَحَقَّقْنَا بِمَا رِنَكَ
مِنَ الطَّوْلِ وَالْمِنَةِ ، فَلَا تَجْعَلْنَا عُرْضَةً لِّإِسْهَامِ أَحْكَامِكَ ،
وَارْحَمْنَا بِطُفُفِكَ وَلِمَ كَرَامِكَ ، وَتَجَنَّبْنَا مِمَّنْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ
فَأَذَلَّ لَهُمْ ، وَبِكُنْ قِرَاقِكَ وَسَنَّتُهُمْ .

عبد الكريم القشيري

عند

سورة يونس

السورة التي تذكر فيها التوبة

جرّد الله — سبحانه — هذه السورة عن ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم » ليُعلم أنه يَخْصُّ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ ، وَيُفَرِّدُ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ ، ليس لِصُنْعِهِ سَبَبٌ ، وليس له في أفعاله غَرَضٌ ولا أَرَبٌ ، وَاتَّضَحَ للكافة أن هذه الآية أُثْبِتَتْ في الكتاب لأنها مُتَرَتِّلة ، وبالأمر هناك مُحَصَّلَةٌ .

وَمَنْ قال : إنه لم يذكر النسبة في هذه السورة لأنها مفتوحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً في الإشارة — فضعيف ، وفي التحقيق كالبعيد ؛ لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل : « لم يكن الذين كفروا »^(١) وقوله : « ويل لكل همزة لمزة »^(٢) وقوله : « تبّتْ بُداً أبي لُحْبٍ وتب »^(٣) وقوله : « قل يا أيها الكافرون »^(٤) . . . هذه كلها مفاتيح للسور . وبسم الله الرحمن الرحيم مُثَبِّتَةٌ في أوائلها — وإن كانت مُتَضَمِّنَةٌ ذِكْرَ الكفار . على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت في ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإن تَضَمَّنَتْه تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة .

ويقال إذا كان تجرّدُ السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يُحْشَى أن تجرّد الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(١) آية ١ سورة البينة .

(٢) آية ١ سورة الهجزة .

(٣) آية ١ سورة السد

(٤) آية ١ سورة الكافرون

الفراقُ شديداً ، وأشدُّه ألا يَعتَقه وصال ، وفراقُ المشركين كذلك لأنه قال : « إن الله لا يفر أن يُتركَ به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء »^(١)

ويقال من مني بفراق أحبائه فبست صحبته . وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد ، ولا شك أنهم كانوا قد وطَّئوا نفوسهم عليه ، فزل الغير من الغيب بقتة ، وأنهم الإعلام بالفرقة فجأة ، فقال : « براءة من الله ورسوله » ، أي هذه براءة من الله ورسوله ، كما قيل :

فَبِتْ بِخَيْرٍ — وَاللَّيْ مَعْلُومَةٌ وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالْإِمَانُ تَقَلَّبًا
وما أشدَّ الفرقة — لاسيما إذا كانت بقتة على غير رَقَبٍ — قال تعالى : « وَأَذِرْهُمْ
يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ »^(٢) وأنشدوا :

وكان سراجُ الوصلِ أزهَرُ بيننا فَبِتْ بِدَيْعٍ مِنَ الْبَيْنِ فَاظْطَنَّا
قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْجُدُوا فِي الْأَرْضِ أَوْبَةً أَشْهَرِ
واعلموا أنكم غير مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ
اللَّهُ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

إِنْ قَطَعَ عَنْهُمْ الْوَصْلَةَ فَقَدْ ضَرَبَ لَمْ مَدَّةً عَلَى وَجْهِ الْمُهَلَّةِ ، فَأَمَّتْهُمْ فِي الْحَالِ لِيَتَأَهَّبُوا
لِتَحْمِلِ مِقَاسَةَ الْبِرَاءَةِ فَيَا يَسْتَقْبِلُونَهُ فِي الْمَالِ .

والإشارة فيه : أنهم إن أقلموا في هذه المهلة عن النِّيِّ والضلال وجدوا في المال ما فقدوا
من الوصال ، وإن أيوا إلا التهادى في تركِ الخدمة والحرمة اقطع ما بينه وبينهم من العصمة .

ثم قال : واعلموا أنكم غير معجزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ، والإشارة فيه : إن
أصردتم على قبيح آثركم سعيتم إلى هلاككم بِقَدَمِكُمْ . وندتم في عاجلكم على سعيكم ،
وحصلتم في آجيلكم على خسرانكم ؛ وما خسرتم إلا في صفتكم ، وما ضرَّ جرمكم
سواكم وأنشدوا :

تَبَدَّلَتْ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْصَرْنَا مِنْ ابْنِي عَوْضًا لِلَّيْلِ فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا الْكِتَابَ﴾ ورسوله إلى الناس

يوم الحج الأكبر ﴿﴾

أَي لِيَسْكُنَ إِعْلَامُ مَنْ أَلَّهِ وَرَسُولُهُ النَّاسَ بِتَقْضِ عَهْدِهِمْ ، وَإِعْلَانُ عَهْدِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَا اتَّعَلَقُوا
عَنْ مَا نُوَفِّهِمْ مِنَ الْإِيمَالِ^(١) وَمَعْبُودِهِمْ ، وَقَدْ بَرَحَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْيَوْمِ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وَلَاؤُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ
مِنْهُمْ بِمَا عَقَدُوا وَفَاءً ، فَلْيَحْلَمِ السَّكَافَةُ أَنَّهُمْ أَهْدَاءُ ، وَأَشْدُوا :

أَشَاعُوا لَنَا فِي الْحَيِّ أَشْنَعَ قَصِيَّةٍ وَكَانُوا لَنَا سِلْمًا فَصَارُوا لَنَا حَرْبًا

قوله جل ذكره: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَرَى مِنَ الشَّرِكَاءِ

رَسُولَهُ﴾ .

مَنْ رَأَى مِنَ الْأَغْيَارِ — شَطِيئَةً مِنَ الْأَثَارِ ، وَلَمْ يَرَ حَصُولَهَا بِتَصْرِيفِ الْأَقْدَارِ فَقَدْ أَشْرَكَ
— فِي التَّحْقِيقِ — وَاسْتَوْجَبَ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ .

وَمَنْ لَا يَحْظُ بِالْخَلْقِ كَسْتَعْمًا ، أَوْ طَالَعَ نَفْسَهُ إِعْجَابًا فَقَدْ جَعَلَ مَا لِلَّهِ لِنَفْسِهِ اللَّهُ ، وَلَمْ يَلَمْ مَا لِلَّهِ
لِنَفْسِهِ اللَّهِ ، فَهُوَ عَلَى خَطِيئَةٍ مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ فِيهِ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ

تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي

اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ .

إِنْ عَادُوا إِلَى الْبَابِ لَمْ يَقْطَعْ وَجَاهُهُمْ ، وَمَدَّ إِلَى حَدِّ وَضُوحِ الْمُنْذَرِ لِإِرْجَاءِهِمْ . وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ
إِنْ أَصْرُوا عَلَى عُتُوِّهِمْ فَإِلَى مَا لَا يُطِيقُونَ مِنَ الْعَذَابِ مُتَقَلِّبِينَ ، وَفِي النَّارِ مُشَاهِدِينَ .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الشَّرِكِينَ ثُمَّ

لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ

أَحَدًا فَأَتَيْتُمُوهُمْ فَخَرَّبْتُمُوهُمْ

مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ :

(١) وردت (الإيمال) والصواب أن تكون (الإيمال) لأن الإيمال لا يكون إلا من الحق ،
وما نُوَفِّهِمْ (الإيمال) .

مَنْ وَفَّى الْحَقَّ فِي عَقْدِهِ قَزَدَهُ عَلَى حِفْظِ عَهْدِهِ ، إِذْ لَا يَسْتَوِي مَنْ وَفَّاهُ وَمَنْ جَفَّاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا السِّلَاحُ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ :

يريد إذا السِّلَاحُ الْحُرُمُ فاقْتُلُوا مَنْ لَاعَهْدَ لَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَأَتَاهُمْ — وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ وَكَانُوا حُرُمًا — جَعَلَ لَهُمُ الْأَمَانَ فِي مَدَّةِ هَذِهِ الشُّهُلَةِ ، (. . .) ^(١) فَبَكَرْتُمْ أَنْ يَأْمُرَ بِتَرْكِ قِتَالِ مَنْ أَتَى كَيْفَ يَرْضَى بِقَطْعِ وَصَالِ مَنْ أَتَى ١٢ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

وَحُذِّمُوا وَأَحْصُرُوا وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ .

أَمَرَهُمْ بِمُعَالَجَةِ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقِتَالِ مَعَ الْأَعْدَاءِ .

وَأَعْدَى عَدُوَّهُ تَفَسُّكُ الْغَنِيِّ بَيْنَ جَنْبَيْكَ ؛ فَسَبِيلُ الْعَهْدِ فِي مُبَاشَرَةِ الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ مَعَ النَّفْسِ بِالتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا بِالْمُبَالَغَةِ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرِّاضَاتِ ، وَاسْتِفْرَاحِ الْوَسْعِ ^(٢) فِي الْقِيَامِ بِصِدْقِ الْمَامَلَاتِ . وَمِنْ تِلْكَ الْجِلَّةِ لَا يَنْزِلُ بِسَاحَاتِ الرُّخَصِ وَالْتَّأْوِيلَاتِ ، وَيَأْخُذُ بِالْأَشَقِّ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴾ .

حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ الرَّجُوعُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتْرَكَ بَقِيَّةً . فَإِذَا أَسْلَمَ الْكَافِرُ بَعْدَ شَرِّكَهْ ، وَلَمْ يُقْصَرْ فِي وَاجِبٍ عَلَيْهِ مِنْ قِسْمٍ فَعَلَهُ وَتَرَكَهُ ، حَصَلَ الْإِذْنُ فِي تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ وَفَسْخِ

إِنْ وَجَدْنَا لِمَا ادَّعَيْتَ شُهَدَاءَ لَمْ تَجِدْ عِنْدَنَا لِحَقِّ حُدُودًا

وَكَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا انْخَفَسَتْ ، وَأَثَارُ الْبَشَرِيَّةِ إِذَا انْدَرَسَتْ ، فَلَا حَرَجَ — فِي التَّحْقِيقِ —

فِي الْمَامَلَاتِ فِي أَوَانِ مِرَاعَاةِ الْغُلَطَاتِ مَعَ اللَّهِ عِنْدَ حَصُولِ الْمَكْشَفَاتِ . وَالْجُلُوسُ مَعَ اللَّهِ

(١) مُشْتَبِهَةٌ

(٢) وَرَدَّتْ (الْوَاسِعُ) وَالصُّوَابُ أَنْ تَكُونَ الْوَسْعُ .

أَوَّلَى مِنَ الْإِقَامِ بِيَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ تَعَالَى فَيَا وَدَّ بِهِ الْغَوِيْرُ : « أَنَا جَلِيسٌ مِّنْ ذِكْرِي » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ

فَاجْرِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

إذا استجار المشرك — اليوم — فلا يردُّ حتى يسمع كلامَ الله ، فإذا استجار المؤمن طول عمره من الفراق — متى يُتَّع من صماع كلام الله ؟ ومتى يكون في زمرة من يُقال لهم : « اخشوا فيها ولا تكلمون » (٢) .

وإذا قال — اليوم — من أعدائه : « فَاجْرِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » فإن لم يؤمن بعد صماع كلامه سُئِيَ عن تعرضه حيث قال : « ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » — أترى أنه لا يؤمن أوليائه — فداً — من فراقه ، وقد عاشوا اليوم على إيمانه ووفائه ؟ ! كلا .. إنه يمنحهم بذلك ، قال تعالى : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِتْنُ الْأَكْبَرُ » (٣) .

ثم قال : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ » فإذا كان هذا برّه بمن لا يعلم فكيف برّه بمن يعلم ؟

ومتى نُضَيِّعُ مَنْ يُنْفِخُ بِبَآئِنَا وَالْمُعْرُضُونَ لَهُمْ نَعِيمٌ وَافِرٌ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلشَّرْكِينَ عَهْدٌ

عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ

عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا

اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(١) جاء في الرسالة ص ١١١ قال محمد القراء سمعت الشبلي يقول : (أليس الله تعالى يقول : أنا جليس من ذكركم ؟ ما الذي استدغم من مجالسة الحق ؟) .

(٢) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٣) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

كيف يكون المُغْلِسُ من عرفائه كالخالص في إيمانه ؟

وكيف يكون المحبوبُ من شهوده كالسنةلك في وجوده ؟

كيف يكون مَنْ يقول « أنا » كمن يقول « أنت » ؟ وأنشدوا :

وأحببنا شتان : وافي وناقصٌ ولا يستوى قطُّ حُبٍّ وباقصٌ

قوله : « فاستقاموا لكم فاستقيموا لهم » ، إن تَمَسَّكُوا بحبل^(١) وفائنا أحلناهم
ولاءنا ، وإن زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدتنا ، ثم لم يَرَّحُوا في بُعدنا .

« إن الله يحب المتقين » : المتَّقِي الذي يستحقُّ محبة مَنْ يتَّقَى ؛ وذلك حين يتقَى محبة
نَفْسِهِ ، وذلك بِاتِّزَاقِ حظه والقيام بِحقِّ ربه .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا

فيكم إلا ولا ذمة^(٢) يرضونكم

بأفواههم وتابى قلوبهم وأكثرم

فاسقون ﴾ .

وَصَفَّهم بلؤم الطبع فقال : كيف يكونون عافطين على هودهم مع ما أضمره لكم من
سوء الرضاء ؟ فلو ظفروا بكم واستولوا عليكم لم يراعوا لكم حرمةً ، ولم يحفظوا لكم قرابةً
أو ذمةً .

وفي هذا إشارة إلى أن الكريمَ إذا ظفَرَ غَفَرَ ، وإذا غدر ما غَدَرَ ، فيا أَسْرَ وجَهَرَ .

قوله « يرضونكم بأفواههم وتابى قلوبهم » أى لا عَجَبَ مِنْ طَبِيعِهِمْ ؛ فإنهم في حُنا
كذلك يضلون : يظهرون لباسَ الإيمان ويضمرون الكفر . وإنهم لذلك يبشون معكم في زِي
الوفاق ، ويستبطنون عين الشقاق وسوء اللُفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ اشتروا بليات الله ثمنًا قليلًا فصَدُّوا

(١) وردت (الجبل) وهي خطأ في السح .

عن سيده إِيَّاهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ .

مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بَيْعَ اللَّهِ أَرْخَصَ فِي صَفَقَتِهِ ثُمَّ إِنَّهُ خَسِرَ فِي تِجَارَتِهِ ؛ فَلَا لَهُ — وهو
مِنَ اللَّهِ — أَثَرُ اسْتِنَاعٍ ، وَلَا لَهُ — فِي دُونِهِ سَبْحَةٌ — اقْتِنَاعٌ ؛ بَقِيَ عَنِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَسْتَمِعْ
عَنِ اللَّهِ . وَهَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمَبِينُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ ﴾ .

كَيْفَ رَاعَى حَقَّ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَرَاهُ حَقَّ اللَّهِ فِي اللَّهِ ؟ أَخْلَاقُهُمْ تَشَابَهَتْ فِي
تَرْكِ الْحَرَمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ فَأَخْرَأْنَكُمْ فِي الدِّينِ وَفُضِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

مَتَاهُ : وَإِنْ قَبِلْنَاهُمْ وَصَلُّوا وَلَوْلَانَا فَلَحْمَةُ النَّسَبِ فِي الدِّينِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ وَشِبْهَةُ (١) ،
وَلَا فَلَئِكَ الْأَجَانِبُ يَسْأَلُ عَلَى جَانِبِ مِنْكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا أَيْنَاهُمْ مِنْ بَعْدِ
عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِيَّةَ
الْكُفْرِ إِيَّاهُمْ لَا أَيْنَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنْتَهُونَ ﴾ .

إِذَا جَنَحُوا إِلَى التَّغَدَّرِ ، وَنَكَبُوا مَا قَدَّمُوهُ مِنْ ضِمَانِ الرِّوَاءِ بِالْهَدِ ، وَبَطَرُوا أَلْسِنَتَهُمْ فِيكُمْ
بِالْقَوْمِ فَاقْصِدُوا مِنْ رَحَى الْفِتْنَةِ عَلَيْهِ تَدْوِيرٌ ، وَغَضَنُ الشَّرِّ مِنْ أَصْلِهِ يَنْشَعِبُ ، وَهِيَ سَادَةُ
الْكُفْرِ وَآدَاتُهُمْ .

وَحَقُّ الْقِتَالِ إِعْدَادُ الْقُوَّةِ جَهْرًا ، وَالنَّبْرُ عَنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ سِرًّا .
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَرُوا أَيْنَاهُمْ

(١) أَيِ مَثَلِكَةِ مَتَاهُ .

وَهُوَ الْإِخْرَاجُ الرُّسُولِ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتَحِشْتُمْ فَأَلْفَهُ أَهْوًى
أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

حَرَّضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ — عَلَى مِلَاحِظَةِ أَمْرِ اللَّهِ بِذَلِكَ — لَا عَلَى مَقْتَضَى الْإِطْعَاءِ عَلَى الْحَقِّ
لِأَحَدٍ ، فَإِنْ مَنْ غَضِبَ لِنَفْسِهِ فَنَعْمُ الْوَصْفُ ، وَمَنْ غَضِبَ لِلَّهِ فَإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .
وَقَالَ « أَنْتَحِشْتُمْ فَأَلْفَهُ أَهْوًى أَنْ تَحْشَوْهُ » : فَلِنَفْسِيَةِ مِنَ اللَّهِ بِشِيرِ الْوَعْدَةِ ، وَالنَّفْسِيَةِ مِنَ
غَيْرِ اللَّهِ نَذِيرِ الْفُرْقَةِ . وَحَقِيقَةُ الْخَشْيَةِ نَفْضُ السُّرِّ عَنْ ارْتِكَابِ الزُّجْرِ وَمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ تَتْلُوهُمْ بِحُكْمٍ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُذْهِبُ
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَيُذْهِبُ
فَيُظِلُّ قُلُوبَهُمْ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾

هُوَ عَنْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْمُخَالَفَةِ بِالْمُهْجَةِ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالنَّصْرَةِ ، فَإِنَّ شَهَادَةَ خِزْيِ الدُّوَى
عَمَّا يُؤْمِنُونَ عَلَيْهِمْ مَقَاسَةً السُّوءِ . وَالظَّفَرُ بِالْأَرْبِ يَذْهَبُ تَعَبُ الطَّلَبِ .
وَشَفَاءُ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِي الْقَامِ وَالْمَرَجَلِ ؛ فَتَنْهَى مَنْ شَفَاءُ صَدْرِهِ
فِي قَهْرِ عَدُوِّهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءُ صَدْرِهِ فِي نَيْلِ مَرْجُوِّهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءُ صَدْرِهِ فِي الظَّفَرِ
بِمَطْلُوبِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءُ صَدْرِهِ فِي لِقَاءِ مَحْبُوبِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءُ صَدْرِهِ فِي حَرَكَةِ مَقْصُودِهِ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءُ صَدْرِهِ فِي الْبَقَاءِ بِمَحْبُودِهِ .
وَكُنْتُ ذَهَابُ قُلُوبِهِمْ تَخْتَلِفُ أَسْبَابُهُ ، وَتَتَنَوَّعُ أَوْبَابُهُ ، وَفِيهَا ذَكَرْنَا تَلْوِيحُ
لِيَا تَرْكُنَا^(١) .

« وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » حَتَّى يَكُونَ اسْتِغْلَالُهُ بِمَحْوُولِ الْأَحْوَالِ .
قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمْ يُقَلِّمْ

(١) توضح هذه العبارة ميل للتشديد للإغلال خشية اللال — كما ذكر في مقدمة كتابه .

اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يَتَّخِذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِيَّةً ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُفْتَحُ مِنْهُ بِالْأَعْوَى — دُونَ التَّحَقُّقِ بِالْمَعْنَى — فَهُوَ عَلَى غَلَطٍ فِي حِسَابِهِ .
وَالَّذِي طَالِبُهُمْ بِهِ مِنْ حَيْثُ الْأَمْرُ صِدْقُ الْمَجَاهِدَةِ فِي اللَّهِ ، وَتَرَكُوا الزَّكُونَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ ،
وَالْتِبَاعُ مِنْ مُسَاكِنَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ . . . ثِقَةً بِاللَّهِ ، وَاكْتِفَاءً بِاللَّهِ ، وَتَبَرُّيًّا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ .
وَهَذَا الَّذِي أَمْرُهُمْ لَا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَّةً فَالْمَعْنَى فِيهِ : أَلَا يُفْتَحُوا فِي الْكُفَّارِ
أَسْرَارَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَأَوَّلُ مَنْ يَهْجُرُهُ الْمُسْلِمُ — لَثَلَا تَطْلُعَ عَلَى الْأَسْرَارِ — نَفْسُهُ الَّتِي هِيَ أَعْدَى عَدُوِّهِ ،
وَفِي هَذَا لِلْمَعْنَى قَالَ قَائِلُهُمْ :

كَتَبَنِي إِلَيْكُمْ بَعْدَ مَوْتِي بَلِيَّةٍ وَلَمْ أُدْرِ أَنِّي بَعْدَ مَوْتِي أَكْتُبُ
وَيَقَالُ : إِنْ أَبَا يَزِيدَ ^(١) — فَبِمَا أُخْبِرَ عَنْهُ — أَنَّهُ قَالَ الْحَقَّ فِي بَعْضِ أَوَّلَاتِ مَكْشَفَاتِهِ :
كَيْفَ أَطْلُبُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : فَأَرْقُ نَفْسَكَ .

وَيَقَالُ إِنْ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ ، بَلْ لَا تَحْصِلُ مِنْهُ شَظِيَّةٌ إِلَّا بِكَيْ عُرُوقِ الْأَطْمَاعِ وَالْمَطَالِبَاتِ
لِيَأَى فِي الدُّنْيَا وَلِيَأَى فِي الْعُقْبَى وَلِيَأَى فِي رُؤْيَا الْحَالِ وَالْمَقَامِ — وَلَوْ يَذَرُهُ . وَالْحَرِيَّةُ عَزِيزَةٌ ^(٢) ...
قَالَ قَائِلُهُمْ :

أَتَمْنِي عَلَى الزَّمَانِ مُحَالًا أَنْ تَرَى مُقْلَتَايَ طَلْقَةً حُرًّا
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : هَذَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقْتُلُوا
مُسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

(١) هُوَ أَبُو يَزِيدَ السَّطَّايُّ كُلُّ جَدِّهِ (سُرُوشَانَ) مَجُوسِيًّا وَأَسْلَمَ ، وَهُوَ أَحَدُ إِخْوَةِ ثَلَاثَةِ كَانُوا
جَبِيًّا زَعَادًا وَأَصْحَابَ أَحْوَالٍ ، مَاتَ سَنَةَ ٢٦١ ، وَقِيلَ سَنَةَ ٢٣٤ طَبَقَاتُ السُّلَيْ (و) (رِسَالَةُ الْقُسْبَرِيِّ) .
(٢) (وَالْحَرِيَّةُ عَزِيزَةٌ) هُنَا مَعْنَاهَا بَادِرَةُ الْوُجُودِ .

بالكُفْر أولئك حَمِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ،
وفي النَّارِ ثُمَّ خَالِدُونَ ﴿١١﴾

عمارة للمساجد بإقامة العبادة فيها ، والعبادة لا تُقْبَلُ إلا بالإخلاص ، والمُشْرِكُ قَاطِبُ
الإخلاص ، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر دعواهم حصول بعض الحدثن بتأثير الأسباب ،
فإن أثبت في عقده جواز ذرّة في العالم من غير تقديره — سبحانه — شاركه أرباب الشرك
في المعنى الذي لزمهم به هذه السّنة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ
واليوم الآخر وَأَتَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَىٰ أُولَٰئِكَ
أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُتَعَذِّبِينَ ﴾

لا تكون عمارة المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية ، فالعابد يُعَمِّرُهَا بتخريب أوطان
شبهوته ، والزاهد يُعمرها بتخريب أوطان مُتَنَبِّئِهِ ، والعارف يُعمرها بتخريب أوطان علاقته ،
والمؤخِّد يُعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُسَاكِنَتِهِ . وكل واحد منهم واقفٌ في صفته ؛
فلصاحب كل موقف منهم وصفٌ مخصوص .

وكذلك رُتِبَتْهُمْ في الإيمان مختلفة ؛ فإيمان من حيث البرهان ، وإيمان من حيث البيان ،
وإيمان من حيث العيان ، وشتان ما م قال قائلهم :

لَا تَعْرِضْ بِنِذْرِنَا فِي ذِكْرِهِمْ لَيْسَ الصَّحِيحُ — إِذَا مَشَى — كَالْمُقْعَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الآخر وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ
عندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴾

(١) أعطى الناسخ إذا أبى الآية : (م فيها خالِدُونَ)

ليس مَنْ ظَمَّ بِمِثْلَةِ ظَاهِرِهِ كُنَّ اسْتِقَامٌ فِي مُوَاسَلَةِ سِرِّهِ ، وَلَا مَنْ اقْتَبَسَ مِنْ سِرَاجِ
عُلُومِهِ كُنَّ اسْتَبْصَارٌ بِشُمُوسِ مَعْلُومِهِ ، وَلَا مَنْ نُسِبَ بِالْبَابِ مِنْ حَيْثُ الْخِدْمَةِ كُنَّ مَسْكَنٌ مِنْ
الْبَسَاطِ مِنْ حَيْثُ الْقُرْبَةِ (١) ، وَلَيْسَ نَمَتْ مَنْ تَسَكَّفَ نِقَاقًا كَوَصَفٍ مَنْ تَحَقَّقَ وَفَاقًا ، بَيْنَهُمَا
يُونُ بَعِيدٌ !

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴾

« آمَنُوا » أى شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبقَ في سماء يقينهم سحابٌ رَيْبٌ ،
ولا في هواء (٢) مآزقهم ضلْبٌ شك .

« وهاجروا » : ظَمَّ يَهْجُرُوا فِي أوطان التفرقة ؛ فَتَمَحَّضَتْ (٣) حركاتهم وسكناتهم
بالله لله .

« وجاهدوا » : لا على ملاحظة فرضي أو مطالعة عوفي ؛ ظَمَّ يَسْتَحِرُّوهُمُ لَا نَفْسِيهِمْ — مِنْ
ميسورم — شَبْتًا إِلَّا آتَوْا الْحَقَّ عَلَيْهِ ؛ فَظَلَمُوا بِالنِّمَةِ ؛ فِي قِيَامِهِم بِالْحَقِّ بَعْدَ فَتَاهِمِ
عَنِ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يُبَشِّرُكُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَوَرْضَانٍ
وَجَنَّتِمْ لَمْ فِيهَا نِسْمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴾

(١) يتدرج الدخول عليه — حسباً نعرف من أسلوب التشييء — من الباب إلى البساط إلى العروة
أو الساحة ثم النسيمة .

(٢) وردت (هَوْلَاء) وقد صوبناها (هَوَاء) لتلائم (ماء) و (سحاب) و (ضباب) فضلاً عن أنها
أقرب في الكتابة إليها .

(٣) تمحضت أى صارت خالصة لله

البشارة من الله تعالى على قسيتين : بشارة بواسطة المَلَكِ ، عند التوفى :

« تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَحْزَنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ » (١) .

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَكِ ، إذ يُبَشِّرُهُمْ بِهِمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ، وذلك عند الحساب .
يُبَشِّرُهُمْ بِلا واسطة بِحَسَنِ التَّوْفَى ؛ فإِجْلُ بشارتهم بنعمة الله ، وإِجْلُ بشارتهم برحمة الله ،
وشتان ما هما !

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان ، والبشارة بالرحمة لأرباب المعصيان ،
فأصحاب الإحسان صَلَحَ أَمْرُهُمْ لِشَهْرَةٍ فَأُظْهِرَ أَمْرُهُمْ لَمَلَكٍ حَتَّى يُبَشِّرَهُمْ بِهِمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ، وَأَهْلُ
المعصيان صَلَحَ حَالُهُمْ فَاسْتَرَفَوْهُ بِبَشَارَتِهِمْ — مِنْ غَيْرِ واسطة — سِرًّا .
ويقال إن كانت للطبيع إشارة بالاختصاص فَإِنَّ لَهَا إشارة بالخلوص . وإن كان
للمطيع إشارة بالدرجات فَإِنَّ لَهَا إشارة بالنجاة .

ويقال إنَّ القلوب مجبولة على عبة من يُبَشِّرُ بالخير ؛ فأراد الحق — سبحانه — أن تكون
عبة المبدء — سبحانه — على الخصوص ؛ فتوفى بشارته بيزيد خطابه من غير واسطة ،
فقال : يَبَشِّرُهُمْ بِهِمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ « وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَأُوا :

فَلَا تَمْتَحُ مَقْلَقِي بَلَقَاهُ لَوْهَبَتْهَا يُبَشِّرِي بِقَرَبِ إِيَّاهِ

ويقال بِشَرَّ الْمَاعِي بِالرَّحَةِ ، وَلِلطَّيْعِ بِالرَّضْوَانِ ، ثُمَّ السَّكَافَةِ بِالْجَنَّةِ ؛ فَقَدَّمَ الْمَاعِي فِي الذِّكْرِ ،
وقَدَّمَ الْمَطْيِعَ بِالْبِرِّ ، فَالَّذِي كَرَّ قَوْلُهُ وَهُوَ قَدِيمٌ وَالْبِرُّ طَوْلُهُ وَهُوَ عَمِيمٌ . وقوله الذي لَمْ يَزَلْ أَحْزَمِينَ
طَوْلُهُ الذي حَصَلَ . غَدَّمَ الْعَصَاةَ عَلَى الْمَطْيِعِينَ لِأَنَّ صَمْفَ الضَّعِيفِ أَوَّلَى بِالرُّفْقِ مِنَ الْقَوِي .

ويقال (قَدَّمَ أَمْرَ الْمَاعِي بِالرَّحَةِ حَتَّى إِذَا كَانَتْ يَوْمُ الْعَرْضِ وَحُضُورِ الْجَمْعِ
لَا يَنْتَضِعُ الْمَاعِي) (٢) .

ويقال « يَبَشِّرُهُمْ بِهِمْ بِرَحْمَتِهِ » يُرَفِّقُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ

(١) آية ٣٠ سورة فصلت

(٢) ما بين التوسين موجود في الماشح أختناه في موضعه من النص حسب العلامات المبينة ،
ولنتأمل مقدار انقصاص صدور المصونية بالنسبة للصفاة ، وذلك نتيجة امتلاء قلوبهم بالأمل في المحيوب .

بسمهم وطاعتهم ، ولكن يرحته — سبحانه — وصلوا إلى نعمته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يُنجيه الله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتقضى الله يرحته » (١) .

قوله : « لم فيها نعيم مقيم » : قوم نعيمهم عطاه ربهم على وصف القلم ، وقوم نعيمهم قتاه ربهم على نمت اللوام ، فالمايودون لم تعلم عطاه ، والمارفون لم دوام قتاه .

ثم قال : « خالدين فيها أبداً » والكناية في قوله « فيها » كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحلة ، وما وقد ذكر الأجر بعدها ؛ فسكا لا يقطع عطاه عنهم في الجنة لا يمنع منهم لقاه متى شاموا في الجنة ، قال تعالى : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » (٢) أي لا مقطوعة عنهم نعمته ، ولا ممنوعة منهم رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْشَوْا

آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولِيَاءُ إِنِ اسْتَحْبَبُوا

الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ

فَسَكَّ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾

مَنْ لَمْ يَضْلَحْ بِطَاعَتِهِ رَبَّهُ لَا نَسْتَلْصِقْ لَصِيحَةَ نَفْسِكَ .

وقال من أثر على الله شيئاً يبارك له فيه ؛ فيبقى بذلك عن الله ، ثم لا يبقى ذلك منه ، فإن استبقاه بجهد — كيف يسبق حياته إذا أذن الله في ذهاب أجله ؟ وفي مناه أنشوا :

مَنْ لَمْ تَزَلْ نَسْتُهُ قَبْلَهُ زَالَ مَعَ النِّعَةِ بِالْمَوْتِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْرَضُواكُمُهَا وَتِجَارَةٌ تَمْشُونَ

كَاذِبًا وَمَا كُنْتُمْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ

(١) الشيطان عن عائشة مرفوعاً : سددوا ولاربوا وأبصروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة معه ، قالوا ... الخ

(٢) آية ٢٣ سورة الواقعة

إِلَيْكُمْ مِنْ أَفْهٍ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَقَرَّبُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾

ليس هذا تخييراً لهم ، ولا إذناً في إظهار الخطوط على الحقوق ، ولكنه غاية التحذير
والإنذار من إظهار شيء من الخطوط على الدين ، ومرور الأيام حكم عدل يكشف في العاقبة
عن أسرار التدبير ، قال تعالى :

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفْرَسَ نَحْتِكَ أَمْ حَرَارُ ؟

ويقال علامة الصديق في التوحيد قطع العلاقات ، ومفارقة العادات ، وهجران اللهودات
والاكشاف بالله في دواام الحالات .

ويقال مَنْ كَسَدَتْ سَوَاقُ دِينِهِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ حَظْوْطِهِ ، ومالم تحل منك منازل
الخطوط لا تمر بك مشاهد الحقوق .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾
النصرة من الله تعالى في شهود القدرة ، والمنصور مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عن التوهم
والحسبان ، ولم يَكِلْهُ إِلَى تَدْبِيرِهِ فِي الْأُمُورِ ، وأثبت الحق — سبحانه — في مقام الانفجار
منبرياً عن الحول والسنة ، متحققاً بشهود تصاريح القدرة ، يأخذ الحق — سبحانه —
بيده فيخرجه عن مهواة تدبيره ، ويوقفه على وصف التصبر لقضاء تقديره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴾ .

يعنى نَصَرَ كَمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ حين تفرق أكثر الأصحاب ، وافترت أنياب الكثرة من يقاب
القهر فاضطربت القلوب ، وخافت القوى أصحابها ، ولم تغن عنكم كثرتكم ، فاستخلص الله
أسراركم — عند صدق الرجوع إليه — بِحُسْنِ السَّكِينَةِ النازلة عليكم ، فقلب الله الأمر على

الأعداء ، وَتَقَفَّتْ رَايَتُ النَصْرَةِ ، وَوَقَّتْ الْفَائِزَةُ عَلَى الْكَافِرِ ، وَارْتَدَّتْ الْمَرْبِئَةُ عَلَيْهِمْ
فَرَجَّحُوا صَافِرِينَ .

قوله جل ذكره ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَاذِبِينَ﴾

--السَّكِينَةُ تُلَاحِظُ الْقَلْبَ عِنْدَ جَرَيَانِ حُكْمِ الرَّبِّ بِنِعْمَتِ الطَّمَآنِينَةِ ، وَخُودِ آثَارِ الْبَشَرِيَّةِ
بِالْكَلِيَّةِ ، وَالرَّضَاهِ بِالْبَادِي مِنَ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ مَعَارِضَةٍ اخْتِيَارٍ .

ويقال السَّكِينَةُ التَّوَكُّلُ عَلَى بَسَاطَةِ الشُّهُودِ بِشَوَاهِدِ الصَّحُوحِ ، وَالتَّوَكُّلُ بِإِثْمَانَةِ مِصَافَاتِ الْعِبَادِيَّةِ
مِنْ غَيْرِ لِحَاقٍ مُشَقَّةٍ ، وَبِلَا تَحَرُّكِ عِرْقٍ لِمَارِضَةٍ حُكْمٍ . وَالسَّكِينَةُ ^(١) الْمُنْزَلَةُ عَلَى « الْمُؤْمِنِينَ »
خُودُهُمْ نَحْتِ جَرَيَانِ مَا وَرَدَ مِنَ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ كَرَاهَةٍ بِنَوَازِعِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَاخْتِلَافِ الْحُوقِ
إِلَهِامِهِمْ حَتَّى لَمْ تَسْتَفْزِمِ رَهِيَّةً مِنْ مَخْلُوقٍ ؛ فَسَكَنَتْ عَنْهُمْ كُلُّ إِرَاحَةٍ وَاخْتِيَارٍ .

« وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » مِنْ وَفُورِ الْيَقِينِ وَزَوَائِدِ الْإِسْتِبْصَارِ .

« وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا » بِالنَّطُوحِ ^(٢) فِي مَنَاحِلِ التَّنْفِرَةِ ، وَالسَّقُوطِ فِي وَهْدَةِ ^(٣) ضَيْقِ
التَّجْدِيدِ ، وَبِحِجَةِ النَّفْثَةِ ، وَالْفَيْيَةِ عَنْ شُهُودِ التَّقْدِيرِ .

قوله جل ذكره ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ خَفِيرٌ رَحِيمٌ﴾

رَدَمَ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى حَقَائِقِ الْعِلْمِ ، ثُمَّ تَقَلَّبَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْمَنَازِلِ إِلَى مَشَاهِدِ الْيَقِينِ ، ثُمَّ رَقَّاهُمْ
مِنْ تِلْكَ الْجَلَّةِ بِمَا لَقَّاهُمْ بِهِ مِنْ عَيْنِ الْجَمْعِ .

(١) وَوَدِدْتُ (وَالْكَائِنِ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ

(٢) وَوَدِدْتُ (وَالنَّطُوحِ) بِالْبَيْنِ وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٣) جَاءَتْ الرَّاوُ فَوْقَ غَاءِ (ي) وَاسْتَحْلَسَتْ بِهَذَا خَطَأً : (مِهْ) ، وَالْمَوَابِ أَنْ تَأْخُذَ الرَّاوُ مَكَاهِ

بِهِ (ي) وَتَصْبِحُ الْكَلِمَةُ (وَهْدَةً)

قوله جل ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ

فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِعِدَّةِ

عَامِهِمْ هَذَا﴾

فقدوا طهارة الأسرار بماء التوحيد ، فبقوا في قنودات الظنون والأوهام ، فسكنوا
قربان المساجد التي هي مشاهد القرب . وأما المؤمنون فطهرهم عن التدنس بشهود الأعيان ،
فطالعو الحق قرداً فيما يبينه من الأمر ويبيظه من الحكم .

قوله جل ذكره ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ حَيْثُ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ مِنْ

قَضَائِهِ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْحِكْمِ﴾

توسخ الأرواق من الأسباب من قضايا انقلاق قلب التوحيد ، فمن لم يفرد مبيده
بالقصة التي في قعر مريم .

ويقال من أناخ بقوة كرم مولاه ، واستنصر بحاب جوده أغناه عن كل سبب ،
وكفاه كل نقص ، وقضى له كل سؤال وأرب ، وأعطاه من غير طلب .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا

الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

من استوجب الهوان لا ينجيك من شره غير ما يستحقه من الإذلال على صفه ، ومن
دأه عنده فيلخرى أن يلقى سوء .

ومن أشد الناس لك عداوة ، وأبعدهم عن الإيمان - نفسك المجيولة على الشر فلا تنزع إلا بنهبها
بعدة المجاهدات . وهي لا تؤمن بالتقدير ، ولا يزول شكها قط ، وكذلك تنفذ إلى التدبير (١) ،

(١) أي تدبير الإنسان الناقص لتدبير الحق

ولا تسكن إلا بوجود المعلوم^(١) ، ولا تقبل منك إلا كاذبَ المواعيد ، وقل لك قالوا
 واكذب النفس إذا حدثتها فإن صدق القول ينزى بالأهل
 قوله جل ذكره : ﴿ وَرَأَيْتَ الْيَهُودَ مُعْزِزِينَ ابْنَ اللَّهِ ،
 وَرَأَيْتَ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ ،
 ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾

لو كان هذا في تضابط المفلوقين لكان عين الشكوى ؛ والشكوى إلى الأحباب تشير
 إلى تحقق الوصلة .

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم ، وكَم بين مَنْ تشكو منه وبين مَنْ تشكو إليه !!
 قوله جل ذكره : ﴿ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 قَبْلُ ، قَالَتْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يَكُونُ
 الكفار قبلهم جسدوا الزبونية ، وهؤلاء أقروا بالله ، ثم لما أثبتوا له الوكِّدَ قضا
 ما أقروا به من التوحيد ، فصادوا كالكفار قبلهم .
 ويحتمل أن تكون مضادة قولهم في وصف المعبود بأن عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقول
 الكفار قبلهم إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ .

ويقال لَمَّا وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينقصهم صدقهم في الإقرار بربوبيته
 مما أضافوا إليه من سوء الثقة . وكلُّ مَنْ أطلق في وصفه ما يتقدس — سبحانه — عنه فهو
 للأعداء مشاكِّلٌ في استحقاق الندم والتوبيخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اتَّخَذُوا أَحِبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورًا
 إِلَّا لِيُجِيبُوا لِمَا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 سبحانه عما يشركون ﴾

(١) ربما كان المقصود بالمعروف هنا ما يقع في نطاق الحس ، وتقدير الحق شيء لا يقع تحت حس ،
 الإنسان ومع الإنسان .

كما لا تجوز مجاوزة الحد في وضع القدر لا تجوز مجاوزة الحد في رفع القدر ، وفي الظاهر :
« أَمْرُنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ »

- قَمَنْ رَأَى مِنَ الْخُلُقَيْنِ شَطِيئَةً مِنَ الْإِدْبَاعِ أَنْزَلَهُمْ مَقَرَّةً الْأَرْبَابِ ، وَذَلِكَ - فِي التَّحْقِيقِ -
شَرُّكَ ، وَمَا أَخْلَصَ فِي التَّوْحِيدِ مَنْ لَمْ يَرَّ جَمِيعَ الْحَادِثَاتِ بِصِفَاتِهَا (. . .) (١) مِنْ اللَّهِ .
« وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا » : قَمَنْ رَفَعَ فِي عَقْدِهِ مَخْلُوقًا فَوْقَ قَدْرِهِ
قَدْ أَشْرَكَ بِرَبِّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴾

مَنْ رَامَ أَنْ يَسْتَرْشِعَ الشَّمْسُ بِدُخَانٍ يُوْجِهُهُ مِنْ نِيرَانِهِ ، أَوْ عَلِجَ أَنْ يَمْنَعَ حَكْمَ السَّمَاءِ
بِحِيلَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، أَوْ يُسْقِطَ نَجْمَ الْفَلَكَ بِسَهَامِ قَوْسِهِ - أَظْهَرَ رُحُوتَهُ ثُمَّ لَمْ يَحْطَ بِمَرَادِهِ .
كَذَلِكَ مَنْ تَوَهَّمَ أَنْ سَنَةَ التَّوْحِيدِ يَطْوَعُهَا وَتَهْجُ الشُّبُهَةُ قَدْ خَلَبَ فِي ظُلْمَتِهِ ، وَانْفَضَّحَ فِي وَهْمِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

أَزَاحَ الْعِلَالُ بِمَا أَلَا حَ مِنَ الْحَبَجِ ، وَأَزَالَ الشُّبُهَةَ بِمَا أَفْصَحَ مِنَ التَّهَجِّجِ ؛ فَشَمَّوسُ الْحَقِّ
طَالِعَةٌ ، وَأَحْلَةُ الشَّرْعِ لَامَةٌ ، كَمَا ظَهَرَا :

هُوَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنْ لِلشَّمْسِ غَيَّةٌ وَهَذَا الَّذِي لَنُفْيِهِ لَيْسَ يَنْغِيبُ
قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا كَثِيرٌ مِّنَ
الْأَبْجَارِ وَالرُّهْبَانِ لَبِئْسَ أَكْلُكُمْ أَمْوَالٌ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدِّقُونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

العالم إذا ارتقى بأموال الناس عوصاً عما يُعلمهم زالتْ بركاتُ عليه ، ولم يطب في طريق الزهد مطلقه .

والمبارف إذا اتضع بخدمة المريد ، أو ارتقى بشيء من أحواله وأعماله زالت آثارُ همتِه ، ولم تُجد في حكم التوحيد حالته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

لم في الآجل عقوبة . والذين لا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلم في الماحل حجة . وقليل من عباده من تسلّم من الحجلب في محضّره والغباب في منتظره ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُكُورٌ بِمَا كَانُوا يَكْنِزُونَ ﴾ . ففكروا ما كنتم تكنزون ^(٢) .

لما طلبوا الجاه عند الخلق بالمهم ، وبغفلوا بإخراج حق الله عنه شأن وجوهم . ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم . قال تعالى : ﴿ فُكُورٌ بِمَا كَانُوا يَكْنِزُونَ ﴾ .

ويقال : لما (عيسوا) في وجوه الغاة ^(٣) وعقدوا حواجيبهم وضمت الكنية على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء ، ولما طوّروا كشمهم دون الفقراء — إذا جالسهم — وضع للكواة على جئوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا

(١) محضره أى حاضره وعاينه ، ومنتظره أى مستقبه وآجله .

(٢) الغاة م طالبو للباطل ومتشبهوه

عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ
حَرَّمَ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴿١٠﴾

لما علم أنهم لا يداومون على ملازمة القربى أفرد بعض الشهور بالتفصيل ،
ليُخصَّوها باستكثار الطاعة فيها . فأما الغواص من عبادہ فجميع الشهور لم شعبان
ورمضان ، وكذلك جميع الأيام لم جمعة ، وجميع البقاع ^(١) لم مسجد وفي مناه
أشد بضمهم .

يَا رَبُّ إِنِّي جَاهِدُ غَيْرِي مُنْقِطِعٍ . وَكُلُّ أَرْضِي لِي تَفَرُّ طَرَسُوسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِمُ آَنُفُسَكُمْ وَتَلَبُّوا
الشَّرْكَ كَافَّةً كَمَا يَفْعَلُونَ كَافَّةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال لغوام : لَا تَقْلِبُوا فِي بَعْضِ الشُّهُورِ أَنْفُسَكُمْ ، يعنى بارتكاب الزُّلَّة . وأما
الغواص فأمورون لَا يَنْتَلِبُوا فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ قُلُوبَهُمْ بِاحْتِقَابِ الْغَفَةِ ^(٢) .

ويقال : الظلم على النفس أن يجعل العبد زمامه بيد شهبائه ، فتورده مواطن
الهلاك .

ويقال : الظلم على النفس بضمة المخلوقين بدل طاعة الحق .

ويقال : مَنْ ظَلَمَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْمُضَاجَعَاتِ اسْتَحِينَ بِمَسْرِ الصَّفْوَةِ فِي مَرُورِ الْأَوَاقَاتِ .

« وَتَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » : وَلَا سِلَاحَ أَمْضَى عَلَى الْعَمَلِ مِنْ تَبَرُّكِكَ مِنْ
حَوْلِكَ وَقَوْلِكَ .

(١) وردت (البقاء) وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (العبد) والصواب أن تكون (الغفلة) ، فالغفلة قلب وإزالة نفس

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ (١) زيادة في الكفر
يُصَلُّ به الذين كفروا يحولونه عاماً
ويُخَرِّمونه عاماً ليؤاخذوا عدّة
ما حَرَّمَ الله فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ الله ،
ذُنَّ لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي
القوم الكافرين .

الذين ملاحظة الأمر ومجانبة الوزر وترك التندم (٢) بين يدي الله سبحانه - في جميع
أحكام الشرع ، فالأجل في الطاعنة مضروبة ، والتوفيق في عرفاته متبوع ، والصالح
في الأمور بالإقامة حل نست العبودية ، فالشهر ما سمّاه الله شهراً ، والعام والحول ما أعلم
انطلق أنه قدّر ما بينه شرهما .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا
قِيلَ لَكُمْ افْعَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرَضَيْكُمْ بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُوا
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ .

عاقبتهم على ترك البدار عند توجيه الأمر ، واتهاز فرصة الرخصة .
وأمرهم بالجهد في العزم ، والتقصير في الفعل ، فالجنوح إلى التكسل ، والاسترواح إلى
التثاقل أملاوات ضحك الإيمان إذ الإيمان غريم ملازم لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشق ،
وملابسة الحق .

قوله « أَرَضَيْتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا » : وهل يُصَلُّ بالمعبد أن يفتار دنياه على عقباء ؟
وهل يحسن بالعلوف أن يؤثّر هواه على رضا مولاه ؟ وأنشدوا

(١) النسى = تأخير حرمة الله إلى شهر آخر ، فقد كانوا إذا حل شهر حرام وم عاديون أحلوه
وحرّموا مكانه شهراً آخر
(٢) أى عدم استجدال غيره موفرت بأمر الله وشرعه .. هنا ما تنبه من السباق

أَجْمَلُ بِالْأَحَابِ مَا قَدْ فَلُوا مَضَوْا وَانصَرَفُوا بِالْيَتَمِ قَتَلُوا
 إِنَّ غِيبةَ يومٍ لَزَاهِدٌ عَنِ الْبَابِ تَمْدِيلُ شَهْوَاً، وَغِيبةُ لحظةٍ لَعَارُفٍ عَنِ الْبِسَاطِ
 تَمْدِيلُ دَهْوَاً، وَأَنْشَدُوا :

الْإِلْفُ لَا يَصْبِرُ مِنْ إِلْفِهِ أَكْثَرُ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ
 وَقَدْ صَبَرْنَا عَنْكُمْ سَاعَةً مَا هَكَذَا قِيلَ عُجَيْنِ

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَقْرَأُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾
 وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
 شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ إِذَا أَعْرَضَ بِالْعَبْدِ عَنِ الطَّاعَةِ الْآيِمِثِ وَرَاهِمٍ مِنْ جُنُودِ التَّوْفِيقِ
 مَا يَرُدُّهُ إِلَى الْبَابِ .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ أَنْ يَسْلُبَهُ حُلَاوَةُ التَّجْوِي إِذَا آتَى .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الصَّدُودُ يَوْمَ الْوُرُودِ ، وَقِيلَ :

وَأَعْدُونِي بِالْوَصَالِ — وَالْوَصَالُ عَذَابٌ — وَرَمَوْنِي بِالشَّدُودِ وَالصَّدُودُ صَبٌّ

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْوَعْدُ بِالْفِرَاقِ ، فَأَمَّا نَفْسُ الْفِرَاقِ فَهُوَ تَعَامُّ التَّلَفُّو ، وَأَنْشَدُوا :

وَزَعَمْتُ أَنَّ الْبَيْنَ مِثْلَكَ غَدَاً هَدَدٌ بَيْنَكَ مَنْ يَبِيشُ غَدَاً

قوله : « وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » بِصَرَفٍ مَا كَانَ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ أَشْكَالِهِ ،
 وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَقَرَ بَرًّا يَشْرَبُ مِنْ مَعِيْنَتِهَا ، وَأَنْشَدُوا :

تَسْفِي رِيَّاحِينَ الْإِفْطَاطِ مَدَامِي وَسَوَايَ فِي رَوْضِ التَّوَاصُلِ يَرْتَعِ

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾

إِذَا أَخْرَجَ الْدِّينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ

إِذَا هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ

لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَانَا .

مِنْ عَزِيْزٍ تِلْكَ النَّصْرَةُ اَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْنِسْ بِنَاصِيَةِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ بَلْ رَدَّ الصَّدِيْقَ اِلَى اللهِ ،
وَنَهَاهُمْ عَنْ مَسَاكِنَتِهِ اِيَّاهُ ، قَالَ : مَا ظَنُّكَ بِاٰثِنِيْنَ اللهِ ثَالِثِيْهُمَا ؟

قَالَ تَعَالَى : « اِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ اِنْ اَللهُ مَعَنَا » .

وَيَقَالُ مِنْ تِلْكَ النَّصْرَةِ اِبْقَاؤُهُ اِيَّاهُ فِي كَشْرَفَاتِهِ فِي تِلْكَ الْحَلَقَةِ ، وَلَوْلَا نَصْرَتُهُ لَنَلَاثَى تَحْتَ
سُطُوَاتِ كَشْفِهِ .

وَيَقَالُ كَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — اَمَانَ اَهْلَ الْاَرْضِ عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، قَالَ تَعَالَى :

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » ^(١) ، وَجِلَّهُ — فِي الظَّاهِرِ — فِي اَمَانِ الْعَسْكَوْتِ
حِينَ لَسَّحَ خَيْطُهُ عَلَى بَابِ الْغَارِ فَخَلَّصَهُ مِنْ كَيْدِهِمْ .

وَيَقَالُ لَوْ دَخَلَ هَذَا الْغَارُ لَا نَشَقُّ نَسِيْجَ الْعَسْكَوْتِ . . فَيُجِيبُ كَيْفَ سَتَرَ قَصَّةَ حَبِيْبِهِ —
مَلُوَاتِ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ١٩

وَيَقَالُ صَحِيْحٌ مَا قَالُوا : لِبَقَاعِ دَوْلٍ ، فَمَا خَطَرَ بِيَالِ اَحَدٍ اَنْ تِلْكَ النَّارُ تُصْبِرُ مَاوِيَ ذَلِكَ
النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١ وَلَكِنَّهُ يَخْتَصُّ بِمُسْتَهْ مَا يَشَاءُ كَمَا يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَنْ يَشَاءُ .

وَيَقَالُ لَيْسَتْ الْغَيْرَانُ ^(٢) كُلُّهُمَا مَاوِيَ الْحَيَاتِ ، فَفَنَهَا مَا هُوَ مَاوِيَ الْاَحْبَابِ . وَيَقَالُ عُلِقَتْ
قُلُوْبُ قَوْمٍ بِالْعَرْشِ فَطَلَبُوا الْحَقَّ مِنْهُ ، وَهُوَ تَعَالَى يَقُوْلُ :

« اِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ اِنْ اَللهُ مَعَنَا » فَهُوَ سُبْحَانَهُ — وَاِنْ تَهَدَّسَ عَنْ كُلِّ مَكَانٍ —
وَلَكِنْ فِي هَذَا الْخَطَابِ حَيَاةٌ لِأَسْرَارِ اُرْبَابِ الْمَوَاجِدِ ، وَآثَدُوا :

يَا طَالِبَ اللهِ فِي الْعَرْشِ الرَّفِيعِ بِهِ لَا تَطْلُبِ الْعَرْشَ اِنْ الْمَجْدَ فِي النَّارِ

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْقِيْقِ مَحَبَّةِ الصَّدِيْقِ — رَضِيَ اللهُ عَنْهُ — حَيْثُ سَمَّاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ
صَاحِبَةً ، وَهَدَّاهُ ثَانِيَةً ، فِي الْاِيْمَانِ ثَانِيَةً ، وَفِي النَّارِ ثَانِيَةً ثُمَّ فِي الْقَبْرِ ضَجِيْعَةً ، وَفِي الْجَنَّةِ
يَكُوْنُ رَفِيْقَةً .

(١) آيَةُ ٣٣ سُورَةِ الْأَنْعَامِ

(٢) النَّارُ يَجْمَعُ عَلَى أَغْوَارٍ وَغَيْرِهَا

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾

السكينة في الهاء من « عليه » تعود إلى الرسول عليه السلام ، ويحتمل أن تكون هاءة إلى الصديق رضى الله عنه ، فإن حُجِّلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الأفراد ، فقد قال عز وجلّ : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين »^(١) .

وقال للصديق — على التخصيص — فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ يَجْعَلُ لِنَاسٍ مِثْلَهُ وَيَجْعَلُ لِأَبِي بَكْرٍ خَاصَةً »^(٢) .

وإنما كان حزنُ الصديق ذلك اليوم لأجل الرسول — صلى الله عليه وسلم — إشتاقاً عليه .. لا لأجل نفسه . ثم إنه — عليه السلام — نفي جزئه وسلاّه بأن قال : « لَا تَحْزَنُ إِنْ اللَّهُ مَعَنَا » ، وَحُزْنٌ لَا يَنْهَبُ إِلَّا لِيَمِيَةِ الْحَقِّ لَا يَكُونُ إِلَّا « لِحَقِّ الْحَقِّ »^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلَّمَ اللَّهُ الْحَكِيمَ

الْعَلِيَّ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يريد به النبى صلى الله عليه وسلم . وتلك الجنودُ وفودُ زوائد اليقين على أسراره بتجلى المكشوفات .

« وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى » بإظهار حُجَجِ دِينِهِ ، وَتَعْيِيدِ سُبُلِ حَقِّهِ وَيَقِينِهِ ، فَرَايَتْ الْحَقُّ إِلَى الْأَبَدِ عَالِيَةً ، وَتَوَحَّيَاتِ الْبَاطِلِ وَاحِيَةً ، وَحُزْبُ الْحَقِّ مُنْصَوِّرُونَ ، وَوَفْدُ الْبَاطِلِ مَقْهُورُونَ .

(١) آية ، سورة الفتح

(٢) يُضَافُ كَلَامُ التَّشْيِيرِ مِنْ خُصُوصِيَّةِ أَنْ يَكُرَّ بِتَرْوُلِ السَّكِينَةِ عَلَى قَلْبِهِ بِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ يَوْمٍ يَوْمٍ ، لِهَيْبَتِهَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ « أَهَمُّ أَنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَمْ تَبْدَعْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : دَخَلَ مِنْكَ مَنَاحِدُكَ وَبِكَ ذِيْنَةُ اللَّهِ مِنْجَرُكَ مَا وَعَدَكَ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِذْ يَدْعُو بِكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يُمْسِكُوا هَٰؤُلَاءِ لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ » سَأَلَنِي فِي تَرْوِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ [مُسَلِّمٌ وَالتَّرَمُّنِيُّ عَنْ ابْنِ جَبْرِ عَنْ عَمْرِو] (٣) لِأَنَّهُ لَيْسَ حَزْنًا مُرْتَبَطًا بِحَقٍّ مِنْ حَقُوظِ النَّفْسِ وَلَكِنَّهُ لِحَقِّ الْحَقِّ

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام في التلوة ، وأشرقت على بيته أنوار محبة :
الرسول عليه السلام ، ووقع عليه شمع أنواره ، واشتاق إلى الله تعالى لفقد قراره — أزال
عنه لواحيه بما أخبره من قربه — سبحانه — فاستبدل بالقلق سكونا ، والشوق أنسا ،
وأزال عليه من السكينة ما كشفه به من شهود الهيبة .

ويقال كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثانيا اثنين في الظاهر يشبهه^(١) ولكن كان
مُتَّهَكًا الشاهد في الواحد بغيره .

قوله جل ذكره : ﴿ اغْرُوا خِفَافًا وَثِقَلًا وَجَاهِدُوا

بَأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أمرهم بالقيام بمهته ، واللبدار إلى أداء أمره في جميع أحوالهم .

« خفلا » يعنى في حال حضور ظهركم ، فلا يحسبكم نصيب المجاهدات .

« وثقلا » إذا رُدُّوكم إليكم في مقاساة نصب المكابذات . فإن البيعة أُخِذَتْ عليكم
في (...) و (...) (٣) .

ويقال « خفلا » إذا تحررتهم من رِقِّ المطالبات والاختيار ، « وثقلا » إذا كان على ظهركم
ثقل الحاجات ، وأنتم تؤمّنون فضله الحقّ حارّ بكم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ كُنَّا عَرَفْنَا قَرِيبًا وَسَفَرًا فَنَاصُوا

لَا تُبَيِّمُوا وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ
الشُّقَّةُ وَسُحِّلَ لَهُمُ الْيُسْرَى فَوَاسْتَفْتَنُوا
نَفَرًا مِّنْهُمْ يُلِيكُونَ أَنْفُسَهُمْ
وَاللَّهُ يَتْلُو لَهُمْ الصَّحْفَ لَكَذِبُونَ ﴾

(١) يشبهه) هتاما بما بارئان منه . أى كالأُنس — في الظاهر بخاصة ، وعلى الحقيقة كان أنس باقة .

(٢) ، (٣) لفظة تان مفتحةتان ، وربما كانتا بمعنى (حضوركم وحيثكم) أو (قرعكم وبدمكم) أو نحو ذلك .. فهكذا نفهم من السياق .

يريد به المتخلفين عنه في غزوة « تبوك » ، يبين سبحانه أنه لو كانت للساقية قرية ،
والأمر شيئاً لم تخلفوا عنك ؛ لأن من كان غير متحقق في قصده كان غير بالغ في جهده ،
يمش على حرفه ، ويتمصرف بحرف ، فإن أصابه خير أطمأن به وإن أصابته فتنة أقلب
على وجهه . وقال تعالى : « فإذا عزم الأمر فولدو صدقوا الله لكان خيراً لهم » (١) .

فإذا رأيت للريد ينبع الرخص ويخرج إلى الكسل ، ويتملأ بالتأويلات . . فاعلم أنه
منصرف عن الطريق ، متخلف عن السلك ، وأنشدوا :

وكذا أنقول إذا أراد قطيعةً . ملّ الوصال وقال : كان وكانا

ومن جد في الطلب لم يخرج في أوطان الفشل ، ويواصل السيد والسرى ، ولا يمنش
من مقاساة السكد والعناء ، وأنشدوا :

ثم قطعت الليل في مهنة لا أسداً أخشى ولا ذيباً

ينلبي شوق فأطوى السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوباً

قوله : « وسيفعلون بالله لو استطعنا فخرجنا معكم يهلكون أنفسهم » : عين للتأمل
والشأن أول عين فاجرة تشهد بكنهها هيون الفراسة ، وتنفر منها القلوب ، فلا تجد من
القلوب خلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لِمَ حَتَّى

يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَتَعْلَمَ

الكَاذِبِينَ ﴾

لم يكن منه صلى الله عليه وسلم خرقٌ بعد أو تمايلٌ مظهري ، وإنما (نذر) (٢) منه ترك
ما هو الأولى . قدم الله ذكر النور على اللطاب التي هو في صورة العتاب بقوله : « لِمَ
أَذْنَتْ لِمَ » .

أو من جواز الزلة على الأنبياء — عليهم السلام — إذ لم يكن ذلك في تبليغ أمر

(١) آية ٢١ سورة محمد

(٢) هكذا في (س) وربما كانت (يد) في الأصل أي صدره أما (نذر) فتعبد (قل) منه ترك
ما هو الأولى ، وكلاماً لا يفهمه السامع .

أو تمديد شرع (بقول الله أنشدوا بالغزو قبل أن وقف ههنا)^(١) وكذا سنة الأحاب
مع الأحاب ، قال فأنهم :

ما حطك الواشون من رتبة عندي ولا ضررك مقتاب
كأنهم أثنوا — ولم يملوا — عليك عندي بالي عابوا
ويقال حسنت الأعداء — وإن كانت حسنت — فكللردوة ، وسينات الأحاب
— وإن كانت سينات — فكللنورة :

من ذا يؤخذ من يحب بذنبه وله شنيع في النواد شفع
قوله جل ذكره : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله
واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم
وأ أنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾
المخلص في عقده غير مؤثر شيئاً على أمره ، ولا يذخر مستطاعاً في استغراق وسعه ،
وبذل جهده ، ومقاساة كده ، واستعمال جده .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون
بالله واليوم الآخر ولوليت قلوبهم
فهم في ريبهم يترددون ﴾
من رام من عهدة الإلزام خروجاً أنهز لتأخير والتخلف فرصة لعدم إيمانه وتصديقه ،
ولا استسكان الريبة من قلبه وسيره . أولئك الذين يتقلبون في ريبهم ، ويترددون في شكهم .
قوله جل ذكره : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾
أي لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ، ولكن سقيت لإرادتهم ،
لحصلت دون الخروج بلادهم ، وكذلك قيل :

لو صح منك الهوى أُرشدت للحبيل

(١) ما بين التوسين مثبت كما في (س) وفيه اضطراب تقى عن السخ ، وربما كان شاهداً شريعياً
معناه : (جاد بالغزو قبل الوقوف على المنز) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَٰكِنَّ كَرَّةَ اللَّهِ إِنبَاءٌ لِّمَن فُتِنَ بِهِمْ ۚ وَبِقِلَاسٍ نَّحْصُرُهُمْ ۚ وَبِقِلَاسٍ نَّحْصُرُهُمْ ۚ وَبِقِلَاسٍ نَّحْصُرُهُمْ ۚ ۝۱۰۰ ﴾

أَرْزَمَهُمُ الْخُرُوجَ مِنْ حَيْثُ التَّكْلِيفِ ، وَلَكِنْ ثَبَّتَهُمْ فِي بَيْتِهِمْ بِطُغْيَانٍ ؛ فَبِالْإِزَامِ دَعَامَ ، وَيَأْمُرُ التَّكْوِينَ أَهْصَامَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ۚ وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبِئْسَ ثَمًّا ۚ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝۱۰۱ ﴾

أَخْبَرَ عَنْ سَابِقِ حَلْفِهِمْ ، وَذَكَرَ مَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ أَنَّ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ؛ فَقَالَ : وَلَوْ سَاعَدُوكُمْ فِي الْخُرُوجِ لَكَانَ مَا يُلْحَقُكُمْ مِنْ سُوءِ سَهْوِهِمْ فِي التَّنْتِنَةِ بِضَمِّكُمْ ، وَالْغَيْبَةِ فِيكُمْ ، وَالسَّيِّئَةِ فِيكُمْ يَسُوءُكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا نَالَكُمْ بِتَغْلُفِهِمْ مِنْ قَصْدِ عَدَدِكُمْ . وَمِنْ ضَرَرِهِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ فَعَدَمُهُ خَيْرٌ مِنْ وَجُودِهِ ، وَمَنْ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ شَيْءٌ غَيْرُ شَرِّهِ فَتَغْلُفُهُ أَفْضَلُ مِنْ حَضْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ ابْتَنَوْا التَّنْتِنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُوَ كَرِيمٌ ۝۱۰۲ ﴾

إِنَّهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا وَفَقَّحُوا قَدْ اسْتَطْبَعُوا نِقَاقَكُمْ ؛ أَهْلَنُوا أَنَّهُمْ يَزِيدُونَكُمْ وَلَكِنْ دَامُوا بِكَيْدِهِمْ تَشْوِيشَ أُمُورِكُمْ ، حَتَّى كَشَفَ اللَّهُ حُورَاتِهِمْ ، وَقَضَّاهُمْ ، حَتَّى تَحْدَرْتُمْ مِنْهُمْ بِمَا تَعْتَمِدُ مِنْ أَمْرَادِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ إِنَّا نَدْنُوهُ وَلَا تَنْفِثُيْ ۚ أَلَا فِي التَّنْتِنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جِئْتُم بِالْحَكِيمَةِ بِالْكَافِرِينَ ۝۱۰۳ ﴾

أبرزوا قبيحَ ضالمٍ في معرض النخرج ، وداموا أَنْ يُلبَّسُوا على الرسول — صلى الله وسلم وعلى آله — وعلى المسلمين خُبثٌ^(١) سيرتهم وسريرتهم ، قَبَّيْنُ الله أَنْ الدين (...)»^(٢) يزعمهم سقطوا فيه بفعلهم ، وكذلك المتجلدُ بما يهواه متطوح في وادى بلواه ، وسيلقى في الآخرة من الهوان ما يفي عن الحاجة إلى البرهان .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُومُ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَبِتَوَلَّوْا وَمَنْ فَرَحُونَ ﴾

هكذا صفة الحسود ، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى ، ولا يهتر قلبه غير حلولِ البلوى ، ولادواء لجروح الحسود ؛ فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا :

كلُّ الداوةِ قد رُتِجَ إيمانُها إلا عداوةَ مَنْ عاداك من حَسَدٍ

وإن الله تعالى عجلَ عقوبةَ الحاسد ، وذلك : حزنُ قلبه بسلامة محسوده ؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

المؤمن لا تلحقه شمانةُ عدوه لأنه ليس يرى إلا مرادَ ولِّه ، فهو يتحقق أن ما يناله مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبه ما يهواه ، ويستقبله بروحِ رضاه فيعذبُ عنده ما كان يصعبُ من بهواه ، وفي مناه أشدوا :

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالِ حَسَدُنَا فَا لِيُخْرِجْ — إِذَا أَرْضَاكُمْ — أَلَمْ

(١) وردت (حيث) وهي خطأ في النسخ
(٢) مشقة .

(٣) أي جزاء مجعل في هذه الدنيا ؛ فتد التشرى اصطلاحاً : تد (هنا في الدنيا) ، ووعد (في الآخرة) والسيلقى يؤدي إلى أو الجزاءين تد .

ويقال شهود جريان التدبير يخفف على العبد تعب كل عسير .

قوله : « هو مولانا » : تعرف للعبد أن له — سبحانه — أن يفعل ما يريد ، لأنه تصرف مالك الأعيان في ملكه ، فهو يُبدي ويُجوي ما يريد بحق حكمه .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : وأول التوكل الثقة بوعده ، ثم الرضا باختياره ، ثم تسليم أموركم بما ينلّب على قلبك من أذكلوه .

ويقال التوكل مكنون السر عند حلول الأمر ونهاية التفويض ، وفيها يتساوى الحلو والحر ، والنعمة والهنّة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَهَمَّ تَرَبُّونَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيِّدِنَا فَرَبُّونَا إِنَّا نَعْمُ مُرَبُّونَ ﴾

بَيَّنَّ اللهُ في هذه الآية الفرقَ بين المؤمنين وبين الكفار ، فقال قُلْ للذين ينتظرون : أيها الكفار (إن كان^(١)) من شأن المؤمنين وقوعُ الفاترة عليهم في القتال ، أو أن القتل ينالهم فأى واحد من الأمرين ينالهم فهو لهم من الله نعمة ؛ لأننا إن كفرنا بكم فنصر وغنيمه ، ورحمنا لدين ورفعة ، وإن قتلنا فشهادة ورحمة ، ورضوان من الله وزلفى . وإن كنتم إلى يصيبنا في الدنيا هزيمة ونكبة ، فذلك موجبٌ للأجر والثوبة ، فإذا كنتم يستعملنا إلا ما هو حسنى ونعمة .

وأما أنتم ، فإن ظفرنا بكم فتعجيلٌ لذلك رحمة ، وإن قتلتم فغوبة من الله وسخطة ، وإن كانت اليد لكم في الحال فخذلان من الله ، وسبب عذاب وزيادة قسوة .

ويقال « هل ترهبون بنا إلا إحدى الحسينين » إما قيام بحق الله في الحال فكون بوصف الرضاء وهو — في التحقيق — الجنة الكبرى ، وإما وصول إلى الله تعالى في المسأل بوصف الشهادة ، ووجوب الزلفى في البقي وهي الكرامة العظمى .

(١) سقطت (إن كان) والمعنى يتظاهرها .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

المردود لا يُقبلُ منه توصل^(١) ، ولا يُغَيَّرُ حُكْمُ شَقَاوَتِهِ بِكَثْرَةِ التَّكْلُفِ والتَّمَلُّصِ .
ويقال تَقَرُّبُ الْعَدُوِّ يَوْجِبُ زِيَادَةَ الْمَتِّ لَهُ ، وَنَحْبُوبُ الْحَبِيبِ يَنْتَضِي زِيَادَةَ الْحَلْفِ عَلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَى : « فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . »^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ . »

قَدُوا الْإِخْلَاصَ فِي أُمُورِهِمْ فَدَسَمُوا الْإِخْتِصَاصَ فِي أَحْوَالِهِمْ ، وَحَرَمُوا الْإِخْلَاصَ فِي عَاجِلِهِمْ وَفِي مَآكِلِهِمْ .

قوله : « وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى » : مَنْ أَطَاعَ مِنْ حَيْثُ الْمَادَّةِ — مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِلَ عَلَيْهِ لَوْعَةُ الْإِرَادَةِ — لَمْ يَجِدْ لَطَافَةً رَاحَةً وَزِيَادَةً .

وَيَقَالُ مَنْ لَاحَظَ اتِّفَاقَ فِي الْجَهْرِ مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَرَكَعَ إِلَى الْكُسَالَى فِي السِّرِّ مِنْ أَحْوَالِهِ قَدْ وُيِّسَ بِالْخِلَافَانِ ، وَخَنِمَ بِالْحَرَمَانِ ، وَهَذِهِ أُمُورُ الْفِرْقَةِ وَالْقَطِيعَةِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَمَكُرُوا بِكَرْهٍ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِلْمُكَرِّهِينَ »^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَحْبِيكْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَكَّاهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ ﴾

(١) لَا لِتَجِدُ أَنَّهَا تَكُونُ (تَوَسَّلَ) بِدَلِيلٍ مَا بَعْدَهَا ، وَالْمُرَادُ بِحَبْلِ كَلِمَتِهَا .

(٢) آيَةُ ٧٠ سُورَةِ الْفُرْقَانِ .

(٣) آيَةُ ٤٤ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

يَبَيِّنُ أَنَّ مَا حَسِبُوهُ نَصَةً وَاعْتَدُوهُ مِنْ اللَّهِ مَنَّةٌ فَهُوَ — فِي التَّحْقِيقِ — مِحْنَةٌ ، وَسَبَبُ شِقَاؤِهِ وَفُرْقَةٍ ، وَإِنَّمَا دَسَّ التَّقْدِيرُ لَهُمُ مَحْمُومَ الصَّالِبِ ، فَيَا اسْتَغْلَوْهُ مِنَ الشَّرَابِ ؛ « أَيْحَسِبُونَ أَنَّ مَا يُعَذِّبُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِآلِهِ إِنَّهُمْ لَأَنْبِيَائُكُمْ وَمَا مِنْكُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنْهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ .

التَّقَرُّبُ بِالْأَيَّانِ الْعَاجِزَةِ لَا يُوجِبُ لِلْقُلُوبِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الْقَبُولِ .

وَيَقَالُ إِنَّ إِيْظَارَ التَّلْيِيسِ لَا (. . .) (٢) الْأَمْرَ بِرُكُودِ السَّكُونِ ، وَلَا يَشْفِي الْبَصَائِرَ بِرُكُودِ النُّفُوسِ وَالْيَقِينِ . . . فَالَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا ، وَمَا هُوَ كَأَنَّ سَيَكُونُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ يَسْمَعُونَ مَلَكًا أَوْ مَقَارِنَ أَوْ مُنَادًى يَأْتِيهِمْ بِهِمْ لَيَمَسُّنَّ آلَهُمْ وَلَهُمْ فِي السَّاعَةِ النَّارُ ﴾ .

إِنَّ الْمُنَادِيَ (٣) فِي الْخَلَّةِ يَنْسِلُ عَنْ سِلْكَيْهَا بِأَضْفِ خَلَّةٍ ، وَإِنْ وَجَدَ مَهْرَبًا أَقْوَى إِلَيْهِ ، وَيَأْمُلُ أَنَّ يَنَالُ فُرْصَةً مَا يَجْعَلُ بِهَا عِنْدَ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَفْخِمُونَ ﴾ .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَطْمَاعِ ، يَتَمَلَّقُونَ فِي الظَّاهِرِ مَا دَامَتِ الْأَرْفَاقُ وَاصِلَةً إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ انْقَطَعَتْ أَهْلَبُوا كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ .

وَيَقَالُ مَنْ كَانَ رِضَاؤُهُ بِوَجْدَانٍ سَبَبٌ ، وَسُخْطُهُ فِي عَدَمِ مَا يَرْصُلُهُ إِلَى نَصْبِهِ فَهُوَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوَلَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ غَائِمٌ بِحُفَّتِهِ ، غَوْرٌ صَالِحٌ لِلصَّحْبَةِ ، وَأَمَّا لِلتَّحْقُقِ فَكَمَا قِيلَ :

فَصِيرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَالِ وَسَارَ سَوَائِي فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ ﴾ .

(١) مشقبة .

(١) آية ٥٩ سورة الزمزم

(٢) منقذ فلان في الرد أي لم يخلص ، والمناق الكذب الملول . والمعصود أن من لم يخلص في مودته يتصل بأضف صفة ولأقل شيء .

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٢٠﴾

لو وقفوا مع الله بِسَرِّ الرضا لَأَتَتْهُمْ فَتُونُ العطاء وتحقيقات المني ، ولحفظوا مع الله — عند الوجدان^(١) — ما لهم من الأذى ، من غير مائة نصيب ، ولا مقياسة نصيب .. ولكنهم هَرَجُوا في أوطانِ الطمع فوقوا في الدُّلِّ والحرب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّهَابِ ﴾^(٢)

تسكَّم الفقهاء في صفةِ الفقير ، والفرق بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه في قسمة الزكاة المفروضة . فابو حنيفة رحمة الله عليه — يقول : المسكين الذي لا شيء له . والفقير الذي له بُلْعَةٌ من العيش .

ويقول الشافعي رحمة الله عليه : الفقير الذي لا شيء له ، والمسكين الذي له بُلْعَةٌ من العيش — أي بالعكس .

وأهل المعرفة اختلفوا فيه ؛ فبعضهم من قال بالأول ، ومنهم من قال بالثاني ، واختلفوا ليس باختلاف الفقهاء ؛ وذلك لأن كل واحد منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده وشره ومقامه . فمن أهل المعرفة من رأى أن أخذَ الزكاة المفروضة أولى ، قالوا إن الله تعالى جعل ذلك لمسكٍ للفقير ، فهو أحلُّ له مما يُنطَوِّعُ به عليه .

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة مسنحة لأقوام ، ورأوا الإيثار على الإخوان أولى من أن يزاوجوا أرباب السهمان — مع احتياجهم أخذَ الزكاة — وقالوا : نحن آثرنا الفقرَ اختياراً .
كَلِمَةٌ نَأْخُذُ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ؟

(١) أي عند وجود التمسك

(٢) قلنا النظر إلى أهمية موقف الفقير عند استخراج إشارات من هذه الآية الكريمة ، فقد كانت فرصة جيدة لكي يقاوم بين نظرة الفقهاء ونظرة المصوفية

ثم على مقتضى أصولهم في الجملة — لا في أخذ الزكاة — لفقر مراتب :
 أوَّلُها الحاجةُ ثم الفقرُ ثم للسكنةُ ، فذو الحاجة من يرضى بدينه وتسُدُّ الدنيا فقره ،
 والفقر من يكتفي بقبلة وتَجِبُ الجنةُ فقره ، وللسكين من لا يرضى بنهر مولاة ؛ لا إلى
 الدنيا يلتفت ، ولا بالآخرة يشتغل ، ولا بنهر مولاة يكتفي ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » ^(١) وقال صلى الله عليه
 وسلم « أعوذ بك من الفقر » لأن عليه بقية ^(٢) ؛ فهو يقيته محبوبٌ عن ربه .

ويمكن أن يقال إن الفقر الذي استعاض منه ألا يكون له منه شيء ، والمسكنة المطلوبة
 أن تكون له بِلَغَةٍ لينفِرَ بوجود تلك البلغة إلى العبادَةِ ؛ لأنه إذا لم تكن له بِلَغَةُ شَقْلِهِ
 فقره عن أداء حقه ، وذلك استعاض منه .

وقوم سَتَّ حِمَمُهُم عن هذا الاعتبار — وهذا أوَّلُ بأصولهم — فالفقير الصادق
 حنوم من لا حماء تظله ولا أرض تَقْلُهُ ولا مطعم يشقه ، فهو عبدُ الله لله ، يرثه إلى التمييز
 في أوان العبودية ، وفي غير هذا الوقت فهو مُصَلِّمٌ عن شواهد ، واقِفٌ بربه ، مُتَشَقِّقٌ
 من جلته .

ويقال الفقير من كَثُرَتْ فقره — هذا في العريية .

والفقير — حنوم ^(٣) — من سَقَطَ اختياره ، وتسلطت عنه ديلره ، واندرست —
 لاستيلاء من اصطلمه — آثاره ، فكأنه لم تبق منه إلا أخباره ، وأنشأوا :
 أما الرسومُ فَخَبَرْتُ أنهم رحلوا قريباً

ويقال المسكين هو الذي أسكنه حاله بياب مقصوده ، لا يبرح من سدَّته ، فهو مُتَكَيِّفٌ
 بقلبه ، لا يفتل لحظة عن ربه .

(١) الترمذي ، وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري والمالك وقال صحيح الإسناد ، ورواه الطبراني
 بسند رجاله ثقات عن مباداة بن الصامت .

(٢) نالت السهروردي إلى ذلك حين ميز بين الفقير والصوف فقال إن الفقير يتطلع إلى الأعراس ،
 أما الصوف فيترك الأشياء لا للأعراس للوهدة بل للأحوال الموجودة فإنه أين وقته ، والفقير له إرادة
 في اختيار فقره ، أما الصوف فلا إرادة بنفسه ولكن فيها يوتقه الحق (حوارف الماروف ص ٤٢) .

وأما «الماملون عليها» فعلى لسان العلم : مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المألوفة .
وعلى لسان الإشارة : أوتى الناس بالتصاؤن من أخذ الزكاة مَنْ صدَّق في أعماله لله ، فإنهم
لا يرجون على أعمالهم عوضاً ، ولا يتطلبون في مقابلة أحوالهم عوضاً ، وأنشدوا :

وما أنا بالباهى على الحب رشوةً قبيح هوى يرحى عليه ثواب^(١)

وأما المثلثة فلوهم — على لسان العلم — مَنْ يُستأَلُّ قلبه بنوع إرفاقٍ معه ، لينصرف
في الدين نشاطه ، فله من الزكاة سهمٌ استطاعا لم ، وبيان ذلك مشهور في مسائل الفقه .
وحلنا أن يكون في القوم^(٢) مَنْ يكون حضوره بسبب طمع أو لنيل ثواب أو لرؤية
مقام أو لاطلاع حل . . فذلك في صفة العوام ، فأما الخواص فكما قالوا .

من لم يكن بك فانياً عن حظه وعن الهوى والإنس والأحباب
أوتيته صباية جمعت له ما كان مفترقا من الأسباب .
فلأد بين المراتب واقف ليمتار حظاً أو لحسن مآب^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وفي الرقاب ﴾

وهم على لسان العلم : المكاتبون ، وشرحه في مسائل الفقه معلوم .

وهؤلاء^(٤) لا يتحررون ولم تخرج على سبب ، أو لم في الدنيا والتقوى أدب ، فبهم
لا يستغفروهم طلب ، فمن كان به بقية من هذه الجملة فهو عبد لم يتحرر ، قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعلى آله : « المكاتبُ عبيد ما بقي عليه حرم ، وأشد بضمهم :
أعني على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعة حر »

قوله جل ذكره : ﴿ والغارمين ﴾

وهم على لسان العلم : مَنْ عليهم دين في غير مصيبة .

(١) البيت للشيخ من إتيته إلى أوهها : من كن لى أن البياض خضاب

(٢) القوم هنا مقصود بها أرباب الأحوال .

(٣) الأبيات لأبي على الروزبارى (الشيخ من ٤٣٥)

(٤) وهؤلاء هنا مقصود بها أيضا أرباب الأحوال .

وهؤلاء القوم لا يقضون عنهم ما لزمهم امتلاك الحق^(١) ، ولهذا قيل للعرفة غريم لا يقضى دينه .

قوله جل ذكره : ﴿ وفي سبيل الله ﴾

وعلى لسان العلم : مَنْ سلك سبيلَ الله وَجِبَ له في الزكاة سهمٌ على ما جاء بيانه في مسائل الفقه .

وفي هذه الطريقة : مَنْ سلك سبيلَ الله تَوَجَّبُ عليه للطالبات ؛ فينبذل أولاً ماله ثم جلته ثم نفسه ثم روحه . . . وهذه أول قَدَمٍ في الطريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وابن السبيل ﴾

وهو على لسان العلم : مَنْ وقع في الغربة ، وفارق وطنه على أوصاف مخصوصة .

وعند القوم : إذا تَقَرَّبَ العبدُ من مألوفات أوطانه فهو في قَرَى^(٢) الحق ؛ فالجوع طعامه ، والظلمة مجلته ، والحبّة شرابه ، والأُنْسُ شهوده ، والحقُّ — تعالى — مشهوده . قال تعالى : « وسقام ربهم شراباً طهوراً »^(٣) : قومٌ وَعدُ في الجنة ، ولآخرين نَقْدُ في الوقت ؛ اليوم شرابُ الحبِّ وغداً شرابُ التواب ، وفي مناله أنشدوا :

وَمُقَعْدٍ قَوْمٍ قَدَمْشَى مِنْ شَرَابِنَا وَأَمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَا
وَأُخْرَسَ لَمْ يَنْطِقْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَذَرْنَا عَلَيْهِ الْكَاسَ يَوْمًا فَأَخْبَرَا

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون .

هو أَذُنٌ ﴾

عين العداوة بالسوى مَسَكَّةٌ ، وعين الرضا من المايب كلية .

يسطوا اللائمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ضايوه بما هو أمانة كرمه ، ودلالة فضله ،

(١) أي أن دينهم ليس يعفى أبداً إذ أكرم بيد مالكم .

(٢) القرى = الضيافة والإكرام .

(٣) آية ٢١ سورة الإنسان .

فقالوا : إنه بحسن خلقه يسع ما يقال له ، فقال عليه السلام : « المؤمن غرٌ كريم والمنافق نجسٌ لئيم »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَذْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يَوْمُنَا بِاللَّهِ وَيَوْمُنَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقيل : مَنْ العاقل ؟ قالوا : الْقَائِلُ السُّتَافِلُ . وفي معناه أُنشِءوا : وإذا الكريمُ أثبتته بخديعةٍ ولقيته فبا نودمٌ يُسارعُ فاعلمْ بأنك لم تُخادعِ جاهلاً إنَّ الكريمَ - فضله - يُخادعُ

قوله جل ذكره : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

أخبر أن من تزين للخلق ، وقرب إليهم وأدام رضام ، وأتبع في ذلك هوام ، فإن الله سبحانه يُسقط به عن الخلق جاهلهم ، ويُسبِّحهم فيما توهموا أنه يرضيهم ، والذي لا يفسعُ ما كان لله ، فأما ما كان لنبي الله فوبالٍ لينٍ أصابه ، ومحال ما طَلَبَه . ويقال إنَّ الخلق لا يصدقونك وإنَّ خلقت لم ، والحق يُقَبِّلُك وإنَّ خلقت عنه ؛ فلا تشتغل بالخلق محنة أنت غيرُ مأجورٍ عليها ، والإقبالُ على الحقِّ نعمة أنت مشكورٌ عليها . والمضنون من ترك ما يُشكرُ عليه ويؤثر ما لا يؤجرُ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَلْمُوا أَنَّهُ مِّنْ إِحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَغْرَأُ الْعَظِيمِ ﴾

(١) في رواية الترمذي والمسلم من أبي هريرة « المؤمن غر كريم والفاخر نجس لئيم »
(والنَجَسُ = السَّخِيعُ) وفي الحديث : « لا يدخل الجنة نجس ولا غاش »

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ فِي تَوْحِيدِهِ بِإِثْبَاتِ مُوهَبٍ اسْتَحَقَّ مَا هُوَ حَقُّهُ : تَسْجُلُ
عُقُوبَتُهُ فِي الْحَالِ بِالْفُرْقَةِ ، وَفِي الْمَأْكَلِ بِالْخُلُودِ فِي الْحَرَقَةِ .

فليس كلُّ مَنْ مُنِيَ^(١) بمصيبة يعلم ما ناله من الهنة ، وأنشأوا :

غَدَاً يَتَفَرَّقُوا أَهْلُ الْهَوَى وَيَسْكُتُ بِالْكَرِّ وَمُسْتَرْجِع

قوله جل ذكره : ﴿يَحْتَدِرُ النَّافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ،
قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّا اللَّهُ خُفِرْجُ
مَا نَحْنُزُونَ﴾

فَقُتُوا أَنْ الْحَقَّ — سبحانه — لَا يَضْمَحُهم ، فَذَلُّوا عَلَيْهِمْ ، وَأَنْكَرُوا مَا أَنْطَوَتْ عَلَيْهِ
مِرَارَتُهُمْ ، فَأَرَضَى^(٢) اللَّهُ — سبحانه — عَنْهُمْ إِسْهَالَهُمْ ، ثُمَّ هَتَكَ السَّرَّ مِنْ نَفَاقِهِمْ ، فَخَسَمَهُمْ
عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، فَخَسَمُوا بِخِيَارِ الْخُلُجِ ، وَكَشَفَ لِأَهْلِ التَّحْقِيقِ مَكَامِنَ الْأَعْتَابِ . وَنَسُوذُ
بِاللَّهِ مِنْ عُقُوبَةِ أَهْلِ الْإِعْتِرَارِ : دَمَكُوا وَمَكُوا اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِلْمَاكِرِينَ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

مَنْ اسْتَهْزَأَ بِاللَّيْنِ ، وَلَمْ يَحْتَسِبْ مِنْ تَرْكِ حُرْمَةِ الْإِسْلَامِ جَهْلَهُ اللَّهُ فِي الْحَالِ نَسْكَالاً ،
وَسَأَمَهُ فِي الْآخِرَةِ صِفْراً وَإِذْلَالاً ، وَالْحَقُّ — سبحانه — لَا يَرْضَى دُونَ أَنْ يَذِيقَ الْعُقَاةَ
بَأْسَهُ ، وَيَسْقِيَ كَلَّالاً — على ما يستوجبه — كَأْسَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَدْلِ إِبْرَاهِيمَ

(١) وودت (مضى) وهي خطأ في النسخ وربما كانت (مته)

(٢) وودت (فأرضى) وهي خطأ في النسخ .

(٣) آية ٥٤ سورة آل عمران .

إِنْ تَعَفَّيْ عَنْ عَاطِيَةٍ مِنْكُمْ فَتُغْفَرْ
عَاطِيَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا جُورِينَ ﴿١١﴾ .

جرّد العفو والمغاباة من علة الجزم ، وسبب الفعل من حجة العبد ؛ حيث أحال الأمر على الشبهة . . إذ لو كان للوجوب لغوه أو تصديقه صفة العبد كسوى بينهم عند تساويعهم في الوصف ، فلما أشتروا في الكفر بعد الإيمان ، وعنا عن بعضهم وعذب بعضهم كلّ على أنه يفضل ما يشاء ، ويختص من يشاء بما يشاء (٧) .

قوله جل ذكره : ﴿لِلنَّافِقِينَ وَالنَّفَاقَاتِ مِنْهُمْ رِزْقٌ
بِغَيْرِ يُأْمُرُونَ بِالشُّكْرِ وَیُنْهَوْنَ
عَنِ الْعُرُوفِ﴾ .

للزمن بالزمن يتفق ، وللنائق بالنائف يتماثل ، وطیور السهل على ألاها تقع .
لنائف لصاحبه أن (٨) به قوامه ، وأصل به قبله ؛ يبيّن على فساد ، ويقتضى عليه طريق رشاده .

وللزمن ينصر للزمن ويصمره صوبه ، ويختص له ويقتح — في حينه —
ذوقه ، وهو على السادر ينجده ، وعن الفساد ينجده .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ .

من طلب الموائج من الله تعالى

قوله جل ذكره : ﴿لَسَوْا اللَّهُ فَنَسِيَهُمْ﴾ .

جازام على لسانهم ، فسى جزاء النسيان لساناً . . تركوا طاعته ، وآثروا مخالفته ،
فتركهم وما اختاروه لأنفسهم ، قال تعالى : « وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ » .

(١) أخلاً الناسخ إذ أنهى الآية : (بأنهم كانوا مجرمين) .

(٧) منه لثة هامة تشير إلى المنصب الكلاسي عند التفرد فيها يصل وجوب الإجابة أو العربة

على الله وعدم وجوبها .

(٨) الأس بفتح الألف وضحا وكسرهما : أمل البناء .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لِلنَّاسِقِينَ وَلِلنَّاسِقَاتِ
وَالْكَافَرَاتِ نَذْرَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
هُنَّ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّقيمٌ ۝﴾ .

وَعَدَهُمُ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمُ الْعَذَابُ لِلْقِيَمِ فِي الْخَاضِرَةِ ، فَوُجِّلَ عَذَابُهُمُ الْحَرَقَةُ ،
وَمُعْجَلُهُ الْفُرْقَةُ .

قوله جل ذكره: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ
مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثْرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ ، فَاسْتَنْتَمُ
بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ ، وَخُضِعَ كَلْبُكُمُ
خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ۝﴾ .

يقال: سلكتم طريقاً مَنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْكَافَرِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَقَدْ كَفَأْنَاكُمْ . ويقال الذين
تقدمكم زادوا عليكم فكفأناهم كأنكفاه أهل الشقاق والنفاق ؛ في كثرة للدِّقَّةِ وقوة
الدُّقَّةِ ، والاستمتاع في الدنيا ، والافتقار بالانصراف في سَفْكِ الْمَوْتِ . . ولكن لم تَدُمُ
في الراحة مدتهم ، ولم تَمُتْ هُنَّ يَوْمَ الشِّدَّةِ عَذَابُهُمْ ، وعما قريب يُلْقَى بِكُمْ مَا لَمْ يَلْقَ
بِالَّذِينَ هُمُ قَبْلَكُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَاتِ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ
نُوحٍ وَعَادٍ وَنُوحٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ
وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَاللُّؤْلُؤِيَّاتِ أَنْتُمْ
رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَا كُنْ اللَّهُ

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يُظْلِمُونَ ﴿١﴾

أَلَمْ يَنْتَهِ إِلَيْهِمْ خَيْرُ الْقُرُونِ لِلْمَاضِيَةِ ، وَنَبَأُ الْأُمِّ الْخَالِيَةِ كَيْفَ دَرَمْنَا عَلَيْهِمْ جَمْعَهُمْ ،
وَكَيْفَ بَدَدْنَا شَعْلَهُمْ ؟ فَضَيَّفْنَا فِيهِم بِالْعَدَلِ ، وَحَكَمْنَا بِاسْتِصْصَالِ الْكُلِّ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ
نَافِخُ نَارٍ ، وَلَمْ يَحْصِلُوا إِلَّا عَلَى عَارٍ وَشَنَارٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يُعِينُ^(١) بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَيَنْوَصُونَ بَيْنَهُمْ بِتَرْكِ الْمَعْصِيَّاتِ ؛ فَتَحَاتَّبَهُمْ
فِي اللَّهِ ، وَقِيَامُهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَحَبْسُهُمْ لِقَوْلِ اللَّهِ ، وَعَدَاؤُهُمْ لِأَعْدَائِهِ ؛ تَرَكَوْا عِظَؤُنْكُمْ لِحَقِّ اللَّهِ ،
وَأَتَرَوْا عَلَى هَوَاهِمِ رِضَاءِ اللَّهِ . أُولَئِكَ الَّذِينَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ فِي الْحَالِ ، وَسَيَرْحَمُهُمُ فِي الْمَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ
عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وَعَدَّهُمْ جَمِيعًا الْجَنَّةَ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ، وَلَا يُطِيبُ الْمَسْكَنَ إِلَّا بِرُؤْيَا الْمَحْبُوبِ ، وَكُلُّ
مُحِبٍّ يُطِيبُ مَسْكَنَهُ بِرُؤْيَا مَحْبُوبِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي الْمَهْمِ ؛ فَمَنْ مَرُوبٍ بِحَقٍّ مَرْدُودٍ
إِلَى الْخَلْقِ ، وَمِنْ مَحْنُوبٍ بِحَقٍّ مُوَصُولٍ بِالْحَقِّ ، وَفِي الْجُمْلَةِ الْأَمْرُ كَمَا يُقَالُ :

(١) وَرَدَّتْ (يَتَى) وَهِيَ غَطَّى فِي اللَّسَخِ .

أَجْرَانَا مَا أَوْحَى الْهَارَ بَعْدَكُمْ إِذَا غِيَمَ عَنْهَا وَنَحْنُ حُضُورًا
وَيَقَالُ قَوْمٌ يَطِيبُ مَكْنُفَهُمْ بِجُودِ عَقَالِهِ ، وَتَقَوْمٌ يَطِيبُ مَكْنُفَهُمْ بِشُهُودِ لِقَائِهِ ،
وَأَتَمُّوا :

وَأَلَّ لَأَهْوَى الْهَارَ لَا يَسْتَرْ لِي بِهَا الْوُدَّ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنْ دِيلِوَكَا
ثُمَّ قَالَ : « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » : وَأَمْلُوهُ أَهْلُ الرِّضْوَانِ وَجِدَانُ طَمَعِهِ ؛ فَنَهَمَ
فِي رُوحِ الْأَنْسَرِ ، وَدُوحِ الْأَنْسَرِ لَا يَنْقَلِبُ عَنْ رِاحَةِ دَارِ الْقُدُسِ بَلْ هُوَ أَمُّ وَأَعْظَمُ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾
المصدر :

دَمَا نَبِيَّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَافَّةً أَطْلَقَ إِلَى حَسَنِ الْأَطْلَقِ .

ثُمَّ قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « قَوْلَاهُ قَوْلَانِ » (١) .

وَقَالَ نَبِيَّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٢) وَقَالَ إِنَّمَا قَالَ هَذَا بَعْدَ
إِظْهَارِ الْحَقِّ ، وَبَعْدَ مَا أَزَاحَ عُذْرَهُمْ بِأَلْهَمِ الْمَلَكَةِ ؛ فَفِي الْأَوَّلِ أَمْرُهُ بِالرَّفْقِ حَيْثُ قَالَ : « إِنَّمَا
أَعْيَنْكُمْ بِوَاحِدَةٍ » (٣) ، فَمَا أَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا أَمْرَهُ بِاللَّيْلَةِ عَلَيْهِمْ . وَالْمُجَاهِدَةُ أَوَّلُهَا الْإِسْلَامُ
لِشَرْحِ الْإِسْلَامِ ، وَلِإِضْاحِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ . ثُمَّ إِنَّ حَصَلَ مِنَ الْمَدَى جَعَلَ بَعْدَ إِزَاحَةِ الْمَدَى ،
بِالْمُجَاهِدَةِ وَالْجَزْرِ ، ثُمَّ إِنَّ لَمْ يَنْجِ الْكَلَامُ وَلَمْ يَنْجِ الْمَلَامُ فَالْقِتَالُ وَالْحَرْبُ وَبَدَلُ الْوَسْعِ
فِي الْجِهَادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا

كَلِمَةً الْكُفْرِ ، وَاسْتَكْبَرُوا بَعْدَ

إِسْلَامِهِمْ ﴾

(١) آيَةُ ١٤ سُورَةِ طه .

(٢) آيَةُ ٩ سُورَةِ التَّحْرِيمِ .

(٣) آيَةُ ١٦ سُورَةِ سَبَأٍ .

تَسْتَرُوا بِأَيْمَانِهِمْ فَهَكَكَ اللَّهُ أَسْنَارَهُمْ وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ .

قوله : « وَتَقْدَرُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ » : وهي مَقْدُومٌ فِي ثُبُوتِ رَسُولِ اللَّهِ -- صلى الله عليه وسلم . وَكُلُّ مَنْ وَصَفَ الْمُبُودَ بِصِفَاتِ الْخُلُقِ أَوْ أَضَافَ إِلَى الْإِطْلَاقِ مَا هُوَ مِنْ خِصَالِهِ لَمْ يَلْحَقْ قَدْ تَلَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

أَي أَظْهَرُوا مِنْ شُعَارِ الْكُفْرِ مَا دَلَّ عَلَى جُنْدِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ بِدَ مَا كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمَوَاقِفَةَ وَالْإِسْلَامَ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا مِنْ قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَمَا سَوَّاتِ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ يُخْرِجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَقْلَى ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

يَقَالُ تَحْمَلُوا زَوَالَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّ اللَّهَ إِلَّا إِعْلَاءَ أَمْرِهِمَا .

ثُمَّ قَالَ : « وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » : أَي مَا عَابُوهُ إِلَّا بِمَا هُوَ أَجْبَلُ خِصَالِهِ ، فَلَمْ يَحْصُلُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى ظُهُورِ شَأْنِهِمْ الْكَافَّةَ بِمَا لَا حِزْرَ لَهُ فِيهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ يَنْوِيُوا إِلَيْكَ خَيْرًا لَمْ وَإِنْ يَنْوِيُوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَلْعَمٌ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

وَأَقْوَى أَرْكَانِ التَّوْبَةِ حُلُّ حَقْدَةِ الْإِمْرَارِ عَنِ الْقَلْبِ ، ثُمَّ التَّيَامُّ بِمَجْمَعِ حَقِّ الْأَمْرِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِقْصَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ طَاعَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ ثَمَنَ فَضْلِهِ بِجَلِيلٍ وَتَوَكَّلُوا وَهُمْ مُشْرِعُونَ

منهم مَنْ أَكَّدَ الْمُعْتَدَّ مع الله ، ثم تَقَفَّه ، فَلَحِقَهُ شَوْمٌ ذِكٌّ ؛ فَبَقِيَ خَالِدًا فِي تَقَاتِهِ .
 ويقال تَطَلَّبَ إِحْسَانَ رَبِّهِ ، وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِإِيْرَامِ عَهْدِهِ فَلَمَّا حَقَّقَ اللهُ مَسْئَلَهُ وَاسْتَجَابَ
 مَاوَلَهُ ، فَسَخَّ مَا أَيْرَمَهُ ، وَاسْلَخَ عَمَّا التَّرَمَهُ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْبُخْلُ ، فَضَنَّ بِإِخْرَاجِ حَقِّهِ ،
 فَلَحِقَهُ شَوْمٌ تَقَاتِيهِ ، بَانَ يَتَى إِلَى الْأَبَدِ فِي أَسْرِهِ .

وَحَدُّ الْبُخْلِ — عَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ — مَنَعُ الْوَاجِبِ . وَيُخْلُ كُلُّ أَحَدٍ هَلْ مَا يَلِيْقُ بِمَالِهِ ،
 وَكُلُّ مَنْ آتَرَ شَيْئًا مِنْ دُونَ رِضَا وَبِهِ قَدْ اتَّصَفَ بِيَبْخِهِ ، فَمَنْ يَبْخُلُ بِمَالِهِ تَزَلُّ هُنَا الْبِرْكَةُ
 حَتَّى يَثُولَ إِلَى وَارِثٍ أَوْ يَزُولَ بِحَارِثٍ . وَمَنْ يَبْخُلُ بِنَفْسِهِ وَيَتَقَاعَسُ عَنْ طَاعَتِهِ تَفَارِقُهُ الصَّحَّةُ
 سَقَى لَا يَسْتَنْجِ بِمِجَاهِهِ . وَاقْدَى يَبْخُلُ بِرُوحِهِ عَنْهُ يُعَاقَبُ بِالْغُلْزَانِ حَتَّى تَكُونَ حَيَاتُهُ سَبِيًّا لَشَقَاتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَعْقِبْنِي فَمَا كُنْتُ غَافِرًا ﴾
 يَلْتَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
 وبما كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿

أَعْقِبْنِي يَخْلُفُنِي فَمَا كُنْتُ غَافِرًا ، وَيُضَحُّ أَعْقِبْنِي اللهُ فَمَا كُنْتُ غَافِرًا ، وَفِي الْجِلَّةِ : مَنْ
 نَقَضَ عَهْدَهُ فِي نَفْسِهِ وَفِي رُوحِهِ أَوْ مِنْ أَصْلِهِ ، وَكُلُّ مَنْ أَظْهَرَ فِي الْجِلَّةِ خَيْرًا وَاسْتَجَبَنَ شَرًّا فَقَدْ
 نَافَقَ بِقَسَمِهِ . وَالْمُنَافِقُ فِي الصِّفِّ الْآخِرِ فِي دُنْيَاهُ ، وَفِي الْقَرَارِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ فِي عِقَابِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُعَلِّمَهُمُ الْبُرْهَانَ ﴾
 وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿

خَوَّفَهُمْ بِمِلَّةٍ كَمَا خَوَّفَهُمْ بِنِعْمَةٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ .

و « بُرْهَانٌ » مَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ .

و « نَجْوَاهُمْ » مَا يَتَمَارَوْنَ بِهِمْ مِنْ بَعْضٍ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا لِنَفْسِهِمْ عَلَيْهِ إِشْرَافٌ
 مِنْ خَوَاطِرِهِمْ ^(١)

(١) يقول القشيري في رسالته في معنى « البر » هو عمل الشاهدة كما أن الأرواح عمل للجنة
 والفلول عمل للمعارف . وقالوا البر ما لك عليه إشراف ، وشر البر ما لا اطلاع عليه لغير الحق .
 (الرسالة ص ٤٨)

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ

اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

عابوا الذين قَصَرَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْإِكْتَارِ فِي الصَّدَقَةِ وَجَادُوا بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ ،

فَشَكَرَ اللَّهُ سَخَى مَنْ أَخْلَصَ فِي صَدَقَتِهِ بِمَا عَلِمَ صَدَقَهُ فِيهَا . وَقَلِيلُ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرِ أَهْلِ التَّفَاقُحِ .

وَلَمَّا أَوْجَدُوا^(١) الْمُسْلِمِينَ بِسَخَرِيَّتِهِمْ وَصَفَ اللَّهُ — سبحانه وتعالى — نَفْسَهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ

فِي وَصْفِهِ — هل التحقيق — وَهُوَ السَّخَرِيَّةُ بِأَحَدٍ . . . طَبِيبًا لِقُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ ، فَقَدْ تَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ لِعِزَّةِ رُبُوبِيَّتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ

اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ﴾

خَتَمَ التَّضَايَا بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِأَهْلِ الشِّرْكِ وَالتَّفَاقُحِ ، فَلَا تَنْفَعُهُمُ الْوَسَائِلُ ، وَلَا يَنْتَمِشُ

مِنْهُمْ السَّاقِطُ .

وَيَقَالُ مَنْ حَلَبَتْهُ شِفُونُتُنَا لَمْ يَنْفَعِهِ (تَضَرُّعُهُ)^(٢) وَدَعْوَتُهُ .

وَيَقَالُ صَرِيحُ الْقُدْرَةِ لَا يُنْعِثُهُ الْجُهْدُ وَالْحِيلَةُ .

(١) (أَوْجَدُوا) أَيْ سَبَّحُوا لَهُمْ حَظِيظَةً وَأَلَمًا .

(٢) وَرَدَّتْ (تَضَرُّعُهُ) بِمَعْنَى مَقْلَعَةٍ وَهِيَ سَاقِطَةٌ وَقَدْ أُكْتِنَاهَا (تَضَرُّعُهُ) لِلدَّاءِ مِنْهَا لِلْسَّيَاقِ ،

وَلَا نَسْجَاهُمَا مَعَ (دَعْوَتِهِ) بِمَعْنَى دَعَايِهِ وَاسْتِغْثَارِهِ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ

رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا

بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا

لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ

أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝

استحوذ عليهم سرورهم ، بتخلفهم ، ولم يملوا أن يثبتوا في تأخرهم وما آتوه من راحة

نفوسهم على أداء حق الله ، والخروج في محبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فترج الله

الراحة بما عاقبهم ، وسيصلون سعيراً في الآخرة بما قدّموه من نفاقهم ، وسوف يتحسرون

ولات حين تحسروا .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا

كَثِيرًا ۚ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝

بَدَّلَ اللَّهُ مَسَرَّتِهِمْ بِحَسْرَةٍ ، وَفَرَحَتِهِمْ بِتَرْجَةٍ ، وراحهم بغيره ، حتى يكثر بكاءهم

في المعقب كما كثر ضحكهم في الدنيا ، وذلك جزاء ما كانوا يكسبون .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ

فَأَسَأَدُوا لَكَ الْخُرُوجَ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا

مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا

إِنَّكُمْ رَجِئْتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ

فَاعْبُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ۝

يقول : بعدما ظهرت خيانتهم ، وقرر كذبهم ونفاقهم ، لا تتخذ ع بملقهم ، ولا تنق

بقولهم ، ولا تسكنهم من صحبتك فيما يُظهِرونه من وفاقك ^(١) . فإذا وَهَنَ سِلْكُ الْمُهْدِ

فَلَا يَحْتَمِلُ بَعْدَهُ الشَّدَّ ، وإذا انزع الخرق لا ينفع بَعْدَهُ الرَّفْعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا

(١) سقطت الواو من (وفاقك) .

وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِ إِيَّاهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ، وَمَاتُوا وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١﴾

ليس بعد التَّبَرُّى التَّوَلَّى ، ولا بعدَ الفراقِ الوفاق ، ولا بعدَ الحجبةِ قربة . مضى لهم من
الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة ، أو لرجائهم مساع ، أو لظلمهم تحقيق ، ولكن سَبَقَ لهم القضاء
بالشقاة ، ونمودَ بالله من سوءِ الخلقَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُحْيِيكَ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَافَا لِدُنْيَا
وَيَزَهِّقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول لا تحسبنُ تمكينَ أهلِ النفاقِ مِنْ تنفيذِ مرادهم ، وتكثيرِ أموالهم إساءةً معروفٍ
مِنَّا إليهم ، أو إلباسَ إناهم مِنْ لَدُنَّا عليهم ، إنما ذلك مَكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، وإمهالٌ
لا إهمال . وسيلتَوْن رِغْبَهُ ﴿١٢﴾ هن قريب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَسْكُنْ
مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

إِذَا تَوَجَّهَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ بِالْجِهَادِ ، واشتدَّ عليهم حُكْمُ الْإِثْرَامِ ، تَعَلَّقُوا إِلَى السَّعَةِ ﴿١٣﴾ ،
وركنوا إلى إختيارِ الدَّعَةِ واحتالوا في مَوجِبَاتِ التَّخَلُّفِ ، أولئك الذين خَصَّصَهُم ﴿١٤﴾
بِمُذَلَّاتِهِ ، وصَرَفَ قُلُوبَهُمْ عَنْ ابْتِغَاءِ رِضْوَانِهِ .

(١) وقع الناسخ في خطأ حين نزل الآية إذ كتب بعد (ورسوله) : (ولا يأتون الصلاة إلا وهم
كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .
وقد صوبنا حسب الآية (٨٤) .
(٢) وودت (هيه) مالباء وهي خطأ في النسخ ، والصواب (هيه) أى عاقبت .
(٣) أى إلى نفس وسهم ومكنتهم .
(٤) اخلبت علامة للتضييق على الناسخ فظن السكنة (خصمهم) بالثناء وهي غير ملائمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْغَوَالِبِ

وَمُطِيعٍ عَلَى قَوَائِمِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْتَقِرُونَ ﴾

بَعُدُوا عَنْ سِطَةِ الْعِمَادَةِ فَاسْتَطَابُوا الْقِدْعَةَ ، وَضُوا بِالْتَرِيحِ فِي مَنَازِلِ الْفِرْقَةِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصِدْقِ النَّدَمِ لَقَابَلَهُمْ بِالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ، وَلَكِنْ الْقَضَاءُ غَالِبٌ ، وَالْكَفْلَ سَاقِطٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنَّ الرُّسُلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ

لَهُمُ الْغُلَبَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

لَيْسَ مَنْ أَقْبَلَ كَنْ أَعْرَضَ وَصَدَّ^(١) ، وَلَا مَنْ قَبِلَ أَمْرَهُ كَنَّ رَدُّ ، وَلَا مَنْ وَحَدَّ كَنَّ جَعَدَ ، وَلَا مَنْ عَيَّدَ كَنَّ هَنَدَ ، وَلَا مَنْ أَتَى كَنَّ أَيْ . . . فَلَا جَرَمَ رِيحَتْ يَحَادُّهُمْ ، وَجَلَّتْ رُتَبَتُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ

تَشِيرُ الْآيَةُ إِلَى أَنَّ رَاحَتَهُمْ مَوْجُودَةٌ ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَنْعَابُ^(٢) فِي الْحَالِ مَوْجُودَةً مَشْهُودَةً .

وَيَقَالُ صَادِقٌ يَتَيْنَهُمُ بِالنَّوَابِرِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ مَقَاسَةً مَا يَلْقَوْنَهُ — فِي الْوَقْتِ — مِنَ الْأَنْعَابِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَهُ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَهْرَابِ

لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ

(١) وَرَدَتْ (سَدَ) بِالسَّيْنِ وَالصَّوَابِ (سَدَ) لِتَلَاثَةِ أَهْرَاضَ .

(٢) اُعْلَبَتْ عَلَى التَّاسِخِ مَقْنَاهَا (الْأَقَابُ) وَالصَّوَابُ الْأَنْعَابُ لِتَعَابُلِ (رَاحَتِهِمْ) ، ثُمَّ إِنَّمَا تَكَرَّرَتْ فِيهَا بَدَلٌ قَلِيلٌ .

ورسوله سيُصيب الذين كفروا منهم
عذاب أليم ﴿١﴾

وهم أصحاب الأعداء — في قول أهل التفسير — طلبوا الإذن في التأخير عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في غزوة تبوك فسقط عنهم اليوم .
أما الذين تأخروا بنذر عذر فقد توجه عليهم اليوم ، وهو لم في المستقبل الوعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوهم فليسوا بأعلى المؤمنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾

قيمة القدر تظهر عند سقوط الأمر ، ولو لم يكن في القلة خير إلا هذا لكن لما بهذا فضيلة ؛ بقوا في أوطانهم ولم يتوجه عليهم بالجهاد أمر ، ولا بمخارقة المنزل امتحان . واكتفى منهم بنصيحة القلب ، واعتقاد أن فرقتهم طرخوا .

وأصحاب الأموال امتحنوا — اليوم — بجمعها ثم بحفظها ، ثم ملكتهم محنتها حتى شقت عليهم الفية عنها ، ثم توجه اليوم عليهم في ترك إغنائها ، ثم ما يقبىه — غداً — من الحساب والعذاب يربو على الجميع .

وإنما رفع الحرج عن أولئك ^(١) بشرط وهو قوله : « إذا نصحوهم فليسوا بأعلى » فإذا لم يوجد هذا الشرط فلخرج غير مرتفع عنهم .
قوله : « ما على المؤمنين من سبيل » : المؤمن الذي لا تكون للشرع منه مطالبة لافي حق الله ولا في حق أتلق ^(٢) .

(١) في النسخة (هؤلاء) وقد أثرنا أن نضع (أولئك) ليعرف الكلام إلى الطائفة الأولى أي الضعفاء والمرضى وأصحاب المنزلة .

(٢) لأنه قد استوى جميع المطالبات ولم يبق عليه شيء .

ويقال هو الذي يعلم أنَّ الحادث لثَلَّ كُلُّهَا من الله تعالى .
ويقال هو الذي يقوم بمحقِّق ما يربط به أمره ؛ فلو كان طيرٌ في حكه وقَصَرَ في علفه -
لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾

مَنْهُمْ الْفَرُّ عَنْ الْحَرَاكَةِ فَاتَّقُوا مِنَ الرَّسُولِ - صلى الله عليه وسلم - أن يحملهم معه ويهيئ أسبابهم ، ولم يكن في الحال فرسول عليه السلام سعةً ليوافق مؤلِّمهم ، وفي حالة ضيق صدره - صلى الله عليه وسلم - حَلَّتْ إِيَّاهُ لَا يَحْمِلُهُمْ ، ثم رَأَاهُمْ صلى الله عليه وسلم يتأهبون للخروج ، وقالوا في ذلك ، فقال عليه السلام : إنما يحملكم الله .

فلما رَدَّهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الإجابة في أن يحملهم رجعوا عنه بوصف انلبية كما قال تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ كما قال تعالى :

قال لي مَنْ أَحَبُّ وَالْبَيْنُ قَدْ حَلَّ ودمي مَرِيقٌ لشهيق
مأثرى في الطريق تصنع بدمي ؟ قلتُ : أبكي عليك طول الطريق

قوله : ﴿ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ شقَّ عليهم أن يكونَ على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسببهم شغلٌ فَتَنَنُوا أَنْ لَوْ أُزِيحَ هَذَا الشَّغْلُ ، لا ميلًا إلى الدنيا ولكن لتلا تَعَوُّدَ إلى قلبه - عليه السلام - مِنْ قِيْلِهِمْ كِرَاهَةً ، ولهذا قيل :

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ وَأَخُو الْخَوَاصِرِ مُنْجِجٌ تَمْلُولُ

ثم إنَّ الحقَّ - سبحانه - لما عَلِمَ ذلك منهم ، ونمحضت قلوبهم لتتعلق بالله ، وحلَّتْ عقائدهم عن مساكنة مخلوق تدَارَكَ اللهُ أحوالهم ؛ فأمر الله رسوله عليه السلام أن يَحْمِلَهُمْ . . . بذلك جَرَتْ سُنَّتُهُ ، قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُتَرَلَّى الْغَيْثُ مِنْ بَدَمَا قَطَرَا ﴾ ^(١)

(١) آية ٢٨ سورة الشورى .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا السَّيْلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ

وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾

يريد السيل بالجموع والملاحة على الذين يتأخرون عنك في الخروج إلى الجهاد ولم الأجرة
والسكنة ، وتساعدكم على الخروج الاستعانة والقدرة ، فإذا استأذنوك للخروج وأظهروا^(١)
لم يصدقوا ، فهم مستوجبون لتكبير عليهم ، لأن من صدق في الولاء لا يحتمل من مفاسد
النساء ، والذي هو في الولاء ماذق ولصدق مفارق يتعلل بما لأصل له ، لأنه حرمة المخلوص
فيما هو أهل له ، وكذا قيل :

إِنَّ الْمَوْلَى إِذَا أَرَادَ قِطْعَةً مَكْلًا أَوْصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾

قيل في التفسير : مع النساء في البيوت .

والإسلام ينفى على الشجاعة ، وفي الخبر : إن الله تعالى يحب الشجاعة ، ولو على قتل
حية ، وفي معناه أشموا .

كَيْبُ الْقَتْلِ وَالْقِتَالُ^(٢) عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جُرْهُ الْقَبُولِ
وَمَنْ اسْتَطَاعَ مَرْكَبَ الْكَيْلِ ، وَاسْتَمْسَكَ لِبَاسَ الْقَتْلِ ، وَرَكَّنَ إِلَى مَخَارِقِ الْحَيْلِ
حُرْمَ اسْتِحْقَاقِ الْقُرْبَةِ . وَمَنْ أَرَادَ اللَّهَ — تَعَالَى — هَوَانَهُ ، وَأَذَاقَهُ خِذْلَانَهُ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ
حُكْمِ اللَّهِ مَنْصُورٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَتَنَزَّلُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ

قُلْ لَا تَعْتَنُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ

قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَمِعَ

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَى

عَالَمِ الْقَيْمِ وَالشَّهَادَةِ فَبَيْنَكُمْ

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(١) ربما سقطت هنا « البذر » هي مطابقة لسياق .
(٢) وردت (القتل والقتل) والصواب (القتل والقتال) .

أراد إذا تقوُّوا بما هم فيه كاذبون، وضلُّوا عما كانوا في تخلفهم به يتصفون — فأعزُّوهم
 أَنَا عَرَفْنَا اللهَ كَذِبَكُمْ فهاقولون، وانصحت لَنَا فاضايحكم، وتبَّرتُ — بما أظهره الله لنا —
 سيِّئكم وصالحكم، فإنَّ الله تعالى لا يتحقَّى عليه شيء من أحوالكم، وستلقون عِذاباً
 أعمالكم في أجلكم (١).

قوله جل ذكره: ﴿سَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
 لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
 لَأَنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا أُولَئِكَ بِمُجْزَاءِ بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يريد أنهم في خليفهم بالله لكم أن يدفع السوء من قبلكم، وليس قصدكم بذلك خلوصاً
 في اعتذارهم، ولا ندامة على ما احتقبوه من أوزارهم، إنما ذلك لتعرضوا عنهم...
 فأعرضوا عنهم؛ فإنَّ ذلك ليس بمُنْجِيهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم، فإنَّ الله
 يُجِلُّ العاصيَ حتى يتوَّعَّم أنه قد تجاوزَ عنه، وما ذلك إلا سَكْرٌ مُوهِلٌ به، فإذا
 أذاقه ما يستوجبُه عِلِمٌ أن الأمر بخلاف ما ظنَّه، وما ينفع ظاهراً مقبوطاً، والحال
 — في الحقيقة — بأسٌ من الرحمة وقنوطٌ، وفي معناه قالوا:

وقد حسدوني في قُرْبٍ دارى مِنْهُمْ وكَمِ مِنْ قُرْبٍ الدَّارِ وهو بعيدُ

قوله جل ذكره: ﴿يَجْلِفُونَ لَكُمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ
 تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى
 عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

من كان مسحوطاً الحق لا ينفعه أن يكون مرضى الخلق، وليست العبرة بقولي غير
 الله إنما المدار على ما سبق من السعادة في حكم الله.

قوله جل ذكره: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا
 وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(١) وردت (ب) أعمالكم في (أعمالكم) والمواب (في أجلكم) لأن الآية تنبه تلك.

جُعِلَتْ قلوبهم على القسوة فلم تفرحها هوائهم الصنوة ، وكانوا عن أشكالم في الخلق
مستأخرين بما (. . .)^(١) من سوء الخلق ؛ فهم من استبانة الحقائق أبعد ، ومن
استجاب الهوان أقرب .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما يُنفق
مقرّماً ويتوسّل بهم الدوائر ،
عليهم دائرة السوء والله سميع
عليم ﴾

تَحَبَّطَتْ عقائدهم فانتظروا للمسلمين ما تملقت به منام من حلول للجن بهم ، فأبى الله
إلا أن يحقّق بهم مكّرم ، ولهذا قيل في المثل : إذا حَفَرْتَ لأخيك قَوْسَعٌ فربما يكون
ذلك مقبلك !

ويقال مَنْ نَظَرَ إِلَى وِثَاةٍ يَوْفَقُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَرَأَى .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله
واليوم الآخر ويتخذ ما يُنفق
قُرْبَاناً عند الله ورسوله الرسول
أَلَّا يَأْتِيَ قُوْبَةً لَمْ يَسْئَلْهُمْ اللهُ
فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

تَوَدَّعُوا ، فمنهم مَنْ غَشَّ ولم يبرح ، ومنهم مَنْ نَصَحَ فلم يُخْشِرْ ، فأما الذين صدّقوا
فهم في مهواة هوائهم ، وأما الذين صدّقوا ففي رَوْحِ إحسانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والصابغون الأولون من المهاجرين
والأنصار والذين أتبعهم بإحسان
رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

(١) مثله .

لم جنتٍ نجرى تحتها الأنهارُ
 ظالمين فيها أبداً ذلك الفوزُ
 العظمى

السابقون مختلفون ؛ فمن سابقٍ يصدق قَدَمِهِ ، ومن سابقٍ يصدقِ هِمَمِهِ .
 ويقال السابقُ مَنْ ساعدتهُ القسمةُ بالتوفيق ، وأسعدتهُ القضيةُ بالتحقيق ، فسبقت
 له من الله رحمتهُ .

ويقال سبقهم ببنائته ثم سبقوا بطلاعتهم له .
 ويقال جمع الرضا، صفيهم : السابق منهم واللاحق بهم ؛ قال تعالى : « والسابقون
 الأولون من المهاجرين والأنصار ... رضى الله عنهم ورضوا عنه » .
 ويقال ليس اللاحق كالسابق ، فالسابقُ في رَوْحِ الطلبِ ، واللاحقُ في مقاساةِ
 التعبِ ، ومُماناةِ النَّصيبِ ، وأنشدوا :
 السَّابِقَ السَّابِقَ قولاً وفعلاً حَذَرُوا النَّفْسَ حَصْرَةَ الْمَسْبُوقِ
 ويقال رضاهم عن الله قضيةُ رضا الله عنهم ؛ فلولا أنه رضى عنهم في آزاله ...
 نقي وصلوا إلى رضاهم عنه ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَهْرَابِ
 مُنَاقِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا
 عَلَى الْمَنَاقِقِ ، لَا تَطْمَئِنُّ
 نَفْسُهُمْ ، سَتَجِدُنَهُمْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ
 يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

تشاكل المخلص والمنافق في الصورة فلم يَتَنَبَّهْ بِالْبَاقِي ، وإن تنافيا في الحقائق وللمعانى
 . تقاصر عنهم عن العرفان فَهَنَكَ اللهُ لَنَبِيِّهِ أَسْأَرَهُمْ . فَعَرَفَهُمْ ، وهم بإشرافه عليهم جاهلون ،
 وعلى الإقامة في أوطان ففاقهم مصروفون ، فلم ينفعهم طول إِمَالِهِمْ لَهُمْ .

« ستمدبهم مرتين » : الأولى في الدنيا بالنفسيحة فيما ينالهم من المحن والتقت والأمرض ، ولا يحصل لهم عليها في الآخرة عَوْضٌ ولا أَجْرٌ ولا مَسْرَةٌ ، والثانية عذاب القبر .

وقيل المرة الأولى بِقَبْرِ أَرْواحهم ، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُسْتَحْنُون بالعذاب الأكبر .

ويقال المرة الأولى عَذَابُ أَنْفُسِهِمْ عَلَى شَيْءٍ ، والمرة الثانية بِضِيَةِ أَلَمٍ وظهور ما لم يحسبوه لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَخْرُجُوا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا

عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ

أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

إن اتصفوا بعبوديتهم فلهذا اعترفوا بذنوبهم . والإقرارُ توكيدُ الحق فيما بين الغلط

في شاهد الحكم ، ولكن الإقرار بحق الله — سبحانه — يوجب إسقاط الجزم في مقتضى

سُنَّةِ كَرَمِ الْحَقِّ — سبحانه ، وفي معناه أُنشدوا :

قيل لى : قد أساءَ فيكَ فلانٌ وسكوتُ الفسى على الضيم عارٌ

قلتُ : قد جاءنى فأحسنَ عُدرا ديةُ الذنبِ عندنا الاعتذار

« خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » : ففى قوله « وآخر سيئاً » بد قوله « صالحاً » دليلٌ

على أن الرُّبَّةَ لَا تَصِحُّ ثَوَابَ الطَّاعَةِ ؛ إِذْ لَوْ أَحْبَبْتَهُ لَمْ يَكُنِ الصَّلُ صَالِحًا .

وكنك قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » : وعسى قيد أنه لا يجب على الله شيء

قد يتوب وقد لا يتوب . ولأنَّ قوله صِدْقٌ . . فإذا أخبر أنه يجبُ فإنه يفعل ، فيجب منه

لا يجب عليه ^(١) .

ويقال قوله : « خلطوا عملاً صالحاً » : يحمل معناه أنهم يتوبون ؛ فالتوبة عملٌ صالح .

وقوله : « وآخر سيئاً » : يحمل أنه نقضُهم التوبة ، فسكون الإشارة في قوله : « عسى الله

أن يتوب عليهم » أنهم إن قضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زلَّتهم فواجبٌ مِنَّا أَنْ

(١) واضح حرس التشبى على مقاومة المتعة فيما ينصل إلى أى وجوب على الله قد جلت الصدية من ذلك ، وإن كان يرى أنه يجب منه — سبحانه — الفعل .

توب عليهم ، ولئن بطلت — بِنَقْضِهِمْ — توبُهُمْ . لَأَآخِذْتُمْ — بِنَفْسِنَا —
توبِئْسًا عَلَيْهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ :

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الْأَعْوَاضِ عَلَيْهِمْ ، وَتُزَكِّيهِمْ عَنْ مَلَاظَمَتِهِمْ لَهَا .
تطهرهم بها عن شُحِّ قُوسِهِمْ ، وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا بِالْإِسْكَارِ بِأَمْوَالِهِمْ ؛ فَتُزَكِّيهِمْ عَنِ
مِيقَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِوُجْدَانِ التَّجَرُّدِ مِنْهَا .
« وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » : إِنَّ تَعَاثُرَهُمْ بِرِسْمَتِكَ مَعَهُمْ آمَنٌ لَهُمْ مِنْ
اسْتِقْلَالِهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَلْمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

تَعَدَّحَ — سَبَّحَانَهُ — بِقَبُولِ تَوْبَةِ الْعَاصِينَ إِذْ بِهَا يُظْهِرُ كَرَمَهُ ، كَمَا تَعَدَّحَ بِجَلَالِ عِزِّهِ
وَتَبَيَّنَ عَلَى أَنَّ يَعْرفُوا بِهِ جَلَالَهُ وَقِدَمَهُ .

وَكَمَا تَوَحَّدَ بِاسْتِخْفَافِ كِبَرِيَّاتِهِ وَعَظَمَتِهِ تَفَرَّدَ بِقَبُولِ تَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ جُرْمِهِ وَزَلَّتِهِ .
فَكَمَا لَا شَيْءَ لَهُ فِي جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَفْضَالِهِ وَإِقْبَالِهِ ؛ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ — قُلْتُ :
أَوْ كَثُرَتْ ، فَقَدَّرُ الصَّدَقَةَ وَخَطَرُهَا بِأَخْبَرِهِ لَهَا لَا يَكْثُرُهَا وَقِلَّتُهَا ؛ قُلْتُ فِي الصُّورَةِ
صَدَقْتَهُمْ وَلَكِنْ لَمَّا أَخَذَهَا وَقِيلَ لَهَا جَلَّتْ بِقَبُولِهَا ، كَمَا قِيلَ :

يَكُونُ أَجْلًا — دُونَكَ ، فَإِذَا انْهَى إِلَيْكَ تَلَقَّى طَيْبَسْكَ فَيُطِيبُ

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَيُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُمُ وَلَهُمْ فِيهِ يَتَذَكَّرُونَ إِلَى

عالم الغيب والشهادة فَيَنْبِشُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

خَوَّفَهُمْ بِرُؤْيَايِهِ — سبحانه — لِأَعْلَمَ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ تَقْلَصَّرَ حَالُهُ عَنِ
الِاحْتِشَامِ لِأَمْلَاحِ الْحَقِّ قَالَ : « وَرَسُولُهُ » ، ثُمَّ قَالَ لِمَنْ نَزَلَتْ رُبِّيَّةُ : « وَلِلْوُثُونِ » .
وَقَدْ خَسِرَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ الْحَيَاءَ ، وَلَا يَرْدَعُهُ الْاحْتِشَامُ ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ مَنْ هَتَكَ جَلْبَابَ
الْحَيَاءِ ، كَمَا قِيلَ :

إِذَا قُلَّ مَاءُ الْوَجْرِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِهِ إِذَا قَلَّ مَآؤُهُ
وَمَنْ لَمْ يَمْتَنِعْ الْحَيَاءُ عَنْ تَعَاطِي لِلْكُرْهُاتِ فِي الْمَاجِلِ سِيلَى غَيْبِ ذَلِكَ ، وَخَسِرَانُهُ عَنِ
قَرِيبِ فِي الْأَجَلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَخْرَجُوا مُرَجُوتَ الْأَمْرِ اللَّهُ
إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَبُوءُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ .

لَمْ يُصْرَحْ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَهْمُ بِالْيَأْسِ مِنْ غَفْرَتِهِ ، فَوَقَعُوا عَلَى قَدَمِ الْمَطْلُوعِ ،
مُسْتَبِيلِينَ بَيْنَ الرَّهْبَةِ وَالرَّغْبَةِ ، مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْخُوفِ وَالرَّجَاءِ . أَخْبَرَ اللَّهُ — سبحانه —
أَنَّهُ إِنْ عَذَّبَهُمْ فَلَا اعْتِرَاضَ يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ رَحِمَهُمْ فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ :
وَيُسَبِّحُ مِنَ الْأَمَالِ وَعَدُّ وَمَنْ عَلَى بِنْتِصَرِي وَعَبْدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا
وَكُفْرًا وَفِرْقًا بَيْنَ الْوَالِدِينَ وَالْإِصْدَاقِ
لَتَنْجَارِبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَيُحْلِلْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى
وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ لَكَافِرِينَ ۝ ﴾ .

مَنْ لَمْ يَكُنْ مَخْلَصًا فِي وَلَائِهِ لَمْ يَأْسِ الْقَلْبُ بِكَدِّهِ وَعَنَانِهِ ، فَتَرَدَّدَهُ فِي الظَّاهِرِ يَنَادِي
عَلَيْهِ بِالنَّوَاءِ ، وَقَوْلُهُ بِالتَّكْلِيفِ شَهَادَةُ صِدْقٍ عَلَى عَدَمِ صِفَاتِهِ :

من لم يكن قوصالاً أهلاً فكل إحسانه ذنوب

قوله جل ذكره: «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَكُنْجِدَ أَهْلًا»

على التقوى من أول يوم أحق

أن تقوم فيه رجال يميون

أن يطهروا والله يحب المطهرين

للقام في أماكن المصيان ، والتعزج في أوطان أهل اليهود والنفين — من علامات
للإلانة مع أربابها ، وسكاتها وتطانيها .

والتباعد من مساكينهم ، وهجران من جعجع إلى مسالكهم علم لمن أشرب
قلبه غافقهم ، وبثرت سره عدوهم .

« فيه رجال يميون أن يطهروا » : يطهرون من اللعنى وهذه رسة المايدن ،
ويطهرون من الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين ، ويظنونهم من حبة الخلقين ،
ثم من شهود أنفسهم بما ينصفون وتلك صفة الملوطين .

قوله « والله يحب المطهرين » : أسرارهم (١) من الساكنة إلى كل مخلوق ، أو ملاحظة
كل محدث مسبوقة .

قوله جل ذكره: «وَأَقْنِ أَهْلَ بَنِيَّاهُ عَلَى تَقْوَى

مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مِنْ

أَهْلٍ بَنِيَّاهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ

فَالْهَارِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

الريد يجب أن يؤسس بنيانه على يقين صادق بما يتقنه ، ثم على خلوص في الزمية
ألا ينصرف قبل الوصول عن الطريق الذي يسلكه ، ثم على انسلخه من جميع مناه
وشهواته ، ومآربه ومطالبه ، ثم يبي أمره على دوام ذكره بحيث لا يعترضه نسيان ،
ثم على ملازمة حق للسليدين وتقديم مصالحهم ... بالإشارة على نفسه . وإحدى ضيغ الأصول

(١) أسرارهم مقول به لاسم للعامل « المطهرين » .

في ابتدائه حرّم الوصول في انتهائه ، والذى لم يُحكّم الأساس في بناءه سَقَطَ السَّقْفُ على جدرانهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

مروقُ النفاقِ لَا تُقْتَلَعُ من عَرَصَاتِ اليقينِ إِلَّا بِعَجَلِ التَّحَقُّقِ بصحيح البرهان ؛ فمن أَيْدٍ لإدامة السُّرورِ ، وَوَقْفٍ لتأمل البرهان وَصَلَ إلى تَلَجُّجِ الصدرِ وَدَوَّحِ الرِّفانِ .
ومن أَقام على مُتَنَادِ التقليدِ لم يَسْتَرِحْ قلبه من كَدِّ التَّردُّدِ ، وظلمةِ التَّجويزِ ، وَجَوَكَانِ اغْلَواطِ المشكلة في القلبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فَيَقْتُلُوا وَيُتْلُوا وَوَعْدًا عَلَيْهِمْ فِي التَّوَارِثِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

لَمَّا كَانَ من المؤمنين تسليمُ أنفسهم وأموالهم لِحُكْمِ اللَّهِ ، وكان من الله الجزاء والثواب ؛ أَى هناك عَرَضٌ وَمَوْضِعٌ ، فَلَمَّا بَيَّنَّ ذلك وبين التجارة من مشابهة أطلق لفظ الاشتراء ، وقد قال تعالى : « هل أدلكم على تجارة .. » ^(١) ، وقال : « فاربحت تجارتهم » ^(٢) .
وفي الحقيقة لا يصحُّ في وصف الحقِّ — سبحانه — الاشتراء لأنه مَالِكٌ سِوَاهُ ، وهو مَالِكُ الأعيانِ كُلِّهَا . كما أَنَّ مَنْ لم يَسْتَحْدِثْ مِلْكًا لَا يُقَالُ إنه — في الحقيقة — باع .

(١) آية ١٠ سورة الصَّف .

(٢) آية ١٦ سورة البقرة .

والفعل في هذه الآية محال... فيقال : البائع لا يستحق الثمن إذا امتنع عن تسليم المبيع ، فكذلك لا يستحق العبدُ الجزاء الموعود إلا بعد تسليم النفس والمال على موجب أوامر الشرع ، فمن صد أو قرط فغير مستحق للجزاء .

وقال لا يجوز في الشرع أن يبيع الشخص ويشترى شيئاً واحداً فيكون يائماً ومشترياً إلا إذا كان أباً وجنّاً ولكن ذلك هنا بلفظ الشقة ؛ فالحق بإذنه كانت رحمته بالعبد أتم ، ونظره له أبلغ ، وكان للمؤمن فيه من النبطة ما لا ينفى ، فصح ذلك وإن كان حكمه لا يقاس على حكم غيره .

ويقال إنما قال : « اشترى من المؤمنين أنفسهم » ولم يقل « قلوبهم » لأن النفس محل الآلات لجعل الجنة في مقابلتها ، وجعل من القلب أجل من الجنة ، وهو ما يخص به أوليائه في الجنة من عز وروية ^(١) .

ويقال النفس محل السيب ، والكريم يرغب في شراء ما يزهده فيه غيره .

ويقال من اشترى شيئاً ليتفع به اشترى خيراً ما يهبه ، ومن اشترى شيئاً ليتنفع به غيره يشترى نازلاً على صاحبه ليتنفعه به .

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء — عليهم السلام — : يا بني آدم ، ما خلقكم لأرحم عليكم ولكن خلقكم لتزبحوا على .

ويقال اشترى منهم نفوسهم فزبحوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسهم ، وأما القلب فاستأثره قهراً ، والقهر في سنة الأجواب أمر من الفضل ، وفي معناه أشدوا :

يُبَيِّ الحُبُّ على القهر قهر عدل المحبوب يوماً كسج

ليس يستحسن في حكم الهوى طائق يطلب تأليف الخسج

وكان الشيخ أبو علي الفاي ^(٢) رحمه الله يقول : « لم يقل اشترى قلوبهم لأن القلوب وثقت على عهده ، والوقت لا يشتري » .

(١) أنظر كيف محل الجنة الثانية بعد رؤية المحبوب — عند هذا الصواب .

(٢) الفاي هو شيخ القشيري ورائعه وأستاذة وصهره . وقد أشرنا إلى شيء من سيرته في مختل هذا الكتاب .

ويقال الطير في الهواء ، والسَّكُّ في الماء لا يصحُّ شراؤها لأنه غير ممكن تسليبها ،
كذلك القلب .. صاحبه لا يمكنه تسليبه ، قال تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »^(١)

وفي التوراة : « الجنةُ جنتي والمالُ مالي فاشترُوا جنتي بمالي فإنَّ ربحي فلكم
وإنَّ خسرئُ فلي »

ويقال عليمٌ سوءُ خلقك فاشترالك قبل أن أوجده ، وغالي بشفك لتلا يكون لك حقُّ
الاعتراض عند بلوغك .

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصبَ لنفسه بحالٍ لأنها ليست له ، والذي اشتراها أولى بها من
صاحبها الذي هو أجنيُّ عنها .

ويقال أخبر أنه اشتراها لتلا يدعى العبدُ فيها ، فلا يأكنها ولا يلاحظها
ولا يُعجبُ بها^(٢) .

قوله : « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » سيان^(٣) عندم أن يقتلوا أو يُقتلوا ، قال فاطمهم :

وإن دماً أجرته لك شاكراً وإن فواداً خرفته لك حامداً

ويقال قال : « فاستبشروا ببيعكم » ولم يقل بشفن مبيعكم لأنه لم يكن ميناً بيعاً ، وإنما أخبر
عن نفسه بقوله « إن الله اشترى من المؤمنين » فجعل بيعه بيعاً ، وهذا مثلاً قال في صفة نبيه
-- صلى الله عليه وسلم -- : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وهذا عين التجمع
الذي أشار إليه القوم .

قوله جل ذكره : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾

مَدْحُهُمْ بعد ما أوقع عليهم سبَّه الاشتراء بقوله « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ... » وَمَنْ رَضِيَ
بما اشتراه فإنَّ له حقَّ الردِّ إذا لم يَمُتَّ العيبَ وقتَ الشراء ، فأماً إذا كان عالماً به

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) لاحظ مدى التواء القشري — مما يصل بالفس — بتألم أهل اللامة التيسارية .

(٣) وودت (شتان) وهي — حسب ما هو واضح — خطأ في النسخ .

فليس له حق الرد ؛ قال تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » ^(١) .
 ويقال من اشترى شيئاً فوجد به عيباً رده على من منه اشتراه ولكنه — سبحانه —
 اشترى نفوسنا منه ، فإذا أراد الرد فلا يرد إلا على نفسه ؛ قال تعالى : « ثم ردوا إلى الله
 مولاهم الحق » ، وكما أن الرد إليه فلا ردنا كان الرد عليه .

قوله تعالى : « التائبون » أي الراجعون إلى الله ، فمن راجع يرجع عن زلته إلى طاعته ،
 ومن راجع يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاءه ، ومن راجع يرجع عن شهود نفسه
 إلى شهود لطفه ، ومن راجع يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستغراق
 في خالق حقه .

ويقال تأيب يرجع عن أفضاله إلى تبديل أحواله ؛ فيجد غداً فتون أفضاله ، وصنوف
 لطفه ونواله ، وتأيب يرجع عن كل غير وضئ إلى ربه لربه يحو كل أدب ، وعدم
 الإحساس بكل طلب .

وتأيب يرجع لحظ نفسه من جزيل ثوابه أو حذرآ — على نفسه — من ألم عذابه ،
 وتأيب يرجع لأمره برجوعه وإليه ، وتأيب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو من أوضاره ،
 ويخلص من شوم أوزاره ، وتأيب يرجع كما سمع أنه قال : إن الله أفرح بنبوة عبده من
 الأهراب الذي وجدته ضالته — كما في الظهر ، وشتان ما هما ! وأنشدوا :

أيا قادمًا من سفره المجر مرجحًا أن أدلك لا أنالك ما هبت الصبا

وأما قوله « العابدون » : فهم الغاضون بكل وجه ، الذين لا تستغرقهم كرائم الدنيا ،
 ولا تستبدم عظام المعنى . ولا يكون المبدأ عبداً لله — على الحقيقة — إلا بعد تفرده عن
 كل شيء حادث . وكل أحد فهو له عبيد من حيث الخلق ؛ قال تعالى : « إن كل من
 في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ^(٢) . ولكن صاحب المبودية خاص ،
 وهو عزيز .

(١) آية ٣٢ سورة الفطن .

(٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾

هم الشاكرون له على وجود أفضاله ، المُتَنَوِّنون عليه عند شهود جلاله وجهاله .
ويقال الحامدون بلا اعتراضٍ على ما يحصل قدرته ، وبلا انقباضٍ عما يجب من طاعته .
ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدهونه على فقه وعظمته .
ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لَا قُوَّةَ^(١) له المادحون إذا بكى مَنْ لَا مَرُوءَةَ له .
ويقال الشاكرون له إِنَّ أَدْنَاهُمْ ، الحامدون له إِنَّ أَقْصَاهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ السَّائِمُونَ ﴾

السائمون ولكن عن شهود غير الله ، للمتنعون عن خدمة غير الله ، المكنفون من الله بالله .

ويقال السائمون الذين يسبحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسبحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومنايرها بالتفكير في جوانبها ومساكيبها ، والاستدلال بتغيرها على مُتَشَبِّهاتها ، والتحقق بحكمة خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها ، ويسبحون بأسرارهم في للسلوك فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويعيشون بنسيم الانس بالتحقق بشهود الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ الرَّاكِعُونَ ﴾

الغاضضون لله في جميع الأحوال بضوئهم تحت سلطان التجلي ، وفي الخلق . « إِنَّ اللَّهَ مَا تَجَلَّى لشيءٍ إِلَّا خَشَعَ لَهُ » .

وكما يكون — في الظاهر — رَاكِعًا يكون في الباطن خاشعًا ، ففي الظاهر بإحسان الحق إليه يُحَسِّنُ تَوَلَّيْهِ ، وفي الباطن كاليمان لليمان للحق بأنوار تجليته .

قوله جل ذكره : ﴿ السَّاجِدُونَ ﴾

في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية ، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية .

(١) سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا وإن مننا صبرنا ، فقال جعفر : السكاب عندما بالمدينة كذلك تقول ! فقال شقيق . وما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أعطينا آثراً ، وإن مننا شكرنا (الرسالة ص ١١٥) .

والسجود على أقسام : سجد عند صحة التصود فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار ، ولا يرفع رأسه من السجود إلا عند تباشير الوصال . وسجود عند الشهود إذا تحلّى الحق لقلبه سجدة بقلبه ، فلم ينظر بصره إلى غيره ، وسجود في حال الوجود وذلك بخموده عن كليته ، وفاته عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته .

قوله جل ذكره : ﴿الأمرون بالمعروف والنهي عن

المنكر والحافظون لحدود الله

وبشير المؤمنين﴾

هم الذين يدعونَ الخلقَ إلى الله ، ويُحذِّرونهم عن غير الله . يتواصون بالإقبال على الله وترك الاشتغال بغير الله . يأمرون أنفسهم بالقيام بالطاعات بحملهم إياها على سبب الاستقامة ، وينهون أنفسهم عن اتباع المني والشهوات وترك التمرج في أوطان الغفلة ، وما تودوه من المساكنة والاستقامة .

والحافظون لحدود الله ، هم الواقفون حيث وقفهم ^(١) الله ، الذين لا يتحركون إلا إذا حركهم ولا يسكنون إلا إذا سكنهم ، ويحفظون مع الله أنفاسهم ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ما كان لشيء أن

يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي

قرباً من بعد ما تبين لهم أنهم

أصحاب الجحيم﴾

أصل الدين التبري من الأعداء ، والتولي للأولياء ، والتولي لا قريب له ولا جيم ، ولا نسب له ولا صديق ، وإن وآلى فبأس ، وإن عادى فجز .

قوله جل ذكره : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه

(١) يكون الفعل (وقف) متدياً مثل : وقف فلانا على الأمر أي أضله عليه (الوسيط)

(٢) مراعاة الأنفاس من الأمور التي شغل بها الصوفية دائماً ، يقول الجنيد :

وما تلت إلا كنت مع نفسي تجرى بك الروح مني لي مجارها

إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ قَبْلَ تَبَرُّأٍ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٠﴾

لَمَّا أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْتَّبَرُّؤِ عَنِ الشِّرْكَائِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَالْإِقْبَاضِ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ
لَهُمْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا سَبِيلُ الْأَوْلِيَاءِ ، وَطَرِيقُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ — عَلَيْهِ
السَّلَامُ — وَإِنْ اسْتَغْفَرَ لِأَيِّهِ فَإِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ تَحَقُّقِهِ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُ
أَظْهَرَ الْبَرَاءَةَ مِنْهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ
إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ
إِنَّ اللَّهَ لَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ وَذَهَابَكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بِاسْتِغْفَارِكُمُ لِلشِّرْكَائِ إِلَّا بَعْدَ مَا بَيَّنَّ
لَكُمْ أَنَّكُمْ مُنْذَرُونَ عَنْهُ ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ تُنَبِّهُهُمْ عَنِ اسْتِغْفَارِكُمْ لَهُمْ فَإِنَّ أَلْفَ مَنُوعٍ عَلَى ذَلِكَ
لَحَيْثُكُمْ ضَلَّيْتُمْ مِنَ الْحَقِّ بِفَعْلِكُمْ بَعْدَ مَا نَبِّهْتُمْ عَنْهُ . . . هَذَا بَيَانُ التَّنْذِيرِ لِلآيَةِ ، وَالْإِشَارَةِ
فِيهَا أَنَّهُ لَا سَلْبَ لِعِلَالِهِ إِلَّا بِتَرْكِ أَدْبِ مَنْكُمْ .

وَيَقَالُ مَنْ أَحَلَّهُ بِسَاطِ الْوَصْلَةِ مَا مَعِيَ بَعْدَهُ بِعَذَابِ الْفِرْقَةِ ، إِلَّا لِمَنْ سَلَفَ مِنْهُ
تَرْكُ حُرْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢﴾﴾

الْحَقُّ لَا يَتَجَلَّلُ بِوُجُودِ مَمْلُوكَاتِهِ ، وَلَا يُلْحَقُهُ نَقْصٌ بِعَدَمِ^(١) خَلْقَاتِهِ ، فَقَبْلَ أَنْ أَوْجِدَ
شَيْئًا مِنَ الْخَادِعَاتِ كَانَ مِلْكًا — وَالْمِلْكُ أَكْثَرُ مِبَالغةً مِنَ الْمَالِكِ — وَمُلْكُهُ قُدْرَتُهُ

(١) سقطت الميم من (يعدم) فأنتسبها إذ يدونها يضطرب السياق فالمراد (وجود المملوكات وعدمها) .

على الإبداع ، والمعنوم مقدوره ومملوكة ، فإذا أوجدَه فهو في حال حدوثه مقدوره ومملوكة ،
فإذا أهدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له .

« يحبي ويميت » يحبي مَنْ يشاء يعرفانه وتوحيده ، ويميت من يشاء بكرانه وجحوده .
ويقال يحبي قلوبَ المارقين بأنوار اللواصلات ، ويميت قوسَ المابدين بآثار المنازلات .
ويقال يحبي مَنْ أقبل عليه يتفضله ، ويميت من أعرض عنه يتكبره .

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
النُّصْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ
رِعُوفٌ رَحِيمٌ﴾

قَبْلَ تَوْبَتِهِمْ ، وتاب على نبيه — صلى الله عليه وسلم — في إذنه للناقضين في التخلف
عنه في غزوة تبوك ، وأما على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هموا
بالانصراف ^(١) لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعُسْرَةِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْإِعْيَاءِ ^(٢) فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ،
كما قال : « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » : وتوبته عليهم أنه تدارك قلوبهم حتى
لم تزيغ ، وكذا سعة الحق — سبحانه — مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ، وقاربوا من
التلف ، واستنكن اليأس في قلوبهم من النصر ، ووظفوا أضعفهم على أن يذوقوا البأس —
يُمِطِرُ عَلَيْهِمْ سَحَابَ الْجُودِ ، فيعود عودُ الحياة بعد بَيْسِهِ طَرِيّاً ، وَيَرُدُّ وَرْدَ الْأَنْسِ
عقب ذبوله غصّاً جَنِيّاً ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أَكْفَانُهُ وَقُرْبُ النَّعْشِ مِنَ الْإِحْدِ
فَجَالِ مَاءِ الرُّوحِ فِي وَحْشَةٍ وَرَدُّهُ الْوَصْلَ إِلَى الْوَرْدِ

(١) وردت (الإنصاف) وليس لها معنى فصيحتها (الانصراف) فهو التصرد .
(٢) وردت (الأعياد) وهي خطأ في النسخ إذ التصت الهزئة على التناسخ .

تبارك الله سبحانه ما (...) (١) هو بالسرمد

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَقُّ
إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ
لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ﴾

لَمَّا صَدَّقَ مِنْهُمْ الْجَهَاءَ تَدَارَكَهُمُ بِالْشُّغْلِ وَأَسْقَطَ عَنْهُمْ الْبَلَاءَ ، وَكَذَلِكَ الْحَقُّ يُكَوِّرُ نَهَارَ
الْبُسْرِ عَلَى لَيْلَى الْعَمْسِ ، وَيُطْلِعُ شَمْسَ الْخَيْرِ عَلَى مَحْضِ الْفِتْنَةِ ، وَيُدِيرُ فَكَّ السَّعَادَةِ (٢)
فِيَمُحِقُ تَأْثِيرَ طَوَارِقِ التَّكَايَةِ ؛ سُنَّةً مِنْهُ — تَعَالَى — لَا يُبَدِّلُهَا ، وَعَادَةً مِنْهُ فِي الْكَرَمِ
يُجَرِّبُهَا وَلَا يَحُولُهَا .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا
مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . . كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ
الْمُسْلِمِينَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَالِ كُونُوا فِي آخِرِ أَحْوَالِكُمْ مَعَ الصَّادِقِينَ ؛ أَيْ اسْتَدْبِعُوا
الْإِيمَانَ . اسْتَدْبِعُوا فِي الدُّنْيَا الصِّدْقَ تَكُونُوا خَدَاءً مَعَ الصَّادِقِينَ فِي الْجَنَّةِ .

وَيَقَالُ الصَّادِقُونَ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ أَكْبَرُ يَكْرٍ وَعِزٌّ وَعِثَانٌ وَعَلَى رِضَى اللَّهِ
عِنْدَهُمْ وَفِيهِمْ .

وَيَقَالُ الصِّدْقُ نَهَايَةُ الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ اسْتِوَاءُ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَذَلِكَ جَزِيْر . وَفِي الزُّبُورِ :
« كَتَبَ مَنْ آذَى عَيْنِي وَإِذَا حَبَّةُ الْبَلِّ نَامَ عَيْنِي » .

(١) مشقة ، والشرط الثاني من البيت الأخير مضطرب الوزن

(٢) ربما كانت (العناية) لتنجم مع (التكاية) لأننا نلاحظ اهتمام القشيري بالموسيق الماخلية
في تركيب فقرات هذه الإشارة ، وإن كانت « السعادة » مقبولة في السياق .

والصدق — كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال ، وهو أتم أقسامه .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلِفُوا

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ

عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَصِيبُهُمْ

ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْصَصَةٌ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُونُ مَوْطِئًا يَنْفِطُ

الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا

إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ حِمْلٌ صَلَاحٌ إِنَّ

اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ •

ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ،

ولا يقطعون وأدياً إلا كَتَبَ لَهُمْ

ليجزئهم الله أحسن ما كانوا

يعملون •

لا يجوز لهم أن يؤثروا على النبي — صلى الله عليه وسلم — شيئاً من نفس وروح ،

ومال وقدر وأهل ، وليسوا يحضرون على الله وأتى ذلك . . . وإِنَّهُمْ لَا يَرْضَوْنَ لِأَجَلِهِ

خطوة إلا تأبى لهم بألف خطوة ، ولا ينقلون إليه قدماً إلا أقام لطفاً وكرماً ، ولا يفتأسون

فيه عطشاً إلا سقام من شراب محابه كاساً ، ولا يتحللون لأجله مشقة إلا أقام لطفاً

ولإنسا ، ولا ينالون من الأعداء أذى إلا شكر الله سعيهم بما يوجب لهم سعادة الدارين !

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا

كَأَفَّةً قَوْلًا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا

قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَحْذَرُونَ •

لو اشتغل الكل بالتفقه في الدين لَتَمَطَّلَ عليهم الماش ، ولبقى الكفاية من درك ذلك المطلوب ، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية .

ويقال جل للسلمين على مراتب : فوامهم كالعوية للملك^(١) ، وكنية الحديث كخزائن الملك ، وأهل القرآن كحفاظ البعثة وقائس الأموال ، والفتاه بمنزلة الوكلاء للملك إذ الفقيه (...)^(٢) عن الله ، وعلماء الأصول كالنواد وأمراء الجيوش ، والأولياء كالأركان الباب ، وأرباب القلوب وأصحاب الصفاء كخواص الملك وجلسته .

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع ، وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بالرد على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقوم مفردون بحضور القلب وم أصحاب الشهود ، وليس لهم شغل ، يراعون مع الله أنفاسهم وم أصحاب الفراغ ، لا يستغفرون طلب ولا يهزم أرب ، فهم بالله لله ، وم هو عما سوى الله^(٣) .

وأما الذين ينتقون في الدين فهم السامعون إلى الله ، وإنما يفهم المخلوق عن الله من كان يفهم من الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا

الَّذِينَ يَكُونُونَ كَمِثْلِكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ

وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝

اقرب الأعداء إلى المسلم من الكفار ، الذي يجب عليه منازعته هو أعدى عدوه

(١) في الهامش (فاناس كلهم خدم للملك) . ولا توجد علامة توضح أنها من الحق ، فربما كانت منه وسقطت العلامة ، وربما كانت توضيحاً من أحد القراء .

(٢) مشتبه أقرب ما تكون إلى (يوم) أو (يوم) ورجح الثانية فقد وردت كذلك في سياق مماثل .

(٣) من هذا التصور نذكر شيئاً هاماً عند القشيري وعند الصوفية المجلس بامة ، فهم لا يتصورون التصوف مذهباً يسود المجتمع بامة فيكون الناس جميعاً متصوفة ، بل إن دوره الصوفي الهام في كيان المجتمع محصور في طائفة مخصوصة تمتد أثرها إلى خارج نطاقها ، والمتصوف (بالمثل) و (الفراغ) أن يكونوا خالصين لله . وليس المتصوف البطالة من التسلسل وعدم السعي للرزق .

أَي نَفْسُهُ . فيجب أن يبدأ بمقاتلة^(١) نَفْسِهِ ثم بمجاهدة الكفار ، قال عليه السلام : « رجونا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »^(٢) .

قوله : « وليجدوا فيكم خِطْلَةً » مَنْ حَابَى عَدُوَّهُ قَبْرُهُ ، وكذلك المرید الذي يَنْزِلُ من مطالبات الحقيقة إلى ما يتطلبه من التأويلات فيفسخ عَهْدَهُ ، وينقض عَقْدَهُ ، وذلك كالرَدِّ^(٣) لَأهل الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْشُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ آيَاتًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ أَيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾^(٤)

جَعَلَ اللَّهُ — سبحانه — إِنْزَالَ الْقُرْآنِ لِقَوْمٍ شَفَاءً . ولقَوْمٍ شَفَاءً ؛ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ جَدِيدَةٌ زَادَ شُكُّهُمْ وَتَحَرُّمٌ ، فَاسْتَلِمَ بَعْضُهُمْ حَالَ بَعْضٍ ، ثُمَّ لَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا تَحَسُّرًا ؛ قَالَ تَالِي : « وَهُوَ عَلَيْهِمْ سَخِي »^(٥) وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فزَادَتْهُمْ السُّورَةُ أَيْمَانًا فَارْتَقَوْا مِنْ حَدِّ تَأَمُّلِ الْبُرْهَانِ إِلَى رُوحِ الْبَيَانِ ، ثُمَّ مِنْ رُوحِ الْبَيَانِ إِلَى الْعَيَانِ ، فَالتَّجَوُّزُ وَالتَّرَدُّدُ (و...) ^(٦) وَالتَّحَوُّرُ مُنْتَقِيٌّ بِأَجْمَعِهِمْ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، وَشُغُوسُ الْعُرْفَانِ طَالِعَةٌ عَلَى أَسْرَارِهِمْ ، وَأَنْوَارُ التَّنْقِيقِ مَالِكَةٌ أَسْرَارِهِمْ ، فَلَا تُحْمُ قَبْ الطَّلَبِ ، وَلَا لَمْ حَاجَةٌ إِلَى التَّدْبِيرِ ،

(١) وردت (مقاتلة) والملائم بالنسبة لسياق (مقاتلة) هنا المدعو .

(٢) رواه الخطيب في التاريخ عن جابر (ص ٣٢٥ ٢٨ منتخب كتبه المجلد هاشم مسند الإمام أحمد) هكذا : (قدّم خير مقدم وقدّم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . مجاهدة البدن هواد) .

(٣) وردت (الرد) والصواب أن تكون (الردة) ، وقد أوضح القشيري ذلك في موضع آخر من الكتاب إذ يقول (وكان المرتدashed على السفين عداوة مكنتك من رجوع عن الإرادة الى الدنيا والمادة ، فهو أشد الناس انكساراً لهذه الطريقة واهبدا من أهلها) الجهد الأول : ص ٧٥ .

(٤) ينبغي أن نلحق بهذه الآية الآية التي بعدها « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كالفرون » لم ترد في المتن مع أن المصنف يشير إليها في شرحه . (٥) آية ٤٤ سورة فصلت .

(٦) مشتبهة ، ومصححة في الهامش بطريقة مبهمة وهي في الكتابة هكذا : (التبع) ، ولا تعرف منمن آتت العقل كلمة للقشيري قريبة في الخط منها ، وربما كانت (التعب) .

ولا عليهم سلطان الفكر . وأَشْمَةُ شمس العرفان مستنرة لأنوار نجوم السلم ،
يقول قائمهم :

ولما استبانَ الصبحُ أدرك ضوهه بأشْفاره أنوارَ ضوء الكواكب
قوله جل ذكره : ﴿وَأَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ
عالمٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا نَحْمِ يَذْكُرُونَ﴾

لم يُخْلِ الحقُّ — سبحانه — أربابَ التكليف من دلائل التعريف ، التعريفُ لهم
في كل وقت بنوع من البيان ، والتكليفُ في كل أوان بضرب من الامتحان ، فما لم يزد
لهم في إرضاح الإيهام لم يتجدد لهم من الله إلا زيادة الخذلان والحجة عن البيان .
وأما أصحاب الحقائق فالأغيار في كل عالم مرة أو مرتين فلهم في كل نفس مرة ،
لا يخلّصهم الحقُّ — سبحانه — من زواجر توجبُ بصر ، وخواطر تنضمّن تكليفاتٍ
وَأَوَامِرٍ^(١) قال قائمهم :

كَأَنَّ وَقِيئاً مِنْكَ حَلٌّ بِمَهْجِي إِذَا رُمْتُ مُسْبِلاً عَلَى تَصَعُّبَا
قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْهَا يَرَاءُكُمْ تَمِيزٌ
أَحَدٌ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

تَقَرَّبُوا بِضَمِيرِ النَّبِيِّ أَنَّهُمْ يَتَّقُونَ فِي سِرِّ بَشَافَتِهِمْ ، والحقُّ إني إلا أن
فَضَحَّيْتُمْ ، وكما وَصَّيْتُمْ بِرَقْمِ التَّكْوِينِ^(٢) أَطْلَعَ أُمَرَائِدَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ فَصَرَفَهُمْ عَلَى
مَامِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوْصَائِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

(١) التَّكْوِينُ اسم من الإنكار ، يقال : كَانُوا أَكْثَرَ تَكْوِينٍ (الوسط) .
(٢) ذَكَرَ لَأَنَّهُمْ بِتَمَامِهِمْ بِالْحَقِّ لَقَدْ نَبِّدُوا مِنْهُمْ أَشْيَاءَ تَسْتَعْمِي الزَّجْرَ أَوَّلَ أَمْرٍ لَأَنَّهُمْ دَائِمًا يَخْتَارُونَ الْأَشْيَاءَ .

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾

جاءكم رسولٌ يشاكنكم في البشرية ، قَلِيلًا أفردناه به من الخصوصية بالبسائه لباس
الرحمة عليكم ، وأقنناه بشواهد المطف والشقة على جلنكم ، قد وَكَلْ هِمَّةً بشأنكم ،
وأَكْبَرُ هِمَّةً لإيمانكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

أَمْرُهُ أَنْ يَدْعُوَ الْخَلْقَ إِلَى التَّوْحِيدِ ، ثم قال : فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِجَابَةِ فَكُنْ بِنَا
بِنَمْتِ التَّجْرِيدِ .

ويقال قال له : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حُسْبُكَ اللَّهُ ، ثم أمره بأن يقول حَسْبِيَ اللَّهُ
وهذا عين الجمع ، وقوله « فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » قرئ . . . بل هو جمع الجمع أى : قُلْ ،
ولكنك بنا تقول ، ونحن المتولى عنك وأنت مُسْتَهْلِكٌ في عين التوحيد ؛ فأنت بنا ،
وَمَحْوٌ مِنْ غَيْرِنَا .

سورة يونس عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَلِمَةٌ سَامِعُهَا يَرْجِبُ شِفَاءً كُلُّ عَائِدٍ ، وضيءٌ كُلُّ قَائِدٍ ، وعزاءٌ كُلُّ قَائِدٍ ، وبلاءٌ كُلُّ
وَاجِدٍ ، وَهَدْوٌ كُلُّ خَائِفٍ ، وَسُلُوكٌ كُلُّ عَارِفٍ . وَأَمَّا كُلُّ تَائِبٍ ، وَبَيَانٌ كُلُّ طَالِبٍ .
قُلُوبُ الْمَارِفِينَ لَا تَفْرَحُ إِلَّا بِسَمَاعِ بِسْمِ اللَّهِ ، وَكَرُوبُ الْخَائِفِينَ لَا تَبْرَحُ إِلَّا عِنْدَ سَمَاعِ بِسْمِ اللَّهِ .
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾

الألف مفتاح اسم « الله » ، واللام مفتاح اسم « اللطيف » والراء مفتاح اسم « الرحيم » .

أقسم بهذه الأسماء إن هذا الكتاب هو للوعود لكم يوم اللشق . والإشارة فيه أنا حققنا لكم لليعاد ، وأعلننا لكم عنان الوداد واتقوا زمانَ اليعاد ، فالصاة مُلقاة ، والأيام بالسور مُتلقاة ، فبادروا إلى شرب كلستو المحاب ، واستقيوا على تنجِج الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَكَانَ ثَلَاثِي عِجَابًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ .

تمجّبوا من ثلاثة أشياء : من جواز البعث بعد اللوث ، ومن إرسال الرسل إلى الخلق ، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة من بين الخلق . ولو عرفوا كمال ملكه لم يُسكروا جواز البعث ، ولو علموا كمال ملكه لم يبعدوا لإرسال الرسل إلى الخلق ، ولو عرفوا أن له أن يفعل ما يريد لم يتمجّبوا من تخصيص محمد — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة من بين الخلق ، ولكن سبّت بصائرهم فهاهو في أودية الهوى ، وعثرُوا — من الضلالة — في كل تهدية . وكان الأستاذ أبو علي الدقاق — رحمه الله — يقول : « جَرَزُوا أَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ مِنَ الْغُشْبِ وَالْمَعُولِ مِنَ الصَّخْرِ ^(١) إِلَهًا مَبْهُوً ، وَتَمَجَّبُوا أَنْ يَكُونَ مِثْلُ مُحَمَّدٍ — صلى الله عليه وسلم — فِي جَلَالَةِ قَدْرِهِ رَسُولًا . . . ١١٠ هذا هو الضلال البعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ .

وهو ما قدموه لأنفسهم من طاعاتٍ أخلصوا فيها ، وفنونٍ عباداتٍ صدّقوا في القيام بقضاها .

ويقال هو ما قدم الحق لم يوم القيامة من مقضى النية بشأهم ، وما حكم لهم من فنون إحسانهم ، وصنوف ما أفردهم به من امتنائهم .

ويقال : « قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » : هو ما رضوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان

(١) ورويت (المع) بإلقاء وهي خطأ في النسخ .

إرادتهم ، فإن لأقدام المردين المرفوعة لِأَنْبِلِ اللهُ حُرْمَةً عند الله ، ولأيامهم الخالية في حال
تَرُدُّدِهِمْ ، ولأيامهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقَةٍ تُصِيرُهُمْ .. مقاديرَ عند الله . وقيل :
مَنْ يَنْسَ دَاراً قَدْ نَخُونَهَا رَبُّهُ الزَّمانَ فَإِنِّي لست أَسَاكُ
وقيل :

تلك العبودُ أشدُّها رِتَحُلُها عندى كما هى جعدها لم يُحَلِّ
قوله جل ذكره : **وَإِنْ رَبُّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَدِئِهِ ذَلِكَ اللَّهُ
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** .

لا يحتاج فقهه إلى مدّة ، وكيف ذلك ومن جملة أسفله الزمان والمدة ؟ فَخَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ اللهُ سبحانه وتعالى .

« ثم استوى على العرش » أى تَوَحَّدَ بِجَلالِ الكبرياء بوصف الملكوت . ولو كنا
إذا أرادوا التجلُّ والظهور لَحَسَمَ والرعية برزوا لم على سرير مُلْكِهِمْ فى أوانِ مشاهدهم .
فأخبر الحقُّ — سبحانه — بما يَقْرُبُ مِنْ قَهْمِ الخلقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى
على العرش ، ومعناه اتصافه بـ^(١) الصدية وجلال الأحدى ، وافتراده بنعت الجبروت
وعلاء الربوبية ، قدس الجبارُ عن الأقطار ، والمعبودُ عن الحدود .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » : أى الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديره ، وحاصلةٌ بتدبيره ، فلا شريكَ
بعضه ، وما قضى فلا أحد يردّه . « ما من شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَدِئِهِ » : هو الذى يُنْطِقُ مَنْ
يخاطبه ، وهو الذى يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبُهُ .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ » : تعريف وقوله : « فاعبدوه » : تكليف ؛ فصولُ التعريف
بتحقيقه ، والوصولُ إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوقيفه .

(١) ووددت (بنير) الصدية وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

لأنه يبدأ أخلق ثم يعيده ليجزى

الذين آمنوا وعملوا الصالحات بِالْقِسْطِ

والذين كفروا لم شراب من حميم

وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴿

الرجوع يقتضى ابتداء الأرواح قبل حصولها فى الأشياء ، فإن لها فى مواطن التسييح والتقدس إقامة ، والقائى إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقومه أثر عند تحببه وذويه ، كما قيل :

أيا نادماً من سفره المجر مرجباً أناديك لا أنساك ماهيت الصبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الأثنى ، والثواب والحسنى . والعاصى إذا رجع إلى ربه قُبِحتْ الإفلاس وخسران الطريق ؛ فينلقى لباس الغفران ، وحلة الصفح والأمان ، فرحة مولاه خير له من نسجه وقواه .

قوله : « وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا » : موعودُ للطيع الفراديسُ المُلَى ، وموعودُ العاصى الرحمة والرضى . والجنةُ لُفُفُ الحقِّ والرحمةُ وصفُ الحقِّ ؛ فاللطفُ فعلٌ لم يكن ثم حصل ، والتفتُّ لم يزل (١) .

قوله . « إِنَّهُ يَبْدَأُ أَلْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ » : مَنْ كَانَ لَهُ فى جَمِيعِ عَمَلِهِ نَفْسٌ عَلَى وَصْفِ مَا ابْتَدَأَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِهِ فى الإِشَارَةِ : تَكُونُ لِنَظَرِهِ إِعَادَةٌ ، وَأَشْدَا :

كلُّ شَيْءٍ فِيهِ مَا هُوَ قَدْ جَرَى فَإِلَيْهِ الْمَاءُ يَوْمًا سَيَعُودُ

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ

نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَتَمُوتُوا عَدَدَ

الَّتَيْنِ وَالْحَسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ

إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ ﴿

(١) يفرق التشبىء فى كتابه (التعبير فى التذكير) الذى قنا بتحقيقه بين صفات الفعل وصفات الذات .

أنوار العقول نجومٌ وهي للشياطين رجوم ، وللعلم ^(١) أقار وهي أنوار واستبصار ،
وللمعارف شمس ولها على أسرار المعارف طلوع ، كما قيل :

إِنَّ تَمَسَّ النَّهَارُ تَمَرُّبٌ بِالْقَلْبِ وَتَمَسَّ الْقُلُوبُ لَيْسَتْ تَقَرُّبٌ

وكما أَنَّ في السماء كوكبين شمساً وقرراً ؛ الشمسُ أبداً بضياءها ، والقمرُ في الزيادة والنقصان ؛
يُسْتَرُّ بمحافه ثم يكلل حتى يصير بدرأً بنمت إشراقه ، ثم يأخذ في النقص إلى أَنْ لا يبقى شيء منه
لتمام انحطاطه ، ثم يعود جديداً ، وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدرأً تاماً ، لم يجد أكثر من
ليلةٍ لكمالها مقاماً ، ثم يأخذ في النقصان إلى أَنْ يَخْفَى شَخْصُهُ وَيَتِمَّ نَقْصُهُ .

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ قَبْضِهِ وَبَسْطِهِ ، وَصُغْرِهِ وَكِبَرِهِ ، وَذَهَابِهِ وَإِلَائِهِ ؛
لَا فَنَاءً فَيَسْتَرْجِعُ ، وَلَا بَقَاءً لَهُ دَوَامٌ صَحِيحٌ ، وَقِيلَ :

كَلَّمَا قُلْتُ قَدْ دَنَا حُلُّ قَيْدِي كَبَلُونِي فَأَوْشَقُوا الْمَسَارَا

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

اِخْتَصَّ النَّهَارُ بِضِيَائِهِ ، وَانْفَرَدَ الْقَلْبُ بِظُلُمَاتِهِ ، مِنْ غَيْرِ اسْتِجَابَةٍ لَذَلِكَ ، وَمِنْ غَيْرِ
اسْتِحْقَاقِ عِقَابٍ لِهَذَا ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّدَّ وَالْقَبُولَ ، وَلِلنَّعْ وَالْوَصُولَ ، لَيْسَتْ مَعْلُومَةً
بَسْبَبٍ ، وَلَا حَاصِلَةً بِأَمْرِ مُكْتَسَبٍ ؛ كَلَّا . إِنَّهَا إِرَادَةٌ وَمَشِيقَةٌ ، وَحُكْمٌ وَقَضِيَّةٌ .

النَّهَارُ وَقْتُ حُضُورِ أَهْلِ الْفَلَاحَةِ فِي أَوْطَانِ كَسْبِهِمْ ، وَوَقْتُ أَرْبَابِ الْقَرْيَةِ وَالْوَصْلَةِ لِأَنْفَرَادِهِمْ
بِشُهُودِ رَبِّهِمْ ، قَالَ تَائِلُهُمْ :

هُوَ الشَّمْسُ ، إِلَّا أَنَّ الشَّمْسَ غَيْبَةٌ وَهَذَا الَّذِي نَنْبِيهِ لَيْسَ يَغِيبُ
وَالدَّلِيلُ لِأَحَدٍ شَخْصَيْنِ : أَمَّا السَّجْبُ فَوَقْتُ النَّجْوَى ، وَأَمَّا الْعَامَى فَبَثُّ الشُّكْرِ .

(١) وردت (المعوم) وهي خطأ في النسخ إذ المقصود نوع من المعالجة بين (العلوم) والمعارف .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارٍ وَرَضُوا

بالحياة الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ

هُمْ مِنْ أَكْثَرِ غَافِلِينَ • أُولَئِكَ مَا أَوْامِ

النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١﴾

أنكروا جوازَ الرؤية فلم يرجوها ، والمؤمنون آمنوا ^(١) بجوازِ الرؤية فأملوها .

ويقال : لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشاقوا إليه ، ولم يشاقوا إليه لأنهم لم يحبوه لأنهم لم يعرفوه ، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألا يطلبوه ، قال تعالى : « وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » ^(٢) .

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه ، ولو طلبوا لرفوا ، ولو عرفوا لأحبوا ، ولو أحبوا لاشاقوا ، ولو اشاقوا لرجوا ، ولو رجوا لآملوا لقاءه ، قال تعالى : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَنَاءً » ^(٣)

قوله تعالى : « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا » : أمصابُ الدنيا ورضوا بالحياة الدنيا فحرموا الجنة ، والآحادُ ^(٤) رَكَنُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَرَضُوا بِهَا فبقوا من الوصلة ، وقد علم كلُّ أناسٍ مشربهم ، ولكلِّ أحدٍ مقلّم .

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءه فأوام المذاب والفرقة ، فدلّل الخطاب أن الذي يرجو لقاءه رآه ، ومآله ومنتهاه الوصلة واللقاء والزلفة .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِهْمَاتِهِمْ فَخْرِي مِنْ

تَحْتِمْ الْإِهْمَاتِ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٢﴾

كما هدام اليوم إلى معرفته من غير خروسة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيب من المخلوقين ولا وسيلة .

(١) من هبة بهم أن الله يضمن بجواز رؤية الله في الآخرة ، أما رؤيته في الدنيا فإنه يقول في الرسالة ص ١٧ : (الأقوى أنه لا يجوز رؤية الله بالابصار في الدنيا — وقد حصلنا لإجماع في ذلك) .

(٢) آية ٤٢ سورة النجم .

(٣) آية ١٣ سورة السجدة .

ويقال: أَنَا الطَّيِّعُونَ فنورهم يسرى بين أيديهم وهم على مراكب طاعتهم، والملائكة تتلقاؤهم والحق، قال تعالى: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْنِ وَفَنَّا» (١) فنحشرهم، والمعاصون يَبْقَوْنَ منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحن في مطاحات (٢) القيامة.

والحق — سبحانه — يقول لهم: هيكدي، إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ — الْيَوْمَ — فِي سُكْرٍ عَنْكُمْ، إِنْهُمْ فِي النَّوَابِ لَا يَتَفَرَّغُونَ إِلَيْكُمْ، وَأَصْحَابُ النَّارِ مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ لَا يَرْقُبُونَ لَكُمْ مُعَاثِرَ الْمُسَاكِينِ.

كيف أتم إن كان أشكالكم وأصباؤكم سبقوكم؟ وواحدٌ منهم لا يهديكم فأننا أهديكم. لأنني إن عاملتكم بما تسترهبون... فأين الكرم يمحنتنا إذا كنا في الجفاء مثلهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جل ذكره: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

فالتَّحِيَّاتُ التَّهْنِئَةُ عَلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ فِي حَالِ لِقَائِهِمْ. وَتَحِيَّاتُهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنْ اللَّهِ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» «وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»: وَالْحَمْدُ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْمَدْحِ وَالتَّهْنِئَةِ، فَيَتَنَوَّنُونَ عَلَيْهِ وَيَحْمَدُونَهُ بِحَمْدٍ أَبَدِيٍّ سَرْمَدِيٍّ، وَالْحَقُّ — سبحانه — يُحْيِيهِمْ بِسَلَامٍ أَزَلِيٍّ وَكَلَامٍ أَبَدِيٍّ، وَهُوَ عَزِيزٌ صَدِيقٌ وَبَحِيدٌ أَحَدِيٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ يَجْعَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِجْلَالًا بِالْخَيْرِ لَغْفِي لَائِمُهُمْ أَجْلُهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ قِسَاءَنَا فِي طَلَبَاتِهِمْ يَمْشُونَ﴾

أَيُّ لَوْ أَجْبَنَاهُمْ إِذَا دَعَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ غِيظِهِمْ وَضَجَرِهِمْ لَجَبَلْنَا إِهْلَاكَهُمْ، وَلَكِنْ

(١) آية ٨٥ سورة مريم.

(٢) المطاح والمطاحة: أما مكان من طاح، وهو المسك الوعر المبارك.

تَحَمَّلْنَا أَلَا نُجِيبَهُمْ ، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبدُ بأن الربَّ لا يجيبُ دُعاءه ، ولو علمَ أنه تركَ إجابته لظناً منه وأنَّ في ذلك بلاءٌ لو أجابه ، كما قيل :

أَتَأْسُ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلا جُرْمٍ وَلَا مَعْنَى
أَسْأَلُوا ظَنَّمْهُمْ فِينَا فَبَلَاءٌ أَحْسَنُوا الظَّنَّ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا

بِغَنِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا
إِلَى ضُرِّهِ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْسَرِفِينَ
مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴾

إذا امتنع العبدُ وأصابه الضرُّ أزعجته الحالُ إلى أن يرومَ التخلصَ مما ناله ، فيعلمُ أنَّ
غيرَ الله لا ينجيهِ ، فتحمله الضرورةُ على صِدْقِ الالتجاءِ إلى الله ، فإذا كَشَفَ اللهُ عنه
ما يدهو لِأجلِهِ شَقَلَتْهُ راحةُ الغلامِ من تلكِ الحالة ، ورَأَيْتَهُ ذلكَ الاتِّباعَ ، وصار كأنه لم
يكن في بلاءٍ قط :

كَأَنَّ الْغَنَى لَمْ يَمُرَّ يَوْمًا إِذَا كَتَمَى وَلَمْ يَكْ صُلُوكًا إِذَا مَا تَوَلَّى

ويقال بلاءٌ يُلْجِئُكَ إلى الاتِّصَابِ بَيْنَ يَدَيْ مَبْهُودِكَ أَجْدَى لَكَ مِنْ عَطَاؤِ بِنْسِيكَ
ويكنيك عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ

قَبْلِكَ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْقَوْمَ الْمَجْرِمِينَ ﴾

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاكِ الظالمين ، كما في الخبر : « لو كان الظلم يَتَأَى فِي الْجَنَّةِ لَسَلَّطَ اللهُ
عليه الخراب » . والظلمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غيرِ موضعه ، فإذا وَضَعَ العبدُ قَصْدَهُ - عند حوائجه -
في المخلوقين ، وتعلَّق قلبه بهم في الاستمانة ، وطَلَبَ المأمولَ وقد وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غيرِ موضعه ،

وهو ظلم ؛ فعقوبة هذا الظلم خراب القلب ، وهو السداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله ؛
لأنه لو رجع إلى الله لأعانة وكفاه ، ولكنه يُصرُّ على تعليق قلبه بالخلق فيبقى عن الله ،
ولا ترتفع حاجته من غيره ، وكان من قرره وحاجته في مصرّة . فإن صار إلى مضرة المنة
والحاجة إلى التّيم فذلك محنة عظيمة .

وعلى هذا القياس إذا أحب مخلوقاً فقد وُضِعَ محبته في غير موضعها ، وهذا ظلم ؛ وعقوبته
خرابٌ ووجه لعدم صفاء هذه ومحبة الله ، وذهاب ما كان يبيده من الأُنس بالله ، إذا بقي
عن الله يُدَيِّقه الحقّ طعم المخلوقين ، فلا له مع المخلوق سلوة ، ولا من الحقّ إلا الجفوة ،
وعدم الصفوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ

مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

هرفنا كم يصرُّ من قِبَلِكُمْ ، وما أصابهم بسبب ذنوبهم ، فإذا اعتبرتم بهم نجوهم ،
ومن لم يعتبر بما سمعه اعتبر به من تبعه .

ويقال أحلنا بهم من العقوبة ما يعزيبكم ، ومن لم يعتبر بين سبقة اعتبر به من لحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

قَالَ الَّذِينَ لَا يُدْرِيُونَ لِمَ آتَيْنَا

بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَلَا يَكُونُ

لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ

أَتَيْتُكُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنَّي أَخَافُ

إِنْ عَصَيْتُمْ رُبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عظيم ﴾

إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم تأمرك به ، أو ترهبهم ما لم تُظهِرْ عليك من الآيات ..
فأخبرهم أنّك غير مُستقل بك ، ولا موكل إليك ؛ فنحن القائم عليك ، المصرف لك ،
وأنت المتبع لما نبريه عليك غير مُبتدعٍ لبا يحصل منك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ نُوْشَاءُ اللّٰهُ مَا تَكْفُرُوْنَ عَلَيْهِمْ
وَلَا اَدْرَاكُمْ بِهِ قَدْ لَبِثْتُ فِيْكُمْ
عُمْرًا مِّنْ قَبْلِهِ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾

قد عشتُ فيكم زمانا ، وهرقم أحوالى فيها تطلبون منى عليه برهاناً^(١) ،
فأأليتمونى (...)^(٢) بل وجدتمونى فى السداد مستقيماً ، ولارشاد مستديماً ، فلو لا أن
الله تعالى أرسلنى ، ولياً حَمَلْتَنِيْ مِنْ تَكْلِيْفِهِ أَهْلَتَنِيْ لِمَا كُنْتُ بِهِذَا الشَّرْعِ آتِيّاً وَلَا هَذَا
الْكِتَابِ تَابِئاً .

« أفلا تعقلون » ما لكم تعترضون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَسَنُأْتِلْكُم مِّنْ أَمْرٍ يُفْعَلُ عَلَى اللّٰهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ
الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

السَّكْبُطُ فى الشَّرْعِ قَبِيحٌ ، وإذا كان على الله فهو أقيح .
ومنَ اللّٰغِزَيْنِ على الله : اللّٰهِنِ يُظْهَرُونَ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا لَيْسُوا فِيهِ صَادِقِينَ ، وجزاؤهم
أَنْ يُحْرَمُوا ذَلِكَ أَبَدًا ، فلا يصلون إلى شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ
وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا
عِنْدَ اللّٰهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّٰهَ بِمَا
لَا يَلْمُكَ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
صِبْغَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ذَمُّهُمْ على عبادة ما ليس منه ضرٌّ ولا نفعٌ .
فدليلُ الخطأ بقضى أَنْ يَكُونَ الْمَسْبُودُ مِنْهُ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ ، وَمِنْ قَرُوطِ غِبَابَتِهِمْ أَنَّهُمْ

(١) أى لماذا تطلبون الآن منى برهاناً على شيء أنتم عرضتموه منى من قبل وهو صدق ؟
(٢) مشبهة .

انتظروا إلى المآلِ الشفاعة من لا يوجد منه الضر والنفع في الحال . ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً ، ولو كان كما قالوا لكانوا أنه سبحانه لا يعزبُ عن علمه ^(١) معلوم .

ومعنى قوله : « لا يعلم » : خلافه . ومن تعلّق قلبه بالمفلوقين في استدفاع المضار واستجلاب المسار فكالمسالكِ سبيل من هبّد الأصنام ، إذ المُنشئ والموجدُ الشيء من العدم هو الله — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان للناس ، إلا أمة واحدة ﴾

يختلفوا ، ولولا كلمة سبقت

من ربك لفضي بينهم فيما فيه

يختلفون ﴿ .

وذلك من زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا ، والحق — سبحانه — سبق قضاؤه

بتأخير حسابهم إلى الآخرة ، ولذلك لا يجيبهم إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة .

وإنما اختلفوا لأن الله خصّ قوماً بعنائه وقبوله ، وآخرين بإهائه وإبعاده ، ولولا ذلك لما كانت بينهم هذه المخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربّه قل إنّما الغيب لله فانتظروا ﴾

إني معكم من المنتظرين ﴿ .

أخبر أنه — عليه السلام — في ستر الغيبة وخفاء الأمر عليه في الجملة لتقصّر علمه

عما سيحدث ، فهو في ذلك بمنزلة من لا في مواطن التخصيص بأنوار التعريف ، فشكا أنهم

في الانتظار لما يحدث في الميناء فهو أيضاً في انتظار ما يوجد — سبحانه — من المقادير .

والفرق بينه — عليه السلام — وبينهم أنه يشهد ما يحصل له — سبحانه — ومنه ، وهم منقطعون

في أودية الجهالة ؛ يجيئون الأمر مرة على الدهر ، ومرة على النجم ^(٢) ، ومرة على الطبع . .

وكل ذلك حيرة ونمى .

(١) وردت (عمله) وهي خطأ في النسخ .

(٢) القصد بالنجم هنا الطالع والحظ من نحس وسود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ
صَرَّاءَ مَسَّتِهِمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ
فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

يعنى إذا أصابهم صُرٌّ ومحنة فرحناهم وكشفنا عنهم ، أحلوا الأمر على غيرنا ، وتوهوه
بما هو سوانا مثل قولهم : مُطِرْنَا بنوء كذا ، ومثل قولهم إن هذه سعادة نَحْمُ أو مساعدة دولة
أو تأثير فَكَّرَ أو خيراتُ دهر .

فهذا كان مَكْرُهُم أما مكر الله — سبحانه — بهم فهو جزاؤهم على مكرهم . والإشارة
في هذا أنه ربما يكون للريد أو الطالب حجة أو فقرة .. فإذا جله الحق بكشف
أو تبيل أو إقبال فَمِنْ حَقِّهِمْ ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها^(١) ، لأنهم إذا لم يرتقوا
عن ملاحظة أحوالهم إلى النبية بشهود الحق مَكْرَ الله بهم بأن شنتهم في تلك الأحوال من
غير ترقٍ عنها أو وجود زيادة عليها ، وهذا مَكْرُهُ بخواتمهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَا الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَيْنَ
بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا
رِيحٌ صَافٍ وَجَلَّاهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَغَلَّتْهُمْ أَمْهَامٌ أَرِيضُ بِهِمْ دُخَانُ
اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ إِنَّ الْفُلَ لَأَنجَيْنَا
مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

يريد أنهم يُصْبِحُونَ في النِّمِّ يَمْرُونَ أَذْيَالَهُمْ ، ثم يُمَسُّونَ لِيَاكُلَهُمْ . وقد يَبِيتُونَ
وَالْبَهْجَةُ مَكْكَتُهُمْ ثم يصبحون وغلوا التقدير أهلكتهم ، وأنشدا :

(١) نفهم من هنا أن (الملاحظة) أخف من (الساكنة) وكتابتها من آفت الطريق ، بلع التشديد
دائماً على التحذير منها ، وقد بالغ أهل اللامعة في توضيح أضرارها — كما تفيد بذلك النصوص التي رواها
عنهم في (رسالته) .

أَقْتَرِ زَمَانًا وَالصَّيُونَ خَرِيرَةً وَأَصْبَحْتَ يَوْمًا وَالْجَنُونَ سَوَاقِثَ

فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ فِي خَلَاصٍ الْعِلَافُ يَجُودُ عَلَيْهِمْ يَكْشِفُ الْبَلَاءَ .

فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِالْإِجَابَةِ لَمَسَهُمْ إِذَا هُمْ إِلَى غَيْرِهِ ^(١) يَرْجِعُونَ وَعَلَى مَنَاحِهِمْ فِي تَحْدِيدِمْ يَسْلُكُونَ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُمْ يَمِينُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

يَنْهَرُ الْحَقُّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَنَيْتُمْ

عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَنَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَعْنَاهُ : « تَمْتَصُّكُمْ أَيْمَانًا قَلِيلًا » ، ثُمَّ تَلْقَوْنَ ^(٢) غَيْبٌ

ذَلِكَ وَتَبْدَأُونَ تَعْمَلُونَ هَذَا بِأَطْوَلًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا سَكَبٌ أَنْزَلْنَاهُ

مِنْ السَّمَاءِ فَاسْتَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

حَمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا

أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ

وَعُظُنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرٌ نَايِلٌ أَوْ نَهْلٌ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

كَأَن لَّمْ تَتْنَبَّأْ بِالْمَرْءِ كُنْزُكَ نَفْصَلُ

الْآيَاتِ قَوْمٌ يَنْفَكُونَ ﴿

شَبَّهَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْمَاءِ اللَّائِلِ مِنَ السَّمَاءِ يَكْنُثُ بِهِ النَّبَاتُ وَتَخْضَرُ الْأَرْضُ وَتُظْهِرُ الْقَارِعُ

وَيُورِثُنَّ أَرْبَابُهَا عَلَيْهَا فَوَسَّهَمَ ، فَتَصِيدُهُمْ جَائِعَةٌ مَحَاوِيَةٌ بَقْتَةً ، وَتَصِيرُ كَأَن لَّمْ تَكُنْ .

كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ بِمَدْكَالٍ مِنْهُ وَتَعَامُ قُوَّتُهُ وَاسْتِجْمَاعُ الْخَصَالِ الْمَحْمُودَةِ فِيهِ تَخْضَرُ مَهْ النَّبِيَّةُ ،

وَكَذَلِكَ أُمُورُهُ الْمُنْتَظَمَةُ تَتَبَدَّلُ وَتُخْتَلُ بِوَفَاتِهِ ، كَمَا قِيلَ :

(١) وردت (هريم) والأكثر ملامة لسياق أن تكون (هريم) .

(٢) وردت (يلقون) وهي خطأ في النسخ لعدم اتفاقها مع أسلوب الخطاب .

فَقَدْ نَاهُ لَمَّا نِمُّ وَاخْتَمُّ بِالْمَلَى كَذَلِكَ كُوفُ الْبِدْرِ عِنْدَ نَحْمِهِ
 وَمِنْ وَجْهِ تَشْبِيهِ الْأَحْوَالِ الدِّنيَّةِ بِالْمَاءِ لِلتَّزَكُّيِّ مِنَ السَّيِّئِ أَنَّ اللَّطَرَ لَا يَنْزِلُ بِالْحِلْيَةِ ،
 كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا تَسَاعِدُهَا إِلَّا الْقِسْمَةُ .
 نِمُّ إِنْ لِلطَّرِ إِنْ كَانَ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالتَّعْدِيرِ فَقَدْ يُسْتَعْتَقُ . . كَذَلِكَ الرِّزْقُ — وَإِنْ كَانَ
 بِالْقِسْمَةِ — فَقَدْ يُلْتَمَسُ مِنَ اللَّهِ وَيُسْتَعْتَقُ .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ فِي مَوْضِعِهِ سَبَبُ حَيَاةِ النَّاسِ ، وَفِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ سَبَبُ خَرَابِ لِلْوَضْعِ ،
 كَذَلِكَ الْمَالُ لِمُسْتَحَقِّهِ سَبَبُ سَلَامَتِهِ ، وَاتَّقَاعِ الْمُتَصَلِّينَ بِهِ ، وَعِنْدَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ سَبَبُ طُغْيَانِهِ ،
 وَسَبَبُ بِلَادِهِ مَنْ هُوَ مُتَصَلٌّ بِهِ ، كَمَا قِيلَ : نِعْمَ اللَّهُ لَا تُعَابُ وَلَكِنَّهُ رِيحًا اسْتَجْمَعَ عَلَى إِنْسَانٍ ،
 وَكَأَقِيلٍ :

يَا دَوْلَةً لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ شَيْئَةٌ زَلُّوْا فَا أَنْتَ إِلَّا عَلَى الْكَرَامِ بَلِيَّةٌ
 وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ بِمِقْدَارِ كَانَ سَبَبُ الصَّلَاحِ ، وَإِذَا جَاوَزَ الْحَدَّ كَانَ سَبَبُ الْفُرَاقِ ..
 كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ وَالْكَفَافِ فَصَاحِبُهُ مُنْعَمٌ ، وَإِذَا زَادَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ
 أَوْجَبَ الْكُفْرَانَ وَالطُّغْيَانَ .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ مَا دَامَ جَارِيًا كَانَ طَيِّبًا ، فَإِذَا طَالَ مَكْنُهُ تَغَيَّرَ . . كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا أَتَقَه
 صَاحِبُهُ كَانَ مَحْدُودًا ، فَإِذَا ادَّخَرَهُ وَأَمْسَكَ كَانَ مَعْلُولًا مَذْمُومًا .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ طَاهِرًا كَانَ حَلَالًا يَصْلَحُ لِلشُّرْبِ وَيَصْلَحُ لِلطَّهْوِ وَلِإِزَالَةِ الْأَذَى ،
 وَإِذَا كَانَ غَيْرَ طَاهِرٍ فَالْعَكْسُ . . كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ حَلَالًا ، وَبَعَكَهُ لَوْ كَانَ حَرَامًا .

وَيَقَالُ كَمَا أَنَّ الرِّيحَ تَتَوَدَّدُ أَشْجَارَهُ ، وَتَطْفِرُ أَنْوَارَهُ ، وَتُخَضِّرُ رِيَاضَهُ ، وَتُزَيِّنُ بَانِيَاتِ
 وَهَآذِهِ وَتِلَاوَةً ، لَا يُؤْمَنُ أَنْ تُصِيبَهُ آفَةٌ مِنْ غَيْرِ ارْتِقَابٍ ، وَيُنْقَلِبُ الْحَالُ بِمَا لَمْ يَكُنْ
 فِي الْحِسَابِ . كَذَلِكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ لَهُ أَحْوَالٌ صَافِيَةٌ ، وَأَعْمَالٌ بِشَرَطِ الْخُلُوصِ زَاكِيَةٌ ،
 فَصَوْنٌ أَنَّهُ مُتَدَلِّيَةٌ وَوَرِيضٌ قَرِيبُهُ مَوْفِقُهُ . . ثُمَّ تَصِيبُهُ عَيْنٌ فَيَذِلُّ عَوْدُ وَصَالِهِ ، وَتَقْسُدُ أَبْوَابُ
 هَوَائِهِ إِقْبَالَهُ ، كَمَا قِيلَ :

عَيْنٌ أَصَابَتْكَ إِنْ الْعَيْنَ صَافِيَةً وَالْعَيْنُ تُسْرِعُ أَحْيَانًا إِلَى الْخَسَرِ

قوله جل ذكره : ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩٠﴾

دعاهم إلى دار السلام ، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام ، وهو اعتناق أوامره والالتزام بها من زواجه . والدعاهم من حيث التكليف ، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف .

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف ؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص .

ويقال التكليف بحق سلطانه ، والتعريف بحكم إحسانه .

ويقال الدعاء قوله والهداية طوره ؛ دَخَلَ الْكَلْبُ تَحْتَ قَوْلِهِ ، وانفرد الأولياء بتخصيص طوره . دار السلام دار الله لأن السلام اسم من أسماءه .

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أي أهلها سالمون فيها ؛ سالمون من الحُرقة وسالمون من الفُرقة ؛ سَلِمُوا من الحُرقة فخلصوا على لذة عطائه ، وسَلِمُوا من الفُرقة فوصلوا إلى عزيز لقائه .

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُهُ من السجود لِلصَّنَمِ ، وسَلِمَ قَلْبُهُ من الشرِّ والظلم .

ويقال تلك الدار درجات ؛ والذي سَلِمَ قَلْبُهُ من حبة الأفاعيل خرجته أعلى من درجة مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُهُ من الذنوب والأوصال .

ويقال قوم سلت صدورهم من الغِلِّ والحسد والحقد ؛ وسَلِمَ الْخَلْقُ مِنْهُمْ ؛ فليس بينهم وبين أحد محاسبة ، وليس لهم على أحد شيء ؛ فالسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ، والمحصرون من سَلِمَ الْخَلْقُ بِأَجْمَعِهِمْ من قلبه .

« اسراط المستقيم » : طريق المسلمين ، فهذا للعوام بشرط علم اليقين ، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الغاوص بشرط حق اليقين ؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب الإبرهان ، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب

البيان ، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف^(١) كالبيان ، وهم الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم :
« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » .

قوله جل ذكره : (الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) .

« أحسنوا » : أى جملوا وأحسنوا إذ كانت أفعالكم على مقتضى الإذن .

ويقال « أحسنوا » : لم يقصروا في الواجبات ، ولم يخلوا بالتنبيهات .

ويقال « أحسنوا » : أى لم يبق عليهم حق إلا قاموا به ؛ وإن كان حق الحق فحين غير
تقصير ، وإن كان من حق الخلق فأداه من غير تأخير .

ويقال « أحسنوا » : في المآل كما أحسنوا في الحال واستداموا بما فيه واستقاموا ، والحسن
التي لم هي الجنة وما فيها من صنوف النعم .

ويقال الحسن في الدنيا توفيق بدوام^(٢) ، وتحقيق بهام ، وفي الآخرة غفران مفضل ،
وهيان على التأييد^(٣) محصل .

قوله : « وزيادة » : فعل موجب الظهور وإجماع السلف النظر إلى الله . ويشتمل أن
تكون « الحسن » : الرؤية ، « والزيادة » : دوامها . ويشتمل أن تكون « الحسن » : القاء ،
« والزيادة » : البقاء في حال القاء .

ويقال الحسن عنهم لامتقطة ولا بمنوعة ، والزيادة لم لاعتهم محبوبة ولا مسلوية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَزِدُّهُمْ قَوْلُهُمْ قَوْلًا وَلَا ذُلَّهُ ﴾

أولئك أصحاب الجنة هم فيها

خالدون ﴿ ٥٥ ﴾

لا يقع عليهم غبار الحجاب ، ويمكنه حديث الكفار حيث قال : « ووجوه يومئذ عليها
غبرة » .

(١) (المعرفة بالوصف) احتراز هام جداً ، حق لا يظن أن (البيان) يستغنى عن (القاءات) الصدية ،
ولأنما يقتصر الأمر على (عرفان الأوصاف) الإلهية كالجلال والجلال والكرم . . إلى آخره .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « خير العمل أدومه وإن قل »

(٣) (التأييد) مناد إلى الأبد فهم في الجنة خالدون أبداً ، وستأتي لفظة (التأييد) في العروة أيضا
بعد قليل .

« والذلة » التي لا تصيبهم أى لا يردُّوا من غير شهود إلى رؤية غيره ، فهم فيها خالون في فنون أفعالهم ، وفي جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ

بمثلها وَتَرْهَقُهُمْ ذُكُوعٌ مَّا لَمْ يَأْتِ اللَّهُ مِنْ لَدُنْهِمْ كَأَنَّمَا أَخَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ » .

والذين كسبوا السيئات وعملوا الزلات لم جزاء سيئة مثلها ، والباء في « بمثلها » : صلة أى لواحد واحد .

« وَتَرْهَقُهُمْ ذُكُوعٌ » : هو تأييد العقوبة .

« ما لم من الله من علم » أى ما لم من عذابه من علم ، سِيمُوا ذُلَّ الحجاب ، وَنُفُوا بِتَأْيِيدِ الْعَذَابِ ، وَأَصَابَهُمْ هَوَانُ الْعِمَادِ . وَأَنَارُ الْحِجَابِ عَلَى وَجُوهِهِمْ لِأَنَّهُ قَائِمُ الْأَمِيرَةِ تَدُلُّ عَلَى السَّرِيرَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَمًا ثُمَّ قَوْلُ

لَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارٌ تَمِيزُونَ ۝ فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَيْدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝ »

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله ، فنقول الأصنام : ما أمرناكم بعبادتنا . فيدعون على الشياطين التي أطاعوها ، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها ، ونقول الأصنام : كفى بالله شيداً ، على أننا لم نأمركم بذلك ؛ إذ كنَّا جاداً . وذلك لأنَّ اللَّهَ يُعْطِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُنْطِقُهَا .

وفي الجملة ... يتبرأ بعضهم من بعض ، ويدوق كلُّه ويألفه .

وفائدة هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وإلّا عليهم ؛ فاشتغالكم — اليوم — بذلك محال^(١) ، ولم في المآل — من ذلك — وإلّا ..

قوله جل ذكره : ﴿ هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَمَتْ ﴾ فَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿

إنما يفتنون على خسرائهم إذا ذاقوا طعمَ هوائهم ؛ فإذا رُدُّوا إِلَى اللَّهِ لم يجدوا إلا البعدَ من الله ، والطرْدَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، وذلك جزاء مَنْ أَتَى عَلَى اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّحَابَ وَالْأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ اللَّيْتِ وَيُخْرِجُ اللَّيْتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يَدْبُرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

كما تَوَحَّدَ الْحَقُّ — سبحانه — بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً ، وكألا خالقٍ سواه فلا رازقَ سواه .

ثم الرزق على أقسام : فللأشباح رزق : وهو لقوم توفيق الطاعات ، ولآخرين خذلان الزلات . وللأرواح رزق : وهو لقوم حقائق الوصلة ، ولآخرين — في الدنيا — العفلة وفي الآخرة المذاب والمهلة .

« أَمْ يَمْلِكُ السَّحَابَ وَالْأَبْصَارَ » : فيشكل بعض الأبصار بالتوحيد ، وبعضها يسميها من التحقيق .

(١) المحال هنا معناها ما محمّل به من وجه (أنظر هذا المعنى في الوسيط) .

« ومن يخرج الحق من الميت ويخرج الميت من الحق » : يخرج المؤمن من الكافر ،
والكافر من المؤمن .

« فسيقولون الله » : ولكن غلنا ... لا عن بصيرة ، ونطقاً ... لا عن
تصديق سريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رُبُّكُمْ الْحَقُّ ،
فَإِذَا بَدَأَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى
تُصَرِّفُونَ ﴾

ما يكون من موضوعات الحق ، ومتعلقات الإرادة ، ومتنولات المشيئة ، ومجسّسات
التفسير ، ومُصَرِّفاتِ القدرة — فهي أشياحُ خلوية ، وأحكامُ التقدير عليها جارية .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
سَبَقَ لَمْ تُحْكَمْ ، وَصَدَّقَ فِيهِمُ الْقَوْلُ ؛ فَلَا مَحِيصَ تَحْوِيلَ وَلَا قَوْلَ تَبْدِيلَ ، فَإِنَّ
الْعَلَلَّ^(١) لَا تُقَدِّرُ الْأَوَّلَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

كَشَفَ قُبُوحَ مَا انطوت عليه عقائدُهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخلقُ والإعادة ،
وَأَتَتْ أَنْ الْمَعْبُودَ مِنْ مِثْلِ الْخَلْقِ وَالْإِعَادَةِ .

قَوْمٌ جَعَلُوا لَهُ فِي الْإِبْهَادِ شُرَكَاءَ يَدْعَوْنَ الْقَدْرَ ، وَقَوْمٌ مَنَعُوا جَوَازَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِعَادَةِ .
وَكُلُّ هَذَا جُنُوحٌ إِلَى الْكُفْرِ وَذَهَابٌ عَنِ الدِّينِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِحَقِّ أَفْسَنْ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَتَقْنَأُ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ

(١) أى — حسب مذهب التشيى — أحكام الله السابعة لا تمنع الله ، غير أننا لا نستبعد أنها (الحيل)
جميع حيلة ، فلس تدوير الإنسان يتغير الحكم السابق في الأول .

لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١﴾

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه ، ومعناه أنه موجود ، وأنه ذو الحق ، وأنه محقُّ الحق .
والحقُّ من أوصاف التلَوِّ ، ما حَسَنَ فطه وصحَّ اعتقاده وجزَّ النطق به .
« والله يهدي للحق » : أى إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنى ؛ فَمَنْ هَدَاهُ
الْحَقُّ لِلْحَقِّ وَقَفَّهَ عَلَى الْحَقِّ ، وعزَّزْ مَنْ هَدَاهُ الْحَقُّ إِلَى الْحَقِّ لِلْحَقِّ ، قاله نصيب
وما له حظُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَنْبِغُ أَكْثَرُكُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ
الظَّنَّ لَا يُفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْكُمُونَ ﴾

الظَّنُّ يَنَافَى الْيَقِينَ ، فإنه ترجيح أحد طَرَفَيِ الْحَكْمِ عَلَى الْآخَرِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ .
وَأَرْبَابُ الْحَقَائِقِ عَلَى بَصِيرَةٍ وَقَطْعٍ ؛ فَالظَّنُّ فِي أَوْصَافِ الْحَقِّ مَمْلُوءٌ ، وَالْقَطْعُ
— فِي أَوْصَافِ النَّفْسِ — لِكُلِّ أَحَدٍ مَمْلُوءٌ . وَالظَّنُّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَالِ خَالِيًا مِنْ
الظَّنِّ إِذْ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ غَيْبَ نَفْسِهِ فِي مَا لَهُ .

وَفِي صِنَةِ الْحَقِّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَبْدُ عَلَى قَطْعٍ وَبَصِيرَةٍ ؛ فَالظَّنُّ فِي اللَّهِ مَمْلُوءٌ ، وَالظَّنُّ
فِيهِ مِنَ اللَّهِ غَيْرُ مَجْهُودٍ . وَلَا يَجُوزُ بَوْجُوهُ مِنَ الْوُجُوهِ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْمَرْفَعَةِ بِهِ سَبْحَانَهُ — فَيَا
يَعُودُ إِلَى صِفَتِهِ — عَلَى الظَّنِّ ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فَيَا أَمْرَ نَبِيٍّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَنْ
يَقُولَ : « أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » ^(١) ؟ وَكَيْفَا قُلْنَا ^(٢) :

طَلَعَ الصَّبَاحُ فَلَاتَ حِينَ سَرَّاجٍ . وَآتَى الْيَقِينَ فَلَاتَ حِينَ حِجَابٍ
حَصَلَ الَّذِي كُنَّا نُوْمَلُّ نَيْلَهُ مِنْ عَقْدِ أَلْوَيْهِمْ وَحُلِّ رَتَلِجٍ

(١) آية ١٠٨ سورة يوسف .

(٢) الشعر هنا للتشبيهُى نفسه كما يستلاد من عبارته .

والبعد قَوْضَ بالدُّنُو خيامه والوصلُ وَكَذَّ سَجَّهَ بِنِجَاحٍ (١)
كَذَّ حَانَ هَهْهُ للسُّرُورِ غِيْلًا لمواجِ الأحرارِ بالإزعاجِ

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَارِيبَ
فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

استدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عَمَىٰ عَلَىٰ عَمَىٰ، كما أن أهل الحقيقة
ما ازدادوا إلا هَدَىٰ عَلَىٰ هَدَىٰ، فسبحان من جعل سماع خطابه لقوم سبب تبصيرهم، ولآخرين
موجب تبصيرهم

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

كَلَّتْ التَّراجمُ، وَتَحَدَّتْ نيرانُ الفصاحة، واعترف كلُّ خطيبٍ مصمِّعٍ بالجزع من
معارضة هذا الكتاب، فلم يترعَّضْ لمعارضته إلا مَنْ ائْتَضَحَ في قائلته.

قوله جل ذكره: ﴿يَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِهٖ
وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ
حَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

فأبطلوا الحقَّ بالكذبِ لِتَقْصُرَ علومهم عن التحقيق، فالتحقيق من شرط التصديق،
وإنما يؤمن بالنبى من لَوْحٍ — سبحانه — قلبه حقائق البرهان، وصَرََفَ عنه
دواعى الرِّيبِ.

(١) السجل = الدلو الطيبة، واللتاج = جل يشد في أسفل الدلو الطيبة (المنجد).

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ

لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فهُمْ الَّذِينَ كَتَلُوا الْحَقَّ أَبْصَارَ قُلُوبِهِمْ بنور اليقين ، والذين لم يؤمنوا
فهم الَّذِينَ وَسَّمو قُلُوبَهُمْ بِالْمَيِّ فزَلُّوا — بالصلاة — عن الهدى . . تلك سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْعَالَمِينَ،
وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَغْيِيلًا .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ

وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ

وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

يَرْحَ الْخَفَاءَ ، واستنبات الحقائق ، وامتناز^(١) الطريقان ، فلا الحسنُ يَجْزِمُ الْمُسِيءَ
مُعَاقِبٌ ، ولا المسيءُ يَجْزِمُ الْحَسَنَ مُعَاقِبٌ ، كُلٌّ عَلَى حِدِّهِ بِمَا يَسْلُهُ وَعَلَى مَا يَنْجِلُهُ مُحَاسَبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ

أَقَاتَ تُسْمِعُ اللَّهُ وَلَوْ كَانُوا

لَا يَسْمَعُونَ ۝ ١٩﴾ .

من استمع بشكفه ازداد في تَحَلُّفِهِ بِزِيَادَةِ قَصْرِهِ ، وَمَنْ اسْتَمَعَ الْحَقَّ يَنْفَعُهُ — سبحانه —
استغنى في إدراكه من تَعَلُّلِهِ . والحقُّ — سبحانه — يُسْمِعُ أَوْلِيَاءَهُ مَا يَنْجِيهِمْ بِهِ فِي
أَسْرَادِهِمْ ، فَإِذَا سَمِعُوا دَعَاهُ الْوَاسِطَةَ^(٢) فَالْجَوَّ بِالْقَبُولِ لِمَا سَمِعُوا لَمْ يَنْجُوا مِنْ اسْتِغَارِ الْحَقِّ .
وَمَنْ عَدِمَ اسْتِغَارَ الْحَقَّ لِيَاءِهِ مِنْ حَيْثُ التَّغْنِيهِ لَمْ يَزِدْهُ سَمْعُ الْإِنْخِلَاقِ إِلَّا جَعَلَهُ عَلَى جَعْدٍ ،
وَلَمْ يَنْظُرْ بِهِ إِلَّا بُعْدًا عَلَى بُعْدٍ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَقَاتَ تَهْدِي

النَّعْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ۝ ١٩﴾ .

مَنْ سُدَّتْ بَصِيرَتُهُ بِالنَّفْطَةِ الرَّغْبِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ إِدْرَاكُ الْبَصَرِ إِلَّا حِجْبَةً عَلَى حِجْبَةٍ ، وَمَنْ

(١) امتياز (هنا معناها اتضح الفرق بينهما .

(٢) القصود بالواسطة التي عليه الصلاة والسلام .

لم ينظر إلى الله بالله ، ولم يسع من الله بالله ، قصاراه المعنى والصم ، « فإنها لا تسمى الأبصار
ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » (١) وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله : « فنى يسع
وفي يصر » (٢)

وأشدّ عليهم :

فَأَمْلُ بَيْنَ الْحَقِّ إِنْ كُنْتَ نَافِظًا إِلَى مَنْظَرٍ مِنْهُ إِلَيْهِ يَسُودُ
قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ
النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

تَنَى عَنْ نَفْسِهِ مَا يَسْتَحِيلُ قَدِيرُهُ فِي نَعْتِهِ ، وَكَيْفَ يوصفُ بِالظلمِ وَكُلُّ مَا يُتَوَمَّنُ أَنْ
لَوْ قَعَلَهُ كَانَ لَهُ ذَلِكَ ؟ إِذِ الْحَقُّ حَقُّهُ وَلِللَّهِ مُلْكُهُ . وَمَنْ لَا يَصِحُّ قَدِيرُهُ قَبِيحٌ مِنْهُ
— أَيْ يوصفُ بِالظلمِ جَوَازًا أَوْ جَوَازًا ١٢

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يُعْشَرُ مَنْ كَانَ لَمْ يَلْبَثُوا
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَذَكَّرُونَ فِيهِمْ
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

الْأَيْمُ وَالشُّهُورُ ، وَالْأَهْوَامُ وَالْفُجُورُ بِدُ مَضِيهَا فِي حُكْمِ الْحَقَّةِ لَنْ تَنْكَرَ فِيهَا ،
وَمَتَى يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ بِدُ تَقْضِيهَا ؟ وَالْآخَى مِنَ الْوَقْتِ قَرِيبٌ ، وَكَأَنَّ قَدْرَ اللَّامِضِ مِنَ الْعَمْرِ
لَمْ يُصْهَدْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ تُتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

(٢) « حق أحبه فلماذا أحبته كنت عنه التي يصر بها وصمه الذي يسع به ، وبه الذي يظن بها .

— حديث قدسي رواه البخاري من أبي هريرة ، وأحد من مآلشه .

منه أن خبره صدق ، ووعده ووعيدته حق ، وبعد النشر خسر ، وفي ذلك الوقت مطالبة وحساب ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب ، وما أسرع ما يكون للعلوم مشاهداً موجوداً !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رِسَالٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُكُمْ فَقُبِّلَ فِيهِمْ بِالْقِسْطِ وَمَا يَنْظُرُونَ ﴾ .

لم يُخلَّ زماناً من شرع ، ولم يُخلَّ شرعاً من حكم ، ولم يُخلَّ حكماً مما يُعقبه من ثواب وعقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب ، فأما أهل التحقيق فليس لهم لوارِدٌ يَرُدُّ عليهم اشتغالٌ قبل وجوده ، أو استعجالٌ على حين كونه ، ولا إذا قَرَّرَ استقبالُ لما تضمنه حكمه ؛ فهم مطروحون في أسر الحكم ، لا يتحرك منهم — باختيارهم — عرقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَمِيكَ لِنَفْسٍ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا غَاةُ اللَّهِ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ .

المملوك متى يكون له ملك ؟

وإذا كان سيده البراء — عليه الصلاة والسلام — لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً .. فَمَنْ تَزَلَّتْ رُتْبَتُهُ ، وَتَهَاسَرَتْ حَالَتُهُ متى يملك ذرةً أو تكون باختياره وإشارته شئاً ؟ طالع الذي لم يكن^(١) — في التحقيق ، وفردة الجبار بنت المملوك .

(١) (الذي لم يكن) يقصد بها الحادث من إنسان وحيوان وحين وآخر .. الخ .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَكُمُ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا

أَوْ نَهَارًا تَمَازَا يَسْتَجِبَلُ مِنْهُ

المجبرون﴾

مَنْ مَرَفَ كَلَّ الْقُدْرَةَ لَمْ يَأْمَنْ بِغَاةِ الْأَنْفَرِ بِالشَّدَّةِ ، وَمَنْ خَافَ الْبَيِّنَاتِ لَمْ يَسْتَلْذِ الشَّبَاتِ .

وَيَقَالُ مَنْ تَوَسَّدَ النَّمْلَةَ أَقْبَضَتْهُ نَجَاةُ الْعُقُوبَةِ ، وَمَنْ اسْتَوَلْنَ مَرْكَبَ الْأُزْلَةِ عَثَرَ فِي

وَعَدَتِ الْحَنَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ

وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ لَسْتَجِبُونَ﴾

بعد انتهائك سِتْرَ الْغَيْبِ لَا يُقْبَلُ تَضَرُّعُ الْمَآذِيرِ .

وَيَقَالُ لِاحْتِجَةِ . بعد إزاحة الغلة ، ولا عذرَ بعد وضوح الحجّة .

قوله جل ذكره: ﴿لَنْ يَمُنُّ قَوْمٌ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي سَعِيدٍ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

الْمُخْلِطِينَ حُلَّ تَهْمَزُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ

تَكْسِبُونَ﴾

لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَجْعَ مَآئِنِهِ سَقَتْ ، وَلَا يَحْصِدُ زَارِعٌ غَلَّةً إِلَّا مَا مَنَّهُ زَرْعٌ ، وَفِي مَنَاءٍ قَالُوا :

سَنَنْتَ فِينَا سَنَنًا قَذَفَ الْبَلَايَا عَقِبَهُ

يَصِيرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مِنْ بَرٍّ يَوْمًا رَبِّهِ^(١)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْتَنْبِئُكَ أَتَى هُوَ قُلْ : إِي

وَدِي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

صَرَّحَ بِالْإِخْبَارِ عِنْدَ اسْتِخْبَارِهِمْ ، وَأَعْلَمَ بِمَا يَزِيلُ الشُّبُهَةَ عَمَّا التَّبَسُّ عَلَى جُهَالِهِمْ ، وَاسْتَكْدَّ

إِخْبَارَكَ بِمَا تَذَكَّرَهُ مِنَ الْقَسَمِ وَالْبَيِّنِ ، مُضَافًا ذَلِكَ إِلَى مَا تَسْلِفُهُ مِنَ التَّيْبِينَ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ

(١) الشطر الثاني من هذا البيت مطبوس هير واضح ، ولكننا اكتفينا بحسب ما ورد النص

في موضع سبق .

نُصْحُكَ ، وَلَا يُؤْتِرْ فِيهِمْ وَعُظُّكَ .. كَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ جُمِعُوا شَرَابَ الْحُبَّةِ ، وَوُجِّهُوا بِكَ
الْفُرْقَةَ ؛ فَلَا بِصِوَرَةٍ لَمْ وَلَا (١) وَلَا فِيهِمْ وَلَا حِصَافَةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذُو أَنْ لِكُلِّ نَفْسٍ عَظَمَةٌ مَأْنِي
الْأَرْضِ لَا تَعْتَدُ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُمُ الْفَسْطَاطُ
وَم لَا يُظْلَمُونَ ﴾

لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا سَرَفٌ (٢) ، وَلَا يَحْصِلُ فِيهَا سَبَقٌ لِمَنْ مِنَ الْوَعِيدِ خَلْفَ .
وَلَا نَدَامَةٌ تَنْفَعُهُمْ وَإِنْ حَادَّ قَوْهَا ، وَلَا كَرَامَةٌ تَنْلُمُ وَإِنْ طَلَبُوا ، وَلَا ظُلْمٌ يَجْرِي عَلَيْهِمْ
وَلَا خِيفٌ ، كَلَّا . . . بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَدْلُ فِي قَضَائِهِ ، الْفَرْدُ فِي عِلَالِهِ بَنِيَتْ كِبَرِيَّاتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ قُلُومًا فِي السَّنَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الْخَلْدَاتِ بِأَسْرَهَا اللَّهُ مَلَكًا ، وَبِهِ ظُهُورًا ، وَمِنْهُ ابْتِدَاءٌ ، وَإِلَيْهِ انْتِهَاءٌ ؛ فَقَوْلُهُ حَقٌّ ،
وَوَعْدُهُ صِدْقٌ ، وَأَمْرُهُ حَكْمٌ ، وَقَضَاؤُهُ بَلَاءٌ . وَهُوَ الْعَلِيُّ ، وَعَلَى مَا يَشَاءُ قَوِيٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
يُحْيِي الْقُلُوبَ بِأَنْوَارِ الْمَشَاهِدَةِ ، وَيُمِيتُ النُّفُوسَ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدَةِ ، فَنُفُوسُ الْعَابِدِينَ تَلْقَاهَا
فَنُورُ الْمَجَاهِدَاتِ ، وَقُلُوبُ الْمَارِفِينَ شَرْفُهَا عِيُونَ لِلشَّاهِدَاتِ .
وَيَقَالُ يُحْيِي مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَيُمِيتُ مَنْ أَحْرَضَ عَنْهُ .

وَيَقَالُ يُحْيِي قُلُوبَ قَوْمٍ بِجَمِيلِ الرِّجَاءِ ، وَيُمِيتُ قُلُوبَ قَوْمٍ بِوَسْمِ التَّنَوُّطِ .
قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ

(١) مشبهة .

(٢) السرف هنا معناها مجاوزة الحد .

رَيْسِكُمْ وَشِفَاءُ يَمَّا فِي الصَّوَدِ وَهَلْ
وَرَحْمَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

الموعظة للكافة .. ولكنها لا تنجح في أقوام ، وتنفع في آخرين ؛ فَمَنْ أَصْحَى إِلَيْهَا
بَسْمِعَ بَرُّهُ أَنْضَحَ نَوْرُ التَّحْقِيقِ فِي قَلْبِهِ ، وَمَنْ أَسْمَعَ إِلَيْهَا بَنَتْ قَلْبِيَّتُهُ مَا اتَّصَفَ
إِلَّا بِدَوَامِ حُجَّتِهِ .

ويقال الموعظة لأربابِ النية لِيَتَوَبُّوا ، وَالشِّفَاءُ لِأَصْحَابِ الْحُضُورِ لِيَطِيبُوا .

ويقال « الموعظة » : قِصَصُ ، « والشِّفَاءُ » : الْخَوَاصُ ، « وَالْهُدَى » نِصَاصُ الْخَوَاصِ ،
« وَالرَّحْمَةُ » لَجِيمِهِمْ ، وَرَحْمَتُهُ وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ .

ويقال شفاءُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى حَسَبِ دَائِهِ ، فَشِفَاءُ الْمَذْنُونِ بِوَجُودِ الرَّحْمَةِ ، وَشِفَاءُ الطَّعْمِينَ
بِوَجُودِ النِّعَةِ^(١) ، وَشِفَاءُ الْمَارْفِقِينَ بِوَجُودِ الْقَرَّةِ ، وَشِفَاءُ الْوَاجِدِينَ بِشُهُودِ الْحَقِيقَةِ .

ويقال شفاءُ الْعَاصِينَ بِوَجُودِ النِّجَاةِ ، وَشِفَاءُ الطَّعْمِينَ بِوَجُودِ الْمَرْجَاتِ ، وَشِفَاءُ الْمَارْفِقِينَ
بِالْقَرَبِ وَالْمُنَاجَاةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبَنِّكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

« الْفَضْلُ » : الْإِحْسَانُ الَّذِي لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَى طَاعِهِ ، « وَالرَّحْمَةُ » إِرَادَةُ النِّعَةِ وَقِيلَ
هِيَ النِّعَةُ .

وَالْإِحْسَانُ عَلَى أَقْسَامٍ وَكَذَلِكَ النِّعَةُ ، وَنِيَمٌ اللَّهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُنْقَضَى .

ويقال الفضل ما أُنْعِمَ لَمْ مِنْ الظُّهْرَاتِ ، وَالرَّحْمَةُ مَا أَرْزَحَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَلَتِ .

ويقال فضلُ اللَّهِ مَا أَوْكَّرَهُمْ مِنْ إِجْرَاءِ الطَّاعَاتِ ، وَرَحْمَتُهُ مَا حَصَّيَّ بِهِ مِنْ أَوْكَلَبِ
الزَّلَّاتِ . وَيَقَالُ فَضْلُ اللَّهِ دَوَامُ التَّوْفِيقِ وَرَحْمَتُهُ تَعْلَمُ التَّحْقِيقَ .

(١) نلَمُ مِنْ مَذْهَبِ التَّشْبِيرِ أَنَّ (الرَّحْمَةَ) مِنْ أَوْصَافِ الْقَاتِ ، وَ (النِّعَةَ) مِنْ أَوْصَافِ الْفَعْلِ . .
فَتَأْمَلُ كَيْفَ يَرْتَبِطُ مَعِيرُ (الْمَذْنُونِ) بِوَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِ ذَاتِهِ ، وَلا تَحْظُ كَيْفَ يَنْتَهِجُ الصَّوْفِيَّةُ بِهَذِهِ
أَبْوَابِ الْأَمَلِ أَمَامَ الْتَائِبِينَ .

ويقال فضل الله ما يخص به أهل الطاعات من صنوف إحسانه ، ورحمته ما يخص به أهل الزلات من وجوه غفرانه .

ويقال فضل الله الرؤية ، ورحمته إيقاظهم في حالة الرؤية .

ويقال فضل الله المعرفة في البداية ، ورحمته المغفرة في النهاية .

ويقال فضل الله أن أقامك بشهود الطلب ، ورحمته أن أشهدك حقه بحكم البيان إلى أن تراه خدًا يكشف البيان .

قوله : « فبذلك فليفرحوا » أي بما أهّلهم له ، لا بما ينكفون من حرّ كاهم وسكناتهم ، أو يصلون إليه بنوع من تكلفهم وتسلّمهم . « هو خيرٌ مما يجمعون » : أي ما تتحشّون به من الأحوال الزاكية خيرٌ مما يجمعون من الأموال الوافية .

ويقال الذي لك منة — في سابق القسمة — خيرٌ مما تنكفّ من صنوف الطاعة والخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلَ اللَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ؟ ﴾ .

يعتفون ويقرّهم^(١) على ما ابتدئوه من التحليل والتحرّم ، ويظنّون كذبهم فيما تقوّلوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُتُبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

هذا على جهة التهويل والتنظيم لما أسلفوه من الكذب .

(١) عرج فلانا أي أوجه بالهم والتتاب (المحيط)

ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، فِي إِهْمَالِهِ مِنَ الْأَجْرِمِ ، وَالصَّغْنَةِ لَيْسَ لَمْ يُجْرِمِ .
 قوله جل ذكره : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تصلون من سجدة ولا تنهضون من مكانكم ولا يصبروا في الحول ولا يثبتوا في الأقدام ولا يفسدوا في الأموال ولا ينفقوا في البنايات ولا يفسدوا في الأسماء ولا يفسدوا في الأسماء ولا يفسدوا في الأسماء »
 في كتابه ثبوت

خوفهم بما عرفت من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم ، ورؤية ما سيفعلونه من فنون أعمالهم . والمعلم بأنه يراهم يوجب استحبابهم منه ، وهذه حال المراقبة ، والمبدأ إذا علم أن مولاه يراه استحبابي منه ، وترك متابعة هواه ، ولا يؤم حوك ما نهاه ، وفي منته أئشوا :

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ حَالٌ يَهْجَى إِذَا رُمْتُ سَيْلًا عَلَى تَصَعُّبٍ
 وَأُشْهِوا :

أَعَانِبُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي كُلِّ خَصَلَةٍ تَتَابَعَى فِيهَا وَأَنْتَ مَقِيمٌ
 « وما يَرْبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مَقَالِ ذَرَّةٍ » : وكيف يخفى ذلك عليه ، أو يقتصر عليه عنه ، وهو منشئ وموجد ؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة ، وإنما قال : « لا في كتاب مبین » :
 رَدِّمْ إِلَى كِتَابَتِهِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ — لعدم اكتفائهم في الامتناع عما نهوا عنه — يرويه وعلمه .
 قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ » .

الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو مَنْ تَوَلَّأَتْ طَاعَاتِهِ ، من غير أن يتخطها
 عصيان .

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول ؛ فيكون الوليُّ
 مَنْ يَتَوَلَّى عَلَيْهِ إِحْسَانُ اللَّهِ وَأَفْضَالُهُ ، ويكون بمعنى كونه محفوظاً في عامة أحواله من المحن .

وأشدُّ الحزن ارتكابُ للعاصي فيمصه الحقُّ — سبحانه — على دوام أوقاته من الزلات .

وكأنَّ النبيَّ لا يكون إلا مصوماً فالوليُّ لا يكون إلا محفوظاً .

والفرق بين المصوم والمصوم أن للمصوم لا يلزم بذنب البتَّة ، والمصوم قد تحصل منه خنات ، وقد يكون له — في الندوة — زلات ، ولكن لا يكون له إصرار : « أولئك الذين يتوبون من قريب » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

حسن ما قيل إنه « لا خوف عليهم » : في الدنيا ، « ولا هم يحزنون » : في الآخرة . ولكن الأولى أن يقال إن أطوار منهم لا خوف عليهم في الحال — لأن حقيقة الخوف توقع محذور في المستقبل ، أو ترقب محبوب يزول في اللتانف . . . وهم يحكم الوقت ؛ ليس لهم تطلع إلى المستقبل . والحزن هو أن تلزم حزونة في الحال ، وهم في رَوْح الرضا بكل ما يجري فلا تكون لهم حزونة الوقت . فالوليُّ لا خوف عليه في الوقت ، ولا له حزن بحال ، فهو بحكم الوقت .

ولا يكون ولياً إلا إذا كان موفقاً لجميع ما يترجمه من الطاعات ، مصوماً بكل وجه من جميع الزلات . وكل خصلة حميدة يمكن أن يُعْتَبَر بها فيقال هي صفة الأولياء . ويقال الوليُّ من فيه هذه الخصلة .

ويقال الوليُّ من لا يقصر في حق الحق ، ولا يؤخر القيام بحق الخلق ؛ يطيع لا يخوف عقاب ، ولا على ملاحظة حسن مأب ، أو تطلع لمآجل اقتراب ، ويقضى لكلٍّ أحده حقاً يراه واجباً ، ولا يقتضى من أحده حقاً له ، ولا ينتقم ، ولا يقتصف (٢) ولا يشمت ولا يحقد ، ولا يقلد أحداً منه ، ولا يرى لنفسه ولا لما يسهله قدراً ولا قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

هذه صفة الأولياء ؛ آمنوا في الحال ، واتقوا الشرَّ في السَّال . ويقال « آمنوا » أي ظمروا

(١) آية ١٧ سورة النساء .

(٢) أي إذا اساء إليه أحد لم يظن من ظنوك إساءة ، وإنما عفا وتسامح ، تاركة الأمر له .

بقلوبهم من حيث المارف . « وكانوا يتقون » : استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف .
ويقال « آمنوا » بتلقى التعريف . « واتقوا » : بالتقوى عن المحرمات بالتكليف .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّمُ الْبَشَرِيَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
فَلَكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

القيام بالأمر يدل على الصحة ؛ فإذا قاموا بما أمروا به ، واستقاموا بِتَرَكِّ مَا زُجِرُوا عَنْهُ
بِشَرِّهِمْ الشَّرِيعَةِ بِالْمُزْجِجِ عَنْ هَيْئَةِ الْإِزَامِ ، وَبِشَرِّهِمُ الْحَقِيقَةِ بِاسْتِجَابِ الْإِكْرَامِ ، بِمَا
كُشِفُوا بِهِ مِنَ الْإِعْلَامِ .. وهذه هي البشري في عاجلهم . وأما البشري في آجلهم : فالخلقُ
— سبحانه — يتولى ذلك التعريف ، قال تعالى : « يَشْرَهُمُ رِجْمَ بَرَحَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٌ »^(١)
ويقال البشارة العظمى ما يجحدون في قلوبهم مِنْ ظَفَرِهِمْ بِنَفْسِهِمْ بِسُقُوطِ مَآرِبِهِمْ ، وَأَيُّ
مَلَكٍ أَمَّ مِنْ سُقُوطِ الْمَآرِبِ ، وَالرِّضَا بِالْكَائِنِ^(٢) ؟ هذه هي النعمة العظمى ، ووجدانُ هذه
الحالة هو البشري الكبرى .

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لم وبين البشارة التي للخلق أن التي للخلق عِدَّةٌ^(٣)
بالجليل ، والتي لم تَقَدْ وَهْصُولُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

الصدُّ مادام متفرقا يضيق صدره ويستوحش قلبه بما يسع ويشهد من الأغيار
والكفار ما تَقَدَّسَ عَنْهُ صِفَةُ الْحَقِّ ، فَإِنْ صَارَ عَارِقًا زَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ الصِّفَةُ لِتَحْقِيقِهِ بِأَنَّ
الْحَقَّ سَبْحَانَهُ وَرَأَاهُ كُلُّ طَائِعَةٍ وَزَلَّةٍ ، فَلَا لَهُ — سبحانه — مِنْ هَذَا اسْتِجَابَاشٍ ، وَلَا بِذَلِكَ
اسْتِثْنَاءٌ .

(١) آية ٢٩ سورة التوبة .

(٢) الكائن هنا معناها الواقع ، فلا يظلمون إلى زيادة أو تنجيز .

(٣) عدة = وعد ، وتذكر ما لکنناه في هامش سابق عن الوعد والتفد .

ثم يتحقق العارف بأن المجرى لطاعة أرباب الوفاق — الله ، والمنشئ ، لأحوال أهل الشقاق — الله . لا يبالى الحق بما يجرى ولا يبالى المبدئ بشهود ما يجرى ، كما قيل :

بنو حق قضا بالحق ميراثا فَنَمَتُ الْخَلْقُ فِيهِمْ مَسْتَار

قوله جل ذكره ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

قوله جل ذكره ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

قوله جل ذكره ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

قوله جل ذكره ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

الله من في السموات ومن في الأرض ملئاً ، ويبدى عليهم ما يريد حكماً جزماً ؛ فلا لقبوله علة ، ولا موجب لردّه زلة ، كلا ... إنها أحكام سابقة ، لم توجبها أفعال لاحقة ، ولا طاعات وعبادات صادقة .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لِنَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْغِضًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لِنَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْغِضًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لِنَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْغِضًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

الليل لأهل الغفلة بعد وغيبية ، ولأهل النعم^(١) توبة وأوبة ، وللمحبين زلة وقربة ؛ فالليل بصورته غير مؤبدي ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

والليل بصورته غير مؤبدي ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

وكم لظلام الليل عندي من يد^(٢) تحبب أن الماوية تكذب

قوله جل ذكره : ﴿فَالْوَاغِضُ اللَّهُ وَلَهُ أَصْحَابُهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لِنَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْغِضًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

قوله جل ذكره : ﴿فَالْوَاغِضُ اللَّهُ وَلَهُ أَصْحَابُهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لِنَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْغِضًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

قوله جل ذكره : ﴿فَالْوَاغِضُ اللَّهُ وَلَهُ أَصْحَابُهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لِنَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْغِضًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

قوله جل ذكره : ﴿فَالْوَاغِضُ اللَّهُ وَلَهُ أَصْحَابُهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِلَهَ لِنَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْغِضًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

(١) وردت (القوم) وهي خطأ في النسخ إذ لا معنى لها هنا والمناسب (الندم) .

(٢) وردت (مريد) وهي خطأ في النسخ .

الْوَلَدُ بِبُضِ الْوَالِدِ ، وَالْمَصْدِقَةُ تَمِيلُ مِنَ الْبَعْضِيَّةِ ، فَتَرَى اللَّهَ نَفْسَهُ مِنْ ذَلِكَ يَقُولُ « سُبْحَانَهُ » .

ثم إنه لم يسجل لم العقوبة — مع قبائح قائلهم ومع قدرته على ذلك — تليهاً على طريق الحكمة لمباده .

ولا يجوز في وصفه الولاة لِتَوْحِيدِهِ ، فلا قسم له ، ولا يجوز في نفسه التثني أيضاً لِتَفَرُّدِهِ وأنه لا شبيه له .

قوله : « هو الفنى » : الفنى نفى الحاجة ، وشهوة المباشرة حلجة ، ويتعالى عنها سبحانه .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُتُبَ

لَا يَفْلَحُونَ ﴾

ليس لهم بما هم فيه استمتاع ، إنما هي أيامٌ قليلة ثم تتبعها آلامٌ طويلة ، فلا تقدم لهم بعد ذلك رُفْعٌ ، ولا تقدم ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كُنْزَكُمْ عِنْدَكُمْ

مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلِيَ اللَّهُ

تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ

حُجَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية ثبتيه — صلى الله عليه وسلم — لما كان يمس من مقاساة الشدة من قومه ، فإن أيام نوح — وإن طالَّت — لما قُتِلَتْ كثيراً إلا وقد زالت ، كافي :

وَأَحْسَنُ شَيْءٍ فِي النِّوَائِبِ أَنَّهَا إِذَا هِيَ نَابَتْ لَمْ تَكُنْ خُلَا

ثم بين أنه كان يتوكل على ربه مهملوا . ولم يفتش عبداً — ما وثق بربه — من كل ما نزل به . ثم إن نوحاً — عليه السلام — قال : إني توكلت على الله ، وهذا عين التفرقة ،

وقال نبيّه صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ » ^(١) وهذا عين الجمع فبات الزية وظهور المحصورة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَمْرِ
إِنْ أَمْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

إذا كان صلّه الله لم يطلب الأجر عليه من غير الله ، وهكذا سنّه في جميع أولياء الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَسَبَّحْنَاهُ مِنْ
فِي النَّفْثِ وَجِنَّاتِهِمْ خُلَافٌ وَأَغْرَقْنَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

أفرق قومه بأموال التفرقة ، وفي الحقيقة أفرقهم بأموال الأحكام والتدرة ، وحفظ نوحاً
— عليه السلام — وقومه في السفينة ، وفي الحقيقة نجّاهم في سفينة السلامة . كان نوحٌ في سابق
حكمه من المحروسين ، وكان قومه في قديم قضاءه من جملة المُفْرَقِينَ ، فَجَرَّتْ الأحوال
على ما جَرَّتْ به القسمة في الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ
لِجَاهِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ
نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَبِّينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا
مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَةِ بِلَآئِنَا فَاستَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾

(١) آية ٦٤ سورة الأنعام

قص عليه - صلوات الله عليه وسلامه - أنبه الأولين ، وشرح له جميع أحوال
الغابرين ، ثم فضله على كافةهم أجمعين ، فكانوا نجوماً وهو البدر ، وكانوا أنهاراً وهو
البحر ، ثم به انتظم عقدهم ، وبنوره أشرق نهارهم ، وبظهوره ختم عددهم^(١) ، كما قيل :

يَوْمٌ وَحَسِبُ النَّهْرُ مِنْ أَجْلهُ حَيًّا غَدُ وَالْتَفَتِ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ﴾

﴿ إِن هَذَا لَيِسرٌ مَبِينٌ ﴾

ما زأدهم الحق سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً ، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَهُ
في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج عندى إلا ويزيد في قلوبهم غمى ، ثم خفى عليهم
قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

« يريد أن يفرجكم من أرضكم بسحره فاذا تأمرون » : نظروا من حيث كانوا لم يرفوا
طعماً غير ما ذاقوا ، وكذا صفة من أقصته السوابق ، وردته المشتبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا سَمًا وَجَنًّا

عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء

في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾

ركنوا إلى تقليد آباءهم فيها عليه كانوا ، واستحبوا استدامة ما عليه كانوا . . . فلحقهم
شؤم العقيدة وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دعوهم إلى الله لتكون
لم الكبرياء على عباد الله ، ولم يظنوا أنهم إنما دعوهم إلى الله بأمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر

عليه

لما استعان في استدفاع ما استقبله بنير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تراء منهم وتوعدهم

(١) قال ذلك بما يقوله الحلاج في طوايسته وبما يقوله أصحاب « نظرية الانسان الكامل » من
الحقيقة الحمديدية لتلخص مدى اعتدال هذا الامام السني المتعظم في نظريته لشخصية الرسول عليه صلاة
الله وسلامه .

بقوله : **لَا فَعْلَانُ وَلَا ضَعْفَانُ** ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تنزل إلى السدادة والبفظة ، قال تعالى : **« الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ »** (١) .

قوله جل ذكره : **﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُقِفُونَ ﴾** . فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله إن الله لا يوصلح عمل المفسدين .

أمرهم أمراً يظهر به بطلانهم ليُدْخِلَ الحق على ما أتوا به من التوبة ، فذلك قال موسى عليه السلام : **« إِنْ اللَّهَ سَيَبِطْهُ »** ، فلما انتقم عصا موسى — جميع ما جملوا به من حبالهم وعصيتهم — حين قلبها الله حية .. عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ أَبْطَلَ تِلْكَ الْأَعْيَانَ وَأَفْنَاهَا .

قوله جل ذكره : **﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحُقُوكَ بِكَلَامِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْغَافِرُونَ ﴾** .

من جملة ما أحقه أن السحرة كلن عندهم أنهم يتصرفون فرعون ويحيونه فكانوا يقيمون بهزئته حيث قالوا **« يَمِزُّوْهُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ »** وقال الحق سبحانه : **يَهْزِئُ بِكُمْ لَظُفُوفُ** ، فكان على ما قال تعالى دون ما قالوه ، وفي مناه قالوا : **كَمْ رَمْتَنِي بِأَسْمِهِمْ صَالِبَاتٍ وَتَعَمَّدْتُهَا بِسَمِهِمْ فَطَاشَا**

قوله جل ذكره : **﴿ فَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَلْأَعْلَى فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾** .

أَهْلُ الْحَقِيقَةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ قَلِيلٌ عَدَدُهُمْ ، كَبِيرٌ عِنْدَ اللَّهِ خَطَرُهُمْ .

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾

بَيِّنَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ مِنْ حَيْثُ الْأَقْوَالُ . . بل لابد فيه من صدق الأحوال قصدًا .
وحقيقة التوكل تَوَكَّلْ تَدْبِئُهُ مُتَعَمِّلٌ ، ثم يعلم أنه بفضلُه — سبحانه — تَحْصُلُ نَجَاتُهُ ،
لا بما يَأْتِي به من التَكَلُّفِ — هذه هي حقيقة التوكل ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يَتَّبِعُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْمُنَّةِ ، وَنَحَقْنَا بِمَا مِنْكَ مِنَ الطَّوْلِ وَالْيَتَةِ .
فَلَا تَجْعَلُنَا عَرَضَةً لِسَهَامِ أَحْكَامِكَ فِي حَقِّبَتِكَ بِاتِّقَامِكَ ، وَارْحَمْنَا بِطَلُوكِ وَإِكْرَامِكَ ،
وَنَجِّنَا مِنْ حَقِيبَتٍ عَلَيْهِمْ فَأَذَقْتَهُمْ ، وَبَسَّكَ فَوَاقِكَ وَتَحْتَهُمْ

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مَقَامًا يَرْضَوْنَ وَإِيجُلُوا بَيْنَكُمْ قَبِيلَةً وَأَتَّبِعُوا الصَّلَاةَ وَيَتَّبِعُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

مَهَذَّ إِلَيْهِمْ لِمَادَتِنَا بِحَالٍ وَهِيَ فَوْصُهُمْ ، وَلِعَارَفْنَا مَنَازِلَ وَهِيَ قُلُوبُهُمْ ، وَلَهَبْنَا مَوَاضِعَ
وَهِيَ أَرْوَاحُهُمْ ، وَلَمَشَاهَدْنَا مَعَايِدَ وَهِيَ أَسْرَارُهُمْ ؛ فَنَفُوسُ الْعَابِدِينَ بِيُوتِ الْحَشَمَةِ ، وَقُلُوبُ
الْعَارِفِينَ أَوْطَانُ الْحَشَمَةِ ، وَأَرْوَاحُ الْمُسْمِعِينَ مَشَاهِدُ الْحَبَةِ ، وَأَسْرَارُ الْمُوَحِّدِينَ مَنَازِلُ الْحَبَةِ ^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ

(١) أى يقين من التوكل برؤية الوكيل . . كما يقول إبراهيم الخواص (٢٩١) (٢) هذه الفقرة هامة في توضيح المسكات الباطنية وترتيبها ووظائفها في المراج الروحى — في منهج هذا الصول .

على أموالهم واشدّد على قلوبهم
فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب
الآليم .

لما يئس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإزال السُّحطة وإذاقة الفرقة . ومن
للعلوم أنّ الأنبياء — عليهم السلام — من حقهم المصيبة ، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه
الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قبل الله تعالى في الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَجِبَا
وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ .

الاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود ، ولا يستعجل الاستعجال من
القلب إلا بوجدان السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بحسن الرضا بجميع ما يبدو
من الغيب

ويقال ينبغي للعبد أن يستقل بالله^(١) ما أمكنه ، فحينئذ هذا يقل دعوته . ثم إذا دعاه
بإشارة من الغيب — في جوازه — فواجب ألا يستعجل ، وأن يكون ساكن الجأش .

ويقال من شرط الدعاء صدق الافتقار في الابتداء ، ثم حسن الانتظار في الانتهاء ، وكال
هذا الرضا بمرئان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار .

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضى^(٢) على الغيب ، والحدود من الاستعجال بحسن
الثقة ، وجعل الغنى .

ويقال في الآية تنبيه على أن للأمور آجالاً معلومة ، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسم
في الوقت المعلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاوِزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْيَمْرَ

(١) الاستقلال بالله الاكتفاء به وعدم النظر إلى النفس أو الأفيار .

(٢) التقاضى على الغيب منتهى النظر إلى ما يأتي من الغيب بين التأجيل أو التكثير ، البعد أو القرعة ..

في ذلك إتمام لحظوظ النفس في حقوق الحق .

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ تَبَعًا
وَعَدُوا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَ الْفَرْقُ ،
قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ
الضَّالِّينَ ﴿١٠﴾

حَمَلَتْ الْعِزَّةُ فِرْعَوْنَ عَلَى تَقْصِيمِ الْبَحْرِ عَلَى إِرْمٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ الْهَلَاكُ حَمَلَتْ
ضُرُورَةُ الْحِيلَةِ عَلَى الْاسْتِعَاذَةِ ، فَلَمْ يَنْفَعِهِ ذَلِكَ لِفَوَاتِ وَقْتِ الْاخْتِيَارِ .
وَيُقَالُ لَمَّا شَهِدَ صَوْلَةَ التَّقْدِيرِ أَفَاقَ مِنْ سُكْرِ الْفَلْطَةِ ^(١) ، لَكِنْ : « بَعْدَ شَهَادَةِ
الْبَاسِ لَا يَنْفَعُ التَّخَاشُعُ وَالِابْتِغَاءُ » .

قوله جل ذكره : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

... أَمَدَ طَوْلِ الْإِمْهَالِ ، وَالْإِصْرَارِ عَلَى ذَمِيمِ الْأَسَالِ ، وَالرَّكْضِ فِي مِيدَانِ
الْإِغْتِرَارِ ، وَاقْتِضَاءِ وَقْتِ الْإِعْتِدَارِ ١٩ هَيْهَاتَ لَقَدْ اسْتَوْجِبْتَ أَنْ تُرَدَّ فِي وَجْهِكَ ،
فَلَا تُعَذِّرْهُ قَبُولُ ، وَلَا تَلْكَ إِلَى مَا تَرْوَاهُ وَصُولُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالْيَوْمَ فَتَعْلِمُ أَنَّكَ لَتَكُونَ
لِمَن خَلَقَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَفَاطِلُونَ ﴾

لَتُشِيرَ بِرُؤْيَاكَ ، وَلَتُظْهِرَنَّ — لِمَنُ اسْتَبَصَرَ — تَأْدِيبَكَ ، لَتَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ
حُجْرَةً ، وَتَزْدَادُ حِينَ أَفْقَتْ أَسْفًا وَحَسْرَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبُوءًا
صِدْقٍ وَرِزْقًا مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، فَاسْتَخْلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ

(١) نصح أن تكون كذلك ، وتصح أن تكون (الفلطة) بالطاء ، وهي قسوة القلب من الكفر والمناداة ،
ولا تستبعد أنها أن تكون : أفاق من سكر (الفلطة) .

يقضى بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا
فيه يختلفون ﴿

أَذَقْنَا لِمِ الْأَيَّامِ ، وَأَكْثَرْنَا لِهِمِ الْإِنْعَامَ ، وَأَكْرَمْنَا لِمِ الْقِسَامِ ، وَأَتَحْنَأْ لِمِ
فَنَوْنِ الْحَسَنَاتِ ، وَأَدْمَنَّا لِمِ جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ . . . فَلَمَّا قَابَلُوا النِّعْمَةَ بِالْكَفَرَانِ ،
وَأَصْرُوا عَلَى الْبَيْتِ وَالْمَسْجِدِ أَذَقْنَاهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَسَدَدْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَا فَتَحْنَا لِمِ
مِنَ التَّكْرِمِ وَالْإِجْبَابِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ حَادَّ عَنْ طَرِيقِ الْوَفَاقِ ، وَجَنَعَ إِلَى جَانِبِ الشَّقَاقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ كُفَّتْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَاقُرْءُونَ

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُفْرِينَ ﴿

ما شك — صلى الله عليه وسلم — فيما عليه أنزل ، ولا عن أحدٍ منهم ساءل ،
وإنما هنا المطلب على جهة التحويل ، والمقصود منه تنبيه القوم على ملازمة نهج السبيل .

ويقال صفة أهل الخصوص ملاحظة أضيهم وأحوالهم بعين الاستقصار .

ويقال فإن تَنَزَّلَتْ منزلة أهل الأدب في ترك الملاحظات قَلَّ عَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

فَهَلْ بَلَّغْنَا أَحَدًا مِثْلَكَ ؟ وَهَلْ خَصَصْنَا أَحَدًا بِمِثْلِ تَخْصِيصِكَ ؟ ﴿

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿

ما كان منهيًا عنه ، وكان فينبغي في الشرع كان قبيحًا ، فلا بد من ورود الأمر به

حتى نكون منه طاعة وعبادة . وإنما لم يَجُزْ في صفته — صلى الله عليه وسلم — التأكيد

بِآيَاتِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ يُبَيِّنُ عَنْهُ لَا لِكُونِهِ قَبِيحًا بِالْعَلَلِ ^(١) حَتَّى يُقَالُ كَيْفَ جُيِّعَ عَنْهُ وَكَانَ ذَلِكَ

بِمِدَّاهِ مِنْهُ ؟

(١) يذكر القشيري هنا بقول المذلة : إن الصحيح ما رآه العقل قبيحًا والحسن ما رآه العقل حسنًا .
ويرى القشيري التحويل على الشرع في هذا الخصوص — كما هو واضح من إشارته .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلَةُ رَبِّكَ

لَا يُؤْمِنُونَ﴾

فالأعداء حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلَةُ بِالْعَلَبِ ، والأولياء حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلَةُ بِالنَّوَابِ ؛
فالكلمة أَرْزَلِيَّةٌ ، والأحكام سَابِقَةٌ ، والأفعال فِي الْمُسْتَأْنَفِ عَلَى مَرِّ الْأَوَاقِطِ عَلَى مَوْجِبِ
الْقَضِيَّةِ لِاحْتِقَاقِهَا ، فالَّذِينَ نَصَبِيهِمْ مِنَ الْقِسْمَةِ الشَّقَوَةُ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ شَاهَدُوا كُلَّ دَلَالَةٍ ،
وَعَانُوا كُلَّ مِجْزَةٍ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا

إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ عَذَابٍ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُغْنِمَهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ .

قَوْمُ يُونُسَ تَدَارَكْتُهُمُ الرَّحْمَةُ الْأَرْزَلِيَّةُ فِيهَا أُجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْ تَوْفِيقِ التَّنْزِيلِ ، فَكَشَفَتْ
عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، وَصَرَفَتْ عَنْهُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِعَدَمِ عَانِيَتِهِمْ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ ؛
فَبَرَحْتَهُ وَصَلَوْا إِلَى تَضَرُّعِهِمْ ، لَا بِتَضَرُّعِهِمْ وَصَلَوْا إِلَى رَحْمَتِهِ ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ

كُلَّهُمْ جَمِيعًا إِنْ أَفَأَنْتَ تُشْكِرُ النَّاسَ

حَتَّى يَكُونُوا مُرْمِنِينَ﴾ .

كَيْفَ يَتَصَعَّى عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ مُرَادٌ — وَالَّذِي يَبْقَى شَيْءٌ عَنْ مُرَادِهِ سَاهٍ أَوْ مَطْلُوبٌ ؟ وَالَّذِي
يَسْتَحِقُّ جَلَالَ الْعِزَّةِ لَا يَفُوتُهُ مَطْلُوبٌ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِتَنفُسٍ أَنْ تُفِرَّ مِنْ دُونِ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْزِي الرُّجُوسَ عَلَى الَّذِينَ

لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

(١) أَيْ أَنَّ عَمَلِ الْإِنْسَانِ لَا يَكُنِي وَحْدَهُ الْوَسِيلَ إِلَّا إِذَا ارْتَبَطَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَضَلَّهُ .

لا يمكن حل^(١) الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشبهة ؛ لأنه فكافة بالإيمان ،
والذي هو مأمور بالشئ لا يقال إنه غير مأذون فيه . ولا يجوز حل هذه الآية على معنى
أنه لا يؤمن أحد إلا إذا ألباه الحق إلى الإيمان واضطره — لأن موجب ذلك ألا يكون
أحد في العالم مؤمناً بالاختبار ، وذلك خطأ ، فدل على أنه أراد به إلا أن يشاء الله أن
يؤمن هو طوعاً . ولا يجوز يقتضى هذا أنه يريد من أحد أن يؤمن طوعاً ثم لا يؤمن ؛
لأنه يُبطل قاعدة الآية ، فصَحَّ قول أهل السنة بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السنوات
والأرض وما تُنفق الآيت والنذر
من قوم لا يؤمنون ﴾ .

الأمة — وإن كانت ظاهرة — فما تُنفق إذا كانت البصائر مسودة ، كما أن
الشمس — وإن كانت طالعة — فما تُنفق إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالشي
مرحوة ، كما قيل :

وما انتفاع أنى الدنيا بقلته إذا استوت عنه الأنوار والظلم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قبل ينتظرون إلا مثل أيام الذين
خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاتَنظُرُوا
إلى معكم من المنتظرين ﴾ .

تَنفِي الطائف أنوار الحقيقة تَمَنُّ في سويل ، واستناد إلى غير تحصيل ، وعاد
في تضليل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ نَبَّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا
كَذَلِكَ حَقَّا عَلَيْنَا نُبَّجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض قوله تعالى : « علينا » هاهنا معناها « منا » ،

(١) وردت (حول) وهي خطأ في النسخ .

(٢) هذا نموذج طيب لموقف التشيرى مشكلاً سلباً — بالسبب لفضيلة اختيار الإنسان .

فلا شيء يجب على الله لكونه إلهًا مَلِكًا ، فيجب الشيء من الله — لصدقه — ولا يجب عليه — لِعِزَّتِهِ (١) .

وكلا لا يجوز أن يدخل نبي من الأنبياء — عليهم السلام — في النار لا يجوز أن يخلد واحد من المؤمنين في النار لأنه أخير أنه يُتَّبَعِي الرسل والمؤمنين جميعًا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

إن كنتم في غطاء الرُّيب فأننا في ضياء من النيب ، إن كنتم في ظلة الجهل فأننا في شمس الوصل ، إن كنتم في سدة الضلالة فأننا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة .
ويقال قد تميزنا على فرق الطريق : فأنتم وغتم في وهدية العوج ، وأنا ثابت على صواب (٢) النجى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ أَعْمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أى أخلص قلبك للدين ، وجرد قلبك عن إثبات كل ما لحقه قهر التكوين ، وكن مائلًا عن الزين والبدع ، داخلاً في جملة من أخلص في الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴾ .

(١) تأمل هذا التخرج حتى يتبين مذهبه الكلامي مع ظاهر النص القرآني .

(٢) وردت (سوء) وهي خطأ في النسخ .

لا تَعْبُدْ مَا لَا تَنْفَعُكَ عِبَادَتُهُ وَلَا تَضُرُّكَ عِبَادَتُهُ ، وَتِلْكَ خِصَّةُ كُلِّ مَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ .
وَاسْتِمَاعَةُ الْخَلْقِ بِالْخَلْقِ تَحْقِيقُ هَوَايَا بِلَا طَائِلٍ ، فَمَنْ لَا يَلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا كَيْفَ
يَسْتَعِينُ بِهِ مَنْ هُوَ فِي مِثْلِ حَالِهِ ؟ وَإِذَا انْضَافَ الضَّعِيفُ إِلَى الضَّعِيفِ أَزْدَادَ الضَّعْفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ

لِقَضَائِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

كَمَا تَفَرَّدَ بِإِدْعَاءِ الضَّرِّ وَاخْتَرَاعِهِ فَلَا شَرِيكَ يُعَضِّدُهُ . كَذَلِكَ تَوَحَّدَ بِكَشْفِ الضَّرِّ
وَصَرَفِهِ فَلَا تَصِيرُ يَنْجِيهِ .

وَيَقَالُ هُوَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِ الضَّرُّ بِقَوْلِهِ : « وَإِنْ يَمْسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ » حَيْثُ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ ،
وَالْمُخْطَلِّ يُسْتَلْذُ مِنْ كُفٍّ مِنْ نَجْبِهِ .

وَفَرَّقَ بَيْنَ الضَّرِّ وَالْخَيْرِ بِإِضَافَةِ الضَّرِّ إِلَيْهِ فَقَالَ : وَإِنْ يَمْسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ، وَلَمْ يَقُلْ :
وَإِنْ يُرِدْكَ بِضُرٍّ — وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الضَّرُّ صَادِرًا عَنْ إِرَادَتِهِ — وَفِي ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ
الْإِفْظَ دِقَّةً .

وَيَقَالُ : عَذَبَ الضَّرُّ حَيْثُ كَانَ قَعُهُ ؛ فَلَمَّا أَوْجَبَ مَقَاسَاةَ الضَّرِّ مِنَ الْحَرْبِ أَبْدَلَ مَكَانَهُ
السَّرُورَ وَالطَّرَبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حَتَّى أَتَاكُمْ أَمْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ

لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلْيُضِلَّ عَلَيْهِ

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُكِيلٌ ﴾

مَنْ اسْتَبَصَرَ رَاسِحَ رُشْدٍ فِيهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقَدْ زَاغَ عَنْ قَصْدِهِ ؛ فَبِذَا بَلَاهُ اكْتَسَبَ .
وَذَلِكَ ضِيَاءٌ وَرِشَاءٌ اجْتَلَبَ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِيسَىٰ مَرْسُومًا إِلَيْكَ وَاصِرًا
 حَقِّ يَحْكُمُ اللَّهُ وَهُوَ خَبِيرٌ
 الْحَاكِمِينَ﴾

قِفْ هند جريان أحكامنا، وانسلخْ عن مرادِك بالكلية ، لِيُجْرِيَ عَلَيْكَ ما يريد ،
 والله أعلم بالصواب .

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقول قوم قَبَصَرَتْهَا ، وعلى قلوب آخرين فَجَرَدَتْهَا ، فالتى
 بَصَرَتْهَا فبنور برهانه ، والتى جَرَدَتْهَا فبقهر سلطانه .. فمَالَمْ سَبِيلَ بَحْثِهِ واستدلّاه
 فَسَكَنَ لَمَّا طَلَمَتْ نَجْمُومُ عقله نَحْتِ ظلال إقباله ، وثارِفُ مَرَضِ إِلَى وصاله فطاح لَمَّا لاحت
 لَمْعَةٌ مِنْ قَدَسٍ بالإعلام باستحقاق جلاله .

قوله جل ذكره: ﴿أَكْرَأَ كِتَابَ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ
 فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

الألف إشارة إلى افراده بالربوبية .

واللام إشارة إلى لُطْفِهِ بأهل التوحيد .

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البرية .

وهى فى معنى الْقَسَمِ : أى أقسم بافرادى بالربوبية ولطفى بمن عرَّفَنِي بالأحدية ،
 ورحمى على كافة البرية — إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .

ومعنى « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » : أى حُفِظَتْ من التبديل والتغيير ، ثم فُصِّلَتْ ببيان نفوت
 الحق فيها يتصف به من جلال الصمدية ، وتبَيَّنَ به الخلق من أحكام العبودية ، ثم ملاح لقلوب
 الموحدين والهابسين من لطائف القربة ، في عاجلهم البشرى بما وَعَدَهُم به من عزيز لقائه
 في آجلهم ، وخصائصهم التى امتازوا بها عَنْ سِوَاهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ .

أى فصلت آياته بألا تعبدوا إلا الله .

ويقال معناه في هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله ، إني لكم منه « نذير » مبين بالفرقة ، « وبشير » بدوام الوصلة ، (فالفرقة بل في عاجله واحداً)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾

استغفروا ربكم أولاً ثم توبوا إليه بعده .

والاستغفار طلب المغفرة ، يعنى قبل أن تتوبوا اطلبوا منه للمغفرة بحسن النظرة ، وحمل الوجه والثقة بأنه لا يخلد المصطفى في النار ، فلا محالة يخرجكم منها . فابتدئوا باستغفاركم ، ثم توبوا بترككم أوزاركم ، والتسنى عن إصراركم .

ويقال استغفروا في الحال مما سلف ، ثم إن ألمتم بركة أخرى فتوبوا .

ويقال استغفروا في الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستدعوا التوبة — إلى ما ليكم — مما أسلفتم من قبائح أعمالكم .

ويقال « استغفروا » : الاستغفار هو التوبة ، والتسنى من جميع الذنوب ، ثم « توبوا » من توبم أنكم يجابون بتوبتكم ، بل اعلوا أنه يجيبكم بكماله لا بأعمالكم .

ويقال « الاستغفار » : طلب حظوظكم من عفونا . . فإذا فعلتم هذا فتوبوا من طلب كل حظ ونصيب ، وارجعوا إلينا ، واكفوا بنا ، واضمن بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يفرجكم به .

قوله جل ذكره : ﴿يَتَّبِعْكُمْ مَثَافًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

مسمى

أى يتبعكم عيشاً طيباً حسناً مبركاً .

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص .

ويقال هو القناعة بالموجود .

(١) هذه عبارة لما أنها رائدة نتيجة خطأ في السمع ، أو أن بها اضطراباً في الكتابة أقدمها المسمى .

ويقال هو ألا يخرجه إلى مخلوق ، ولا يجعل لأحد عليه منة (لا سببا للشيم^(١)) .

ويقال هو أن يوقه (لاصطناع للمعروف إلى المستحقين .

ويقال هو أن يُقضى على يديه (٢) حوائج الناس .

ويقال هو ألا يُلِمَّ في حال شبابه بزلَّة ، وألا يتصف بأنه عن الله في غفلة .

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجري عليه من نوعي العسر والبسر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ

تَوَلَّوْا فَأِنِّي أَتَّخِذُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ

يَوْمٍ كَبِيرٌ ۝

من زادت حسناته على سيئاته أخطاء جزاء ما قُضِيَ له من الطاعات ، ومن زادت سيئاته على حسناته كافاه بما يستوجبه من زيادة السيئات . . . هنا بيان التفسير .

ويقال مَنْ فَضَّلَهُ بِحَسَن توفيقه أوصله إلى ما يستوجبه من لطفه وزيده . . .

ويقال هو أن يستر عليه فضله حتى لا يلاحظ حاله ومقامه ، بل ينظر إلى نفسه ، وما منه وما له . . . يعين الاستحظار والاستصغار .

ويقال هو أن يرقبه عن التعرُّج في أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحديَّة ، ويُتْقِيَه عن (. . .) (٣) البشرية ، والنكسر بما يبدو من مفاجآت التقدير .

ويقال هو ألا يُوحِثَه شيء بما يجري في الوقت .

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما تسمو إليه همته ، ويُكَلِّمَهُ فوق ما يستوجبه عمله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

(١) ما بين التوسين في أهل الصفحة ومكتوب بخط رديء جداً .

(٢) ما بين التوسين في هامش الصفحة بخط حسن ومن هذا وذاك يضح أن النسخة تبيها أن تراجع بواسطة قارئين مختلفين .

(٣) مثلية .

تنقطع الدعوى عند الرجوع إلى الله ، وتفتق الظنون ، ويحصل اليأس من غير الله بكل وجه ، ويبقى العبد بنمت الاضطرار ، والحق يُجرى عليه ما سبقت به القسمة من أنواع الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْتُونَ فِيَّ لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُ عِلْمٌ قَدِ اسْتَرْسَوْا وَلَا يُرِيدُونَ أَنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بذات الصدور ﴿

أى يسترون ما تنطوى عليه عقائدهم ، ويضربون للرسول — عليه السلام — وللمؤمنين خلاف ما يظنون ، والحق — سبحانه — مطلع على قلوبهم ، ويعلم خبايا صدورهم ، فنليهم لا يغني عنهم من الله شيئاً ، وكان الله — سبحانه — يطلع رسوله — عليه السلام — على ما أخفوه إماماً بتعريف الوحي ، أو بإشهاد لقوة نور ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراصة ، فكل مؤمن له يقدر حاله من الله هداية ، قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراصة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله » ^(١) ولقد قال قائلهم .

أَبْعَيْتِي أَرْكَاءَ أُمِّ بَقْرَادَى ؟ كُلُّ مَا فِي الْقَوَادِرِ لَعِينٌ بَادٍ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

أراح القلوب من حيرة التقسيم ، والأفكار من تصبب التفكير في باب الرزق حيث قال : « إلا على الله رزقها » فَسَكَنَتِ الْقُلُوبُ لَمَّا تَحَقَّقَتْ أَنَّ الرِّزْقَ عَلَى اللَّهِ .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحب الحيات في غلط من حسابه . ثم إن الله سبحانه

(١) رواه الترمذى والطبرانى .

ورواه القشيري في رسالته (س ١١٥) هكذا : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال أخبرنا أحمد ابن علي الرازي قال أخبرنا محمد بن أحمد بن السكن قال حدثنا موسى بن داود قال حدثنا محمد بن كثير السكوني قال حدثنا عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله (ص) : « واعلموا ... » .

بَيِّنْ أَنَّ الرِّزْقَ الْقَيُّ «عليه» مَسَالُهُ قَتَالُ : «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» ، وَمَا كَانَ فِي السَّمَاءِ لَا يُوْجَدُ فِي السُّوْقِ ، وَلَا فِي التَّنَاطُوفِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ ^(١) .

وَيَقَالُ الْأَرْزَاقُ مُخْتَلَفَةٌ فَرِزْقُ كُلِّ حَيَوَانٍ عَلَى مَا يَلِيْقُ بِصَفَتِهِ .

وَيَقَالُ لِلنَّفُوسِ رِزْقٌ هُوَ غِنَاءُ طَرِيقَةِ الْخَلْقِ ، وَلِلْقُلُوبِ رِزْقٌ وَهُوَ ضِيَاءُ مُوجِدِهِ الْحَقِّ .

وَيَقَالُ لَمْ يَمَلْ مَا يَشْتَبِهْ أَوْ مَقْدَارُ مَا يَكْفِيهِ بَلْ هُوَ مُوَكَّلٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ ؛ فَيَنْ مَوْسَعٍ عَلَيْهِ وَمِنْ مُقَيَّرٍ .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ وَنَيِّمٌ مُّسْتَقَرًّا وَنُتَوَدَعَهَا

كُلٌّ فِي كَلْبٍ مِّبِينٍ ﴾

قِيلَ أَرَادَ بِهِ أَصْلَابَ الْآيَاءِ وَأَرْحَامَ الْأَهْمَاتِ ، أَوْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ . وَيَقَالُ مُسْتَقَرُّ الْمُرِيدِ بَابٌ شَيْخُهُ كَسْتَقَرَّ الصَّبِيُّ بَبَابٍ وَالدَّيْ . وَيَقَالُ مُسْتَقَرُّ الْعَابِدِينَ الْمَسَاجِدُ ، وَمُسْتَقَرُّ الْعَارِفِينَ الْمَشَاهِدُ ، فَالْمَسَاجِدُ مُسْتَقَرُّ نَفُوسِ الْعَابِدِينَ ، وَالْمَشَاهِدُ مُسْتَقَرُّ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ .

وَيَقَالُ مُسْتَقَرُّ الْحُبِّ رَأْسُ سِكَّةٍ مَحْبُوبَةٍ لَهُ يَشْهَدُهُ عِنْدَ حَيَوِيهِ .

وَيَقَالُ الْمَسَاجِدُ لِلْعَابِدِينَ مُسْتَقَرُّ الْقَدَمِ ، وَالْمَشَاهِدُ لِلْعَارِفِينَ مُسْتَقَرُّ الْحِمَمِ ، وَالْقَرَاءُ مُسْتَقَرُّ سُدَّةِ الْكُرَمِ .

وَيَقَالُ الْكُلُّ لَهُ مَتَوًى وَمُسْتَقَرٌّ ، أَمَّا الْمَوْحِدُ فَإِنَّهُ لَا مَتَوًى لَهُ وَلَا مُسْتَقَرٌّ وَلَا مَتَوًى وَلَا مَتَوًى .

وَيَقَالُ النَّفُوسُ مُسْتَوْدَعٌ التَّوْفِيقِ مِنْ اللَّهِ ، وَالْقُلُوبُ مُسْتَوْدَعُ التَّحْقِيقِ مِنْ رَبِّهِ اللَّهِ .

وَيَقَالُ الْقُلُوبُ مُسْتَوْدَعُ الْمَعْرِفَةِ ، فَالْمَعْرِفَةُ وَدِيعةٌ فِيهَا . وَالْأَرْوَاحُ مُسْتَوْدَعُ الْحُبِّ فَالْحُبُّ وَدَائِعُ فِيهَا . وَالْأَسْرَارُ مُسْتَوْدَعُ الْمَشَاهِدَاتِ فَالْمَشَاهِدَاتُ وَدَائِعُ فِيهَا .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

لِيُبْلِغَكُمْ أَبْكَمَ أَحْسَنُ عِلَاقٍ ﴾

(١) قَدْ يَسُوِّرُ لَوَهَّ الْأَوَّلَى أَنَّ كَلَامَ الْقَشِيرَى لَا يَنْتَظِمُ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » وَلَكِنَّ الرَّاغِبَ أَنَّهُ يَقْصِدُ بِهَذَا رِزْقَ السَّائِرَاتِ لَا رِزْقَ الطَّوَاهِرِ .

وَأَحْسَنُ الْأَعْمَالِ مَوَاقِفَةُ الْأَمْرِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَكْثَرُ عَمَلًا .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشدَّ إخلاصاً فيه .

ويقال أحسنهم عملاً أبعدهم عن ملاحظة أعماله .

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بين الاستمئثار .

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضاً .

ويقال أحسن الأعمال ما غلبَ عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود .

قوله : « لِيُبْرَكُمْ » الابتلاء من قِبَلِهِ تعريفُ الملائكة حالاً من ينشئه في الشكر عند البُسر والمسر عند البُسر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا نَسْأَلُكُمْ فَبِعَمَلِهِمْ مِنْ
بَعْدِ الْمَوْتِ كَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

استبعدوا البُسر لتقلصُ علومهم من التحقق بكمال قدرة الحق ، ولو عرفوا ذلك لأيقنوا
أن البحث ليس بمخاصم في الإيجاد ولا بمسحلي في التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ
مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِئُهِمْ ؟ أَلَا يَوْمٌ
يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول : إن أُمَّهَاتِنَا ، وَأَخَّرْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ لَا يَرْتَمُونَ ، بل يستعجلون العقوبة . ولئن
هَجَلْنَا لَمْ الْعُقُوبَةُ لَا يَتَوَيَّرُونَ وَلَا يَسْتَغْفِرُونَ . . . استولى عليهم الجهل في الحالين ، وَهَيَّئَتْ
بصائرهم من شهود التقدير والإيمان بالنيب في النوعين . ويوم يأتيهم العذاب فلا مناص
ولا منجاة ولا مراح لهم منه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً
ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴾

تَكْدُرُ ما صفا من النعم ، وَتَقْدُرُ ما أُتِيجُ من الإحسان واليكن حالُ موهودَةٍ وخَطَلَةٍ
 عامّة ، فلا أحدٌ إلّا وله منها خَطَلَةٌ^(١) فمن لم يوجع بالتأسّف قلبه ، ولم يتضاعف في كل نفسٍ
 تَلَهُّفُهُ وكرْبُهُ ففي ديوان التسيان ، وأثبت اسمه في جملة أهل المهرجان . ومن استمسك بمرّة
 التضرّع ، واعتكف بقوة التذلل ، احتسب كلمات الحسرة حُلَلًا بعد نيل طاعته للحق
 بنمت الرحمة ، وجدّد له ما اندوس من أحوال القربة ، وأطلّع عليه شمس الإقبال بعد الأفول
 والغبية ، كما قيل

تَفَشَّ غَيْمُ المجر عن قر الحُبِّ . وأشرق نورُ الصبح في ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ في التحقيق ، ولا يُدْزِئُها وتكدرُها من جملة المحن
 عند أرباب التحصيل ، لكنّ الهمة الكبرى والرزية العظمى ذبولُ فصيل الرّصال ؛ وتكدرُ
 مشرب القرب ، وأقولُ شوارق الأُنس ، ورومته بصائر أرباب الشهود . . . فعند ذلك
 تقوم قيامتهم ، وهناك تُسَكَّبُ العَمْرَلُ . ويقال إذا تَنَقَّ في ساحاتِ هؤلاء غرابُ البين
 ارتفع إلى السماء نَوَاحُ أسرارهم بالويل ، ومن جملة ما يثنون من نصيحتهم ما قلتُ .

قولا لنُ سَلَبَ الفؤادَ فراقهُ ولقد عَودَنا أن يُبَاحَ حِثائهُ
 بَعْدَ الفراقِ . . . فبالتى هو بيننا حَلًّا ورحمَ مَنْ دنا إِزهاقهُ ؟
 عهدي بمن جحد الهوى أزمانُ كُ نأ بالعابرة — لا يتصق نطاقهُ .
 والآن مُدَّ بِحُلِّ الزمانُ بوصلتنا ضاق البسيطة حين دلم فراقهُ .
 هل تُرتجى من وصل عِزِّكَ رجى نَحْوَ على قر يَومَ محاقهُ ؟
 إن كان ذاك كاتروم فأتخروا . أتى له أن يعودَ شروقه^(٢) ؟

قوله جل ذكره: وَلَوْ أَذْنَةٌ نَعَسَتْ

(١) (الخطّة) بضم الحاء = الأمر والحالة ، و (والخطّة) تكر الحاء ما يحفظه الإنسان لنفسه من
 قدر معلوم من الأرض ونحوها .

(٢) الآيات في هذا النس وميلتنا مضطربة الوزن سبب الخط ، مطبوعة الكلاش في كثير من المواضع
 وقد تدخلنا فيها بقدر يسع لإظهار المعنى وتناسق السياق .

عُرِّاهُ مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحْتُ بِهِ فَرَحًا .

إذا كشفنا الضرَّ عنهم رحمةً مِنَّا عادوا إلى نهيكم بدلاً من أن يتقربوا إلينا، وأساءوا بخلع عذارم بدل أن يقوموا بشكرنا، وكلما اتَّخَذْنَا لهم من إيماننا أُتُوا مسكرنا، ولم يخافوا أَنْ نأخذهم غَداةً بغيرنا.

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَمْ يَغْفِرْ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ۝﴾ .

الإيمان في الآية السابقة اسم جنس .

وإلا للاستهانة منه ، وقيل معنى « لكن » ، يريد إذا أذعنهم نعمة بعد الشدة بطروا ، إلا المؤمنين فانهم يختلف ذلك ، أى لكن الذين آمنوا يختلف ذلك ، فانهم يصبرون على ما به أمروا ، وعما عنه زجروا ، ولما قطعهم طاعات ومناقرهم الزلات .. فقام مغفرة وأجر ، مغفرة لعبائهم ، وأجر على إحسانهم . والفرقان لا يستويان ، قال فاعلمهم .

أَحِبَّائُنَا كُتَّانَ وَاهِدٍ وَنَاقِصٍ وَلَا يَسْتَوِي قَطُّ حُبُّهُ وَبِغْضِ
قَوْلِهِ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ فَلَمَّا تَرَى تَارِكٌ بَعْضُ مَا يَوْحَى
إِلَيْكَ ۝

اَقْرَحُوا عَلَيْهِ اَنْ يَّاتِيَ بِكِتَابٍ لِّسَ فِيهِ سَبُّ اَكْثَمِهِمْ ، وَبَيْنَ اللّٰهِ — سَبْعَةٌ — لَا
اَلَا يَتْرَكَ تَبْلِيغَ مَا اُنْزِلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ كُرْهِهِمْ ، وَلَا يُؤَيِّدُ مَا يُؤَيِّسُ إِلَيْهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا فُلَانٌ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا أَوْ جَاءَهُ مَلَكَ﴾
 إِنَّا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 وَكِيلٌ .

وهذا على وجه الاستبعاد؛ أي لا يكون منك ترك ما أوحى إليك ، ولا يضيق صدرك

بما يبدو من الغيب .. ومن شرح الله بالوحيد صدره ، ونور بشهود التقدير سره — مق
يلحقه ضيق صدر أو استكراه أمر ؟ ثم قال : « إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » :
أى أنت بالإنزال منصوب ، وأحكام التقدير عليك مجرأة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ يَمُشِرُ
مُورِثَةُ مُقْتَرِيَاتٍ وَأَذْهَبُوا مِنْ
اسْتَطَعْتُمْ تَيْنِ دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ .

في الآية بيان أن المكلف مزاح العلة لما أقيم له من البرهان وأهل له من التحقيق .
وأن الإيمان بالواسطة — صلى الله عليه وسلم وآله — واجب لما خص به من المعجزات التي
أوضحها الكتاب المتزلزل والقرآن المفصل الذي عجز الكفار عن معارضته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَلَمْ يَسْجُدُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهَا
أَنْزَلَتْ بِإِذْنِهِمْ قُلْ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

يعنى فإن لم يستجيبوا لكم يعنى إلى الإتيان بمثله — وهم أهل بلاغة — فتحققوا أنه
من قبيل الله ، وليس على سنة التحيز (. . .)^(١) إنما العى في بشار من ضلوا عن
الحق ، وتاهوا في سدة الخيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا
لَا يُبْخَشُونَ ﴾ .

من قنع منهم بدنيا الدناءة صفحتها وسفنا عليه في الاستمتاع بأيام فيها ، ولكن عقيب
أكلها يسرى زوالها ، ويدوق بعد حيلها حنظلها .

(١) مشقة .

قوله جل ذكره : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ،
وِبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَابَتْ أَعْيُنُهُمْ ، وَظَهَرَ لَهُمْ — بخلاف ما احسبوا — آلاَهُمْ ، حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ ، وَحَقَّقَ بِهِمْ سُوءُ حَالِهِمْ .

قوله جل ذكره ﴿أَقْنِ كَانِ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلَوْهُ
شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى
إِمَامًا وَرَحَّةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ
فَلَا تَكُ فِي مَوْعِدٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ .

فيه إضمار^(١) ومعناه أقنِ كَانِ عَلَى بَيِّنَةٍ كُنْ لَيْسَ عَلَى بَيِّنَةٍ . . . لَا يَسْتَوِيَانِ .
وَالْبَيِّنَةُ لِأَقْوَامٍ بَرَّهَانُ الْعِلْمِ ، وَلِآخَرِينَ بَيَانُ الْأَمْرِ بِالتَّطَلُّعِ وَالْجَزْمِ ؛ يُسْهِدُهُمُ الْحَقُّ
مَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غُيُوبُهُمْ ، كَمَا قُلْتُ :

لَيْلٍ مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّعْفَا
فَالنَّاسُ فِي الظُّلَّةِ مِنْ لَيْلِهِمْ وَنَحْنُ مِنْ وَجْهِكَ فِي النُّوْرِ وَالشَّاهِدُ

فَالَّذِي يَتَوَلَّاهُ فَهُوَ مُشَاهِدٌ ، وَفِي الْغُيُوبِ «أُولِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَ اللَّهِ»^(٢) .
قَالَ تَعَالَى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمْ تَعْرِفْتَهُمْ بِسْمَاءٍ » .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا...﴾ الآية .

(١) إضمار هنا مستحسن لما يسمى في علم البلاغة بـ «إيجاز الحذف» .
(٢) سقطت بقية الخبر من النسخ .

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً ، واستوجب المقت ،
وعقوبته ألا يُرزق بركة في أحواله ، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبه ، فيفضحه بين الخلق ،
والشهداء قلوب الأولياء ، ومن شهدت القلوب عليه بالرد فهو غير مقبول عند الحق

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾
الآية .

هذا من جملة صفات للفقرين على الله الكذب ، ومن صدَّم عن السبيل أن يظهروا
من أنفسهم أحوالاً تخلُّ بأحكام الشريعة ، ولا يرون ذلك كبيرة في الطريقة ، ويورمون
المتصِّمين من أهل الاعتراض عليهم أن لهم في ذلك رخصة ، فيضلُّون ويضلُّون . ومن
جملة صدَّم عن السبيل تفريرهم بالناس ، ولقاعهم في القلط ، ويرتفقون بشيء مما في أيديهم
من حطام الدنيا ، ولا يستحيون من أخذ شيء لا يستوجبونه بأني وجه حق ، ويدأهون
في دين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾
... الآية .

من هذه صفتهم لا يبرهون في تجارتهم ، ولا يلحقون غاية طلبوها ، فيبقون عن الحق ،
ولا يبارك لهم فيها اعتاضوا من محبة الخلق .. حَسِرَتْ صَفَقَتُهُمْ ، وَبَارَتْ بَضَاعَتُهُمْ ، لَفُوا
الموان ، وذاقوا اليأس والحُمران .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾
الْآخِرُونَ .

لا عالة لهم في الآخرة أشدَّ خسراناً ، وأوفر — من الظلمات — نقصاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾
وَأَحْيَوْا .

الإحياء النخسح لله بالقلب بدوام الانكسار ، ومن علامته الدبول تحت جريان
للقادير بدوام الاستغاثة بالسر .

قوله جل ذكره : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمِ وَالْأُصْمِ...
والبصير والسميع...﴾ الآية

مثلُ الكافر في كثره كالأصم والأُصم ، ومثلُ المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير — هذا بيان التفسير .

والإشارة فيه أن الأصم من عَمِيَ عن الإبصار بصره ، والأصم الذي طُرش بَسَمْعُ قلبه ؛ فلا يستدله شَهِد سرَّه قديره في أفعاله ، ولا بنور فِراسَةِ توهم ما وقف عليه من مكلفات الغيب لقلبه ، ولا بَسَمْعَ القبول استجاب لدواعي الشرمة ، ولا بِحُكْمِ الإنصاف انقَادَ لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسَرِّه من تلويحات الحقيقة .

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين ، ويشهد صفاته بعين اليقين ، ويشهد ذاته بحق اليقين ، والغائبات له حضور ، وللمستورات له كشف . فالذي يسمع صِفَتَهُ ألا يسمعَ هواجسَ النَّفْسِ ولا وساوسَ الشَّيْطَانِ ؛ فيسمع من دواعي العلم شرعاً ، ثم من خواطر التعريف قدراً ، ثم يكشف بخطاب من الحق سِرّاً^(١)

فهؤلاء لا يستويان ، ولا في طريق يلتقيان :

رَاحَتٌ مُسَرَّقةٌ وَرُحْتُ مُفَرَّغَةٌ فَمَنْ التَّقَاهُ مُسَرَّقِي وَمُفَرِّغِي ١

قوله جل ذكره : ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ ۝﴾

كان نوح عليه السلام أطول الأنبياء عُمرًا وأشدَّهم بلاءً ، وسعى نوحًا لكثرة نُوحِهِ على نَفْسِهِ... وسبب ذلك أنه مرَّ بكلِّ قَلْبٍ قَالَ : ما أقبحه ! فأوحى الله إليه : أَنْ اخْلُقْ أَنْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا . فأخذ يبكي وينوح على نفسه كُلَّ ذَلِكَ النَّوْحِ . فكيف بحالِ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ يومًا مما مضى من عمره في مدة تكليفه — ولم يحصل منه لله كثير من ولاية ؟

(١) تنبيه هذه الإشارة في بيان أحكام « الباع » عند الصوفية .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالِ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
 مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ
 اتِّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْنِي
 الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ
 فَضْلٍ بَلْ نَنظَرُكُمْ كَذِبِينَ ﴾ .

أنكروا حجة كونه نبياً لما كلفته إياهم في الصورة ، ولم يعلموا أن المبانية بالسرية
 لا بالصورة .

ثم قال : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » : نظروا إلى أتباعه نظرة
 استصغار ، وتسببوا إلى قلة التحصيل .. وما استصغر أحدٌ أحدًا من حيث رؤية الفضل عليه
 إلا سخط الله عليه ، وأذاقه ذل صغاره ، فبالماي يحصل الانبعاث لا بالمباني :

نرى الرجل النعيف قزوينه وفي أنوابه أسد هصور
 فإن أك في شزاركم قليلا فإن في خياركم كثير

قوله جل ذكره : ﴿ قَالِ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى
 بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ
 رَبِّي فَتُصِيبْكُمْ فَتُلْزَمُكُمْ مِّنْهُ
 وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴾ .

الصحيح لا خلل في ضيائه ليكون الناظرين عيانا ، والسيف لا خلل في مضائه
 ليكون الضالين صيبانا . . . وكيف لبشر من قدوة على هداية من أضله الله —
 ولو كان نبياً ؟^(١)

هيئات لا ينفع مع الجاهل نصح ، ولا ينفع في الصبر وعظ

(١) الأفضل أن تكون (ولو كان نبياً) حجة اعتراضية على (لبشر) حتى يستقيم التركيب . ولكننا
 أنبتنا لما جاء في (م) .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ﴾
الذين آمنوا إناهم مُبْلَغُونَ رُسُلُهُمْ
وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْبَهُونَ ﴿﴾

سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — أَلَا يَطْلُبُوا عَلَى رَسُولِهِمْ أَجْرًا ، وَأَلَا يُؤْمَلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
عِنْدَ انْخِلَاقِ قُدْرَتِهِمْ ، عَمَلُهُمْ فَهَلَا يَطْلُبُونَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ . فَهِنَّ سَلَكْنَ مِنَ الْمَلَاهِ سَبِيلَهُمْ خَيْرَ
فِي زَمَرَتِهِمْ ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى صَلَاحِهِ مِنْ أَحَدٍ عَوَضًا ، أَوْ اكْتَسَبَ بِمُدَاهِدَةٍ جَاهًا لَمْ يَرَهُ مِنَ اللَّهِ
إِلَّا هَوَانًا وَصَغَارًا .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

بِمَجَالَةِ الْقِرَاءَةِ الْيَوْمَ — وَهِيَ جُلُوسُهُ الْحَقُّ غَدًا — أَجْدَى مِنْ مَجَالَةِ قَوْمٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا .
وَمَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَهُ اللَّهُ وَأَدْنَاهُ اسْتَوْجِبَ الْخِزْيَ فِي دُنْيَاهُ ، وَالصَّغَارَ فِي عَقْبَاهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خِزْيَانِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾
لَا أَنْخَلِقُ خَلْقًا مَا أَبْلَغْتُ مَا حَمَلْتُ مِنْ رَسُولَتِي ، وَلَا أَتَدْرِي مَا كَلَّفْتُ بِهِ ، وَلَا أَزِيدُ
عَمَّا أَمَرْتُ ، وَلَنْ أَخْرَجَ عَنِ الْقِيَامِ أَنْبَاءُ ، بَلْ أَتَمَّصِبُ بِشَاهِدِي يَا أَقْلَامُونِي .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَكِنِّ الظَّالِمِينَ﴾

إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ فِي أَنْوَابِهِمْ وَلَا يَرَامُ إِلَّا مَنْ قَارَبَهُمْ فِي مَعَامِهِمْ . اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِهِمْ ،
وَفِي الْجِلَّةِ : طَيْرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْفَاءِ تَقَعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

أوضح لهم من البراهين ما لو آمنوا النظر فيه ثم لم اليقين ، ولكنهم أصروا على
الجلود ، ولم يقتنعوا من الموعود بشئ المشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

أقر بالعبودية ، وتبرأ عن الحول والقوة ، وأحال الأمر على المشيئة . ولقد أنصف من
لم يجاوز حده في الدعوى . والأنبياء عليهم السلام — وإن كانوا أصحاب التحدى للناس
بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْرِي إِنْ أُرِدْتُ أَنْ
أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
رُجْعُونَ ﴾

من لم يساعده تعريف الحق — بما له بحكم العناية — لم ينفعه نصح الخلق في النهاية .
ويقال من لم يوصله الحق لوصول في آزاله ^(١) لم ينفعه نصح الخلق في حاله
ويقال من سبق الحكم له بالضلالة أتى ينفعه النصح وبسط الدلالة ؟
ويقال من لم تساعده قسمة السوابق لم ينفعه نصح الخلق .

قوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » : من الحال اجتناع الهداية والغواية ، فإذا أراد
الله بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية .

ثم بين الحنى في ذلك بأن قال « هُوَ رَبُّكُمْ » ليعلم العالمون أَنَّ الرب تعالى له أن يفعل
سباده ما شاء بحكم الربوبية .

(١) أى بما سبقت به التسمية — حسب تمييز التفسيرى في مواضع أخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترأه قُلْ إِنِّي افترأته

قُلْ إِنِّي افترأته

ومهما وصفتوني فأني أجيئ الله... وكلُّ مُطالِبٍ بفعله دون فعلٍ صاحبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ

قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِلْ مِنْ

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

عرفه الحقُّ أَنَّهُ فني عن إيمانهم ، فكشَفَ له أحكامهم ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ فَنَسِيقَ

الحكمُ بشقائهم ، فنند ذلك دعا عليهم نوحٌ — عليه السلام — بالإهلاك .

ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للسطع في إيمانهم مساعً ، فلما حصل العكسُ نطق

بالتماس هلاكهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا

وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ

مُعْرِضُونَ ﴾

أى قُمْ — بشرط العبودية — بصنع السفينة بأمرنا ، وتحقق بشهودنا ، وَأَنَّكَ بِرَأْيِ

منا . وَمَنْ عَلِمَ اطلاعه عليه لم يلاحظ نفسه ولا غيره ، لا سباً وقد تحقق بأنَّ المبحر

هو سبحانه .

وقال له : راعِ حَدَّ الْأَدَبِ ، فما لم يكن لك إِذْنُ منا في الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطبنا فيهم .

ويقال سبق لهم الحكمُ بالفرق — وأمواج بحر التقدير تتلاطم — فكلُّ في بحار القدرة

مُعْرِضُونَ إِلَّا مَنْ أَهَلَهُ الْحَقُّ بِحُكْمِهِ فَتَحَلَّاهُ فِي سَفِينَةِ النِّيَاةِ .

ويقال كان قومُ نوحٍ من الفرقِ في بحار التَّطَرُّة ، ومن قبلُ كانوا غرقى في بحار القدرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلِّمْهُمْ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ

قَوْمِهِ صَارُوا مِنْهُ قَالِ إِنَّ تَسْخَرُوا

مِنَّا فَأَنَا تَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

لما تحقق بما أمر الله به لم يأت به عند إضائه ما كُلف به بما سح من القيل ، ونظر إلى الموعود بطرف التصديق فكان كشاهد له قبل الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ

يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

لا طاعة للخلق في معصاة الله - سبحانه - إلا من تحمل عنه فضله ما يحمله بحسبه .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار الثور قلنا

احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾

طال انتظارهم لما كان يتوعدهم به نوح عليه السلام على وجه الاستبعاد ، ولم يزد ثم تناول الأيام إلا كغزاً ، وصموا على عقد تكذيبهم .

ثم لما أنام الموعود لإيام بقته ، وظهر من الوضع الذي لم يُحيوه فأر الماء من التنور المسجور ، وجادت السماء بالطر المعبور^(١) .

« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » : استبقاه للتناسل .

وقال : قد يؤتى الخنزير من مأمته ؛ فإن إبليس جاء إلى نوح - عليه السلام - .

وقال : احملني في السفينة فأبى نوح عليه السلام ، فقال له إبليس : أما علمت آتى من للنظرين إلى يوم معلوم ، ولا مكان لي اليوم إلا في سفينتك ؟

فأوحى الله إلى نوح أن يحمله معه .

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان ، وأمر يحمل إبليس وهو أصعب الأعداء ؛ وفي هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجري على قياس الخلق ؛ كأنه قيل له : يا نوح . . ابنك لا تحمله ، وعبدك فأدخله ، فله سبحانه فقال لما يريد^(٢) .

(١) أى الجارى .

(٢) في هذه الإشارة تلميح إلى قاعدة في مذهب القسري أن أفعال الله لا تخضع لآل الناس من معايير حسية .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ

وما آمنَ منه إلا قليل﴾

«إلا من سبق عليه القول» بالثبوت. وفيه تعريف بأن حكم الأزل لا يردُّ، والحقُّ — سبحانه — لا يَنَزَعُ ، والجبارُ لا يُخَاصَمُ ، وأنَّ مَنْ أَقْصَاهُ رُبُّهُ لم يُدْهِ تَبْيَهُ ولا يَدُ ولا وَعَظَ .

«وما آمنَ منه إلا قليل» ولكن بآزلة الحقِّ — سبحانه — في الدين نجَّاهم من نَسَبِهِ ، ولم يدخل خللًا في الكونِ بعد هلاكِ مَنْ أَهْلَكَ مِنْ قَوْمِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمْعِيًّا

وَمُرْسَلًا إِنَّ رَبِّي لَنُفُورٌ وَحِيمٌ﴾

عَرَفَ أَنَّ نَجَاتَهُ مِنَ الْقَطَرِ لَمَّا تَقَالُطَتْ لَيْسَتْ بِالْجَلِيلِ — وَإِنْ تَوَعَّتْ وَكَثُرَتْ ، فَلَسَمَ اللَّهُ سَلَاتَهُ ، وَتَوَكَّلَهُ عَلَى اللَّهِ نَجَاتَهُ وَرَاحَتَهُ ، وَتَنَفَّضَهُ — سبحانه — صَلاَحَهُ وَحَافِيَتَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَهُيَ نَجْمٌ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ

يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ

الْكَافِرِينَ﴾

وكان في معزل بظاهره ، وكان في سرٍّ تقديره أيضًا بمعزل عما سبق لنوح وقومه من سابق

فضله . فحينما نطق بِلِسَانِ التَّشْفِيقِ وقال : «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» — لم

يقُلْ له : ولا تكن من الكافرين ؛ لأنَّ حالته كانت مُلْتَبِئَةً على نوح إذ كان ابنه يناقشه —

قَبِيلَ له : يا نوح إنه مع الكافرين لأنَّه في سابق حُكْمَيْنَا مِنَ الْكَافِرِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جَيْدِیْ بِمَعْشِرِیْ مِنْ

اللَّاءِ قَالَ لَا عَلَیْمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

فَكَانَ مِنَ الْفَارِقِينَ﴾

أَخْطَأَ مِنْ وَجْهَيْنِ : رأى الملاك من الماء وكان من الله ، ورأى النجاة والعصاة من الجبل
 وهما من الله ، فقال له نوح : لا عاصم اليوم من أمر الله . قيل أراد لامعصوم اليوم من الله .
 وقيل لا أحد يعصم أحداً من أمر الله ، لكن من رَحِمَهُ رَبُّهُ فهو معصوم من ذلك ، وله عاصم
 وهو الله .

ولقد كان نوح — عليه السلام — مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواج الماء وحالت
 بينهما وصار من المفترقين ، فلا وعظه ونصحه فضاء ، ولا قوله وتذكيره نجيّاه وخلّصاه .
 ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح هرقنا العالم بدعاثك ولا عليك إن عرف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ
 أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
 وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُنَا
 لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

فلا غرق ابن نوح سَكَنَ الموج ونَضَبَ^(١) الماء وأقلمت السماء ، وكأنه كان المقصود
 من الطوفان أن يغرق ابن نوح — عليه السلام — وقيل :
 عَجِثُ رَسَمِ الدهر بيني وبينها فلا اقضى ما بيننا سَكَنَ الدهر

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي
 مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
 أَحْكُمُ الْمَآكِينِ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ
 لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
 فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
 الْجَاهِلِينَ ﴾

(١) وردت (نضب) بالصاد ، وهي خطأ في النسخ ، والمراد (نضب) الماء أي هار واحمر ، فهي
 ملائمة لإقلاق السماء أي إمساكها من المطر .

خاطب الحق — سبحانه — في باب إنيته ، واستعطف في السؤال فقال :
 « إن ابني من أهل » : فقال له : إنه ليست من أهل الوصلة تسته — وإن كان من
 أهيك نسباً وحمّة ، وإن خطابك في بابي عمل غير صالح ، أو إنه أيضاً عمل غير صالح (١) .
 « فلا تسألن ما ليس لك به علم » : أي سترت غيبي في حال أوليائي وأعدائي ،
 فلا تعلم سرّ قديري .

قوله : « إني أعظك » : وذلك لحرمته شيخوخته وكبره ، ولأنه لم يستجب له في ولده ،
 فتداركه بحسن الخطاب قلبه .

وقيل إن ابن نوح بقى من الزجاج بيتاً وقت اشتغال أبيه بأخذ السفينة ، فلما ركب نوح
 السفينة دخل ابنه في البيت الذي اتخذ من الزجاج ، ثم إن الله تعالى سلط عليه البول
 حتى امتلأ بيت الزجاج من بوله ، ففرق السكّل في ماء البحر ، وغرق ابن نوح في بوله !
 ليعلم أنه لا مفر من القدر .

قوله جل ذكره : « قال ربّ إني أهوذك أن أسألك
 ما ليس لي به علم » ولألا تفقر لي
 وترحمني أكن من الخاسرين »

نسي نوح — عليه السلام — حديث ابنه في حديث فسه ، فاستعاذ بفضله واستجار
 بملطئه ، فوجد السلامة من ربه في قوله جل ذكره :

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا
 وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
 وَأَمْرٌ سَنَنْتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُحُ مِثْنَا
 هَذَا أَلَمِ »

ظهر وجه الأرض من أعدائه ، وحفظ نوحاً عليه السلام من بلاته ، هو ومن معه من
 أصدقائه وأقربائه .

(١) وعلى هذا الرأي تكون محادثة نوح بسبب علمه الصالح لا بسبب قربانهم له .

والأُمُّ الَّتِي أَخْبِرَ أَنَّهُ سَيَمَسُّهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمُ الْمَذَابُ ثُمَّ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ

مَا كُنْتَ تَقْلُبُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ

مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ

لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أعلمناك بهذه الجملة ، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلمه من شخص ،
أو من قوائم كتاب ؛ فإن قَابَلَكَ قَوْمُكَ بِالْتَكْذِيبِ فَاصْبِرْ ، فَمَنْ قَرِيبٌ تَقْلُبُ
هذه الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتِرُونَ ﴾

كَلَّمَ الْأَنْبِيَاءَ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — بِالذَّهَابِ إِلَى الْخَلْقِ لِأَسِيَا وَقَدِ عَانِيَا — بِالْحَقِّ —
مَنْ تَقَدَّسَ عَنْهُمْ مِنْ فِتْنَةِ الْمَلَأَ ، وَلَكِنْهُمْ تَحَمَّلُوا ذَلِكَ حِينَ أَمَرَهُمُ الْخَلْقُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِمْ فَرَضُوا ،
وَأُظْهِرُوا الدَّلَالَاتُ ، وَأَدَّوْا الرِّسَالَةَ ، وَلَكِنْ مَا زَادَ النَّاسُ إِلَّا فِتْنَةً عَلَى فِتْنَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ

أَجَّرْتَنِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ فَعَلَّيْ

أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — إِلَّا وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ فِي الْجَمْعَةِ
أَجْرًا إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا

إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

بُحُورَيْنِ ﴾ .

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار ، من توهمكم أن نجاتكم باستغفاركم .
 بل تحققوا بأنكم لا تحيدون نجاتكم إلا بفضل ربكم ؛ فبفضله ويتوفيقه توصلتم إلى
 استغفاركم لاستغفاركم ، وصلتم إلى نجاتكم ، وبرحمة أهلكم إلى استغفاركم ، وإلا لكان وصلتم
 إلى توبكم ولا إلى استغفاركم .

والاستغفار قرع باب الرزق ، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه ، فتح عليه أبواب
 رحته ، ويسر له أسباب نعمته .

ويقال يُنزَّل على ظواهركم أمطار النعمة ، وعلى ضرائكم وسرائركم يُنزل أنواع المنة ،
 ويزيدكم قوة على قوة ؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرزق ، وقوة تحصلون بها تحسين
 أصناف الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ تَاللّٰهِ اِيَّاهُودُ مَا حَسِبْنَا بِبَيْتِكَ مَكِينًا وَمَا فَضَّلْنَا
 بَنِيكَ الْكَافِرِينَ ﴾ من قولك وما نحن
 لك بمؤمنين .

ما زادم هود عليه السلام بسطا في الآفة وإيضاحا في المعجزة إلا زادم الله تعالى عني
 على عني ، ولم يرفعهم بصيرة ولا هدى ، ولم يزيدوا في خطايهم إلا بما دلوا على قسوة
 جبالهم ، وشدة ضلالهم بعد إلتئام وانهايم^(١) ، وقالوا :

﴿ اِنْ قَوْلُ اِلٰهٍ اَعْزٰكَ بِمَعْزٰنَا
 بِسُوْرَةٍ اِلٰى اٰثِمَةٍ اَللّٰهُ وَاَشْهَدُوْا
 اَنِّيْ بَرِيْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾ .

وكيف ظنوا أن آلهتهم خمس أعداءهم بسوء وهي لا تضر أعداءها ولا تنفع أوليائها ؟
 فهؤلاء النوايا عليهم مستوقية . ثم إن هودا عليه السلام أنصح عن فضل ربه عليه ؛
 وصرح بإخلاصه وحسن يقينه فقال : إني بربي مما تشركون ، ثم قال :

﴿ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِيْ جَمِيْعًا
 ثُمَّ لَا تُعْطِرُوْنَ ﴾ .

(١) يقال نهب فلانا أي تناوله بلسانه وأهبط له القول .

فلم يَخْشَعْهُمْ مِمَّ هُمْ إِلَى تَضَرُّعٍ وَاسْتِغْثَاءٍ ، وَلَا رَاؤُدُهُمْ فِي سَلَمٍ وَاسْتِهْمالٍ ، وَلَمْ يَتَّصِفْ
فِي ذَلِكَ بِرُكُونٍ إِلَى حَوْلِهِ وَمُلْتَهُ ، وَلَمْ يَسْتَبِدْ إِلَى جِدِّهِ وَقُوَّتِهِ بَلْ قَالَ :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ
مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

أخبر أنه يعود الله له بِنَصْرَتِهِ وَائْتِاقٍ ، وَأَنَّهُ فِي خُلُوصِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ وَفِي صِفَاءِ مَعْرِفَتِهِ
(غَيْرِ مُتَأَمِّقٍ) ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ
بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ .

أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ قُلْ لَهُمْ : إِنْ تَوَلَّوْا وَلَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَقَدْ بَلَّغْتُ مَا حُمِّلْتُ مِنْ رِسَالَتِي ،
وَإِنِّي وَائِقٌ بِأَنَّ اللَّهَ إِذَا أَهْلَكَكُمْ يَأْتِ بِأَقْوَامٍ آخَرِينَ سِوَاكُمْ أَطْوَعُ لَهُ مِنْكُمْ ، وَإِنْ
أَفْنَاكُمْ مَا اخْتَلَّ مُلْكُهُ ؛ إِذْ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — بِوُجُودِ الْأَغْيَارِ لَا يُلْحَقُهُ زَيْنٌ
— وَإِنْ وَحَدُوا ، وَبِقَدَمِ لَا يَمْسُهُ شَيْءٌ — وَإِنْ جَاهَدُوا وَالْحَمْدُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِيَّنَّاهُ هَوْدًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ مِنَّا وَنَجِيَّتْنَاهُمْ مِنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِإِهْلَاكِكُمْ نَجِيَّتْنَاهُ هَوْدًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِرَحْمَتِنَا ، وَلَمْ يَقُلْ بِاسْتِغْثَائِهِ النِّجَاةَ
بِوَسِيلَةِ نُبُوَّتِهِ ، أَوْ لُجْسَامَةِ طَاعَتِهِ وَرِسَالَتِهِ بَلْ قَالَ : « بِرَحْمَةِ مِنَّا » ؛ لِيَعْلَمَ الْكَافَّةُ أَنَّ

(١) بعد (معرفة) يوجد يياض مما يدل على سقوط خبر أن وقد أكلنا النقص بكلمة ملائمة من عندنا
تنفق مع السياق واللبس حسباً نعلم من طريقة التفسير .

الأنبياء — عليهم السلام — وَمَنْ دُونَهُمْ حَتَّى رَحِمْتَهُ ، وَغَرِيقُ مَيْتِهِ ، لَا لاسْتِحْقَاقٍ أَحَدٍ
وَلَا لَوَاجِبٍ عَلَى اللَّهِ فِي شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي بَيَّنَّا رُبُّهُمْ
وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرًا كُفْرًا
جَبَّارًا عَنِيدًا ﴾

في إنزال قصصهم تسليية لرسول — صلى الله عليه وسلم — وآله — فيما كان يقامى من
العناء ، وللمؤمنين فيما بنوا من حسن البلاء ، والعدَّة بتبديل — ما كانوا يلقونه من
الشدة — بالرجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَذَابَ الْكَافِرِينَ فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا لَشَدِيدٌ ﴾

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أمَّا في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تبعه
من اللعنة ، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأييد العقوبة . ويقاومهم عن رحمة الله أصعب من صنوف
كل تلك المحنة^(١) ، وكما قيل :

تَبَدَّلَتْ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْصَرْنَا لِمَنْ ابْتِغَى هَوًى لَسَلَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى مُنَادٍ أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ بِأَقْوَمِ
أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ
فِيْنَا مَرْجُوءًا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ

(١) وردت (المحبة) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

تَبَيَّنَ مَا يَبْدُو أَكْبَارُنَا وَإِنَّمَا لِي شَكٌّ
 مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرِيبٌ • قَالَ يَا قَوْمِ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي
 وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ قَبْلَ أَنْ يَنْصُرَنِي مِنْ
 اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا زِيدُونِي غَيْرَ
 تَحْضِيرٍ • وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ
 آيَةٌ فَدَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ
 وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
 قَرِيبٍ • فَضَرَوْهَا فَقَالَ تَشْتَوُوا
 فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرٍ
 مَكْنُوبٍ • فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا تَبَيَّنَّا
 صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ مَنَّا
 وَمِنْ غَيْرِ يَوْمِ ثُنْيَيْنِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
 الْعَزِيزُ • وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
 فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ • كَانَ
 لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنْ مَحَدًا كَفَرُوا
 رَبِّهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْغُودِ

عَقِبَ مَاضِي مِنْ قِصَّةِ عَادَةَ كَرَّ قِصَّةِ نُوحٍ ، وَنُوحٌ هُمْ قَوْمٌ صَالِحٌ ، وَقَدْ انْخَرَطُوا
 فِي النَّارِ فِي سَبِيلِكَ مِنْ سَبْقِهِمْ ، فَكَلِمَتُ الْعُقُوبَةِ يُصِيبُهُمْ . ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا نَبِيِّنَا — عَلَيْهِ
 السَّلَامُ — بِالْكَذِبِ ، وَلَمْ يَقِفُوا عَلَى مَا بَيْنَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، وَأَمَرُوا عَلَى
 الْإِقْرَارِ أَنَّهُمْ فِي شَأْنِهِ لِي شَكٌّ مَرِيبٌ .

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ صَالِحًا لَمْ يُرْجَعْ — فِي التَّبْلِيغِ — عَلَى قَصِيرٍ .
 وَبَعْدَ تَرْدِهِمْ وَامْتِنَاعِهِمْ مِنَ الْإِنَابَةِ ، وَإِصْرَادِهِمْ عَلَى تَرْكِ الْإِجَابَةِ حَقًّا عَلَيْهِمْ

ما نوحدهم به من عذاب غير مكثوب ، ونجى نبيهم — عليه السلام — ، ونجى من اتبعه من كل عقوبة .. سنة منه — سبحانه — في إنباء أوليائه أمضاها ، وعادة في نطقه وروحته بالمستحقين أجرأها .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد جاءت رُسُلنا لإبراهيمَ بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما كِثَّ أنْ جِءَ بِمِثْلِ خَبْرِهِ ﴾ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قومِ لوط ﴿

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيم — عليه السلام — بالبشارة ، وأخبر أن إبراهيم — عليه السلام — أنكرهم ، ولم يعرف أنهم ملائكة . فيحمل أنه — سبحانه — أراد أن تكون تلك البشارة فجأة من غير تنبيه لنكون آتم وأبلغ في إيجاد السرور ، ولا سيما وقد كانت به خوف لأنه قال : فأوجس منهم خيفة .

ويقال إن إبراهيم — عليه السلام — كان صاحب النبوة والخلة والرسالة فلا بد أن تكون فراسته أعلى من فراصة كل أحد ، ولكنه في هذه الحالة لم يعرف الملائكة ليعلم أن الحق — سبحانه وتعالى — إذا أراد إمضاء حكم يسد على من أراد حيون الفراسة ، وإن كان صاحب الفراسة هو (خليل)^(١) الله ، كما سد الفراسة على نبينا — صلى الله عليه وسلم — في قصة الإفك إلى الوقت الذي نزل فيه الوحي ، وكذلك التبس على لوط — عليه السلام — إلى أن تبين له الأمر .

وتكلموا في هذه « البشرى » ما كانت ؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق ، وبأنه سيولد له ولد من نسله وسلالته ؛ قال تعالى : « ومن وراء إسحاق يعقوب » .
ويقال : لامة قومه — حيث كانوا مؤسسين بإهلاك قوم لوط — عليه السلام .

(١) سقطت كلمة (خليل) فأثبتناها لحاجة السياق إليها .

ويقال بشارة بالحقِّ وتعلم الوصلة .

ويقال إن الخلة والهبة بناؤهما كتمان السرِّ ؛ فَيَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا بِبِشَارَةٍ مَا وَلَمْ يَكُنْ لِلغَيْبِ إِطْلَاعٌ ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

• بين الحيين قولٌ لست أفهمه •

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم : « سلاماً » وأن ذلك كان من الله ، وأى بشارة أَنَّهُ مِنْ سَلامِ الحبيب ؟ وأى صباح يكون مُفْتَتِحاً بِسَلامِ الحبيب فَصَبَاحُ مُبَارَكٍ ، وكذلك الميْتُ بِسَلامِ الحبيب فهو مُبَارَكٌ .

قوله : « فإلبث أن جاء بعجلٍ حنيد » : لما توهمهم أضيافاً فلم يبق الضيافة ، قدَّم خَيْرَ مَا عِنْدَهُ مِمَّا شَكَرَهُ الخلقُ عَلَيْهِ حيث قال في موضعٍ آخر : جاء بعجلٍ حنين^(١) . والمحبة توجب استئثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ مَا مِنْكَ للحبيب ، وفي هذا إشارة إلى أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الضيفُ فإلَّوَجِبُ المبادرةُ إلى تقديم الشُّفْرةِ^(٢) يَمَّا حضر في الوقت .

قوله : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرم » تمام إحسان الضيف أن تتناول يَدُهُ مَا يُقَدِّمُ إِلَيْهِ من الطعام ، والامتناعُ عن أَكْلِ مَا يُقَدِّمُ إِلَيْهِ معدودٌ في جملة الجفاء في مذهب أهل الظرف^(٣) . والأكلُ في الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين .

« وأوجس منهم خيفة » : أى خاف أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ خَلَلٌ في حاله حيث امتنع الضيفانُ عن أَكْلِ طعامه ؛ فأوجس الخيفةَ لَهُمْ لَا مِنْهُمْ .

وقيل إن الملامكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جبراً إلا لعقوبة ؛ فلما امتنعوا عن الأكل ، وعلم أَنَّهُمْ مَلَامَكَةٌ خَلَفَ أَنْ يَكُونُوا قد أَرْسَلُوا لعقوبة قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَامْرَأَتُهُ ثَائِمَةٌ ﴾ ، فَضَحِكَتْ ، قَبِشَتْ نَافَاً بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ

(١) آية ٢٦ سورة القارِئِث .

(٢) الشُّفْرةُ = طعام يصنع للمسافر ، أو الثائمة وما عليها من طعام (الوسيط) .

(٣) الظرف : (يقال ظرف فلان ظرفاً كان كيساً حاذقاً ، والظرف في اللسان البلاغة ، وفي الوجه الحسن ، وفي القلب الذكاء) الوسيط .

إسحاق يعقوب • قالت يا ويلنا
 أألد وأنا هموز وهذا بعل شيناً
 إن هذا لكى عجيب • قالوا :
 أتعجبين من أمر الله ؟ رحمه الله
 وبركاته عليكم أهل البيت إنه
 حميد مجيد ﴿

كانت امرأته قائمة بخدمة الأضياف ، فضحكت تمجيباً من أن يكون لملها في هذه
 الشئ ولد .

وقيل كان سرورها بالسلمة . ويحتمل أنها ضحكت تمجيباً من امتناع الضيفان عن
 الأكل . أو تمجبت من كون الملائكة في صورة البشر لئلا قيلت أنهم ملائكة . ويحتمل
 أنها ضحكت لاستبشالها بالولد وقد بشرت باستحقاقه ومن ورائه يعقوب ، ثم أفصحت عما
 ينطوى عليه قلبها من التعجب فقالت : « أألد وأنا هموز وهذا بعل شيناً ؟ إن هذا
 لكى عجيب » ١

فأحال الملائكة خلق الولد على التدبير : « قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ » فزال موضع
 التعجب ، وقالوا : « رحمه الله وبركاته عليكم أهل البيت » فبقي الدعاء في شريقتنا بآخر
 الآية حيث يقول الهامى : « كاصليت وباركت على إبراهيم وعلى آل : » . إنك حميد مجيد .
 والبركة الزيادة ، فقد انصل النسل من الخليل ، وبنو اسرائيل منهم — وم خلق كثير ،
 والعرب من أولاد اسماحيل — وم ألبم الفهر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ
 وَجَاءَهُ الْبَشَرُ بِيَادِنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾

لما كانت مراجعته مع الله في أمر قوم لوط بحق الله لا لحظ نفسه سلم له الجلال ، وهذا
 يدل على علو شأنه حيث تجاوز عنه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾

والإشارة فيه أنه كان يقابل ما وُردَ على ماله ونفسه وولده بالاحتمال ، ولما كان حقُّ
الحقِّ في حديث قوم لوط أخذَ في الجدالِ إلى أن أبانَ له سلامة لوط — عليه السلام —
وقال الله سبحانه : —

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ
جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ
غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

يا إبراهيم أعرض عن هذا فإنَّ الحكمَ بعبادهم قد نزل ، ووقتُ الانتقامِ منهم
قد حصل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ
وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْمًا ۖ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ ﴾

أي أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يجرى عليهم من قومه ما لا يجوز في دين الله ؛
فذلك الحزن كان لحقَّ الله لا نصيبَ له أو حظَّ لنفسه ، ولذلك حُجِدَ عليه لأنَّ مفاصلة الحزنِ
لحقَّ الله محودة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ
كَانُوا يُعْتَلُونَ السَّبِيلَ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ
هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْقٍ أَلَيْسَ
مِنْكُمْ رَجُلٌ وَشِيدٌ ﴾

قوله « هؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » : قيل إنه أراد به نساء أخته ، فهي « كلُّ أمةٍ
مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة .
ويقال إنه أراد بناته من صلبه .

« أليس منك جل رشيد » يرتدى جلباباً المشمة ، ويؤثر حق الله على ما هو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويرتك مصيبة الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا بِبَنَاتِكَ مِنْ

حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا تَزِيدُ ﴾

أمرُوا على عصيتهم ، وزهدوا في المأذون لم شرعاً ، وانجروا إلى ما قدم إليه الهوى طبعاً ، وعنده صفة البهائم ؛ لا يدعها عقل ، قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل »

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى

رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

لو أن لي قوة فأنتمكم عن ارتكاب المصيبة ؛ فإن أم^(١) الأشياء على الأولياء لا يجزئ من العصاة ما ليس لله فيه رضا .

ويقال : لو كان لي قدرة لإصال الرحمة إليكم - مع ارتكابكم للعاصي - كرحمتكم وتجاوزت عنكم .

ويقال لو أن لي قوة لهديتكم إلى الدين ، ولصمتكم عن ارتكاب المخالفات .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا لَوْ لَوْ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنُ

يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ

مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ

إِلَّا أَمْرًا تَكُ^(٢) لِنُصْرَتِهِمَا أُسَابِيحٌ ﴾

لما ضاقت به الأمور كشف الله عنه الضر فعرّف إليه الملازمة وقالوا : لا عليك فإنهم لا يصلون إليك بسوء ، وإنّا رسل ربك جنبنا لإهلاكهم ، فخرج أنت وقومك من بينهم ، وأعلم أنّ من شاركهم في علمهم بنوع فقه من الصواب حجة . ومن جعلتهم أمراً تكي كانت تدل القوم على ذلك لفظة الفالشة ، وإن القوبة لاحقة بها ، مدركة لها .

والإشارة منه أن الجسارة على الأثر وخيبة العاقبة - ولو بعد حين ، ولا ينفع المرء اتصافه بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والتضاء من جهة الأشياء .

(١) أقل التخليع هنا مأخوذ من المم ، أي (فإن أكثر ما يسبب المم للأولياء) .

(٢) مستثنى من (فأسر بأهلك) منصوب .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ مَوْعِدُكُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
قَرِيبٌ﴾ .

ما هو كائن قريب ، والبعيد ما لا يكون . وإنَّ مَنْ أَقْدَمَ على حظوظِ نَمِ حُوسِبَ
عليه — ولو بعد دهور خالية وأعوام غير محصورة ماضية — تصور له الحال كأنه وقت
مُبَاشَرَتِهِ لتلك الزَّلة .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَطْرَافَهَا حِجَارَةً تَمُرُّ بِحُجُلِهَا
مَنْصُودَةً﴾ .

سُنَّ الله في عباده قلبُ الأحوال عليهم ، والاعقابُ مِنْ سِمَاتِ الحدوث ، أما الذي
لا يزول ولا يحول فهو الذي لم يزل ولا يزال بنوته الصمدية .

وإنَّ مَنْ عاش في السرور دهرًا ثم تبدل يُسْرُهُ عُسْرًا فَكُنَّ لم يَرَّ قطُ خَيْرًا ، والذي
قامَ طولَ عمره ثم أُعْطِيَ يُسْرًا فَكُنَّ لم يَرَّ عُسْرًا .
قال تعالى : « وَنَقَلْنَا أَفْقَانَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَالْمُيُونُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (١) .

قوله جل ذكره: ﴿شَوْمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ
الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ .

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصياتهم ، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبة لاحقةٌ بِمَنْ سَلَكَ
سبيلهم تحذيرًا لمن لم يتنبه بهم إذا عرف طريقهم ، كما قيل :

وَمَنْ يَرَى وَلَمْ يَتَنَبَّهُ بِعَدَى فَإِنَّ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ عِقَابًا

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُكُمْ شَمِيمًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ

(١) آية ١١٠ سورة الأنعام .

وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
إِنِّي أُرَآكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ • وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ •

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .
وفي الظاهر لم كانت أجرأهم كاليسيرة ، ولعلم أنهم يدون أمثالها صغيرة ، ولا يقولون
إنها كبيرة ، وإن ذلك تطفيف في المكيال .
وليس قَدَرُ الأَجْرَامِ^(١) لأحياتها ، ولكن لخالفة الجبارِ عَظَمَ شَأْنُهَا ، قال تعالى :
« وَنَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »^(٢) .

ولما أن قال لم شبيب :

« بَقِيَةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ » .
يعني القليل من الخلال أجدى من الكثير المَقْبِيبِ لَوَالِ لَمْ يَقَابِلُوا نصيحتته لم
إلا باليناد والتمادى فيها هو دائم من الجحد والكنود .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ
أَنْ تَنْتَرِكَ مَا يَبْغِدُ كِبَاؤُنَا أَوْ أَنْ
تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

استوثقوا مركب الجبل ، واستحلوا مشرب التقليد ، وأعقوا قلوبهم من استعمال
الفكر ، واستبصار طريق الرشد .

(١) جمع (جرم) وهو الذهب .

(٢) آية ١٠ سورة النور .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتِنَا
مِن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ ﴾ .

الْبَيْتُ نُورٌ تَسْتَبِيرُ بِهِ مَا خَفِيَ عَلَيْكَ تَحْتَ غَطَاءِ الْخَلْقِ .

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال ، وما خلك إلا مقنض عنايته الأزلية ، وحسنُ
توليهِ لثألك — في جميع ما فيه صلاحك — من إتمام النعمة ودوام العصبة .

وقيل الرزق الحسن ما تقي صاحبه لطلبه ، ولم يصبه نصيب بسببه .

وقيل الرزق الحسن ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التتم بوجود الرزاق .

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنسى الرزاق ، ويحل صاحبه على التوسعة والإنفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ مِنْكُمْ مَّا تُنَاسَخُونَ ۚ ﴾ .
ما أُنْهَكَم عَنْهُ ۖ .

يمكن لواعظ أو الناصح أن يساهل المأمور في كل ما يأمر به ، ولكن يجب
ألا يميز له ما ينهاء عنه ؛ فإنَّ الإتيان بجميع الطاعات غير ممكن ، ولكن التجرد عن جميع
الهمومات واجب .

ويقال مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حُكْمٌ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَنَعِ مِنَ الْهَوَى لَمْ يَكُنْ لَهُ حُكْمٌ عَلَى غَيْرِهِ فَيَا يَرْشِدْهُ
إِلَيْهِ مِنَ الْهَدَى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ ﴾ .

مَذَارُ الْأَمْرِ عَلَى الْأَعْرَاضِ الْمُتَضَاعِفَةِ حُسْنُ الْقَصْدِ بِالْإِصْلَاحِ ؛ فَيَقْرَنُ اللَّهُ بِهِ حَسَنُ التَّيْسِيرِ ،
وَمَنْ اضْطَوَى عَلَى قَصْدٍ بِالسُّوءِ وَكُلَّ الْحَقِّ بِشَأْنِهِ التَّعْوِيقُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ ﴾ .

حَقِيقَةُ التَّوْفِيقِ مَا يَنْقُ بِهِ الشَّيْءُ ، وَفِي الشَّرِيعَةِ التَّوْفِيقُ مَا تَنْفَقُ بِهِ الطَّاعَةُ ، وَهُوَ قُدْرَةُ
الطَّاعَةِ ، ثُمَّ كُلُّ مَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ مِنْ تَوْفِيرِ الدَّوَاعِي وَفَنُونِ الْمُنْهِيَاتِ يُعَدُّ مِنْ
جِلَّةِ التَّوْفِيقِ — عَلَى التَّوَسُّعِ .

والتوفيقُ باللهِ ومن الله ، وهو — سبحانه — بإعطائه متفضلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأما ترك التدبير يشهد التقدير ، والثقة بالموعد عند
عدم الموجود . ويبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب .

ويقال التوكلُ السكون ، والثقةُ بالمضمون .

ويقال التوكلُ سكون القلب بمضمون الربِّ

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُومُ لَا يَجْعَلُ لَكُمْ شِقَاقَ أَنْ

يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ

قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ

لُوطٍ مِنْكُمْ بِمَبِيدٍ ﴾ .

تورثكم هنا لفتكم إلى ما فيها أدهوكم إليه من طاعة الله أن يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب من
تقدمكم من الذين سبتم على مناجيهم ، وما عهدكم ببعدكم عن تحققت كيف حلت بهم العقوبة ،
وكيف أنهم ما زادتهم كثرة النصيحة إلا غلوا في ضلالتهم ، وعُتُوا في جهاشهم ، وكما قيل .

وَمَا صُفِّتُ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَاءُ الْمُتَصَحُّحُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ

إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

الاستغفار هو التوبة .

ومعنى قوله « ثم توبوا إليه » أى توبوا ثم لا تُنْقِضُوا تَوْبَتَكُمْ ؛ فهو أمرٌ باستدامة
التوبة ؛ فإذا لم يتصل وفاء المالك بصفاء الحال لم يحصل قبولُ ، وكان لم يكن لياً سلفُ
حصولُ .

« إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ » : يرحم المصاة ويودهم .

ويقال يرحمهم ولئلا يودونه ؛ فالودود يكون بمعنى المودود كالمحب بمعنى محبوب . والرحمةُ

تكون لعمري لأن المطيع يوصف استحقاقه الثواب على طاعته ، ثم ليس كل من يُحِبُّ
السلطان في عمل الأكابر ، فالأصغر من الجند قد يحبون ذلك ، وأنشدوا :

ألا رب من يدنو ويذم أنه يودك ، والنأي أود وأقرب

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا قَوْل
وإننا لبرائك فيناضيما ، ولولا رحمتك
لرَجَمْنَاكَ وما أنت علينا بعزير ﴾ .

لاحظوا شعيبا بين الاستصغار فحرموا فهم معاني الخطاب ، وأقروا على أنفسهم
بالجل ، وأحلوا إعفاءهم إياه من الأذى على حشمتهم من رحمة وعشيرته ، فتابهم عليه :—

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِيَّ أَهْلًا مِنْ اللَّهِ
وَأَتَذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ إِنَّ رَبِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

أثرون من حق رحلي مالا ترون من حق ربى ، وإن ربى يكافئكم على أفعالكم بما
تستوجبون في جميع أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَا قَوْمِ ائْتَمُّوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ
إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ
وَارْتَقِبُوا إِلَىَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا
جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
جَائِعِينَ * كَانُوا لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا إِلَّا
بُعْدًا لِيَدْرِي كَمَا بَعْدَتْ نُفُوسُهُمْ ﴾ .

أرعى لم سفر الإهمال فلما أصروا على تماديهم في النوايا حلت بهم العقوبة ، وصاروا
وكان لم يكن بينهم نافع نار ، ولا في حيار الظالمين ديلر ، قال تعالى : « فاعتبروا
يا أولى الأبصار »

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان
مبين ﴾ إلى فرعون وملئيه ﴿

كرّر قصة موسى عليه السلام تضخيماً لشأنه ، وتحظيلاً لأمره ، وتليهاً على حال قدره عند الله
وعلى مكاتبة الآيات التي أرسله بها ، ومعجزاته الباهرة ، وبراهينه القاهرة ..

ويقال أصعبُ عدوٍّ قهرهَ أولاً نفسه ، وقد ذكّر — سبعائه — على ذلك لما قال : إلهي !
كيف أطلبك ؟

فقال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى .

فَنَبَّهَهُ إِلَى استصغارِهِ لنفسه ، وانكساره لله بقلبه ، فزادت صوته لما صار معصوماً عن
شهود فضلِ نفسه ، والسلطان الذي خصّه به استولى على قلوب مَنْ رآه ، كما قال : « وَأَلْبَيْتُ
عَلَيْكَ حُبّاً مِثْلِي »^(١) فأركله أحدٌ إلا أحييه ، ثم إنه لم يأخذه في الله ضعفٌ ، مثلاً لعل وجهه
فرعون — وهو رضيع — كما في القصة ، ولعل وجهه ملك الموت لما طالبه بقبض روحه ..
كما في الظير ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما رجع من مجمع الخطاب عند المائة ، وأقسم
بالجسارة على سؤال الرؤية ، وقتل القبطي لما استعان به من واقفه في العقيدة ، وقال الله إن هي
إلا فتنتك^(٢) لما أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة ... ففي جميع
هذه تجاوّز الله عنه لما أعطاه من السلطان والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ
فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُخْسِ الْأُورْدُ
لِلوُرُودِ ﴿

(١) آية ٣٩ سورة طه .

(٢) آية ١٥٥ سورة الأعراف .

رضوا بتأية فرعون ، فاستحقوا ما استحقه . لم يشروا بظلمهم ، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وإذا ما أوردتم النارَ فهو إمامهم ، وسيطون ما أصابهم من الغسران حين لا ينفع تضرعهم ويكلامهم ولا ينقطع عذابهم وعناؤهم ، وتقلب خسارتهم وشقاؤهم — وذلك جزاء من كَفَرَ بِمحبوده ، وأسرف في مجاوزة حدوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

يَكُنْ لِلرَّفَدِ الرِّفْدُ ۗ ﴾

يَسْتَوْوُوا فِي طَاجِلِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وفي آجِلِهِمْ مِنَ النِّفَرَانِ وَالْجَنَانِ . والذي لم في الحال من الفرقة أعظم — في التحقيق — من الذي لم في المآل من الفرقة ، وهذه صفة من أمنتها الله باللعة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ حَلِيكَ

مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۗ ﴾

لم يكن في جلة من قص عليه من الأنبياء — عليهم السلام — من أكر منه تبجيلا ، ولا فبين ذكره من الأم أعظم من أمته تفضيلا ، فسكا تقدم على الأنبياء — عليهم السلام قدسَتْ أمته على الأم ، قال تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

فَاغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ

رَبِّكَ وَمَا زَانَعَهُمْ فِئْرٌ شَيْبٌ ۗ ﴾

لا يجوز الظلم في وصفه ؛ فتصرّفه في ملكه بحق إلهيته — مطلق ، يحكم بحسب إرادته ومشيئته . ولا يتوجه حق عليه ، فكيف يجوز الظلم في وصفه ؟

ويقال هذا المطلب لو كان من مخلوق مع مخلوق لأشبه العذر ، ولكن في صفته لا يجوز العذر إذ أطلق خلقه ، والملك مُلْكُهُ ، والحكم حُكْمُهُ .

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره: ﴿وَكُنْكَ أَهْلًا إِذَا تَخَذَ الْقُرَىٰ

وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾

إنَّ الحقَّ — سبحانه — يميل ولكن لا يعمل ، ويحكم ولكن لا يسجل ، وهو لا يُسأل عما يفعل .

وقيل إذا أخذ النفوس بالتوفيق فلا سبيل للخللان إليها ، وإذا أخذ القلوب بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها . قال تعالى : ﴿إِنْ يَطْشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ

الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْجُوعٌ لِّلنَّاسِ

وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

مشهود يشهده مَنْ حُيِّرَ مِنْ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

ويقال الأيام ثلاثة : يومٌ مفقودٌ وهو أمسٌ ليس بيدك منه شيء ، ويومٌ مقصودٌ وهو غدٌ لا تدري أتتوكة أم لا ، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذي أنت فيه ؛ فالمفقود لا يرجع ، والمقصود ربما لا تبلغ ، والمشهود وقتك وهو معرضٌ للزوال .. فاستغله فيما ينفع .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ﴾

الْأَجَلُ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ لِكُلِّ (...)^(٢) ، وَالْأَجَلُ عَلَى مَا عَلَيْهَا الْحَقُّ — سبحانه —

وَأَرَادَهَا جاريةٌ ؛ فلا طلبُ يُقَدَّمُ أو يُؤَخَّرُ وقتاً إذا جاء أجله ، وكذلك الوصول وقت ، فلا طلب مع رجاء الوصول ، ولا طلب مع خوف الزوال ، ولقد قيل :

عَيْبُ السَّلَامَةِ أَنَّ صَاحِبَهَا مُتَوَقِّعٌ لِقَوَائِمِ الظُّهْرِ

وَفَضِيلَةُ الْبُلُوغِ تَرْقُبُ أَهْلِيهَا عَقِبَ الْبَلَاءِ — مَسْرَّةُ الْدَهْرِ

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِآذَنِهِ

فَنَهُمُ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

(١) آية ١٢ سورة البروج .

(٢) مشتبه .

الشيء من قسم له الحرمان في حاله ، والسعيد من رزق الإيمان في ماله .
ويقال الشقاء على قسمين : قوم شقاؤهم غير مؤبد ، وقوم شقاؤهم على التأيد ، وكذلك
القول في السعادة . الشيء من هو في أسر التدبير وليسان جريان التقدير ، والسعيد من رجع
من ظلمات التدبير ، وحصل على وصف شهود التقدير .

ويقال الشيء من كان في رق العبودية ظاناً أن منه طاعاته ، والسعيد من تحرر عن رق
البشرية وعلم أن الحادثات كلها لله سبحانه .

وأما الاشتباه — على التأيد — فهم أهل الظلوف في مقتضى الوعيد ، والسعداء — على
التأيد — من قال الله تعالى في صفتهم : « لم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَمْ فِيهَا

زَفيرٌ وَشَبِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾

« إلا ما شاء ربك » أن يزيد على مدة السموات والأرض .

« إلا ما شاء ربك » أن ينقلهم إلى نوع آخر من العذاب غير الزفير والشبيق .

« إلا ما شاء ربك » ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أن يدخلهم النار ؛ فلا استثناء لبعض
أولادهم من العقوبة لا قبل إدخالهم فيها ولا بعده .

« إلا ما شاء ربك » من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل لم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ

فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ *

إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَحْنُودٍ ﴾

لم اليوم جنت القرية ، ولم غداً جنت للثوبة .

والسكندر اليوم في عقوبة القرية ، وغداً في عقوبة الثمرة .

« فَعَالٌ لِّمَا يُرِيد » فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده . أو يحتمل أنه يزيد على مدة السنوات والأرض .

وفي قوله « عطائه غير مجنود » — أى عطائه غير مقطوع — دليل على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَبْعِدُ هَؤُلَاءِ مَا يَبْعِدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْعِدُ آبَاؤُكُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَنُوفِّقُكُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مُنْقُوصٍ ﴾

لا يريد أنه عليه السلام في شك ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مُضَاهِينَ لِآبَائِهِمْ ، كما تقول : لا شك أن هذا نهار .
ويقال انطلب له والمراد به لأمته .

« وَإِنَّا لَنُوفِّقُكُمْ نَصِيبَهُمْ » : نجعلهم على انجليز بخير وعلى الشر بشر .^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفَقِقُوا بَيْنَهُمْ وَلِأَنَّهُمْ لَنِ شَكٌّ مِّنْهُ مُبِينٌ ﴾

اختلفوا في الكتاب الذي أوتي ، وهو التوراة .

واختلفوا في كونه رسولاً ، فَمِنْ مُصَدِّقٍ وَمِنْ مُكْتَدِبٍ .

ثم أخبر أنه — سبحانه — حَكَمَ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ ، ولولا حكمته لمعجل لم العقوبة .

وفائدة الآية من هذا التعريف التخييف على المصطفى صلى الله عليه وسلم — فيما كان

(١) لم يقل الشرى : وعلى الشر يعر ، وإنما استعمل (الشر) تأديباً من ناحية ، ولأنه — حسب مذهبه الكلامي — لا ينسب (الشر) لله ، من ناحية أخرى ، وكما سنرى بعد قليل في تفسيره لعمدة السبغة

يلقاه من قومه من التكذيب ، ففي سماح قصة الأشكال — وبعضهم من بعض — سؤلة ،
ولقد قيل :

أَجَلُوتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلٌّ غَرِيبٌ لِلْغَرِيبِ لَسِيبٌ
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَلَّا لَسَا لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ
أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

أعداد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب ، وكرر ذلك في القرآن في كثير من
المواضع إبلاغاً في التحذير ، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال معجلٌ ومؤجلٌ ، وكلٌّ منْ أَعْرَضَ عن النفقة وَجَنَحَ إلى وصف
التبذير وَجَدَ في مآملاته — عاجلاً — الريحَ لَا تُغْشِرَانِ ، وَأَجَلًا الزيادة لَا النقصان ،
وما يجده المرء في نفسه أتمُّ مما يدركه بطله بشواهد برهانه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ

وَلَا تَطْلُتُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يحمل أن تكون السين في الاستقامة سين الطلب ؛ أي سَلِّ من الله الإقامة لك
على الحق .

ويحمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه .

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحقها من غير إخلالٍ بها ، فلا يكون
في سلوكه نهج الوفاق انحراف عنه .

ويقال المستقيمُ مَنْ لَا يَنْصَرِفُ عَنْ طَرِيقِهِ ، يواصل سيره بمسراه ، ووزعه بتقواه ،
ويتابع في تركه هواه .

ويقال استقامة النفوس في نفي الزَّلَّة ، واستقامة القلوب في نفي الغفلة ، واستقامة الأرواح
بنفي العلاقة ، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة^(١) .

استقامة العابدین أَلَا يَدْخِرُوا نَفْسَهُمْ عَنْ الْعِبَادَةِ وَلَا يُخَلُّوا بِأَدَائِهَا ، وَيَقْضُونَ عَسِيرَهَا
وَيُسِّرَهَا . واستقامة الزاهدين أَلَا يَرْجُوا مِنْ دُنْيَاهُمْ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرَهَا . واستقامة التائبين

(١) نهضنا هذه العبارة عند تحديد الآفات التي تصيب المسالك الباطنة حسب مذهب القشيري .

أَلَا يُلْهُوا بِقُوَّةٍ زَلَّةً فَيَدَّهَوْنَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا... وعلى هذا النحو استقامة كل واحد .
قوله « ومن تاب ملك » : أى فَلْيَسْتَقِمْ أَيْضاً مِنْ مَلِك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَزْكِنُوا إِلَى الدِّينِ ظُلُومًا ﴾
فَتَمْسِكُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿

لا تسولوا أعمالكم ، ولا ترضوا بأعمالهم ، ولا تمنحوم على أعمالهم ، ولا تتركوا الأمر
بالعرف لهم ، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم ، ولا تسكنوم بقلوبكم ، ولا تبالغوم ،
ولا تعاشرهم... كل هذا يحمله الأمر ، ويسئل تحت الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَى
مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ
السَّيِّئَاتِ فَكَذَلِكَ ذَكَرُوا لِقَاءَ كَرِيمٍ ﴾

أى استغفرنى جميع الأوقات بالبادات ، فإن إخلالك لحظة من الزمان بقرض تؤديه ،
أو قفلى تأتبه حسرة عظيمة وخسران مبين .

قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » الحسنات ما يهود بها الحق ، والسيئات ما يذنبها
العبد ، فإذا دخلت حسنة على قبائح العبد محنتها وأبطلتها .
ويقال حسنة القرية تذهب بسيئات الزلة .
ويقال حسنة الندم تذهب بسيئات الجورم .
ويقال (السكاب)^(١) الصبرة تذهب الصفة^(٢) .
ويقال حسنة الرفق تذهب سيئات العصيان .
ويقال حسنة الاستغفار تذهب سيئات الإصرار .
ويقال حسنة النية تذهب سيئات الخيانة .
ويقال حسنة العفو من الإخوان تذهب الحقد عليهم .
ويقال حسنة الكرم تذهب سيئات الخلد .

(١) مكنا مصوبة في الهامش وهي أصوب مما جاء في المتن (ارتسكاب) .

(٢) وردت (السرة) بالسين والأصوب (الصفرة) لأنها تسجع مع السياق .

ويقال حسنُ الظنِّ بالناسِ يذهبُ موأثمهم بكم^(١) .

ويقال حسناتُ الفضل من الله تذهبُ سيئاتِ حسانِ الطاعة من أنفسكم .

ويقال حسناتُ الصدق تذهبُ سيئاتِ الإيجاب .

ويقال حسناتُ الإخلاص تذهبُ سيئاتِ الرياء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَهُ ﴾

المحسنين ﴿

الصبرُ نَجْعٌ كُلُّ سَلَةِ التَّقْوَى مِنْ غَيْرِ تَمِيس .

ويقال الصبرُ حُسْنُ الإِقْبَالِ عَلَى مَسَاقَةِ الْأَمْرِ وَمُتْلَقَةُ الزَّجْرِ .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المحسنُ : العَامِلُ الَّذِي يَلْمُ أَنَّ الْأَجْرَ عَلَى الصَّبْرِ

وَالطَّاعَةِ بِفَضْلِهِ — سُبْحَانَهُ — لَا يَسْتَحِقُّ حَمْلَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ

أُولُوا بِغِيَةٍ يُنْهَوْنَ عَنْهُ فَسَادُوا

فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ

وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

وكَانُوا بِجُرْمِيْنَ ﴾

منه لم يكن فيكم من هؤلاء الذين كانوا ينهون عن التَّبَاعِ إِلَّا قَلِيلٌ . .

وقيل منه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم من ينهى عن الفساد ، ويصطفى الذين ، ويطلبون

أَنبياءهم — إِلَّا قَلِيلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُثَبِّتَ الْقُرْآنَ عَلَى ظُلْمٍ

وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

أَيُّ لَمْ يُثَبِّتْ اللَّهُ أَحَدًا كَانَ مُصْلِحًا وَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ ظَالِمًا .

(١) وبما يصد للفقير من هذه البشارة الحث على الصنيع من مكرات الناس .

ويقال مثله : لو أهلك الله أهل القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظمًا من الله؛ لأن الملكَ ملكه ، واخلفَ عبيده .

ويقال « المصلح » مَنْ قام بحقِّ ربه دون طلب حظِّه .

ويقال : « المصلح » من أُوْتِيَ نجاهه على هلاكه .

ويقال مصلحٌ تَصْلِحُ نَفْسَهُ طاعته ، ومصلحٌ تَصْلِحُ قَلْبَهُ مِرْقَةُ سَيِّدِهِ ، ومصلحٌ تَصْلِحُ بَصَرَهُ مشاهدَةُ سَيِّدِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ تَجَلَّى النَّاسُ أُمَةً وَاحِدَةً ﴾

ولا يزالون مُتَحَدِّثِينَ ﴿

لو شاء لجعلهم أرباباً الوفاق ثم لا يوجبون لملكه ذنباً ، ولو شاء لجعلهم أرباب اختلاف ثم لا يوجبون لملكه شيئاً .

ثم قال : « ولا يزالون مختلفين » لأنه كنكك أُرَادَ بِهِمْ .

« إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » في سابق حكمه فنصهم عن الخلاف في حاصل أمورهم ، وأنهم به ، ونصهم له ، وأثبتهم في الوفاق والمحبة والتوحيد .

قوله جل ذكره ﴿ وَتَوَسَّطَ كَلِمَةً رَبُّكَ لِأَسْلَافٍ جَهَنَّمَ مِنْ ﴾

الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿

أى لا تبدل لقوله ، ولا تهويل لحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾

مَا تَنْبِئُكَ بِهِ فَوَادِكُ ﴿

سكن قلبه بما قص عليه من أنباء الرسلين ، وعرفه أنه لم يَرُقْ أحداً إلى المهل الذى رقاؤه إليه ، ولم ينفع على أحد يمل ما أنعم عليه .

ويقال قص عليه قصص الجميع ، ولم يذكر قصته لأحد ترميهاً له وتخصيصاً . ويقال لم يكن

ثبات قلبه بما قص عليه ولكن لاستقلال قلبه بمن كان يقص عليه ، وفرق بين من يقل

بما يسمع وبين من يستقل بمن منه يسمع ، وأنشأوا :

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَنِي حَتَّى نَزَلْتُ مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَى

مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ وَاَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ

﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾

إن الذين يمجّدون التوحيد ، ويؤثرون على الحق غير الحق ، ولم يُصدّقوا الوعيد ،
يوشك أن ينصبّ عليهم الانتقام فيفترقون في بحار العقوبة ، ويستقلّون في وهاد الهوان ،
فلا لويلهم انتهاء ، ولا لذّ لهم انقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ

عَلَيْهِ وَمَا يَكُنْ بِغَاظِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

عَمَى من قلوبهم العواقب ، وأخفى عنهم السوابق ، وأزهم القيام بما كُلّفهم في الحال ،
قال : « فاعبده » فإنّ قسَمَ القلب و تَرَجَمَ الظن وخيف سوء العاقبة .. فتَوَكَّلْ عليه أي
استدفع البلاء عنك بحسن الظن ، وجعل الأمل ، ودوام الرجاء .

﴿ وَمَا يَكُنْ بِغَاظِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : أحاط بكل شيء علماً ، وأمضى في كل أمر حكماً .

السورة التي يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم ^(١) مِنْ قَسَمٍ ؛ قَسَمَ ظَاهِرُهُ بِالْعِبُودِيَّةِ ، وَسِرَّائِهِ بِمُشَاهَدَةِ الرَّبُوبِيَّةِ فَقَدْ تَحَتَّ
مِنْهُ إِلَى اللَّوَابِ الْعَلِيَّةِ ، وَأُزْلِفَتْ رَتَبَتُهُ مِنَ الْمَنَازِلِ السَّنِيَّةِ .

أو أن الاسم مشتق من التهمة أو من السوء

(١) ربما كان التقدير في سره لشي (الاسم) متأثراً بالجو العام للسورة ، وما حدث لكل من يوسف
وأخوته من أحداث .

وقدّم الله — سبحانه — اسم الله في هذا المحل على اسمه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم ، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية .

والإشارة من الباء — التي هي حرف التضمين والالتصاق — إلى أن « به » عرّف مَنْ عرّف ، و « به » وقف مَنْ وقف ، فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه ، والواقف دونه مربوطٌ بخلافه .

قوله جل ذكره : ﴿الرَّ تَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

التخاطبُ بالحروف المنفردة غير للنظومة مُنَّةُ الأحباب في سترِ الحجاب ؛ فالقرآن — وإن كان المقصود منه الإيضاح والبيان — فيه تلويح وتصريح ، ومُفَعِّلٌ ومُجَمِّلٌ ، قال تأملهم :

أيكى إلى الشرق إن كانت منازلُكم مما إلى الغرب خوفَ القبلى والقالِ

ويقال وقتت فهوم أنخلق من الوقوف على أسرارهِ فيها خاطب به حبيبهِ — صلى الله عليه وسلم ، فهم تمسكوا به وآمنوا به على الجملة ولكنّه أفرد الحبيبَ بنفسه ، فهو سرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب ، يقول تأملهم :

بين المحبين سرٌّ ليس يُفشيهِ قولٌ ، ولا قلمٌ فخلق يحكيهِ

وفى إزال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهى أن مَنْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعانى ، ومَنْ كان بالغبية والمهر يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير ؛ ذاك لكّال عقله وهذا لتمام وصلهِ ؛ فأقول الله هذه الحروف التى لاسيّل إلى الوقوف على معانيها ليكون للأحباب فرجةٌ حيناً لا يقفون على معانيها بعمد السيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطالبةٌ بالفهم ، وكان ذلك لامتصاص أحوالهم إذا كانوا مستغرقين فى حين التلجّع ، ولما قيل : استراح من العقل له ^(١) .

وقوله تعالى : « تلك » يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خبرُ الواحد الذى وعدناك .

(١) هكذا لى (س) ونرجح أنها (استراح من لا عقل له) والعقل هنا متناه الرسمى .

وقيل هنا ترميزاً : إليك بالتحصيل ، وإفرادنا لك بالتقريب — قد حققناه لك ؛
فهذه الحروف بيانٌ للإيجاز ولتحقيق الموهود .

والإشارة من « الكتاب للبين » ما هنا إلى حكمه السابق له بأن يَرْفَعَهُ إلى الرتبة التي
لا يبلغها غيره ، وقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا . . » ^(١) أي حين كلمنا
موسى عليه السلام ، وأخبرناه ببلوغ قدرك ، ولم تكن حاضراً ، وأخبرناه بأننا نُكَلِّمُكَ هذا
اللقام الذي أنت فيه الآن . وكذلك كلُّ مَنْ أَوْحِينَا إِلَيْهِ ذِكْرًا لَهُ قِصَّتَكَ ، وَشَرَحْنَا لَهُ
خِلْفَتَكَ ، فَإِنَّ وَقْتُ تَحْقِيقِ مَا أَخْبَرْنَا بِهِ ، وَفِي مَنَاءِ أَشْدَا :

سُفِيًا لِمَهْدِكَ الْإِلَهِي لَوْ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ قَلْبِي الصَّبَاةَ مَهْدَا
قال الله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر » يعني بعد التوراة « أن الأرض
يرثها عبادي الصالحون » ^(٢) يعني أمة محمد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴾ .

في إنزال الكتاب عليه ، وإرسال الرسول ^(٣) إليه — تحقيقٌ لأحكام المحبة ، وتأكيدٌ
لأسباب الوصلة ؛ فَإِنَّ مَنْ عَدِمَ حَقِيقَةَ الْوُصُولِ اسْتَأْنَسَ بِالرَّسُولِ ، وَمَنْ بَقِيَ عَنْ شُجُودِ
الْأَحْبَابِ تَمَلَّى بِوُجُودِ الْكِتَابِ ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

وَكُتُبُكَ حَوْلِي لَا تُفَارِقْ مُضْجِي فَضِيهَا شَفَاءٌ لِمَنِي أَنَا كَاتِمٌ .
قوله جل ذكره : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

« أحسن القصص » : نظائره من الأمر والنهي الذي سماعه يوجب اشتغال القلب بما هو
يَرْضَى لَوْ قَوَّعَ التَّقْصِيرُ .

« أحسن القصص » : ففيه ذكر الأحباب .

(١) آية ٤٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .
(٣) (الرسول) هنا مقصود به القرآن الكريم أو جبريل — كما هو واضح من السياق .

« أحسن القصص » : لأن فيه فنون يوسف من جنائات إخوته .

« أحسن القصص » : لما فيه من ذكر كثير ترك يوسف لامرأة العزيز وإغرائه عنها عندما راودته عن نفسه .

« أحسن القصص » : بالإضافة إلى ما سألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس .

« أحسن القصص » : لأنه غير مخلوق^(١) .

ويقال لما أخبره الله — سبحانه — أن هذه القصة أحسن القصص وجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نفسه مزايًا وزوائد لتخصيصه ؛ فعلم أن الله تعالى لم يرق أخذًا إلى مثل ما رآه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ

الغافلين ﴾

أى الغافلين من فهم هذه القصة . أى ما كنت إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها ، أى إنك لم تعيل إلى معرفتها بكدك وجهدك ، ولا بطلبك وجهدك ... بل هذه مواهب لا مكتسب ؛ فبطايتها وجهدها لا بهتكك ، وبفضلنا لا بتعليلك ، وبناقلنا لا بتكليفك ، وبنا لا بك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي

رَأَيْتُ أَحَدَ قَوْمٍ كَوَكَبًا وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

لما ذكر يوسف — عليه السلام — رؤياه لأبيه عليم يعقوب — عليه السلام — صدق تعبيره ، ولذلك كان التذكر ليوسف مدة فيجته ، وحين طالوت كان يذكره حتى قالوا : « نالقه فنأ ذكر يوسف » قال : « إن أعلم من الله ملا تعلمون » فهو كان على ثقة من صدق رؤياه

فإن قيل : فإذا كان الصبي لا حكم له فكيف يكون حكم رؤياه ؟ وما الفرق ؟

(١) التركيب غير مخلوق . . هذا أصل من الأصول الكلامية الهامة عند الأشاعرة — ومنهم القسرى .

فيقال : إن الفعل يَتَعَدَّى يحصل فيكون مُرَضًا لتعصير فاعله ، أمّا الرّؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى قسطن .

ويقال إنّ حقَّ السرِّ السَّكَّانُ ولا كان على مَنْ هو قريب منك ؛ فإن يوسف لما أظهر ميرَ رؤياه على أبيه اتصل به البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ

فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحذر ؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على مانع يعقوب ليوسف عليهما السلام ، ولكن لما سبق التقديرُ في أمر يوسف عليه السلام حصل ما حصل .
ويقال إنّ يوسف خالَفَ وصية أبيه في إظهار رؤياه إذ لو لم يظهرها لما كادوا له ، فلا جرم بسبب مخالفته لأبيه — وإن كان صيا صغيرا — لم يعر من البلاء .

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويله سجود الإخوة له رأى ما تعبده : وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى : « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » ؛ فدخل الإخوة الحسد^(١) أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لفرط شقة الأبوة .

ويقال صدق تعبده في الإخوة فسجدوا له حيث قال : « وخرُّوا سُجَّدًا » ولم يسجد الأب ولا خالته حيث قال : « ورفع أبوه على العرش » فإن يوسف صانها من ذلك مراعاةً لشقة الأبوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ

مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

أى كما أكرمك بهذه الرؤيا التي أراكَها يجتبيك ويحسنُ إليك بتحقيق هذه الرؤيا ، وكما أكرمك بوعده النعمة أكرمك بتحقيقها .

ويقال الاجتناب ما ليس للمخلوق فيه أثر ، فما يحصل للعبد من الخيرات — لا بشكفه ولا بتعمده — فهو قضية الاجتناب .

(١) وودت (الحسد) والصواب أن تكون الحسد (انظر توضيح ذلك بعد قليل صفحة ١٧٠) ودخول الأب كان بنفسه ولم يكن بغيره ، وكان سببه شدة الإشتاق على ولده .

وقال من الاجتهاد المذكور أنَّ هَصَّةً عن ابن كليب ما رواه امرأة العزيز من قمه .

وقال من قضية الاجتهاد إسبيله السر على فعل إخوته حيث قال : « وقد أحسن في إذ
أخرجني من السجن » ولم يذكر خلاصة من البر من قضية الاجتهاد توفيقه لسرعة الغو من
إخوته حيث قال : « لا تقرب عليكم اليوم »

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

أى لتعرف قدر سكل أحد ، وتقف على مقدار سكل قائل بما تسع من حديثه . . لا من
قوله بل ليدل على كبريائك وقسط فراستك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبِمِمْ نَسْتَمْتَمُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَغُوبَ

كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلُ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ

من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة ، ومن إتمام النعمة صونها عن السلب والتغيير ،
ومن إتمام النعمة التحرز^(١) منها حتى تسهل عليك السهلة بها .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَلَّفَ فِي يَوْسُفَ وَإِخْوَتَهُ

آيَاتُ الْمُسَائِلِينَ ﴾

يعنى لسكل ذى محنة حتى يعلم كيف يصبر ، ولسكل ذى نعمة حتى يعلم كيف يشكر .

ويقال في قصتهم كيفية الغو عن الزلة ، وكيفية التغلب على أهل الجفاء عند اللقاء .

ويقال في قصتهم دلالات لظفر الله سبحانه بأوليائه بالعمسة ، وآيات على أن الحيا
(...) من المحنة .

ويقال فيها آيات على أن من صدق في رجائه يختص — يوماً — ببلائه .

(١) التحرز من النعمة التوفى بها ، وإذا افترضنا أنها قد تكون (التحرز) بإزاء لشأما ألا يكون
البد أسراً لقصة حتى يسهل عليه أن يجود بها ... وكلاما صحيح مقبول في السياق .
(٢) مثلية

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْبِبُكَ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

عُرِفُوا عَلَى مَا سَتَرُوهُ مِنَ الْحَسَنِ ، وَلَمْ يَحْتَالُوا فِي إخراج ذِكْرِهِ مِنْ قلوبِهِم بِالْوَقِيعَةِ فِي أَيْبِهِمْ حَقًّا قَالُوا : « إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

وَيُقَالُ لَمَّا اعْتَرَضُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَى أَيْبِهِمْ فِي تَقْدِيمِ يَوْسُفَ فِي الْمَحَبَةِ عَاقِبِهِمْ بِأَنْ أَهْلِهِمْ ^(١) حَقًّا بِسَطَوُا فِي أَيْبِهِمْ لِسَانِ الْوَقِيعَةِ فَوْصَفُوهُ بِلَفْظِ الضَّلَالِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْقَهَابُ فِي حَدِيثِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَلَمَّا حَسَدُوا يَوْسُفَ عَلَى تَقْدِيمِ أَيْبِهِمْ لَهُ لَمْ يَرْضَ — سَبَّحَاهُ — حَقًّا أَقَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَغَرُّوا لَهُ سُبْحَةً لِيَقُولُوا أَنَّ الْحَسَدَ لَا يَسُودُ . وَيُقَالُ أَطْوَلُ النَّاسِ جُرْئًا مَنْ لَاقَى النَّاسَ عَنْ مَرَارَةٍ ، وَأَرَادَ تَأْخِيرَ مَنْ قَدَّمَهُ اللَّهُ أَوْ تَقْدِيمَ مَنْ أَخَّرَهُ اللَّهُ ؛ فَاخُذُوا يَوْسُفَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَوَادُوا أَنْ يَجْلُوهُ فِي أَسْطَلِ الْجَبِّ فَرَضَهُ اللَّهُ فَوْقَ السَّرِيرِ

قوله جل ذكره : ﴿ اقْتُلُوا يَوْسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْلُغَ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

أَيُ يَفْلُحْ لَكُمْ إِقْبَالُ أَبِيكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَقَدِيمًا قِيلَ : مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ ؛ فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ إِقْبَالُ يَعْقُوبَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بِالْكَلْبَةِ — عَلَيْهِمُ قَالَتْ تَمَالَى : « فَنُتَوَلَّى هَبْنِهِمْ » .

وَيُقَالُ كَانَ قَصْدُهُمْ أَلَّا يَكُونَ يَوْسُفَ أَمَامَ عَيْنِهِ فَقَالُوا : إِمَّا الْقَتْلُ وَإِمَّا الْفَقْرُ ، وَلَا بَأْسَ بِمَا يَكُونُ بَعْدَ أَلَّا يَكُونَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَنَدِهِ قَوْمًا مُّصْلِحِينَ ﴾

تَهَيَّأُوا بِالْخِرَامِ ، وَعَلَّقُوا التَّوْبَةَ بِالتَّسْوِيفِ وَالزَّمَمِ ، فَلَمْ يَمَحْ مَا أَجْلُوا مِنَ التَّوْبَةِ مَا حَاجُّوا مِنَ التَّوْبَةِ .

(١) وَوَدِدْتُ (أَهْلَهُمْ) وَفِي خَطِّ فِي النُّسخِ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي وَلَكِنْ يَهْدِي ، وَالسِّيَاقُ يَتَقَضَى (الْإِهْمَالُ) .

ويقال لم تَعْلِبْ فَنُؤِسُّهُمْ أَنَّ يَنْهَبُوا عَنْ بَابِ اللَّهِ بِالْكَلْبَةِ فَنَدَّرُوا لِحُسْنِ الرُّجُوعِ قَبْلَ ارْتِكَابِ مَادَمَتِهِ إِلَيْهِ فَنُؤِسُّهُمْ ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الرِّفْقَانِ بِاللَّهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَاتِلْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ۚ

وَأَلْقُوهُ فِي غِيَاةِ الْيَمِّ لِيَلْتَمِتَهُ بَعْضُ

السَّيَّارَةِ ۚ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ ١٠٠ ۚ

إِخْوَةُ يُوسُفَ — وَإِنْ قَاتِلُوهُ بِالْجَفَاءِ — مَمْتَنَّتْهُمْ شَفَعَةُ النَّسَبِ وَحُرْمَةُ الْقَرَابَةِ مِنْ الْإِقْدَامِ عَلَى قَتْلِهِ ؛ فَتَالُوا لَا تَقْتُلُوهُ وَفَعَّيُوا شَخْصَةً .

ويقال إِنَّمَا حَكَّمَهُمْ عَلَى إِقَاتِهِ مَرَادُهُمْ أَنْ يَخْلَوْا لَهُ وَجْهٌ أَيْبَهُمْ ، فَلَمَّا أُرَادُوا حَصُولَ مَرَادِهِمْ فِي تَفْصِيهِ لَمْ يَبَالِغُوا فِي تَفْصِيهِهِ .

ويقال لَمَّا كَانَ الْمَعْلُومُ لَهُ — سُبْحَانَهُ — فِي أَمْرِ يُوسُفَ تَبْلِيغِهِ إِلَيْهِ تِلْكَ الْقَرَبَةُ أَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِ قَاتِلِهِمْ حَقِيْقَةً قَالَتْ : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » .

ثُمَّ لَمَّا — وَإِنْ أَبْلَاهُ فِي الْحَالِ — سَهَّلَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي جَنْبِ مَا رَدَّهُ إِلَيْهِ فِي الْمَالِكِ ^(٢) ، قَالَتْ لَهُمْ :

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَسَاكِرُ خَارَكَكَ اللَّهُ — وَأَنْتَ كَارِهِ

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى

يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ ١٠١ ۚ

كَلَامُ الْحَسُودِ لَا يُسْمَعُ ، وَوَعْدُهُ لَا يُقْبَلُ — وَإِنْ كَانَ فِي مَرَضٍ النَّصِيحِ ؛ فَإِنَّهُ يُعْلِمُ الشَّهَدَ وَيُسْمِعُ الصَّلْبَ ؛

ويقال الْعَجَبُ مِنْ قَبُولِ يَعْقُوبَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَا أَبْدَى بَنُوهُ لَهُ مِنْ حِفْظِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَفَرَّسَ فِيهِمْ قَلْبُهُ فَقَالَ لِيُوسُفَ : « وَبِكَيْدُوا لَكَ كَيْدًا » وَلَكِنْ إِذَا جَاءَ الْقَضَاءُ فَالْبَصِيرَةُ تُصِيرُ مَسْدُودَةً .

(١) واضح من هنا وما جاء في السياق أن التعسري — بسامعه الصواب الأسير — ينظر إلى إخوة يوسف نظرة خالية من التعامل عليهم .

(٢) كما أنها ينصح التعسري أصحاب الإرادة : لأن نيتهم اليوم في الله شدة ، فلم هذا متوبة . وكأما يوسف لأهل الجليل : إن معايس العر والخير الإنسانية خاطئة قاصرة .

ويقال من قِيلَ على محبوبه حديث أعدائه كَيْفَ ما كَيْفَ يعقوبُ في يوسف .
عليهما السلام — من بلائه .

قوله جل ذكره ﴿أَرْسِلْهُ مَعَا غَدَا يَرْتَعَ وِجْهًا وَلِنَأْتِيَنَّهُ﴾
لحافظون .

يقال أطمعوا يعقوب عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحة نفس في الحب ،
فطابت نفس يعقوب لإنهاهم إياه من بين يديه — وإن كان يشق عليه فراقه ، ولكن
الحب يؤثر راحة محبوبه على محبة نفسه .

ويقال لما ركن إلى قولهم : « وإنا له لحافظون » — أي من فيكم^(١) — حتى قالوا :
« وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ، فَنَ أَسْلَمَ حَبِيبَهُ إِلَى أَعْدَائِهِ غُصَّ بَنَحْصِ
بلائه .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾
وأخاف أن يأكله الذئب وأنهم
عنه غافلون .

يَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ لَأَنِّي لَا أَصْبِرُ عَنْ رُؤْيَيْهِ ، وَلَا أَطِيقُ عَلَى فُرْقَتِهِ ... هذا إذا كان
الحال سلاطته .. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب ؟

ويقال لما أخاف عليه من الذئب امتحن بحديث الذئب ، ففي الظور ما مضاه : إِمَّا يُسَلِّطُ
على ابن آدم ما يخافه . وكان من حقه أن يقول أخاف الله لا الذئب ، وإن كانت محال
الأنبياء عليهم السلام — محروسة من الاعتراض عليها .

ويقال لما جرى على لسان يعقوب — عليه السلام — من حديث الذئب صار كالتلحين
لم ، ولو لم يسموه ما اهتمدوا إلى الذئب^(٢) .

(١) يرجع القسري ما أصاب يعقوب من بلاه إلى ركونه إلى حفظ يوسف من قبل الخلق ، وأنه إبطاه
لصوامع أن الحفظ لا يكون إلا الله .

(٢) تنيد هذه النطقة في إثبات كرامة الأولياء ، وما يجري على ألسنتهم من تلوينها قد يحدث في السنان
على وجه الإجمال .

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَيْسَ أَكْثَرُ الذَّنْبِ﴾ ونحن
مُصِيبَةٌ إِنَّا إِنَّمَا نَخْلَعُ رُفُوفًا ۖ

لَقِيَ إِخْوَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا وَصَفُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ الْخَطَرِ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ
« إِنَّا إِنَّمَا نَخْلَعُ رُفُوفًا » : لِأَنَّ مَنْ بَاعَ أَخًا مِثْلَ يُوسُفَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الثَّمَنِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَقَالَ
قَدْ خَسِرْتُ صَفْقَتَهُ .

وَيَقَالُ لِمَا عَدُّوا الْقُوَّةَ فِي أَنْفُسِهِمْ حِينَ قَالُوا : « وَنَحْنُ عَصِيَّةٌ » خُذُوا حَتَّى فَعَلُوا (١) .
وَيَقَالُ لِمَا رَكَّنَ يُسُوبُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — إِلَى قَوْلِهِمْ : « وَنَحْنُ عَصِيَّةٌ » لَقِيَ مَا لَقِيَ .
قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي
غِيَابَةِ الْجُذْبِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّيَنَّهُمْ
بِأَرْحَمِهِمْ هَذَا وَمَا لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾

الْجَوَابُ فِيهِ مُقَدَّرٌ ، وَمَعْنَاهُ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِيُوسُفَ وَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يَلْقَوْهُ فِي الْبَيْتِ فَعَلُوا
مَا عَزَمُوا عَلَيْهِ . أَوْ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَقْوَمُوا فِي غِيَابَةِ الْجُذْبِ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ؛ فَتَكُونُ الْوَاوُ صِلَةٌ .
وَالْإِشَارَةُ فِيهِ أَنَّهُ لَمَّا حَلَّتْ بِهِ الْبَلَاءُ عَجَّلْنَا لَهُ التَّعْرِيفَ بِمَا ذُكِرْنَا مِنَ الْبُشْرَى ؛ لِيَكُونَ
مَجْهُولًا بِالتَّعْرِيفِ فَمَا هُوَ مُتَحَدِّلٌ لَهُ مِنَ الْبَلَاءِ الْعَنِيفِ .

وَيَقَالُ حِينَ أَقْطَعْتَ عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِرَاعَاةَ أَبِيهِ حَصَلَ لَهُ الْوَحْيُ مِنْ قِبَلِ مَوْلَاهُ ،
وَكُنَّا سُنَّتَهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ عَلَى خُفُوسِ أَوْلِيَائِهِ بِأَيٍّ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا فَتَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَبْوَابَ
الصَّفَاءِ ، وَفَنُونَ لَطَائِفِ الْوَلَاءِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَةً يَكُونُ ۖ﴾
نَمَكِّنُ الْكَذَّابَ مِنَ الْبَكَاءِ رَحْمَةً خَذَلَانَ اللَّهَ تَعَالَى إِلَهُهُ ، وَفِي الْخَطِيرِ : إِذَا كُنَّ نَفَاقُ
الْمَرْءِ مَلَكٌ هَيَّئَتْهُ حَتَّى يَبْكِيَ مَا شَاءَ .

وَيَقَالُ : لَا يَبْعُدُ أَنْ يَقَالَ لَهُمْ وَإِنْ جَعَلُوا عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَدِمُوا عَلَى
مَا فَعَلُوا ، فَعَلَامُ الْبَكَاءِ لِنَفْسِهِمْ — وَإِنْ لَمْ يُظْهِرُوا لِأَبِيهِمْ — وَقَوْلُهُمْ عَلَى الذَّنْبِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۖ﴾

(١) قد كانت من دهاوى النفس .

لم يُؤْتَرْ زَوْجُهُ قَالِيهِمْ فِي إِحْبَابِ تَصَدِيقِ يَعْقُوبَ — عَلَيْهِ السَّلَامَ لِسُكُوبِهِمْ بَلْ أَخْبَرَهُ
قَلْبُهُ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ مَا يَقُولُوهُ فَقَالَ :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبِرْْ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا تَصِفُونَ ﴾ .

فَقَلَّمَ عَلَى الْجُمْلَةِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ عَلَى التَّفْصِيلِ .. وَهَكَذَا تَقَرَّعَ قُلُوبَ الصَّادِقِينَ حَوَاقِبُ
الْأُمُورِ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ ، إِلَى أَنْ تَتَضَحَّحَ لَمْ تَقَاصِلُهَا فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

وَيَقَالُ حَوَاقِبُوا عَلَى مَا فَعَلُوهُ بِأَنْ أَغْفَلُوا عَنْ تَمْيِيزِ قِيَصِهِ حَتَّى عَلِمَ يَعْقُوبُ تَقَوُّلَهُمْ
قِيَا وَصَفُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى
دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ
بِضَاعَةٍ ۚ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

لَيْسَ كُلُّ مَنْ طَلَبَ شَيْئًا يُعْطَى مَرَادَهُ فَقَطْ بَلْ رَبَّمَا يُعْطَى فَوْقَ مَأْمُولِهِ ؛ كَالسَّيَّارَةِ كَانُوا
يَقْنُونُ بِوُجُودِ الْمَاءِ فَوَجَّعُوا يَوْسَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَيَقَالُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ وَجَدَ شَيْئًا كَانَ كَمَا وَجَدَهُ السَّيَّارَةُ ؛ تَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ وَجَدُوا عَبْدًا مَلُوكًا
وَكُنَّ يَوْسَفَ — فِي الْحَقِيقَةِ — حُرًّا^(١) .

وَيَقَالُ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى خِلَاصَ يَوْسَفَ — عَلَيْهِ السَّلَامَ — مِنْ الْجُبِّ أَزْهَجَ خَوَاطِرَ
السَّيَّارَةِ فِي قَصْدِ السَّفَرِ ، وَأَعْدَسَهُمُ الْمَاءَ حَتَّى احْتَاجُوا إِلَى الْاسْتِمَاءِ لِيَصِلَ يَوْسَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِلَى الْخِلَاصِ ، وَلِهَذَا قِيلَ : أَلَا رَبُّ تَشْوِيشٍ يَقَعُ فِي الْعَالَمِ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ سَكُونٌ وَاحِدٌ .
كَأَقِيلٍ : رَبُّ سَاعِلٍ لَهُ قَاعِدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَشْرَوْهُ ۖ يَشْتَرِي بِتَحْرِيرِ دَرَجَةٍ مَعْدُودَةٍ
وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

لَمْ يَعْرِفُوا خِسْرَانَهُمْ فِي الْحَالِ وَلَكِنَّهُمْ وَقَفُوا عَلَيْهِ فِي الْمَالِ .

(١) أَيْ وَبِمَا تَكُونُ حَبِيبَةُ التَّمَةِ أَعْظَمَ مِنْ ظَاهِرِهَا .

وقال قد يَبْتَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمان بخص ، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه
فبئس ذلك يعلم ما يلحق من التَّيْنِ .

وقال لم يفتشوا من يوسف — عليه السلام — يوم باعوه بثمان بخصر ، ولكن
لما قال لهم : أنا يوسف — وقع عليهم الخجل ، ولهذا قيل : كفى للقصر الجلاء
يوم اللقاء .

وقال لما خروا له سجداً علموا أنَّ ذلك جزاء مَنْ باع أخاه بثمان بخص .

وقال لما وصل الناسُ إلى رفيق يوسف عاشوا في نعمته ، واحتاجوا إلى أن يقفوا
بين يديه في مقام القُلِّ قائلين « تَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ » ، وفي مناه أنشدوا :

ستسمع بي وتذكرني وتطلبني فلا تجد

وقال ليس العَجَبُ من يبيع مثل يوسف — عليه السلام — بثمان بخصر إنما العَجَبُ
من (...) ^(١) مثل يوسف — عليه السلام — بثمان بخص ، لا سبياً « وكانوا فيه
من الزاهدين » (انظر لافاية له ، وكذا العجب لا نباته له) ^(٢) .

وقال ليس العجب من يبيع يوسف — عليه السلام — بثمان بخصر ، إنما
العجب من يبيع وقته التي أهدى من الكبريت الأحمر بمرضى حقير من أمراض الدنيا .

وقال إن السبابة لم يعرفوا قيمته فزهدوا في شرائه بديارم ، والذين وقفوا على جماله
وشئ من أحواله غلوا — بمصر — في ثمنه حتى اشتروه بزنته ديوارم ودنانير مرات —
كما في القصة ^(٣) ، وفي مناه أنشدوا :

إن كنتُ عندك يا مولاي مُطَرِّحاً فبئس خبيرك محمولٌ على الخدق ^(٤)

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر ﴾

(١) هناك في الكتابة هكذا (بخل) ولا تدري كيف نضرها إلى إيجابه بضم الميم .

(٢) ما بين القوسين ورد هكذا في (من) وفيه التباس ناشئ عن سوء النسخ .

(٣) يقال لأن المرء يشتريه بزمته ورقاً وحريراً ومسكاً .
(تفسير اللسان ٢ : ص ٢١٦ طبعى الحلي)

(٤) الحديث جمع حذقة وهي السواد المستدير وسط العين .

لَا مَرَأِيَّ أَكْرَمِي مِثْلَهُ عَسَىٰ أَن
يَنْفَعَنِي أَوْ تَخْذَنِي وَقَدَّارٌ ﴿١٠﴾

لَمَّا نَوَدَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ فِي مِصْرَ بِالْبَيْعِ لَمْ يَرْضَ الْحَقُّ — سَبْحَانَهُ — حَقِّ أَصَابَتِهِمِ
الضَّرُورَةُ وَمَسْتَهْمُ الْفَاقَةِ حَقِّ بَاهُوا مِنْ يَوْسُفَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — جَمِيعَ أَمْلَاكِهِمْ ، ثُمَّ بَاهُوا
كُلَّهُمْ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ — كَمَا فِي الْقِصَّةِ — وَفِي آخِرِ أَمْرِهِمْ طَلَبُوا الطَّعَامَ ، فَصَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ
عَبِيدَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا مَلَكَكُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ فَأَعْتَقَهُمْ ^(١) ؛ فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ بِمِصْرَ
يَوْمَ نَوَدَىٰ فِيهِ عَلَيْهِ بِالْبَيْعِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ بِمِصْرَ يَوْمًا آخَرَ وَقَدْ مَلَكَ جَمِيعَ أَمْلَاكِهِمْ ،
وَمَلَكَ رِقَابَ جَمِيعِهِمْ ؛ فَيَوْمَ يَوْمٍ ، قَالَ تَعَالَى : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » يَوْمَئِذٍ
تُشَانُ يَنْهَمَا ۚ

ثُمَّ إِنَّهُ أَعْتَقَهُمْ جَمِيعًا ... وَكَذَا الْكَرِيمُ إِذَا قَدَّرَ غُفْرَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ﴾

أَرَادَ مِنْ حَسَنِهِ أَلَّا تَكُونَ لَهُ فَضِيلَةٌ عَلَى إِخْوَتِهِ وَفُؤَيْهِ ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُلْكُ
الْأَرْضِ ، وَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ لَا مَا أَرَادَ أَعْدَاؤُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾

أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجُبِّ ، وَأَرَادَ اللَّهُ — سَبْحَانَهُ — أَنْ يَكُونَ
يَوْسُفُ عَلَى سِرِّهِ لِلْفَتْحِ ؛ فَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

(١) فِي الْقِصَّةِ « وَبَعَثَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي سَفَرٍ لِلتَّحْقِيقِ الطَّعَامَ بِالْأَرْيَافِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى حَتَّى لَمْ يَبْقَ
مَعَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا ثُمَّ جَاءَ بِالْجُودِ وَالْجَوَامِرِ فِي الثَّانِيَةِ ثُمَّ بِالذُّبَابِ فِي الثَّلَاثَةِ ثُمَّ بِالْمَيْدِ وَالْإِيمَاءِ فِي الرَّابِعَةِ ثُمَّ بِالذُّورِ
وَالْعَارِ فِي الْخَامِسَةِ ثُمَّ بِالْأَدَمِ فِي السَّادَةِ ثُمَّ بِرِقَابِهِمْ فِي السَّابِقَةِ حَتَّى اسْتَرْقَهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ احْتَقَى أَهْلَ مِصْرَ وَوَرَدَ
عَلَيْهِمْ أَمْلَاكُهُمْ » السُّورَةُ ٢٧ مِنْ ٢٧٨ .

وأرادوا أن يكون يوسف عبداً لمن ابتاعوه من السيلوة ، وأراد الله أن يكون عزيزاً مصر — وكلن ما لأواد الله .

ويقال البيرة لا ترى من الحق في الحال ، وإنما الاعتبار بما يظهر في سيره هديده في المال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا

وَعِلْمًا ، وَكُنَّا نَبْزِي الْمُسْنِينَ ﴾

من جلة الحكم الذي آتاه الله فهو حكيه على نفسه حتى غلب شهوته ، وامتنع عما رآودته تلك المرأة من نفسه ؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكم له على غيره .

ويقال إنما قال : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى حين استوى شبابه واكتملت قوته ، وكان

وقت استيلاء الشهوة ، وتوفر دواعي مطالبات البشرية — آتاه الله الحكم الذي حبه على

الحق وصبره من الباطل ، وعلم أن ما يقب اتباع الفئات من دواعي الندم أشد مفاسدة من

كلية الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة . . فَأَرَمَشَقَّةُ الامتناع على لَذَّةِ الاتباع .

وذلك الذي أشار إليه الحق — سبحانه — من جميل الجزاء الذي أعطاه هو إسناده بالتوفيق

حتى استقام في التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَّا فَتَبَدَّلْنَاهُمْ

سُبُلًا ﴾ (١) : أى الذين جاءوا بطريق المصيبة تهديهم سُبُل الصبر على الاستقامة

حتى تثبت لهم حقائق المواصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَأَوْنَاهُ فِي مَنَامِنَا ﴾

وغلقت الأبواب وقالت هيت لك

قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي

إِنَّهُ لَا يَجْلِيحُ الظَّالِمُونَ ﴾

لما غلقت عليه أبواب المسكن فتح الله عليه باب المصيبة (٢) ، فلم يغيره ما أخلق بهد

إكرامه بما فُتِحَ .

(١) آية ٦٩ سورة التكبوت .

(٢) تلك النظر إلى حال عبارة العشري الناتج من المعالجة بين (الإخلاص) و (التفتح) .

وفى التفسير أنه حفظ حرمة الرجل الذى اشتراه ، وهو العزيز .

وفى الحقيقة أشار بقوله : « إنه ربى » إلى ربه الحق تعالى : هو مولاي الحق تعالى ، وهو الذى خلّصنى من الجلب ، وهو الذى جل فى قلب العزيز لى محلاً كبيراً فأكرم مثواى فلا يفتنى أن أقدم على عصيانه — سبحانه — وقد غمرنى بحميد إحسانه .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لما : إن العزيز أمرنى أن أنضه . « عسى أن ينقنا » فلا أخونه فى حرمة بظهر الغيب .

ويقال لما حفظ حرمة الخلق بظهر الغيب أكرمه الحق سبحانه بالإمداد بالعصبة فى الحال ومكّنه من مواصلها فى المال على وجه التحلل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ عَمَتْهُ رُبُّهُم بِهَا وَلَئِنْ لَمْ يَرَى

بُرْهَانَ رَبِّهِ كَنتَ كَذَّابًا فَاصْرِفْ عَنْهُ

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُخْلِصِينَ ﴾

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه — بغير اختياره ولا يَكْنِيهِ — كان مرفوعاً لأنه لا يخل تحت التكليف ، فلم يكن « المم » ^(١) منه ولا منها زلة ، وإنما الزلة من المرأة كانت من حيث عزمت على ما عمت ، فأما نفس المم فليس مما يَكْنِيهِ العبد .

ويقال اشتركا فى المم وأُفرد — يوسف عليه السلام — بإشهاد البرهان .

وفى تعيين ذلك البرهان — ما الذى كان ؟ — تكلف غير محمود إذ لا سبيل إليه إلا بالتحير المقطوع به .

وفى الجملة كان البرهان ترفيقاً من الحق إياه بآية من آيات صُنعهِ ، قال تعالى : « سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ^(٢) .

(١) واضح أن التسترى يهدف إلى س كل ثمة عن يوسف ولهذا يلجأ إلى تأويل لفظة « المم » الذى اشترك فيه وامرأة العزيز كما يبر طاهر القنط
(٢) آية ٥٣ سورة فصلت .

وقوله : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » صَرَفَ عنه السوء حتى لم يوجد منه الزمُّ على ذلك الفعل — وإن كان منه ممٌ — إلا أن ذلك لم يكن جُرماً كما ذكرنا .
والصَّرفُ عن الطريق بعد حصول المم — كشفٌ ، والسوء للصَّرفُ عنه هو الزمُّ على إزنا والفحشاء أو نفسُ الزنا ، وقد صرفها الله تعالى عنه .
قوله « إنه من عبادنا المُخْلِصِينَ » : لم تكن نجاته في خلاصه ، ولكن في صرفه السوء عنه واستخلاصه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْسَ مِنْ دُونِهَا وَلَيْسَ بِبَيْتِهَا لَهَا الْبَابُ ﴾

استبقا ، هذا ليهربَ ، وهذه لفظة التي كانت تطلب .
ولم يضر يوسف — عليه السلام — أن قَدَّتْ قَيْسَ وهو ليكسُ دنياه بعد ماصح عليه قَيْسُ قنواه .

ويقال ^(١) لم تَقْبَضْ قَدْ القَبِصِ وَإِنَّمَا تَعَلَّقَتْ بِهِ لَتَحْبِيسِهِ عَلَى نَفْسِهَا ، وكان قصدُها بقاء يوسف — عليه السلام — معها ، ولكن صار ضلُّها وِيَلَالاً عَلَى نَفْسِهَا ، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ رَاحَتَهَا وَشَفَاهَا .

ويقال تولدَ انفراقُ القَبِصِ من قبضها عليه وكان في ذلك افتضاح أمرها ؛ لأن قَبْضَهَا عَلَى قَيْسَ كَانَ مزجوراً عنه . . . لِيَعْلَمَ أَنَّ الْفَاسِدَ شَيْءٌ فَاسِدٌ .

ويقال لثمة استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحال أنها تقدُّ قَيْسَ من وراءه أو من قُدَامِهِ ..
كذلك صاحبُ البلاد في الهوى مسلوبُ التمييز .

ويقال لما لم تَصِلْ ولم تستكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قَيْسَ لِيَكُونَ لها في إقائها الذَّنْبُ عَلَى يوسف — عليه السلام — حُبَّةً ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عَلَيْهَا حِجَةً ، وليوسف دلالة صدق ، قال تعالى : « وَلَا يَحِقُّ الْمُكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ^(٢)

(١) فيما على من إشارات تلاحظ أن القشيري قد جعل من امرأة العزيز رمزاً لطالب الدنيا وأسير الهوى ومن يوسف رمزاً معاكبلاً لذلك .
(٢) آية ٤٢ سورة طه .

قوله تعالى : « وَأَلْقَا سِيدَهَا فِي الْبَابِ » : لَمَّا فَتَحَا الْبَابَ وَجَدَا سِيدَهَا فِي الْبَابِ ،
والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد ؛ إِذَا خَرَجَ الْعَبْدُ عَنِ الْبَابِ هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْلِيفِ فِي الْحَالِ
وَقَعَ فِي ضَيْقِ السُّؤَالِ .

وقال قال : « أَلْقَا سِيدَهَا » ولم يقل سِيدَهَا لِأَنَّ يَوْسُفَ فِي الْحَقِيقَةِ كَانَ حُرّاً وَلَمْ يَكُنِ
الْعَزِيزُ لَهُ سِيداً .

قوله جل ذكره : « قَالَتْ مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً
إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

شَفَعْنَاهُ بِإِغْرَائِهَا لِإِيَّاهُ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهَا بِأَنْ سَبَقَتْ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ .
وقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم ثلاثا يقصد قتله ؛ فَنَفِي عَيْنٍ مَا سَعَتْ بِهِ نَظَرَتْ
لَهُ وَأَبْقَتْ عَلَيْهِ .

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترض بذلك ، وستزيد ؛ فالعذاب
الأليم يعني الضرب المبرح . . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالنسج .
ويقال أوقعت السجن الذي يبقى موجلاً في مقابلة الضرب الأليم المعجل ليعلم أَنَّ السَّجْنَ
الطَوِيلَ — وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فِي الظَّاهِرِ أَلَمٌ — فَهُوَ فِي مُقَابَلَةِ الضَّرْبِ الشَّدِيدِ الْمَوْجِعِ ؛ لِأَنَّهُ —
وَإِنْ أَشَدَّ فَلَا يُقَابَلُهُ .

ويقال قالت : « مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً ؟ » فَذَكَرُ الْأَهْلَ هَاهُنَا غَايَةً تَهْيِيجُ الْحَتِيَّةَ
وَتَذَكِيرُ بِالْأَنْفَةِ .

قوله جل ذكره : « قَالَتْ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ
شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قِيَصُهُ قَدْ
مِنْ قَبْلِي فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنْ
الْكَاذِبِينَ » وَإِنْ كَانَ قِيَصُهُ قَدْ
مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتُ وَهُوَ مِنْ
الصَّادِقِينَ » فَلَمَّا رَأَى قِيَصَهُ قَدْ مِنْ

دُبِّرَ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ .

أفصح يوسف عليه السلام بِجُرْمِهَا إِذْ لَيْسَ لِلْفَاسِقِ حُرْمَةٌ بِحَبِّ حِفْظِهَا ، فَلَمْ يُبَالِ أَنْ هَتَكَ سِتْرَهَا فَقَالَ . « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » فَلَمَّا كَانَ يُوسُفُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَاهِدٌ أَنْطَقَ اللَّهُ الصَّغِيرَ الصَّغِيرَ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ أَوْأَنَ النَّطْقِ ^(١) . وَلِهَذَا قِيلَ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ صَادِقًا فِي نَفْسِهِ لَمْ يُبَالِ أَفَّهُ أَنْ يُنْقَطِعَ الْحَبَرُ لِأَجَلِهِ .

قوله : « فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبِّرَ . . . » لَمَّا اتَّضَحَ الْأَمْرُ وَاسْتَبَانَ الْحَالُ وَظَهَرَتْ بَرَاءَةُ سَاحَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ الْعَزِيزُ : « إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ » : دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الزَّانَا كَانَ مُحَرَّمًا فِي شَرْعِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْغَاطِقِينَ ﴾

لَمْ يَرِدْ أَنْ يَنْتَكِ سِتْرَ أَمْرِهِ فَقَالَ لِيُوسُفَ : أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : « وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ » : دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي شَرْعِهِمْ عَلَى الزَّانَا حُدٌُّ — وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا حَيْثُ عَدَّهُ ذَنْبًا .

وَقَالَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهْلًا بِالْبَلَاءِ ؛ لِأَنَّ الْبَلَاءَ مِنْ صِفَةِ أَرْبَابِ الْوَلَاءِ ، فَأَمَّا الْأَجَانِبُ فَيَسْتَجَاوِزُ عَنْهُمْ وَيُخَلِّ سَبِيلَهُمْ — لَا لِكِرَامَةٍ تَحُلُّهُمْ — وَلَكِنْ لِحَقَارَةِ قِسْمِهِمْ ، فَبِهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَرَى السَّاعَةَ ، وَظَهَرَتْ لِكُلِّ سَلَامَةٍ جَانِبُهُ وَابْتَدَلَ بِالسَّحْنِ . وَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ فِي سَوْءِ فَلَمَّا حَيْثُ قَالَ : « إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ » ، وَقَالَ لَهَا : « وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ » . . ثُمَّ لَمْ تَقُولِ بِهَا شَطِيئَةً مِنَ الْبَلَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ يُسُوفُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ

(١) قِيلَ هُوَ صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ وَهُوَ ابْنُ خَالِهَا . وَصِيَ قَوْلُهُ شَهَادَةً لِأَنَّهُ أَدَّى مَوْدِيَّ الْعَهْدَةِ لِأَنَّهُ نَبِيٌّ
بِهِ قَوْلُ يُوسُفَ وَيَقُولُ قَوْلُهَا (التَّوْبَةُ ٢٠ ص ٢١٨) .

رَأَوْدُ قَتَاها عَنْ قَسِيهِ قَدْ شَفَعَهَا حُبًّا
إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾

إنَّ الهوى لا ينسكُم ، ولا تكون المحبة إلا وأبيع لها لسان عدول ، فلما تحققت محبتها
ليوسف بسطت النسيوة فيها لسانَ اللامة .

ولما كانت أحسن منهن قيمةً — فقد كنَّ من جملة خدَمِها — كانت أسرعَ إلى اللامة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا تَحَيَّتْ بِمَكْرَمِهِمْ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِمْ وَأَعْتَدَتْ لَهُمْ مَتَكِنًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ سِكِّينًا
وَقَالَتْ أَخْرِجْ هَلِيبًا فَلَمَّا رَأَيْتَهُ
أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْتَ أَيْدِيَهُمْ وَقُلْنَ
حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قالت فذلِّكُنَّ
الذي لُتْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَوْدَتْهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٢﴾

أرادت أن يغلب عليهم استحقاقُ اللامة ، وتنفي عن نفسها أن تكون لها "أهلاً" ،
ففضلت بين ما عَمِلَتْ ، فلما رَأَيْتَهُ تَقَيَّرْنَ وَتَحَيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز ، قلن : « ما هذا
بشراً » : وقد كان بشراً ، وقلن « إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » : ولم يكن مَلَكًا .

قوله : « فذلِّكُنَّ الذي لُتْنِي فِيهِ » : أثَّرت رؤيتُهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بدل الثَّارِ ،
ولم يشعرن ، وضعفن بذلك عندها فقالت : أَلَمْ أَقُلْ لَكُنَّ ؟ أَتَنْتِ لَمْ تَتَالَكُنْ حَتَّى قَطَّعْنَ
أَيْدِيَكُنَّ ؟ فكيف أصبر وهو في منزل ١٩ وفي مناه أنشدوا :

(١) أي أهلاً للامة .

(أنت عند الخصلام عدوى :) (١)

ويقال (٢) إن امرأة العزيز كانت أُمّ في حديث يوسف — عليه السلام — من النسوة فَأُتِرَتْ رؤيته فبين ولم تُؤَرَّ فيها، والتَّخَيُّرُ صفةُ أهل الابتداء في الأمر، فإذا دام المعنى زال التَّخَيُّرُ، قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام: هكذا كنّا حتى قَسَتْ القلوبُ. أَيْ وَقَرَّتْ (٣) وَصَلَبَتْ. وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوتٌ فإذا تَمَوَّدَ شَرِبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمَعُ له صوت.

قوله جل ذكره: ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾

عما يدعوني إليه، وإلاَّ تَصَرَّفَ هُوَ

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَّ وَأَكُنْ مِنْ

الجاهلين ﴿

الاختبار مقرونٌ بالاختيار، ولو تخيَّ العافية بدل ما كان يدعى إليه لعله كان يُتِمَّقَى، ولكنه لما قال: «السجن أحبُّ إليَّ» مما يدعوني إليه «طُولِبَ يَصِدِّقُ ما قال.

ويقال إن يوسف عليه السلام نَطَقَ من عين التوحيد حيث قال: «وإلاَّ تصرف هو كيدهن أصبُ إلَيْنَّ» فقد عَلِمَ أن نجاته في أن يَصْرِفَ — سبحانه — البلاء عنه لا بتكليفه ولا بتجنُّبه.

ويقال لما آتَى يوسف — عليه السلام — لحوقَ المشقة في القلوع على لذة نفسه آثره عَصْرُهُ حتى قيل له: «تَأَفَّرَ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ هَلِينَا» (٤)

قوله جل ذكره: ﴿ فَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ ﴾

كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْعَلِيمُ ﴿

(١) بقية البيت مضطربة في الكتابة، ومطموسة في بعض المواضع.

(٢) التشبُّه هنا مستفيد من رأى استاذَه أن على الدقاق.

(انظر رأى الدقاق في رسالة التشبُّه في صمى التلويح والتكبين ص ٤٤)

(٣) وقرئت = أصابها التثقل.

(٤) آية ٩١ من سورة يوسف.

لما رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيك الإغاثة... كذلك ما اغير. لأحد - في الله تعالى - قدم الأرواح بكرمه وتولاه ينعمه - إنه هو «السيح» لأقوال السائلين ، «العلم» بأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُدُوا لِلَّهِ حِينَ ﴾

لما سجن يوسف - عليه السلام - مع ظهور برائة ساحته آفاه على امرأته أن يهتك سترها حول الله مُلكاً إليه ، ثم في آخر الأمر حَكَمَ اللهُ بأن صارت امرأته بعد مفاساتها الضَّر... وهذا جزاء من صَبَرَ .

ويقال لما غلِمَ يوسف عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت في آخر أمرها بما كان فيه هنك سترها ، فقالت : « الآن حمصص الحق أنا راودته عن نفسه » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُورِثُ أَثَرًا فَفُتِيَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْتُهَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لصحة السجن أثر يظهر ولو بعد حين ؛ فإن يوسف عليه السلام لما قال لصاحبه اذكرني عند ربك فأفساه الشيطان ذكر ربه فبقى يوسف في السجن زماناً ، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال : فأرسلوا إلى يوسف وقيل له : « يوسف أيها الصديق أفتناً... الآية » فالصحة تُعطى بركايتها وإن كانت تُبطل .

قوله : « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » : الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعة ، بها يتوسل إلى استجلاب إحسانه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَال لَا يَا تَيْمَا طَعَامُ تُزَرِّقَانِه
إِلَّا نَبَأُ نَكَابِئِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَا
ذَلِكَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ
قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
مُكْافِرُونَ ﴾

التَّخَبُّتُ فِي الْجَوَابِ حَتَّى التَّسْرِعَ مِنْ أَمَارَاتِ أَهْلِ الْمَكْرَمِ ، كَيُوصَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَعْدُهَا
أَنْ يَجِيبَهُمَا وَلَمْ يُسْرِعِ الْإِجَابَةَ فِي الْوَقْتِ .
وَيَقَالُ لَنَا آخِرُ الْإِجَابَةِ حَلَقَ قَوْلَهُمَا بِالْوَعْدِ ؛ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ تَقْدُّ فَلَئِنْ وَدَّ .
وَيَقَالُ لَنَا فَانْصَوْهُ بِسْؤَالِهِمْ قَدَّمَ عَلَى الْجَوَابِ مَا اقْتَرَحَهُ عَلَيْهِمَا مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ قَال :
« ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ . . . » ثُمَّ قَالَ :

﴿ وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِإِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ
نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ ، وَالْعَمَلِ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ أَجَابَهُمَا قَال :

﴿ يَا صَاحِبِي السَّجَنُ أَأَرَبَّابٌ مُتَفَرِّقُونَ
خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ •
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَالْآبَاءُ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحَكَمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْوَى فِي رُؤْيَايَ إِنْ
كُنْتُمْ الرُّؤْيَا تَعْمُرُونَ ﴿١﴾ .

كان ابتداء بلاء يوسف — عليه السلام — بسبب رؤيا رآها فَفَشَّرَهَا وَأُظْهِرَهَا ، وكان
سببُ نجاته أيضا رؤيا رآها الملكُ فَأُظْهِرَهَا ، لِيُخْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ ؛ فَكَانَ جَلَّ بِلَاءَهُ فِي
إِظْهَارِ رُؤْيَا جَلَّ نَجَاتِهِ فِي إِظْهَارِ رُؤْيَا^(١) ؛ لِيُخْلَمَ السَّكَانَةُ أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَارْأَوْا أَصْنَافَ الْأَحْلَامِ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
الْأَحْلَامِ بِهَاطِلِينَ ﴾ .

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التفسير ، فَإِنَّ الْقَوْمَ حَكَمُوا بِأَنَّ رُؤْيَاهُ أَصْنَافُ أَحْلَامٍ فَلَمْ
يُضِرَّهُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُوْثِّرْ فِي حُصَّةِ تَأْوِيلِهَا .

قوله : « وما نحن بتأويل الأحلام بالملين » : مَنْ طَلَبَ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِ مَوْضِعِهِ لَمْ
يَنْلُ مَطْلُوبَهُ ، وَلَمْ يَسَعِدْ بِمَقْصُودِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ
أَمْنِهِ أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

لَمَّا كَانَ لِلْعَالَمِ اللَّهُ وَالْحَكُومُ أَنْ يُوسَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ هُوَ مَنْ يَمَيِّرُ
الرُّؤْيَا — قَبْضُ الْقُلُوبِ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْهَا تَعْبِيرُ تِلْكَ الرُّؤْيَا ، وَلَمْ يَحْصُلْ قَلْبُكَ تَلَكُّ الصَّدْرِ
إِلَّا بِتَعْبِيرِ يُوسَفَ^(٢) ، لِيُخْلَمَ أَنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — إِذَا أَرَادَ أَمْرًا سَهَّلَ أَسْبَابَهُ .

ويقال : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْمَدَّ يُوسَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَيْنِ أَفْكَاهُ بَشِيتَيْنِ : بِحُسْنِ إِطْلَافِهِ
وَبِزِيَادَةِ الْعِلْمِ ؛ فَكَانَ جِوَالُهُ سَبَبَ بِلَاءِهِ ، وَصَلَوَاتُهُ سَبَبَ نَجَاتِهِ ، لَتُعَلَّمَ مِنْهُ الْعِلْمُ عَلَى
غَيْرِهِ ، لَهَذَا قِيلَ : الْعِلْمُ يُعْطَى وَلِنْ كَانَ يُبْطِئُ .

(١) يهدف التفسير إلى شيء بعيد هو أد المقاييس الإنسانية نسبية ولا تؤدي حتما إلى الصواب ،
وبالتالي لا ينبغي تطبيقها على ما يجري في الوجود من تساوي في الهبة .
(٢) يصلح هذا التصور — على نحو ما — لتفسير كرامات الأولياء .

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلم بالمولى أولى أن يوجب النجى ، قال تعالى :
 « وَإِذَا رَأَيْتُمْ رُؤْيَا نَبِيًّا مِّنْكُمْ فَأَقْبِرُوا عَنْهُ وَإِنْ يُرِيدُ أَنِ يَخْرُجَ فَاخْرُجُوا يُخْرِجُكُمْ مِّنَ الْبَيْتِ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ نَزَعُونَ سَمْعَ سِنِينَ دَابًّا فَا
 حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا
 مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ .

لم يقدم الهداء إلى الله تعالى على تبديد هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى ، لأن هذا السائل
 هو الذى عمله في المرة الأولى . فإمّا أنه قد قبل في المرة الثانية ، وإمّا أنه لم يقبل فيكون
 منه فاعله .

وصاحب الرؤيا الثانية كان التلّك وكان غائباً ، والوعظ والهداء لا يكونا إلا في للشاهدة
 دون المغيبة .

ويقال يحصل أن يكون قد فرس في التّين قبول التوحيد فإن الشباب ألين قلباً ،
 أمّا في هذا الموضع فقد كان التلّك أصلب قلباً وأفظ جانياً ؛ فذلك لم يدعه إلى التوحيد لئلا
 فرس فيه من الغلظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ التَّلْكُ اتَّخَذْتَنِي بِهِ فُلًّا جَاءَهُ
 الرُّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ
 مَا هَالِكُ النَّسُوءِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ أَبْدَهِنَّ
 لِنَارٍ رَّبِّي بَكِيدُهُنَّ عَذَابُكُمْ ﴾ .

أراد عليه السلام ألا يلاظه الملّك بين الخلية فيسقطه عيه من قلبه ، فلا يؤثر فيه
 قوله ، فذلك توقّف حتى يظهر أمره للكل وتنكشف برأه ساعته .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا زَاوُدُ بْنُ يَوْسُفَ

من نفسه قلن حاشو ما علينا عليه
من سوء

الحقائق لا تنسكم أصلاً ولا يذم من أن يبين .. ولو بعد حين .

لُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بريئاً ، وأُنْبِ على ذلك مدة ، وكان أمرُه في ذلك خفياً .
ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفض عنه المظنة ، وأطلق عَذَالَهُ ، وأظهر حاله ، عما فرق به
سرباله ^(١) ؛ فَقُلْنَ : « حاشو ما علينا عليه من سوء » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الزَّيْرِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

لما كانت امرأة الزبير غير تامة في محبة يوسف تركت ذنبها عليه وقالت لزوجها :
« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ولم يكن ليوسف عليه السلام
ذنب . ثم لما تناهت في محبته أقرت بالذنب على نفسها فقالت : « الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ ... »
فالتناهي في الحب يوجب هناك السر ، وقلة المبالاة بظهور الأمر والسر ^(٢) ، وقيل :

يَقُولُ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ فَلَيْ لَا إِلَهَ

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَالِبِينَ ﴾

إنما أراد الله أن يظهر براعة ساحرة يوسف ، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يستطون
فيه من لسان الملامة وذكر القبيح ، ولم يرد يوسف أن يصيبهم بسببه — من قبل الله — عذاب

(١) السربال = القميص .

(٢) من هذه الإشارة نستطيع بطريق غير مباشر أن نعرف موقف القسري من قضية عامة وهي :
هل يفصح الحب الرواة عن حبه المكتون أم يكتم ؟ وهل تنتشر له شطحاته في هذا الموقف أم لا ؟

ثَقَلَتْ مِنْهُمْ ، وَهَنَتْهُمُ الْآلِيَاءُ : أَنْ يَكُونُوا خَعَمُ الْفُلَيْهِمْ ، وَلَهُنَا قِيلُ : الصَّوْفِي دَمَهُ
هَدَرُ وَمِلْكُهُ مَبَاحٌ^(١) — وَلِلَّهِ قَالُ :

﴿ وَمَا أَرَى نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾

لَمَّا تَدَخَّلَ بِقَوْلِهِ : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّ لَمْ أَخْتِ بِالنَّبِيِّ » كَأَنَّهُ نَوْدَى فِي مَسْرَةٍ ، وَلاَحِينَ هَمَمَتْ ؟
قَالَ : « وَمَا أَرَى نَفْسِي أ »^(٢)

وَيَقَالُ : قَوْلُهُ « لِيَعْلَمَ أَيُّ لَمْ أَخْتِ بِالنَّبِيِّ » بَيَانُ الشُّكْرِ عَلَى مَا عَصَمَهُ اللَّهُ ، وَقَوْلُهُ :
« وَمَا أَرَى نَفْسِي » بَيَانُ الْعُذْرِ لَمَّا قَعَرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، فَاسْتَوْجِبَ شُكْرَهُ زِيَادَةَ الْإِحْسَانِ ،
وَاسْتَحَقَّ بِمَنْزِلِهِ الْغُفْرَ .

وَالْغُفْرُ بِدَرْجٍ مِنْ قَوْلِهِ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ااتِنُونِي بِهِ أَتُخْلِفُنِي
فِي نَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

لَمَّا انْقَضَتْ لِلْمَلِكِ طَهَارَةُ فِعْلِهِ وَنَزَاهَةُ حَالِهِ اسْتَحْضَرَهُ لِمَا اسْتَصْفَاهُ نَفْسَهُ ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ
وَصَحَّحَ بَيَانَهُ رَفَعَ مَحَلَّهُ وَمَكَانَهُ ، وَضَمَّنَهُ بِرَّهَ وَإِحْسَانَهُ ، فَقَالَ : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ »
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالَ اجْلِسْ عَلَى خِزَانِي الْأَرْضِ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلَيْكَ ﴾

إِنَّمَا سَأَلَ ذَلِكَ لِيَضَعَ الْحَقُّ مَوْضِعَهُ ، وَلِيَصِلَ نَصِيبُ الْقِرَاءِ إِلَيْهِمْ ، فَطَلَبَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى
فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يَطْلُبْ نَصِيبًا لِنَفْسِهِ .

وَيَقَالُ لَمْ يَقُلْ إِنِّي حَسَنٌ جَمِيلٌ بَلْ قَالَ : إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ أَيْ كَاتِبٌ حَاسِبٌ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ
الْفَضْلَ فِي الْمَعَانِي لَا فِي الصُّوَرِ .

(١) هذا تعريف الصوفي عند سهل بن عبد الله التستري (الرسالة ص ١٣٩) .

(٢) هذا نموذج لمقاومة دعوى النفس ومحاربة إغترافها على الدوام ، وعدم الاطئتان إلى معالمتها .

قوله جل ذكره: ﴿وَكُنْكَ مَكًّا لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ
يَقْبُورُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْحَسَنِينَ﴾.

لما لم تكن له دواعي الشهوات من نفسه مكنته الله من ملكه — قال تعالى: «وَمَنْ
يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا» (١) — فقال: «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ».

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد، وبين أنه إنما يوفى عباده من ألطافه بفضل لا بفهمه،
وبرحمته لا بمغشيتهم؛ فقال: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ» ثم يرقى همهم عما أولاهم من النعم فقال:
﴿وَلَا جُرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

رَيْطَلَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّقْوَى وَمَخَالَفَةِ الْهَوَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسَفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فَصَرَّحُوا لَهُمْ لَهُ مُسْكِرُونَ﴾.

عرّف يوسف — عليه السلام — إخوته وأنكره، لأنهم اعتقدوا أنه في ريق العبودية
لما باعوه، بينما يوسف — في ذلك الوقت — كان قائداً بمكان الملك. فمن طلب الملك في
صفة العبيد متى يعرفه؟

وكذلك من يبتعد في صفات المعبود ما هو من صفات الخلق... متى يكون عارفاً؟
هيات هيات لما يحسبون!

ويقال لما أخفوه صار خفاؤه حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك العاصي... بخطاياه
وزلاته تقع غيرة على وجه معرفته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاهَزُوا رَأَى مِنْهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ مَشِياً عَلَيْهِمْ
قَالَ إِنِّي أَنَا رَسُولُ رَبِّكُمْ فَأَخَذُوا بِهِ ثُمَّ اتَّخَذُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ خُلَفَاءً إِنَّهُمْ
كَاذِبُونَ﴾.

(١) آية ٦٤ سورة الشورى.

بَأَخْرَجَكُمْ مِنْ أَيْكُمَ الْآلَتُونَ أَنَّى
أَوْفَى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ ﴿١﴾

المحب غيورٌ ، فلما كان يعقوب عليه السلام قد تَسَلَّى عن يوسف بروية ابنه بنيامين غل
يوسف أن ينظر إليه يعقوب (١).

ويقال تَلَطَّفَ يوسف في استحضار بنيامين بالترقيب والترهيب ، وأما الترغيب
ففي ماله الذي أوصاه إليهم وهو يقول : « الْآلَتُونَ أَنَّى أَوْفَى الْكَيْلِ » وفي إقباله عليهم وفي
إكرامه لم وهو يقول : « وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ » .
وأما الترهيب فبمنع المال وهو يقول :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ
عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾

أى فإن لم تأتوني عليه فلا كيل لكم عندي ، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم .
قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّوَلَّوْا سُرَادُكُنَا هَاهُنَا وَإِنَّا لَنَاعِلُونَ ﴾
لما عَلِمَ يوسف من حلم أنهم باعوه بشئ يتخسر عليهم أنهم يأتونه بأخيهيهم طمعا في إيفاء
الكيل ، فلن يَصْغَبَ عليهم الإتيان به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَارِعٌ أَجْلُوا بِضَاعَتِهِمْ
فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَصْرَفُونَهَا إِذَا أَتَقَلَّبُوا
إِلَى أَهْلِهِمْ تَلْعَمُوا بِرَجْعُونِ ﴾

يَجْلُ بِضَاعَتِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ - فِي بَابِ الْكَرَمِ - أَمْ مِنْ أَنْ تَوْ وَهَبَتْ لَهُمْ جَهْرًا ؛ لَأَنَّهُ
يَكُونُ حَيْثُ فِيهِ تَقْلِيدٌ مِنْهُ لِلْمُؤَاجِبَةِ ، وَفِي عَلَيْهِمُ الْإِشَارَةُ بِمَجْرَدٍ مِنْ تَكْلِيفٍ تَقْلِيدٍ
مِنْهُ بِالْحَاضِرَةِ (٢).

ويقال عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِلُّونَ مَالَ الْغَنِيِّ فَدَسَّ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ، لَكِنْ إِذَا رَأَوْهَا
قَالُوا : هَذَا وَفِي رِحَالِنَا مِنْهُمْ بِتَقْلِيدٍ ، فَاتَّوَلَّوْا سُرَادُكُنَا هَاهُنَا . وَكَاتُوا بِرَجْعُونِ بِسَبَبِ
ذَلِكَ شَاعُوا أَمْ أَبَوَا .

(١) وكذلك فإن الحق خيرة على عبده المؤمن أن يساكن سواه .

(٢) وكذلك نسبة الحق تأتي في غناه ... وقل من يظن إليها .

قوله جل ذكره . ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا

مُنِّعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْنَا أَخَانَا

فَنَكُنَّ لَهُ حَافِظُونَ ﴿

لم يمنع يوسف منهم الكيل ، وكيف منع وقد قال : « ألا ترون أني أوفى الكيل » ؟

ولكنهم تجاوزوا في ذلك تغنياً للأمر حتى تسمح نفس يعقوب عليه السلام بإرسال

بنيامين معهم .

ويقال أرادوا بقولهم : « مُنِّعَ مِنَّا الْكَيْلُ » في المستقبل إذا لم تحمله إليه .

ويقال إنهم تَلَطَّفُوا في القول ليعقوب — عليه السلام — حيث قالوا : « أخانا » إظهاراً

لشفقتهم عليه ، ثم أكدوا ذلك بقولهم : « وَإِنَّا لَهُ حَافِظُونَ » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَ بكمُكُمْ

عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴿

مَنْ عَرَفَ اغْتِيَاةَ لَا يلاحظ الأمانة ، ولما لم تكن نفس يعقوب بضامهم لِمَا سَبَقَ

إليه من شأنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ ﴿

« اللَّهُ خَيْرُ حَافِظًا » : يحفظ بنيامين فلا يصيبه شيء مِنْ قِبَلِهِمْ .

ولم يقل يعقوب « اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ بَرِّدِهِ إِلَى » ، ولو قال ذلك لعله كان يوده إليه سريماً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ

بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبْغِي أَهْلَنَا

وَنَحْفِظُ أَخَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بِمِيرِ ذَلِكِ

كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿

بَيْنَ يَوْسُفَ — عليه السلام — أَنَّهُ جِنٌّ بِمَلُومٍ لَمْ يَحْتَجَّ إِلَىٰ عَوَضٍ يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ ،

فلما باعهم وجمع لهم الكيل ما أخذ منهم ثمتاً ، والإشارة من هنا إلى قوله تعالى : « إن أحسن أحسنكم لأنفسكم » .

وكل من خطا للذين خلوةً كافاه الله تعالى وجزاه ، فجمع له بين رَوْحِ الطاعة ولَذَّةِ العيش من حيث انغمسه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَنْ أُؤَدِّيَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ وَأَدِّيهِمْ إِلَى الْيَمِّ ﴾^(١) .
 مؤثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُصَاطِقَكُمْ فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ :
 اللَّهُ عَلَى مَا قَوْلٌ وَكِيلٌ ﴿

إنَّ الْخِذْلَرَّ لَا يُفْنَى مِنَ الْقَدَرِ . وقد حمل يعقوب — عليه السلام — معهم في باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط ، وأخذ الميثاق ولكن لم يَفْنَى عنه اجتهاده ، وحصل ما حكم به الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَكِيرًا ﴾^(٢) .
 لا إلهَ عليه توكلتُ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴿

يحصل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعلَّ واحداً منهم يقع بصره على يوسف ، فإن لم يره أحدهم قد براه الآخر^(٣) .

ويقال غلن يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنه ، ولم يعلم أنهم كارهون لمساكته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ فَمِنْهُمْ مَن ذَكَرَ اللَّهَ فَمَا كَانَ لَهُمْ جُزَاءٌ فَذَكَرَ اللَّهُ إِلَهُهُمْ فَوَلَّى الْوِثَالَ حَبِيبًا لَهُ لَنَزَلَ إِلَهُهُ الْمَلَكُ ﴾^(٤) .

(١) بحسب أنه ربما كان الأمر بتفريقهم مرده إلى أنه في الجملة يَحْتَثُّ المسئولية الفردية إذ تدب في السكبان الجماعي ، بينما يكبر الشعور بالمسئولية إذا كانوا أئمة ، وقد قالوا ليعقوب من قبل (لك أسخه القديب ونحن صبة .) .

مَا كَانَ يُثَقِّبُ عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَقُوبُ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
قَدْ وَعِلِمُهُ لِيَا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩٥﴾

إن لم يحصل مقصود يعقوب عليه السلام في المال حصل مراده في الحال ، وفي ذلك التندر
لأرباب القلوب استقلال .

ويقال على الأصغر حفظ إشارات الأكارب ، والقول فيها يأمر به هل فيه فائدة أم لا -
تَرْكُ للأدب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ، ويتنبي به حصول مراده ..
ثم لا يحصل مراده عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُشْفَقَ فِي الشَّبَاحِ أَنْ جَمِيعَ مَا يَرِيدُونَ يَتَّفِقُ كَوْنُهُ
على ما أرادوا ؛ لِأَنَّ الْإِلَهَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا يَرِيدُهُ وَاجِبًا وَمَا أَرَادَهُ فَهُوَ كَائِنٌ . . . هُوَ اللَّهُ
الواحدُ القهارُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ
أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبَشِّرْهُ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

حديثُ الحبةِ وأحكامها أقسم زاشتاق يعقوبُ إلى لقاء يوسفَ عليه السلام فبقيَ سنينَ
كثيرةً ، واشتاقَ يوسفُ إلى بنيامينَ فَرَزَقَ رؤيته في أَوْجَرِ مَنَةٍ .
وَهَكَذَا الْأَمْرُ ؛ فَفَهِمَ مَوْقُوفٌ بِهِ ، وَمِنْهُمْ صَاحِبُ بِلَادٍ .

ويقال لَئِنْ سَخِثْتُ^(١) عَيْنَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَلْقَةِ بَنِيَامِينَ فَلَقَدْ قَرَّتْ عَيْنُ يُوسُفَ
بِلِقَائِهِ . كَذَا الْأَمْرُ : لَا تَتَرَبُّبُ الشَّمْسُ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا وَتَطْلُعُ عَلَى آخَرِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَمَلَ السُّقَايَةَ
فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا
الْمَدِينُ لَإِنَّا لَنَكُونُ لَهَا قَوْمًا ﴾

(١) سَخِثَ الْعَيْنُ أَي لَمْ تَكُنْ

احتل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف .
 ويقال : ما سَبَّ إليه من سوء الفعل هان عليه في جنب ما وجد من الوصال .
 ويقال لأنَّ سَبَّ يوسف أخاه للسرقة قد تعرّف إليه بقوله : إني أنا أخوك — سرّاً ،
 فكان متّحلاً لأعباء اللامة في ظاهره ، محمولاً بوجودان الكرامة في سرّه ، وفي
 معناه أنشدوا :

أحدُ اللامةِ في هوالهِ قديمةٌ حيثُا لذكرهِ قَليلُنى ألوُمُ
 قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ نَصِفَ
 في الأرض وما كنّا سارقين ﴾

يعنى حُسْنُ سِرِّتِنَا في سِرِّ المعاملة يدلّكم على حسن سِرِّتِنَا في الحالة .
 ويقال لو كنّا لسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولنا وجدتموه في رحلتنا بعد أن
 غِبْنَا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا فَمَا جزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ ﴾ ؟
 تَجَاسَرَ إخوةُ يوسف بِمِيزَانِ جزاءِ السَّرقةِ عليهم ثَمّةٌ بأفهمهم أنهم لم يبايَهِسُوا الزُّلّةُ ،
 وكان بنيامينُ شريكهم في براءة السّاحة ، فلما استُخْرِجَ الصّاعُ مِنْ وعائه بَطَلَ الإخوةُ فيه
 لسانُ اللامةِ ، وبقى بنيامينُ (١) فلم يكن له جوابٌ كأنه أقرّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً
 إذ أنه لم يسرق ، ولو قال : لم أفعلْ لأَفْشَى سِرُّ يوسف عليه السلام الذي احتال بهم ذلك
 لأجله حتى يُبَيِّنَ به ، فَسَكَتَ لسانُ بنيامين ، وتحقّق بالجلالِ قَلْبُهُ .

ويقال لم يستصعب اللامة — وإن كان بريئاً — مما قُرِنَ به ، ولا يضرُّ سوءُ اللقاءِ
 بالكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب .

ويقال يىء ، بما أَظْهَرَتْ عليه القاعة ، ولكن حصلَ له بذلك صفاء الحالة .
 قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ

(١) يصلح بنيامين — كما يسوره للتشبيهِ — نموذجاً لواحد من أهل اللامة ، لو دققنا النظر
 في إشارات التشبيهِ بصدده .

مِنْ قَبْلِ قَاسِرَها يَوْسُفُ وَنَفْسُهُ
وَلَمْ يُبَدِّها لَهُمْ قَالِ أَنْتُمْ شَرُّ مِمَّا كُنَّا ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝

كان بيليمن بريثا ما رمى به من السرقة ، فأعطاهم الله تعالى حتى رموا يوسف عليه السلام بالسرقة ، واحد واحد ليظن المعلنون أن الجزاء واجب .
ويقال كان اللغو بالفتح أوجع ما يحتمه يوسف منهم ^(١) ؛ حيث قالوا :
« إِنْ يَسْرِقْ قَدْ سَرَقَ » أَخْ لَه مِنْ قَبْلُ ، قد كان ذلك أشد تأثيراً في قلبه من
اللعن الأول .

وقال إذا حققت عليك المالك فلا تأمن فيه - وإن طالت المدة - فإن يوسف عليه السلام حقق عليهم فلقوا في السناجف منه ما ساءهم من حبس أخيه ، وما صاحبهم من الخجل من أيمهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا بَنِي الْعَرَبِ إِنَّا لَهُ أَبَا شَيْمًا
كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مِمَّا لَنَا - إِنَّا
نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

لم تنضمهم كثرة التمسُّك، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاء التوسُّل، ولم ينضمهم ما قيل منهم حين عزَّزُوا عليه أن يأخذَ أحدَهم في البَيْعَلِ... كنتك فكلُّ مُطالِبٍ بصل نفسه : لا تَزِدْ وأزِدْ وِرْدَ أخرى ، فلا الأب يُؤَخِّدُ بَدَلُ الوَدِّ ، ولا التَّزَيُّبُ يَرْضَى به حَوْصًا من أحدٍ ، لَكَ تَالِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿قَالَ مِمَّا أَذَاهُ أَنْ تُأْخِذُوا إِلَّا مِمَّنْ
وَجَدْنَا مُنَافِقِينَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ إِذَا
لُفَّالْمُونُ﴾ .

تَوَهَّمُوا أَنْ الْحَدِيثَ مِنْهُمْ مِنْ حَيْثُ مَعَامَلَةِ الْأَمْوَالِ ، فَخَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ كَيْ يُؤْخَذَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِدَلِّ أَحَدِهِمْ ، وَلَمْ يَلْمُوا أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَّابٌ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّ مَقْصُودَهُ مِنْ

(١) الفُروع = الجرح ، والتدح = العيب في مذهب فريك .

ذلك ما استكن في قلبه من حب لأخيه ، وكلاً .. أن يكون من المحبوب بئس أو لقوم مقام أحد .. وفي معناه أشدوا :

إذا أوصلتنا الله كما تدبنا أبينا وقلنا : أنت أولى إلى القلب
وقيل :

أحب لي وبغضت لي ما لهن ذنوب

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا اسْتِياسَا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾
قال كبيرهم ألم تعلموا أن أبكم
قد أخذ عليكم ميثاقاً من الله
ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن
أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي
أو يحكم الله لي وهو خير
الحاكمين .

لما علموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضهم ببعض فعملت فيهم
الفتنة ، وعلموا أن يعقوب في هذه الكثرة يتجدد له مثلاً أسلفوه من تلك الفتنة ، فلم يرجع ،
أكبرهم إلى أبيهم ، وتناهى إلى يعقوب خبرهم ، فاتهمهم وما صدقهم ، واستخونهم وما استوثقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن
ابنك سرق وما شهدنا إلا بما عملنا
وما كنا لننبيير حافظين ﴾

كان لهم في هذه الكثرة حجة على ما قالوه ، ولكن لم يسكن قلب يعقوب عليه السلام
إليها ، فإن تعين الجرم في المرة الأولى أوجب للثمة في الكثرة الأخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ واسأل الترية التي كننا فيها والمير
التي أقبلنا فيها وإننا لصادقون ﴾

ما ازدادوا إمامة حجة إلا ازداد يعقوب — عليه السلام — في قولهم شبهة .

وقال : في سعادة الأطلال أخذ قلوب الأحباب ، وسنة لأسرارهم .. وهنا الباب
ما لشرح فيه مجال .

قوله جل ذكره ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّيْتُ لَكُم أَنْفُسَكُمْ أُمَّرَأً
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ هِيَ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي
بِهِمْ جَمِيعًا ﴾

جاء إلى قرب خلاصه من الشر بالصبر .
ويقال لما وعد من نفسه للصبر فلم يمس حتى قال : « يا أسفا على يوسف » ليتم أن عزم
الأحباب على الصبر متقوض غير محفوظ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسِفَ
وَابْتِصَتْ هَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
مُخْطَلِمٌ ﴾

تولى من الجميع — وإن كانوا أولاده — ليتم أن المحبة لا تبقى ولا تدر .
ويقال أراد إخوة يوسف أن يكون إقبال يقوب عليهم الكلية فأعرض ، وتولى عنهم .
وفاهم ما كان لهم ، ولهذا قيل : مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ .
ويقال لم يجد يقوب مساعداً لنفسه على تأسفه على يوسف فتولى من الجميع ، وانفرد
بإظهار أسفه ، وفي مناه أئندوا :

فريد من الخللان في كل بلدة إذا عظمت للطلوب قل المساعد
ويقال كان بكاه داود عليه السلام أكثر من بكاه يقوب عليه السلام ، فلم يذهب بعصر
داود وذهب بعصر يقوب ؛ لأن يقوب عليه السلام بكى لأجل يوسف ولم يكن في قدرته

(١) يوضح القشيري هذا المعنى في رسالته حيث يقول : [وأعلم أن الصبر على شربين : صبر المابدين
وصبر المحبين ، فصر المابدين أحسنه أن يكون غفولاً وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً ، وفي هذا
المعنى سمى الأستاذ أبا على الخليل يقول : أصبح يقوب وقد وعد من نفسه — فصر جميل — ثم لم يمس
حتى قال . يا أسفا على يوسف] الرسالة ص ٩٥ .

يوسف أن يحفظ بصره من البكاء لأجله ، وأما داود فقد كان يبكي لله ، وفي قصته الله — سبحانه — ما يحفظ بصره للبكاء لأجله .

سمعت الأستاذ أبا علي الباق — رحمه الله — يقول ذلك ، وقال رحمه الله : إن يعقوب بكي لأجل مخلوق فذهب بصره ، وداود بكي لأجل الله فبقي بصره .

وسمعت — رحمه الله — يقول : لم يقل الله : « عَمِيَ يَعْقُوب » ولكن قال : « وَايَسُّتْ عَيْنَاه » ، لأنه لم يكن في الحقيقة عَمِيَ ، وإنما كان حجاباً عن رؤية غيره يوسف (١) .

ويقال كان ذهب بصر يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غيره يوسف ، لأنه لا شيء أشد على الأحباب من رؤية غير المحبوب في حال فراقه ، وفي معناه أنشدوا :

لَا تَيْقِنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرُكُمْ أَنْخَفْتُ حَيْثُ ظَلَمْتُ إِلَى أَحَدٍ

وسمعت الأستاذ أبا علي الباق رحمه الله يقول : كان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف ، فلما بقي عن رؤيته قال : « يَا أَسْنَا عَلَى يَوْسُفَ » أي أنه لما شئع من النظر كان يتسلى بالآخر ، فلما بقي عن النظر قال : يَا أَسْنَا عَلَى يَوْسُفَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى

تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

الْمَالِكِينَ ﴾

ممدود بأن يصير حرضاً — أي مريضاً مشغولاً على الملاك — وقد كان ، وخوفوه مما لم يبال أن يصيبه حيث ظنوا « أَوْ تَكُونَ مِنَ الْمَالِكِينَ » .

ويقال أطيب الأشياء في الملاك ما كان في حكم الهوى — فكيف يخوف بالملاك من كان أحب الأشياء إليه الملاك ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْمَالِكِينَ ﴾

إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾

شكا إلى الله ولم يتكلم من الله ، ومن شكا إلى الله وصل ، ومن شكا من الله انفصل .

(١) هذا نموذج من التثوق بنفس القرآن لا يظن إليه إلا أرباب الدوق المولى .

ويقال لك شكاً إلى الله وَجَدَ أَخْلَفَ من الله .

ويقال كان يعقوب عليه السلام — مُتَحَمِّلًا بنفسه وقلبه ، وسريعاً محملاً بغيره وروحه ، لأنه علم من الله — سبحانه — صدق حاله فقال : « وأعلم من الله ما تعلمون » ، وفي معناه أفسدوا :

إذا ماتني الناسُ روحاً وراحاً نَمَيْتُ أَنْ أَشْكُرَ إِلَيْكَ فَتَسْمَا

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسُّوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

كان يعقوب عليه السلام يمت بنيه في طلب يوسف ، وكان الإخوة يخرجون بطلب للسيرة وفي اعتقادهم هلاك يوسف .. وكل إنسان وعده .

ويقال قوله « فتحسسوا من يوسف وأخيه » أمر بطلب يوسف بجميع حواسهم ؛ بِالْبَصَرِ لعلهم تقع عليه أعينهم ، وبالسَّمْعِ لعلهم يسمعون ذكره ، وبالنَّمِ لعلهم يجدون ريحته ؛ وقد تورم يعقوب أنهم منه في إرادة الوقوف على شأنه . ثم أحلهم على فضل الله حيث قال : « لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ويقال لم يكن ليعقوب أحد من الأولاد يمكن يوسف ، فظهر من قلقه العسير عليه ما ظهر ، وآثر غيبة الباقيين من الأولاد في طلب يوسف على حضورهم عنده .. فشتان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف ؛ واحد لم يره فابيضت عيناه من الحزن بفرقه ، وآخرون أمرهم — بلخيلاء — يفتيتهم عنه ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَانَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ

(١) هنا لغة ذكية إلى أننا قد نحب إننا في حب من لا نراه أهملنا .. فإذا صح هذا بالسبب لفرق حدثنا فكيف بالسبب لبارتنا وأهملنا ؟
ثم إنه التعريب والإيحاد يرتبطان بالاجتهاد الإلهي وحده .

مَرْجَاةٍ فَأَوْفُوا لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ بِحِزِّ الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٢٠٢﴾

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضرر، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وجههم أبوم .

ويقال استلطفوه بقولهم: «مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ» ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم .
ويقال لَمَّا طَالَمُوا قَرَمَ نَظْفُوا بِقَدْرِهِمْ فَقَالُوا: وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مَزْجَلَةٍ — أَيْ رَدِيئَةٍ —
وَلَمَّا شَاهَدُوا قَدَّرَ يُوسُفُ سَأَلُوا عَلَى قَدَرِهِ فَقَالُوا: أَوْفِرْ لَنَا الْكَيْلَ .

ويقال قَالُوا كَلْنَا كَيْلًا يَلِيقُ بِفَضْلِكَ لَا يَقْرُنَا ، وَبِكْرَمِكَ لَا يَمِيدُنَا ، ثُمَّ تَرَكُوا هَذَا
الْحَسَنَ وَقَالُوا: « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » : نَزَّلُوا أَوْضَعَ تَمَثَّلِي ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ لَمْ لَسْتُ جُوبَ .
مسألة البيع والشراء فقد استحققتنا بِذَلِكَ الْمَطْلُوبِ ، عَلَى وَجْهِ الْمَكَافَاةِ وَالْجَزَاءِ .

فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ قَالُوا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا وَكَانُوا أَنْبِيَاءَ — وَالْأَنْبِيَاءَ لَا نَعْمَلُ لَهُمُ الصَّدَقَةُ ؟
فيقال لم يكونوا بعد أنبياء ، أو لعله في شرعهم كانت الصدقة غير مُحَرَّمَةٍ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ .
ويقال إِنَّمَا أَرَادُوا أَنْ مِنْ وَرَائِنَا مَنْ يَحْمِلُ لَهُ الصَّدَقَةَ .

قوله جل ذكره: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَٰيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

انفضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: « فَأَوْفُوا لَنَا الْكَيْلَ » ففهم فعملهم
ووقفهم عند أحدم فقال: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ ؟ يَعْنِي إِنْ مَنْ عَامِلَ يُوسُفَ
وَأَخًا، بِمَثَلِ مَعَامَلَتِكَ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَسَّرَ فِي الْخُطَابِ كَتَجَسَّرَ .

ويقال إِنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ كَلَامُكُمْ ، وَأَكْثَرُكُمْ خُطَابُكُمْ ، فَكَانَ
فِي حَدِيثِكُمْ إِلَّا ذَكَرَ ضَرُورَتَكُمْ . . أَفَلَا يَحْطَرُّ بِبَالِكُمْ حَدِيثَ أَخِيكُمْ يُوسُفَ ؟ وَذَلِكَ
فِي بَابِ الْمَتَابِ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَقُوبَةٍ

ولما أخرجهم حديث الثواب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسط عندهم فقال : « إذ أنتم جالطون » (١).

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَأَتَاكَ لَأْتِ يَوْسُفَ قَالَ : أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب : « يَا أَيُّهَا الْمَزِيدُ » فلما عرفوه قالوا : « إِنَّكَ لَأَتِ يَوْسُفَ » ؛ لأنه لما ارتفعت الأجنبية سقط التكلف في المخاطبة ، وفي معناه ألتشدوا :

إِذَا صَفَتْ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَوْمٍ وَدَادُمْ قَبِيحَ التَّنَاهِ

ويقال إنَّ التفاسلَ والتناوُلَ بين يوسف وإخوته سببًا للتواصل بينه وبين يعقوب عليها السلام ؛ فالإخوة خَبَرَهُ عرفوه قبل أن عَرَفَهُ أبوه ليمْلَأَ أن الحديث بلا شك .

ويقال لم يتقدموا على أبيهم في استحقاق الخبر عن يوسف وممرته ، بل إنهم - وإن عرفوه - فلم يلاحظوه بين المحبة والمصلحة ، إنما كان غرضهم حديث الميرة والطعام فقط ، فقال : « أنا يوسف وهذا أخى » : يسى إلى لأخٍ ليُشَلِّ هذا لأتسلِّم ؛ ولذا قال : « أنا يوسف وهذا أخى » ، ولم يقل وأنتم إخوتي ، كأنه أشار إلى طرفٍ من الثواب ، يسى ليس ما عاملتموني به ففعل الإخوة .

ويقال هوَّنَ عليهم حالَ بَدَاةِ (٢) العليقة حيث قال « أنا يوسف » بقوله : « وهذا أخى » ، وكأنه شَدَّ لهم بقوله : « وهذا أخى » كما قيل في قوله تعالى : « وما تلكَ بيمينك يا موسى » إنه سبحانه شَدَّ موسى عليه السلام بإسراع : « وما تلكَ بيمينك يا موسى » بمطالبة المصاحبة حين ما كوثف به من قوله : « إني أنا الله » .

(١) واضح أن التشديد يطبق فكرة التيسر والبسط في هذه الإشارة .

(٢) بَدَاةُ المحبة = مناجاتها

ثم اعترف بوجودان الجزء على الصبر في مقاساة الجهد والمناة فقال : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وسمعت الأستاذ أبا على الطالق - رحمه الله - يقول لما قال يوسف : « إنه من يتق ويصبر » أسأل في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر . . . فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا : « تالله لقد آتاك الله علينا » يعني ليس يصبرك يا يوسف ولا بتقواك ، وإنما هو بإيثار الله إياك علينا ؛ فيه قدمت علينا بمحمدك وتقواك . فقال يوسف - على جهة الاتقياء للحق : « لا تريب عليكم اليوم » ؛ فأسقط عنهم اليوم ، لأنه لما لم يرتقوا من نفسه حيث نبهوه عليه فطلق عن التوحيد ، وأخبر عن شهود التقدير ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تالله لقد آتاك الله علينا

وإن كنا لخاطئين ﴾

اعترفوا بالفضل ليوسف - عليه السلام - حيث قالوا : لقد آتاك الله علينا ، وأكّدوا إقرارهم بالتسليم بقولهم « تالله » وذلك بعد ما وجدوا قصته يقولم : « ليوسف وأخوه أحب إلى أينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين » ، وهكذا من سجدة فلأنه ما شهد ، ومن شهد فما جحد .

ويقال لما اعترفوا بفضله وأقرّوا بما اتصفوا به من جرّهم يقولم : « وإن كنا لخاطئين » وجدوا التجاوز عنهم حين قال يوسف :

﴿ قال لا تريب عليكم اليوم يغفر

الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾

أسرع يوسف في التجاوز عنهم ، ووعد يغفّر لهم بالاستغفار بقوله : « سوف استغفر لكم ربى » لأنه كان أشدّ حباً لهم فتابهم ، وأما يوسف فلم يرمهم أهلاً للتاب فتجاوز عنهم على الوهلة ، وفي مناه أنشدوا :

ترك التائب إذا استحق أخ منك التائب فريضة المجر

(١) خلاصة رأى الطالق أنه ليس بسل الإنسان يصل ولكن بفضل الله واختياره ، وحق عمل الإنسان فهو أيضاً يتم بفضل الله واختياره . . . وذلك أصل من أصول المذهب النشيري كما وضع في مواضع متفرقة .

ويقال أصابهم — في الخال — من الخبطة ما ظلم مقام كل عقوبة ، ولعلنا نقول :
كفى المقصّر الحياه يوم القاء .

قوله جل ذكره : ﴿ اذهبوا بقيصى هذا فآلقوه على
وجه أبى يأت بصيراً وأتوئى
بأهلكم أجمعين ﴾

البلاء إذا هجم هجم مرة ، وإذا زال زال بالتدرج ؛ حلّ البلاء بيقوب مرة واحدة
حيث قالوا : « فأكله الدب » ولما زال البلاء .. فأولاً وجدّ وع يوسف عليه السلام ، ثم قيص
يوسف ، ثم يوم الوصول بين يدى يوسف ، ثم رؤية يوسف .
ويقال لما كن سبب البلاء والمعنى قيص يوسف أراد الله أن يكون به سبب اخلاص
من البلاء (١) .

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام — لما يلحقه من قرط السرور — لا يطيقه عند أخذ
القيص فقال : « فآلقوه على وجه أبى » .
ويقال القيص لا يصلح إلا قبلس إلا قيص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان
ريح الأحباب .

ويقال كان المعنى في العين فأمر بإلقاء القيص على الوجه ليجد الشفاء من المعنى .
ويقال لما كان البكاء بالعين التى فى الوجه كان الشفاء فى الإلقاء على العين التى فى الوجه ،
وفى معناه أفشوا :

وما بات مطوياً على أريحية عقيب النوى إلا فنى ظلّ منراً
وقوله « وأتوئى بأهلكم أجمعين » : لما علم حزن جميع الأهل عليه أراد أن يشترك فى
الفرح جميع من أصابهم الحزن .

(١) ويضاف إلى ذلك أن عدم تنوّق قيص يوسف كان دلالة على براءة القلب ، وأن نومه مع دوبركان
دلالة على براءة يوسف من تهة ؛ ليخا . وهذا . وذلك يمكن أن يكون قيص يوسف رموا لموجبات
كبيرة فى القصة .

وَيَقَالُ هَلُمُّ يَوْسُفُ أَنْ يَمُوتَ لَنْ يَطْلُقَ عَلَى الْقِيَامِ بِكَفَايَةِ أُمُورِ يَوْسُفَ فَاتَحَضَّرَهُ ،
إِيَّاهُ عَلَى حَالِهِ لَا إِخْلَافًا لِقَدَرِهِ وَمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ إِجْلَالِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوؤُمَ إِنِّي لَأَجِدُ رَوْحَ يُوسُفَ﴾ .

ما دام البلاء مُقْبِلًا كان أمرُ يوسفَ وحديثه — على يعقوب — مُشْكَلاً، فلما زالت
الهمّةُ بعثت بكل وجه حاله .

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين أقوه في الحب ولكن اشتبه عليه خبره وحاله ، فلما زال البلاء وَجَدَ رَجُلَهُ وَبَيْنَهُمَا مَسَافَةٌ ثَمَانِينَ فَرَسًا — من مصر إلى كنعان .

وقال إنما افرد يعقوب عليه السلام بوجودان ربح يوسف لا فزدها بالأسف عند فقدان يوسف . وإنما يجد ربح يوسف مَنْ وَجَدَ عَلَى فِرَاقِ يَوْسُفَ (١) . فلا يعرف ربح الأحباب إلا الأحباب ، وأما على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِلٌ . إذ أنى يكون للإنسان ربح ٩١ .

ويقال لفظ الربح هاهنا توسع (٢) ، فيقال هَبْتُ رِبَاحِي فلان ، ويقال إني لأُحِبُّ رِبْحَ الفتنَةِ . وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْلَا أَنْ تُفْنَدُونَ﴾

تَفَرَّسَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَسْطُون لِسَانَ الْمَلَامَةِ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِمْ قَوْلُهُ ، فَوَاحِدُوا فِي الْمَلَامَةِ فَقَالُوا : —

﴿ فَكَلِمَاتٌ نَّالُوهُنَّكَ كَفَى ضَلَالًا الْقَدِيمَ ﴾

قَرَنُوا كَلَامَهُم بِالثَّمِّ ، وَلَمْ يَحْتَشِرُوا آبَاءَهُمْ ، وَلَمْ يُرَاحُوا حَقَّهُ فِي الْمَخَاطِبَةِ ، فَوَضَعُوا بِالضَّلَالِ فِي الْحَقِّ .

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرف من الربح نسيم يوسف عليه السلام ، وخبر يوسف كثير حتى جاءه الإذن للرياح ، وهذه سنة الأحباب : مساعة الفيلر ومخالبة الأطلال ، وفي معناه أنشؤا :

(١) لاحظ الجبال في أسلوب القصيدة في (يحمد) و(يوسف) و(وجد) على فرائده.

(٢) كلمة (نوسم) يستخدمها القشيري بمعنى (بحار) — ذلك الاصطلاح اللامع المعروف .

وَإِنِّي لَأَسْتَعِذُّ بِالرَّيحِ لَيْسَ بِكُمْ إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ نَعُوكُمْ يَهْبُوبُ
وَإِسْلَامًا حَلَّتْ السَّلَامُ إِلَيْكُمْ فَإِنْ هِيَ يَوْمًا بَلَّتْ فَأَجِيبُوا

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرُ أَتَاهُ عَلَى وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصِرَاطٍ قَالَتْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لو أني قبض يوسف على وجه من في الأرض من الميمان لم يرتد بصرم ، وإنما رجع
بصر يعقوب بقبض يوسف على الغصوص ، فإن بصر يعقوب ذهب لئراق يوسف ، ولما
جاءوا بقبضه أنطق لسانه ، وأوضح برهانه ، فقال لم : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف ، وفي مناه أنشدوا :

وَنَجَّكَ الْمَأْمُولُ حَبَّتَنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحُجَّجِ

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
إِنَّا كُنَّا خَالِكِينَ ﴾

كل إنسان وهمه ، وقع يعقوب ويوسف عليها السلام في السرور والاستبشار ، وأخذ
إخوة يوسف في الاعتذار وطلب الاستغفار .

ويقال إخوة يوسف — وإن سكت منهم الجفوة كلوا أيام بلسان الانبساط لتدبم
شفقة الأبوة على ماسبق منهم من الخطيئة .

ويقال يوم يوم ، اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بنسبة يوسف فلا جرم اليوم كان
يعقوب مسروراً بقبض يوسف ، وكان الإخوة في الخطبة عما عملوا بيوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

وعدهم الاستغفار لأنه لم يفرغ من استبشاره إلى الاستغفار .
ويقال لم ينجهم على الزهلة ليدلهم على ما قدّموا من سوء الفعل ؛ لأن يوسف كان غائباً

وقتئذٍ ، فوعدهم الاستمرار في المساقفة - إذا رضى عنهم يوسف حيث كان الحق أكثره له ، ولو كان كله ليعقوب لوهمهم على الفور .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ لِنَعْلَمَ رَأْيَ اللَّهِ أَمْ لَا ﴾
الله آمين ﴿

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء ، فانفرد الأبوان به ليُحميها عن الجفاء ، كذلك غداً إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان ، ولكنهم يباينون في بساط القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف لليوم بالاستواء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجُودًا وَقَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُؤُولَ خَلَّ الْأَبْوَانُ فِي السُّجُودِ - لَأَنَّهُ قَوْلُهُ « خَرُّوا » إخبارٌ عن الجميع ، ولأنه كان عن رؤيته قد قال : إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » وقال هاهنا : « هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُهَا رُبِّي حَقًّا » ﴿

أوقف كلاً بحله ، فرفع أبويه على السرير ، وتركه الإخوة نازلين بأما كنهم . قوله : « وَخَرُّوا لَهُ سُجُودًا » : كان ذلك سجوداً بحية ، فكذلك كانت هافتهم . ودخل الأبوان في السجود - في حق الظاهر - لأن قوله « خَرُّوا » إخبارٌ عن الجميع ، ولأنه كان عن رؤيته قد قال : إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » وقال هاهنا : « هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُهَا رُبِّي حَقًّا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكَ مِنَ الْبُؤْسِ مِنْ بَدْنِي أَنْ يَزْغِيَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

شهد إحسانه فَشَكَرَهُ . . كُنْتُكَ مَنْ شَهِدَ النِّعْمَةَ شَكَرَ ، وَمَنْ شَهِدَ النُّعْمَ حَمَدَ ^(١)
وَذَكَرَ حَدِيثَ السَّجَن — دُونَ الْبُتْرِ — لَطُولُ مَدَّةِ السَّجَنِ وَقَلَّةُ مَدَّةِ الْبُتْرِ .

وقيل لأن فيه تذكرةً بِمَرْئِمِ الْإِخْوَةِ وَكَاتُوا بِضُجُنٍ . وقيل لأن « السَّجَنَ أَحَبُّ إِلَى مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ » . وقيل لأنه كَانَ فِي الْبُتْرِ مَرْفُوقًا بِهِ وَالْمُبْتَدَى يُرْفَقُ بِهِ وَفِي السَّجَنِ فَقَدْ ذَلِكَ الرُّفْقَ لِقَوَّةِ حَالِهِ ؛ فَالضَّعِيفُ مَرْفُوقٌ بِهِ وَالْقَوِيُّ مُشَدَّدٌ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ ، وَفِي مَنَاءِ الْأَشْدَا :

وَأَسْرَدَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَبْتَنِي بِقَوْلِي يَحِلُّ النُّصَمُ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ
تَجَانَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا لِي حِيلَةٌ وَظَلَدْتَ مَا غَلَدْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
وفِي قَوْلِهِ : « وَجَاهُ بَكٍّ مِنَ الْبَدْوِ » إِمَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ كَمَا سُرُّ بِرُؤْيَا أَبَوَيْهِ سُرُّ بِإِخْوَتِهِ — وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ الْجَفَاءِ ، لِأَنَّ الْأُخُوَّةَ سَبَقَتْ الْجَفْوَةَ ^(٢) .

قَوْلُهُ : « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أَظْهَرَ لَمْ أَمْرِهِمْ بِمَا بَشَّهَ الْعَدُوَّ ، فَقَالَ كَانَ الَّذِي جَرَى مِنْهُمْ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ بِهَذَا حَتَّى قَالَ : « بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، يَعْنِي إِنْ وَجَدَ الشَّيْطَانُ سَبِيلًا إِلَيْهِمْ ، فَقَدْ وَجَدَ أَيْضًا إِلَيَّ حَيْثُ قَالَ : « بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » .
ثُمَّ نَطَقَ عَنْ عَيْنِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ : « إِنْ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » فَبَلَغَ عَصَمَهُمْ حَتَّى لَمْ يَتَقَلَّبُوا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ رَبُّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمَنِي مِمَّنْ تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ ﴾

مِنْ حَرْفِ تَبْعِيضٍ ؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ — بِالْكَسْرِ — اللَّهُ وَحْدَهُ .

وَيَقَالُ الْمُلْكُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ قِسْيَانٌ : مُلْكُهُ فِي الظَّاهِرِ مِنْ حَيْثُ الْوِلَايَةِ ، وَهُلْكُهُ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى لَمْ يَعْمَلْ مَا هُمْ بِهِ مِنَ الْوَلَةِ .

(١) أَيْ إِنْ (الْحَمْدُ) أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ (الشُّكْرِ) . . وَهَكَذَا تَرَى الْبَحْثَ الصَّوْفِيَّ الْفَنَ .
(٢) رُبَّمَا يَرَى الْقَتْعِيَّ مِنْ بَيْدٍ إِلَى أَنْ يَشِيرَ إِلَى أَنْ الْحَقَّ — سَبَّحَانَهُ — يَتَفَضَّلُ بِكَرَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ — حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ مِنْهُمْ جَلْوَةٌ — لِأَنَّهُمْ عِبَادُهُ أَوَّلًا . . وَلَئِنْ هَذَا يَشِيرُ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ .
« عَيْدِي . . إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي . فَأَنَا لَكَ »

ويقال ليس كلُّ مُكَلِّفٍ المخلوقين الاستيلاء على المخلوق ، إنما المُكَلِّفُ — على الحقيقة — صفاء المخلوق .

قوله : « وعلمنى من تأويل الأحاديث » : التأويل للخواص ، وتفسير التنزيل للعوام ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَيُّ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ

وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

« فاطر السموات والأرض » — هذا ثناء ، وقوله : « توفَّنِي » — هذا دعاء .

فَقَدَّمَ الثَّناء على الدعاء ، كنهك صفة أهل الولاء .

ثم قال : « أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، هذا إقرارٌ يَقْطَعُ الأمرار عن الأفتبار .

ويقال معناه : الذى يتولَّى فى الدنيا والآخرة برعايته أَنْتَ ؛ فليس لى غيرك فى الدارين .

قوله : « توفى مسلماً » : قيل علمَ أَنَّهُ ليس بعد السكال إلا الزوال فسأل الوفاة .

وقيل من أمارات الاشتياق تحي الموت على بساط السواقى ^(٢) مثل يوسف عليه السلام أُلْقِيَ

فى الحب فلم يقل توفى مسلماً ، وأقيم فيمن يزيد ^(٣) فلم يقل توفى مسلماً ، وحُوسِ فى السجن

سنتين فلم يقل توفى مسلماً ، ثم لما تمَّ له المُكَلِّفُ ، واستقام الأمر ، ولقيَ الإخوة سَجْلاً ، وأُلْقِيَ

أبويه معه على العرش قال :

« توفى مسلماً » ، فَعَلِمَ أَنَّهُ كان يشناق لقاءه (سبحانه) .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله يقول . قال يوسف ليعقوب : عَلِمْتُ أَنَّ

نلتقى فيما بعد الموت . . فلم يكفَّ كلَّ هذا البكاء ؟

(١) تصلح هذه البارة لتوضيح الفرق — فى نظر التفسيرى — بين كلِّى التأويل والتفسير .

(٢) هذه البارة والاستعداد عليها من همه يوسف أوردما التفسيرى مفسرين لفيحه الدقاق فى الرسالة ص ١٦٣ .

(٣) (أقيم فيمن يزيد) لم ترد فى النسخ السابق بالرسالة . ومضاهها : نودى عليه لياع كالعيد بعد إخراجهم من البئر .

قَالَ يَعْقُوبُ ، يَا بُنَيَّ إِنَّ هَٰذَا لَطَرٌ مُّطَوَّنٌ ، خِفْتُ أَنْ أَسْلِكَ طَرِيقًا وَأَنْتَ تَسْلِكُ طَرِيقًا ،
قَالَ يَوْسُفُ هَٰذَا ذَكَرٌ : « تَوَفَّنِي مُسْلِمًا » .

وَيُقَالُ إِنَّ يَوْسُفَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لَمَّا قَالَ : تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ، فَلَا يَمُودُ مِنْ حَالِ يَعْقُوبَ
أَنْ لَوْ قَالَ : يَا بُنَيَّ دَعْنِي أَشْتَرِي بِلَقَاتِكَ مِنَ الْغَنَى مُنِيتُ بِهِ فِي طَوْلِ لِقَاتِكَ ، فَلَا تُسَيِّحُنِي
— بِهَذِهِ السَّرْعَةِ — قَوْلَكَ : تَوَفَّنِي مُسْلِمًا .

قوله جل ذكره . ﴿ ذَكَرَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَيْنِيبِ نُوحِیَ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَهُمْ إِذْ أَجْعَلُوا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَنْكُرُونَ ﴾ .

تَبَيَّنَ لَلْكَافَّةِ أَنْ مِثْلَ هَٰذَا الْبَيَانِ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ أَيْ لَا يَكُونُ
إِلَّا بِتَعْرِيفِ سَهْلَوِيٍّ

وَيُقَالُ كَوْنُ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَمِيًّا فِي أَوَّلِ أَحْوَالِهِ عَلَامَةٌ شَرَفِهِ وَعُلُوِّ
قَدْرِهِ فِي آخِرِ أَحْوَالِهِ ، لِأَنَّ صِدْقَهُ فِي أَنْ هَٰذَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ إِنَّمَا عُرِفَ بِكَوْنِهِ أَمِيًّا ، ثُمَّ أُنِىَ
بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ مَدَارَسَةِ كِتَابٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أَخْبَرَ عَنْ سَابِقِ عِلْمِهِ بِهِمْ ، وَصَادَقَ حُكْمَهُ حُكْمُهُ فِيهِمْ .

وَيُقَالُ مِنْهُ : أَقْبَلْتُكَ شَاحِدًا لِإِرَادَةِ إِيْعَانِهِمْ ، وَشِدَّةِ الْخُرُوصِ عَلَى الْمُصْقِفِيهِمُ بِالَّذِينَ ،
وَلِيْعَانَتِهِمْ . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَكْثَرُكُمْ ، وَأَخْبَرْتُكَ بِذَلِكَ ، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ تَصْدِيقَ
بِذَلِكَ ، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ إِِرَادَتِي كَوْنُ مَا قَالَتْ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ إِيْعَانِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِقَائِهِ ﴾ .

هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ — سَبَّحَانَهُ — مَعَ أَنْبِيَائِهِ حَيْثُ أَمَرْتَهُمْ بِالْأَيْخَانَةِ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ

مَوْضَا وَلَا أُجْرًا ، وَكَفَنَكَ أَمْرَهُ الْعُلَمَاءُ — الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْإِنْيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — بَلَا
يَأْخُذُوا مِنْ الْخَلْقِ مَوْضَا عَلَى صَنَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ حَظًّا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَبَارِكْهُ لِلْمُسْتَعِ فِيهَا
يَسْمَعُ مِنْهُ ؛ فَلَا لَهُ أَيْضًا بَرَكَةٌ فِيهَا يَأْخُذُ مِنْهُمْ فَتَقْطَعُ بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴾ .

الآيَةُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْبَرَاهِينُ بَاهِرَةٌ ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنَ الْخَلْقِ شَاحِدٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ ،
وَلَكِنْ كَمَا أَنَّ مَنْ أَغْصَى عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَمِعْ بِضَوْءِ نَهَارِهِ فَكَفَنَكَ مَنْ قَصَرَ فِي نَظَرِهِ وَاعْتَبَارِهِ
لَمْ يَحْظَ بِمِرْقَاتِهِ وَاسْتَبْصَارِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُسْرِكُونَ ﴾ .

الشَّرِكُ الْإِنْسَانُ الَّذِي أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِهِ — سَبْحَةً — مَعْبُودًا ، وَالشَّرِكُ الْخَلْقُ الَّذِي أَنْ يَتَّخِذَ
بِقَلْبِهِ عِنْدَ حَوَائِجِهِ مِنْ دُونِهِ — سَبْحَةً — مَقْصُودًا .

وَيُقَالُ لِلشَّرِكِ الْعَارِفِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ مَشْهُودًا ، أَوْ يَطَالُوا سِوَاهُ مَوْجُودًا^(١) .

وَيُقَالُ مِنَ الشَّرِكِ الْخَلْقِ الْإِحَاةُ عَلَى الْأَشْكَالِ فِي تَجَنُّبِ الْأَحْوَالِ ، وَالْإِحْلَادُ إِلَى
الْإِخْتِيَارِ وَالْإِحْتِيَالِ^(٢) هُنَا تَزَامُ الْأَشْفَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ
اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴾

أَفَأَمِنَ الْإِنْسَانُ إِذَا غَشِيَ بَطُولُ الْإِيمَالِ أَلَّا يُبْتَلَى بِالِاسْتِصْغَالِ ، أَفَأَمِنَ مَنْ اغْتَرَّ بِطُولِ
السَّلَامَةِ أَلَّا يَقُومَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) أَيْ (مَوْجُودًا) عَلَى الْحَقِيقَةِ .

(٢) (الْإِحْتِيَالُ) مَتَاعُهُ الْهَبْوَةُ إِلَى الْحَيَاةِ أَيْ التَّجَنُّبُ الْإِنْسَانِي بَلْ يَنْبَغِي إِسْقَاطُ التَّجَنُّبِ وَالْهَبْوَةُ
إِلَى التَّعَدُّلِ الْإِلَهِيِّ .

ويقال الفاشية حجاب من القسوة يحصل في القلب، لا يزول بالتضرع ولا ينتشع بالتخشع
ويقال الفاشية من المناب أن تزول من القلب سرعة الانقلاب إلى الله تعالى، حتى إذا
تمادى صاحب الثغلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله، وفي مناه أُنشِدوا :

قُلْتُ قَتَّعْصِرُ إِنِ أُرْدَتْ رَجَوْعًا طَرَجَى قَبِيلٌ أَنَّ يُسَدَّ الطَّرِيقُ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى

بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَانَ اللَّهِ

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

« البصيرة » : اليقين القوي لا مَرِيَّةَ فيه ، والبيان الذي لا شك فيه . البصيرة يكون
صاحبها مُلَاطَفًا بالتوفيق جَهْرًا ، ومكاشفًا بالتحقيق سِرًّا .

ويقال البصيرة أن تطلع شموسُ الرفان ، فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل .

قوله « أنا ومن اتبعني » أي ذلك سبيل، وسبيل من اقتدى بهدي فهو أيضاً على بصيرة

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا

نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَتَلُمُ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟

وَلَهُارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّذِينَ اتَّقَوْا

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

تعبجوا أن يبعث الله إلى الخلق بشراً رسولاً ، فيبين أنه أجرى سُنَّتَهُ — فيمن قدَّمَ
من الأمم — ألا يكون الرسول إليهم إلا بشراً ، فلما أن جحدوا جوازَ بعثة الرسول أصلاً ،
أو أنهم استكروا أن يبعث بشراً رسولاً .

ثم أمرهم بالاستدلال والتفكير والاعتبار والنظر فقال : « أَتَلُمُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ؟ »

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَغَلَّتِ

قَدْ كَذِبُوا بِجَاهِهِمْ نَصَرْنَا فَتَجَبَىٰ مَنْ
تَشَاهَ وَلَا يَرُدُّ بَأْسَنَا عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾

حق إذا استبأس الرسل من إيمان قومهم ، وَتَجَبَىٰ أَنَّهُمْ كَذِبُوا — وَالظَّنُّ هَاهُنَا
بمعنى اليقين — فَمَنْ ذَلِكَ جَاهُهُمْ نَصَرْنَا ؛ لِرَسُولٍ بِالْجَوَادِ وَأَقْوَامِهِم بِالْمَلَكِ ، وَلَا مَرَدٍّ ^(١) لِبَأْسِنَا
وَيُقَالُ حَكَّمَ اللَّهُ بَأْهَ لَا يَفْتَحُ لِلرَّيْدِينَ ^(٢) شَيْئًا مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا بَعْدَ يَأْسِهِمْ مِنْهَا ، قَالَ
تَعَالَى : « وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ » ^(٣) ؛ فَكَأَنَّهُ يُتَرَلُّ الْمَطَرُ
بَعْدَ الْيَأْسِ فَكَذَلِكَ يَفْتَحُ الْأَحْوَالَ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهَا وَالرَّضَا بِالْإِغْلَاسِ عَنْهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى
وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

عِبْرَةٌ مِنْهَا لِلْعَالَمِينَ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ كَمَا بَسَطَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَأْمِينِهِمْ أَحْوَالَ الرِّعَايَةِ
كَأَصْلِ يُوسُفَ حِينَ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، وَأَعْتَمَتِهِمْ حِينَ مَلِكَهُمْ .
وَعِبْرَةٌ فِي قَصَصِهِمْ لِأَرْبَابِ التَّقْوَى ؛ فَإِنَّ يُوسُفَ لَمَّا تَرَكَ هَوَاهُ رَفَّاهُ إِلَى مَا رَفَّاهُ .
وَعِبْرَةٌ لِأَهْلِ الْهَوَى فَمَا فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ ، كَأَمْرَةِ الْعَزِيزِ لَمَّا تَبِعَتْ هَوَاهَا
لَقِيَتْ الضَّرَّ وَالْفَقْرَ .
وَعِبْرَةٌ لِلْمَالِكِ فِي حَضْرَةِ السَّادَةِ ، كَيُوسُفَ لَمَّا حَفِظَ حَرَمَةَ زَلِيخَا مَلِكُ مُلْكِ الْعَزِيزِ ،
وَصَارَتْ زَلِيخَا أَمْرَأَةً حَلَالًا .

(١) سقطت الفاعل من (لا مرد) فأثبتناها .

(٢) وردت (المرتدين) وهي خطأ في النسخ فالسلام عن أحوال (المريدين) ، كذلك فإن الله لا يفتح
على (المرتدين) شيئاً فهم مغضوب عليهم .
(٣) آية ٢٨ سورة النور .

وعبرةٌ في الضو عند المقدرة ، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته .
وعبرةٌ في ثمرة العبر ، فيعقوب لما صبر على مفاسدة حزنه ظفر يوماً ببقاء يوسف عليه السلام ^(١) .

السورة التي يذكر فيها « الرعد »

بسم الله الرحمن الرحيم

« بسم الله » كلمةٌ سمعناها يُورثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً ، وقومٍ حزناً ثم هرباً ، فمن سمع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمة فأذنه لها طرب ، ومن سمع بشاهد الريبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ آبَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ۖ ﴾

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إن هذه آيات الكتاب التي أخبرت أني أنزل عليك

هالآلف تشير إلى اسم « الله » ، واللام تشير إلى اسم « العلي » ، والميم تشير إلى اسم « المجيد » ، والراء تشير إلى اسم « الرحيم » . قال بسم الله العلي المجيد الرحيم إن هذه آيات الكتاب التي أخبرت أني أنزله على محمد — صلى الله عليه وسلم . ثم عطف عليه بالواو قوله تعالى : « واثق أنزل إليك من ربك الحق » هو حق وصدق ، لأنه أنزله على نبيه — صلى الله عليه وسلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴾

أي ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به ، فهم الأكثرون عدداً ، والأقنون قدراً وخطراً

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ۖ ﴾

ترونها تم استوى على العرش ۖ

(١) أحسن التبري إذ جعل خاتمة السورة بمثابة خلاصة دقية لها ، وأوضح البيرة المستفادة من دور كل فضيلة فيها .

دَلَّ عَلَى صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ آيَاتِهِ ، وَمِنْ جَلَّتْهَا رَفَعَ السُّنُوتِ وَلَيْسَ نَحْنُهَا عَادُ .
يَسْتَدْهَا ، وَلَا أَوْتَادُ تُنْمِكُهَا . وَأَخْبَرَ فِي خَيْرِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ بِكَوَاكِبِهَا ، وَخَصَّ
الْأَرْضَ بِحَيَوَانِهَا وَمَنَاكِبِهَا .

«أَمَّا اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» : أَيْ اِحتَوَى عَلَى مُلْكِهِ اِحتَوَاهُ قُدْرَتُهُ وَتَدَبَّرَهُ . وَالْعَرْشُ
هُوَ لِلْمَلِكِ حَيْثُ يَتَلَأ : اُنْدَكَ عَرْشُ قَلَانِ إِذَا زَالَ مُلْكُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَصَوَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ
لَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾

كُلُّ يَجْرِ فِي قَلَكٍ . وَيَدُلُّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ قِيلَ مُلْكُهُ فِي مُلْكِهِ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ
الْأَنْهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾

بَسَطَ الْأَرْضَ وَجَعَلَهَا ، وَالْجِبَالَ أَوْسَاها ، وَفَجَّرَ حَيُونَهَا ، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا ، وَجَعَلَ
بَحَارَهَا ، وَتَوَعَّ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا جَعَلَ الْبَحَرَ قُرُولَهَا ، وَأَنْبَتَ أَشْجَارَهَا ، وَصَنَّفَ أَزْهَارَهَا
وَنَحَارَهَا ، وَكَوَّزَ عَلَيْهَا لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَاوِرَاتٌ
وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْطَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ
صُنُونًا وَغَيْرِ صُنُونٍ يُسْقَى بِمِلْءٍ
وَاحِدٍ ، وَنُقُضَلُ بِمَقْنَأِ عَلَى بَعْضٍ
فِي الْأَمْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴾

فَبَيْنَ صَبْغٍ^(١) وَمِنْ حَجَرٍ وَمِنْ دَمَلٍ .. أُنُوعٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَأَزْوَاجٌ مُتَنَقَّةٌ . وَزُرُوعٌ وَنَبَاتٌ وَأَشْجَارٌ أَشْنَتُ ، وَأَصْلُ الْكَلِّ وَاحِدٌ ، فَأَجْزَاؤُهَا مُتَنَائِلَةٌ ، وَأَبْصَافُهَا مُشَاكِلَةٌ ، وَلَكِنْ جَمِلَ بِضُفَا غَفَا^(٢) ، وَبِضُفَا ثُشْرًا ، وَبِضُفَا تُحْمَنًا ، وَبِضُفَا جَدْعًا ، وَبِضُفَا أَزْهَارًا ، وَبِضُفَا أَوْدَاقًا .. ثَمَ الْكَلِّ وَاحِدٌ ، وَإِنْ كَانَ لِكَلٍّ وَاحِدٍ طَبِيعٌ مُخْصِصٌ وَشَكْلٌ مُخْصِصٌ ، وَلَوْ أَنَّ مُخْصِصٌ وَقَشْرٌ مُخْصِصٌ مَعَ أَنَّهَا تُسَمَّى بِمَا وَاحِدٍ ؛ إِذْ يَصِلُ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنَ الشَّجَرِ مِنَ اللَّاهِ مُتَدَارًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، « وَنُفْضِلُ بِضُفَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ » .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْنِذَا

كُنَّا تَرَابًا أَيْنَا لَنِي خَلَقُ جَدِيدٌ ،

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ

الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

وَإِنْ تَعَجَّبَ — بِأَمْرِهِ — فَقَوْلُهُمْ هَذَا مَوْضِعٌ يَتَعَجَّبُ مِنْهُ أَتَلَقَى ، فَالْمَجْبُوبُ لَا يَجُوزُ فِي صِفَةِ الْحَقِّ^(٣) ، إِذْ أَنَّ التَّعَجُّبَ الْاسْتِغْنَاءُ وَالْحَقُّ لَا يَسْتَعِينُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا أَثْبَتَ مَوْضِعَ التَّعَجُّبِ لِلْخَلْقِ ، وَحَسَنَ مَا قَالُوا : « إِنَّمَا تَعَجَّبُ مَنْ حُجِبَ » ، لِأَنَّ مَنْ يَنْقُلُ عَيْنَ الْبَصِيرَةِ لَا يَتَعَجَّبُ مِنْ شَيْءٍ .

وَقَوْمٌ أَطْلَقُوا الْفِظَ بِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَوَاقِفَةِ أَيْ إِنَّكَ إِنْ تَعَجَّبَ فَهَذَا عَجَبٌ مَوَاقِفَتِكَ لَهُ . وَإِطْلَاقُ هَذَا — وَإِنْ كَانَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى حَالَةٍ لَطِيفَةٍ — لَا يَجُوزُ ، وَالْأَدَبُ السَّكُوتُ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا . وَالتَّوَمُّ قَبْرًا عَنْ ذَلِكَ قَالُوا : أَعْجَبُ الْمُعْجِبِ قَوْلُ مَا لَا يَجُوزُ فِي وَصْفِهِ الْمَجْهُدِ .. وَإِنْ تَعَجَّبَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّمَا كُنَّا تَرَابًا أَيْنَا لَنِي خَلَقُ جَدِيدٌ » : اسْتِغْنَاءُ الْمُنْشَأَةِ الثَّانِيَةِ — مَعَ إِقْرَارِهِمُ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَهِيَ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ — مَوْضِعُ التَّعَجُّبِ ، إِذْ هُوَ صَرِيحٌ

(١) الْبَيْضُ الْمَسْكُونُ يَظْهَرُ فِيهِ الْمَلْحُ وَتَوَسُّعٌ فِيهِ الْأَفْنَامُ (الْوَسِيطُ) .

(٢) الْفِدْقُ مِنَ الْمَشْبِ بِأَنَّ وَجْهَهُ (الْوَسِيطُ) .

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِي الْآيَةِ (سَجَبٌ قَوْلُهُمْ ..) .

في المناقضة ، وكان القوم أصحاب تمييز وتحصيل ، فقبِلُ مثل هذا يدعوا إلى السبب . ولكن
نولا أن الله — سبحانه — لبس عليهم كما قال : « فاعثينام فهم لا يسمرون » (١) —
وإلا ما كان ينبغي أن يخفى عليهم جواز هذا مع وضوحه (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُ مَقْعَاتُ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن
خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

الكتابة في : « له مقبات » راجعة إلى العبد ، أي أن الله وكل بكل واحد منهم
مقبات . وهم الملائكة الذين يقبب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلف
وذلك (٣) من أمر الله ، أي من البلاء الذي بقدره الله . يحفظونهم بأمر الله من أمر الله ،
وذلك أن الله — سبحانه — وكل لكل واحد من الملائكة ملائكة يدفون عنهم البلاء
إذا ناموا وحفظوا ، أو إذا اتبهوا وقاموا ومشوا . . . وفي جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ
سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ

مِنْ ذَالٍ ﴾

إذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا
في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما من به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من
ذلك ، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى ينهروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا
في التضرع ، وأظهروا العجز غير ما بهم من الحفة بالتبديل والتحويل .

ويقال إذا غيروا ما بأنفسهم من الذكّر غير الله ما يقوهم من المخطوط فأبطلهم به النسيان

(١) آية ٩ سورة يس .

(٢) هنا وضع التناسخ علامة على سقوط مساحة من النص ، ومن الموصف أنه لا يوجد استدراك
قدك في الهامش ويقع في هذه المساحة تفسير للآيات من (٥ إلى ١٠) من السورة .

(٣) في النسخة (وهذا) ولكننا آثرنا أن نجعلها (وذلك) حتى تزيد السياق إيضاحاً ونعني اللبس
إذ ربما يظن أن (وهذا) الثانية مبتدأ .

والنحلة ، فإذا كان العبد في بسطةٍ وقريب ، وكشف القلب ورتب . . . **لَهُ لَا يُفْتَرُ**
ما بأنفسهم يتركه أحب ، أو إخلال يحق ، أو للام بذنب .

ويقال لا يَكْفُ ما أتاكم العبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك وَيُفْتَرِ ما هو به من
الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدل حضور^(١) القلب بالنسيان وما يطيح به
من العصيان . أبدل الله تعالى ما به من النعمة بالمرمان والظلال ، وسلبه ما كان يعطيه
من الإحسان .

ويقال إذا تولت المحن وأراد العبد زولها فلا يصل إليه التفتُّ^(٢) منها إلا بأن يفتر
ما هو به ، فيأخذ في السؤال بعد السكوت ، وفي إظهار الجزع بعد السكون ، فإذا أخذ
في التضرع غير ما به من الصبر^(٣) .

قوله : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له » ، يقال إذا أراد الله بقوم بلاءً وفنتة
فما تعلق به المشية لا همة يجرى .

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (. . .)^(٤) أعينهم حتى يملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم ،
نهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، ويسمون — في الحقيقة — في ديمهم كآل قائلمهم :

إلى حَسْبِي مَشَى قَدَمِي إِذَا قَدَمِي أَوَّلَقِي دَمِي

قوله جل ذكره : **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**
ويفشي السحابَ الثقال

كما يريهم البرق — في الظاهر — فيكونون بين خوفٍ وطمعٍ ؛ خوفٍ من إحباس
للطر وطمعٍ في مجيئه . أو خوفٍ للمسافر من ضرر يجيء للطر ، وطمعٍ للمقيم في فقهه . .
كذلك يُريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من ألوان ثم ألوان ثم كالبوق في الصفاء ،
وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة .

(١) وردت (حصول) وقد آتونا أن تكون (حضور) القلب حتى تتأهل (للنسيان) .

(٢) يقال نفس فلان من مرضه أى يريء منه (الوسيط)

(٣) سيورد القشيري إلى الإجابة عن سؤالين : متى يجوز لعبد أن يشكو ويتضرع ؟ وهل هذا آية نفاذ
سوره أم علامة ضلته إزاء القوة الإلهية ؟ . . . عند حديثه عن أيوب في سورة الأنبياء .

(٤) مشبهة وربما كانت لفظة بمعنى (أعمى)

« خوفًا » : من أن ينقطع ولا يبقى ، « وطعًا » : في أن يدوم فيه قتل صاحبه من
المحاضرة إلى المكثفة ، ثم من المكثفة إلى المشاهدة ، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود
ثم إلى كمال الخلود .

ويقال « يريكم البرق » : من حيث البرهان ، ثم يزيد فيصير كأفكار البيان ، ثم يصير
إلى نهار العرفان . فإذا طلعت شمس التوحيد فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك
الشمس ، كما قيل :

هي الشمس إلا أن الشمس غيبةٌ وهنا ألقى نَفْثَهِ ليس يثيب
ويقال تبدو لم أنوار الوصال فيخافون أن تمين^(١) عليهم ليالي الفرة ، فَقَلَمَا نَفْثُو
فرحة الوصال من أن تمقها موجة الفراق^(٢) ، كما قيل :

أى يوم سررتى يوصلني لم^(٣) تدعني ثلاثة بصدود ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّغَالِ ﴾^(٤) الثقال
إذا انتاب السحابة في السماء ظلام في وقت فإنه يتبعه بعد ذلك صمت الرياض ، فما لم
تَبْكِ السماء لا يضحك الروض ، كما قيل :

وما تم في السماء تبكي والأرض من تحنها عروس
كللك تنشأ في القلب سحابة الطلب ، فيحصل القلب ترددًا لظلمة ، ثم يلوح وجه
الحقيقة ، فتضحك الروح لفتون راحلة الأُس ، وصنوف أزهار القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّحْمَنُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ
مِنْ خِيفَتِهِ ﴾

أى الملائكة أيضًا تسبح من خوفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ

(١) مصوبة ممكنة في الغاش ، والميم يتقبلها ويرفض (تمين) ألقى في المتن .

(٢) وردت (التركان) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (كم) (٤) وردت (الصحاب) بالصاد وهي خطأ .

يشاء ، وهم يُجَادِلُونَ في الله وهو
شديدُ الحالِ ﴿

قد يكون في القلب حنين وأنين ، وزفير وشهيق . والملاحة إذا حصل لم على قلوب
المريدين — خصوصاً — اطلاعٌ يكون دماً لأجلهم ، لا سبباً إذا وقعت لواحد منهم قدرة ،
والقدرة في هذه الطريقة الصواعقُ التي يصيب بها من يشاء ، وكما قيل :

ما كان ما أُوْكِنْتَ مِنْ وَصَلْنَا إِلَّا مَرَجاً لَاحٍ ^(١) ثم انقلبا

قوله جل ذكره : ﴿ قوله دعوة الحق والذين يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا
كَيَسِيطَ كُفْرُهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَمْلَأَهُ قَهُ
وما هو ببالفه ﴾

دواهي الحق تصير لأئمة في القلوب من حيث للبرهان فن استمع إليها يسمع الفهم ،
استجاب لبيان العلم . وفي مقابلتها دواهي الشيطان ^(٢) التي تهتف بالمبد يتزين الملقى ، فن
أصغى إليها يسمع الخفة استجاب لصوت ^(٣) التي ، ومنها دواهي النفس وهي فائدة للعب يزمام
المحفوظ ، فن ركن إليها ولا حظها وقع في هوان الجباب .

ودواهي الحق تكون بلا واسطة منك ، ولا بدلالة عقل ، ولا بإشارة علم ، فن أحسبه
الحق ذلك استجاب لأهالة لله بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ وما دعاه الكافرين إلا في ضلال ﴾

هواجس النفس ودواهيها تدعو — في الطريقة — إلى الشرك ، وذلك بشهود شوه
منك ، وحسبان أمر لك ، وتعرج في أوطان الفرق ، والتمس عن حقائق الجبر .

قوله جل ذكره : ﴿ وقد يسجد من في السنوات

(١) وردت (راح) بالراء ، والمعنى لا يظلمها ما خسرنا (لاح) لأنها أقرب في المعنى والمط .

(٢) وردت (السلطان) وهي خطأ في النسخ .

س . (٣) وردت (لصور) والراء زائدة كما هو واضح .

والأرض طوعاً وكرهاً وظلاماً بالقدور والآمال

المؤمن يسجد لله طوعاً ، وإذا نزل به ضرر أُلجأ إلى أن يتواضع ويسجد ، وذلك معنى سجوده كرهاً — وهذا قول أهل التفسير . والكافر يسجد طائفاً مختاراً ، ولكن لما كان سجوده لطلب كشف الغر قال تعالى : إنه يسجد كرهاً وعلى مقتضى هذا كلٌّ من يسجد لا يتفاه هو خير أول كشف عنة .

ويقال السجود على قسيتين : ساجد بنفسه وساجد بقلبه ؛ فسجود النفس معهود^(١) ، وسجود القلب من حيث الوجود . . . وفرق بين من يكون بنفسه ، وواجد بقلبه .

ويقال الكل يسجد لله ؛ إما من حيث الأفعال بالاختيار ، أو من حيث الأحوال بنعت الافتقار والاستبصار : سجود من حيث العلاقة على الوحدةانية ؛ فكل جزء من عين أو أثر فَعَلَى الوحدةانية شاهد ، وعلى هذا للمعنى لله ساجد . وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَتَّخِذُهُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ تَعَالَى تَعَالَى ﴾

سَلَّمَ — يا محمد — مَنْ مَوْجِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَقْدُرُهَا ، وَخَقَرُ مَا يَمُنُّ فِيهَا وَدَبْرُهَا ؟ فَإِنْ أَسْكَنْتُمْ مِنْ الْجَوَابِ مَا اسْتَكُنَّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَهْلِ قُلْ اللَّهُ مَنَشِيهَا وَمَجْرِيهَا .

ثم قال : « أَتَتَّخِذُهُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » : يعنى الأصنام ، وهى جمادات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرراً ، ويلتحق فى المعنى بها كل من هو موسوم برقم الحدوث ، فَمَنْ عَلِقَ قَلْبُهُ بِالْهَدَثَانِ سَاوَى — مِنْ وَجْهِ — مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ ، قال تعالى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٢) .

(١) أى السجود فى العلوات المادية بالندة لكافة ، وأما سجود القلب فللخاصة .

(٢) آية ١٠٦ سورة يونس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۚ

الْأَعْمَىٰ مَنْ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ فُشَاوَةٌ وَحِجْبَةٌ ، وَالْبَصِيرُ مَنْ كَمَلَ الْخَلْقُ بِصُورَةِ سِرِّهِ بِنُورِ

التَّوْحِيدِ .. لَا يَسْتَوِيَانِ !

ثم هل تستوى ظلماتُ الشركِ وأنوارُ التَّوْحِيدِ ؟ ومن جملة النور المخرجُ إلى ضياءِ شهودِ

التَّعْدِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ جَعَلْنَا اللَّهُ شِرْكَاءَ مَا خَلَقْنَا أَكْثَلَهُ

فَتَنَسَّاهُ الْعَالَمُونَ هَلِيبُهُمْ قُلُوبُ اللَّهِ خَالِقُ

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۚ

أَيُّ لَوْ كَانَ لَهُ شَرِيكَ لَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نِدٌّ مُضَاهٍ ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ لَهُ مَوَازٍ ، وَلَمْ يُجَدِّحْ حِينَئِذٍ التَّمْيِيزُ بَيْنَ فِعْلَيْهِمَا .

وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ لَهُ نِدٌّ . . فَإِنَّ لِثَبَاتِهِمَا شَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ يَوْجِبُ اشْتِرَاكَهُمَا فِي اسْتِحْقَاقِ كُلِّ وَصْفٍ ، وَأَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا كَمَا لِحَبِيبِهِ أَيْضًا مُسْتَحَقًّا لَهُ ، وَهَذَا يُوْدِي إِلَى الْأَيْلَافِ الْمَعْلُومَةِ .. وَذَلِكَ حَالٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ ۚ

« كُلُّ شَيْءٍ » تَدْخُلُ فِيهِ الْمَخْلُوقَاتُ بِصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا ، وَالْمَخْلُوبُ لَا يَدْخُلُ فِي الْخُطَابِ .

« وَهُوَ الْوَاحِدُ » : الَّذِي لَا خَلْفَ عَنْهُ وَلَا يَدَّلُ (١) ، الْوَاحِدُ الَّذِي فِي فَضْلِهِ مَنْزَرُهُ مِنْ فَضْلِ كُلِّ أَحَدٍ ، فَهُوَ الْكَافِي لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَيَسْتَعِينُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ .

« وَالْقَهَّارُ » : الَّذِي لَا يَمِيرُ بِخِلَافِ حُكْمِهِ — فِي مُلْكِهِ — نَفْسٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ أَنْزَلْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

(١) وَرَدَتْ (يَدَّلُ) بِأَلْيَاءٍ وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

يَقْدِرُهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ
حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ،
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُثًّا أُمْامًا يُبْغَى
الْنَّاسَ قَلِيلًا فَتَبَيَّنَتْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

هذه الآية تشتمل على أمثال ضربها الله لتشبيه القرآن المتزل بالماء المتزل من السماء ،
وشبه القلوب بالأودية ، وشبه وساوس الشيطان وهواجس النفس بالزبد الذي يعلو الماء ،
وشبه الخلق^(١) بالجواهر الصافية من أغلبي كالذهب والفضة والنحاس وغيرها ، وشبه
الباطل بخصب هذه الجواهر . وكما أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تمتلئ للماء
في القلة والكثرة — كذلك القلوب تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة . وكما أن
السيول إذا حصل في الوادي يظهر الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حفظه في القلوب تفي
الوساوس والهوى عنها ، وكما أن الماء قد يصحبه ما يكرهه ، ويضلل بعضه مما يشوبه —
فكذلك الإيمان وقهم القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نزعات الشيطان ومن
الخواطر الرديئة ، فالقلوب بين صائب وكبير .

وكما أن الجواهر التي تتخذ منها الآواني إذا أذيت خلعت من الخبيث كذلك الحق
يتوزع من الباطل ، ويبقى الحق ويضمحل الباطل .

ويقال إن الأنوار إذا تلاقات في القلوب نقت آثار السكفة ، ونور^(٢) اليقين يضي ظلمة
النكس ، والعلم يضي تمة الجبل ، ونور المعرفة يضي أثر النكوة ، ونور الشهادة يضي آثار البشرية ،

(١) هكذا في الصورة ورجح أنها (الحق) ليعايل (الباطل) كما تتايل الجواهر الصافية الخبيث —
ويزيد من قوة هذا الترجيح ما سبق في بعد قليل عند (التمييز بين الحق والباطل) .
(٢) وودت (ونود) وهي خطأ في النسخ .

وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة . وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الخلوذ ، وأنوار طلوع الشمس من حيث للمرفان تنفي سَدَقَة الليل من حيث حسابان أثر الأخبار .

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة قَيْنَ إناه ينخذ من النعب وآخر من الرصاص ، إلى غيره - كذلك القلوب تختلف ، وفي الطير : إن لله تعالى أواني وهي القلوب ، و فزاهد قاصدٌ ومحب واحدٌ ، وعابدٌ يخافُ وموحدٌ طارفٌ ، ومتعبٌ متمتعٌ ومنهجدٌ منصوفٌ ، وأنشدوا :

أوانيها شتى الفنون وإنما نُسق بملء واحدٍ من متلوك

قوله جل ذكره : ﴿لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ

لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا يَصِيرُونَ﴾

« الحسنى » (١) : الوعد بقبول استجابتهم ، وذلك من أجل الأشياء عندهم ؛ فلا شيء أعزُّ على المحبِّ من قبول محبوبه منه شيئاً .

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنَّ لهم جميع مافي الأرض وأنفقوه عمداً لا يقبلُ منهم ، ولم سوء الحساب ، وهو المناقشة في الحساب ، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب .

قوله جل ذكره : ﴿أَفَنَنْتَ بِهِمْ أَنُحْمُ أَيُّكُمُ الْحَاقُّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ

مِن رَّبِّكَ الْحَقَّ كَنتَ هُوَ أَصْحَىٰ إِنَّنَا بِتَقْوِكَ كَرُؤُا الْأَلْبَابِ﴾

استفهام في معنى النفي ، أي لا يستوى البصير والضرير ، ولا للقبول بالمرودود بالمحبة ، ولا النؤمن بالنتير . فالعرض للتعذيب ، ولا الذي أقصيناه عن شهودنا بالقي هديناه

(١) يرى البعض أن (الحسنى) هنا صفة للمصدر أي استجابوا الاستجابة الحسن .

(٢) أعطى الناسخ إذ حملها (أظم) .

بوجودنا . إنما يَتَعَطُّ مَنْ عقله له تشريف ، دون مَنْ عقله له سببُ إقصاء وتعنيف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ (١) يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ

وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾

الوفاء بالعهد باستدامة الميثاق ، والوفاء بشرط الإحسان ، والتوفيق من ارتكاب العصيان
بذلك أُبرِمَ العهدُ يوم الميثاق والضمان .

وميثاق قومٍ ألا يعبدوا شيئاً سواه ، وميثاق قومٍ ألا يسألوا سواه

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ

الْحِسَابِ ﴾ (٢)

الذين يصلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل .

ويقال الذين يصلون أنفُسَهُمْ بعضاً ببعض ، فلا يتخلفها نفسٌ لنور الله ، ولا ينير الله ،
ولا في شهود غير الله .

ويقال يصلون سِرَّهم بِسِرَّهم في إقامة العبودية ، والتبري من الحول والقوة .

وقوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ : الخشية جُلَامٌ يُوقِفُ الْمُؤْمِنَ عَنِ الرِّكْضِ فِي مَيَادِينِ الْهَوَى ،
وَزِمَامٌ يَجْرِهُ إِلَى اسْتِعَاذَةِ حُكْمِ التَّقَى .

وقوله : ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحسبون

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأجلها يصبر الصابر ، فالمُعْبَادُ يصبرون لخوف
المقوية ، والإلهاد يصبرون طمعاً في المثوبة ، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجه
ربهم ، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفَضُ ما يجمع من الوصول ، واستدامةُ التوقى منه ،

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (والذين) .

(٢) هذه الآية مستدركة في هامش الورقة بعد أن سقطت من المتن .

فيدخل فيه ترك الشهوات ، والتجردُ عن جميع الشواغل والملاقات ، فيصبر عن العلف والزلّة .
وعن كل شيء يشغل عن الله .

وبما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تميز الحق ، فإنه - سبحانه - ينفضُّ على
الكافة من المجتهدين ، وتمتاز - خصوصاً - على المرّدين ، فينجم الصبر في ألام
إرادتهم ، فإذا صدّقوا في صبرهم جادّ عليهم بتحقيق ما طلبوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْبِرُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً ۖ ﴾

الأغنياء ينفقون أموالهم . والعُبَاد ينفقون نفوسهم وينحلقون فسوف الاجتهاد ،
ويعصرون على أداء الفرائض والأوراد . وللمريدون ينفقون قلوبهم ويسرعون إلى أداء الفرائض
والأوراد ويعصرون إلى أن يوحّ علم من الإقبال عليهم . وأما المحبون فينفقون أرواحهم ..
وهي كما قيل :

أَلَسْتُ لِي خَلْفًا ؟ كَفَى شَرَفًا فَا وَدَّاعًا لِي قَعْدٌ وَمَطْلُوبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَذَرُونَ الْمُنَسَّةَ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ
كَلِمَةُ عَقِي الدَّارِ ۖ ﴾

يمشرون الناس بِحُسن الخلق ؛ فيبدأون بالإعصاف ولا يطلبون الانتصاف ، وإن
عاملكم أحدٌ بالهفاء قابله بالهفاء ، وإن أذنب إليهم قومٌ اعتنوا بهم ، وإن مرضوا
عاشوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ جَسَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا فَمِنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ
وَدُرِّيَاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ تَرَى كُلُّ نَفْسٍ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنَقِمْ
عُقُوبَةَ النَّارِ ۖ ﴾

يَمُ النعمة عليهم بأن يجسع بينهم وبين مَنْ يحبون محبتهم من أقاربهم وأزواجهم ، وقد ورد في الخبر : « المرء مع مَنْ أَحَبَّ » كُنْ كَانَ محبوبه أمثاله وأقاربه خَيْرَ منهم ، وَمَنْ كَانَ اليومَ بقلبه مع الله ، فهو غداً مع الله ، وفي الخبر : « أنا جليسُ مَنْ ذَكَرَنِي » ، وهذا في العاجل ، وأما في الآجل ، ففي الخبر : « الفقراء الضاربون جُلسَاءُ اللَّهِ يومَ القيامة » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْلُوبُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْقِسْمُ الَّذِي لَهُمْ وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ ﴾

مَنْ كَفَرَ بعد إيمانه نَقَضَ عَهْدَ الإسلام في الظاهر ، ومن رَجَعَ إلى أَحكامِ المادة بعد سَلُوكِهِ طريقَ الإِرادة ، فقد نقضَ عَهْدَهُ في السِّرِّاء ... فهذا مُرْتَدُّ جَهْرًا ، وهذا مُرْتَدُّ سِرًّا ، ولِلْمُرتَدِّ جَهْرًا عِقوبته قَطْعُ رَأْسِهِ ، والمُرتَدُّ سِرًّا عِقوبته قَطْعُ سِرِّهِ .

وقوله : « وَيَقْلُوبُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » ، هو نقضُ قوله : « يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » .

ويقال نقضُ العهد هو الاستماتة بالأغْيَار ، وَتَرْكُ الْاِكْتِفَاءِ بِاللَّهِ الْجَهْلُ .
ويقال نَقَضُ الْعَهْدِ الرُّجُوعُ إِلَى الْاِخْتِيَارِ وَالتَّهْدِيرِ بعد شهود الأتِّدَار ، وملاحظة التَّعْدِيرِ .

ويقال نقضُ العهدِ يَتَرَكُ نَفْسَهُ ، ثم يعود إلى ما قَالِ بَتَرَكِهِ .
قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾

يَسْطِ الرِّزْقَ لِلْاَغْنِيَاءِ وَيُطْلِلُهُم بِالشُّكْرِ ؛ وَيُضَيِّقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَيُطْلِلُهُم بِالْمِصْرِ

وَعَدَ الزَّيَادَةَ لِلشَّاكِرِينَ ، ووعدَ اللَّعِيَّةَ لِلصَّابِرِينَ . لِلأَغْنِيَاءِ الأَمْوَالُ يَزِيدُهَا ، وَلِلْفُقَرَاءِ التَّجَرُّدُ فِي الْبَارِئِينَ مِنْ طَرِيقِهَا وَتَلِيدِهَا .

قوله حل ذكره : ﴿ وَقَوِّمُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

فَرِحَ الْأَغْنِيَاءُ بِزَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ ، وَفَرِحَ الْفُقَرَاءُ بِصَفَاءِ أَحْرَامِهِمْ .

« وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » قليلُ الإضافة إلى ما وعدهم الله ؛ فأموالُ الأغنياء — وإن كَثُرَتْ — قليلةٌ بالإضافة إلى ما وعدهم من وجودِ أفضاله ، وأحوالُ الفقراء — وإن صَفَتْ — قليلةٌ بالإضافة إلى ما وعدهم من شهودِ جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾

« يضل من يشاء » : وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا — صلى الله عليه وسلم — من الشواهد والبرهان حتى (. . .) ^(١) الزيادة .

« ويهدي من يشاء » : وهم الذين أبصروا ببيون أسرارهم ما خُصَّ به من الأنوار فسكنوا بنور استبصروهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَطِمَتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَّا يَذْكُرُوا اللَّهَ لَطِمَتْ الْقُلُوبُ ﴾

قَوْمٌ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، وَفِي الذِّكْرِ وَجَدُوا سَلَوَتَهُمْ ، وَبِالذِّكْرِ وَصَلُوا إِلَى صَفْوَتِهِمْ . وَقَوْمٌ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ فَذَكَرَهُمُ اللَّهُ — سَبَّحَهُ — بِلُطْفِهِ ، وَاتُّبِتْ الطَّمَأْنِينَةُ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيسِ لَمْ .

(١) متشبهة .

ويقال إذا ذكروا أن الله ذكّرهم استروحت قلوبهم ، واستبشرت أرواحهم ، واستأنست أسرارهم ، قال تعالى : « أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ » لَسَا نالت بِذِكْرِهِ من الحياة ، وإذا كان المبدؤ لا يطمئن قلبه بذكر الله ، فذلك لِحَالِي في قلبه ، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ

لَهُمْ وَحَسَنُ مَا لَهُمْ ﴾

طابت أوقاتهم وطابت نفوسهم .

ويقال طوبى لمن قال له الحق : طوبى .

طوبى لمن في الحال ، وحسن المآب في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ

مِّن قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوَّ عَلَيْهِمُ الَّذِي

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

لئن أرسلناك بالنسوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل . لئن أصابك منهم بلاء

فلقد أصاب من قبلك كثير من البلاء ، فاصبر كما صبروا تؤجر كما أُجروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَكَبَّرُ ﴾

لئن كفروا بنا فآمن أنت ، وإذا آمنت فلا تنال بمن جحد ، فإنك أنت المقصود من

البرية ، والمخصوص بالرسالة والمحبة .

لو كان يبرز في وصفنا أن يكون لنا غرض في أفعالنا .

ولو كان الغرض في الخلقة فآنت سيد البشر ، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن

الإقبال^(١) ، فهذا مخلوق يقول في مخلوق :

(١) هذه أقصى دوحه في التصور لشخصية الرسول صلوات الله عليه -- في نظر هذا الصوفى -- قال ذلك شوال باعث آخر كما بين عزى أو الجليل عن « الإنسان الكامل » ، ليعطف الفرق الهائل بين الانبياء .

وكنْتُ أَخْرَجْتُ أَوْطَارِي لَوْحَتِ فَكَانَ الْوَقْتُ وَقْتُكَ وَالسَّلَامُ
وكنْتُ أَطَالِبُ الْإِنْسَانَ بِحُبِّهِ فَكُنْتُ الْخَلْبُ... وَاطْلَعُ الْكَلَامُ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ
أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ
الْمَوْتُ بَلْ فِي الْأَمْرِ جَيِّمًا﴾

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن ، ولكن
للنبي الله ، والظهير والشر جلة من الله ، والأمر كله لله . فإذا لم يكن شيء من الحدثنان
بالقرآن — والقرآن كلام الله العزيز — فلا تكون قوة من النفي والإثبات مخلوق .. فإن
ذلك محال .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يُبَشِّرَ
اللَّهُ لِهَدْيِ النَّاسِ جَيِّمًا﴾

معناه أظلم الذين آمنوا ، ويقال أظلم يأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق
فهو المهتدي ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا
صَنَعُوا آفَافَةٌ أَوْ تَكْلُفٌ قَرِيبٌ مِنْ
قَارِئٍ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾

يعنى شؤم كُفْرِهِمْ لَا يَزَالُ وَاصِلًا إِلَيْهِمْ ، ومتنص^(١) فسلمهم لاحت بهم أهدأ .
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ اسْتَبْرَأْ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ
فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ مَقْلَبٍ﴾

(١) من (اقتصر) والتماس أن يرفع على الجاني مثل ملجى .

أُنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عما كان يلاقيه منهم .
وكما أن هؤلاء في التكذيب جرّوا على نهجهم فتحن أدمتاً سُنَّتاً في التعذيب معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَقْبَنُ هُوَ ظَلَمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾

الجواب فيه مضمّر ؛ أي أفن هو يُجْزَى ومُنشَى الْخَلْقِ وَالْمُطْلَعُ عَلَيْهِمْ ، لا يَنْقُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ كُنْ لَيْسَ كُنْكَ ؟ لا يَسْتَوِيَانِ هَذَا أَيْدَاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَسَدًا لَّهُ شُرَكَاءُ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَسْمَعُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ ﴾

قُلْ لَمْ أَرَوْهُ أَي تَأْثِيرُ مِنْهُمْ ، وَأَي نَفْعَ لَكُمْ فِيهِمْ ، وَأَي ضَرَرَ لَكُمْ مِنْهُمْ ؟ أَتَقُولُونَ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ بِخِلَافِهِ ؟ وَهَذَا مَعَى قَوْلِهِ : « مَا لَا يَسْمَعُ » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

أَي قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ ، وَزَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ، وَصَارُوا مَصْدُودِينَ عَنِ الْحَقِّ ، مَسْدُودَةً عَلَيْهِمُ الطَّرِيقُ ، فَإِنَّ مَنْ أَضَلَّهُ حُكْمُهُ — سَبْعَانَهُ — لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ قَطْلًا .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

النَّهْلُ أَي الْعَصَا ، فَصَفَتِ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ هِيَ أَنَّهَا جَنَّةُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَأَنَّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا دَائِمٌ ، أَي أَنَّ اللَّذَاتِ فِيهَا مُتَّصِلَةٌ . وَإِنَّمَا لَمْ يَجْعَلُوا مُوَجَّعَةً ، فَالْمُوجَّعَةُ

ما ذكره الله - سبحانه - في نص القرآن ، والمجلة جنة الوقت ^(١) . . . والمجلة - من حيث البسط - فيها متصلة ، وفضحت الأنس لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يُفْرَحُونَ

بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ .

يريد بهم مؤمنى أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق قينهم .

﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُسْكِرُ بَعْضُهُ ﴾

أى الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدمو إلى إله واحد ، فالآن هو ذا يدمو إلى إلهين

لما نزل : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » ^(٢) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ

وَلَا أُشْرِكُ بِهِ ، إِلَهِي أَدْعُو وَإِلَهِي

مَآبٍ ﴾ .

قل يا محمد : « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ » . والصودية المبادرة إلى ما أُمِرْتُ بِهِ ،

والمبادرة ^(٣) مما زجرت عنه ، ثم التبرئ من الخول والمثنة ، والاعتراف بالطول والمثنة .

وأصل الصودية التقيم بالوظائف ، ثم الاستقامة عند رُوح الطوائف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ عَرَبِيًّا وَلِيَنبَيَّ

أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَ مَعْصِيَاهُ مِنَ الْعِلْمِ

مَلَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيِّيَ وَلَا تَأْخُذُ بِهِ

أى حُكْمًا ببيان العرب ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أرسل الرسل في كلِّ وقتٍ كُلًّا بلسان قومه

ليهتموا إليه .

ويقال من صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الدمام ، وهذه الأشياء مندوب إليها

في الشريعة .

(١) أى جنة أرباب الأحوال . . . هنا في هذه الدنيا

(٢) آية ١١٠ سورة الإسراء ومنهم كتب بن الأشراف والسيد والسابق وأشياعهم .

(٣) وردت (المفاخرة) بالضاد وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

« ولئن اتبعت أهواءهم » : أى ولئن وافقتهم ، ولم تستمع بالله ، ووقفت على قلبك حشمة من غير الله — فمآلك من واقع من الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك

وجعلناهم أزواجًا وفريةً وما كان

لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذنِ الله ﴾

أى أرسلنا رسلًا من قبلك إلى قومهم ، فلم يكونوا إلا من جنك ، وكالكم أزواج وفرية كانت لهم أزواج وفرية ، ولم يكن ذلك فادسًا في صحة رسالتهم ، ولا تلك العلاقات كانت شاذة لهم .

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر في حاله ، ولا يضره ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

أى لكل شيء أجل مثبت في كتاب الله وهو المحفوظ ، وله وقت قسيم له ، وأنه لا اطلاع لأحد على علمه ، ولا اعتراض لأحد على حكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِنْدَهُ

أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

المشيئة لا تتعلق بالمحذوث ، والمحور والإثبات متصلان بالمحذوث .

صفات ذات الحق — سبعاته — من كلامه وعلمه ، وقوله وحكمه لا تدخل تحت المحور والإثبات ، وإنما يكون المحور والإثبات من صفات فعله ؛ المحور يرجع إلى المأمم ، والإثبات إلى الإحداث ، فهو محو من قلوب هؤلاء حب الدنيا ويُنْثِتُ بدله الزهد فيها ، كما في خبر طرقة : « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى هدى حجرها وذهبها » (١) .

(١) سأل النبي (ص) حارثة . لكل حق حقيقة ، فإ حقيقة لعانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ... ، خرجنا هذا الحديث في هامش سابق .

ويعمو من قلوب المارفين المخطوطة ، وثبتتُ بدلها حقوة تعالى ، ويعمو من قلوب
الموحدّين شهود غير الحق وثبتتُ بدّله شهود الحق ، ويعمو آثار البشرية وثبتت أنوار
شهود الأحدية .

ويقال يعمو المارفين عن شواهدهم ، وثبتهم بشاهد الحق .
ويقال يعمو العبد عن أوصافه وثبته بلحق فيكون محوّاً عن انغلاق مثبتا بلحق الحق .
ويقال يعمو العبد فلا يجرى عليه حكم التدبير ، ويكون محوّاً بحسب جريان أحكام التقدير ،
وثبت سلطان التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء .
ويقال يعمو عن قلوب الأجانب ذكر الحق ، وثبتت بدّله غلبات الفتن وهواجس النسيان .
ويقال يعمو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة ، وثبتت بدلها
الرجوع إلى ما خرجوا عنه من أحكام المادة .

ويقال يعمو أوصاف الزلّة عن قفوس العاصين ، وآثار المعصيان من ديوان المذنبين
(وثبتت ^(١)) بدل ذلك لوحة الندم ، وانكسار الحسرة ، والحدود من مناعة الشهوة .
ويقال يعمو عن ذنوبهم البيئة ، وثبتت بدلها الحسنة ، قال تعالى : « فأولئك يبذل الله
سيناتهم حسنات » .

ويقال يعمو الله فضيلة الشباب وثبت ضعف للشيب .
ويقال يعمو من قلوب الراضين في مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إيثار محبتهم ،
وثبت بدلاً منه الزهد في محبتهم والاشتغال بمشروعاتهم .
ويقال يعمو الله ما يشاء من أيام صفّت من النيب ^(٢) ، وليال كانت مضادة بلزلة والقرية
وثبت بدلاً من ذلك أياما هي أشدّ خلاصاً من الليالي الخنادس ^(٣) ، وزمانا يحمل سعة الدنيا
عليهم محاسن .

(٢) سقطت هذه اللمعة من النسخ .

(٢) من (العيب) يكون المني أن الأيام التي كانت تمتنع لهم من النيب صافية ، ولكن لا نستبعد أنها
قد تكون (العيب) على من غلبت تلك الأيام من كل كمودة بدليل المعالجة التي وردت فيها بعد .
(٣) جمع خندس أي شديد السواد .

ويقال يحو المارقين بكشف جلالة ، ويشبههم في وقت آخر بلطف جماله .

ويقال يحوم إذا تحيل لم ، ويشبههم إذا تمرز عليهم .

ويقال يحوم إذا ردهم إلى أساليب التفرقة لأنهم يصرون بنعت الافتقار والانكسار ، ويشبههم إذا تحيل لقلوبهم فيصرون بنعت الاستبصار ، ويشهدون بحكم الاختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به علمه وحكمه عملاً بتبدل ولا تغيير فيه .
ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مَا رَبَّنَا بِمُضِئِ أَفْئِدَتِنَا لَعَلَّ الْبَلَغَ

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾

نفى عنه الاستعجال أمراً ، و (. . .)^(١) في قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعد جبراً .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ

نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ

لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴾

في التفسير : يموت العلماء ، وفي كلام أهل للعرفة يموت الأولياء ، الذين إذا أصاب

الناس بلاء ومحنة فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم .

ويقال هو ذهب أهل للعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله .

ويقال : في كل زمان لسان ينطق عن الحق سبحانه^(٢) ، فإذا وقعت فجرة سكن ذلك

اللسان — وهذا هو النقصان في الأطراف التي تشير إليه الآية ، وأشد بعضهم :

طوى الممران ما نشره منى وأبلى جدتي نشر وطى

(٢) يصل ذلك بكثرة التعلب والأوتاد والأبدال

(١) مشتبه .

أَرَأَيْتَ كُلَّ يَوْمٍ فِي انْتِقاصٍ وَلَا يَبْقَىٰ مَعَ النِّقْصَانِ شَيْءٌ
ويقال ينقصها من أطرافها أي يفتح المداين وأطراف ديور الكفار ، وانتشار الإسلام ،
قال تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (١) .

ويقال ينقصها من أطرافها بخراب البليان ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَ ﴾ (٢)
وقال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٣) فمعوذ الحق خراب العالم وفناء أهله ، ووعده حق لأن
كلامه صدق ، والله يحكم لا يُقَبَّ الحُكْمُ ، ولا ناقض لما أقره ، ولا مُبَرِّمَ لِمَا نَقَضَهُ ،
ولا قَابِلَ لِمَنْ دَعَاهُ ، ولا رَادَّ لِمَنْ قَبِلَهُ ولا مُزِيلَ لِمَنْ أَهَانَهُ ، ولا مُدِلَّ لِمَنْ أَعَزَّهُ .
« وهو سريع الحساب » : لأن ما هو آت قريب .

ويقال « سريع الحساب » في الدنيا ؛ لأن الأولياء إذا أَلَوْا بَنِيَهُ ، أو عَمُوا الْمَرْجُورِ
عَوَّبُوا فِي الْوَقْتِ ، وَطَوَّلُوا بِحَسَنِ الرَّجْعِي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ

الْمَكْرُ جَمِيعًا يَلْمِ مَا تَكْتُمُ كُلُّ

نَفْسٍ وَسِيْلَ الْكَفَّارِينَ عَقِبَ الْبَارِ ﴾

مَكْرُهُمْ إِنْظَارُ الْمَوَاقِفَةِ مَعَ إِسْرَارِ الْمَكْفُرِ ، وَمَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ تَوَهُُّهُمْ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ
فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَحِسَابُهُمْ (٤) أَنَّهُمْ سَتَانُ أَحْوَالِهِمْ ، وَظَنُّهُمْ أَنَّهُ لَا يَحِيقُ بِهِمْ مَكْرُهُمْ ، وَتَغْلِيظُهُ
لِيَاْمٍ — مَعَ مَكْرِهِمْ — مِنْ أَقْظَرِ مَكْرِهِ بِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلًا

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

وَمَنْ يَمْنَنَّ اللَّهُ بِالْكَتَابِ ﴾

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) آية ٨٨ سورة القصص .

(٣) آية ٢٦ سورة الرحمن .

(٤) وردت (وحسانهم) وهي خطأ في النسخ .

وَبِالْكِتَابِ نُنصِّبُهُمْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ لِّكَ بِصَدِّقِكَ . ومنه: علم الكتاب ،
هو الله سبحانه وتعالى عنده علمُ جميع المؤمنين . فالله كفى بالله شهيداً فتنده علم الكتاب
وكفى بالمؤمنين شهيداً ؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك .

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾
بسم الله معناه بالله ؛ فقلوب المارقين بالله إشراقها ، وقلوب الزالمين بالله احترامها ،
لهؤلاء (...)^(١) محبته ، ولهؤلاء شوقاً إلى عزير رؤيته .

وأصحاب الوصول قالوا : بالله . . فوصل من الطالبين مَنْ وصل
قوله جل ذكره : ﴿ الرَّكَابُ أَمْزَلُهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

أقسم بهذه الحروف : إِنَّهُ لَكِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى
نور العلم ، ومن ظُلُمَاتِ الشُّكِّ إِلَى نور اليقين ، ومن ظُلُمَاتِ التدبير إِلَى قضاء شهود التقدير ،
ومن ظُلُمَاتِ الابتداء^(٢) إِلَى نور الاتباع ، ومن ظُلُمَاتِ دَعَاؤِ النَّفْسِ إِلَى نورِ معارفِ
القلب ، ومن ظُلُمَاتِ التفرقة إِلَى نور التجميع — بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، وبإرادته ومشيئته ، وما بقى
حُكْمُهُ وقضائه إِلَى صِرَاطِ رَحْمَتِهِ ، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَقِيلُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

عَوَّفَ الْخَلْقَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .

(١) مثلية .

(٢) وودعت (الابتداء) بالهزة وهي خطأ من النسخ .

تَمَنَّيَ عَرَفَ لَهُ اللَّكَبَ الْجَدِيدَ ، وَمَنْ جَدَّ لَهُ الْمَنَابَ الشَّدِيدَ ، وَفَكَ الْمَنَابَ هُوَ
جَبَلُهُ بِأَنَّهُ — سَبَحَانَهُ — مَنْ هُوَ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى
الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْخُلُونَ بِأَعْيُنِنَا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

ثم ذكر ذمهم أخلاقهم ، فقال : هُمُ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الْمَسِيرَ مِنَ حُطَامِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَطِيرِ
مِنْ نِعَمِ الْآخِرَةِ ، وَفَكَ مِنْ شِدَّةِ جُعْدِهِمْ ، وَيَبْخُلُونَ لِدُنْيَا عِوَجًا بِكَثْرَةِ جَهَنَّمِ ، أُولَئِكَ لَمْ
فِي الدُّنْيَا الْفِرَاقَ وَهُوَ أَشَدُّ عِقَابًا ، وَفِي الْآخِرَةِ الْإِحْطَارَ وَهُوَ أَجْلُ عَذَابٍ وَمُصِيبَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ
قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾

إِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِيَكُونَ آكَدًا فِي إِزَامِ الْحُجَّةِ ، وَأَنِّي يَنْفَعُ فَكَ إِذَا لَمْ يُؤَفَّقُوا لِسُلُوكِ
الْمَسْجِدِ ؟ فَأَهْلُ الْهَدَايَةِ طَرَا بِالنَّيَاةِ السَّابِقَةِ ، وَأَصْحَابُ النُّوَايَةِ وَقَعُوا فِي ذُلِّ الْعِدَاوَةِ ، فَلَا
اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فَبَا يَعْنِي ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ أَوْ لَمْ يَفْعَلُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

أَخْرِجْ قَوْمَكَ بِدَهْوَتِكَ مِنْ ظُلُمَاتِ شَكَمِهِ إِلَى نُورِ الْيَقِينِ ، وَمِنْ إِشْكَالِ الْجَبَلِ إِلَى رَوْحِ
الْعِلْمِ . وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَمَا سَلَفَ لَهُمْ مِنْ وَقْتِ اللَّيْثَانِ ، وَمَا دَفَعَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ فِي سَابِقِ
أَحْوَالِهِمْ .

ويقال ذَكَّرَهُمْ بِأَيْلَمِ اللَّهِ وهي ما سبق لأهواهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها في الأشباح :

سَفِيًّا لَهَا وَلَطِيْفًا وَلِحْصَنًا وَبَهَائِمًا

أَيْلَمِ لَمْ (.)^(١)

ويقال ذَكَّرَهُمْ بِأَيْلَمِ اللَّهِ وهي التي كان العبد فيها في كَمِّ العدم ، والحق يتولى عبادته قبل أن يكون للعباد فيلُ ، فلا جهدَ لسايقين ، ولا عنه ولا تركَ للمقتصدين ، ولا وقع من الظالم نفسه ظلم^(٢) .

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة ، والحكم على الإرادة .. ولم يكن للعبد اختيار في تلك الأيلم .

قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

« صَبَارٌ » : راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيق العيش يَسْرُهُ .

« شَكُورٌ » : محجوب^(٣) بشهود النعم من استغراقه في ظهور حقه .. هذا واقف مع صبره وهذا واقف مع شكره ، وكلُّ مُلَزَّمٌ بحده وقدره . . . والله غالب على أمره ، مقدس في نفسه متعزِّزٌ بجلال قدسيه .

قوله جل ذكره ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ

اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

يَسُوءُكُمْ سُوءَ الْمَذَابِ وَبَدَّلَ بِكُمْ

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ

بَلَاءٌ لِمَنْ رَسِمَ عَظِيمٌ ﴾

(١) بقية الكلام غامضة في الكتابة والمعنى ، وتجبر المطبعة أن تتحل حروفها .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى الآية ٢٣ من سورة فاطر : « فَنَهَى طَائِفًا مِنْهُمْ مَقْصِدَ وَمَعْنَى سَابِقَ بِالْخِيَرَاتِ » .

(٣) فلا يزول الحجاب إلا إذا تجرد العبد عن شهود النعمة ، وشاهد النعم ، ومن شاهد النعم استقبل السراء والضراء بلا تميز .

تَذَكُّرُ مَا سَلَفَ مِنَ الشُّكْرِ يوجبُ تجديدَ مَا سَبَقَ مِنَ الْحَبَّةِ ، وَفِي الظُّهْرِ :

« جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا » ، فَطَلِقَ أَمْرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

بِتَذَكُّرِ قَوْمِهِ مَا سَبَقَ إِلَيْهِمْ مِنْ فَتُونِ إِصْنَامِهِ ، وَلِطَائِفِ إِكْرَامِهِ . . . وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : « عِبْدِي ، أَنَا قَدْ حُبِبْتُ فَبِحَقِّ حُبِّكَ كُنْ لِي حَبِيبًا »

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

إِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ إِعْطَائِي وَلَا إِكْرَامِي ، وَإِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَأَعَدُّنَاكُمْ الْيَوْمَ بِمَنْحَائِي ، وَغَدًا بِفِرَاقِي وَهَجْرَانِي .

لَئِنْ هَرَقْتُمْ مَاءَ حُلِيِّكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ وَجُودِ نَوَالِي إِلَى شُهُودِ جَالِ وَجَلَالِي ^(١) .

وَيُقَالُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ وَجِوهَ تَوْفِيقِ الْعِبَادَةِ لَأَزِيدَنَّكُمْ بِتَحْقِيقِ الْإِرَادَةِ .

وَيُقَالُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ شُهُودَ الْإِسْكَانِي لَأَزِيدَنَّكُمْ بِشُهُودِ أَوْصَائِي .

وَيُقَالُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ صُنُوفَ إِعْطَائِي لَأَزِيدَنَّكُمْ بِشُهُودِ إِكْرَامِي ثُمَّ إِلَى شُهُودِ إِقْدَامِي .

وَيُقَالُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ غَنَصَ نِعْمَائِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ تَنْتَظَرِ آلَائِي .

وَيُقَالُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ مَخْصُوصَ نِعْمِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مَأْمُولَ كَرَمِي .

وَيُقَالُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ مَا كَوْنُنَاكُمْ مِنْ عَطَائِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مَا وَعَدْنَاكُمْ مِنْ لِقَائِي .

وَيُقَالُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ مَا تَوَحَّشْتُ فِي سِرَائِرِكُمْ زِدْنَاهُمْ مَا أَلْبَسْنَا مِنَ الْعَصَةِ لظُؤَاهِرِكُمْ .

وَيُقَالُ لَئِنْ كَفَرْتُمْ يَنْصَبِي بِأَنْ تَوْحَمْتُمْ اسْتِحْقَاقَهَا ^(٢) لَتَجْرِعُنَاكُمْ مَا تَسْتَرْوُنَ مَذَاقَهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ نَكَفَرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِيءٌ

حَمِيدٌ ﴾

(١) أَيِ إِذِ الْوُجُودِ وَالْشُّهُودِ . . . بِهَذَا الصَّوْرِ — بِرَتِّيبِ طَائِفِ الْأَوْصَائِ لَا بِطَائِفِ الصِّدْقِ مِنْ أَنْ يَسْتَكْرِفَ الْبُهِدَ مِنَ الْقَاتِ .

(٢) أَيِ يَلْبِسِي أَنْ تَنْظُرُوا لِأَعْمَالِكُمْ بَيْنَ الْأَصْغَارِ وَأَنْ مَا تَتَلَوْنَ مِنْ نَسْمَةِ فِعْلِ مِنْ اللَّهِ وَلَيْسَ نَظِيرُ أَعْمَالِكُمْ .

إن اجتمعتم أنتم ومن حاضركم ، وكل من غلب عنكم وحضركم ، والذين يقتفون أثركم — على أن تكفروا بالله جميعاً ، وأخذتم كل يوم شركه قلعياً — ما أوجههم ليرثنا شيئاً ، كما لو شكرتم ما جعلتم يملككمنا زيناً . ولحق بنعوتهم ووصف جبروتهم عليّ ، وعن العالمين بأمره غنى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَنُوحٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاهِلْتُمْ رَسُولَهُمْ بِالْإِنِّاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَظَلُّوا إِنْ كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ ﴾

استفهم في معنى التقرير . أخبره أنه لما جاءهم الرسل قائلون بالكفود ، وعلمهم بالبعود وردوا أيديهم في أفواههم ، وحدوا سبيلاً أمثلهم في الكفر ، وبنوا على الشك والريبة قواعدهم ، وأسوا على الشرك والحق مناهبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالْت رَسُولَهُمْ أَنَّى اللَّهُ شَكُّ قَاتِلُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِمَّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ۝ ﴾

استفهم والمراد منه توبيخ ونفي . سبحانه لا يتحرك نفس إلا بنصرته .

وكيف يصبر جلال قدره إلا من كحل بنور يره ؟

ثم قال : « يدعركم ليغفر لكم من ذنوبكم » : ليس العجب من تكلف ليه الشاك ونحمل ما لا يطلق ، وألا يهرب من خسة أو يبتغ إلى راحة .. إنما العجب من سيده عزير كريم يدعو عبده ليغفر له وقد أخطأ ، ويمامه بالإحسان وقد جفا .

واللّٰى لَا يَكْفُفُ مِنَ الْعَنَادِ ، وَلَا يُؤْثِرُ رِضَاهُ سَبِيْدَهُ عَلَى رَاحَةِ نَفْسِهِ فَلَا يُصَلِّ هَذَا إِلَّا عَلَى قِسْمَةٍ بِالشَّقَاءِ سَاقِئَةٍ . . وَإِنْ أَحْكَمَ اللهُ بِرَدِّهِ صَادِقَةً . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ هَلُوا لِرُسُلِهِمْ :

هَلُوا هَلُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بِشَرِّ مِثْلُنَا
تُرِيدُونَ أَنْ تَصْدُقُوا مَا كَانَ يَسْبُدُ
أَبْلُوْنَا فَأَتَوْنَا بِسُلْطَانٍ مَبِينٍ ﴿

نظروا إلى الرسل من طواغيتهم ، ولم يعرفوا سرّاتهم ، ومالوا إلى تقليد أسلافهم ، وأصرّوا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ لِمَ رُسُلُهُمْ إِنْ مَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

قالت لهم الرسل ما نحن إلا أمثالكم ، والفرق بيننا أنه — سبحانه — منّ علينا بنعريه ، واستخلفنا بما أفرّدنا به من تشريعه . واللّٰى أَهْرَحَمَ عَلَيْنَا مِنْ ظُهُورِ الْآيَاتِ فَلَيْسَ لَنَا إِلَى الْإِثْمَانِ بِهِ سَبِيلٌ إِلَّا أَنْ يُظْهِرَهُ اللهُ عَلَيْنَا إِذَا شَاءَ بِمَا شَاءَ — وهو عليه قد ير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَرْسِبَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَكَتُبِيرُنَّ عَلَى مَا آذَيْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

« ما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد رقّنا من حدّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفضى علينا من جيل الإحسان ، فكفانا من مهان الشان . « وما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد حقّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان ، وكفاية ما أظّلنا من الامتنان . « ما لنا ألا نتوكل على الله » ولم يخرج إلى التناقض على الله فيما وعدنا الله .

قوله : « ولتصبرن على ما آذيتونا » : والصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية النبيل ، وفي مناه الأشرار :

يستقمون بلاياهم كأنهم لا يباسون من الدنيا إذا قبلوا
قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ
لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ
فِي مَلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾

لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء معهم بأنواع الإضرار ، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان ، والتشريد في البلدان . وبسط الله على قلوبهم يوهى نصره ولفاته ما أظلمهم من الأمر ، ومكن لهم من مساكن أعدائهم بما قوى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال :

« لنهلكن الظالمين » ، وقال :

﴿ وَلَنُكَبِّرَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ
بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي
وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

« وخاف وعيد » : أى خاف مقامه في محل الحساب غداً فأناوب إلى نفسه على وجه التخصيص .

وقال خاف مقامى أى هاب أطلاعى عليه ، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل ، والثانى تحقيق المراقبة في العاجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَعِظُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

الاستغناح طلب الفتح ، والفتح القضاء ، واستعظوا حلول القضاء مثل قولهم : « إن كان هذا هو الحق من عندك فأُمطر علينا حجارة من السماء »^(١) وغيره فلما نزل بهم البلاء ، وتحقق لهم

(١) آية ٣٢ سورة الأنفال .

الأمر لم ينفعهم نضرهم وبكأؤم ، ولم تقبل منهم صدقاتهم وفداؤهم ، وقاموا حين لا ندامة ،
وجزموهم بعدما عهدوا السلامة .

وقال : « واستفتحوا » : بفتح الرسل ، ولما وجد الرسل إصرار قومهم سألوا النصره
عليهم من الله كقول نوح — عليه السلام : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين
ديراً » ، وقول موسى عليه السلام : « ربنا اطمس على أعينهم واشدد على قلوبهم »^(١)
فأجابهم الله بإهلاكهم .

ويقال إذا اشتد البلاء وصنق الأهواء قُوبَ النجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ تَوَيْنَ وَرَاءَهُ يَسْتَقِي وَيُسْقَى مِنْ
مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ يتجرعه ولا يكأه
يُسْقَى

لفظ « وراء » يقع على ما بين يديه وعلى ما خلفه ، والوراء ما توارى عليك أي
استتر ؛ يريد هنا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان ، وعلى ما خلفه أي لأجل
ما سلف من المخوف من قبيح أفعاله ، ويستقي من النار ما يشربه جرعة بها جرعة ،
فلمصوبته ومرارته لا يشربه مرة واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
وَمَا هُوَ بِمُعَيِّنٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ ﴾

يرى العذاب — من شدته — في كل عضو ، وفي كل وقت ، وفي كل مكان . وليس
ذلك الموت ؛ لأن أهل النار لا يموتون ، ولكنه في الشدة كاللوت . ثم « من ورأه عذاب
غليظ » : وهو الخلود في النار ، وهذا جزاء من اغترأ بإيمر قلال ساعده المشينة فيها ،
وانخضع فلم يشعر بما يليها .

(١) الآية ٨٨ سورة يونس .

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ
كَرَمَائِدٍ أَسْتَدَتْ بِهَ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ
عاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا
عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
الْبَعِيدُ﴾

أى وفيما يُنتَلَى عليك — يا محمد — مَثَلُ لأعمال الكفار في تلاشيها ، وكيف أنه
لا يُقْبَلُ شيء منها كَرَمَائِدٍ في يومٍ عاصِفٍ ، فإنه لا يَبْقَى منه شيء — كذلك أعمالهم .
ومن كل ذلك فقد خلب في القلوب ، وحل عليه الويل .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ الحق ، أى له ذلك بحق ملكه ، وخلقهما بقوله
الحق ؛ فجعل كل جزء منهما على وحدانيته دليلاً ، ولما أراد الوصول إلى ربه سبيلاً .
ثم قال : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ بِالْإِفْهَاءِ ، وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ في الإنشاء ، وليس ذلك عليه
بعزيز ... وأنى ذلك وهو على كل شيء قدير ۱۹

قوله جل ذكره: ﴿وَيَرْزُوا اللَّهَ جَمِيعًا ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ
لَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا قُلْ أَنتُمْ مُتَّبَعُونَ هَذَا مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

لم يكونوا عن الحق — سبحانه — مستعزِينَ حتى يظهروا له ، ولكن منهم صارت
معارفهم ضرورية لخصلا في مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم ، فصاروا كأنهم ظهروا لله .
فقال الضعفاء لَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : «إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» توهمًا أن يرفضوا عنهم شيئًا من العناء ،
فأجابهم المتكبرون : «إِنَّا جَمِيعًا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ، وَلَوْ أَمَكُنَّا أَنْ نَرْفَعَ عَنْكُمْ مِنْ

العذاب ، وقدرنا على أن نهدىكم إلى طريق النجاة لتجبتكم بما شكوتم ، وأجبتكم إلى ما سألتكم ، ولكم لسن اليوم لنا بمصرخين ، ولانحن لكم بمغيثين ، ولما تدمعونا إليه مستجيبيين ...

فلا تقوموا ولوموا أنفسكم ، ولات حين ملام ! إنما ينفع لوم النفس فيما تتعامله من الإساءة في زمان للهلة وأوقات التكليف ؛ فإن أبواب التوبة مفتوحة ، ولكن لمن لم يتزع دونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْبَبُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

الصلوات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم يحببهم فيها سلام

ذلك الذى مضى ذكره صفة الكفار والأعداء . وأما المؤمنون والأولياء ، فقال : « وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا » والإيمان هو التصديق ، « وعملوا الصالحات » تحقيق التصديق . وينسئل في جملة الأعمال الصالحة ما قل أو كثر من وجوه التلخيص حتى القدر تبينه (١) من الطريق .

و « يحببهم فيها سلام » — وكنفك قال تعالى : « لم دار السلام » ، « طوصف العالم والتحية لم من الله السلام » .

ويقال إن أحوال متفاوتة في الرتبة ؛ قوم سيلوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من المحاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

كَلَّةً طَيَّةً كَشَجَرَةٍ طَيَّةٍ أَسْلَمَهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا

(١) أملا الأذى أى نجاه وأهمه

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ • وَمِثْلُ كَلِمَةِ خَيْثَانَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَيْثَانَةٍ اجْتَنَبْتُ مِنْ فَوْقِ
الْأَرْضِ مَلْأَمِنْ قَرَارٍ •

هذا مثل ضرب به الله للإيمان والمعرفة به سبحانه ، فشبهه بشجرة طيبة ، وأصل تلك الشجرة
ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية . تؤتى أكلها كل وقت ، وينتفع بها أهلها
كل حين .

وأصل تلك الشجرة المعرفة ، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين ، وفروعها الأعمال
الصالحة التي هي الفرائض ومجانبة المماص .

والواجب صيانة الشجرة مما يضرُّ بها مثل كشف القشر وقطع العروق وإملاق النمنم^(١)
وما جرى مجراه .

وأوراق تلك الشجرة القيام بأداب السودية ، وأزهارها الأخلاق الجليلة ، وثمارها حلوة
الطاعة وقلعة العزيمة .

وكما أن الثمار تختلف في العلم والطبع والرائحة والصورة . كذلك ثمرات الطاعات ومعاني
الأمشيء التي يجدها العبد في قلبه تختلف من حلوة الطاعة وهي صفة الماعدين ، والبسط الذي
يجده العبد في وقته وهو صفة العارفين ، وراحة في الضمير وهو صفة المريدين ، وأنسي بناله
في سرِّه وهو صفة المحبين . وقلقي واحتياجي يجدها ولا يعرف صيبتها ، ولا يجد سبيلا إلى
سكونه وهو صفة المشتاقين . إلى ما لا ينفي بشرحه نطق ، ولا يستوفيه تكلف قول . وذكر
من أنواع دواعي ، وطوارق وشوارق ، كما قيل .

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتظهر كأنها وتختفي عن جمع

ثم إن ثمرات الأشجار في السنة مرة ، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة .
وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » كذا لطائف هذه الشجرة

(١) أي لإذهاب القاسد منه .

لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وقلوب أهل الحقائق فيها لامعة و لا معجوبة ، و هي في كل وقت
ونفس تبدو لم غير معجوبة .

و ثمرات الشجرة أشرف الثمار ، وأنوارها ألطف ، وأظرف ، وأنوارها ، وإشراوات أهل ^{٤٧}
القصص وأفانظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياضين والنور .

ويقال الكلمة العلية هي الشهادة بالإلهية ، والرسول — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة .
وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سر مخلص .

والشجرة الطيبة المرفة ، وأصلها ثابت في أرض غير سبخة ، والأرض السبخة قلب
الكافر والمنافق ، فالإيمان لا يثبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تثبت .
ثم لا بد لشجرة من الماء ، وماء هذه الشجرة دوام المنية ، وإنما تروى بالكفاية ،
وتنور بالهداية .

ويقال ماء هذه الشجرة ماء النعم والحياة والتلفيح والحسرة والأمانة والشفوع
وإسبال ^(١) النموع .

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم ، فمنها التوكل والنفوس
والتسليم ، والمحبة والشوق والرضا ، والأحوال الصافية الواقية ، والأخلاق العالية الزكية .
ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر ، وخبيثها ما مصبها من فحشاء الشرك ،
فعبثت الكلمة لصعودها من قلب هو مستقر الشرك ومنبعه .

والشجرة الخبيثة هي الشرك أجث من فوق الأرض ؛ لأن الكفر متناقض متضاد ،
ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا عقل يقتضيه ، إنما هو شبهة
وأباطيل وضلال ، تقتضي وسوس وتسويلات ماله من قرار ، لأنها حصلت من شبهة وإغية
وأصول فاسدة .

فوله جل ذكره : ﴿ يَكْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

(١) أسبغت العين = سال دمعها (الوسيط ج ١ ص ٤١٧) .

الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة
ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويضلُّ اللهُ
ما يشاء

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة ، وترك الميوج .

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية من صفاء المقيدة وخلوص السريرة .

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان .

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يبورز عليه الفناء والبطول^(١)
فهو بالثبوت أولى من قول العبد ؛ لأن قول العبد أثر ، والآثار لا يبورز عليها الثبوت والبقاء
وإنما يكون باقياً حُكماً ثبت العبد قول الله ؛ وهو حكمه بالإيمان وإخباره أنه مؤمن
وتسبب بالإيمان . وقول الله لا يزول ؛ ففي الدنيا يثبت حتى لا يدعةً تصغره ، وفي الآخرة
يثبت برسله من الملائكة ، وفي القيامة يثبت عند السؤال والحاسبة وفي الجنة يثبت لأنه لا يزول
حمد العبد لله ، ومعرفته به . وإذا تنوعت عليه الخواطر ووقع إليه — سبحانه — دعاه ثبتته
حتى لا يجحد عن التمسك بالدين القويم .

ويقال إذا دعت الوسوس إلى متابعة الشيطان ، وصيرته المواجه إلى موازنة النفس
طلق يثبت على موازنة رضاء .

ويقال إذا دعت دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا ، أو محبة الأولاد والأقارب
والأموال والأحباب أماته الحق على اختيار النجاة منها ، فيترك الجميع ، ولا يتحسس
إلا دواعي الحق — سبحانه كما قيل :

إذا ما دعتنا حاجة كي نردنا أيننا وقلنا : مطلب الحق أولاً

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾

(١) بطل الله ، بطولا و بطلانا = ذهب ضياعاً (الوسيط ج ١ ص ٦١) .

وضعوا الكفران محل الشكر ، فاستعملوا النعمة للكفر ، بدلاً من استعمالها فيها كان ينبغي لها من الشكر . واستعمال النعمة في للمصيبة من هذه الجهة ، فأعضاء العبد كلها نعم من الله على العبد ، فإذا استعمل العاصي يَدَّهُ في الزَّوْلَةَ بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بدلَّ النعمة كُفْراً ، وكذلك إذا أودع النظرة قلبه مكنً المرفة ، والملافة فيه مكنً الاقطاع إليه ، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بدلَّ الثقة به ، وَلَطَّخَ لسانه بذكر المخلوقين ومدحهم بدلَّ ذكر الله واشتغل بشير الله دون العناء في ذكره . . . كلُّ هذا تبديلُ نِعَمِ الله كُفْراً . وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله ، مكفياً من قِبَلِ الله . . وَجَدَ في قِراغه مع الله راحةً من انغلاق ، ومن إقباله عليه — سبحانه — كفاية ، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة ، ووقع في بحار الاشتغال ومعاملة انغلاق ومدحهم وخمهم قد أحلَّ قومه دار البوار ؛ على معنى إيقاعه قلبه وتلقُّله وجوارحه في اللذة من انغلاق ، والمضرة في الحال ، وشأنه كما قيل :

ولم أرَ قَبِيلَ مَنْ يُطَارِقُ جَنَّةً وَيُفْرِجُ بالتفصيل بابَ جهنم

قوله جل ذكره : ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَلْسَ التَّوَارِ ﴾
وهي الجحيم المشجِّل . . . وعنايتها الفُرْقَةُ لا الخُرْقَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجِئُوا اللَّهَ أُنَادَاً لِيُضِلُّوا هِن
سِيَّه قُلْ تَمَتُّوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ
إلى النار ﴾

وضوا بأن يكون مصلوئهم مبدوئهم ، ومنحوئهم مقصودهم ، فضلوأ هِن سِيَّه الاستقامة ،
وأوا هِن مقر السكامة ، وصيلقون رُغب^(١) ما صنوا يوم القيامة كما قيل :
قد تركناك والهي تريد فسي أن تملهم فتعودا
قل تمتوا أيلما قليلة فأيلم السرور قصار ، ومتع اللذة سريرة الاقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِمَ بَادَى الَّذِينَ آمَنُوا يُكَيِّمُوا

(١) وردت (هـ) وقد آثرنا أن تكون (هـ) ليقوى المعنى أى طاعة ما صنوا .

الصلاة وينقوا عما رزقناهم ميراً
وطانيةً من قبل أن يأتي يوم
لا بيع فيه ولا خيال

جعل الله راحة العبد — اليوم — بكاملها في الصلاة ؛ فأيتها عمل المناجاة ، قال الرسول
صل الله عليه وسلم : « أرحنا يا بلال بالصلاة »^(١) والصلاة استفتاح بلب الرزق ، قال تعالى :
« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً »^(٢)

وفي الصلاة بيت^(٣) العبد أسراراً مع الحق ؛ فإذا كان لقاء الإخوان — كما قالوا —
مسألة لم فكيف بمناجاتك مع الله ، ونشر قصتك بين يديه ؟ كما قيل :

قل لي بالسنة التتقى كيف أنت وكيف حالك ؟

« وينقوا عما رزقناهم » : أمرهم بأنفاق اللسان على ذكره ، وإفراق البدن على طاعته ،
والوقت^(٤) على شكره ، والقلب على عرفانه ، والروح على حبه ، والسر على مشاهدته . .
ولا يكلف الله نفساً إلماً إلا ما آتاهها ، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب ، وتقف على البساط
بالشاهد الذي آتاك . . يقول العبد المسكين : لو كان لي نفس أطوع من هذه لأتيت بها ،
ولو كان لي قلب أشدّ وطه من هذا لجئت به ، وكنفك بروحي وسري ، وقيل :

بذيك بالروح صبّ لو أنّ له أعز من روحه شيئاً فذاك به
« من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خيال » : وفي هذا للمعنى أنشعوا :

قلت لنفسي إن أردت رجوعاً فلرجى قبل أن يهد الطريق

قوله جل ذكره : « يا الله الذي خلق السموات والأرض
وأزل من السماء ماء فأخرج به من

(١) سبق تخريج هذا الحديث العريف .

(٢) آية ١٢٢ سورة طه .

(٣) وودت (بيت) والمعنى يتقنى (بيت) .

(٤) وودت (الوقت) وفي — كما هو واضح — خطأ في النسخ .

الغراتِ رِزْقاً لكم وسخّر لكم
 الفُكَّ لتجري في البحر بأمره
 وسخّر لكم الأنهار • وسخّر لكم
 الشمس والقمر دائمين وسخّر لكم
 الليل والنهار ﴿١﴾

في الظاهر رزق السماء فأعلاها ، والأرض من تحتها حملها ، وخلق فيها بحاراً ، وأجرى
 أنهاراً ، وأنبت أشجاراً ، وأنبت لها أنواراً وأزهاراً ، وأمطر من السماء ماءً منيراً . وأخرج
 من الغرات أصنافاً ، ونوعاً لها أوصافاً ، وأفرد لكل منها طعاماً مخصوصاً ، وإدراكه
 وقتاً معلوماً .

وأما في الباطن فسواء القلوب رزقها بمصابيح العقول ، وأطلع فيها شمس التوحيد ،
 وقر العرفان . وخرج في القلوب بحرى الخوف والرجاء ، وجعل بينهما برزخاً لا يبشيان ؛
 فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف ، كما جاء في الظاهر : « لو وزنا لا اعتدلا »^(١)
 — هذا لعمام المؤمنين ، فأما للخواص فالقبض والبسط ، وخلص الخالص فالحياة والأنس
 والبقاء والبقاء .

وسخّر لهم الفُكَّ في هذه البحار ليعبروها بالسلامة ، وهي فلك التوفيق والعصمة ،
 وسفينة الأنوار والحفظ . وكذلك ليالى الطلب للمريد ، وليالى الطرب لأهل الأنس من
 المحبين ، وليالى الحرب^(٢) للتائبين ، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم هند
 متويع نهار اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن
 تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن
 الإنسان لظلوم كفار ﴾

ما تمت إليه هممكم ، وعلق به سؤالكم ، وخطر تصديق فكك ببالكم ، أفلنالك

(١) أوردته الأراج في لعم من ٩١ (قال صلى الله عليه وسلم : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاحتدلا)
 (٢) ربما يقصد التشيرى بالحرب هنا جهاد التائب مع نفسه ، وإظهار الحزن والتأسف .

فوق ما تؤمنون^(١) ، وأعطيناكم أكثر مما ترجون^(٢) ، قال تعالى : « ادعوني استجب لكم » .

وقرأ بعض القراء^(٣) : « من سأل ما سأله » فيكون قوله : كل ، ويصل ما سأله (ما) لئني أي كل شيء مما لم سأله .

كنذك جز أن يكون المعنى ، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني — وهذا لأرباب الطاعات ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني — وهذا لأصحاب الزلات . علم قصور لسان المعنى وما ينتمى من العجز وما يقبض على لسانه إذا تذكر ما حله من الزلات ، فأعطاه غفرانه ، وكفاه حشمة السؤال ، والتفضل ؛ فقال : غفرت لكم قبل أن تستغفروني .

ولكن متى يخطر على قلب المبد ما أهله الحق — سبحانه — من العرفان ؟ وكيف يكون ذلك الحديث ؟ . . . قبل أن كان له إمكان ، أو معرفة وإحسان ، أو طاعة أو عصيان ، أو عبادة وعرفان ، أو كان له أعضاء وأركان ، أو كان المبد شيئاً أو شيئاً أو أثراً . . . لا بل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ضلّاف قلباً خالياً فتسكنا

قوله جل ذكره : (وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

كيف يكون شكركم كفاء نعمة . . . ؟ وشكركم نزل بهير ، وإفضله وافر غزير .
وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإصنام ؟
إن نعمة مخلوقكم من تفصيلها متعصرة ، وفؤوسكم من تفصيلها متأخرة .

(١) وودت (تؤمنون) وهي — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فافترنا تؤمنون .
(٢) وودت (ترجون) وهي — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فافترنا ترجون .
(٣) لا يتم التفسير بالقرارات إلا نادراً ، وجبنا وجد : الله تعالى لإعارة ناعمة صورية

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن^(١) وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له .
فكيف يأتي الحصر والإحصاء على ما لا يتناهى ؟
وكما أن النفع من نعمه فانهنغ أيضاً من نعمة .
ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما يتم به الحق على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه
إلا بتوفيق آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ
نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ربِّ إني أعوذ بك
كثيراً من الناس فمن تبصني
فإنه مني ﴿

كما سأل أن يجعل مكة بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً ؛ أي لا يكون فيه شيء
إلا بالله . « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » : والصنم ما يعبد من دونه ، قال تعالى :
﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾^(٢) فنصم كل أحد ما يشغله عن الله تعالى من ماله وولده
وجاه وطاعة وعبادة .

ويقال إنه لما بنى البيت استعان بالله أن يجرده من ملاحظة نفسه وفعله .
ويقال إنه — صلى الله عليه وسلم — كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق
نفسه ، فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه : « واغفر لآبي إنه كان من الضالين » .
ولما نظر من حيث قدر نفسه قال : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » .
ويقال شاهد غيره فقال : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » ، وشاهد فضله ورحمته
ولطفه فقال : « واغفر لآبي إنه كان من الضالين » .

(١) وردت (المحن) وهي خطأ في النسخ .

(٢) سقطت (وإذ) من النسخ .

(٣) آية ٢٣ سورة الجاثية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« فإنه مني » : أي موافق لي ومن أهل ريلتي ، ومن عصاني خالفني وعصاك .

قوله : « فإنه » (١) غفور رحيم » : طلب الرحمة بالإشارة ، أي فلرحمهم .

وقال : « وَمَنْ عَصَانِي » . . . ولم يقل : مَنْ عَصَاكَ ، وإن كان من عصاه فقد عصى الله ،
ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من تركه حقه ، ولم ينتصر لنفسه بل
قابلهم بالرحمة .

ويقال إن قولَ نبينا صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أتمُّ في معنى العفو حيث قال :
« اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وإبراهيم — عليه السلام — عرضَ وقال : « فإنه
غفور رحيم » .

ويقال لم يهزم السؤال لأنه بدعاء الأديب (٢) فقال : « ومن عصاني فإنه غفور رحيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ

غَيْرِ ذِي زَوْعٍ عِنْدَ يَتِّكَ الْحَرَمِ رَبَّنَا

لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ

النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ

الشَّرَاطِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله : « إِنِّي أَسْكَنْتُ . . . » وإنما رأى الرُّفُقَ
بهم في الجوار لا في الميَّار فقال : « عند يَتِّكَ الْحَرَمِ » ثم قال : « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » :
أَي أَسْكَنْتُهُمْ لِإِقَامَةِ حَقِّكَ لَا لِطَلَبِ حَقِّكَ .
ويقال اكتفى أن يكونوا في خلال عنايته عن أن يكونوا في خلال نعمته .

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها « فإن الله غفور رحيم » .

(٢) تلبد هذه الإشارة في النواحي البلاغية حيث استبدل التمييز بالأسلوب الإنشائي بالأسلوب الخبري .

ثم قال : « فاجعل أفتنة من الناس نهوى إليهم » أى ليشتغلوا بمبادئك ، وأنهم قومي — ما بقوا — بكفائتك ، « وارزقهم من الثمرات » : فإن من قام بحق الله أقام الله بحقه قومه ، واستجاب الله دعاءه فيهم ، وصارت القلوب من كل بر وبحير كالجذوة على حبة تلك النسبة ، وأولئك المتصلين به ، وسكان ذلك البيت .

ويقال قوله : « بوايد غير ذى زرع » : أى أسكنتهم هذا الوادى حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبهم ، ولا تشتغل بشئ أفكارهم وأسرارهم ؛ فهم مطروحون بياك ، مصبونون بحضرتك ، مرتبطون بصحتك ؛ إن راعيهم كهيئتهم وكانوا أعز خلق الله ، وإن أقصيتهم ونفيتهم كانوا أضف وأذل خلق الله .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

استأثرت بعلم الغيب فلا يعزبُ عن علمك معلوم ، وحال لا تخفى عليك ، فهى كما عرفت ، أنت تعلم سرى وعلمى .. ومن عرف هذه الجلة استراح من طوارق الأغيار ، واستروح قلبه من رجز الأفكار ، والتفتش في كون الحوادث من الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّعَاءِ ﴾

أسمعه بمنحه الولد على الكبر ، وبلغني ذلك بوجوه من المعجزات ؛ الحمد عليه . ولما كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدم من ذكر نعمته — سبحانه — عليه ، وإكرامه بأنواره ، وهذا يكون بمعنى الملك^(١) ، ويكون استدعاء نعمة بنعمة ، فكأنه قال : كما أكرمتني برتبة الولد على الكبر ، فأكرمتني بهذه الأشياء التى سألتها .

ويقال الإشارة في هذا أنه قال : كما مَنَنْتَ على قوهبتى على السيكر هذه الأولاد

(١) الملك = الدعاء والتضرع (الوسيط) .

فَأَجِزْنَا أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ لَنَكُونَ لِنِعْمَةِ كَامِلَةٍ . وفي قوله : « إن ربى لسميع الدعاء » . .
إشارة إلى هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾
رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿

في قوله : « رب اجعلني مقيم الصلاة . . » إشارة إلى أن أفضل العباد مخلوقة ، فعناء
اجل صلاتي ، والتخلُّق بمعنى ، فإذا جعله مقيم الصلاة فعناء أن يجعل له صلاة .
وقوله : « ومن ذريتي » : أى اجل منهم قومًا يصلُّون ، لأنه أخبره في موضع آخر
بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » ^(١)

ثم قال : « ربنا اغفر لي ولوالدي » وهذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن .
وقال إن إجابة الدعاء ابتداءً فضل منه . ولا ينبغي للعبد أن يتشكَّل على دعاء أحد
وإن كان عليَّ الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ، فلا دعاء أتمُّ من دعاء إبراهيم
عليه السلام ، ولا عناية أتمُّ من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له .
وقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعاءه ، فإن إبراهيم
أغلغل عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له ، ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حيناً لم يُجِبْ فيه .
فلا غضاظة على العبد ولا تناله مدَّةٌ إن لم يُجِبْهُ مولاه في شيء ؛ فإنَّ الدعاء عبادةٌ لا بدَّ
للعبد من فعلها ، والإجابة من الحقِّ فضلٌ ، وله أن يفعل وله ألا يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ ﴾

هذا وعيدٌ للظالمين وتسليةٌ للمظلومين ؛ فالظالم إذا تحقق بأنه — سبحانه — عالمٌ بما
يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته ، وحق عليه عمله .

(١) آية ١٧٤ سورة البقرة .

والظلم على وجوه ؛ علمٌ على النفس بوضع الرُّلَّة مكان الطاعة ، وظلم على القلب بتمكين
الخواطر الردية منه ، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخالفين .

ويقال من جملة الظالمين الشيطان ، فالعبد المؤمنُ مظلومٌ من جهته ، والحقُّ — سبحانه —
يتصف له منه غداً ، وذلك إن لم يَتَّبِعْهُ اليومَ ، ودَفَعَهُ من نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

الْأَبْصَارُ ﴾ مُبْطِلِينَ مُقْنَى... الآية ﴿

وهذا لغوام من المؤمنين ، علق قلوبهم بالانتقام منهم في المسأف ، وأما الخواص فاذا
علموا أنه — سبحانه — عالمٌ بهم ومحالمٌ فإنهم يعفون ويكتفون بذلك ، وأما خواص
الخواص فاذا علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظلمهم حتى يستغفر لهم ، كما قال النبي
— صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وفي معناه أنشدوا :

ومارضوا بالعفو عن قبيحة حتى أنقروا كنهه وازدادوا

وأما أصحاب التوحيد فاذا علموا أنه المنفى ، وألا عتزع سواه فليس بينهم وبين أحدٍ
محاسبة ، ولا مع أحدٍ معاتبةٌ ، ولما منه مطالبةٌ ، لأنهم يمدُّون إثباتَ الخير في الظن
والحسان شيراً كلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا

إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ مُّجِيبٌ دَعْوَتَكَ

وَتَتَّبِعِ الْاِسْلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا

أَقْسَمْتُ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ

زَوَالٍ ﴾

أفسدوا في أول أمورهم ، وقصروا في الواجب عليهم ، ولم يكن للخلل في أحوالهم
جبران ، ولا لعنهم قبول لتصحح الحجة عليهم ، فانتضح الجرم منهم ، وخاب الكافر ،
وحقُّ الحكم عليهم .

فصار صاحب حجاب — يصحُّ أن يقال يدل له الأرض ، قال بعضهم :

ما الناس بالناس الذى عهدى بهم ولا البلاد بتلك التى كنت أعرفها
وكذلك العبد للرب إذا وقعت له وقعة أو فترة كانت الشمس له كاشفة ، وكانت الأرض
به راجعة ، وكان النهار له ليلا ، وكان الليل له ويلا ، وكما قيل :

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا يَطْلُق ولا ماء الحياة يبارد

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ * سَرَّاهُمْ مِنْ قَطْرٍ أَنْ
وَتَفَشَّى وَجْهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

الأصفاذ الأغلال . الأصفاذ تجميعهم ، والسلاسل قديم ، والقطران سراييلهم ، والحجم
شربهم ، والنار محيطة بهم .. وذلك جزاء من تخلف إلهه .

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِنَاسٍ لِيَنْتَدِرُوا بِهِ
وَلِيَعْلَمُوا أَنَّا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لآئحة ، والدواعى واضحة ، واللبلة منسمة ، والرسول عليه
السلام مُبَلِّغٌ ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكن القسمة سابقة ،
والتوفيق عن القيام ممنوع ، والرب — سبحانه — قَالُ لما يريد ، فَمَنْ اهْتَرِجْنَا ،
ومن غفل تردى . والله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التي يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس ريادة لها علة ، ليعلم أن الإثبات والإسقاط ملاعبة فلم يقبل من قيل لاستحقاق علة ، ولا رد من رد لاستيجاب علة . فإن قيل العلة في إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال في كتابها أشكل بأن الباء من بسم الله زيد في كتابها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضلها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود ، فلم يبق إلا أن الإثبات والنفي ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرَآنٍ

مبين﴾ .

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعة على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف للنظومة في الخطاب ، فأعرضوا عن كل شيء وسمعوا لها . ونهيم القرآن إلى أن هذه التي يسمونها آيات الكتاب ، فقال لهم لما حضرت ألبابهم ، واسمعت لسان ما يقول آذانهم : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » .

ووصف القرآن بأنه مبين ؛ لأنه يُبينُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم ، وللمريدين ما يقوى رجاءهم ، وللمحسنين ما يبيح اشتياقهم ، وللمشتاقين ما يثير لواعج أسرارهم ، ويبيّن للصطفى — صلى الله عليه وسلم — تحقيق ما منعه غيره بعد سؤاله . . ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام : « لن تراني » بعد سؤاله : « رب أرني أنظر إليك »^(١)

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّمَا يُؤَذِّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ .

إذا عرفوا حلم وحال المسلمين يوم القيامة لمعوا كيف شقوا ، وأى كأس رشقوا .
ويقال إذا صارت المصارف ضرورية أحرقت نفوس أقوام العقوبة ، وقطعت قلوبهم الحسرة .

ويقال لو عرفوا حلم وحال المؤمنين لعلموا أن العقوبة بإهلاكهم حاصلة لقوله تعالى بمذنب :

﴿ذَرِهِمْ يَاسْكُوا وَيَتَنَتَّمُوا وَيُطْلِمُوا الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَطْلُونَ﴾ .

قبة كل امرئ على حسب جهته ؛ فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة الالهية لا يحاسب ، وعلى العقل لا يطالب ؛ فالتكليف ينجم التشريف ؛ وغداً سوف يطلون .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَلُومٌ * مَا تَسْقُوتُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ .

الآجال ملومة ، والأحوال مفسومة ؛ والمشيئة في الكائنات ماضية ، ولا تخفى على الحق خافية

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ .

الجنون معني يوجب إسناد ما ينكشف للعلاء من التحصيل على صاحبه ، فلما كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أوتى بما وصفوه به (١) ، فهم كما في المثل : رمتني بدائها وانسلت .

(١) لأنهم ليسوا عقلاء ولا تحصيل لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تَوَّأْنَا تَيْنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ما نُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْتَظَرُونَ ﴿

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بما أُنِيتِ الملائكة عليهم بما أُنِيت به معجزاته ، فيتوجب
 اللوم عليهم لسوء أدبهم . وأخير الحق — سبحانه — أنه أجرى عادته أنه إذا أُنْهِرَ الْمَلَائِكَةُ
 لِبَصَائِرِ بَنِي آدَمَ فيكون ذلك عند استبصارهم ؛ لأنه تصوير المعرفة ضرورية . وفي المعلوم
 أنه لم يكن ذلك الوقت أَقَانَ هَلَاكِهِمْ ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ فِي أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ سبحانه
 في المستأنف .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا لَمَعْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
 لَحَافِظُونَ ﴾ .

أُنْزِلَ التَّوْرَةُ وقد وَكَّلَ حَفِظَهَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بما استحفظوا من كتاب الله ، فحفظوا
 وبَدَّلُوا ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ وأخبر أنه حافظه ، وإِنَّمَا يَحْفَظُهُ بِقِرَائِهِ ؛ فَتَلُوبُ الْقُرْآنُ خَزَائِنُ كِتَابِهِ ،
 وهو لا يضيع كتابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْرِ
 الْأَوَّلِينَ ﴾ وما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ
 إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ كَذَلِكَ
 نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْجَاهِلِينَ ﴾
 لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
 الْأَوَّلِينَ ﴾ .

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب ، وأنه أدام سُنَّتَهُ معهم في التنذير . ثم قال :
 « كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْجَاهِلِينَ » : وهم لا يؤمنون به لأنه أزعج قلوبهم عن شهود الحقيقة ،
 وسَدَّ — بالحرمان — عليهم سلوك الطريقة ، وبَيَّنَّ أنه لو أَرَامَ الْآيَاتِ عِيَانًا ما ازدادوا

إلا عنواً وطنيانا ، وأنتَ مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشَّفاء فلا يزداد على ممر الأيام
إلا ما سَبَقَ به القضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَقُلُوا فِيهِ بِمَرَجُوتٍ ﴾ • لقولوا
إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ ﴿

مَنْ عليه التقدير كان يأمر التكليف مدعوا ، وبأمر التكوين مقضياً . . . فحق ينفع فيه
التصحیح ؟ ومتى يكون لوعظ فيه مساغ ؟ كلا . . . إن البصيرة له مسدودة ، و (. . .) (١)
الغلغلان يَقْدَمُهُ مسدودة ، فهو يحمل النصيحة له على الواقعة ، والحقيقة على الخلدية .
قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَةً ﴾

لنناظرين ﴿

بروجاً أى نجوماً هى لما زينة ، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾
إلا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ
مبين ﴿ .

إذا رام الشياطين أن يسترقوا السمع كانت النجوم لها رجوماً

كذلك لقلوب نجومٍ وهى للمعارف وهى فى الوقت ذاته رجوم على الشياطين ؛ فلودنا إبليسُ
وجنوده من قلب ولى من الأولياء أحرقتَه بل عَقَّتْهُ نجومٌ عقَلَهُ وأَقَارَ عَلَيْهِ وهَمَّسُ تَوْحِيدِهِ .
وكأن نجومَ السماء زينةً لناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ المعارفين إذا نظر إليها ملائكة
السماء هى زينة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَتَيْنَاهَا فِيهَا
رَوَامِيَ ﴾ ﴿

(١) مقابلة وهى لى الخط مكنا (متقلب) وربما كانت (متغللت) بحسب ائتمال وهود .

النفوس أرض عبادة العالدين ، وقلوبُ العارفين أرضُ المعرفة وأرواحُ الشقائق أرضُ المحبة ، وانحرف والرجاء لها رواسي . وكذلك الرغبة والرهبة .

ويقال من الرواسي التي أنبتنا في الأرض الأولياء فيهم يثبت الناس إذا وقع بهم الفزع . ومن الرواسي العلما الذين بهم قوامُ الشريعة ؛ فضلا الأصول هم قوامُ أصلِ الدين ، والفقهاء بهم نظامُ الشرع ، قال بعضهم :

واحسرتنا من فراق قوم هم المصاييحُ والأمنُ والعزُّنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْتَبِهْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

موزون ﴿

كما أنبت فتونا من النبات ذات أنوار^(١) أنبت في القلوب صنوفاً من الأنوار^(٢) ، منها نور اليقين ونور العرفان ، ونور الحضور ونور الشهود ، ونور التوحيد . . إلى غير ذلك من الأنوار .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسَمَ لَهُ بَرَازِقِينَ ﴾

لَسَمَ لَهُ بَرَازِقِينَ ﴿

سببُ عيش كل واحدٍ مختلفٌ ؛ فميشُ المريد من إقباله ، وعيش العارفين التجليل بأفضاله^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾

وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿

خزائنه في الحقيقة مقدوراته ، وهو — سبحانه — قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث . ويقال خزائنه في الأرض قلوبُ العارفين بالله ، وفي الخزانة جواهر من كل صنف ؛ فحقائق العقل جواهر وضعت في قلوب قوم ، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة ، وأسرار العارفين

(١) أنوار النبات جمع نورة وهي الزهرة البيضاء .

(٢) أنوار القلوب جمع نور .

(٣) وودت (أفضاله) وقد رجحنا (أفضاله) لأنها أدق في المعنى ، وإن كان كلامنا مبنيًا

مواضع سره ، والنفوس خزائن توفيقه ، والقلوب خزائن تحقيقه ، واللسان خزائن ذكره .
ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تعاصرت خطاه عن التردد على منازل
الناس في طلب الإرتقاء منهم ، وسعى في الآفاق في طلب الأرزاق منها ، طعماً أملكه من
الخلق ، مغزاً قلبه لله متجرداً عن التعلق بغير الله .

قوله : « وما تزل إلا بقدر معلوم » : عرّف القسمة من استراح عن كد الطلب ؛ فإن
المعلوم لا يتغير ، والمقسوم لا يزيد ولا ينقص ، وإذا لم يحب عليه شيء لأحد فبقدرته على
إجابة العبد إلى طلبه لا يتوجب عليه شيء .

ويقال أراح قلب الفقراء من تحمل اللبنة من الأغنياء مما يعطونهم ، وأراح الأغنياء من
مطالبة الفقراء منهم شيئاً ، فليس للفقير صرف القلب عن الله سبحانه إلى خلق واعتماد منه
لأحد ، إذ الملك كله لله ، والأمر بيد الله ، ولا قادر على الإبداع إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الريح لوارق فآزأنا من

السماء ماء ﴾

كما أن الريح في الآفاق مقدمة المطر كنك الأمال في القلوب ، وما يقرب العبد مما يتوارد
على قلبه من مبشرات الخواطر ، ونسيم النجاة في الطلب يحصل ، فيستروح القلب إليه قبل
حصول الأمل من الكفاية والطف .

قوله جل ذكره : ﴿ فأسقيناهم ماءً حاراً فما كانوا

أستاء إذا جعل له الشئيا كنك الحق — سبحانه — لأوليائه الطافاً معلومة في
أوقات محدودة ؛ كما قال في وصف أهل الجنة : « ولم نرزقهم فيها بكرة وعشي » .

كنك يحصل من شراب القلوب لكل ورداً معلوماً ، ثم قضيا ذلك تختلف
فمن شراب يسكر ، ومن شراب يحضر ، ومن شراب يزيل الإحساس ، كما قيل :

فصحوك من لفتي هو الصحو كله وسكرتك من لفتي يبيعك الشراب

ويقال إذا هبت رياح النوح على الأسرار كنست آثار البشرية ، فلا للأغيار فيها أثر ،
ولا من الخلائق لهم خير .

ويقال إذا هبت ريح القرب على قلوب العارفين عطشها بنفحات الأس ، فيسْقُونَ
في ليمها على الدوام ، وفي معناه أشدوا :

وهبت شمال آخر أهبل قرّة^(١) ولا ثوب إلا برودة ودائيا
وما زال يردى لنا من رداها إلى الحول حتى أصبح البرد باليا

ويقال إذا هبت ريح العناية على أحوال عبداً عادت مساويه مناقبه ومثالبه محاسنه .
قوله جل ذكره : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن
الوارثون ﴾ .

نحيي قلوبهم بالمشاهدة ، ونميت نفوسهم بالمجاهدة .

ويقال يحييهم بأن نفعيهم بالمشاهدة ، ونميتهم بأن نأخذهم من شواهدهم .

ويقال يحيي المريدن بذكره ، ويميت النافلين بهجره .

ويقال يحيي قوماً بمواظبة الأمر في الطاعات ، ويميت قوماً بمنازمة الشهوات .

ويقال يحيي قوماً بأن يلاظهم بلطف جماله ، ويميت قوماً بأن يحصيهم من أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾

ولقد علمنا المتأخرين ﴾ .

العارفون مستقدمون بهميمهم ، والماخوذون مستقدمون بقدّمهم ، والناثبون بندمهم .

وأقوام متأخرون بقدّمهم وهم العصاة ، وآخرون متأخرون بهموهم وهم الراضون
بضال الحلات .

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الطهرات ، والمتأخرون المتكسلون عن الغليرات .

ويقال المستقدمون الذين يستجيبن خواطر الحق — من غدر ترميم إلى تفكر ،

والمستأخرون الذين يرجعون^(٢) إلى الرخص والتأويلات .

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق ، والمتأخرون الذين تتبعهم

مشقة الخذلان .

(١) قرّة أي باردة .

(٢) ورددت (يرجون) وهي خطأ في النسخ — حسباً نعرف من رأى التشبي في مثل هذا الموقف ،

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِمِشْرَمِ إِثْمِهِ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾

يمتد كلاً على الوصف الذى خرجوا من الدنيا عليه : فن منفرد القلب بربه ، ومن
مُطَوَّر في أودية التفرقة ، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ
مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ وَالْجَبْنَ خَلَقْنَاهُ
مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ۝ ﴾

ذَكَرَهُمْ بِمِشْرَمِ لثَمَلٍ يُعْجِبُوا بِمَاتِهِمْ .

ويقال القبة في القرية لا بالترية ، والنسب تربة ولكن الميت قرية .

« والجبن خلقناه من قبل من نار السموم » . وإذا انطلقت النار صارت رماداً لا يبقى
منها شيء ، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، كذلك المدو^(١) لما انطلقا
ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينحصر بعده ، وأما آدم — عليه السلام فلما اختار
جِبْرَةَ ماء العناية ، قال تعالى : « ثم اجنباه ربه . . . »^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ

بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رَوْحِي

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ

يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ ﴾

أظهرهم بهذا القول ، وفي حين ما أظهرهم سترهم .

ويقال ليست العبرة بقوالهم ، إنما الاعتبار بالمعاني التي أودعها فيهم .

(١) يهدى إبليس . (٢) آية ١٢٢ سورة طه .

ويقال الملائكة لا حظوه بين اطلقة فاستصمروا قَدَرَهُ وحالَهُ ، ولهذا تَجِبُوا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ — سبحانه — لَمْ بالسجود لَهُ ، فَكشَفَ لَمْ شَطِيئَةَ عَمَّا اخْتَصَّهُ بِهِ فَسَجَدُوا لَهُ .

قوله : « إِنْ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ » : وَكُنَّا أَمْرٌ مِنْ حِجَبٍ عَنْ أَحْوَالِهِ أَدْمَى الْخَيْرَةِ وَبَقِيَ فِي ظُلْمَةِ الْخَيْرَةِ .

ويقال بِخَلِّ بِسَجْدَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقَالَ : أَسْتَنْكِتُ أَنْ أَسْجُدَ لِعَبْدٍ لِلَّهِ . نَمِنْ مِنْ شَقَاوَتِهِ لَا يَبَالِي بِكَثْرَةِ مَعَاصِيهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَمُضِي أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ سَبَبٌ وَسَوَاسَةٌ ، وَدَاعِيهِ إِلَى الزَّلَّةِ . . . وَذَلِكَ هُوَ عَيْنُ الشَّقَاوَةِ وَقَضِيَّةُ الْإِغْلَاقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ

مَعَ السَّاجِدِينَ • قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ
لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ
مَسْنُونٍ • قَالَ فَانْخَرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ • وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ •

سَأَلَهُ وَمَعْلُومٌ لَهُ حَالُهُ ، وَلَوْ سَاعَدْتَهُ الْمُرَّةُ لَقَالَ : قُلْ لِي مَا لَكَ ؟ وَمَا مَنَعَكَ ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حَتَّى أَقُولَ . أَنْتَ .. حَيْثُ أَشَقِيقَتِي ، وَبِقَهْرِكَ أَغْوَيْتَنِي ، وَلَوْ رَجَحْتَنِي ، لَهَدَيْتَنِي وَفِي كُفٍّ عَصَمْتِكَ آوَيْتَنِي ... وَلَكِنْ الْحَرَمَانِ أَدْرَكَهُ حَتَّى قَالَ : « لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ »
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبُّنَا فَانْظُرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ • قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ • إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ •

وَلَمَّا أَبْعَدَ الْحَقُّ — سبحانه — عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَأَفْرَدَهُ بِالْعَنَةِ اسْتَظْهَرَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ ، فَاجَابَهُ . وَقُلْنَا الْهَيْنُ أَنْتَ حَصِلَ فِي الْخَيْرِ مَقْصُودُهُ ، وَلَمْ يَلَمْ أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ تَضْيِيقَهُ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَكَانَتْ كَانُ فِي الْحَقِيقَةِ مَكْرًا — وَإِنْ كَانَ فِي الْحَالِ فِي صُورَةٍ إِبْجَاطِ السُّؤَالِ بِمَا يُشِيرُ الْإِلَهَ وَالْإِلَهَ .

وبعض أهل الرجاء يقول : إِنْ الْحَقُّ — سبحانه — حِينَمَا يَبِينُ عَدُوَّهُ لَا يَرُدُّ دَعَاءَهُ

في الإهمال ولا يمتنع من الاستنظار ؛ فلو من — إذ أمره الاستنظار والسؤال بوصف الانتظار — أولى ألا يفتطمع من رحمته ، لأنَّ إِنْظارَ العَيْنِ زيادةً شقاه له لا تحقيق عطائه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

الباء في : « بما أغويتني » به التسم ، ولم يكن إغواؤه إله بما يجب أن يُقسم به لولا قرطه تجله . ثم هو في المعنى صحيح ، لأنَّ الإغواء مما يفرّد الحق بالقدرة عليه ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولكنَّ العَيْنَ لا يعرف الله على الحقيقة ، إذ لو عرفته لم يدع إلى الضلال ، لأنه لو قدر على إضلال غيره لاسبق على الهداية نفسه . وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك خدساً وهو لم يعرف الله — على الحقيقة — قط .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ قال هذا صراط على مستقيم

الإخلاص هو تصفية الأعمال عن النِّين وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال . وقد علم العَيْنُ أنه لا سبيل له لإلهم بالإغواء لما تحقّق من عناية الحقّ بشأنهم .
« قال هذا صراط على مستقيم » تهديد ، كما تقول : اغل ما شئت . . وهذا طريق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

السلطان الحق ، وهو لله على خلقه ، وليس للمدو حجة على مخلوق ، إذ لا تتعدى قدرته محله ، فلا تسلط — في الحقيقة ^(١) — لمخلوق على مخلوق بالتأثير فيه .

« إن عبادي ... » : إذا سعى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص ، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخواص ، وهم الذين همهم عن شواهدهم ، وحفظهم وصاتهم عن أسباب التفرقة

(١) نلاحظ أن القسري يكثر في هذا الموضع من قوله { في الحقيقة ، وعلى الحقيقة . . . } ونحو ذلك والسبب في ذلك يرجع إلى أن ظاهر النصوص أن لا يلبس لإرادة فضلا ، ولكن — في الحقيقة — كل شيء مرده إلى الحق سبحانه .

وجردهم عن حُلُم وقُوَّتِهِمْ ، وكان النَّائبُ عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم ، وحفظ عليهم آداب الشرع ، وألبسهم مِدار الاختيار في أوان أداء التكليف ، وأخدمهم عنهم باستهلاكهم في شهوة ، واستراقهم في وجوده . . . فأى سبيل الشيطان إليهم؟ وأى يدٍ للعنود عليهم؟

ومنَّ أشهد الحقَّ حقائق التوحيد ، ورأى العالم مُصرِّفاً في قبضة التقدير ، ولم يكن نهباً للأخيار .. ففى يكون لعين عليه تسلط ، وفى مناه قالوا :

جمودى فيك تقدسٌ وعقل فيك تهويسٌ
فمى آدم إلا لك ومن فى البيت إبليس^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾
لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .

اجتمعوا اليوم في أصل الضلالة ، ثم الكفر بكلُّ مختلفة ، ثم يجتمعون غداً في العقوبة وهم ثمرة مختلفون ، لكل دركة من دركات جهنم قوم محصون .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ .
المتقى من وقاه الله بفضله لا من اتقى يتكلفه ، بل إنه ما اتقى يتكلفه إلا بعد أن وقاه الحق — سبحانه — بفضله . هم اليوم في جنات ولها درجات بعضها أرفع من بعض ، كما أنهم غداً في جنات ولها درجات بعضها فوق بعض .

اليوم تقوم درجة حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة ، ولقوم درجة البسط والراحة ، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة ، ولآخرين درجة الأنس والقربة ، قد علم كل أناس مشربهم وكرم كل قوم منهوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ .

(١) هذا البيت للحلاج (الطواحين ص ٤٢) والديوان المخطوطة رقم ٢٨ ومستانها : أننى لو نجت لفرقت — حسباً أمرت — فأنا لجد ، ولكن — نظراً لمزق بك — فإن جمودى حين تقدس ، لأننى أعلم أنه لا يستحق السجود على الخليفة إلا أنت ، فأنا راض باحتيال لكك ثمكك لئلا يتأذى لإرادتك .

معناه : يقال لهم : « أدخلوها » ، وأَجَلْ ذِكْ ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم . ويرى قومُ
أَنْ الْمَلَكُ يقول لهم : أدخلوها .

ويقال إذا وافوا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدة ، وقاسوا الأمور الشديدة فَبَنَ حَقِّمُ
أَنْ يدخلوها الجنة ، خاصة وقد علوا أَنْ الجنة مُبَاحَةٌ لهم ، وللملهم لا يفتنون حتى يقال لهم
ويقال بمحتمل أنهم لا يدخلونها بقول الْمَلَكِ حتى يقول الحقُّ : أدخلوها ، كما قالوا :
ولا أَلْبَسُ النَّفْسُ وَغيرُكَ مُلْبَسٌ ولا أَقْبِلُ الدُّنْيَا وَغيرُكَ وَاهِبٌ
قوله : « بسلام آتَيْنَ » : بمعنى السلامة ، وهي الأمان ، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها
ويقال كما لا يخرجون من الجنة لا يخرجون مما هم عليه من الحال ، فأروية لهم وما هم فيه
من الأحوال الواقية — مديدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ .
أَمَرَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءَ الْكُتُبَةِ وَتَطْهِيرَهَا فَقَالَ : « وَطَهَّرَيْتَنِي » ^(١) ، وَأَمَرَ جَبْرِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى فَسَلَ قَلْبَ الْمُصْطَفَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَطَهَّرَهُ ^(٢) . وَتَوَلَّى هُوَ سَبْحَانَهُ
بِنَفْسِهِ تَطْهِيرَ قُلُوبِ الْعَامِينَ ، فَقَالَ : « وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ » ^(٣) ، وَذَلِكَ رَفَقًا بِهِمْ ، فَقَدْ
يَصْنَعُ اللَّهُ بِالضَّمِيفِ مَا يَتَجَبَّبُ مِنْهُ الْقَوَى ، وَلَوْ وَكَلَّ تَطْهِيرَ قُلُوبِهِمْ إِلَى اللَّامِصَةِ لَاشْتَهَرَتْ
هَيُوبُهُمْ ، فَتَوَلَّى ذَكَّ بِنَفْسِهِ وَفَقَّا بِهِمْ .

ويقال قال : « ما في صدورهم » ولم يقل ما في قلوبهم لأن القلوب في قبضته يقلبها ، وفي
الظُّهْرِ : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » : يريد بذلك قدرته ، فاستعمل لفظ
الإصبع لذلك توسعاً . وقيل بين إصبعين أى نعمتين

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾

قابل بعضهم بعضاً بالوجه ، وحفظ كل واحد من صاحبه سيره وقلبه ، فالنفوس متقابلة

(١) آية ٢٦ سورة الحج .

(٢) أنظر كتاب (المراج) لأبي بصير عليه السلام في تفسيره

(٣) من طي بن الحسين أن هذه الآية تركت في أبي بكر وعمر وعطى رضى الله عنهم وأن اللل هل الجماعة
ألقى كان بين تيم وحد وبنى هاشم فلما أسلموا بمجاورة .

ولكن القلوب غير متقابلة ؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض ، قال تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَنْصِبُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴾ .

أى لا يلحقهم نصب ؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم . وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكان إلى مكان ، ولا تعار أبصارهم ، ولا يلحقهم ذهش ، ولا يتغير عليهم حال عام عليهم من الأمر ، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق .
« وما هم منها بمخرجين » أى لا يلحقهم^(٢) ظل الإخراج بل هم بدوام الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
لما ذكر حديث للتقين ومالم من علو المنزلة انكسرت قلوب العاصين ، فتدارك الله قلوبهم ، وقال لنبيه — صلى الله عليه وسلم — أخبر عبادى العاصين أى غفور رحيم ، وأنى إن كنت الشكور الكريم بالمطيعين فأنا الغفور الرحيم بالعاصين .
ويقال من سيع قوله : « أنى أنا » بسع التحقيق لا يبق فيه مسأغ لسماع المغفرة والرحمة ؛ لأنه يكون عندئذ مختطفاً عن شاهده ، مستهلكاً فى آئنته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .
العذاب الأليم هنا هو الفراق ، ولا عذاب فوق الفراق فى الصعوبة والألم^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَبَيَّنْهُمْ مِنْ صِيفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .
دخلوا عليه فقالوا سلاماً .

الأعرافهم . كيف كانت فتوة الخليل فى الضيافة ، وقيامه بحق الضيفان ، وكان الخليل

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) هنا وقع التماسخ فى خطأ التكرار إذ أجاد كتابة عبارات سابقة مما ورد بعد (لا يلحقهم تمب ... الخ) :

(٣) أى أن عذاب الفراق يطوق فى نظر الصوفية — عذاب الاحراق .

عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان ، فلما سلموا من جانبهم ورد عليهم وانفضوا عن تناول طعامه :

﴿ قال إنا منكم وبعون ﴾ .

ويعنون أى خائفون ، فإن الإمامك من تناول طعام الكرام موضع القرية . ولما علم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين . ولكن سكن روعه حينما نظروا له :

﴿ قالوا لا توجل إنا نبشركم
ببلاء عليم ﴾ .

فليس لك موضع للوجل لكن موضع للفرج ؛ إنا جئناك مبشرين ، وإن كنا لنفريك مُعَذِّين .

نص « نبشركم ببلاء عليم » : أى يبش حتى يعلم ، لأن الطفل ليس من أهل العلم ، وكانت بشائرهم بالوكة وبقاء الولد هى المعبى فقال :

﴿ قال أبشرونى على أن تسنى
الكبر فبم تبشرون ﴾ قالوا
بشركناك بالخلق فلا تكن
القائلين • قال ومن يقنط من رحمة
ربه إلا الضالون ﴾

قال أبشرونى وقد مسنى الكبر ؟ وإن الكبر قد فات الوقت الذى يفرح فيه من الدنيا بشئ . بماذا تبشرونى وقد طعنت فى السن ، وعن قريب أرهّل إلى الآخرة ؟ قالوا : بشركناك بالخلق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله ، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً .

قال : كيف أخطأ ظنكم فى فتوهمهم أنى أقنط من رحمة ربي ؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث ، وعرف أنه لن يصيبه ضرر منهم سالم عن حلم :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ •
 قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ •
 إِلَّا آكَلُ لُوطٌ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ •
 إِلَّا أَمْرًا تَهُدُّنَا إِلَيْهَا كَلِيلَ •
 الْغَابِرِينَ •

قال ما شأنكم ؟ وإلى أين قصدكم ؟

قالوا : أُرْسِلْنَا لعذاب قوم لوط ، ولننجيَ أهلَهُ إِلَّا أَمْرًا تشاركها معهم في الفساد ، وكانت تدل قومهُ على أضيافه ، فاستوجبت العقوبة .

فلما وافى المرسلون من آكل لوطٍ أنكرهم لأنه لم يهدم على صورة البشر ، وتفرس فيهم على الجملَةِ أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم ، قالوا : بل جئناكَ بما كان قومك يُشْكُون فيه مِن تديننا إليهم ، وآتيناك بالحق ، أى بالحكم الحق :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَزْوَاجَكَ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ
 أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ •

فأسر بأهلك بعد ما يمضي شيء من الليل ، وامش خلفهم ، وقدمهم عليك ، واتبع أذبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب ، وإنا ننقذك وأهلك إِلَّا أَمْرًا تَك ، فإننا نعينها لشاركها مع قومك في العصيان . « وامضوا حيث تؤمرون » : فلكم السلامة ولقومكم العقوبة .

« وقضينا إليه ذلك الأمر » أى علمناه وعرفناه : « أن دار هؤلاء مقطوع » : أى أنهم مهلكون ومستأصلون بالعقوبة .

ثم لما نزل للامسكة بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافى ، فلا تنعرضوا لهم تنفضحوني ، واتقوا الله ، وذكروا مخالفة أمره ولا تخجلوني . فقال قوم : ألم نَهَكَ عن أن تحيي أحدًا ، وأمرناك ألا تمنح منّا أحدًا ؟ فقال : هؤلاء بناتى يعنى نساء أمتى . وقال قوم :

أراد بناءً من صلبه ، عَوَّضَ عَنْهُمْ عَلَيْهِمْ ثَلَاثُ أَلْفِ بَنَاتِكَ النَّمْلَةِ الْفَحْشَاءِ ، فلم تنجح فيهم نصيحة ، ولم يُقِلُّوا عَنْ خَيْثٍ قَصْدِهِمْ .

فأخبره الملائكة ألا يخاف عليهم ، وسكنوا من رَوْعِهِ حين أخبروه بحقيقة أمرهم ، وأنهم إنما أرسلوا للقوية .

قوله جل ذكره : ﴿ لَمَّا رَأَوْا بَنَاتَكِ لَمَّا كَانَتْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَفْهَمُونَ ﴾

أقسم بحياته تخصيصاً له في شرهه ، وتفضيلاً له على سائر البرية ، فقال وحيا لك — يا محمد — إنهم لن يخلطوا بغيرهم ولا يفرقوا ، وإنهم عن شرِّكم لا يُقِلُّون .
ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته — إنهم في خائِرِ سَكْرِهِمْ ، وغفلةِ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً ، ولا يخافون سوماً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَآخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ فجعلنا

عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا
مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّلْمُتَوَسِّلِينَ * وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّكِيمٌ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ .

باتوا في جبور وسرور ، وأصبحوا في عنة وثبور ، وخرَّت عليهم سقوفهم ، وجعلنا مُدَّتَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وأمطرنا عليهم من العقوبة ما لم يُتَّقِ عَيْنًا وَلَا أَمْرًا ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكِبْرَةَ لِمَن اِعْتَبَرَ ، ودلالة ظاهرة لمن استبصر ، « وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّكِيمٌ » لِمَن شَاءَ أَنْ يَتَّقِيَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّلِينَ ﴾ (١١)

جاء في التفسير « المتوسلين » ، والفراصةُ خَاطِرٌ يحصل من غور أن يمارسه ما يخالفه عند ظهور برهانه عليه ، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراصة . مشتق من فريسة

(١) أخر التاسخ تفسير هذه الآية عند النقل فوضها بعد الآية ٨٦ (لأن ذلك هو الحلاق العظيم) وقد صحنا هذا الوضع .

الأسد إذ لفريسته يهر . والحق — سبحانه — يُطْلِعُ أوليائه على ما خفي على غيرهم .
 وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات ؛ بل يجوز أن
 تُقَدَّر عليه حيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام ؛ فَتَبَيَّنَا — صلى الله
 عليه وسلم — كان يقول لمائنة — رضى الله عنها — في زمان الإنك : « إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ
 فَنَفَرْتُ إِلَى اللَّهِ » . وكابراهيم ولوط — عليهما السلام — لم يرها الرسل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾

* فَاتَّقِنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِبَائِمٍ
 مِين * وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ
 الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا
 عَنْهَا مُرِصِّينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ
 مِنَ الْجِبَالِ يَبْوَةً كَئِينِ * فَأَخَذْنَاهُمُ
 الصَّيْحَةَ مُصْطَبِحِينَ * فَأَخْفَى مِنْهُمْ
 مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * .

أصحاب الأيكة هم قوم شبيب ، وكان شبيب — عليه السلام — مبعوثا لم فكذبوه ،
 فَاتَّقِنَا مِنْهُمْ .

قوله : « وَإِنَّمَا » يعنى مدين والأيكة . . . « لِبَائِمٍ مِين » : أى بطريق واضح من
 قصده (. . .) (١) .

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر (٢) — وهم نود — كذبوا المرسلين إليهم ، وأنهم
 أهرسوا من الآيات التى هى المعجزات كتناقة صلح وفهرها ، وأنهم كانوا أخذوا إلى الأرضين
 وكانوا مُقْتَرِّينَ يَنْحِتُونَ إسهال الله لإيهم من تأخير العقوبة عنهم ، وكانوا يتخفون من الجبال
 يَبْوَةً ، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُونَ من الموت والمناب .

(١) معلقة .

(٢) الحجر واد بين المدية والمام .

ثم أخبر أنهم أخذتهم الصيحة على بكرة ، ولم تغفر عنهم حيلتهم لما حلَّ حينهم .
قوله جل ذكره : ﴿ وما خلَقْنَا السَّوَاتِ وَالْأَرْضَ
وما بينهما ﴾ .

دلَّت الآية على أن أكابَ العباد غلوفةٌ لله لأنها بين السَّوَاتِ وَالْأَرْضِ .
﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾
« إِلَّا بِالْحَقِّ » : أى وأنا مُحَقٌّ فيه ويقال « بالحق » : بالأمر العظيم الكائن إن
السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ يعنى القيامة .

﴿ فَاصْبِرْ الصَّبْرَ الْجَلِيلَ ﴾

يقال الصَّبْرَ الْجَلِيلَ الذى تذكر الزُّلَّةَ فيه .
ويقال الصَّبْرَ الْجَلِيلَ سحبُ ذيل الكرم على ما كان من غير عقد الزُّلَّةَ ، بلا ذكر
لما سكف من الذنب ، كما قيل :

تمالوا نصلطح ويكون مناً

(.....)^(١)

ويقال الصَّبْرَ الْجَلِيلَ الاعتذار عن الجرم بلاعد الذنوب من المجرم ، والإقرار بأن
الذنب كان منك لا من العاصي ، قال طائلم :
(وَتَذْنِبُونَ فَنَلْسَى وَنَعْتَدُ)

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .
« هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » إذ لا يصح النمل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالم .
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ
وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ .

أكثرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة ، وسميت مثاني لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة

(١) المطر الثاني مطروس غير واضح .

ومرة بالدينة ، ولأنها شيء في كل مرة يتكرر ، من « الثانية » وهي التكرير ، أولان بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق . . . ومنه هنا مذكور في كتب التفسير (١) .

قوله جل ذكره : « لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » .

لم يُسَلَّمْ له إشباع النظر إلى دَعْرَةِ الدنيا وزينتها .
ويقال غر على عينه — صلى الله عليه وسلم — أن يستعملها في النظر إلى المخلوقات .
ويقال أَدَبَهُ اللهُ — سبحانه — بهذا التأديب حتى لا يُعَيِّرَ طَرَفَهُ من حيث الاستئناس به .
ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لما لم يكن اليوم سبيل لأحد إلى رؤيته (٢) ، فلا تمدن عينيك إلى ملاحظة شيء من جملة ما خُوِّلَناَم ، كما قال بعضهم :

لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرُكَ اغْمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

ويقال شَتَّانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوسَى — عليه السلام — قال له : لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل ، ونينا — صلى الله عليه وسلم — مَنَعَهُ من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال : « وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ » .

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بثلغره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله ؟

ويقال لما أَمَرَ بِغَضِّ بَصَرِهِ عما ينشعب به الكفار في الدنيا تَأَدَّبَ — عليه السلام — فلم ينظر ليلة المراج إلى شيء مما رأى في الآخرة ، فأثنى عليه الحق بقوله : « مَازَاغَ الْبَصَرِ . وما طغى » وكان يقول لكل شيء وداه : « التحيات لله » أي أَلَمَلْتُ لله .

(١) ويرى بعضهم أنها سمع سور وهي النوال ، واختلف في الساسة قليل الأتال وراة لأنها في حكم سورة بدليل عدم التسمية بها ، وقيل سورة يوس . أو أساع القرآن .
(٢) الضمير (رؤيته) يعود إلى الحق سبحانه ، والمتعود حفظ العين — من قبيل الوفاء — لكن لا تنافي سواء سبحانه فيها بعد .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾

أذبه حتى لا يتغير بصفة أحد ، وهذه حال التمكن .

قوله جل ذكره: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى أَيْنَ لَمْ جَانِبَكَ . وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة^(١) في الشفاعة إلى موالها يمضى معها.. إلى غير ذلك من حسن خُلُقِهِ — صلوات الله عليه — وكان في الخير : إنه كان يخدم بينه وكان في (مهنة) عله^(٢) . وتوفى خدمة الوفد ، وكان يقول: سيد القوم خادهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾

لَمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه — سبحانه وتعالى — سلم له أن يقول : إني وأنا . وفي الخير : أن جابراً دَقَّ عليه الباب ، فقال : مَنْ ؟ قال : أنا . فقال النبي عليه السلام : «أنا أنا» .. كَأَنَّهُ كَرِهَهَا^(٣)

ويقال : قُلْ لَاحِدٌ لاسْتَهْلَاكَ فِينَا ، سلمنا أن تقول : إني أنا ، لما كنت بنا ولنا .

قوله جل ذكره: ﴿كَأَنزَلْنَا عَلَى الْمُتَقَسِّمِينَ﴾

أى قل إني أنالكم منْذِرٌ بمنابٍ كالمناب الذى عَذَّبْنَا به المتقسمين ؛ وم الذين تقاسموا بالله لنبيِّه في قصة صالح عليه السلام . وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله ؛ فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المتقسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم ، وصدوا الناس . وكان الواحد منهم يقول لَيْنَ مَرَّةً به : لا تُؤْمِنُ بِمحمدٍ فإنه ساحر ، ويقول الآخر : إنه كاهن ويقول ثالث : إنه مجنون ، فهم بأقسامهم :

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(٤)

(١) الوليدة = الحادية . قال طرفة :

فَنَالَتْ كَأَ ذَٰلِكَ وَلِيدَةً مَّحَلْسَ تَرَى وَبِهَا أَذْيَالٌ سَحْلَ مَحْدٍ

(٢) عن الأسود بن يزيد . قال سئلت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي (ص) يصنع لي بيته ؟ قالت : كأن يكون في مهنة أمه فإذا حضرت الصلاة خرج إليها (رواء البخاري) .

(٣) الحديث جاء مصطبك الكتابة في النسخين وقد صححه كأورد النووي في رياض الصالحين ط بيروت ص ٣٥١

(٤) عَصُونَ ج عَصَ وَأَصْلُهَا عَصْرَةٌ أى جزء ، وعصوة فلة من عصى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأصناماً .

خفرتوا القول فيه ، فقال بعضهم إنه شر ، وقال بعضهم إنه
كفانه . . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ لِنِسَاءِ النَّبِيِّمُ مَا يَجْمَعْنَ * عَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم ، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم .
ويقال يسأل قوماً عن حركات ظواهرهم ، ويسأل آخريين عن خطرات سرائرهم . ويسأل
الصدّيقين عن تصحيح الماني بضالهم ، ويسأل المدّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيقاً لهم .
ويقال جماع هذه الآية يوجب لقوم أنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلمهم ويُسَمِّعُهُمْ
خطاباً لا شتيافهم إليه ، ولا تحجب في ذلك فالخلاق يقول في مخلوق :
من الخيرات الببؤ ودّ جلسها إذا ما انتهت أحوذوة لَو تُعِيدُهَا
فلا أسعد من بشري يعرف أنّ مولاه غداً سيكلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ بِمَا تَوَدَّرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُرْكِينَ ﴾

كُنْ بِنَا وَقُلْ بِنَا ، وَإِذَا كُنْتَ بِنَا وَلَنَا فَلَا نَجْمِلُ حِسَاباً لِنَعْرِفَا ، وَصَرِّحْ بِمَا خَاطَبْنَاكَ بِهِ ،
وَأَفْصَحْ عَمَّا نَحْنُ خَصْمُكَ بِهِ ، وَأَعْلِنْ مَحَبَّتَنَا لَكَ :
فَسُبِّحُ^(١) بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى وَدَعْنَا مِنَ الْكُفَى فَلَا خَيْرَ فِي الْفَنَاتِ مِنْ بَعْدِهَا سَتَرُ
قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴾

الذين دَفَعْنَا عَنْكَ عَادِيَةً^(٢) شَرُّهُمْ ، وَدَرَأْنَا عَنْكَ سُوءَ مَكْرِهِمْ ، وَنَصَرْنَاكَ بِمُوجِبِ

(١) الأصل في البيت (فصرح) والتصریح بمقابل (الكناية) .

(٢) ودعت (عادية) بالفتح ، والملائم لسياق (عادية) بالفتح . حيث يقال (دعتك عادية فلان
أي ظله وشده) : الوسيط ص ٥٩٥ .

عنايتنا بشأنك . . فلا عليكَ فما يقولون أو يفعلون ، فما العقي إلا لكَ بالنصر والظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١﴾ .

وقال : « يضيّق صدرك » ولم يقل يضيّق قلبك ؛ لأنه كان في محل الشهود ، ولا راحة للؤمن دون لقاء الله ، ولا تكون مع القناء وحشة .

ويقال هوّن عليه ضيق الصدر بقوله : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ » ويقال إن ضاق صدرك بسماح ما يقولون فيك من ذمك فارفع^(١) بلسانك في رياض تسييحنا ، والثناء علينا ، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك ؛ وعلوة لك بما تذكر من جلال قدرنا وقديسنا ، واستحقاق مرّنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

فعب على بساط العبودية مستقاً للخدمة ، إلى أن تجلس على بساط القرية ، وتطالب بأداب الوصلة .

ويقال انزيم شرائط العبودية إلى أن ترقى بل تُكفَى بصفات الحرية .

ويقال في « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »^(٢) : إن أشرف خصالك قيامك بحق العبودية .

(١) ووردن هكنا وترجع أنها في الأصل (فارتع) ليس أكثر ملازمة للمحل . جاء في رسالة القصري ١١١ (وفي الخبر المشهور عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم رجلاً الجنة فارتعوا فيها ، ففعل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : مجالس الذكر .
(٢) عن العلاقة بين العبودية واليقين ينقل القصري عن شيخه الديقاق قوله : « البداية لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين والعبودية لمن له حق اليقين » الرسالة ص ٩٩ .

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

ألف الوصل في « بسم الله » لم يكن لها في التحقيق أصل ، نُجِلِيَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسكّن ، وإذ وقع ذلك أنفأ عنها أُسْقِطَتْ في الإدراج ، ولكن كان لها بقاء في الخط وإن لم يكن لها ظهور في اللفظ ، فلما صارت إلى « بسم الله » أسقطت من الخط كذلك .. وكذلك من ازداد محبة استأخر ^(١) رتبة .

ويقال أى استحقاق لو او عمرو حتى ثبتت في الخط ؟ وأى استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأى موجب لحذف الألف من السموات ؟ طاحت المثل في الفروق ، وليس إلا اتفاق الوضع .. كذلك الإشارة في أرواب الرء والقبول ، قال تعالى « إن ربك فعال لما يريد » ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَيُّ أَمْرٍ أَعْلَوْهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

صيغة أئى للماضى ، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة ، والمعنى « سيأتى » أمر القيامة ، والكائنات كلها والحداثات بأسرها من جملة أمره ؛ أى حصل أمرٌ تكوينه هو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره ، وقضائه وتدبيره ؛ فإ يحصل من خير وشر ، ونفع وضر ، وحلو ومر .. فذلك من جملة أمره تعالى .

« فلا تستعجلوه » وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات ، وهم خاضعون تحت جريان تصرف الأقدار ؛ فليس لهم إشار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً ، وإذا أمكوا شيئاً ، أو أخبروا بمحصل شيء فلا استعجال لهم ، بل شأنهم

(١) إن صح نقل هذه الكلمة عن الأسفل فلربما يقصد القشبرى منها استعنى عن الظهور ، وازداد ذولاً ، وبدأ عن التظاهر والدموى .

(٢) آية ١٠٧ سورة هود .

التأني والثبات والسكون . وإذا بدأ من التقدير حكم فلا استعجال لهم لما يرد عليهم ، بل يتقبلون مفاجأة التقدير بوجه ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من التيب من الرّد والقبول ، والمنع والتتبع بوصف الرضاء ، ويحمدون الحق — سبحانه وتعالى — على ذلك .
 « سبحانه وتعالى عما يشركون » : تعالى عما يشركون برهم ، والكفار لم يسر لهم حتى أنه لا سكن لقلوبهم من حديثه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ .

ينزل الملائكة على الأنبياء — عليهم السلام — بالوحي والرسالة ، وبالتعريف والإلهام على أمراد أرباب التوحيد وهم المحدثون . وإزال الملائكة على قلوبهم غير مردود لكنهم لا يؤمنون أن يتكلموا بذلك ، ولا يجادلون رسالة إلى الخلق .
 ويبدأ بالروح الوحي والقرآن ، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة ؛ إما حياة القلب أو حياة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الْخَلْقُ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

خَلَقَهَا الْخَلْقُ ، وَيَحْكُمُ فِيهَا الْخَلْقُ ، فهو مُحَقِّقٌ فِي خَلْقِهَا لِأَنَّهُ ذَلِكَ ، ويدخل في ذلك أمره بتكليف الخلق ، وما يَتَّقِبُ ذَلِكَ التَّكْلِيفُ مِنَ التَّحْشِيرِ وَالنَّشْرِ ، والنواب والمقاب .
 « تعالى عما يشركون » : تديساً وتثريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه ملك .
 قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ .

تعرّف إلى الغلاء بكامل قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب الصجيب ، والتأليف اللطيف ؛ من نطفة مائة الأجزاء ، متشاكلة في وقت الإشاء ، مختلطة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء ، والمخرج من الخفاء . ثم ما ركّب فيه من تمييز وعقل ،

وَيُسِّرْ لَهُ النُّطْقَ وَالْفِعْلَ ، وَالتَّدْبِيرَ فِي الْأُمُورِ ، وَالْإِسْتِيْلَاءَ عَلَى الْحَيَوَانَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيرِ .
قوله جل ذكره : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءًا وَمَنَافِعَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

ذَكْرُكُمْ بِمَا تَنْفَعُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْعَرِمَ بِمَا لِحَيَوَانَاتِ مِنَ النَّعْمِ ، وَمَا لَمْ فِيهَا مِنْ وَجْءٍ
الِإِسْتِغْنَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، كَالْخَلْقِ وَالْكَسْفِ عَلَيْهَا وَقَطْعِ لِّلْمَسَافَاتِ ، وَالتَّوَصُّلِ عَلَى ظُهُورِهَا إِلَى
مَآرِجِهِمْ ، وَمَا يَنْتَفِلِهَا وَلِزَادَ مِنْ الْمَنَافِعِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جِبَالٌ حِينَ تَرْبُحُونَ وَحِينَ
تَسْرَحُونَ ﴾ وَتَهْضِلُ أَهْطَالَكُمْ إِلَى بِلَدٍ
لَمْ تَكُونُوا بِالنِّبْيَةِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ
إِنْ رُبِمَ لِمَوَافُ رَحِمٍ ﴾ .

النِّبْيَةُ لَهُ جِبَالٌ بِمَالِهِ ، وَالتَّهْضِلُ لَهُ اسْتِغْنَاءٌ بِمَالِهِ . . وَشَتَّى مَا مَا : فَلَا غَنِيَاءَ يَنْجِلُونَ
بِأَنْعَامِهِمْ حِينَ يَرْبُحُونَ وَحِينَ يَسْرَحُونَ ، وَالْفُقَرَاءُ يَسْتَقْرِئُونَ بِمَوْلَاهُمْ حِينَ يَصْبَحُونَ وَحِينَ
يَمْسُونَ . أُولَئِكَ تَهْضِلُ أَهْطَالَكُمْ جِبَالَكُمْ ، وَهَؤُلَاءِ يَهْضِلُ الْحَقُّ عَنْ قُلُوبِهِمْ أَهْطَالَكُمْ .
« لَمْ تَكُونُوا بِالنِّبْيَةِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ » : قَوْمٌ أَحْوَالُهُمْ مَقَالَةُ الشَّدَائِدِ ، يَصِلُونَ سِرِّهِمْ
بِسُرَامٍ ، وَقَوْمٌ فِي حِلِّ مَوْلَاهُمْ ، يَبِيدُونَ عَنْ كَدِّ التَّدْبِيرِ ، مَسْرُوحُونَ بِشُهُودِ التَّقْدِيرِ ،
رَاضُونَ بِاخْتِيَارِ الْحَقِّ فِي السَّيْرِ وَالْبَسِيرِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْغُلِيْلَ وَالْبَيْهَاتَ وَالْحَمِيرَ لَ تَرَ كِبْرَهُمَا
وَزِينَتَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَحْسِبُونَ ﴾ .

فَالنَّفُوسُ فِي سَحَابِهَا كَالْغُلُوبِ ، وَالْقُلُوبُ مَعْتَقَةٌ عَنِ التَّنَقُّصِ فِي الْأَسْبَابِ . « وَيَخْلُقُ
مَا لَا تَحْسِبُونَ » : كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَجِدُونَ فِي الْآخِرَةِ مَا لَا هَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا أَذْنَ
سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ فَكَذَلِكَ أَرْبَابُ الْخَلَائِقِ يَجِدُونَ — الْيَوْمَ — مَا لَمْ يَحْضُرْ
قَطْرٌ عَلَى بَالٍ ، وَلَا قَرَأُوا فِي كِتَابٍ ، وَلَا تَلَفَنُوهُ مِنْ أَسْتَاذٍ ، وَلَا إِحَامِلَةٌ بِمَا أَخْبَرَ الْحَقُّ أَنَّهُ

(١) يطلق للتدبير على الأول اصطلاح (متصل) وعلى الثاني (محمول) .

لا يعلم تفصيله^(١) سواء . . . وكيف يعلم من أخبر الحق — سبحانه — أنه لا يعلم؟

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَازٍ﴾
ولو شاء لهدأ لهم^(٢) وهدأهم .

قومٌ هدام السبيل ، وعرفهم الدليل ، فصرفت عن قلوبهم خواطر الشك ، وقصصهم عن
البلعد والشرب ، وأطلع في قلوبهم شمس العرفان ، وأفردهم بنور البيان . وآخرون أضلهم
وأغواهم ، ومن شهود الحجاج أعمام ، وفي سابق حكمه من غير سبب أدلهم وقصم^(٣) ،
ولو شاء لرثمهم وهدأهم .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسْمِعُونَ * يُنْثِثُ لَكُمْ بِهِ الزَّادَ
وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

أنزل للطر وجعل به سقيا النبات ، وأجرى المائدة بأن يديم به الحياة ، وينبت به الأشجار ،
ويخرج الثمار ، ويمرر الأنهار .

ثم قال : « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ثم قال بعده بآيات : « لقوم يقولون » ،
ثم قال بعده : « لقوم يذكرون » . وعلى هذا الترتيب يحصل المعرفة^(٤) . فأولاً التفكر ثم العلم
ثم التذكر ، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خلل وجب له العلم لا محالة ، ولا فرق
بين العلم والمقل في الحقيقة ، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر .

وقال إنما قال : « آيات لقوم يقولون » : على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير

(١) وردت (تفصيله) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) (لهم) = لهم وذلم . على أننا لا نسجد — حسبنا نعرف من كتب التشيخي بالحرس على
الموسيق المظنية — أنها ربما كانت (أقام) أي سكرم وأدلم (انظر آية ١ سورة القصص المجلد الثالث) .

(٣) هذه نقطة هامة إذا أردنا أن ندرس مذهب المرفقة عند الصوفية عموماً ، والتشيعي بحاسة

عالمًا ، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل ، فطالعهم حتى يكون عارفاً بربه آياتٌ ودلائل ، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة ؛ فبدليل واحد يشبه النظر ، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَمَّ وَالنَّهَارَ ﴾

اليوم والنهار ظرفا الفعل ، والناس في الأفعال مختلفون : فوقَّ وعذول ؛ ظلوَّقَ ويمرئ وقته في طاعة ربه ، والمخذول يمرئ وقته في منابذة هواه .

المابد يمكن في فرض يقينه أو نقلي يديه ، والعارف في ذكره وتخصيل أرواده بما يعود على قلبه فيؤله ، وأما أرباب التوحيد فهم مُحْتَطِفُونَ عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يبرِّد عليهم من الأحوال كما قيل :

لستُ أدرى أطلال لَيْلِي أَمْ لَا كيف يدرى بذلك مَنْ يَنْقَلِي ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاسْتَمَلَّة لَيْلِي ورعيت النجوم كنت مُحْضِلًا

قوله جل ذكره : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتُ بَاسْمِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعِزِّهِمْ ﴾

هذا في الظاهر ، وفي الباطن يحرم العلم وأقوال المعرفة وشعوس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ذَرَأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّعِزِّهِمْ يَذْكُرُونَ ﴾

أقوامٌ خُلِقَ لهم في الأرض الرِّضَى والنِّفَاضُ^(١) ، والعدو والتصور ، والمساكن والمواطن ، وفنون الثَّمِ وصنوف القِسَمِ . . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ، ولا لهم في الأرض شجر ؛ لا ديارَ تملكهم ، ولا علاقة تُحميهم — أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق .

(١) النِّفَاضُ جمع نِفْضة وهي الموضع يكثر فيه الشجر ويختلف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا كَالْأَمَلِ
لِحَنٍّ طَرِيقًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً
تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَّكَ مَوَازِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِلَّهِكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾

سخر البحر في الظاهر ، وسهل ركوبه في المُلك ، وبسرّ الاتّماع بما يستخرج منه من
الحليِّ كالؤلؤ والذّرّ ، وما يُقتلُ به من السمك وحيوان البحر .
ومن وجوه المائي خلق صنوقا من البحر ، قومٌ عُرفوا في بحار الشغل وآخرون في بحار
الحزن ، وآخرون في بحار الهو . . فالسلامة من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل ، والنجاة
من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا ، والسلامة من بحر الهو في ركوب سفينة الذكر ،
وأُنشد بعضهم ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ يُبْعِدَ بَيْنَكُمْ
وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَكُمْ تَسْتَمُودُونَ ﴾ .

الرواسي في الظاهر الجبال ، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث المخلوق ، بهم يرحمهم ،
وبهم ينجيهم . . ومنهم أيدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب . وفي الخبر : « الشيخ في قومه كالنبي
في أمته » وقال تعالى : « وما كان الله ليمذهبهم وأنت فيهم » ^(٢) ، كما قال تعالى : « ولولا رجال
مؤمنون وساء المؤمنات لم تعلموا أن تقولوا » ^(٣) ، وأُنشد بعضهم :

واحسرتنا من فراق قوم هم المصاييح والأمن والمزن

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

السكواكب نجوم السماء ومنها رجومُ الشياطين ، والأولياء نجومُ في الأرض . وكذلك
الطهارة وهم أئمة في التوحيد وهم رجومُ السكّار وللمحدين .

(٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

(١) سقط الشاهد الشري من النسخ .

(٣) آية ٢٥ سورة القنبح .

وقال فرق بين نجوم يَهْتَدَى بها في فجاج الدنيا ، ونجوم يَهْتَدَى بهم إلى الله تعالى .
قوله جل ذكره : ﴿ أَفَنُخْلِقُ كَنَّا لَا يَخْلُقُ أَفْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه — سبحانه — وبين خلقه . وصفات القِدَم لله مُسْتَحَقَّة ، وما هو من خصائص الخلدان وسمات الخلق يتقدس الحق — سبحانه — عن جميع ذلك . ولا تُشَبَّه ذات القدير بنوات المخلوقين ، ولا صفاته بصفاتهم ، ولا حكمه بحُكْمهم ، وأصل كل ضلالة التشبيه ، ومن قُبِحَ ذلك وفساده أن كل أحد يتبرأ منه ويستكف من انتحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ لَأُخْصِرَها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

للوجودات لا تَحْصوها لتَقْصُرَ علومكم عنها ، وما هو من نعم الدفع ^(١) فلا نهاية له . وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره ، ويرضى بمرثمتكم (. . .) ^(٢) لكم عن شكره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

ما تُسِرُّونَ من الإخلاص وملاحظة الأشخاص . . فلا يخفى عليه حسان ، وما تَعْلِنُونَ من الرقاق والشقاق ، والإحسان والحصان . والآية توجب تخويف أرباب الزلات ، وتُشْرِفُ أصحاب الطاعات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ .

أخبر أن الأصنام لا يصح منها الخلق لكونها مخلوقة ، ودلت الآية على أن من وُجِدَتْ له سمة الخلق لا يصح منه الخلق ، وأُغْلِقَ هو الإيجاد ؛ ففي الآية دليل على خلق الأعمال .

(١) من تصور الإنسان أنه لا يشتر إلا جسم المتبحر ، ولكن نعم الدفع التي لا تنفاس لا يكاد الإنسان يشعر بها أبداً وبالحال . لا يفكر عليها . . وما أشبهها !
(٢) مشتبه .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَمَاتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَبْلَسَ يَمِينُونَ﴾ .

لأنَّ مَنْ لِحَقِّهِ وصفُ التَّكْوِينِ لا يَصِحُّ مِنْهُ الإِبْجَادُ . وفي التَّحْقِيقِ كُلُّ مَنْ عَلِقَ قَلْبَهُ
بشئٍ ، وتَوَكَّم مِنْهُ خيراً أو شراً قد أَشْرَكَ بِاللَّهِ بِظَنِّهِ ، وإِنَّمَا التَّوْحِيدُ تَهْرِيدُ الْقَلْبِ مِنْ
حِسَابِ شَطِيئَةٍ مِنَ النَّفْسِ وَالْإِتِّبَاتِ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ وَالْمَخْلُوقَاتِ .

قوله جل ذكره: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ﴾ .

لَا قِيَمَ لِدَارَتِهِ جَوَازاً أَوْ وَجُوباً ، وَلَا شَيْئَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ . . وَمَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ
قَطْعاً ، وبِشَهَادَةِ الْإِبْرَاهِيمِ لَهُ تَفْصِيلاً فَهُوَ فِي دَرَكَاتِ الشُّرْكِ وَاقِعٌ مَعَهُ حَقَائِقُ التَّوْحِيدِ بِمَزَلٍ ،
فَالْتَمَالُ فِي صِفَةِ الْكُفْرِ : « قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أَيْ فِي أَسْرِ الشُّرْكِ وَغَطَاءِ
الْكُفْرِ ، نَمَ لَيْسَ فِيهِ انْتِصَافٌ لَطَلْبِ الْمَرْفَاقِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ — لِيَنْ أَرَادَ الْمَعْرِفَةَ — مُنَاحَةٌ ،
وَأَدَلَّةُ الْخَلْقِ لِأَمْنَةٍ .

قوله جل ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا يُبْسِرُونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ .

فَيَفْضَحُهُمْ وَيُبَيِّنُ فَنَاقَهُمْ ، وَيُغْلِبُ لِلْمُؤْمِنِينَ كَفْرَهُمْ وَشِقَاقَهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُ لَابْسَحُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ .

دَلِيلُ الْإِطْلَاقِ أَنَّهُ يَجِبُ لِلنَّوَاضِحِينَ لِلتَّخَاضِعِينَ ، وَيَكْضِيهِمْ فَضْلاً بِشَارَةَ الْخَلْقِ لَهُمْ
مَحَبَّتَهُ لَهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ قَالَوا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

لِحَقِّهِمْ شُؤْمُ تَكْذِيبِهِمْ ، فَأَصْرُوا عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ تَنْجِجْ

إلى الإقرار بالحق ، فكتبوا على من يسألهم ، وظلوا : هذا الذي جاء به محمد من أكاذيب الصم ، فضلوا وأصلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَجْزِيَ أُولَٰئِكَ يَوْمَ الْآخِرَةِ أَعْمَالَهُمْ كَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
ومِنَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغُرُوبِهِمْ
عَلَىٰ أَسَاسٍ مَا يَدْرُونَ ۚ .

لما سموا في الدنيا لنير الله لم تصف أعمالهم ، وفي الآخرة حملوا معهم أوزارهم . أولئك الذين خسروا في الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ .

اتصفوا بالمكر غياق بهم مكروهم ، ووقوا فيا خسروا لنيرهم ، واغترخوا بطول الإهمال ، فأخذهم العذاب من مآمتهم ، واشتغلوا بملهم فنقص عليهم أطياب عيشهم :

﴿ قَالَ اللَّهُ بُنْيَانُهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ
فَنَزَعَهُمْ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَأَنَابَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ۚ ﴾ .

الذي وصف نفسه به في كتابه من الإتيان فتماء العقوبة ، وفك حل عادة العرب في التوسع في المطلب .

وهو سبحانه يكشف الليل ببذره ثم يأخذ للآكر بما يليق بمكروه ، وفي مناهة قالوا :

وَأَمْسَتْ فَاتَّحَ لِي مِنَ مَأْتِي مَكْرًا ، كَذَا مِنْ يَأْمَنِ الْإِيمَا

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْإِغْزَىٰ الْيَوْمَ وَالسَّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ .

في الدنيا عاجلُ يلاهم ، وبين أيديهم آجله . وخسرة^(١) المغلِب تنضاعف إذا
محو سب ، وشاهد حاصله .

« قال الذين أوتوا العلم .. : يُسبِحُ الكافرين قولَ المؤمنين ، ويبينُ لكافةِ مدحهم .
ويقع الندمُ على جاهلهم^(٢) . وأما اليومُ فليهم بالصبر والتحمل ، وعن قريب ينكشف
الغطاء ، وألشد بعضهم :

خليلٌ لو دارت على رأسي الرُحى من الدُّل لم أجزع ولم أتكل
وأطرقتُ حتى قيل لا عرفُ الجفا ولكنني أفصحتُ يومَ التكم

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفاهم لللائكة ﴾ ظلالى
أقْبِسْهُمْ فَأَلْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَقْلُ
مِنْ سَوْءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ • فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَنَّتُمْ
خَالِدِينَ فِيهَا قَلِيلٌ مِّنْ شَوَى
الشُّكْرِيِّينَ •

« ظلالى أنفسهم » : بولت كاب للملأى وهم الكفار .

« فَأَلْقُوا السَّلَامَ » : أقادوا واستسلموا لحكم الله .

« مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سَوْءٍ » : جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات .

« بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » : هكنا قالت لهم لللائكة ، ثم يقولون لهم :
« ادْخُلُوا أَبْوَابَ .. » : وكذلك الذين تقسوا نفوسهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزلت
بهم الوهة بأخضون في الجزع وفي التضرع ، ثم لا تطب نفوسهم بأن يُقرؤا بفاسيل أعمالهم عند
الناس ، فبما يتعلق بإرضاء مخصصهم لما أخلوا من معاملهم ، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير ،
والنقيز والقطمير ، ثم يبقون أبداً في وبال ما أحبطوه ، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أخراهم .

(١) وودت (مسة) بالهم (وهى خطأ في النسخ كما هو واضح) .

(٢) وودت (جامدم) بالبدال . وربما كانت في الأصل (جامدم) ، بالهم والجدد من صفات الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَلْهَبُوا الْآخِرَةَ خَيْرًا
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَفْضَلِ الَّذَيْنِ ﴾ .

أما للمسلمون فإذا وردوا عليهم ، وسألهم من أحوال محمد — صلى الله عليه وسلم ، وعما
أنزل الله عليه ، قالوا : دينه حق ، والله أنزل عليه الحق .. والذين أحسنوا في الدنيا يجيئون
الخير في الآخرة .

ويقال في هذه الدنيا حسنة ، وهي ما لم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصح أن تكون
تلك الحسنة زيادة للتوفيق لم في الأعمال ، وزيادة للتوفيق لم في الأحوال .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يوفقهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يبلّغهم منازل الأكابر والسادة ،

قال تعالى : « وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا » (١)

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتمدّد منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للراغبين ،
وما يجري على من اتبعهم بما أخفوه وتلموه منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأن يهتدى
بهذا كرجل يهتدى من بحر النعم » (٢) .

ثم قال : « ولعل الآخرة خير » ، لأن ما فيها يبق ، وليس فيها خطر الزوال . ولأن
في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاناة (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ

(١) آية ٢٤ سورة الحج .

(٢) سبق نخرج هذا الحديث .

(٣) تنهم من هنا أن المأينة أهل درجة من المشاهدة ، وتتهم كذلك أن المشاهدة — وهي تتم
في هذه الدنيا — هي أقصى درجات المراج الوحي عند أصحاب وحدة الشهود ، وكل قول بما يريد من
ذلك خروج عن أصول هذا المذهب ، وقد نرى كثير من الباحثين على ثلاثة الأديان والمذاهب ،
في هذا الخصوص .

تحبها الأتجارُ لم فيها ما يشأون
كذلك يجزى الله المتقين ﴿١﴾

كما أن الإرادات والمسمّ تختلف في الدنيا فكذلك في الآخرة ، وفي الخبر : « مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لِقَى اللَّهَ بِهَا » فَمِنْ مَرِيدٍ يَكْتَفِي مِنَ الْجَنَّةِ بِوُودِهَا ، وَمِنْ مَرِيدٍ لَا يَكْتَفِي مِنَ الْجَنَّةِ حُونَ شَهْوَدِ رَبِّ الْجَنَّةِ .

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم ، وما وجدوا في ذلك من محبة
اللعين^(١) في سائر أحوالهم وأمورهم يعلم لم ذلك ، ومن شاء أن يمدّ رؤيته ، ويتأبّد محامٍ
خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وهو ما لم يضطر ببال أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾
يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة
بما كنتم تعملون ﴿٢﴾ .

يقبض أرواحهم طيبة . أو يقال « طيبين » حال .
والأسباب التي يطيب بها قلوبهم وأرواحهم مختلفة ، فمنهم مَنْ طاب وقته لأنه قد غُفِرَتْ
ذنوبه ، وسُيِّرَتْ ميوبه ، ومنهم مَنْ طاب قلبه لأنه سَلِمَ عليه محبوبه ، ومنهم مَنْ طاب قلبه
لأنه لم يَهْتَمْ مطلقاً .
ومنهم مَنْ طاب وقته لأنه يعود إلى نوابه ، ويصل إلى حُسن مآبه .

ومنهم من يطيب قلبه لأنه آمِنٌ من زوال حاله ، وحظي بسلامة مآله^(٣) ، ومنهم من
يطيب قلبه لأنه وصل إلى أفضاله ، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله ، وثالث لأنه خُصَّ
بكشف جماله — قد عَلِمَ كُلُّ أَنْسٍ مَشْرِيبِهِمْ .

ويقال « تَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ » طيبة نفوسهم أي طاهرة من اللدنس بالمخالفات ، وطاهرة
قلوبهم من العلاقات ، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلفات .

(١) العين مقصود به إبليس .

(٢) وردت (ماله) والملائم هنا أن تكون (مآله) .

قوله تعالى : « سلام عليكم » إحتوا بالجنة ، منهم من يخاطبه بذلك التذكير ، ومنهم من يُكاشفه بذلك التذكير .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فأصابهم سبقت ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستعزنون ﴿

القوم ينتظرون مجيء التذكير لأنهم لم يعرفوه ولم يستقدوا كونه . ولكن لما كانوا يستجلبون معتقدين أن الرسل غير صادقين ، ولما سلكوا^(١) مسلك أضرابهم من المنتقمين — هملوا بمثل مالقى أسلافهم ، وما كان ذلك من الله ظلاماً ، لأنه يتصرف في ملكه من غير حكم حاكم عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾

خَبِثَتْ قُصُودُهُمْ فَبَا قَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ، وَغَلَبَتْ عَلَى نَفْسِهِمْ ظُلُمَاتُ جَهْلِهِمْ وَجَحْمِهِمْ ، وَانْكَشَفَ عَدَمُ صِدْقَتِهِمْ فِي أَحْرَامِهِمْ .

وقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . » يشبه قولهم : « أنظم من لو يشاء الله أطعمه »^(٢) . ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك .

(١) وودت (سكوا) وهي خطأ من النسخ .

(٢) آية ٤٧ سورة يس .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافَاتِ

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ

عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَهَدَوْا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ حَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

لم يخل زماناً من الشرع توضيحاً لحجته، ولكن فرقهم في سابق حكمه؛ فمجموعة هدام،

ومجموعة حبيبهم^(١) وأمامهم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَايَ فَإِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَاصِرِينَ﴾

أزيمهم الوقوف على حد العبودية في إرادة هدايتهم ومرفقهم حقائق الربوبية فقال:

إِنَّكَ وَإِنْ كُنْتَ بِأَمْرِنَا كَاحِدٍ عَلَى هُدَايَتِهِمْ؛ فَإِنْ مِنْ قَسَمْتُ لَهُ الضَّلَالَةَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ

غَيْرُ مَا قَسَمْتُ لَهُ.

ويقال من ألبسته صدر الضلال لا تخرجه وسيلة ولا شفاعة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنصُرُوا بِاللَّهِ جِهَةَ إِيْمَانِهِمْ لَا يَمْسُ

اللَّهُ مَنْ يَمُوتْ عَلَى وَعْدٍ عَلَيْهِ حَقًّا

وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُلَاحِظُونَ﴾.

النَّسَمُ يَوْكُدُ الظُّهُورَ، وَلَكِنْ يَمِينَ الْكَاتِبِ تَوْجِبُ حَقِّ قَوْلِهِ لِأَنَّهُ كَلَّمَ زَادَ فِي جَعْدِ اللَّهِ

أَزْدَادَ الْقَلْبِ قُرَّةً مِنْ قَوْلِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُضِلُّونَ فِيهِ وَيُعَلِّمُ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

(١) وردت (حجيم) وهي خطأ في النسخ إذ وما كانت التفتان فوق الباء فتحة في الأصل وتوهم

النسخ أنها تفتان.

(٢) وردت (وأمامهم) والميم والسينان يرفضانها ويعتقدان (وأمامهم).

إذا بين الله صِدْقَ ما ورد به الشرع في الآخرة بكشف الغيب زاد اقتضاح أهل
التكذيب فيكون في ذلك زيادة لم في التعذيب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ
تَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

فيكون بالسمع علمٌ تعلّقَ قَوْلُهُ بما يضلّه . وتخلّهُ قَوْمٌ على أن مناه أنه لا يتمسّر عليه
فصلٌ منه أرادّه ، فالآية على القولين جميعاً .

والذي لا يحتاج في فهمه إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدّة يقع الفعل فيها .

وتدل الآية على أنّ قَوْلَهُ ليس بمخلوق ؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له : كن ، وذلك
القول يجب أن يكون مقولاً له بقولٍ آخر . . . وهذا يؤدي إلى أن يتسلّل ما يحصل إلى
مالا نهاية له ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
مَا ظَلَمُوا لَنَجْزِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴾ .

مَنْ هَاجَرَ مِنْ أوطان السوء — في الله — أبدل له الله في جوار أوليائه ما يكون
له في جوارهم معونة على الزيادة في صفاء وقته . وَمَنْ هَجَرَ أوطان الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهد
الوصلة . وَمَنْ غَارَقَ بجباله المخلوقين ، واقطع بقلبه إليه — سبحانه — باستدامة ذكره —
فكافى الخبير : « أنا جالس من ذكرى » . وبداية هؤلاء القوم نهاية أهل الجنة ؛ ففي الظهور
« القراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة » . ويقال القلب مظلوم من جهة النفس لما تدعوه
إليه من شهواتها ، فإذا هجرها أورث الله القلب أوطان النفس حتى تنقاد لما يطالب به القلبُ

(١) كلام الله ليس بمخلوق — هذا أصل هام من أصول المذهب الأشعري الذي ميّز التشيعي من
أعظم أنصاره . وقد ناقش هذه القضية بإسهاب في كتابه القيم : « شكايه أهل السنة بمشكايه ما نالهم من
الحنّة » . وانظر أيضاً كتابنا (الإلمام بالشعري : تصوفه وأدبه — فصل : التشيعي مشكلاً) :

من الطاعة ، فبعد ما تكون أوطان الرُّبَّة بدواعي الشهوة تصير أوطان الطاعة لمهولة أداها .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء ، والتوكل التوقُّ بالله بحسب الرجاء .

ويقال صبروا في الحال ، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال .

ويقال الصبر تحسُّ كملساتِ المقدور ، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المُنْزور .

ويقال الصبرُ تَجَرُّعُ ما يُسْقَى ، والتوكل الثقة بما يرجو .

ويقال إنما يَقْوُونَ على الصبر بما حققوا من التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ

إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

تعجبوا أن يكون من البشَر رُسُلًا ، فأخبر أن الرسلَ كُلَّهم كانوا من البشر ، وأنَّ فيمن سبق مِن أقرَّ بذلك . « وأهل الذِّكر » هم العلماء ، والعلماء مختلفون : فالعلماء بالأحكام إليهم الرجوعُ في الاستفتاء من قِبَل العوامِ فَسَنُ أَشْكِلُ عليه شيء من أحكام الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء أحكام الله ، ومن اشتبَه عليه شيء من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى الماروفين بالله ، فاللقيه يوقع عن الله ، والماروف ينطق — في آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط محضها — عن الله ، فهو كاقيل : (أليس حقًا نطقت بين الوري فاشتهرت ، كاشفها يعلم ما من عليها فحُجرت ، فهي عناء به عينه قد طهرت)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

الذِّكْرَ لَتَبَيِّنَ لِّلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي إن البَيِّنَاتِ إِلَيْكَ ، فأنت الواسطة بيننا وبينهم ، وأنت الأمين على وحيينا .

(١) ما بين التوسين نقتضاه كما هو من النص ، وروما كان شاهداً شمرًا مضطرب الكتابة .

قوله جل ذكره: ﴿أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيْئَاتِ أَنْ

يَخْفِتَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ

الْعَنَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُهِمْ فَامُحْسِرِينَ ۝

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّهُمْ

لَعَافٌ رَحِيمٌ ۝

العبدُ في جميع أحواله عُرْمَةٌ ليهلُمَّ التقدير، فينبغي أن يستشر الخوفَ في كلِّ نفسٍ من الإصابتِ بها، والآنَ يأمنَ مَكْرُ الله في أي وقت، وأكثر الأسمَةِ تصل في الموطأةِ قوسهم وقلوبهم على ما عودهم الحق من عوائدِ المنة، ولكن كما قيل:

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوداً بِأَوَّلِهِ إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقُنَّ أَسْحَاراً^(١)

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ

شَيْءٍ يَتَفَقَّهُوا ظِلَالَهُ حَتَّى الْبَيِّنِ

وَالشَّامِلِ سَجْدًا فَهُمْ حَاخِرُونَ ۝

كل مخلوق من عين أو أثر، من حجر أو مدبر أو غير فله — من حيث البرهان —

ساجد، ومن حيث البيان على الوجدانية شاهد.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَدْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ

وَهُمْ لَا يَسْكَرُونَ ۝

ذلك سجود شهادة لاسجود عبادة، فإذا امتنعت عن إقامة الشهادة لقوم قالة، فقد

شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والادلة.

قوله جل ذكره: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ

مَا يُؤْمَرُونَ ۝

يخافون الله أن يُنَزَلَ عليهم عذاباً من فوق رؤوسهم.

(١) كان عبد الحميد المكشوف كثيراً ما يستل بهذا البيت في قصته (الحيوان ج ٦ ص ٥٠٨).

« ويضلون ما يؤمرون » لا يصرون ولا يجيدون عن طاعته .

ويقال خيرُ شيءٍ لعبده في الدنيا والآخرة الخوفُ ؛ إذ يمنه من الزَّلة ويحمله على الطاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ

إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَغِيثُونَ .

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

الحاجة إلى إثبات صانع واحد داعية ، وما زاد على الواحد (...)^(١) فيه متساوية .

ويقال إثبات الواحد ضرورة ، وقُدرة الاثنين محصورة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي وَاصِبًا أَقْنِيَهُ اللَّهُ تَتَّقُونَ ﴾

له الدين خالصاً وله الدين دائماً ، وله الدين ثابتاً ، فالطاعة له واجبة . فلا تتقوا غيره ، وأطيعوا

شُرْعته بخلاف هواكم ، واعبدوه وحده ، واستجيبوا له في السَّرة وللَّسَّرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَكُفُّ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّكَ إِلَهُ ﴾

النِّعمة ما يُقَرَّبُ العبد من الحق ، فأما ما لا يوجب النسيانَ والظنَّان ، والفتنةَ والمصيانَ

فأولى أن يكون محبة .

ويقال ما لعبده فيه فنع ، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة ؛ سواء

كان دينياً أو دنيوياً ، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال . وأكثر الناس يشكرون على نعم

الإحسان ، « وقليلٌ من عباده الشكور »^(٢) على كل حال .

وفائدة الآية قَطْعُ الأسرارِ عن الأفيارِ في حالتي البُسرِ والبُسرِ ، والثقة بأن الخير والشر ،

والنعم والضَّرْ كلاهما من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ ﴾

إذ ليس لكم سواء ؛ فإذا أَظْلَمَتِ العبدَ هواجمُ الاضطرابِ انتجأ إلى الله في استدفاع

(١) بقية الكلمة متخفية .

(٢) آية ١٣ سورة سبأ .

ما مئة من البلاء ثم إذا من الحق عليه ، وجاد عليه بكشف بلائه صار كأن لم يحسه سوء
أو أصابه هم كما قيل :

كَأَنَّ النَّفْيَ لَمْ يَرَّ يَوْمًا إِذَا اكْتَسَى وَلَمْ يَكْ صُلُوكًا إِذَا مَا تَمَوَّلَا^(١)

وقال :

﴿ تَمَّ إِذَا كَشَفَ الشَّرَّ عَنْكَ
إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

الخطاب عام ، وقوله « منكم » : لأن القوم منهم

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

في هذا تهديد أي أنهم سوف يتدمون حين لا تنفع لهم ندامة ، وينفثون حين لا يقبل
لم هذرو . . وَمَنْ زَرَعَ شَرًّا فَلَنْ يَحْصُدَ إِلَّا جِزَاءَ عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَيَجْلُونَ لِيَا لَا يَلْمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
تَاللَّهِ لَكُنَّا لَنُحَاكِمَهُمْ تَفْقَرُونَ ﴾

أي يجلون لما لا يلمون — وهي أفعالهم التي ليس لها استحقاق العلم — نصيباً من
أرزاقهم ، فيقولون هذا لم وهذا لشركائنا .

« تالله » أقسم أنهم سيلقون عقوبةً عظيمةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَجْلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَمْ
يَاسْتَهْنُوا ﴾

من قرأ جهلهم وصفوا المعبود بالولد ، ثم زاد الله في خذلانهم حتى قالوا : للالهة بنات
الله . وكانوا يكرهون البنات ، فرضوا الله بما لم يرضوا لأنفسهم . وينتقون هؤلاء في استحقاق

(١) قول أي نما المال له .

القم كل من أَرَحَطَ نَفْسِهِ على حق مولاه ، فإذا فعل ماله فيه نصيبٌ وغرضٌ كان ممنوم
الوصف ، ملوماً على ما اختاره من الفعل .

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يملطونه ويتصفون به من كراهة أن تولد لهم الإناث فقال :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ
وَجْهُهُ سُودًا ۖ وَهُوَ كَظِيمٌ ۚ يَتَوَارَىٰ
مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ
عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ
إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝﴾

استولت عليهم رؤية الخلق (١) ، وملكنهم الحيرة ، فنهقوا على البنات مما يلحقهم
عند تزويجهم وتمكين البعل فيهن . . . وهذه نتائج الإمامة في أوطان النفرة ، والفتنة
من شهوة الحقيقة .

ثم قال : « أيسر على هون » أي يجس المولود إذا كان أنثى على مدلة ، « أم يدسه
في التراب » لموت ؟ تلك الجفوة في أحوالهم جعلت — من قسوة قلوبهم في أحوالهم —
العقوبة أشد مما كانت بتعجيلها لهم . وجعلهم فرط غيظهم ، وفقد رضائهم ، وشدة حقهم
على من لا ذنب له من أولادهم — من أهل النار في دركات جهنم ، وتكدر عليهم الوقت ،
واستولت الوحشة .. ونود بالله من الشلل السوء !

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ كُنُفًا ﴾

وقد المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم

ما ترك عليها من دابة ولكن

(١) أي تشلت رؤيتهم حين لم ينظروا إلى الخالق واستبدلوا ذلك بأن ينظروا لغيره . . . وهذه سفة
هل النفرة والفتنة — كما سيأتي بعد .

يُخْرِمُ إِلَى الْجَنَّةِ مَنْ سَمِيَ بِإِفْخَاجِهِ
لِجَنَّتِهِمْ لَا يَسْتَخِيرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَعِينُونَ ۝

مَثَلُ السُّوءِ لِكُفْلَانِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ صِغَارَهُمْ حَقًّا

وَهُوَ صِفَاتُ الْجَلَالِ وَنُورُ الْمِرَّةِ ، وَمِنْ حَرَمَةِ بِنْتِ الْإِلَهِيَّةِ تَحْتُ سِمَاتِهِ فِي الْفَارِينِ ،
وَتَجَلَّتْ رَاحَتُهُ ، وَتَنَزَّ سِرُّهُ عَلَى الدَّوَامِ فِي رِيشِ عِرْقَانِهِ ، وَطَرِيتُ رُوحِهِ أَبَدًا
فِي هَيْجَانِ وَجْدِهِ .

أَمَّا الَّذِينَ وَجَّهُوا بِالشَّرِّ عَلَى عَنُوبَةٍ مُجَعَّةٍ وَهَوْمٍ مُخَصَّصَةٍ . « وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ . . . »
أَيُّ لَوْ عَامِلِهِمْ بِمَا اسْتَحْوَا عَجَلًا كُلَّ الْإِسْتِصَالِ بِهِمْ ، وَلَكِنْ الْحُكْمُ سَيَقُ بِأَهْلِهِمْ ،
وَيَسْتَقُونُ غَيْبَ أَهْلِهِمْ فِي مَا لَيْهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَجْعَلُونَ اللَّهُ مَا يَكْفُرُونَ وَتَصِفُ

أَلْسِنُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَ

لَا جُرْمَ أَنْ لَهُمُ الْقُلُوبُ وَأَنَّهُمْ مُفْرِطُونَ ۝

انْقَضَى الْمَالُ لِأَنَّ لَهُمُ الْعَيْشُ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ يَنْجُونَ ، وَبِمَا يُؤْتِكُوهُ يَحْمِلُونَ ، فَحَسَنَتْ
فِي أَعْيُنِهِمْ طَرِيقُ مَقَاتِهِمْ ، وَيَوْمَ يُكْشَفُ النُّطْلُ عَنْهُمْ يَمْضُونَ بِنَوَاحِدِ الْحُسْرِ عَلَى أَنْعَامِ
الْخَلْقِ ، فَلَا تَسْمَعُ مِنْهُمْ دَعْوَةً ، وَلَا تَتَمَلَقُ بِأَحَدِهِمْ رَحْمَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِمَّنْ قَبْلِكَ

فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَهْلَكَهُمْ فَهُمْ قَوْلُهُمْ

الْيَوْمَ وَلَمْ هَذَا بَ الْيَوْمِ ۝

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْآيَةَ عَلَى حِجَةِ التَّسْلِيَةِ هُنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَذَكَرَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ
تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ كَاتُوا فِي سُلُوكِهِ الصَّلَاةَ ، وَالْإِسْرَافَ فِي سِلَاقِ الْجِلْبَابِ كَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِهِ ،
وَلَكِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ . وَكَأَنَّ سَوَّلَ الشَّيْطَانِ لَأَمَّتْ ، وَكَانَ وَلِيًّا لَهُمْ ، فَهُوَ
وَلِيُّ هَؤُلَاءِ . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَاللَّهُ وَلِيُّهُمْ ، وَالْكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

إِلَّا لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ

وَهُدَىٰٓ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ .

أنت ^(١) الواسطة بيننا وبين أوليائنا ، ذلك البرهان الأعلى والنور الأوفى ؛ تُبَلِّغُ هُنَا وَتُؤَدِّي مِمَّا ، فَأَنْتَ رَحْمَةٌ أُرْسِلْنَاكَ لِأُولِيائِنَا . . قَمْنٌ قَبِيكْتَ اهْتَدَى ، وَمَنْ عَصَاكَ فَنِي هَلَكَ سَمِي .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنَّ أَوَّلَ آيَةٍ أَوَّلَ مَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا إِلَىٰ نَارِ عَذَابِ اللَّهِ

الْأَرْضَ بِأَنَّهَا لَآيَةٌ لِّلَّذِينَ يَرْجُونَ رَبَّهُمْ

لِقَوْمٍ يُسْعَوْنَ ۝﴾ .

أحيا بماه التوفيق قلوب المابدين لَجَنَّتْ إِلَى جَانِبِ الْوَقْفِ ، وَأَحْيَا بِمَاهُ التَّحْقِيقُ أَرْوَاحَ الْمَارِفِينَ فَلَسْتُ رَوَحَتْ عَلَى بَسَاطِ الْوَصَالِ ، وَأَحْيَا بِمَاهُ التَّجَرِيدُ أَسْرَارَ الْمُوَحِّدِينَ فَتَحَرَّرَتْ مِنْ رِقَى الْأَنَارِ ، وَانْفَرَحَتْ بِمَقَاتِلِ الْإِنْسَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ لَّكُمْ فِي الْإِنْعَامِ آيَةٌ فَاصْبِرُوا

لِقَوْلِ رَبِّكُمْ إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ غُلَامًا مِّنْ نَّبِيِّينَ

فَتَوَلَّىٰ وَجْهَكَ لِيَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ .

سَخَّرَهَا لَكُمْ ، وَهَيَّاها لِلإِنْعَامِ بِلَحْمِهَا وَشَحْبِهَا ، وَجَلَّهَا وَشَفَّرَهَا وَدَرَّهَا ،

وَأَصْلَهَا وَلَسْلَهَا . ثُمَّ عَجِيبٌ مَا أَظْهَرَ مِنْ قَدَرِهِ مِنْ إِخْرَاجِ الْإِبْنِ - مَعَ صِفَاتِهِ وَطَعْمِهِ وَتَفْنِيهِ -

مِنْ بَيْنِ الرُّوْثِ ^(٢) وَالنَّمِ ، وَذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالَّذِي يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ الْإِبْنِ بَيْنَ الرُّوْثِ

وَالنَّمِ يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ لِلْعُرْقَةِ بَيْنَ وَحْشَةِ الزُّلْمِ مِنْ وَجْهِهَا الْمُخْتَلَفَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْ نِّمَارَاتِهِ النَّخِيلَ وَالْأَنْعَامَ

يَتَخَفَتُونَ مِنْهُ لَمَّا خَلَّوْا وَرِثَافًا حَسَنًا

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ .

(١) وردت (آية) وهي خطأ في النسخ .

(٢) الروث والروث بقايا الطعام .

مَنْ عَلَى الْمَبَادِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنْ فَنُونِ الْإِتْفَاعِ بِشِمَارَاتِ التَّخْيِيلِ كَالْقَمَرِ وَالرُّطْبِ وَالْيَابِسِ ..
وغير ذلك .

والرزق الحسن ما كان حلالاً . ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحسب ، ويقال هو
الذي لا مِنةَ مخلوق فيه ولا تبعاً عليه .

ويقال هو ما لا يعصى الله مكتسبه في حال اكتسابه .

ويقال هو ما لا ينسى الله فيه مكتسبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي

مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ

وَمَا يَبْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ

الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَسِرُونَ ﴾

أوحى إلى النحل : أود به وحى إلهام .. ولما حفظ الأمر وأكل حلالاً ، طلب ما كلفه
وجعل ما يخرج منه شفاء للناس .

ثم إن الله — سبحانه — عرّف الخلق أن التغضيل ليس من جهة القيلاس والاستحقاق ؛
إذ أن النحل ليس له خصوصية في القامة أو الصورة أو الزينة ، ومع ذلك جعل منه التسل
الذي هو شفاء للناس .

والإنسان مع كمال صورته ، وتعالى عقله وفطنته ، وما اقتص به الأنبياء عليهم السلام
والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى .. فأى فضيلة للنحل ؟ وأى ذنب
للإنسان ؟ ليس ذلك إلا اختياره — سبحانه .

ويقال إن الله — سبحانه — أجرى سُنَنَهُ أَنْ يُخْفِيَ كُلَّ شَيْءٍ عَزِيزٌ فِي شَيْءٍ حَقِيرٍ ؛

فجعل الإبريس^(١) في اللود وهو أضف الحيوانات ، وجعل السمل في النحل وهو أضف الطيور ، وجعل الذرق في الصدف وهو أوحش^(٢) حيوان من حيوانات البحر ، وكذلك أودع الذهب والفضة والنيروزج في الحجر كذلك أودع المرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يصي وفيهم من يخطئ^(٣) .

قوله جل ذكره . ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يَردُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكُلِّ لَا يَعلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

خَلَقَ الإِنسَانَ فِي أَحْسَن تَرْكِيبٍ ، وَأَمْلَح تَرْكِيبٍ ، فِي الْأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَجْزَاءِ الْبَاطِنَةِ ، وَالنُّورِ وَالضِّيَاءِ ، وَالنَّهْمِ وَالذِّكَاةِ . وَرَزَقَهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّفَكُّرِ ، وَالْعِلْمِ وَالتَّبَصُّرِ ، وَفَتَوَنَّى لِلنَّاقِبِ الَّتِي خُصَّ بِهَا مِنَ الرَّأْيِ وَالتَّنْبِيهِ ، ثُمَّ فِي آخِرِ عَمَرِهِ يَجْعَلُهُ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ مُردوفاً ، وَيُرى فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلَسَّ جَدِيداً .

ويقال « منكم من يرد إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ » : وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق ؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً .

ويقال أَرْدَلِ الْعُمَرِ أن يرغب في هتفوان شبابه في الإرادة ، ويسلك طريق الله مدةً ، ثم تقع له فترةٌ ، فينسخ عقد إرادته ، ويرجع إلى طلب الدنيا . وعند القوم هذه ردةٌ في هذا الطريق .

ويقال أَرْدَلُ الْعُمَرِ رَغْبَةُ الشَّيْخِ فِي طَلَبِ .

ويقال أَرْدَلُ الْعُمَرِ حُبُّ الْمَرَةِ قَرِيْبَةً .

(١) الإبريس = أحسن المريد (مرب) (الوسط = ١ ص ٧) .
(٢) هنا متاعاً أجمع الحيوان ، من قولهم بلت وحشاً أي جالماً لم يأكل شيئاً خلا جوفه (الوسط

٢ ص ٩ ، ١٠) .
(٣) يسلم اتجاه التعبد في هذه الإشارة مع البقاء القرآن .. إذ يأتي بعد قليل : « والله فضل بضم على بعض في الرزق » .. وفضل الله بلاءة .

وقال أرذل العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرضَى خصومة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بِمُضْكِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَعَدُّونَ ﴾

أرزاق المخلوقات مختلفة ؛ فَمِنْ مَضِيٍّ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمِنْ مُوسَّرٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمِنْ أَرْزَاقٍ هِيَ أَرْزَاقُ النُّفُوسِ ، وَأَرْزَاقُ الْقُلُوبِ وَأَرْزَاقُ الْأَرْوَاحِ ، وَأَرْزَاقُ الْأَسْرَارِ ؛ فَأَرْزَاقُ النُّفُوسِ لِقَوْمِ بِنَوَافِقِ الطَّامَعَاتِ ، وَلِآخَرِينَ بِخِلَافِ الْمَالِ . وَأَرْزَاقُ الْقُلُوبِ لِقَوْمِ حُضُورِ الْقَلْبِ بِاسْتِمَامَةِ الْفِكَرِ ، وَلِآخَرِينَ بِاسْتِبْلَاءِ الْفَقْدِ وَجَوَامِ الْقِسْوَةِ . وَأَرْزَاقُ الْأَرْوَاحِ لِقَوْمِ صَفَاءِ الْهَيْبَةِ ، وَلِآخَرِينَ اشْتِفَالِ أَرْوَاحِهِم بِالْعَلَاةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَشْكَالِهِمْ ، فَيَكُونُ بِالْإِذْمِ فِي حُبِّهِمْ لِأَمْتَلَمِ . وَأَرْزَاقُ الْأَسْرَارِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمُشَاعِلَةِ الْحَقِّ ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذِهِ الْجَمْعَةِ فَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَسْرَارِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

شَخَّلَ أَطْلُقَ بِأَطْلُقِ لِأَنَّ الْجِنْسَ أَوَّلَى بِالْجِنْسِ . وَلَوْ أَنَّ أَرَادَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — بِقَاءِ الْجِنْسِ هَيَأَ سَبَبَ التَّنَاسُلِ وَالتَّنَاسُلَ لَا سَتِفَاءَ مِثْلَ الْأَصْلِ . ثُمَّ مَنْ عَلَى الْبَعْضِ بِخَلْقِ الْبَنِينَ ، وَابْنِي قَوْمًا بِالْبَنَاتِ — كُلٌّ بِتَقْدِيرِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

والرزق الطيب لبدي ما يستطيه نَفْسُهُ ، وَآخِرُ مَا يَسْتَطِيهِ سِرُّهُ .

فَبِهِمْ مَنْ يَسْتَطِيبُ مَا كَوَلَا وَمَشْرُوبًا ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَطِيبُ خُلُوعًا وَصَفُوعًا . . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَرْزَاقِ .

« أُنْبِيَاءُ بَاطِلٌ يُؤْمِنُونَ » ، وهو حَسْبَانُ حَصُولِ شَيْءٍ مِنَ الْأَغْيَارِ ، وَتَعْلُقُ الْقَلْبَ بِهِمْ اسْتِكْفَاهُ مِنْهُمْ أَوْ اسْتِمَاعًا لِمَنْوَرٍ أَوْ اسْتِجْلَابًا لِحُبُوبٍ .

« وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » وَالنِّعْمَةُ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا هِيَ التَّقَى بِاللَّهِ ، وَاتِّظَارُ التَّرَجُّعِ مِنْهُ ، وَحَسَنُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَلَاكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾

وَمَنْ يَتَعَلَّقُ بِشَخْصٍ أَوْ بِسَبَبٍ مُضَاهٍ^(١) لِمُبَادِ الْأَسْمَاءِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَضِيعُ وَقْتَهُ فَبِمَا لَا يُعِينُهُ ، فَارْزُقْ ، مِنَ اللَّهِ — فِي التَّنْحِيقِ — مُقَدَّرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

كَيْفَ تُضَرِّبُ الْأَمْثَالَ لِمَنْ (لَا)^(٢) يَسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي الْقَاتِ وَالْعَفَاتِ وَأَحْكَامِ الْأَنْفَالِ ؟ وَمَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقِ^(٣) وَتَمَّعْ فِي ظِلْمَاتِ النِّشْيَةِ ، وَبَقِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْمَبُودِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقِ اللَّهِ مَنًّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

شَبَّهَ الْكَافِرَ الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا مِثْلَ لَهُ فِي الشَّرْعِ ، وَالْمُؤْمِنَ الْخَالِصَ بِحَقِّ رِزْقِهِ الْخَيْرَاتِ وَوَقْتَهُ إِلَى الطَّاعَةِ ثُمَّ وَعَدَهُ الثَّوَابَ وَحَسَنَ الْمَأْتَبِ عَلَى مَا أَفْتَقَهُ .

(١) فِي الْهَامِشِ مَكْنَا ، يَتَنَاوَسُ فِي النَّسَبِ (مَتَاه) ، وَالصَّوَابُ مَا جَاءَ فِي الْهَامِشِ أَيْ مَاتَل .

(٢) سَعَتُ (لَا) وَالْحَقُّ يَطْلُبُهَا .

(٣) أَيْ مِنْ حَيْثُ مَضَاهَا إِلَى الْخَلْقِ ، وَمَنَاطَرُهُ بِالْمَدْعَلِ .

ثم نقي عنهما المساواة إذ ليس من كان بنفسه ، ملاحظاً لأبناء جنسه ، متادباً في حساب
مفاليطه كمن كان مدركاً بربه مصطلماً^(١) عن شاهده ، غائباً عن غيره ، والمُجَرى عليه
ربه ولا حول له إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا

أَبْكُم لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى

مَوْلَاهُ إِنَّا يَرِجُّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ

يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ ﴾

هذا المثل أيضاً للمؤمن والكافر ، والكافر كالجاهل الأبكم الذي لا يفهم منه شيء ،
ولا يحصل منه نفع ، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ من حوله وقوته ، ولا يعرف
إلا بطولته — سبحانه — ومنته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفِي غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،

وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ

أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴾

استأنزل الحق — سبحانه — بلم النبييات ، وسَـرَّهَا عَلَى الْخَلْقِ ؛ فيخرجُ قوماً في الصلاة
ثم ينقلهم إلى صفة الولاية ، ويقم قوماً برقم المناوذة ثم يردم إلى وصف الولاية . . فالمراتبُ
مستورة ، والخطوات مبهمة ، والخلقُ في غفلة عما يرادُّ بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمِّيَانِكُمْ

لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(١) الاصطلاح : شعاع غلبة فرد على القول فيستلها بقوة سلطانه وقهره (انجم ص ٤٠) .

خَلَقَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ شَاوَرَهُمْ ، وَأَثْبَتَهُمْ — على الوصف الذى أرادَه — دون أَنْ يُخَدِّمَهُمْ ، ولم يعلَمُوا بِمَاذَا سَبَقَ حُكْمُهُمْ . . أبا لِمَعَادَةِ خَلْقِهِمْ أَمْ عَلَى الشَّقَاوَةِ مِنَ النَّدَمِ أَخْرِجَهُمْ مِنْ مَنْ يَبْطُونَ أَمَاتَهُمْ ؟ فَلَاحِصٌ أَفْضَرُهُمْ عَلَيُوا ، وَلَا صَفَةَ رَيْبِهِمْ عَرَفُوا ثُمَّ يَحْكُمُ الْإِلَهَامُ هَدَاهُمْ حَتَّى قَبِلَ الصَّبِيُّ نَدَى أُمِّهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَقَدَّمَ تَعْرِيفُ أَوْ تَخْوِيفُ أَوْ تَكْلِيفُ أَوْ تَمْنِيفُ .

« وَجِلْ لَكُمْ السَّمْعَ » : لَتَسْمَعُوا خُطَابَهُ ، « وَالْأَبْصَارَ » لَتُبْصِرُوا أَعْمَالَهُ ، « وَالْأَفْئِدَةَ » لَتَعْرِفُوا حَقَّهُ ، ثُمَّ لَتَشْكُرُوا عَظِيمَ إِثْمَانِهِ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَوَاسِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسْتَقَرَّاتٍ فِي سَوَاسِ

السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْنُونَ ﴾ .

الطَّائِرُ إِذَا خَلَقَ فِي الْمَوَادِّ بَقِيَ كَلَوَاقِفٌ وَلَا يَسْقُطُ ، وَقَدْ قَامَتْ إِدْلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — مُتَفَرِّدٌ بِالْإِبْدَاعِ ، وَلَا يَخْرُجُ حَدَثٌ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَمَلٌ لَكُمْ مِنْ بَيوتِكُمْ

سَكَنَّا وَجَمَلٌ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ

بَيوتًا تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ نُلَاعِنُكُمْ وَيَوْمَ

إِلَاعِنُكُمْ ، وَمِنْ أَصَوْفِهَا وَأَوْبَارِهَا

وَأَشْعَارِهَا إِنَّا نَأْتِيهَا مِنْ شَمَالٍ إِلَى حِينٍ ﴾ .

لِلنَّفُوسِ وَطْنٌ ، وَلِقُلُوبِهَا وَطْنٌ . وَالنَّاسُ عَلَى قِسْمَيْنِ مُسْتَوِطَيْنِ وَمَسَافِرٍ : فَكَأَنَّ النَّاسَ بِنَفْسِهِمْ مُخْتَلِفُونَ فَكَذَلِكَ بِقُلُوبِهِمْ ، فَالْمُرِيدُ أَوْ الطَّالِبُ مَسَافِرٌ بِقَلْبِهِ لِأَنَّهُ يَسْتَلُوفُنْ ، وَيَرْتَقِي مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ ، وَالْمَعَارِفُ مُقِيمٌ وَمُسْتَوِطٌ لِأَنَّهُ وَاصِلٌ مُتَمَكِّنٌ وَالطَّرِيقُ مَنَازِلٌ وَمَرَاحِلٌ ، وَلَا تَقْطَعُ تِلْكَ الْمَنَازِلُ بِالنَّفُوسِ وَإِنَّمَا تَقْطَعُ بِالْقُلُوبِ ، وَالْمُرِيدُ سَائِكٌ وَالْمَعَارِفُ وَاصِلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَمَلٌ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا

وجعل لكم من الجبال أكفانا
وجعل لكم سراويل تقيم الحر
وسراويل تقيم بأنكم كنتم نائم
نعمته عليكم لعلكم تسلمون

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ومحوها غلالاً . . كنتم جعل في ظل عنايته
لأوليائه منوى وقراراً .

وكما ستر ظواهركم بسراويل تقيم الحر وسراويل تقيم بأس عبودكم - كنتم ألبس
سراويلكم لبساً يلفكم به في السراء والضراء ، ولباس النصبة يحميكم من مخالفتها ، وأظلمكم
بظلال التوفيق مما يحصلكم على ملازمة عبادته ، وكماكم بحل الوصل مما يؤهلكم
قربه ومحبه .

قوله : « كنتم نائم نعمته عليكم . . » ، أعلم النعمة بأن تكون عاقبتهم مغنومة بلطفه ،
ويكفهم أمور الدين والدنيا ، ويصونهم عن اتباع الهوى ، ويؤدبهم حتى يؤثروا ما يوجب
من الله الرضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ
الْمُبِين ﴾ .

إذا بلغت الرسالة فما جعلنا إليك (١) حكم الهداية والفضلة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْفِكُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يستوفون إلى الطاعة ، فإذا ضلوا أعصوا بها (٢) .

(١) وودت (إليكم) والخطاب موجه إلى المصطفى صل الله عليه وسلم فالصواب (إليك) .

(٢) في هذا الصدد يقل القسري عن شيخه الشافعي قوله (لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي
هشام : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ .

فقالوا : كان يأمرنا بالقيام بالطاعة ورواية التصير فيها .

فقال : هلا أمركم بالنية منها برؤية مفسحها ومجرها ؟ (الرسالة ص ٣٤ .

ويقال يستغيثون ، فإذا أجابهم كَقَعَرُوا في مُشْكِرِهِ .

ويقال إذا وَقَعَتْ لَمْ عِنَّةٌ استجاروا بربهم ، فإذا أزال عنهم تلك الهن لسوا ما كانوا فيه من الشدة ، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة .
ويقال يعرفون في حال توهمهم قُبِيحَ ما كانوا فيه في حال زلهم ، فإذا قضوا توهمهم صلوا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ تَنْتَبِهُ مِنْ كُلِّ أَتَرٍ شَبِيحًا
ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

إذا كان يومُ الحشر سأل الرسلُ عن أحوال أتيمهم ، فن نَلَقَ بصيرةً أكرمَ ، ومن لم يُدَلِّ بصيرةً لا تراعى له حرمةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ
فَلَا يَخَفُوا مِنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ﴾
أى يُشَدَّد عليهم الأمر ولا يُسهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ
قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ
كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا
إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

نموا أن يَنْفِقُوا من إخوانهم الذين عاشروهم ، وحلوم على إزالة ، فينبأون من شركائهم ، ويلمن بعضهم بعضاً ، وتضيق صدورهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبَثُونَ ﴾ .

استسلموا لأمر الله وحُكْمِهِ ، ويومئذ لا تضرعُ منهم يَرَى ، ولا عِنَّةٌ — يصرخون من ويلها — عنهم تُكْشَفُ

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا

على هؤلاء ونزلنا عليك الكتابَ

تَبَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾

ثاني - يوم القيامة - كل أمة مع رسولها ، فلا أمة كهذه الأمة فضلا ، ولا رسول كرسولنا صلى الله عليه وسلم رتبة وقدرآ .

« ونزلنا عليك الكتاب » أى القرآن تبيانا لكل شئ ، فيه للمؤمنين شفاء ، وهو لهم نبياء ، وعلى الكافرين بلاء ، وهو لهم سبب محنة وشقاء .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

وَلِإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١١﴾

العدل ما هو صواب وحسن ، وهو قبيض الجور والظلم .

أمر الله الإنسان بالعدل فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخلق ؛ فالعدل الذى بينه وبين نفسه تمنعها عما فيه هلاكها ، قال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى » (١) ، وكل عده مع نفسه كى هو قبيح .

والعدل الذى بينه وبين ربه إشاره حقه تعالى على حفظ نفسه ، وتقديم رضا مولاه على ما سواه ، والتجرد عن جميع المزاج ، وملازمة جميع الأوامر ..

والعدل الذى بينه وبين الخلق يكون ببذل النصيحة وترك الخيابة فيما قل (٢) أو كثر ، والإنصاف بكل وجه وألا يشئ إلى أحد بالقول أو بالفعل ، ولا إهم أو العزم .

(١) آية ٤٠ سورة التاؤمات .

(٢) وردت ٦ كل بالكاف وهى خطأ من الناسخ .

وإذا كن نصيبُ العوامِ بذلَ الإنصافِ وكفَّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواصِّ تركُ
الانصافِ ، وإساءةُ الإنعامِ ، وتركُ الانتقامِ ، والصبرُ على تحمُّلِ ما يُصيبُكَ من البلى .

وأما الإحسانُ فيكونُ بمعنى العلمِ — والعلمُ مأمورٌ به — أى العلمُ بحدوثِ نفسه ، وإثباتِ
مُحدثِهِ بصفاتِ جلاله ، ثم العلمُ بالأمورِ الدنيويةِ على حسب مراتبها . وأما الإحسانُ فى الفعلِ
فالحسنُ منه ما أمر الله به ، وأذن لنا فيه ، وحكم بجمع فاعله .

ويقال الإحسانُ أن تقوم بكل حقٍّ وَجِبَ عليك حتى لو كان الطيرُ فى مِلْكِكَ ،
فلا تقصر فى شأنه .

ويقال أن تقضى ما عليك من الحقوقِ والألتفاتِ لك حقاً من أحد .

ويقال الإحسانُ أن تترك كل ما لك عند أحد ، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً . وجاء
فى الطبر : « الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه » وعنه حال المشاهدة إلى أشار إليها التوم .

قوله : « وإيتاء ذى القربى » إعطاء ذى القرابة ، وهو صلةُ الرَّجَمِ ، مع مُقاسماتِ ما منهم من
الجلورِ والجفاءِ والخسائرِ .

ينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ : وذلك كلُّ قبيحٍ مزجورٍ عنه فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾

وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا

وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ

اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

يُفْرَضُ على كافةِ المسلمين الوفاءُ بعهدِ الله فى قبول الإسلامِ والإيمانِ ، فحبُّ عليهم
استدامةُ الإيمانِ . ثم لكلِّ قومٍ منهم عهدٌ مخصوصٌ عاهدوا الله عليه ، فهم مُعَاهِدُونَ
بالوفاءِ به ، فالزاهدُ عهدُهُ ألا يرجع إلى الدنيا ، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد نقضَ عهده
ولم يَبْ به . والمبايدُ عهدُهُ تركُ الهوى . والمريدُ عهدُهُ تركُ الماعةِ ، وآثره بكل وجه .
والمعارفُ عهدُهُ التجردُ لله ، وإنكارُ ما سواه . والمحب عهدُهُ تركُ نفسهِ معه بكل وجه ^(١) .

(١) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

واللوحْدَ عهده الانتحاء^(١) عنه ، وإفراذه إياه بجميع الوجوه والعبد منتهى^٢ عن قصور عهده ،
 مأمورًا بالوفاء به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَقَتْ قُرُونُهُمْ مِنْ
 بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا يَتَخَذُونَ آيَاتَكُمْ
 دَخَلًا يَنْسِكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ
 مِنْ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾

مَنْ نَفَضَ عَهْدَهُ أَفْسَدَ بَأْخِرَ أَمْرِهِ أَوَّلُهُ ، وَهَدَمَ بِنَفْسِهِ مَا أَسَسَهُ ، وَقَلَعَ بِيَدِهِ مَا فَرَسَهُ ،
 وَكَانَ كَنْ نَفَضَتْ قُرُونُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا^(٣) ، أَيْ مِنْ بَعْدِ مَا أُبْرِمَتْ قَتْلُهُ .

وإِنَّ السَّالِكَ إِذَا وَقَفَ لَهُ فِتْرَةٌ ، وَالْمُرِيدُ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ فِي الطَّرِيقِ وَقْفَةٌ ، وَالْمَارِفُ إِذَا
 حَصَلَتْ لَهُ حَاجَةٌ^(٤) ، وَالْمَسْبُورُ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ فِرْقَةٌ — فَهَذِهِ بَعْضُ عَظِيمَةِ وَمَصَائِبِ لُجْجَةٍ ،
 فَكَاقِلْ :

فَلَا بُدَّكَ عَلَى الْمَلَالِ تَأَسُّغًا خَوْفَ الْكَسُوفِ عَلَيْهِ قَبْلَ تَمَامِهِ

فَا هُوَ إِلَّا أَنْ تُكْثِفَ كَيْفُسَهُمْ ، وَيَنْطَفِئَ — فِي الْبَلَاءِ الظُّلُمَاءُ — مِرْاجُهُمْ ، وَيَشْتَتَّ مِنْ
 السَّمَاءِ ضِيَاءُ نَجْمِهِمْ ، وَيَصِيبَ أَزْهَارَ أَنْسِيمِ وَدَبِيعَ وَضَلِيمِ إِعْصَارٌ فِيهِ بَلَاءٌ شَدِيدٌ ، وَعَذَابٌ
 أَلِيمٌ . فَإِنَّ الْحَقَّ — صِيغَانَهُ إِذَا أَرَادَ يَقُومُ بَلَاءٌ فَكَأَيُّ قَوْلٍ : « وَقَلْبُ أَفْعَدْتُهُمْ وَأَبْصَارُ
 كَالْمُرُومَاتِ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ^(٥) » فَإِنْ أَتَاكَ سَخَطُ اللّٰهِ مُوجِعَةٌ ، وَهَصَّةٌ إِعْرَاضُ السُّلْطَانِ مُوَحِّشَةٌ
 وَكَأَيُّ قَوْلٍ :

وَالصَّبْرُ يَحْسُنُ فِي لِلْوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ — فَإِنَّهُ مَقْدُومٌ

(١) التَّصْدِيرُ مُسْتَعِدٌّ مِنْ قَوْلِ بَعْضِ الْعَبِيدِ : الْحَبِيَّةُ عَمْرُ الْحَبِّ بِصَفَاتِهِ وَإِبْرَائِيلُ الْحَبِيبُ بِذَاتِهِ .

« الرِّسَالَةُ ص ١٥٨ »

(٢) أَنْكَاثًا جَمْعُ نَكَثَ وَهُوَ مَا يَنْكَثُ قَتْلُهُ ، وَقِيلَ مِنْ رِوَايَةٍ ، وَكَانَتْ هَذِهِ تَعْرِيفًا مِنْ جَوَابِهَا مِنْ
 التَّنَادُلِ إِلَى الظُّمْرِ ثُمَّ تَأْمُرُ مِنْ فَيَنْتَفِضُ هَرَقُهُ .

(٣) وَوَدَّتْ (حَبَّةٌ) وَهِيَ غَطَاءُ لِي السَّخَرِ ، وَلَقَدْ اخْتَرْنَا (حَبَّةٌ) لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ ، وَهِيَ مُعَاقِبَةٌ
 فِي الْكُنْيَةِ لِكَلِمَةِ (حَبَّةٌ) حَيْثُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَجِدْتَ الْإِتِّبَاسَ فِي حَرْفِ الْمِيمِ عِنْدَ التَّلَاقِ .

(٤) آيَةٌ ١٦٠ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

هناك تسكب العبرات ، وتشتق الجيوب ، وتلطم الخسود ، وتسلط الشيار ، وتغرب
للنازل ، وتسود الأبواب ، وينوح النائح :

وأنى الرسول غاض سبر أنهم رحلوا قريباً
رجعوا إلى أوطانهم فخرى لم دعى صيباً
وتركن نلوا في الضلوع وزرعن في رأسى مشيباً

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا نَبِّئُكُمْ أَنَّ اللَّهَ بِهِ وَلِيْبَيْنَ لَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴾

بلاء كل واحد هل ما يليق بحاله ؛ فمن كان بلاؤه بحديث النفس أو ببقائه عن هواه ،
وبحرماته لكرائمه في عقباه فاسمُ البلاء في صفته مجاز ، وإنما هنا بلاء العوام . ولكن بلاء
البرام غير هنا فهو كما قيل :

مَنْ لَمْ يَبْتَ - وَالْحَبُّ رِلْ ، فَوَادِهِ لَمْ يَنْدِرْ كَيْفَ تَفَنَّتْ الْأَكْبَادُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ،

وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ وَلَنُتْلَىٰ نَحْنُ عَاكِفُونَ ﴾

ليست واقعة القوم بخضران يصيبهم في أحوالهم ، أو من جهة تفصيرهم في أعمالهم
وليأضيئهم من أحوالهم . . فهذه - لعمري - وجوه وأسباب ، ولكن ير القصة
كما قيل :

أَنَا صَبٌّ لَيِّنٌ هَوَيْتُ وَلَكِنْ مَا احْتَيَا بِسوءِ رَأْيِ الْمَوَالِي ؟

قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ : لو شاء الله سعادتهم كرحيمهم ، وعن العاصي
قصصهم ، ويدوام الذكر - بذلك الغفلة - المهمل . . ولكن سبقت التهمة في ذلك ،
وما أحسن ما قالوا :

شَكَا إِلَيْكَ مَا وَجَدَ مَنْ خَالَه فَبِكَ الْبَلَاءُ

حِرْآنُ . . لَوْ شِئْتَ احْدَى ظِلْمَانُ . . . فَوَشِئْتَ وَرَدَ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ
فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ يَدِّعُوا بَيْعَاتِكُمْ وَتَقُولُوا
السَّوءُ بِمَا صَدَّقْتُمْ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أَيْمَانُكُمْ عِدَّتُمْ صِدْقِكُمْ فِي إِيْمَانِكُمْ مِنْ تَحْقِيقِكُمْ بِرِهَانِكُمْ ، لَأَنْكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَى حَدِّ
الْتَرَدِّ دُونَ الْقَطْعِ وَالْتَحِينَ ، فَأَفْضَى بِكُمْ تَرَدُّدُكُمْ إِلَى أَوْطَانِ شِرْكِكُمْ ، إِذِ الشُّكُّ فِي اللَّهِ
وَالشُّرْكُ بِهِ قَرِينَانِ فِي الْحُكْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعِدَّةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

لَا تَتَّخِذُوا عَلَى الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ وَالْوَفَاءِ بِعِدَّةٍ هَوْنًا يَسِيرًا مِمَّا تَتَّخِذُونَ بِهِ مِنْ حُطَامِ دُنْيَاكُمْ
مِنْ حِلَالِكُمْ وَحَرَامِكُمْ ، فَإِنَّ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ فِي جَنَاهُ — بِشَرَطِ وَفَائِكُمْ لِإِيْمَانِكُمْ —
يُوفَى وَيُرْوَى عَلَى مَا تَتَّخِذُونَ بِهِ مِنْ حُطُوطِكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ
وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الَّذِي عِنْدَكُمْ غَرَضٌ خَلَّتْ فَلَيْ ، وَالَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ثَوَابِكُمْ فِي مَا لَكُمْ نِعْمٌ مُجْمُوعَةٌ ،
لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ .

وَيَقَالُ مَا عِنْدَكُمْ أَوْ مَا مَنَعَكُمْ أَوْ مَا لَكُمْ أَفْضَالٌ مَبْلُوعَةٌ وَأَحْوَالٌ مُدْخُولَةٌ (١) ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
فُتُوبٌ مُقِيمٌ وَنَصِيمٌ عَظِيمٌ

وَيَقَالُ مَا مَنَعَكُمْ مِنْ مَعَارِفِكُمْ وَمَحَابِبِكُمْ أَثَرُ مُتَنَاقِبَةٍ ، وَأَصْنَافُ مُتَنَاقِبَةٍ ، أَعْيَانُهَا غَيْرُ بَاقِيَةٍ
وَإِنْ كَانَتْ أَحْكَامُهَا غَيْرَ بَاقِيَةٍ (٢) ، وَالَّذِي يَنْصِفُ الْحَقُّ بِهِ مِنْ رَحْمَةِ بِكُمْ وَحُبَّتْ لَكُمْ وَثِيَّتُهُ
عَلَيْكُمْ فَصَفَلَتْ أَرْزَاقُهُ وَنَوَتْ سَرْمَدِيَّةٌ .

(١) لَأَنَّهَا مَنَعَتْكُمْ مِنَ اللَّهِ لَمَّا كُنْتُمْ .

(٢) أَيْ مَنَعَتْكُمْ بِالْعَمَلِ

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمَعْرُضُ الزوال، وقابلُ للاقتضاء، وما وصفتنا به أنفسنا من الإقبال لا يتناهى وأفضل لا تنفى، كما قيل :

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائى وإنى للقائم لأشدُّ شوقاً

قوله : « ولنجزيهم الدين صبراً . . . » : جزاء الصبر الفوز بالعلوية ، والظفر بالبنية .
ومألم في الطلبات يختلف : فَمَنْ صَبَرَ عَلَى مَقَاسَةِ شَقِيَّةٍ فِي اللَّهِ . فَيَوْفُوهُ وَثَائِبُهُ عَظِيمٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ، قَالَ تَعَالَى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ^(١) .

وَمَنْ صَبَرَ مِنْ أَتْبَاعِ شَهْوَةٍ لِأَجْلِ اللَّهِ ، وَهَنْ لَرَتَكَلْبِ هَوَايَا عَفَاةٍ اللَّهُ لِحَزَاوِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا نَحْمَةً وَسَلَامًا » ^(٢) .

وَمَنْ صَبَرَ نَحْتِ جِرْيَانِ حُكْمِ اللَّهِ ، مُنْحَقًا بِأَنَّهُ يَحْمَرُّ آتِيًا مِنَ اللَّهِ قَدْ قَالَ تَعَالَى : « إِنْ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » ^(٣) .

قوله جل ذكره : « مَنْ مَحَلٌ صَالِحٌ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ » .

الصالح ما يصلح للقبول ، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به . وقوله « مَنْ مَحَلٌ صَالِحٌ » : فِي الْحَالِ ، « فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً » : فِي الْمَالِ ؛ فَصِفَاهُ الْحَالِ يَسْتَوْجِبُ وَفَاءَ الْمَالِ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِ إِيمَانٍ ، وَإِنَّمَا قَالَ : « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

ويقال « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » أَيْ مُصَدِّقٌ بِأَنَّهُ إِيمَانُهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ لَا بِسَلَةِ الصَّالِحِ . وَيَقَالُ « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » أَيْ مُصَدِّقٌ بِأَنَّهُ عَمَلُهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَإِنْشَائِهِ وَإِدَائِهِ . قَوْلُهُ « فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً

(١) آية ١٠ سورة الزمر .

(٢) آية ٧٥ سورة الفرقان .

(٣) صبر البعد مع الله أحد أنواع الصبر ويكون — كما يقول عمرو بن عثمان : إلتبته مع الله ، وتلقى بلاءه بالحب والهدى .

وسبر الله مع البعد يصفه المنيخ الفائق بقوله : قال الصابرون بن النابون لأنهم نالوا من الله تعالى

مسيحه . (الرسالة ص ٩٤) .

طيبة : الفاء للتقريب ، « ولنجزيهم ... » الواو للعطف في الأولى مُعْجَل ، وفي الثانية مُؤَجَّل ، ثم ماتلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق ، وإنما يعرف ذلك بالقبول ، وقوم قالوا إنه حلالة الطاعة ، وقوم قالوا إنه القناعة ، وقوم قالوا إنه الرضا ، وقوم قالوا إنه النجوى ، وقوم قالوا إنه نسيم القرب ... والكل صحيح ولكل واحد أهل .

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب ، وفي معناه قالوا :

نحن في أكل السرور ولكن ليس إلا بكم ينم السرور
غيب ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غيب ونحن حضور

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة ؛ وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً^(١) ، الأولون تأمن بشرط المبودة ، والآخرون مُعْتَقُونَ بشرط الحرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

شيطان كُلُّ واحد ما يشغله عن ربه ، فن سَلَطَتْ عليه نَفْسٌ حَقَّ شَغْلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعة أو استعلاء عبادة أو ملاحظة حال — فذلك شيطانه . والواجب عليه أن يستعيذ بالله من شر نفسه ، وشر كل ذي شر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ .

أَنَّى يكون للشيطان سلطان على العبد والحق — سبحانه — متفرد بالإبداع ، متوحد بالاختراع ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِه مُشْرِكُونَ ﴾ .

(١) في هذا المبدأ يقول القسري في رسالته : « والمريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم لأنه من الأسماء المستتقة ، ولكن المريد في حرف هذه الطائفة من لا إرادة له ، فمن يجرد عن إرادته لا يكون مريداً . (الرسالة ص ١٠١) .

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي غِلَاظِهِمْ ، وَسِرِّ غُلُوبِهِمْ وَمَشَقَّاتِهِمْ فَأَمَّا أَصْحَابَ التَّوْحِيدِ فَأُولَئِكَ يَرْوُونَ الْخَلَائِفَةَ بِاللَّهِ ظُهُورُهَا ، وَمِنْ اللَّهِ ابْتِدَاءُهَا ، وَإِلَى اللَّهِ مَآلُهَا وَذِيَاوَاهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُبَدَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُتَفَرِّقٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝ .

ما زادادوا في طول مدتهم لإشكاً على شك ، وجعداً على جحد ، وجرواً على منهاجهم في التكذيب ، فلم يصدّقوه صلى الله عليه وسلم ، وما زادوا في ولايته لإشكاً وموياً :
وكذا للول إذا أرادَ قطيعةً مَلَّ الرِّصَالُ وَقَالَ كَلِّفْ وَكَانَا

قوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ : ردّاً على فرط جهلهم بربهم ، وبُعدِ رتبهم من التحصيل ، فلما كانوا متفرقين في شهود اللبك ردّوا في حين التعريف إليهم بِذِكْرِ اللَّيْلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَى وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝ .

لم يستوحش الرسول — صلى الله عليه وسلم — من تكذيبهم ، وخفاء حاله وقدره عليهم . . . وأى ضرر يلحق مَنْ كانت مع السلطان جُحَالَتُهُ إِذَا خَفِيََتْ عَلَى الْأَخْسَرِ مِنْ الرِّعْيَةِ حَالَتُهُ ؟

ثم إنه أظلم الحجة في الرد عليهم حيث قال : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَى وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ : فَمِنْ قُرْطِ جَهْلِهِمْ تَوَهَّمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ — الَّذِي عِزَّ كَافَتُهُ أَنْطَلَقَ

عن مغلزته في فصاحته وبلاغته — متولٌ وحاصلُ باتصافه بِمَنْ هو أعمى للنطق ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

إِنَّ مَنْ تَبَيَّنَتْ بِالشَّقَاوَةِ قَسْمَتُهُ لَمْ تَبْلُقْ مِنَ الْحَقِّ — سبحانه — بهِ رَحْمَتُهُ ، وَمَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فِي هَاجِلِهِ إِلَى مَرَفَتِهِ لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ فِي آجِلِهِ إِلَى جَنَّتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ السَّادِثُ الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ

مُتَذَكَّرُونَ ۝

هذا من لطائف الماويض ؛ إذ لما وصفوه — عليه السلام — بالافتراء أثار الحقُّ

— سبحانه — في الجواب ، قال : لَسْتُ أَنْتَ الْمُتَذَكِّرُ إِنَّمَا الْمُتَذَكِّرُ مَنْ كَذَّبَ مَبُودَهُ وَجَبَلَ تَوْحِيدَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ

إِلَّا مِنْ أَكْثَرِ عُدْوَانِهِ وَقَدْ جِئَ بِمُطْمَئِنِّينَ

بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مِنْ شَرَحَ الْكُفْرِ

صَدْرًا فَطَلَبَهُمْ فَغَضَبَ مِنْ اللَّهِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عِبْدِهِ قَلْبُهُ ، وَإِخْلَاصَهُ فِي عَقْدِهِ ، وَلَحِقَتْهُ ضَرُورَةُ فِي حَالِهِ خَفَّتْ عَنْهُ حُكْمَتُهُ ، وَدَنَعَ عَنْهُ عَنَاءُهُ فَلَا يَلْفِظُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ إِلَّا مُسْكِرَةً — وهو مُوَحَّدٌ ، وهو مستحقُّ الصَّدْرِ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى ^(٢) . . . وَكَذَلِكَ الَّذِينَ هَقَمُوا قُلُوبَهُمْ ،

(١) أرادوا به غلاماً كان لحويطب اسمه عائش أو بيئش وكان صاحب كتبه ، أو هو جبر غلام رومي لأمير بن الحفصري وكان يقرأ التوراة والإنجيل ، أو سلمان الفارسي . . . وكلمهم أمعاجم .
(٢) ومن أمثال ذلك عمار بن ياسر الذي جرت كَلَةُ الْكُفْرِ عَلَى لِسَانِهِ مَكْرُومًا وهو مستعد الإيمان ، وأتى رسول الله وهو يركي ، يجلل الرسول بمسح حبيبه ويقول : « إِنْ عَادُوا فَكَمْ مَدَّ لَهُمْ بِمَا قُلْتُ » .
وكان يقول عنه : « إِنْ عَادُوا عَلَى إيمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ وَاسْتَظَلَّ الْإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ »

وتجردوا للسالك طريق الله ثم حرّضت لم أسباب ، وانتقت لم أَعْدَاءُ ؛ كَانَ يكون
لم بعض الأسباب اشتغال أو إلى شيء من العلوم رجوع ... لم يكن ذلك فادحاً في صحة
إرادتهم ، ولا يَمُدُّ ذلك فسحاً لمودم ، ولا ينفى بذلك منهم حَقَّةُ الْقَصْدِ إلى الله تعالى .

أَمَّا مَنْ شَرَحَ بالكفر صدراً : فرجع بانتصاره ، ووضع قدماً — كان قد رَفَعَهُ
في طريق الله — بِحُكْمِ هَوَاهُ قد نَقَضَ عَهْدَ إِرَادَتِهِ ، وَفَسَخَ عَقْدَهُ ، وهو مستوجب (...)^(١)
إلى (...)^(٢) تتداركه الرحمة .

قوله جل ذكره : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

السالك إذا آثر (المحظوظ)^(٣) على الحقوق بَقِيَ عن الله ، ولم يباركه فيه فيما آثره على حق
الله ، ولقد ظفروا :

قد تركناك والذي نريد نفسي أَنْ تَمْلِكهم فتعود

قوله جل ذكره ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَبَصَرِهِمْ وَأُصْلَحَ لَهُمْ وَأُولَئِكَ
مُتَعَاظُونَ﴾ .

إذا تملأ في غفلته ، ولم يتدارك حاله بملزمة حَسْرَتِهِ ، ازداد قسوة على قسوة ، ولم يستمتع
بما هو فيه من قوة ، وكما قال جل ذكره :

﴿لَا جِبْرَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
لَهُمُ الْعَذَابُ﴾

م في الآخرة محبوبيون ، وينزل البعد موسومون .

(١) مثلية

(٢) مثلية

(٣) سلبت هذه اللفظة والسياق يتطلبها ، فأبتاعها حياءً نعرف من أسلوب القسري في العبارة
بين حظوظ النفس وحقوق الحق .

قوله جل ذكره ﴿لَهُمْ إِنْ دَبَّكَ لَدَيْنَ هَلَجُوا مِنْ بَعْدِ
مَاتُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنْ
رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَقَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وَمَنْ صَبَرَ حِينَ عَزَمَ الْأَمْرَ ، وَلَمْ يَجْنَحْ إِلَى جَانِبِ الرَّحْصِ ، وَأَخَذَ فِي الْأُمُورِ بِالْأَشَقِّ
أَكْرَمَ اللَّهُ حَقَّهُ ، وَقَرَّبَ مَكَانَهُ ، وَلَقَاءَهُ فِي كُلِّ حَلَقَةٍ بِإِزَادَةٍ ، وَبِحَقِّ حَقِّهِ حِينَ خَيْرِ أَشْكَالِهِ ،
وَتَقَدَّمَ عَلَى الْجَلَّةِ وَإِنْ قَلَّ احْتِيَالُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَادِلُهَا
نَفْسَهَا وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ
وَمَنْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ .

خَدَأَ كُلُّ مُشْغُولٍ بِنَفْسِهِ ، لَيْسَ لَهُ فَرَاغٌ إِلَى غَيْرِهِ . وَعَزِيزٌ عَبْدٌ لَا يَشْتَتِلُ بِنَفْسِهِ ، قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ كَانَ بِحَالِهِ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » . إِنَّمَا يَكُونُ التَّارُخُ خَدَأً مَنْ كَانَ الْيَوْمُ
طَرَفًا ، وَيَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهِ مَنْ كَانَ لَهُ الْيَوْمُ أَهْتَامٌ بِنَفْسِهِ . وَلِلْمُؤْمِنِ لَأَنْفُسُ لَهُ ، قَالَ تَعَالَى : « إِنْ
اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » ^(١) اشْتَرَاهَا الْحَقُّ مِنْهُمْ ، وَأَوْدَعَهَا عِنْدَهُمْ ، فَلَيْسَ لِمَنْ فِيهَا
حَقٌّ ، وَإِنَّمَا يَرَاهُونَ فِيهَا أَمْرَ الْحَقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً
مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا
اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ﴾ .

فَرَاغَ الْقَلْبِ مِنَ الْأَشْغَالِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، فَإِذَا كَفَرَ عَبْدٌ بِهَذِهِ النِّعَةِ بِأَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ
بَابَ الْمَوْتِ ، وَانْجَرَفَ فِي فَسَادِ الشُّبُوهِ ، شَوَّكَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ ، وَسَكَبَهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنْ صِفَاتِهِ
وَقَتَهُ ، لِأَنَّ طَوَارِقَ النَّفْسِ تَوْجِبُ حَزُونَ طَوَارِقِ الْقَلْبِ ، وَفِي أَنْظَرِ : إِذَا أَقْبَلَ الْإِيلَافُ مِنَ

ها هنا أدبر النهار من ها هنا . وكذلك القلب إذا أقطع عنه معبود ما كان الحق أتم له أصابه عطف شديد ولهب عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءكم رسول منكم فكذبوه ﴾

فأخذتم العذاب وهم ظالمون .

كما جاءهم الرسول جبراً فإنه تنادى إليهم من قبل خواطرهم إشارات تدرى ^(١) ، فمن لم يستجب لتلك الإشارات بالرفق والإعتاق ^(٢) أخذه العذاب من حيث لا يشعر .

قوله جل ذكره : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾

واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه

تعينون .

الحلال الطيب ما يقتات به العبد على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في تركه الشبهة ^(٣) ، وحقيقة الشكر على النعمة الغيبة من شهود النعمة بالاستغراق في شهود النعم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ﴾

ولم ينقض وما أهل لنبي الله به

فمن اضطر هذر باتح ولا حذر فإن

الله غفور رحيم .

يُبَاح تناول المهرمان عند خجوم الضرورات حسب بيان الشرع ، ولا يَرَحْصُ في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة ، وبقدَر ما يسدُّ الزَّمَق ، كذلك عند استهلاك البدر بملبات الحقيقة لا بد من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدي الفرض الواجب عليه ، ثم لا يمكن من التصريح في أوطن التفرقة والتمييز بعد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع ^(٤) ، كما قيل :

(١) تدرى أى تتابع ، وربما كانت (سرا) لتعابيل جبراً

(٢) أى إعتاق النفس وتحريرها من رِق الشهوات

(٣) وردت (الشفة) والصواب — حسب ما يقول القشيري في مواضع مائة — أن تكون (الشبهة)

(٤) هذه هى حالة الفرق الثاني التي تستغل حالة جمع الجمع ، وفيها يرد العبد إلى للصحو عند أوقات

الفراس ويكون رجوعه قد باق لا العبد بالبدر

فَإِنْ تَكُ مِنْهُ غِيْبَةً بَعْدَ غِيْبَةٍ فَإِنْ إِلَيْهِ بِالْجُودِ يُبَايَ
 قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ
 الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ
 لَتَتَوَدَّاعُوا عَلَى الْكَذِبِ إِنَّ الَّذِينَ
 يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 لَا يَفْلِحُونَ ۖ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

الصدق في كل شيء أوَّلُ (١) من الكذب ، وكثير من أقوالهم في الاعتراض عَيَّنَتْ (٢)
 من الكذب .

والصدق لا يكذب صريحاً ، ولا يتناول أقوال كاذب مبين . وصاحب الكذب
 تظهر عليه المذمة لما هو فيه من الزفة ، وله في الآخرة عذاب أليم (٣) .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ
 الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ
 لَتَتَوَدَّاعُوا عَلَى الْكَذِبِ إِنَّ الَّذِينَ
 يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 لَا يَفْلِحُونَ ۖ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

يُنْ بَيَّنَّ أَنَّهُ أَوْضَحَ لِيَنَّ تَقَدَّمَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، فَتَنَّهُمْ مَنْ أَى بِأَمْرٍ بِهِ وَمَنْ خَالَفَ ..
 وَكُلُّهُمُ مِيلٌ بِمَا اسْتَوْجِبَهُ ، فَنَ أُطْلِعَ قَلْبُهُ قَرِيبَةً ، وَمَنْ عَصَى وَدَّ وَحَبَبَةً .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ۝ إِنَّمَا إِنَّ رَبَّكَ لَتَنِينَ يُحِيلُوا السَّوَاءَ
 بِهَيَاةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
 لَنَقُورُ رَحِيمٍ ۝

(١) وردت (أولاً) وهي خطأ في النسخ

(٢) عينات جمع عينة وهي نموذج من أصل الشيء ومادة (الوسط)

(٣) قلنا هنا بعض إصلاحات طيبة نظراً لاتهم الخط وروايت ، ووجود بعض حروف تبهير الطيبة .
 من قلنا كما هي في الرسم .

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قَدَّمُوا ، وأَسَفُوا على كثير مما أسلفوا فبِهِ أُسْرِفُوا ، وَهَذَا صِدْقُ عَذْرِهِمْ أَكْثَرُ عَذْرِهِمْ - نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِمْ إِذَا أَسْلَمُوا ، وَنَجَّاهُمْ إِذَا تَضَرَّعُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا فِي دِينِهِ ﴾^(١)
وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

قيل آمَنَ بالله وحدهَ مقام مقام الأمة ، وفي التفسير : كان معلماً - للخير - لأمة .

ويقال اجتمع فيه من الاتصال الموحدة ما يكون في أمة متفرقة .

ويقال لما قال إِبْرَاهِيمُ لِكُلِّ مَادَّاهُ : « هذا ربِّي » ولم ينظر إلى الخلوقات من حيث هي بل كان مُتَهَلِّكًا في شهود الحق ، ورأى للكون سُكَّةً بالله ، وما ذكر حين ذكر غيره الله . كذلك كان جزاء الحق فقال : أنت الذي تقوم مقام الكل ، ففي القيام بحق الله منك على الدوام غُثَّةٌ عن الجميع .

و « الحنيف » : المستقيم في الدين ، أو اللال إلى الحق بالكلية^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَامِهِ أَجْنَابًا ﴾^(٣)
صراط مستقيم .

الشَّاكِرُ في الحقيقة - مَنْ يرى عَجْزَهُ عن شكره ، ويرى شُكْرَهُ من الله عز وجل ، لِيَتَحَقَّقَ أَنَّهُ هو الذي خَلَقَهُ ، وهو الذي وَفَّقَهُ لشكره ، وهو الذي رَزَقَهُ الشُّكْرَ ، وهو الذي أَجْبَاهُ حتى كان بالكلية له - سبحانه .

« وهده إلى صراط مستقيم » أي تحقَّق بأنه عِبْدُهُ ، وأنه رَفَعَهُ إلى محلِّ الأَكْبَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَنَبْعَثُهُنَّ السَّالِمِينَ ﴾^(٤)

الحسنة التي آتاه الله هي دوام ما آتاه حتى لم تنقطع عنه .

(١) الحنيف - في اللغة - من الأضداد = اللال والمستقيم (ابن الانباري في كتاب الاضداد)

ويقال هي اظفة . ويقال هي النبوة والرسالة .

ويقال آتيناك في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية ، ولم تكن فيه لتعزيبية .

قوله جل ذكره : ﴿لَمْ أَزِجْكَ بِأَنْبِيَائِهِمْ أَنْتَ أَتَيْتَهُمْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

« ملّة إبراهيم » أى الكون بخلق ، والامتعاء^(١) من شاعده نفسه ، فكان نبينا — صلى الله عليه وسلم — فى اتباعه إبراهيم مؤتمراً بأمر الله . وكانت ملّة إبراهيم — عليه السلام — الخلق والسخاء والإيثار والوفاء ، فاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد عليه ، فقد زاد على الكفاة شأنه ، وبات مزيته .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْشُمُ يَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

قوم حرّموا العمل فيه وقوم حلّوه بمعصية منهم ، وقيل جعل الجمعة لم يقلوا : لا يزيد إلا يوم السبت . . فهذا اختلافهم فيه .

والإشارة من ذلك أنهم حلّوا^(٢) عن موجب الأمر ، وبلّوا إلى جانب هوام . ثم أنهم لم يراعوها حتى رعيتها فصار سبب عصيانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْظِعَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ بَالِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

(١) وردت (الامتعاء) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت (جدوا) وهى خطأ فى النسخ .

القداء إلى سبيل الله بحث^(١) الناس على طاعة الله ، وزجرهم عن مخالفة أمر الله .
والله به بالحكمة ألا يخالف بالفضل ما يأمر به الناس بالنطق .

والموعظة الحسنة ما يكون صادراً عن علم و صواب ، ولا يكون فيها تننيف .

« وجادلهم بالتي هي أحسن » : بالحجة الأقوى : والطريقة الأوضح . قال تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »^(٢) : فشرط الأمر بالمعروف استعمال ما تأمر به ، والانتباه مما تنهى عنه^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾

إذا جرى عليكم ظلم من غيركم وأودتم الانتقام . . فلا تتجاوزوا حد الإذن
بما هو في حكم الشرع .

« ولئن صبرتم » : فتركتم الانتصاف لأجل مولاكم فهو خير لكم إن فعلتم ذلك .
والأسباب التي قد يترك لأجلها المرء الانتصاف مختلفة ؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب
غداً فإنه أوفر وأكثر ، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن ينكفئ الله بخصومه ، ومنهم من
يترك ذلك لأنه مكتنف بلم الله تعالى بما يجري عليه ، ومنهم من يترك ذلك لكره نفسه ،
وتحيزه من الأخطار والاستجابة المفرة عند الظفر ، ومنهم من لا يرى لنفسه حقاً ، ولا يستقد
أن لأحد هذا الحق فهو على عقد إرادته يترك نفسه في فلكه مباح ودمه حذر . ومنهم من
ينظر إلى خصمه — أي المتسلط عليه — على أن فعله جزاءه على ما عمله هو من مخالفة أمر الله ،
قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبا كبت أيديكم ويسفو عن كثير »^(٤) . فشتاله
باستفاره عن جرئته بمنه عن انتصافه من خصمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي خَيْبٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

(١) وردت (بحث) وهي خطأ في النسخ .

(٢) آية ٨٨ سورة هود .

(٣) أي تكون أنت قدوة فيها تدعو إليه من أوامر وما تنهى عنه من زواجر .

(٤) آية ٣٠ سورة الشورى .

« واصبر » تكليف ، « وما صبرك إلا بالله » : تعريف . « واصبر » تحقق بالعبودية
« وما صبرك إلا بالله » إخبار عن الربوبية .

« ولا تحزن عليهم .. » أى طالع التقدير ، فالأنجيل له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجب
أنزاعاً فيك ؛ فنحن أسقطنا قدره فاستصغر أمره . وإذا حرفت أفرادنا بالإنجيل فلا يضيق
قلبك بشدة عداوتهم ، فلم نأضننا كفايتك ، وألا نشيتهم بك ، وألا نجعل لهم سبيلاً إليك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ ﴾

إن الله معهم بالنصرة ، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

« الذين اتقوا » رؤية النصر من غيرهم ، والذين هم أصحاب التبرى من الخمول والقوة .
والحسن الذى يبد الله كأنه يراه ، وهذه حل المشاهدة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... أهل الجنة طابت لهم حداثتها ، وأهل النار أحاط بهم سرادقها ، والحق — سبحانه — مُنزَهُ عن أن تعودوا إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعيم هؤلاء فائدة .. جَلَّتْ الأُحدية ، وقُدُسَتْ الصمدية .

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَيْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ قَتَرَةٌ فَرَأَيْنَا ، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ خُطْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ فَمَوَّنَا غُفِرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَه ، وَمَنْ وَقَعَ إِلَيْنَا يَدٌ أَجْرَلْنَا لَهُ رَحْمَةً ، وَمَنِ اتَّجَأَ إِلَى سُدُورِ كَرَمِنَا أَوْيَاهُ فِي ظِلِّ نَيْمِنَا ، وَمَنِ اشْكَا فِينَا غَلِيلًا ، مَهَكَتْ نَالَهُ فِي دَارِ فَضْلِنَا مَقِيلًا »

عبد الكريم القسبري

عند

سورة الكهف

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل (١)

قوله تعالى وتقدس : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

كَلِمَاتُ مَا تَحْمِيهَا هَابِدٌ إِلَّا شَكَرَ عَصِيَّتَهُ ، وَمَا مَحْمِيهَا سَالِكٌ إِلَّا وَجَدَ رَحْمَتَهُ ، وَمَا تَحَقَّقَهَا طُوفٌ إِلَّا تَعَطَّرَ قَلْبُهُ بِنَسِيمِ قُرْبَتِهِ ، وَمَا شَهِدَهَا مَوْحِدٌ إِلَّا تَقَطَّرَ قَدَمُهُ خُوفِ قُرْبِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ سُبْحَانَ أَقْبَى أَسْرَى بِمَعْنَاهُ لَيْلًا مِنْ

لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى

الَّتِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ

إِنَّهُ هُوَ السَّجُّورُ الْبَصِيرُ ﴾

افتتح السورة بِذِكْرِ الثناء على نفسه فقال : « سبحان اقْبَى . . » : الحقُّ سُبْحٌ نَفْسُهُ

بِمَزِيدِ خَطَايِهِ ، وَأَخْبَرَ عَنِ اسْتِحْقَاقِهِ لَجَلَالِ قُدْرِهِ ، وَعَنِ تَوْحِيدِهِ بِقَوْلِهِ نَفْسُهُ .

وَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ الْمَبْدَأَ مَا خَصَّ بِهِ رَسُولُهُ — صلى الله عليه وسلم — لِبَلَّةِ الْمَرَاغِبِ

مِنْ عُلُوِّ مَا رَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَعَظَّمَ مَا لَفَّاهُ بِهِ أَزَالَ الْأَعْجُوبَةَ بِقَوْلِهِ : « أَسْرَى » ، وَنَفَى عَنِ نَبِيِّهِ

خَطَرَ الْإِجْهَابِ بِقَوْلِهِ : « بِسْمِهِ » ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ أَوْحِيَّتَهُ ، وَاسْتَحْقَاقَهُ لِكُلِّ الْمَرْءِ فَلَا يُتَعَجَّبُ

مِنْهُ أَنْ يَنْجَلِ مَا يَنْجَلِ . وَمَنْ عَرَفَ عِبَادِيَّةَ نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْتَبِهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ فَلَا يُعْجَبُ

بِمَالِهِ . فَالآيَةُ أَوْضَحَتْ شَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ : نَفَى التَّعَجُّبِ مِنْ إِنْظَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ، وَنَفَى

الْإِجْهَابِ فِي وَصْفِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقَالَ أَخْبَرَ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ — حِينَ أَكْرَمَهُ بِإِسْمَاعِيلِهِ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ —

(١) يقول السهولطي في الإتيان : « وتسمى أيضًا سورة الإسراء » ، وسورة سبحان وسورة بنو

إسرائيل « الإتيان ط المطب سنة ١٩٥١ ص ١٠٤ » .

أما اللغاضي البياضوي (ص ٢٧٠) فيقول : سورة بنو إسرائيل أو سورة « أسرى »

فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا » ^(١) ، وآخر من بيننا صلى الله عليه وسلم بأنه « أسرى سبيته »
وليس من جاء بنفسه كمن أسرى به ربه ، فهذا متحمل وهذا محمول ، هذا ينتم للفرق
وهذا يوصف الجمع ، هذا مرید وهذا مراد .

ويقال جل المراج بالليل عند غفلة الركباء وغيبَةِ الأجانب ، ومن غير ميداد ، ومن
غير تقديم أهية واستعداد ، كما قيل : ^(٢)

ويقال جل المراج بالليل ليظهر تصديق من صدق ، وتكذيب من تعجب وكذب
أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان عبده صلى الله عليه وسلم وتهجد بالليل جعل الحق سبحانه المراج بالليل
ويقال :

ليلة الوصول أنقى من شهر ودور سواها

ويقال أرسله الحق — سبحانه — لينم أهل الأرض منه العبادة ، ثم رقله إلى السماء
لينم الملائكة منه آداب العبادة ، قال تعالى في وصفه — صلى الله عليه وسلم — : « ما زاغ
البصر وما غنى » ^(٣) ، فما التفت بيناً ولا شمالاً ، وما طمع في مقام ولا في إكرام ، فجرد
عن كل طلب وأرب .

قوله : لدره من آياتنا : كان تعريضة الآيات ثم بالصفات ثم كشف بالذات .

ويقال من الآيات التي أراها له تلك اللية أنه ليس كئله — سبحانه — شيء في جلاله
وجلاله ، وعزّه وكبريائه ، وجهه وسمائه

ثم أراه من آياته تلك اللية ما عرّف به صلوات الله عليه — أنه ليس أحد من انغلاق
مثل في نبوته ورسالته وعلو حاله وجلال رتبته .

(١) آية ١٤٣ سورة الإعراف .

(٢) هذا شاهد شرعي مضطرب في الكتابة ، وأكثر أجوابه سلامة هو : « الناس مما يحسن فيه يقول .

(٣) آية ١٧ سورة النجم .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ

هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا

مِن دُونِي وَكَيْلًا ۖ﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكنَّ نَبِيَّنَا — صلوات الله عليه — كان أوفى — ماعداً ، فإنَّ الشمسَ في ظلِّها وإشراقها تكون أقرب من طلعت له من جفاتها .

قوله جل ذكره : ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ

عَبْدًا شَكُورًا ۖ﴾

أى يا ذرية من حملنا مع نوح — على النداء .. إنه كان عبداً شكوراً .

والشكور الكثير الشكر ؛ وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان يضرب في كل (...)^(١) كما في النصة — سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأمر حين دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً »^(٢) .

ويقال الشكور هو الذى يكون شكره على توفيق الله له لشكره ، ولا يتفامر من شكره لنعيمه .

وقال الشكور الذى يشكر بما له ، ينفعه في سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بنفسه فيستعملها في طاعة الله ، ولا يبغي شيئاً من الخدمة بدخره ، ويشكر بقلبه وبه فلا تأتى عليه ساعة إلا وهو يذكره .

قوله جل ذكره : ﴿وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ

(١) مشقة .

(٢) آية ٢٦ سورة نوح ويكون المراد أنه لم يدع بإهلاكهم نتيجة نداء صبره أو عدم شكره بل حسب أمره الله . ولو وضنا للنصاة بعد (وأمر) يكون المقى : إلا من قد آمن وأمر بالآيمان . وهذا التأويل لا يتعارض مع المذهب العام للعقيدى ، فكل من عده بأمر الله وتوفيقه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ ۚ

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ ﴾

القرآن يدل على الحق والصواب . و « أقرب » : هنا بمعنى المستقيم الصحيح كما كبير بمعنى الكبير ؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكن الغلغل من جهة الاستدلال لا الدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكن المستدلل معرض ، وبآداب النظر محل ، فيكون المعبى فى قصيره لافى قصور الدليل (١) .

القرآن نور ؛ من استضاء به خلص من ظلمات جهله ، وخرج من غمار شكه . ومن وعت هيون نظره التيس رثده .

وقال الحول ضرره أشد من المعى ؛ لأن الأحمى يعلم أنه ليس يُبصر فيتنبع فائده ، ولكن الأحوال يتوهم الشئ شيئين ، فهو يتخيله وحسبانه يمارى من كان سليماً . كذلك المبتدئ إذا سلك طريق الجدك ، ولم يضع النظر موضعه بقى فى ظلمات جهله ، وصال بباطل دعواه على خصمه ، كما قيل :

بأطراف المسائل كيف يأتى — ولا أذرى لتمررك — مُبطلوها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعَاهُ بِالْغَيْرِ

وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَصُوبًا ۝ ﴾

من الأدب فى الدعاء ألا يسأل العبد إلا عند الحاجة (٢) ، ثم ينظر فإن كان شئ لا يعبه ألا يتمر ضله ؛ فإن فى الغير (٣) : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعبه » . ثم من آداب الداعى إذا سأل من أفق حاجته ورأى تأخيراً فى الإجابة ألا يتهم الحق — سبحانه — ويجب أن يعلم

(١) هذا نموذج مصر لأسلوب التشبىر الجدل .

(٢) وردت (نجاه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت (الغير) بالياء .

أَنْ أَظْهَرَ فِي أَلَا يُجِيبُهُ ، وَالْإِسْتِجَالُ — فَمَا يَخْتَارُهُ الْعَبْدُ — غَيْرُ عُمُودٍ ، وَأَوَّلَى الْأَشْيَاءِ السَّكُونُ وَالرَّضَا بِحُكْمِهِ سَبْحَانَهُ ، إِنْ لَمْ يُسَاعِدْهُ الْعَبِيرُ وَسَأَلَ فَالْوَجِبُ رُكَّ الْإِسْتِجَالُ ، وَالثَّانِي أَنَّ الْمَقْصُومَ لَا يَفُوتُهُ ، وَأَنَّ اخْتِيَارَ الْحَقِّ لَعَمْدَ خَيْرُهُ مِنْ اخْتِلَاوِهِ لِنَفْسِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا

آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْهِرَةً
لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ
فَعَلْنَاهُ قَفْضًا ۖ

جمل الخليل والنهار علامة على كمال قدرته ، ودلالة على وجوب وحدانيته ؛ في تعاقبها وتناوبها ، وفي زيادتها وتقصاها .

ثم جعلها وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والاستقامة على معرفة جلال الهيته ، فالعبادة شرطها الدوام والانصال ، والوظائف حقها التوفيق والاختصاص

ولو وقع في بعض العبادات تقصير أو حصل في أحوال بعضها تأخير نذر كره بالقضاء حتى يتلافى التقصير .

ويقال من وجوه الآيات في الليل والنهار أفراد النهار بالضياء من غير سبب ، وتخصيص الليل بالظلام بغير أمر مكتسب (١) ، ومن ذلك قوله تعالى : « فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » : وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه وعماقه ، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة ، بل هو في كل ليلة في منزل آخر ، إما بزيادة أو نقصان .

وأما الشمس فلها الدوام .. والناس كنفك أوصافهم ، فأربابُ النمكينِ السوامِ
شرطهم ، وأصحابُ التلويحِ التنقلِ^(٧) حَقُّهم ، قال تاملهم :

مازلت أنزل من وداذك منزلاً تنحير الألبابُ حون نزوله

(١) أي أن أعمال الله يحفظونه لا تخضع لله أو سبب ، أو حيلة أو كسب .

(٢) يقصد بالتنقل هنا التقلب في الأحوال . - وليس التنقل من مكان إلى مكان .

قوله جل ذكره : ﴿وَكُلُّ لِسَانٍ لِّزْمَانٍ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ
وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا﴾

ألزم كلُّ أحدٍ ما ليسَ بِمُجِيدِهِ . فالذين هم أهلُ السعادة أَسْرَجَ لهم مركبَ التوفيق ،
فيسير بهم إلى ساحاتِ النجاة ، والذين هم أهلُ الشقاوة أُرْكِبهم مَطْبِيَّةً لَخْلَدَانٍ فَأَقْعَدَهم عن
النهوض نحو منهجِ الخلاص ، فوعدوا في وَهْدَةِ الهلاك .

قوله جل ذكره : ﴿اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

مَنْ سَاعَدَتْهُ الْعَنَابَةُ الْأَزَلِيَّةُ حُفِظَ عِنْدَ مَعَامِلِهِ مَا يَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ يَوْمَ حِسَابِهِ ، وَمَنْ
أَبْلَاهُ بِمُحْكِهِ رَدَّهُ وَأَمَلَهُ ، ثُمَّ تَرَكَ وَعْمَلَهُ ، فَإِذَا اسْتَوْفَى أَجَلَهُ عَرَفَ مَاضِيَهُ وَأَمَلَهُ ، وَيَوْمَئِذٍ
يُحْكَمُ فِي حَالِ نَفْسِهِ ، وَهُوَ لَا مَحَالَةَ يَحْكَمُ بِنَفْسِهِ اسْتِحْقَاقَهُ لِمَا بِهِ عِنْدَمَا يَتَحَقَّقُ مِنْ قَبِيحِ أَعْمَالِهِ ..
فَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ يَنْجَرُّهَا ، وَكَمْ مِنْ خِيبَةٍ يَتَلَقَّاها !

وَيَقَالُ مَنْ حَاسَبَهُ بَكْتَابِهِ فَكِتَابُهُ مُلَازِمُهُ فِي حِسَابِهِ فَيَقُولُ : رَبِّ : لَا تَحْسِبْنِي بَكْتَابِي ..
وَلَكِنْ حَاسِبْنِي بِمَا قُلْتَ : إِنَّكَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ .. لَا تَمَامِلْنِي بِمَقْتَضَى كِتَابِي ؛
فَظِهِ بَوَارِي وَهَلَاقِي

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ أَهْدَىٰ فَإِنَّا يَهْدِيهِ لِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾

قَضَا أَعْمَالُ الْعَبْدِ مَقْصُورَةٌ عَلَيْهِ ؛ إِنْ كَانَتْ طَاعَةً فَضَايِلُهَا لِأَصْحَابِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ
زَلَّةً فَلَاوِيهَا لِأَرْبَابِهَا . وَالْحَقُّ غَنَى مُقَدَّسٌ ، أَحَدِيٌّ مُتَرَدِّدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا
مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾

كُلُّ مُطَالِبٍ بِمَجْرِيَتِهِ . وَكُلُّ نَفْسٍ تَحْمِلُ أَوْزَارَهَا لَا وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَى .. « وَمَا كُنَّا

مُذِينَ حَتَّى نَبِشَ رَسُولَا : «لَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ الْوَاجِبَاتِ إِنَّمَا تَتَوَجَّهُ مِنْ حَيْثُ السَّمْعُ»^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

مُفْرَقِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾

إِذَا كَثُرَ أَهْلُ الْفَسَادِ عَظُمُوا ، وَقَلَّ أَهْلُ الصَّالِحِ وَقَدُوا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ (يُضَرُّ) ^(٢) اللَّهُ الْخَلْقَ بَبَالِهِ ، وَلَا يَكُونُ لِنَاسٍ مَلْجَأٌ مِنْ أَوْلِيَائِهِ لِيَنْكَلِمُوا فِي بَابِهِمْ ، وَلَا فِيهِمْ مَنْ يَنْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ فَيُشْفَعُ دَعْوَاهُ ، فَيُخَفِّرَ ^(٣) أَوْلِيَائِهِ ، وَيُبْقِيَ أَبْوَابَ الْفَسَادِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَشْتَدُّ الْبَلَاءُ وَتَنْظُمُ الْهَيْئَةِ إِلَى أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْخَلْقِ تَنْظُرَ الرَّحْمَةِ وَالْمِنَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ

نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ

خَبِيرًا بِصِيرًا﴾

فِي الْآيَةِ سَلْبَةً لِلْمُظْلَمِينَ إِذَا اسْتَبَطَّوْا هَلَاكَ الظَّالِمِينَ ، وَ(. . .)^(٤) قَصَرَ أَيْدِيهِمْ عَنْهُمْ . فَإِذَا فَكَّرُوا فَمَا مَضَى مِنَ الْأَمْرِ أَمْنَالِهِمْ وَكَيْفَ بَنَوْا مَشِيدًا ، وَأَمَلُوا بَعْدًا . . فَبَادُوا جَمِيعًا ، يَعْلَمُونَ أَنَّ الْآخَرِينَ — عَنْ قَرِيبٍ — سَيَنْخَرُطُونَ فِي سَلَكِهِمْ ، وَيُتَمَتَّلُونَ بِمَثَلِ شَأْنِهِمْ . وَإِذَا أَعْلَنَتْهُمْ سُحْبُ الْوَحْشَةِ فَاعُوا إِلَى ظُلْمِ شُهُودِ التَّقْدِيرِ ، فَزُولِ عَنْهُمْ الْوَحْشَةِ ، وَتَطْيِيبِ لَهُمُ الْحَيَاةَ ، وَتَحْصِيلِ الْحَيَاةِ .

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَاجَّةَ فَعَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا

مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَنَّتًا

يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾

(١) نَظَرْنَا أَنْ التَّشْبِيرَ يَرِيدُ بِلَاكِهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَى بَنِي أَهْلِ السَّلَامِ الَّذِينَ يَهْوِلُونَ لِدُنَاكَ بِعَذَابِ النَّاسِ عَلَى ذُنُوبِهِمْ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَبْتَهِمْ رَسُولًا لَأَنَّ عَقْلَ الْإِنْسَانِ مَطَالِبُ بِالتَّكْلِيفِ قَبْلَ سَمَاعِ الرُّسُلِ .
(٢) وَوَدَّتْ (يَسِرُّ) بِالْبَيْنِ وَالصَّوَابِ أَنْ تَكُونَ بِالتَّيْنِ لِأَنَّ السِّيَاقَ يَطْلُبُ ذَلِكَ .
(٣) وَوَدَّتْ (فَيُخَفِّرُ) بِالْمَاءِ وَالسِّيَاقِ يَطْلُبُ أَنْ تَكُونَ (يُخَفِّرُ) أَوْلِيَائِهِ أَيْ يَأْخُذُ بِهِ .
(٤) مُشْتَبِهَةٌ ، وَتُرْجِحُ أَنَّهَا كَلَّةٌ تَوْدِي إِلَى مَعْنَى (وَأَحْصَا) قَصَرَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الظَّالِمِينَ .

مَنْ رَضِيَ بِالْمُحَظِّ الْخُطْبِيسِ مِنْ عَاجِلِ الدُّنْيَا بَقِيَ عَنْ نَفْسِ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ لَا يَحْضِلُ إِلَّا بِقَدَرِ مَا اشْتَمَهُ ، ثُمَّ يَكُونُ آتِسَ مَا بِهِ قَلْبًا وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ بِهِ سَكُونًا . . ثُمَّ يُخْتَلَفُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَخْصُهُ بِشَيْءٍ مِمَّا جَمَعَ مِنْ كُرَاهِهِ ، وَيَعْنَمُهُ مِنْ قُرْبِهِ فِي الْآخِرَةِ . . وَلَقَدْ قِيلَ :

يَا غَافِلًا مِنْ مِصْرَاعِ الصَّوْتِ إِنْ لَمْ تَبَادِرْ فَهُوَ النَّوْتُ
مَنْ لَمْ تَزَلْ نَفْسُهُ عَاجِلًا أَزَالَهُ عَنْ نَفْسِهِ الْمَوْتُ

قوله جل ذكره : وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا ﴿

علامة مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — أَنْ يَسْعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ، فَإِرَادَةُ الْآخِرَةِ
إِذَا تَجَرَّدَتْ عَنْ الْعَمَلِ لَهَا كَانَتْ جَرْدَ إِرَادَةٍ ، وَلَا يَكُونُ السَّعْيُ مَشْكُورًا . قوله : « وَهُوَ
مُؤْمِنٌ » : أَيْ فِي الْمَالِكِ كَأَنَّهُ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ . وَيُقَالُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ أَنْ نَجَاتِهِ بَفَضْلِهِ لَا بِسَبَبِهِ .
« فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » أَيْ مُقْبُولًا ، وَمَعَ الْقَبُولِ يَكُونُ التَّضْمِينُ وَالتَّكْتِيرُ ؛
فَكَأَنَّهُ الصَّدَقَةُ يُرِيحُهَا كَنَفْلِكَ طَاعَةُ الْعَبْدِ يُكْتَرُّهَا وَيُتَمِّمُهَا .

قوله جل ذكره ﴿ كَلَّا نَبْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ
رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

يُبَازِي كَلَّا بِقَدَرِهِ ؛ فَلَقَوْمٌ نَحَاءَ وَلَقَوْمٌ دَرَجَاتٍ ، وَلَقَوْمٌ سَلَامَةٌ وَلَقَوْمٌ كِرَامَةٌ ، وَلَقَوْمٌ
مُتَوَنِّتَةٌ ، وَلَقَوْمٌ قُرْبَنَةٌ .

قوله جل ذكره ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا ﴾

التَّفْضِيلُ عَلَى أَقْسَامٍ ، فَالْعِبَادُ فَضِّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ فِي زَكَاةِ أَعْمَالِهِمْ ، وَالْعَارِفُونَ
فَضِّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ فِي صِفَاءِ أَحْوَالِهِمْ ، وَزَكَاةِ الْأَعْمَالِ بِالْإِخْلَاصِ ، وَصِفَاءِ الْأَحْوَالِ

بلاستخلاص ؛ قومٌ تفاضلوا بصدقِ القَدَمِ ، وقومٌ تفاضلوا بملأِ المِيمِ والتفضيل في الآخرة أكبر : فالسُّبُلُ تفاضلهم بهدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم تَقْرَوْنَ أَهْلَ حَلِيبِينَ كاتِرُونَ الكوكِبَ العَرَى في أفقِ السماء وإن أبَا بكرٍ وعمرُ منهم »

وأهلُ الحضرة تفاضلهم بملأهم من الأُنس بنسيمِ القربة بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة ، ولا رمزَ يدركه ولا إشارة . منهم من يشهده يراه مرة في الأسبوع ، ومنهم من لا ينبس من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيب كل واحد ، وليس كلٌّ مَنْ يراه يراه بالعين التي بها يراه صاحبه ، وأشدُّ بضمهم (١) :

لو يسمعون — كما سمعتُ حديثها خَرُّوا رِزْقَهُ رُكْعًا وسجودا

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾

الذي أشرك بالله أصبح مذمومًا من قِبَلِ الله ، ومخذولًا من قِبَلِ (مَنْ) (٢) عَبْدَهُ من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفَضَّلْ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهَا أُنْثَى وَلَا تَنْهَرْنَهَا وَقُلْ لَهَا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

أَمَرَ بإفراده — سبحانه — بالعِبادَةِ ، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها ، وأن يكون متوَكِّفًا باستيلاء سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يحفظه عن شهودِ عبادته (٣) وأَمَرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقِّهما ، والوقوفُ عند إشارتهما ، والقيامُ بخدمتهما ،

(١) البيت لكثير صاحب حوة .

(٢) سقطت (مَنْ) والسياق يطلبها ، والمخذلانُ ناجمٌ من أنْ أي مبيود فبِعِ الله لا يملك لمن يبيده تلمًا ولا يدفع عنه شرًّا .

(٣) فخلاص العبد في التحقق يحفظه عن التصبر في أحوال العزيمة .

وملازمة ما كان يعود إلى رضاها وتحسن عشرتها ورعاية حُرمتيها ، وألا يبدى شواهد الكسل عند أوامرهما ، وأن يبذل المُكْتَفَى فيها يعود إلى حفظ قلوبهما . . . هنا في حال حياتهما ، فأما بعد وفاتهما فيصديق اللعاه لهما ، وأداء الصدقة عنهما ، وحفظ وصيتهما على الوجه الذي فعلاه ، والإحسان إلى من كان من أهل ودّهما ومعارفهما .

ويقال إن الحق أمر العباد بمراعاة حق الوالدين وما من جنس العبد . . فمن عجز عن القيام بحق جنسه أتى له أن يقوم بحق ربه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَاخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾

اخفض لهما جناح الذل بحسن المداراة ولين المنطق ، والبدار إلى الخدمة ، وسرعة الإجابة ، وترك اللزيم بمطالبهما ، والصبر على أمرهما ، وألا تدخّر عنهما ميسوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّكُمْ أَهْلَكُمْ بِمَا فِي فُؤُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

إذا علم الله صدق قلب عبد أمده بحسن الأجاء وأكرمه بمجمل الامتداد^(١) ، ويسر عليه السير من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرُوهُنَّ يَتِيمَاتٍ ﴾

إيتاء الحق يكون من المال ومن النفس ومن القول ومن الفعل ، ومن نزل على اقتضاء حقه ، وبذل الكل لأجل ما طال به من حقوق . فهو القائم بما ألزمه الحق سبحانه بأمره .

(١) أي الاحتامة والاستقرار دون وقفة أو فترة — ونك من أعظم المن ل نظر التشبى ، وقد قال الرسول (ص) : « خير العمل أدومه وإن قل » .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عما قدره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظُ النفسِ — وإن كان
شمسة — فهو تبذيرٌ ، وما كان له — وإن كان الوطء بالنفس — فهو قصيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُبْنِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أفتقوا على هوام ، وجروا في طريقهم على دواهي
الشياطين ووساوسهم ، ولما أنفى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوانَ الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّمَا تَصْرَفْنَهُمْ فِيهِمْ إِبْهَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ
رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لِمَ قَوْلَا مِيسُورًا ﴾

إن لم يُسَاعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاعصرْهم منك بوحدِ جبلي
إن لم تُسَعِفْهم بنقدِ جزيل . وإنَّ وعدَ الكرامِ أخناً من قد التام^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْمَلْ بِذَكَ مَفْلُوءَةً إِلَى عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْشُورًا ﴾

لا تجملك من الإعطاء فتسكدي^(٢) ، ولا تُسرف في البذل بكثرة ما تُسدي ، وأسلك
بين الأمرين طريقاً وسطاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَتْ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا ﴾

إذا بسطَ لا تَبْقَ فاقة ، وإذا قبض استنفد كلَّ طاقة^(٣) .

(١) وردت (الأيام) وقد أثبتنا (التام) فيها هوئى المعنى وتستقيم العناية .

(٢) تسكدي أى تبطل ، قال تعالى : « وأعطى قليلاً كدى » .

(٣) واضح أن التشوير يوجه الإشاره إلى رزق الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَأْتِي
مِنْكُمْ نَرْزُقْهُمْ وَلِيًّا كُمْ إِنْ تَقْتُلُوهُمْ كَانَ
خَطِيئَةً كَبِيرًا﴾

مَنْ حَرَفَ أَنْ الرِّزْقَ هُوَ اللَّهُ خَفَّ عَنْ قَلْبِهِ ثُمَّ الْبَالُ (١) — وَإِنْ كَثُرُوا ، وَمَنْ خَفَى
عَلَيْهِ أَنَّهُ قَسَمٌ — قَبْلَ الْخُلُقِ — أَرْزَأَهُمْ تَعْلُوحٌ فِي مَنَاهَاتِ مَنَاطِلِهِ ، فَبَقِيَ فِيهَا بِالْقَلْبِ
وَالْيَدَيْنِ ثُمَّ لَا يَكُونُ غَيْرَ مَا سَبَقَ بِهِ التَّقْدِيرُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ .

زَوَّجَ (٢) الزَّنَا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ لِأَنَّهُ فِيهِ تَضْيِيعُ حُرْمَةِ الْحَقِّ ، وَهَتْكَ حُرْمَةُ
الْخُلُقِ ، ثُمَّ لَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِخْلَالِ بِالنَّسَبِ ، وَإِسَادِ خَاتِ الْبَيْنِ (٣) مِنْ مَقْتَضَى الْأَعْفَى وَالْغَضَبِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾

لَا يَجُوزُ قَتْلُ نَفْسٍ غَيْرِ بَغْيٍ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَلَا لِلرَّءِ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ أَبْضًا بِغَيْرِ الْحَقِّ . وَكَأَنَّ
قَتْلَ النَّفْسِ بِالْحَدِيدِ وَمَا يَقُومُ مَقَامَهُ مِنَ الْأَلَاتِ مُحَرَّمٌ فَكَفَنَكَ الْقَصْدُ إِلَى هَلَاكِ الرَّءِ مُحَرَّمٌ .
وَمِنْ أَسْهَكَ فِي مَخَالَفَةِ رَبِّهِ فَقَدْ سَمِيَ فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ . « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ
سُلْطَانًا » : أَيْ تَسَلَّطًا عَلَى الْقَاتِلِ فِي الْاِقْتِصَاصِ مِنْهُ ، وَعَلَى مَعْنَى الْإِشَارَةِ : إِنْ النُّصْرَةُ
مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ؛ وَمَنْصُورُ الْحَقِّ لَا تَتَكَبَّرُ سِنَانُهُ ، وَلَا تَطْلُشُ رِسْمَانُهُ (٤) .

(١) وودت (العيال) بالثالف وهي خطأ في النسخ .

(٢) زجج = زاد وتغل .

(٣) وودت (اليين) وهي خطأ في النسخ

(٤) وودت (سهمه) بالثين وهي خطأ في النسخ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْقِيَمِ ﴾

أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مستولاً ﴿

لما لم يكن اليتيم من يهتم بشأه أمر — سبحانه — الأجنبي الذي ليس بينه وبين اليتيم سبب أن يتولى أمره ، ويقوم بشأه ، وأوصاه في بابه ، فالصبي قاعد بصفة الفراغ والهوينة ^(١) ، والولي سائر بمقاساة العنا . .

فأمر الحق — سبحانه — لولي أخفى لصبي من شقة آله عليه في حل حياتهم ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْفُوا السَّكِلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَرِثُوا ﴾

بالسلاس المستقيم ذلك خير

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿

كما تدبّل تدان ، وكما تعامل يُجَازَى ، وكما تكيّل يُكَالُ لك ، وكما تكونون يكون عليكم ، ومن وقى وفوّأ له ، ومن خان خانوا معه ، وأنشدوا :

أَسَانَا فَاَسَاوَا . . عَدَلْ بِلَا حَيْفٍ وَلَوْ عَدَلْنَا لَخُلُصْنَا مِنَ الْخَرَنِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ ﴾

السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْوُأْدَ كُلَّ أُولَئِكَ

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿

إِذَا عَلِمْتَ عَلَيْكَ بُحُورَاتُ الظُّنُونِ ، وَلَمْ يُطْلِعْكَ الْحَقُّ عَلَى الْيَقِينِ فَلَا تَتَكَلَّفِ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ بَرَاهَنٍ ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ الْوَقْتِ فَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنْ لَاحَ لِقَلْبِكَ وَجْهٌ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى حِدِّ الْإِتْيَاسِ فَكَيْلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَقِفْ حَيْثَا وَقِفْتَ .

(١) الهوى = الخلق والدعة

(٢) ما يقوله القشيري في حالة اليتيم يتصرف — كما هو واضح — على حالة المريد بالقبلة لشبهه ؛ فالمريد يجد من شبهه مالا يحده عند دويّه ، ذلك يربى الأرواح وهؤلاء يربون الأقباح .

ويقال الفرق بين من ظلم بالعلم وبين من ظلم بالحق أن العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بهلهم ، وأصحاب الحق يجري عليهم بحكم التصريف شيء لا علم لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يُكشَف لم وجهه ، وربما يجري على ألسنتهم شيء لا يدرون وجهه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر قلوبهم برهانه ما قالوه ، ودليل ما نطقوا به من شواهد العلم ^(١) .

قوله : « إن السمع والبصر . . . » هذه أمانة الحق — سبحانه — عند العبد ، وقد تقدم في بابها بما أوضحته براهين الشريعة .

ومن استعمل هذه الجوارح في الطاعات وصاتها عن استمالتها في المخالفات فقد سَلَّم الأمانة على وصف السلامة ، واستحق للدخول والكرامة . ومن دَسَسَ بالمخالفات فقد ظهرت عليه الغواية ، واستوجب لللامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمْسُرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾

الخيلاء والتعجب ، وللدخ والتكبر — كل ذلك نتائج الغيبة عن الذكر ، والحجة من شهود الحق ؛ فإن الله إذا تمجّل لشوه خضع له — بذلك وَرَدَ الظهور . فأما في حال حضور القلب واستيلاء الذكر وسلطان الشهود . فالقلب مُطْرَقٌ ، وحُكْمُ الغيبة غَالِبٌ . ونصت المدح وصفة الزُّهْر وأسباب التفرقة — كل ذلك ساقط .

والناس — في الخلاص من صفة التكبر — أصناف : فأصحاب الاعتبار إذا عرفوا أنهم مخلوقون من نطفة أمشاج ، وما تحمله أيادهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم .. تلومهم عن التضييق والتدنيق ^(٢) ، ويَعُدُّون كلهم قياماً أخطأوا للأشياء ، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التعجب .

(١) من هذه الوصية وما جاء بعدها يوضح رأى التشيرى في التفرقة بين المعرفة عند أرباب العلم والمعرفة عند أرباب الحقائق ، ويذهب التشيرى في « زساته » إلى أن باستطاعة كبار شيوخ أهل هذه الطريقة أن يُفَسِّحُوا في مسائل الفقه إثناً يُفَسِّدُهُ به حق لو كان أحدم أمياً (أنظر الرسالة ص ١٩٨ وقصة شيان الراعى مع الشافعى وابن حنبل) .

(٢) دقق البخيل = بالغ في التضييق في النقطة

وأما أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا انقراض النفس ، وفي مناه قالوا :

إذا ما بهما لي تماثلته فأصبر في حال من لم يرد

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ

مَكْرُوهًا ۖ ذَٰلِكَ مَا أُوتِيَ إِلَيْكَ

رُبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخِرَ سُؤْلِي فِي جَهَنَّمَ

مَلُومًا مَسْحُورًا ۝

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضور ساحلِ الشهود ، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيم القُربِ نَجِدَتْ
الأوقاتُ عن الحجة ، واستولى سلطان الحقيقة ، فيحصل التثني من هذه الأوصاف للذمومة .

وقال تعالى لنبيه : « ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » : بالوحى والإعلام ،
ولأدليانه تعريف بحكم الإلهام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَفْصَاكُم رَّبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ

وَيْنَ لِلْإِنسَانِ إِنَّا أَنَا لَنَكْمُ لَنَقُولُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا ۝

جَوِّزُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ — سبحانه — وَلَدٌ ، وفكروا في ذَٰلِكَ ، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا
له ما استنكفوا منه لأنفسهم ، فما زادوا في تَرْدِيهِمْ إِلَّا عُتُورًا ، وفي طغيانهم إِلَّا خُلُوعًا ،
وعن قبول الحق إِلَّا نُبُورًا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مِنْهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

إِذَا لَا يَأْتِيَهُمُ الرِّسَالُ سُبُلًا ۝

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهًا

كَبِيرًا ۝

بَيِّنْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الصَّانِعُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ لَجَرَىٰ بَيْنَهُمْ تَضَادٌّ وَتَمَانُّعٌ ، وصحَّ عند ذَٰلِكَ
في صفتهم العجزُ ، وذلك من سمات المحدثات .

ثم قال سبحانه — تزييناً له عن الشريك والظهير ، وللمعين والنظير :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْضُونَ تَسْبِيحَهُمْ
إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

الأحياء من أهل السموات والأرض يُسَبِّحُونَ له تَسْبِيحًا قَالَهُ (١) ، وغير الأحياء يسبح
من حيث البرهان والله لآلة . وما من جزء من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية ،
ولكنهم إذا استمعوا توحيدا للإله تعجبوا — لجهلهم وتقصير إدراكهم — وأنكروا .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ
وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ .

أى أخصنا الله فى إيواء حِفْظِنَا ، وضربنا عليك سرادقات حصنتنا ، ومنعنا الأذى
الطامشة هناك بلطفنا .

قوله جل ذكره : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ
فِي الْقُرْآنِ وَجَدَهُ وَقْرًا عَلَى أَذَانِهِمْ
فَقُورًا﴾ (٢) .

صَرَّحَ بأنه خالق ضلالتهم ، وهو المُنْبِت فى قلوبهم ما استكنَّ فيها من فوط غوايتهم (٣)
« وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ فِى الْقُرْآنِ وَجَدَهُ . . » أحبوا أن تذكر آلهتهم ، قد ختم الله على
قلوبهم ، فلا حديث يُعْجِبُهُمْ إِلَّا مِنْ لَمْ شَكْلٌ وَمِثْلٌ .

(١) وردت (ماله) بالهم والصواب أن تكون (قالة) بمعنى أن تسبيح الأحياء بالقول والتلق .
(٢) يمكن أن تكون (تفورا) مصدراً من تَفَرَّسَ يَتَفَرَّسُ أى وُلَّى ، ويمكن أن تكون جمع تافر
كقواعد وقواعد .
(٣) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة يلقى على أصل لى مذهب التشيى — نوهنا به سابقاً —
وهو أن الله خالق كل شىء — على الحقيقة — حتى أكساب اليباد ، هى له حكاً ولمم فلا .

قوله جل ذكره: ﴿لَمَّا عَلِمَ مَا يَسْمَعُونَ إِذِ يَسْتَسْمِعُونَ

إِلَيْكَ وَإِذْ مَخْبُوءٍ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ

إِنْ تَنْصُرُونَنَا لَنَكُونَنَّ أَكْثَرًا وَأَجْلًا مَسْحُورًا﴾

كَبِسُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أحوالهم ، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم ، ففَضَّحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ ، وَبَيَّنَّ مَقَامِهِمْ ، وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ ، فَاتَّطَوَّى عَلَيْهِ السِّرِّيَّةُ لَا بُدَّ أَنْ يُظْهَرَ لِأَهْلِ الْبَصِيرَةِ بِمَا يَدُو عَلَى الْأَمِيرَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن تَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ

فَضَلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

طابوه بما ليس بنقيصة في نفسه حيث قالوا : « إِنْ تَقْبَحُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » أَيْ ذَا سِحْرِ . وَأَيُّ قَيْصَةٍ كَانَتْ لَهُ إِذَا كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ جِلَّةِ الْبَشَرِ ؟ وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَلَّى نَصْرَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ تَخْصِيصُهُ بِشَيْءٍ ، وَلَا بِصُورَةٍ ، وَلَا بِجَرِيفَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ يَسْبِيهِ وَإِنَّمَا بَانَ شَرُّهُ لَجِلَّةٍ مَا تَمَلَّقَ بِهِ لَطْفُهُ الْقَدِيمَ - سُبْحَانَهُ - وَرَحْمَتَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا

أَإِنَّا لَنَبْعَثُوهُنَّ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

أَقْرَبُوا بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ ، ثُمَّ أَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ بَعْدَ هَدْمِهِمْ ، وَلَكِنْ . . . كَمَا جَاز أَنْ يُوجِدَهُمْ أَوَّلًا وَهُمْ فِي كَيْفِ الْمَدَمِّ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَيْنٌ وَلَا أُنْزُرُ ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا فِي مَتَنَاقُلِ الْقُدْرَةِ وَمَتَمَلَّقِ الْإِرَادَةِ ، فَتَبَيَّنَ حَقُّ صَاحِبِ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ أَنْ يَبْعِدَهُمْ إِلَى الْوُجُودِ مَرَّةً أُخْرَى . . . وَهَكَذَا إِذَا رَمَدَتْ عَيْنُ قَلْبِهِ لَمْ يَسْتَبْصِرْ صَاحِبَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَابَةً أَوْ حَدِيدًا •

أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

فَيَقُولُونَ مَنْ يَسْتَبْدِنَا قُلْ الَّذِي

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسِيخُضُونَ^(١)

إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١﴾

أخير — سبحانه وتعالى — أنه لا يتعصى عليه مقدور لأنه موصوف بقدره أزلية ، وقدرته مامة التعلق ؛ فلا المشتة فيجوز في صفته ولا الرظاية . فانطلق الأول والإعادة عليه سيان ؛ لا من هذا مائد إليه ولا من ذاك ، لأن قدمه يمنع تأثير الحدث فيه .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَعْدُومٍ

وَتَقْتُلُونَ إِن لَّيْسَتْكُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالجند بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبد على النعمة والآية تدل على أنهم — وهم في قبورهم — في نعمته .

قوله جل ذكره : ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَرْغُبُهُمْ ،

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا

مُبِينًا﴾

القول الحسن ما يكون للقاتل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحسن ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركه . ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار المحب بمبودية محبوبه .

ويقال أحسن قول من المذنبين الإقرار بالجرم ، وأحسن قول من العارفين الإقرار بالمعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : سبحانه لا أحصى ثله عليك ، أنت كما أنثيت على نفسك .

(١) يتلصصون رؤوسهم أى يحركونها تحيياً واستهزاء .

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ إِنَّ يَسَاءَ بِرَحْمِكُمْ

أَوْ إِنَّ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أُرْسِلْنَاكَ

عليهم وكيلاً ﴿

سأد على كل أحد طريق معرفته بنفسه ليتعلق كل قلب به . وجعل المواقب على أربابها مشبهة ، قال « ربكم أعلم بكم » . ثم قدم حديث الرحمة على حديث العذاب ، قال : « إِنَّ يَسَاءَ بِرَحْمِكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ بِعَذَابِكُمْ » وفي ذلك ترجح للأمل أَنْ يَقْوَى .

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم ، ولكن العبد يعلم ظاهراً حاله ، وعلمُ الرب يكون بحاله وبما له ، ولهذا ظواهرُ على العبد أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ، وهذا معنى : « إِنَّ يَسَاءَ بِرَحْمِكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ بِعَذَابِكُمْ » بعد قوله : « أعلم بكم » .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى

بَعْضٍ وَأَخْتَارْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

فَقَدَّرَ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ فِي النَّبُوءَةِ وَالْمَرَجَةِ ، وَفِي الرِّسَالَةِ وَالطَّلَافِ وَالْخِصَائِصِ . وجعل نبياً — صلى الله عليه وسلم — أفضَلَهُمْ ، فهم كالجموع وهو بينهم يَدْرُ ، وم كالبدور وهو بينهم شمس ، وم شمس وهو شمسُ الشُّمُوسِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلِّيْ اذْهَبُوا الْاٰدِيْنَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُوْنِ

كُلِّ دِيْنٍ لَا يَنْبَغِيْ لَكُمْ كُفْرُ الْاٰدِيْنَ عَنْكُمْ

وَلَا تَحْمِلُوْا﴾

استعينوا فيما يستعيلكم^(١) بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنتمك عبادة شيء من دون الله ، ولا يضرك ترك ذلك ، ولقد قيل في الظاهر : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا ينهيه »^(٢)

(١) أي ما يستعيلكم من البلايا

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد عن الحسين بن علي ، والسكري عن علي ، وأوضحه الفجنان في تخريج الأوهي .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى
 ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون
 رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب
 ربك كان محذوراً ﴾

يعني الذين يسبونهم ويدعونهم — كالسبيح وعزير واللاسكة — لا يملكون نفعا
 لأنفسهم ولا صرا ، وم يطلبون الوسيلة إلى الله أي يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحسان
 الله ، وطعنا في رحمته ، ويخافون العذاب من الله . . . فكيف يرضون عنكم البلاء
 وم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم ؟

ويقال في المثل : تعلق الخلق بالخلق تعلق مسجون بمسجون .
 ويقال : إذا انضم القمير إلى القمير ازدادا فاقة .
 ويقال إذا زاد الضرير ضريرا سقطا معا في البئر ، وفي فمناه أنشدوا :

إذا التقي في حدبٍ واحدٍ سبعون أحمى بمقادير
 وسَّهروا بعضهم قائداً فكُلُّهم يسقط في البير

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تين قرية إلا نحن مُهلِكُها
 قبل يوم القيامة أو مُعَذِّبُها عذاباً
 شديداً ، كان ذلك في الكتاب
 مسطوراً ﴾

العذاب على أقسام : فالألم الذي يردُّ على النفوس والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى ما يردُّ
 على القلوب والسرائر ، فعذاب القلوب لأصحاب الحقائق أحد في الشدة مما يصيب أصحاب
 الفقر والقلّة .

ثم إن الحق سبحانه أجرى سنته بأن من وصلت منه إلى غيره راحة انكست الراحة
 إلى موصلها ، وبخلاف ذلك من وصلت منه إلى غيره ونحشة عادت الوحشة إلى موصلها .

ومن مام^(١) الناس قُلُوبًا وَخَصَفًا فَيَقْدِرُ عَلَيْهِ يَدُيَ اللَّهِ — سبحانه وتعالى — في الوقت بتفويض الكثير ، واستيلاء الغضب من كل أحد عليه ، وتترجم غنونه وتقسم أفسكوه في أحواله وأشغاله . ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الطلوة شظية لعل ما علم الحياة .. ولكن حرموا النعم ، وما علموا ما متوا به من النعم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾^(٢)

أجرى الله سنته أنه إذا أظهر آية أقرحها أمة من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أن يجعل لها العقوبة ، وكان المعلوم والمحكوم به ألا يجتاح العذاب القوم الذين كانوا في وقت الرسول — عليه السلام — لا يبل من في أصلاهم من الذين علم أنهم يؤمنون ؛ فذلك آخر عنهم العذاب الذي تجلوه^(٣) .

﴿ وما نرسل بالآيات إلا تنظيما ﴾^(٤)
التخويف بالآيات ذك من مقتضى نجهله ؛ فإن لم يخافوا وقع عليهم العذاب . ثم إنه علم أنه لا ينوته شيء بتأخير العقوبة عنهم فأخر العذاب ، وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حكمه وحله .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قلنا فاك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ﴾

-
- (١) وودت (صام) بالصاد وهي خطأ في النسخ .
(٢) اختار من الآيات التي اقترحها الأولون ناقة صالح (هم) لأن آثار هلاكهم قريبة من حدود عصرها مآدرم وواردم .
(٣) من عائشة رضي الله عنها (. . . ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد يستدري إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين) جيلان يحيطان بركة (فقال النبي (س) : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يبد الله وجهه لا يعرف به شيئا) .

وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا
كَبِيرًا ﴿١١﴾

الإيمان بما خصصناك به امتحان لهم وتكليف ، لينبذ الصادق من المنافق ، والمؤمن من الجاحد ؛ فالذين تداركهم الحاية وقفوا وثبتوا ، وصدقوا بما قيل لهم وحققوا . وأما الذين تخامر الشك قلوبهم ، ولم تبشّر خلاصة التوحيد أسرارهم ، فما ازدادوا بما امتحنوا به إلا تحويراً وضلالاً وتبليداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴾

امتنع الشقي وقال : لا أسجد لنفرك بوجهي سجدت لك به ، وكان ذلك جهلاً منه ، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثراً ، ولحيط نفسه تاركاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَسِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لو علمت به ذرة من المعرفة والتوحيد لم يحطب ^(١) على نفسه بالإضلال والإغواء ، لكنه أقام الحق بذلك المقام ، وأنقذه بما هو لقلوب أهل التحقيق متضيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا *

(١) الرؤيا المقصودة هي التي سبقت يوم بدر ، ومبها مبشر بالنصرة وبأنه سيهزم الجح ويولون الدين ، فسفروا منه . وربما كانت رؤيا المراح هند من قال إن المراح كان لي المنام .
والشجرة المنسوبة هي الرقوم حيث قالوا كيف يزعم محمد أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول إن بها تلبت شجرة ! لجلوها سفرية .
(٢) حَسَبَ = جَيَّ على نفسه لعدم تقبده أمره وكلامه

واستغزى من استطعت منهم بصوتك
وأجلب عليهم رجزك ورجلك
وشاركهم في الأموال والأولاد ،
وعدهم وما يعدّهم الشيطان إلا عروداً ﴿١﴾

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بالأمراء ولا تقويت ، ولو آخر عقوبة قوم فإن
ذلك إهمال لا إهمال ، ومكر واستدراج لا إصنام وإكرام .

« واستغزى من استطعت منهم بصوتك » : أى إضل ما أمكنتك ، فلا تأثير لضعفك
في أحد ، ، فإنّ المقتضى والمُبدِع هو الله . . وهذا غاية التهديد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
وَكَلَّا بَرَكًا وَكَلَّا ﴾

السلطان المحضة ، فالآية تدل على العموم ^(١) ، ولا حجة للمنع على أحد ، بل الحجة لله وحده .
ويقال السلطان هو التسلط ، وليس لإبليس على أحد تسلط ، إذ المقدور بالقدره الحادثة
لا يخرج عن محل القدرة الإلهية ، فلحادثات كلها تحدث بقدره الله ، فلا لإبليس ولا لغيره
من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : « عبادى » انطوائاً من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة
والرعاية من قِبَلِ الله ، فإن وساوس الشيطان لا تضرهم لاتجائهم إلى الله ، ودوام استجارهم
بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قُرب من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم .

ويقال إن فرار ^(٢) الشيطان من المؤمنين أشد من فرار المؤمنين من الشيطان .

وانطوائاً من عباده هم الذين لا يكونون في أسر غيره ، وأما من استمده هواه ،

(١) المسموم هنا معناها الكافة أى الخواص وغير الخواص .

(٢) وودت (فرار) بالكتاب وعلى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

واستمكننت منه الأملح ، واسترقه^(١) كل خبيسة وقيصة فلا يكون من جملة خواصه ..
وفي الخبر « تَمِسَ عَبدُ الدِّمِّ تَمَسَ عَبدُ الدِّينارِ »^(٢)

ويقال في « مبادئ » م التَّفَيُّشُونَ في غلال منابته ، التَّهَرُّونَ عَنْ حَوَلِهِمْ وَقُوَّيِهِمْ ،
الْمُتَفَرِّدُونَ بِاللَّهِ بِحَسَنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَدَوَامِ التَّعَلُّقِ بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّكُمْ إِلَهِي يُزِيحُ لَكُمْ الْغُلُكَ
فِي الْبَحْرِ لِنَتَّبِعُنَا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

تعرّف إلى عبادته بخلقه وإنعامه ، فإما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو ظلالٍ أو غيرِ
إلا وهو شاهدٌ على وحدانيته ، دالٌّ على ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا ﴾

جُيِّلَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ قَمَّةٌ ، أَوْ مَسَّتْهُ حَمْلَةٌ فَرَعَ^(٣) إِلَى اللَّهِ لاسْتِدْفَاعِهَا ،
وَقَدْ يُسْتَفْتَدُ أَنَّهُمْ لَنْ يَسُودُوا بَعْدَهَا إِلَى مَا لَيْسَ فِيهِ رِضَاءُ اللَّهِ ، فَإِذَا أزالَ اللَّهُ تِلْكَ
النَّقْصَةَ^(٤) وَكَشَفَ تِلْكَ الْحَمْلَةَ عَادُوا إِلَى مَا عَنِتَّ تَابُوا ، كَانَهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي ضُرٍّ مَسَّهِمْ ،
وَفِي مَعْنَاهُ أَتَشَدُّوا :

فَكَمْ قَدْ جَهِلْتُمْ نَمَّ عُدْنَا بِحِيلِنَا أَحِبَّاءَنَا كَمْ نَجْهَلُونَ ! وَنَحْمَلُ !

(١) وردت (ويسره) ولا حتى لها هنا .

(٢) في رسالة النجدي ص ٩٩ جاء هذا الخبر مضافاً إليه (. . . تمس عبد الجمية) .

(٣) وردت (فرغ) بإزاء والأفضل أن تكون بإزاء

(٤) وردت (النقص) وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿أَنَّا وَضَعْنَا أَنفُسَنَا فِي سَبِيلِكَ يَا حَسْبُكَ﴾^(١) . وأمرهم بالله
 أخوتهم من الله . وصنوفُ العنابِ كثيرة ؛ فكم من مسرورٍ أوَّلَ ليلِهِ أصبحَ في شدَّةٍ !
 وكم من مهومٍ باتَ يتقلبُ على فراشه أصبحَ وقد جاهدَ البشري بكلَّ التَّمِ ! ولَى معناه قالوا :
 إن من خافَ البليات لا يأخذهُ السَّبات . ووصفوا أهلَ المِرَّةِ فقالوا :
 يستوفزون على رِجْلِي كأنهم يريدون أن يمضوا ويمضوا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا فِيهِمُ الْبِرَّ
 وَالْبَحْرَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا
 تَفْضِيلًا﴾ .

للراد من قوله : « بَنِي آدَمَ » هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفل : « وَمَنْ يُؤْنِ اللَّهُ
 فَاهُ مِنْ مُّكْرِمٍ »^(٢) . والتكريم الكثير من الإكرام ، فإذا حوِّمَ الكافرَ الإكرام ..
 فحق يكون له التكريم ؟

ويقال إنما قال : « كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد

(١) هذه البارة الجنيد كما جاء في رسالة القشيري ص ٦٥ في رواية أبي عبد الله الصول من علي بن
 إبراهيم النكبي .
 (٢) آية ١٨ سورة الحج .

توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابل فعل ، أو مُعللاً بعلية ، أو مُسبباً باستحقاقٍ يوجب ذلك التكريم .

ومن التكريم أنهم متى شاموا وقضوا معه على بساط المناجاة .

ومن التكريم أنه على أى وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه مخاطبته ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأل .

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم قضى توبته ثم تاب يقبل توبته ، فلو تكرّر منه جرمه ثم توبته يضاف له قبوله التوبة وعفوه .

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ في التوبة أخذَ بيده ، وإذا قال : لا أعود — يقبل قوله وإن علم أنه ينقض توبته .

ومن التكريم أنه زَيَّنَ ظاهريهم بتوفيق المجاهدة ، وحَسَّنَ باطنهم بتحقيق المشاهدة .

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم ، وغفر لهم قبل استغفارهم ، كذا في الأثر : « أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني » .

ومن تكريم جلتهم أنه قال لهم : « فاذكروني أذكركم »^(١) ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن .

وكأخَصَّ بنى آدم بالتكريم خصاً أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — منهم يشكرهم خصوصاً ، فن ذلك قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه »^(٢) و « رضى الله عنهم ورضوا عنه »^(٣) وقوله « والذين آمنوا أشد حبا لله »^(٤) .

ومن التكريم قوله : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً »^(٥) .

(١) آية ١٥٧ . سورة البقرة .

(٢) آية ٥٤ . سورة المائدة .

(٣) آية ١١٩ سورة المائدة .

(٤) آية ١٦٥ سورة البقرة .

(٥) آية ١١٠ سورة النساء .

ومن التكريم ما ألقى عليهم من حبة لؤلؤ حتى أحبوه .

ومن التكريم لقوم توفيق صدق القدم ، ولقوم تحقيق علو المنعم . قوله : « وحلنهم في البر والبحر » : سخر البحر لهم حتى ركبوا في السفن ، وسخر البر لهم حتى قال : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

ويقال بحول الكرام لا يقع ، فإن وقع وجد من يأخذ بيده .

ويقال الإشارة في حلهم في البر ما أوصل إليهم جبراً^(١) ، والإشارة بمحدث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سرّاً .

ويقال لما حلّ بنو آدم الأمانة^(٢) حلنهم في البر ، لحمل هو جزاء خلق ، حمل هو فصل من لم يكن^(٣) وحمل هو فصل من لم يزل .

قوله : « ورزقناهم من الطيبات » : الرزق الطيب ما كان حل ذكر الرازق ، فمن لم يكن غائباً قلبه^(٤) ولا غافلاً عن ربه استطاب كل رزقي ، وأشعوا :

يا عاشقي إني سددت شراباً لو كن حق علماً أو صاباً

قوله : « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً » : أي الذين فضلناهم على خلق كثير ، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم ، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كل من خلقنا ، وذلك التفضيل في الخلقة . ثم فاضل بين بني آدم في شيء آخر هو إطلاق الحسن ، فجمعهم في الخلقة — التي يفضلون بها سائر المخلوقات — ومايز ينهم في الخلق .

ويقال : « كرمنا بني آدم » : هذا اللفظ المصوم ، والمراد منه الخصوص ، وهم المؤمنون ، وبذلك يفضل قوم على الباقين ، ففضل أوليائه على كثير من لم يملئوا استحقاق الأولاد .

(١) وودت (غيراً) والمصواب أن تكون (جبراً) لتقابل سرّاً وبذلك يفوى السياق ويناسبك .
(٢) وودت (الأمانة) بلقاء ومن المؤكد أن الميم التثبت على التماسخ والراد (الأمانة) إشارة إلى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة . . . الآية » .
(٣) (من لم يكن) هو الإنسان و (من لم يزل) هو الرب سبحانه وتعالى .
(٤) غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما وود عليه ، ثم يعيب عن إحاسه بنفسه وغيره (الرسالة ص ٤٠) .

ويقال فضلهم بالألّ ينظروا إلى قوسهم بين الاستقرار ، وأن ينظروا إلى أعمالهم
بين الاستمرار .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ
أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُلَاقُونَ فَتِيلًا ۝﴾

إمام كل أحد من يقتدي به ، ولكن .. من إمام يبنى به مقتدي به ، ومن إمام
يردّي به مقتدي به .

« فن أوتي كتابه يمينه فأولئك هم الذين كتبهم : لكمال محمود وقيادة عظيم ،
والذين لا يؤتون كتابهم يمينهم هم لغوهم وتروهم لا يقرأون كتابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي عِندِ أَمِيٍّ فِئَةٍ فِي
الْآخِرَةِ أَمِيٍّ وَأَصْلٌ سِيلًا ۝﴾

في الآخرة أمة عن مابته بصيرته .

في الآخرة هذا به الفرقة وتضاف إليها الفرقة — لهذا فهو « أصل سيلة » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ الذِّكْرِ
أَوْ حِينَا إِلَيْكَ لِنَفْتِنَ أُولَئِكَ يَفْتِنُوكَ
وَإِنْ لَا تَفْتِنُوكَ خَلِيلًا ۝﴾

ضربنا عليك سرادق المعصية ، وآويناك في كنف الرعاية ، وحفظناك من خطر اتباعك
هواك ، فإِنَّكَ مِنْكَ عَالٍ (١) ، والافتراء في نفسك لا يجوز . . ولو جئحت لحظة إلى انغلاق
لنضاعفت عليك تشديدات البلاء ، لكمال قدرك وعلو شأنك ؛ فإن من كان أعلى درجة
قدّبه — لو حصل — أشد تأثيراً .

(١) وردت (جمال) بالجمع وهي خطأ في النسخ ، ومن قول القشيري يضح أنه يؤيد صفة الأنبياء
من الزلات .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْجُو
إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ﴾ **إِنَّا لَا ذُنُوبَ**
نُفَعُ الْحَيَاةَ وَنُفَعُ الْمَيِّتَ ثُمَّ لَا نُجِدُ
لَكَ مَعِنَا نَصِيرًا ۝

لو كنا ذنوباً ونفساً ، ووفنا عنك ^(١) ، ظلَّ العصمة لألُمتْ بشيء مما لا يجوز من مخالفة
أمرنا ، ولكننا أفردناك بالخط ، فلا تنقاصر عنك آثاره ، ولا تقربُ عن صاحبك أنوارُه .
قوله : **﴿إِنَّا لَا ذُنُوبَ ۖ﴾** . الآية « هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم ، ومِنْ الْأُخْبَرِ
وإن قُلْتُ جَلْتُ ، وفي مناه أُنشدوا :

أنت عيني وليس من حقِّ عيني غشُّ أجناتها على الأعداء

قوله جل ذكره : ﴿وإن كُودُوا لَيَسْنِفَنَّوَنَكَ مِن
الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِنَّا
لَا يُلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝

مَنْ غُلِّبَ ^(٢) أَنَّهُ يَسْتَمْتَعُ بِحَيَاتِهِ بَعْدَ مَضَى الْأَمْرِ ^(٣) وَالْأَكْبَرُ غَلِيطٌ فِي حِسَابِهِ ، وَإِنْ
الْحَسَدُ لَا يَسُودُ :

وفي تعبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءُهَا (ويجهد أن يأتي لها) ^(٤) بضرب

والأرض كلها ملكٌ لنا ، ونقلبُ أوليائها في ترددٍ في البلاد وتطوافهم في الأقطار ، تردداً
على بساطتنا ، وتقلباً في ديارنا ، فالبقاء لهم سواء ، وأنشدوا :

(نَيرَ أَوْ أَمِّ) ^(٥) وَقَفُّ عَلَيْكَ مَحْبِقُ مَكَائِكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَعُونُ

(١) وودت (عليك) واللائم لهما أن تكون (عنك) .
(٢) ما بين القوسين مستترك في الهامش بخط رديء .
(٣) ما بين القوسين مستترك في الهامش بخط رديء .
(٤) ما بين القوسين مستترك في الهامش بخط رديء .

قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةٌ مِّن قَد أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِّن

رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسَانَهُمْ حَوْلًا

الحق أَمْضَى سُنَّتِهِ مَعَ الْأَوْلِيَاءِ بِالْإِنشَاءِ ، وَمَعَ أَعْدَائِهِ بِالْإِدْغَامِ ^(١) ، فَلَا لَهُدَى
أَوْ هُدَى تَحْوِيل .

قوله جل ذكره: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى

غَسَقِ اللَّيْلِ وَقِرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قِرْآنَ

الفجر كان مشهوداً

الصَّلَاةُ قِرْعٌ بِأَبِ الرِّزْقِ . وَالصَّلَاةُ الْوُقُوفُ فِي مَحَلِّ الْمُنَاجَاةِ .

وَالصَّلَاةُ اعْتِكَافُ الْقَلْبِ فِي مَشَاهِدِ التَّقْدِيرِ .

وَيُقَالُ هِيَ الْوُقُوفُ عَلَى بَسَاطَةِ النَّجْوَى . وَفُرِّقَ أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ لِيَكُونَ لِعِبَادَةِ عَزَّ وَجَلَّ

الْبَسَاطَةُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَرَاتٍ .

«إِنَّ قِرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» : تَشْهَدُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ — عَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ .

وَأَمَّا عَلَى لِسَانِ الْقَوْمِ فَإِنَّ قِرْآنَ الصَّبْحِ — الْاِقْدَى هُوَ وَقْتُ إِيمَانِهِ — يُبْعِدُ مِنَ النَّوْمِ
وَكُفْرِهِ النَّفْسَ فِيهِ هَذِهِ الْمَزِيَّةُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِ نَافِلَةٍ لَّكَ

عَسَى أَنْ يَمْسُكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا

اللَّيْلِ لِأَحَدٍ أَقْوَامٍ : لَطَائِفُ النِّجَاةِ وَهِيَ الْمَاصُونَ مَنْ جَنَعَ ^(٢) مِنْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ ، أَوْ لِأَهْوَاجِ

الدَّرَجَاتِ وَهِيَ الَّذِينَ يَجِدُّونَ فِي الْعِلَاقَاتِ ، وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَلِيقَاتِ ، أَوْ لِأَهْوَاجِ النَّجَاةِ مَعَ

الْمَحْبُوبِ عِنْدَمَا يَكُونُ النَّاسُ فِيهِمْ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالنَّفِيَةِ .

وَيُقَالُ اللَّيْلِ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ : لِلطَّلِيعِ وَالْمَاصِي : هَذَا فِي احْتِيَالِ أَعْمَالِهِ ، وَهَذَا فِي اعْتِنَائِهِ

عَنْ قَبِيحِ أَعْمَالِهِ .

(١) أَدْمَغَهُ أَيْ إِدْغَامًا أَيْ سَوَّدَ وَجْهَهُ وَأَذَلَهُ (الْوَسِيطُ) .

(٢) وَوَدَعَ (نَحَى) وَهُوَ خَطَأٌ فِي اللَّسَانِ .

والمقام المصود هو المخاطبة في حال الشهود، ويقال الشهود .
 ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو أفراد يوم القيامة بما خص به — صلى
 الله عليه وسلم^(١) — بما لا يشاركه فيه أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ
 وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجِلْ لِي
 مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾

أى أدخلنى لإدخالِ صِدْقٍ وأخرجنى إخراجِ صِدْقٍ . والصدق أن يكون دخوله في الأشياء
 بالله لله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله لله لا لغيره .
 « واجبل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » : فلا ألاحظ دخولى ولا خروجى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
 الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

أراد بالحق ما هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشرك ، والحق المطلق هو
 الموجود الحق ، والحق المتبدي ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل قبيض الحق .
 والله حق : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه يحق الحق^(٢) .
 ويقال الحق ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .

ويقال الحق من انحواطر ما دعا إلى الله ، والباطل ما دعا إلى غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
 وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
 إِلَّا خَسَارًا ﴾

القرآن شفاء من داء الجبل للعلماء ، وشفاء من داء الشرك للمؤمنين ، وشفاء من داء

(١) إضافة من جانبها حق يوضح السياق .

(٢) قارن ذلك بمنطوية « وحدة الوجود » وما تراه في معنى « الوجود » و « الحق » .

النكرة العارفين ، وشفاء من واعي الشوق للمحبين ، وشفاء من داء الشطط للبردين
والقاصدين ، وأنشدوا :

وَكَيْتَكَ حَرَى لَا تَفَارِقْ مَضْجِي وَفِيهَا شِفَاؤِي لَقْدَى أَنَا كَاثِمٌ

قوله : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » : الخطاب خطاب واحد ، والكتاب كتاب واحد ، ولكنه تقوم رحمة وشفاء ، ولقوم سخط وشقاء . قوم أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء ، وقوم أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ ، وإذا تممه الشر كان يؤسأ ﴿ .

إذا نزعنا عنه موجبات الخوف ، وأرخينا له حبل الإمهال ، وهبنا له أسباب الراحة اعترته مغالطات النسيان ، واستولت عليه دواعي المصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضه في هذا الموضوع لسببه ، ورؤية الفضل منه لا من الحق ، وتوهمه أن ما به من النعم فياستحقاق طاعة أو شدة قاساها . . وهذا في التحقيق شركه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فَمَنْكُمْ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُ ﴾ .

كُلٌّ يترشح بمودع بلطه ، فالأيسر تدل على السريرة ، وما تكينه الضائر بلوح على السرائر ، فمن صفات الكدورة جوهره لا ينفوح منه إلا تشر مناقبه ، ومن طيبت على الكدورة طيبته فلا يشم من يحوم حوله إلا ريح مثالبه .

ويقال حركت الظواهر تدل وتخير عن بواطن السرائر .

ويقال حب (. . .) (١) لا يُنْبِتُ غُصْنُ العود .

(١) مقلبة .

وقال من عُجِزَتْ بِمَاءِ الشَّقْوَةِ طَيْفُهُ ، وَطُبِيتْ عَلَى التَّكْرَرِ جَبِينُهُ لَا نَسِيعَ بِالتَّوَجُّدِ قَرِينُهُ ، وَلَا تَنْطِقُ بِالتَّوْحِيدِ حَبَارَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبَسَّأْتُمْ لَقِيَ الرُّوحَ قُلِّي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

أرادوا أن يجادلوه وَيُقْلَطُوا فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْطِقَ بِلَفْظٍ يُفَصِّحُ عَنْ أَقْسَمِ الرُّوحِ ؛ لِأَنَّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ « الرُّوحِ » يَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

ويقال إن روح المبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب ، وجعلها محل الأحوال العظيمة والأخلاق المحسوسة ، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرِّبَاةِ والأَذُنُ محلَّ السَّمْعِ .. إلى آخره ، والبصير والسامع إنما هو الجلَّة — وهو الإنسان — فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح ، ومحل الأوصاف للذمومة النَّفْسُ ، والحكمُ أو الاسمُ راجعٌ إلى الجلَّة)^(١)

وفي الجلَّة الروح مخلوقة ، والحق أجرى المادة بأن يخلق الحياة لعبده ما دام الروح في جسده .

والروح لطيفة تفررت لكافة طهارتها ولطافتها ، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوف من السنين . وقيل إنه أدرَكها التكليف ، وإن لها صفاء التسييح ، وصفاء اللواصلات ، والتعريف من الحق .

« وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » : لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَشَاهِدِ الرُّوحَ بِبَصَرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكِنْ شِئْنَا كَنَدَّهَيْنَ الْبَاقِيَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ نَمَّ لَا تَعْبُدْ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾

(١) ما بين التوسين مضطرب اضطراباً شديداً في النسخ ، وقد عدنا إلى وسالة التفسير فاعتدنا عليها في تنظيم السياق بقدر الإمكان . (أنظر الرسالة من ٤٨) .

سُئِلَ الْحَقُّ — سبحانه — مع أحبائه وخواص عباده أن يُدِيمَ لهم اختلاطهم إليه ، ليكونوا في جميع الأحوال مُتَّفَقِينَ لِحَرَمِ حُكْمِهِ ، وألا يتحركَ فيهم حَرَقٌ بخلافِ اختيارِهِ ، وعمل هذه الجَلَّةِ خَاطِبُ حَيَاتِهِ — صلوات الله عليه — بقوله : « ولو شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك » : (فن كان استقلاله بالله يُقدِّم)^(١) مراد سيده — في النزول والولاية — على مراد قسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

والمقصود (من هذا إدامة تَفَرُّدِ مِرَّةِ)^(٢) صلى الله عليه وسلم به — سبحانه — دون غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْفَرَأْنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(سائر الأنبياء)^(٣) معجزاتهم باقيةً حُكْمًا ، ونُبِيًّا — صلى الله عليه وسلم — معجزته باقيةً حَيَاتًا ، وهي القرآن (الذي تنلوه ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه)^(٤) ولا مِنْ خَلْفِهِ . قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

لا شيء أُعْطِيَ عند الأحباب من كتاب الأحباب ، فهو شفاء من داء الضيق ، وشفاء لأسرارهم عند اشتداد البلاء ، وفي معناه أنشدوا :

وكسبك حولي لا تغارقي مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مدونة في أعلى الورقة بعلامات مميزة لسكانها من النص ، وقد أثبتنا كلامي موضع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَظَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا
 مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا • أَوْ تَكُونَ
 لَكَ بَنِيٌّ مِنْ غَيْبٍ وَنُفْبِ فَتَفْجُرَ
 الْأَنْهَارَ خِلالَ فُجُورِ • أَوْ تُسْقِطَ
 السَّمَاءَ كَمَا زُخَمَتْ عَلَيْنَا مِنْ قَبْلُ
 أَوْ تَأْتِي بَالُغًا لِلْعَاقِبَةِ قَبِيلًا
 • أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرْوَاهِ
 أَوْ نُرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ
 بِرُؤْيَاكَ حَتَّى يُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
 مُقَرَّرًا قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ
 إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

اقتصرنا الآيات بعد إزاحة الغلظة وزوال الحاجة ، فَرَكَّضُوا فِي مَضَارِ سُوهِ الْأَدَبِ ،
 وَخَرَّمُوا الْوَصْلَةَ وَالْقُرْبَةَ . وَلَوْ أُجِيبُوا إِلَى مَا طَلَبُوا مَا أَزْدَادُوا إِلَّا جُعْدًا وَفَكْرًا ،
 وَقَدْ قِيلَ :

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا حَبَاكَ يُوَدُّ
 وَكُنَّا الْمَلُوكُ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً
 سَتَرَ الْقَبِيحَ وَأَظْهَرَ الْإِحْسَانَ
 مَلَّ الْوَصَالَ وَقَالَ كَلَنْ وَكَانَا

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » : قل يا محمد : سبحان ربِّي أَمِنْ أَيْنَ لِي
 الْإِتْيَانُ بِمَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَهَنَّمَ ؟ فَبَلِّغْهُنَّ إِلَّا السُّبُودِيَّةَ ؟ وَهَلْ أَنَا إِلَّا بَشَرٌ ؟ قَالَ تَعَالَى :
 « لَنْ يَشْكُفَ لِلْمَسِيحِ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَتَّعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
 جَاءَهُمُ الْمُدَى إِلَّا أَنْ ظَالُوا أَلْبَسَتْ
 اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(١) آية ١٧٢ سورة النساء .

تَسْجُرُوا^(١) مَا لَيْسَ بِكُمْ مِثْلَهُ ، وَلَكِنْ سَخَّرَ لَهُمْ قُرْطُ جَبَلِهِمْ ، ثُمَّ أَمَرُوا
عَلَى تَكْدِيرِهِمْ وَجَعَلَهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُونَ مَطْمَئِينَ لَآتَيْنَا عَلَيْهِمُ مِنَ الْمَاءِ مَلَسًا رُسُلًا﴾

الجنس إلى الجنس أميلُ ، والشكلُ بالشكلِ آسنُ ، قال سبحانه لو كان سكانُ الأرض ملامكةً لَجَعَلْنَا الرِّسُولَ إِيَّاهُمْ مَلَكًا ، فَلَا كَلِمَاتُ بَشَرًا فَلَا يَنفَعُ أَنْ يُسْتَعِدَّ لِرِسَالِ الْبَشَرِ إِلَى الْبَشَرِ .

قوله جل ذكرہ : ﴿ قُلْ كُنْتُمْ نَارًا شَهِيدًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ﴾
 اِنَّہ کان بعبادہ خبیثاً بصیراً ﴿

الحق — سبحانه — هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقاسُ حكمُهُ على حُكْمِ الخلق ، ولا يجوز في صفة الخلق أَنْ يَكُونَ الحاكمُ هو الشاهد ، فكما لا تشبه ذاته ذات الخلق لا تشبه صفته صفة الخلق .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَدِّ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهَيَّدُ وَمَنْ يُضِلُّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾^١ ومُحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى جُودِهِمْ خُفْيًا وَبُكْيًا وَصُغًا مَا وَاوَّاهُمْ جَبْمٌ كُلَّمَا نَحِثَ زَدْنَاهُمْ سَمِيرًا ﴿١﴾

مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ فِي آتَالِهِ اسْتَغْلَصَهُ فِي آيَاتِهِ بِأَفْضَالِهِ ، وَمَنْ حَمَلَهُ فِي الْأَزَلِ بِالشَّقَاوَةِ وَكَمَلَهُ فِي أَبَدِهِ بِسَمَةِ الْأَعْدَاءِ . فَلَا يُحْكِمُهُ بِحُكْمِ الْبُحُولِ ، وَلَا لِقَوْلِهِ تَبْدِيلِ .

(۱) وردت (تعجلوا) والممن يقتضی (تعجیبا) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا

وَقَالُوا إِنَّمَا كُنَّا عِبَادًا مُّرْسَلِينَ

أَتَيْنَا الْمُبْعُوثِينَ خَلْقًا جَدِيدًا ۖ

لَمَّا أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ جَزَاءُ الْحَقِّ بِإِدْمَاعِ تَعْدِيهِمْ ، وَهُوَ سَاعِدُهُمُ التَّوْفِيقُ لَوْجَدَ مِنْهُمْ التَّحْقِيقَ ، لَكِنَّهُمْ عَدِمُوا التَّأْيِيدَ فَحَرَمُوا التَّوْحِيدَ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ

يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَبَعَلٌ لَّمْ يَجْعَلْ لَارِبًا

فِيهِ فَاَتَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۖ

مَهْدٍ بِهِ هَذِهِ آيَةُ طَرِيقِ إِثْبَاتِ الْقِيَاسِ ^(١) ، فَلَمْ يَنَادِرْ فِي الْكِتَابِ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ لَمْ يَفِدْهُ بِالْأَدِلَّةِ وَالْبَيَانِ ^(٢) ، فَتَمَلَّكَ الْكُلُّ أَنْ الرُّكُونَ إِلَى التَّقْلِيدِ عَيْنُ الْخَطَا وَالضَّلَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَلَّكُوا خَزَائِنَ رَحْمَةِ

رَبِّي إِذْ لَا أَمْسَكُكُمْ خَشْيَةَ الْإِفْتَاكِ

وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۖ

إِذِ الْبُخْلُ فَرِيضَةُ الْإِنْسَانِ ، وَالشَّحُّ سَجِيئَتُهُ [(. . .)] ^(٣) الْمَعْرُوفُ لَا يَهْرَفُ انْطِلَاقًا ^(٤)

(١) مِنْ هَذَا نَرَفُ أَنْ الْقَشِيرَى مُؤْمِنٌ بِأَهْمِيَةِ الْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ ضَمِنَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ مَوَادِّ الشَّرِيعَةِ وَلَى هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ يَتَّبِعُ الصُّوْفِيَّةَ بِالتَّنَكُّرِ لِلْعَقْلِ ، مَعَ أَنَّهُمْ حَرِصُونَ عَلَى الْحِرَاسِ عَلَى تَصْحِيحِ الْإِيمَانِ فِي مَرَاهِلِ الْبَدَايَةِ عَنْ طَرِيقِ الْوَسَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ .

(٢) وَبِمَا كَانَتْ (الْبَرَاهَانُ) بَدَلُ (الْبَيَانِ) ، فَالْبَرَاهَانُ أَقْرَبُ إِلَى (الدَّلِيلِ) وَلِئِنْ (الْقِيَاسُ) كَانَ أَنْ (الْبَيَانِ) — فِي مَذْهَبِ الْقَشِيرَى الْحَرَفِيُّ — مَرَحَلَةٌ قَلْبِيَّةٌ وَلَيْسَتْ عَقْلِيَّةً .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنْ كِتَابَ اللَّهِ لَمْ يَنَادِرْ شَيْئًا إِلَّا بِأَيِّدِهِ (بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ) وَ (الْبَيَانِ) النَّاطِقِ .

(٣) هَذَا يَبَاحُ فِي الْأَصْلِ .

(٤) مَا بَيْنَ الْقَوْمَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ وَوَدَّ هَكَذَا وَفِيهِ نَحْوُ نَتَائِجِ عَنْ سَقُوطِ مَا سَبَقَ .

قوله جل ذكره . ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾

بَيِّنَاتٍ

هي أمارات كراته وعلامات محبته .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى

مَسْحُورًا﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلُ هَؤُلَاءِ

إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاحِرٍ

وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَحْجُورًا

أنت — يا فرعون — سلكت طريق الاستدلال فقلت أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا من قبيل الله ، ولكنك ركنت إلى الغفلة في ظلمات الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ مِنْ الْأَرْضِ

فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِنْ مَحْجُورَاتِ

أراد فرعون إهلاك بني إسرائيل واستصاخم ، وأراد الحق — سبحانه — نصرهم ويقامه ، فكل ما أراد الحق لا ما كاد العين .

قوله جل ذكره : ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

اَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا

أودعهم منازل أعدائهم ، ومكنهم من ذخائرهم وما كنهم ، واستوصى بهم شكر نعمته ، وعرفهم أنهم إن سلخوا في العصيان منكم فقد هم ذاقوا من العقوبة مثل حقوبتهم .

(١) من ابن عباس أنها الصا واليد والجراد والنمل والنفادع والذئب والحجر والبحر والطور الذي نفع على بني إسرائيل . وعن الحسن أنها الطوفان والسنون وتفس الثرات مكان الخير والبر والطور .

قوله جل ذكره: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقْنَاهُ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ
عَلَى مُكْتَفٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

القرآن حق، ونزوله بحق، ومُنَزَّلُهُ حق، والنُّزْلُ عليه حق، فالقرآن بحق نزل ومن
حق نزل وعلى حق نزل. وقد فَرَّقَ القرآنَ لِيَهْوَنَ عليه — صلوات الله عليه — حِفْظُهُ،
وليُكْثِرَ تردد الرسول من ربه عليه، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً
على أنه ليس بما أمان عليه غيره.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا
يُنْتَلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجَّدًا﴾ ويقولون سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا
كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

إِنْ آمَنْتُمْ حَصَلَ النَّفْعُ لَكُمْ، وَإِنْ جَعَلْتُمْ فِي إِيْمَانٍ مِنْ آمَنَ مِنْ أَوْلِيَانَا هُنَّكَ
كَلَفٌ، وَإِنْ الصَّرَرْتَ عَانَدٌ عَلَيْكُمْ.

وإِنْ مِنْ أَضَانَا عَلَيْهِمْ شَمْسٌ إِبْقَانَا لَشَرْقِ أَنْوَارٍ مَلُونِهِمْ؛ فَإِذَا نَلَيْتَ عَلَيْهِمْ
أَكَاثِنَا سَجَدُوا بِذَلِكَ جَعْدِم، واستجابوا بطل نخدم، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ
خُشوعًا﴾.

تأثيره في قلوب قوم يختلف؛ فتأثير السماع في قلوب الملباء بالتبسم، وتأثير السماع

في أنوار الموحدين بالتحديد^(١)؛ تبصر الملاء بصحة الاستدلال، وتبهر الموحدين في شهود
الجلال والجلال.

وبكاء كل واحد على حسب حاله : فالتائب يبكي غوف عقوبته لما أسلفه من زكته
وحوته، والمطيع يبكي لتقصده في طاعته، ولكيلا يفوته ما يأمله من مقته.

وقوم يكون لاستيغالهم عاقبتهم وسابقتهم عليهم.

وآخرون بكلام بلا سبب متعين. وآخرون يكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر مطول^(٢)، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل، وفي مناه أندوا:

خُلِقْنَا رَجَالًا لَتَجْلُوَ الْأَسَى وتلك النوائى لبسكا والمآسى

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ اذْهَبُوا إِلَى اللَّهِ أُوذِعُوا الرِّحْمَ

أَيُّهَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

من عظيم نعمته — سبحانه — على أوليائه تَنَزُّهُهُمْ بأسرارهم في رياض ذكره بتعداد
أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة، ومن مآسى إلى مآسى.

وقال الأغنياء ترددهم في بسائيتهم، والأولياء تنزههم في مشاهد تبييضهم، يستروحون
إلى ما يلوح لأسرارهم من كسوفات جلاله وجهاله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا

وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

لا تَجْهَرُ بجميعها، ولا تخافت بكلماتها، وارفع صوتك في بعضها دون بعض.

ويقال ولا تَجْهَرُ بها جبراً يَسْمَعُ الأعداء، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء.

«وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا»: يكون للأحباب مسموعاً، ومن الأجانب ممنوعاً.

(١) ليس (التبصر) هنا ناجياً من الشك، وإنما ناجم من شدة الوله وحلف الأخذ.

(٢) لأن الأكابر في حال التنسكين لا للتزين.

ويقال «ولا تخبر بصلاتك» : بالتهلو ، «ولا تخافت بها» : بالليل .

قوله جل ذكره : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرَ تَكْبِيرًا﴾ .

اشمده بذكر نفسه من الولد ، وأنه لا شريك له ، ولا ولي له من الذل ؛ إما على أنه لم يندل فيحتاج إلى ولي ، أو على أنه لم يرال أحداً من أجل منة به فيدفعها بحوالاته . ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث هو فك بذلك .

ويقال له الأولياء ولكن لا يعنهم يندلهم ، إذ يصيرون بعبادته أحرزة .
«وكبره تكبيراً» بأن تعلم أنك تصل إليه به لا بتكبيرك .

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جل ذكره : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ما سميت القلوب إلا بسما اسم الله ، وما استتارت الأسرار إلا بوجود الله ، وما طربت الأرواح إلا بشهود جلال الله .

سما «بسم الله» راحة القلوب وضيؤها ، وشفاء الأرواح ودواؤها .

«بسم الله» قوت العارفين ؛ بها يزول كدهم وعناؤهم ، وبها استقلالهم وبقاؤهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ هِوَجًا﴾

(١) لاحظ الربط بين تفسير البسمة في أول هذه السورة وبين قصة أهل الكهف ، الذي فتوا من أعينهم لبعائهم بالله .

إذا جُعلَ « الحمد » معنا على معنى الشكر فإزالُ الكتاب من أجلِّ فيه ، وكتابُ الحبيب
لدى الحبيب أجلُّ موقَّع وأشرفُ محلٍّ ، وهو من كمال إقامته عليه ، وإنَّ تمَّله — عليه
السلام — حَبْدَه فهو من جلالِ نَعَمه عليه لأنَّ من تَمَّاه حَبْدَه جَعَلَه من جملة خَوَّاه .

وإذا جُعلَ « الحمد » في هذه الآية على معنى للمسح كان الأمر فيه بمعنى التناهد عليه —
سبحانه ، بأنَّه اللَّيْلُ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْحُكْمُ بما يريد ، وأَنَّهُ أَعَدَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي فِي هَذَا
الْكِتَابِ لِلْعَبِيدِ ، وَتَمَّاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبْدَه لَمَّا كَانَ فَأَيًّا عَنْ حُطْرَتِهِ ، خَالِصًا لَهُ
بِقِيَامِهِ بِمَقْرُوقِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَبِيْلاً لِّیَنْفِرَ بَأْسًا شَدِيْداً مِنْ لَدُنْهِ ﴾

« قَبِيْلاً » : أى صاته من التمارض والتناقض ، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربِّ عزيز .

« وَالْبَأْسُ الشَّدِيْدُ » : مُتَجَعِّدُ الْفِرَاقِ ، وَوُجُوْهُ الْاِحْتِرَاقِ .

ويقال هو البقاء من الله تعالى ، والابتلاء بنضب الله .

ومعنى الآية لينفروهم ببأس شديد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ

الصَّالِحَاتِ اَنْ لَهُمْ اَجْرًا حَسَنًا ﴾ .

والمعلُّ الصَّالِحُ ما يصلح للقبول ، وهو ما يُؤَدَّى عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ . ويقال العمل

الصَّالِحُ ما كان بنتاً لظُلُوص ، وصاحبه صادق فيه .

ويقال هو الذى لا يستعمل عليه صاحبه خطأً فى الدنيا مِنْ أَخْذِ عَوْضٍ ، أَوْ قَبُولِ جَاوِزٍ ،

أَوْ انْقَادٍ رِيسَةٍ . . وما فى هذا المنى .

وحملت البشارة بأنَّ لهم أجراً حسناً ، والأجرُ الْحَسَنُ ما لا يجرى مع صاحبه استقصاه

فى العمل .

ويقال الأجر الحسن ما يزيد على مقدار العمل .

ويقال الأجر الحسن ما لا يَدْكُرُ صَاحِبُهُ تَصْغِيرَهُ ، وَيَسْتَرْعُهُ حَيُوبَ عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَهْدًى ﴾

البشارة منه أَنَّ تلك الثَّم على الدوام غير منقطعة ، وأعظم من البشارة بها قوله ^(١) :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ ظَالَمُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا •

مَلِم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِيَأْهِمَ كِبَرُتْ

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ

إِلَّا كَذِبًا • ﴾

فَأَتَتْهُمْ التَّيْبِيعَةُ نَتِيجَةُ جَهْلِهِمْ بوحدايةِ الله ، ولقد توارثوا ذلك الجهل عن أصدانهم و
والحياةُ لا تَبْدُ إِلَّا حَيَّةٌ !

كَبُرَتْ كَلِمُهُمْ فِي الْإِثْمِ لَمَّا خَسَتْ فِي الْمَقْبُورِ . وَمَنْ لَطَقَ بِمَا لَمْ يَحْصِلْ لَهُ بِهِ إِذَنْ خَلِيقَ هَذَا
الوصف . وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا الشَّأْنِ قَبْلَ أَوَانِهِ قَدْ دَخَلَ فِي غِلَاظِ هَوْلِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا كَبُرَ خَطْبُكُمْ قَالُوا لَوْلَا إِيَّاكُمْ لَفَنَّا بِالَّذِينَ آمَنُوا كَذِبًا •

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمَا لَذَرْنَا فِي أَسَافٍ • ﴾

مِنْ قَرْطِ شَفَقَتِهِ — صلى الله عليه وسلم — فَاخَذَهُ الْحُزْنُ لَامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ ،
فَبَوَّأَ اللَّهُ — سبحانه — عَلَيْهِ الْحَالَ ، بِمَا يَشْبَهُ التَّائِبَ فِي الظَّاهِرِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : لِمَ سَكَلَ هَذَا ؟
لَيْسَ فِي امْتِنَاعِهِمْ — فِي عَهْدِنَا — أَثَرٌ ، وَلَا فِي الْفَتَنِ مِنْ فَتْكِ ضَرَرٍ .. فَلَا حَاسِلَ مِنْ ذَلِكَ .
وَيَقَالُ أَشْهَدُهُ جَرِيانَ التَّنْذِيرِ ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ — وَإِنْ كَانَ كَثُرَتْ مِنْهُ نَبِيَّاتُهُ عَنْهُ فِي الشَّرْعِ —
فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُرَادُّ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا جَاعِلٌهَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا • ﴾

(١) البشارة بالآية التالية أعظم لأن المؤمن يعلم أن الله لا يغير أن يترك به ويفتر ما دود ذلك
لن يشاء .

(٢) في هذه الإشارة حمزة بن يظفون — يدهوى الحو — بما لا يليق .

ما على الأرض زينة لها تُذكرُ بالأبصار، ومن على الأرض من هو زينة لها يُعرفُ
بالأسرار. وإنَّ قيمة الأوطان قُطَّانها، وزينة المساكن في سُكَّانها.

ويقال العباد بهم زينة الدنيا، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال الأولياء زينة الأرض وم أمانٌ من في الأرض.

ويقال إذا تَلَكَات أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضياهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِتَبْلُغُوا إِلَيْهِمْ أَحْسَنُ مَعَالٍ﴾

أحسنهم معالاً أصدقهم رتبةً، وأخلصهم طويةً.

ويقال أحسنهم معالاً أكثرهم احتساباً؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبةَ له، وأهل من هذا بل
وأولى من هذا فأحسنهم معالاً أشدهم استصفاً لفضله، وأكثرهم استحقاقاً لطاعته؛ لشدة
رويته لتقصيره فيها يمل، ولا تنقصه أفضاله في جنب ما يستوجبه الحق بحق أمره.

ويقال أحسن أعمال المرء نظرُهُ إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصفا، لقول الشاعر:

وأَكْبَرُ من فِعْله وأعظمه تصنيُّره فِعْله الذي فَعَله

منه: أَكْبَرُ من فِعْله — الذي هو عطاؤه وبَدَلُهُ — قَلِيلُهُ واستنصارُهُ لِمَا يُعْطِيهِ

ويجوز به .

قوله جل ذكره: ﴿وإِنَّا جَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَيْدًا

جُرْزًا﴾

كَوْنُ ما على الأرض زينة لها في الحلال سَلْبَ قَدْرُهُ بما أخبر أنه سَيَقْنِيهِ في المال.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ

وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

أزال الإعجوبة عن أوصافهم بما أضافه إلى ربه بقوله: «من آياتنا»؛ فَقَلْبُ العادة
من قِبَلِ اللَّهِ خَيْرٌ مُسْتَنَكِرٍ وَلَا مُبْتَدِعٍ.

ويقال مكثوا في الكهف مدة فأضافهم إلى مُسْتَقَرَّم قال : « أصحاب الكهف » ،
والنفوس محال ، ولقلوب مقار ، ولهم بحال ، وحينئذ يتكف يَطْلُبُ ابتداءً صاحبه^(١) .

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَجَبَّبَ من قسمهم ؛ فهاك أصعب في ذهابك إلينا في شطر من
البل حتى قاب قوسين أو أدنى^(٢) ، وم قد بقوا في الكهف سنين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

آوأم إلى الكهف بظلمهم ، وفي الباطن فهو مُقِيلُهُمْ في ظِلِّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم
عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم^(٣) .

وأخير من ابتداء أمرهم بقوله . « ربنا آتينا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشدا » :
أي أنهم أخذوا في التبرئ من حورهم وقوَّيهم ، ورجعوا إلى الله يَصِدِّقُ قَآئِمِهِمْ ، فاستجلب لهم
دموئهم ، ودفع عنهم ضرورتهم^(٤) ، وبوَّأهم في كنف الإيرواء مقيلا حسنا .

قوله جل ذكره : ﴿ فَفَضَّرْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ مَعْدَدًا ﴾

أخذناهم من إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من
حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

(١) معنى العبارة يطلب صاحب المكان من حيث المكان الذي يتكف فيه .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى المنزلة الربية التي وصل إليها المصطفى — صلوات الله عليه — لئلا الإمراء
والعراج ، وكيف أنه انتهى في لذة واحدة إلى عالم يصل إليه أصحاب الكهف في سنين .

(٣) وأوضح أن القشيري يبالغ قصة أهل الكهف في ضوء حال الفناء وحال البقاء . . وهذا من المخارج
التي يقدمها التصوف لتفسير الظواهر الطبيعية التي تغلب فيها السادة ، ويحار فيها الطل .

(٤) يقصد من الضرورة هنا ما يؤلم الإنسان من طعام وشراب وتخلص من ههنا . . ونحو ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ يَشَاءُ لِيَتَّخِذَ الْغَافِلِينَ
أَصْحَابًا لِيُسَاءَلُوا عَنْهُمْ ﴾

أي رددناهم إلى حال صوم وأوصاف تميزهم ، وأقنأهم بشواهد التفرقة بعد ما عجزناهم
من شواهدهم بما أقنأهم بوصف الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَمُنَّ نَفْسٌ عَلَيْكَ كَيْتَابٌ يُخْتَارُ
لَهُمْ فَتَنَةٌ آمَنُوا بِهِمْ ﴾

لما كانوا مانعين عنهم توكلي الحق — سبحانه — أن تصد عنهم ، وفرق بين من
كان من نفسه وأوصافه قاصداً ، لبقائه في شاهده وكونه غير منتفٍ بجملة .. وبين من كان
موصوفاً بواسطة غيره ، لفتائه عنه وامتناعه منه وقيام غيره عنه .

ويقال لا تسع قصة الأجلب أجلي وأجل مما تسع من الأجلب ، قال عز من قائل :
« نحن قص عليك » ، وألشدوا :

وَحَدَّثَنِي بِأَسَدُ عَنْهَا فَرَدْتَنِي حِينَمَا فَرَدْتَنِي مِنْ حَدِيثِكَ بِأَسَدُ

قوله : « إنهم فتنة آمنوا بهم » : يقال إنهم فتنة لأنهم آمنوا — على الولة —
بهم ، آمنوا من غير مهلة ، لما أنهم دواعي الولة ^(١) .
ويقال فتنة لأنهم ظمروا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ * وَرَبَّنَا عَلَيَّ

قوله

لا تظلمهم بأحضارهم ، ثم كشفهم في أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلنقام أولاً
التيين ، ثم رقام عن ذلك باليقين .

(١) لاحظ أهمية ذلك في فهم معنى (الفتنة) عند الصوفية .

« وربطنا على قلوبهم » : بزيادة اليقين حتى منع نهار^(١) ممارفهم ، واستنضات نفوس^(٢) تقديرهم ، ولم يبق للتردد مجال في خواطرم ، و (...)^(٣) في التجريد أسرارهم ، وتمت سكونة قلوبهم .

ويقال « ربطنا على قلوبهم » : بأن أغنيانهم عن الأغيار ، وأغنيانهم عن التنكر بما أوليانهم من أنوار التبصّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنّا فيها من شواهد الغيب ، فلم تسرح فيها هواجس^(٤) التخبين ولا وساوس الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالُوا قَاتِلُوا رَبَّكَ رَبُّكَ السُّوءُ

وَالْأَرْضُ ﴾

قاتلوا لله بالله ، ومنّ ظم بالله فقد عاوى الله .

ويقال من ظم لله لم يصد حتى يصل إلى الله .

ويقال قدمت عنهم الشهوات فصّح قيامهم بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ نَذْهَبَ مِنْ دُونِهِ إِنَّمَا هِيَ قُلُوبُنَا

إِذَا شَاطَلَتْ ﴾ .

من أحال الشيء على المحوشر فقد أشرك بالله ، ومن قال إن الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلها من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ حَوْلَاهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

إِلَٰهَةً وَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ

بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَكْبَرُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى

اللَّهِ كَذِبًا ﴾

(١) متوع النهار اصطلاح يأتي في مذهب القشيري بعد الفرائض والطوائع والمواع ، وهو يلتصق مع الليل من حيث اللفظ (يقال متع النهار أي طلع فاية ارتفاعه) .

(٢) مشبهة وهي قريبة في الرسم من (واضحوا) ومصوبة في الهمز (وانحدروا) لأجل هذا لم نستطع أن نحسم فيها برأى ، وهي على الصوم كلمة تعيد خلوس أسرارهم في التجريد وإلا لما حدثت سكونة قلوبهم .

لأنه لم يكن له حجة انتفع بها ادعوه كذبهم ، فمن اكتفى بِثَنِيَّةِ التَّلَاةِ دون ما يشهد قوله من أدلته فهو مغلول في نحلته .

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ » فمن ذَكَرَ في الدِّين قولاً لم يؤيد ببرهان عقل أو قتل فهو مغتر ، وَمَنْ أَظْهَرُ مِنْ نَفْسِهِ حَالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُغْتَرٍ . والذي يصدق في قوله — في هذه الطريقة — فهو الذي يسمع من الحق بسره ، ثم ينطق بلفظه ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ اهْتَرَقُوا وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ، فَأَوُوا إِلَى الْكَفْرِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْدِي لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ نَرَقًا ﴾

المرأة عن غير الله توجبُ الوصلةُ بالله . بل لا تحصل الوصلةُ بالله إلا بعد التزلة عن غير الله .

ويقال لما اهتزلوا ما عُيِدَ من دون الله آواهم الحق إلى كنف رعايته ، ومهد لهم متوى في كهف عنايته .

ويقال مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ اخْتِيَارِهِ في احتياله ، وصدق رجوعه إلى الله في أحواله ، ولم يستعين — بنير الله — من أشكائه وأمثاله آواه إلى كنف أفضاله ، وكناه جميع أشكائه ، وهياً له متحلاً يتفيؤ فيه في برَدِ ظلاله ، بكجَالِ إقباله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَّتْ تَزَاوَرُ ﴾^(٢) من كنههم ذات اليمين وإذا غربت

(١) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة في قضية هامة من قضايا التصوف ، كانت لها في بعض الأحيان عواقب جسيمة : وهي هل يلصق الصوفي الواله أم يكتف ؟ ونلاحظ أن القشيري ربط القضية بنصر أساسي هو الصدق . . .

(٢) تزاوَر من الزور وهو الميل ، والزور الميل عن الصديق .

م مسلوبون عنهم ، مُخْتَلَقُونَ مِنْهُمْ ، مُسْتَهْلِكُونَ فَمَا كُوشِفُوا بِهِ مِنْ وَجُودِ الْحَقِّ ؛
فَظَاهَرُمْ — فِي رَأْيِ الْغُلُقِ — أَنَّهُمْ بِأَفْسِهِمْ ، وَفِي التَّحْقِيقِ : الْقَائِمُ عَنْهُمْ غَيْرُهُمْ . وَمِنْ مَحْوٍ
فَمَا كُوشِفُوا بِهِ مِنَ الْخَفَائِقِ .

ثم قال : « وَقَلْبُهُمْ ذَاتُ الْيَمِينِ وَذَاتُ الشِّمَالِ » : وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حُسْنِ إِيْوَانِهِ لَمْ ؛
فَلَا كَشْفَةَ الْأَمْهَاتِ بِلِ أُنْمِ ، وَلَا كَرَحَةَ الْأَبَاءِ بِلِ أَعَزُّ . . . وَبِإِلَهِ التَّوْفِيقِ .

وَيَقَالُ إِنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ صَفَتُهُمْ مَا قَالَ الْحَقُّ — سَبِّحَانَهُ — فِي صِفَةِ أَصْعَابِ الْكَهْفِ :
« وَنَعْسَبُهُمْ أَيْقَانًا وَمِنْ رَقُودٍ » فَهُمْ بِشَوَاهِدِ التَّرْقِي فِي ظَاهَرِهِمْ ، لَكِنْهُمْ بَيْنَ الْجَمْعِ
بِمَا كُوشِفُوا بِهِ مِنْ سِرَاتِهِمْ ، يُجَرِّى عَلَيْهِمْ أَحْوَالَهُمْ وَمِنْ غَيْرِ مُنْكَفَتِينَ ، بِلِ مِمَّ يَشْتَبُونَ
— وَمِنْ خَوْذٍ عَمَّا م بِهِ — أَنْ تَصْرِفَاتِهِمُ الْقَائِمُ بِهَا عَنْهُمْ سَوَامٌ ، وَكَذَلِكَ فِي نَقَطِهِمْ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَلَّيْهُمْ بِأَسْطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾

لَوِ اطَّلَعْتُ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا

وَكَلَّيْتُ مِنْهُمْ رُحْبًا ۝

كَأَنَّ ذِكْرَهُمْ ذَكَرَ كَلْبِهِمْ ، وَمَنْ صَدَّقَ فِي حُبِّهِ أَحَدٍ أَحَبُّ مَنْ اتَّسَبَ إِلَيْهِ
وَمَا يُسَبِّبُ إِلَيْهِ .

وَيَقَالُ كَلْبٌ خَطَا مَعَ أَحِبَّائِهِ خَطَوَاتٍ فَأَلَى الْقِيَامَةِ يَقُولُ الصَّبِيَّانِ — بِلِ الْحَقِّ يَقُولُ بِقَوْلِهِ
الْعَزِيزِ — : « وَكَلَّيْهُمْ بِأَسْطٍ . . . » فَهَلْ تَرَى أَنَّ مُسْلِمًا يَصْحَبُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ وَقْتِ شَبَابِهِ
إِلَى وَقْتِ شَيْبِهِ يَرُدُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَائِبًا ؟ إِنَّهُ لَا يُضِلُّ ذَلِكَ .

وَيَقَالُ فِي التَّنَاسُخِ إِنَّهُمْ قَالُوا لِرَأْسِ أَقْنَى تَبِعَهُمْ وَالْكَلْبُ مَعَهُ : إِصْرَفْ هَذَا الْكَلْبَ
هَذَا . . . فَقَالَ الرَّأْسُ : لَا يُمْكِنُنِي ، فَأَلَى أَنَا دِينُهُ .

وَيَقَالُ أُنْطِقْ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ — الْكَلْبُ قَالَهُ لَمْ : لِمَ تَبْصِرُونَنِي ؟

فَقَالُوا : لِيَتَصَرَّفَ هَذَا .

فَقَالَ : لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَصْرِفَ . . . لِأَنَّهُ رِيَّائِي .

وَيَقَالُ كَلْبٌ بِسَطٍّ يَدُهُ عَلَى وَصِيدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْقِيَامَةِ يَقَالُ « وَكَلَّيْهُمْ بِأَسْطٍ ذِرَاعِيهِ

(١) فَنُطِقُ الْبَيْدَ الْوَالِدَ وَتَعْرِفُهُ يَكُونَانِ بَاءً . . . تَذَكَّرْ قِصَّةَ الْحَلَّاجِ .

بالوصيد . . . فويل إذا رَفَعَهَا مَسْلَمٌ إِلَيْهِ خَمْسِينَ سَنَةً تَرَى بِرَدِّهَا خَائِبَةً ؟ هذا لا يكون .

ويقال لما صَحَّيْهِمُ الْكَلْبُ لم تفره نجاسة صِفَتِهِ ، ولا خساسة قِيَمَتِهِ .

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا «سيقولون : ثلاثة رابعهم كلهم » ، أو خمسة
سادسهم كلهم فقد قال في صفة هذه الأمة : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة
إلا هو سادسهم » . .

وَشَتَّانِ مَا هَا !

ويقال كُلُّ يَعْمَلُ بما يليق به من حالته ودرجته ، والأولياء قال في صفتهم : « وتلقبهم
ذات العين وذات الشمال » ، والكلب قال في صفته : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

ويقال كما كَرَّرَ ذَكَرْتُمْ ، كَرَّرَ ذَكَرْتُ كَلْبَهُمْ .

وجاء في القصة أن الكلب لما لم ينصرف عنهم قالوا : سبيلنا إذا لم ينصرف عنا أن
نَحْمِلَهُ حتى لا يُسْتَدَلَّ علينا بأثر قَدَمِهِ لِحُلُولِهِ ، فكانوا في الابتداء (بل إياه)^(١) وصاروا
في الانتهاء مطالبين . . كذا من اقتنى أثرَ الأحباب .

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم ، وينطقه رِبَطٌ على قلوبهم بأن ازدادوا
يقيناً بسمع نطقه ، فقال : لم تضربوني ؟ قالوا : لتنصرف ، فقال : أنتم تخافون بلاء يصيبكم
في المستقبل وأنتم بلائى في الحال :

ثم إنَّ بلاءكم الذي تخافون أن يصيبكم من الأعداء ، وبلائى منكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما زعم الكلبُ محله ولم يجاوز حده فوضع يديه على الوصيد بقى مع الأولياء . . .
كذا أدب الخليفة يوجب بقاء الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾

(١) وردت هكذا وترجع أنها (بلائى) بليلى ما سيأتى بعد ذلك :
(وأنتم بلائى في الحال) .

المطلب له — صلى الله عليه وسلم . والمراد منه غيره .

ويقال لو اطلمت عليهم من حيث أفت لوليت منهم فراراً ، ولو شاهدتهم من حيث شهود تولي الحق لم لبقيت على حالك .

ويقال لو اطلمت عليهم وشاهدتهم لو كُنت منهم فراراً من أن تُردَّ عن عالي منزلتك إلى منزلتهم ، والفقير إذا ردَّ إلى منزلة الفقير فر منه ، ولم تطيب به نفسه . « ولملت منهم رجياً » بأن يُسلب عظيم ما هو حالك ، ويُقام في مثل حالهم النازلة عن حالك .
ويقال : « لوليت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَفَىٰ بِشَنَاقِهِمْ لِيَسْأَلُوا مِنْهُمْ قَالِ قَالُ مِنْهُمْ كَمْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾
أو بعض يوم

استقلوا مدة ليُشتم وقد كُتِّبوا (طويلة) ، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ، ولم يكن لهم علم بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدري أطل كَيْلِي أم لا ؟ كيف يدري بذلك من يتقلى ؟
لو تفرغت لاستطاعة كَيْلِي ورعيت النجوم كنتُ مُخِلّاً

ويقال أيلم الأوصال هدم قليلة — وإن كانت طويلة ، ولو كان الحال بالفضد لكان الأمر بالعكس ، وأنشدوا :

صَبَاحُكَ سَكْرٌ وَالْمَسَاءُ خُلٌّ^(١) نَيْتٌ وَأَيَّامُ السُّرُورِ قِصَارُ

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾
لأنه هو الذي خَصَّكُمْ بما به أُنَامِكُمْ .

(١) الخمر = ملاطعة الإنسان من سكر الخمر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَايْتُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ههنا إلى
المدينة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَ طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾

ماداموا مأخوذون عنهم لم يكن لهم طلب لأكل ولا شرب ولا شيء من صفة للنفس ،
فلما رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أول ما أحسوا بحالمهم ، وفي هذا دلالة على شدة (١)
ابتداء الخلق بالأسكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ
أَحَدًا ﴾

تواصوا فيما بينهم بحسن التخلق وجميل الترفق ، أى ليتلطف مع من يشتري منه شيئاً .
ويقال : أوصوا مَنْ يشتري لم الظلم أن يأتيهم بالطف شيء وأطيبه ، ومن كان من
أهل المعرفة لا يوافقهم انطش من الملبوس ولا المبتذل في المطعم من المأكول .
ويقال أهل المهاديات وأصحاب الرياضات طعامهم انطش ولباسهم كذلك (٢) .
والذى بلغ المعرفة لا يوافقه إلاكل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مليح .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يَشْتَرُونَكُمْ فَمَا تَجْعَلُونَ لِمَا يُكْفَرُونَ ﴾
إذَا أَبَدًا ﴾

تواصوا فيما بينهم بكتبان الأسرار من الأجانب (٣) وأخير أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى
أحوالهم بالتوا في مخالفتهم إما بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه القتل ، ولا يرضون

(١) شدة هنا معناه ضرورة .

(٢) معنى هذا أن القسري يميز بين مطعم ومطبخ أصحاب الرياضات ومطعم ومطبخ أهل المعرفة ، وربما
كان سبب ذلك أن أهل المعرفة الزواجب عليهم ستر أحوالهم عن الخلق ، بدليل قوله فيها بعد : « تواصوا
فيما بينهم بكتبان الأسرار من الأجانب » .

(٣) من هنا نعلم ضرورة أن يكتم أرباب الأحوال أسرارهم ، وإلا تعرضوا لأذى الذين لا يتحكمون
حقائق أحوالهم ، وقد يصل الأذى إلى حد القرب والقتل (تذكر قصة الخلاج وفيه) .

إلا برّدهم إلى ما منه انفصلوا ، فمن احترق كدسه فالـم يحترق كدس غيره لا تطيب نفسه .
ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار .
ويقال من أظهر لأعدائه سيره فقد جلب باختياره ضرره ، وقد ما سره (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخَذْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا
أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ
لَأَرْبَبَ فِيهَا إِذْ يَنْتَازِعُونَ بَيْنَهُمْ
أُمُورَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا
رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى
أَعْيُنِهِمْ لَنَنْخِذَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ مَحْجِدًا ﴾

جل أحوالهم عبثاً لئن جاء بَعْدَهُم حين كشف لأهل الوقت قصتهم ، فإيمانهم
الناس ، وازداد يقين من كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالبيان ما كان نقضاً للمادة
للسعرة .

ثم إن الله تعالى رَدَّهُم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذِينَ من التمييز ، متقلبين
في القبضة على ما أَرَادَهُ الحق ، مستودعين فيا كوشفوا ، متهلكين عنهم في وجود
الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُذِّبُوا ،
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُذِّبُوا
وَجَعَلْنَا بَالِغِيهِمْ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ
وَنَائِسُهُمْ كُذِّبُوا ﴾

أخبر أن علوم الناس متقاصرة عن عددهم ؛ فالأحوال التي لا يطلع عليها إلا الله
في أسرارهم وقهريهم .. متى يكون للخلق عليها إشراف ؟
أشكل عليهم عددهم ، وعددهم يُسَلَّم بالضرورة ، وهم لا يُدرُّونَ بالمشاهدة .

(١) يقول الشبل واصفاً سبب عنة الملاج : « كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر
وأنا كُنت » .

ويقال سيد الكلب حيث كَرَّ الحق — سبحانه — ذكركم وذَكَرَ الكلب معهم على وجه التكرار ، ولما ذَكَّركم عَدَّ الكلب في جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عبادِهِ ، وَمَنْ كَانَ قَرِيبًا فِي الْحَالِ مِنْهُمْ ؛ فَمِنْ كُنْهِ التَّيْدَةِ وَلِإِثْبَاتِ السِّرِّ لَا يَطْلُغُ الْأَجَانِبُ عَلَيْهِمْ ؛ وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ — سبحانه — يَسِّرُ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ الْأَجَانِبِ ، فَلَا يَعْلَمُ إِلَّا أَهْلَ الْحَقِيقَةِ ؛ وَالْأَجَانِبُ لَا يَرْفُونَ الْأَقْرَبَ ، وَلَا تُشْكَلُ أَحْوَالُ الْأَقْرَبِ عَلَى الْأَقْرَبِ كَذَلِكَ قَالَ شَيْخُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ : « الصَّوْفِيَّةُ أَهْلُ بَيْتٍ وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ غَيْرُهُمْ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

كما لا يرفعهم من كلِّ بَعْزٍ مِنْ حَالَتِهِمْ ، وَلَا يَمْتَدِّ إِلَى أَحْكَامِهِمْ مَنْ لَا يَرْفَعُهُمْ . . . فلا يصحُّ اسْتِفْتَاءُ مَنْ غَابَ عَنْهُمْ عَنْهُ فِي حَالِهِمْ . وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ مَحَلًّا لِهَبَةِ الْأَحْبَابِ لَا يَكُونُ لِسَانُهُ مَقْرَأًا لَكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا • إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

إِذَا كَانَتْ الْحَوَادِثُ صَادِرَةً عَنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَمْ يَعُدَّ مِنْ نَفْسِهِ مَا عِلْمُ أَنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِاللَّهِ .

ويقال مَنْ عَرَفَ اللَّهَ سَقَطَ اخْتِيَارُهُ عِنْدَ مَشِيئَتِهِ ، وَانْتَدَرَجَتْ أَحْكَامُهُ فِي شَهَادَةِ الْحُكْمِ اللَّهِ .

ويقال لِلَّذِينَ يَرْزَمُ عَلَى اعْتِنَاقِ الطَّاعَةِ فِي مُسْتَقْبَلِ قَلْبِهِ ، لَكِنَّهُ يَتَرَأَّى عَنْ حَوَالِهِ وَقُوَّتِهِ

(١) هذا القول للعجيد (ص ١٣٩) الرسالة

بِسِرِّهِ ، وَالشَّرْعُ يَسْتَعِي مِنْ نَهْوِ قَلْبِهِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْحَقُّ يَقِفُ سِرَّهُ عِنْدَ شَهْوَدِ مَا مِنْهُ
لِطُوبَى نَحْتِ جَرِيَانِ قَسَمَتِهِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ كَرَّمَكَ إِذَا لَسَيْتَ وَقُلْ
صَلَّى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ
هَذَا رَشْدًا﴾

إِنْ ظَلَمْتَ هَلِكُ طَوَارِقُ النِّسْيَانِ — لَا تَنْسَهُكَ — لِحُرْمَةِ بَذَرِكَ قَصْدَكَ عَنْ
أَوْطَانِ غَفْلَتِكَ .

ويقال « واذكر ربك إذا لست » : في الحقيقة نَفْسُكَ تَمْنِيكَ مِنْ اسْتِفْرَاقِكَ
فِي شَهْوَدِ ذِكْرِكَ .

ويقال واذكر ربك إذا لست ذكرك لربك : فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ مَلَاحِظًا لَذِكْرِهِ كَانَ
ذَلِكَ آفَةً فِي ذِكْرِهِ (٢) .

ويقال واذكر ربك إذا لست حَظَّكَ مِنْهُ .

ويقال واذكر ربك إذا لست غَيْرَ رَبِّكَ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَتُوبَا فِي كُفْرِهِمْ ثَلَاثِينَ سَنِينَ
وَأَزْدَاهُمَا نِسْفًا﴾

كَانُوا مَأْخُودِينَ عَنْهُمْ فِي إِحْسَاسِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَلَمْ يَقْنُوا عَلَى تَطْلُوعِ مَدَمِهِمْ ، وَفِي لُتْلُ :
« أَيَّامُ السَّرُورِ قَصَار » ، وَالْفُجُورُ فِي السَّرُورِ شَهْوَر ، وَالشَّهْوَرُ فِي الْحُسنِ دُحُور ، وَفِي مَعْنَاهُ :

أَعْدُ الْيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ كُنْتُ قَبْلًا لَا أَعُدُ الْيَالِيَا

قوله جل ذكره : ﴿وَقُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَنِيبٌ

(١) معنى هذه الفقرة أنه قد يبدو في الظاهر أن العبد لإرادة في الامتنال الطاعة وفي إجماع أحكام
الغربة ، ولكن في الحقيقة أن الحق سبحانه يتولى تربيته من حوله ولإرادته ، ونتيجة سره لتجربه من كل
طريق وسوى .

(٢) لأن أعلى درجات الذكر أن يظن الفاعل في المذكور .

السموات والأرض أبصر به وأسمع
ما لم يكن دونه من ولى ولا يشركه
فى حكمه أحداً ﴿

من لم يعد إيمانه لاشتغاله بالله أحصى الله أنفاسه التى لله ، قال تعالى : « أحصى
كل شئ عدداً » .

قوله جل ذكره : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب
ربك ﴾

تَلَّ — حينما تتنوع عليك الأحوال — بما نُطِلُّكَ عليه من الأخبار ، وإن كُتِبَ
الأحباب فيها شفاه لأنها خطابُ الأحباب للأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ لا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ
من دونه مُتَشَبِّهاً ﴾

أى لا تغيير لِحُكْمِهِ ، فَمَنْ أَقْصَاهُ فلا قبول له ، وَمَنْ أَدْنَاهُ فلا وصول له ، وَمَنْ قَبْلَهُ
فلا ردُّ له ، وَمَنْ قَرَّبَهُ فلا صدَّ له .

قوله جل ذكره : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون
ربهم بالنداء والشىء يريدون وجهه ﴾

قال : « واصبر نفسك » ولم يقل : « قلبك » لأن قلبه كان مع الحق ، فأمره بصحته
جَهْرًا بغيره ، واستخلص قلبه لنفسه سِرًّا بغيره .

ويقال « يريدون وجهه » : معناها يريدون وجهه أى فى معنى الحال ، وذلك يشير
إلى دوام دُعَائِهِمْ ربه بالنداء والشىء وكون الإرادة على القوام .

ويقال « يريدون وجهه » : فأويناكم فى دنياهم بظالمنا ، وفى عقابهم بكرائمتنا .

ويقال « يريدون وجهه » : فكشف قناعهم ، وأظهر صفاتهم ، وشهرهم بعدما كان
قد سترهم ، وأثروا :

وكشفنا لك التنازع وقلنا نعم ونهكنا لك للسجود
وقال لما زالت التهمة سَلِّتْ لهم هذه الإرادة ، ونحروا عن إرادة كل مخلوق ومن حبة
كل مخلوق .

ويقال لنا تَقَاصَرَ لسانهم عن سؤال هذه الجملة مراعاة منهم لبيعة الرسول صلى الله عليه
وسلم ، وحُرْمَةِ باب الحق — سبحانه — أَمْرَهُ بقوله : « واسبر نفسك » وقوله :

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

أى لا ترفع بَصَرَكَ عنهم ، ولا تُفْلِحْ ^(١) عنهم نظرك .
ويقال لما نظروا بقولهم إلى الله أَمْرَ رَسُولِهِ — عليه السلام — بالألا يرفع بَصَرَهُ عنهم ،
وهذا جزاءه في المآل .

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعة لم إلينا ، وخلفاً عما يونيوهم اليوم
من نظرم إلينا ، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نظركَ فإننا لا نمنع غداً نظرم عنا ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَطِغْ مَنْ أَغْنَيْنَا قَلْبَهُ عَنْ
ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ
فُرُطًا ﴾

هم الذين سألوا منه — صلى الله عليه وسلم — أن يُخْلَى لهم مجلسه من القراء ، وأن
يطردَهم يوم حضورهم من مجلسه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله .
ومنى قوله . « أغنينا قلبه عن ذكرنا » : أى شغلناهم بما لا ينبتهم .

ويقال « أغنينا قلبه عن ذكرنا » أى شغلناهم حتى اشتغلوا بالتمتع عن شهود المنعم .
ويقال هم الذين طُوحَ قلوبهم في التفرقة ، فهم في انطواء الرذيلة مُثْمِتُونَ ، ومن شهود
مولاهم محبسون .

(١) لا تطغ عنهم نظرك أى لا تكف وتبمد .

(٢) هم هذه الإشارة في تقدير معنى تصور الصوفية لشخصية محمد (س) .

وقال أغفلنا من ذكرنا الذين ابتلوا بنسيان الحقيقة ولا يتأسفون^(١) على ما متوا به
ولا على ما كاتهم
ويقال الغفلة نزجية الوقت في غير قضاء قرضي أو أداء نفل.

قوله جل ذكره : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ كُنْ شَاهِدٌ
قَلِيلٌ مِنْ مَنْ شَاءَ فَلْيُكَفِّرْ﴾

قُلْ يا محمد : ما يأتيكم من ربكم فهو حق ، وقوله صديق .. فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، ومن شاء
فليكفر . . هذا غاية التهديد ، أى إن آمنتم فوائد إيمانكم عليكم مقصورة ، وإن أبيتكم
فمعداب الجحود موقوف عليكم ، والحق — سبحانه — عز لا يعود إليه بإيمان الكافة
— إذا وحلتوا — زين ، ولا من كفر الجميع — إن جحدوا — عذب .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّا آتَيْنَا لَكَ الظَّالِمِينَ نَزْلاً مُبِيناً
سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَنشِقُوا فَيَسْتَأْذِنُوا
كَأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ الْوُجُوهَ بِلِسَانٍ
الْشَّرَابِ وَسَوَاءٌ مُرْتَقَقًا﴾

القوة الكبرى لم أن يشغلهم بالآثم حتى لا ينفرخوا منه إلى الحسرة هل ما فاتهم من
الحق ، ولو علموا ذلك لملأه كان يرحمهم . والحق — سبحانه — أكرم من أن ينسب أحداً
يُسَمُّهم لأجله .

ويقال لو علموا من الذى يقول : « وساعت مرتقاً » لملأه كان لم كسل ساعة ، ولكم
لا يعرفون قدَر من يقول هذا ، وإلا فهذا شيء مرتبة لم ، والعبارة من هذا تنق .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا
لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا •
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ

(١) وردت (ولا يأسفون) والحق يرفضها بما يرجح خطأ التاسخ لى عليها .

تصهم الأنهارُ يُحَلُونَ فيها من أساور
 من ذهبٍ ويلبسون ثياباً خضراً
 من سُفْسُفٍ وإسْبَرْقٍ متكِثين
 فيها على الأراكِ نِعَمُ الثوابِ
 وحسنتُ مرثعاً ۞

أهلُ الجنة طابت لهم حياتُهم ، وأهلُ النار أحاط بهم سرادقُها .
 والحقُّ — سبحانه — منزّهٌ عن أن يعودَ إليه من تعذيبِ هؤلاء عائدة ولا من تنعيمِ
 هؤلاء قائمة . . . جَلَّتِ الأعدىةُ ، وتقدَّستِ المصديّةُ !

وَمِنْ وَفَّعَتْ عَلَيْهِ فَبَرَّةٌ فِي طَرَفِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَفَرَةٌ فَرَأَيْنَا ، وَمِنْ خَطَا خَطْوَةٍ إِلَيْنَا وَجَدَ
 حِطْلَةً لَدَيْنَا ، وَمِنْ نَقَلَ قَدَمَهُ فَنَحْنَا غَفَرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَهُ ، وَمِنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجْزَلْنَا لَهُ رَحَدًا ،
 وَمِنْ التَّجَا إِلَى سُدَّةٍ ^(١) كَرَمِينَا أَوَيْنَاهُ فِي ظِلِّ نَيْمِنَا ، وَمِنْ شَكَا فِينَا غَلِيلًا ^(٢) مَهْدَنَا لَهُ — فِي
 دَارِ فَضْلِنَا — مَقِيلًا .

« أجز من أحسنَ عملاً » : العملُ أحسنهُ ما كان مضبوطاً بشروطِ الإخلاص .

ويقال « مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » بأن غلبَ عن رؤيةِ إحسانه .

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَعْدَهُ عَنْ كُلِّ حِطٍّ وَنَصِيبٍ .

ويقال الإحسانُ في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فضله ، فإذا أخلصتَ في تَوْسِلكَ
 إليه بفضله ، وتَوَصَّلْتَ إلى ما مَوَّلَكَ مِنْ طَوْلِهِ يَتَبَرَّكَ عَنْ حَوَائِكَ وَقَوَّاتِكَ استوجبت
 حُسْنَ إِقباله ، وجَزِيلَ نواله .

قوله « أولئك لم جنات عَدْنٍ يَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أولئك هم أصحابُ الجنان ،
 في رَغَدٍ العيش وسعادتنا جِلْدٌ ^(٣) وَكَلالٌ رَفْدٌ ^(٤) ، يلبسون حُلُلَ الوُصَّةِ ، وَيَتَوَجَّحُونَ بِفَاجِ القُرْبَى ،

(١) وردت (حليلاً) بالين .

(٢) وردت (سبده)

(٤) للرد = اللطاء والملة .

(٣) الجلد = الحظ .

وَيَحْتَسِنُونَ عَلَى اللَّيَاسِطِ ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ ، وَيَسُونُ رِيَاحِينَ الْأَنْسِ ، وَيَقِيمُونَ
 فِي جِوَالِ الزُّلْفَةِ ، وَيُسْقُونَ شَرَابَ الْمَهَبَةِ ، وَيَأْخُذُونَ بِيَدِ الزَّلْفَةِ مَا يَتَحَنَّنُ الْحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِ
 وَاسْطَةٍ ، وَيَسْتَقِيمُ شَرَابًا طَهُورًا يُطَهِّرُ قُلُوبَهُمْ عَنْ عَجَبَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ .
 « نِعَمُ الثَّوَابِ وَحَسَنَتُ مَرْتَقَا » : نِعَمُ الثَّوَابِ ثَوَابُهُمْ ، وَنِعَمُ الرَّبِّ رِيبُهُمْ ، وَنِعَمُ الْبَارِ
 دَارُهُمْ ، وَنِعَمُ الْجَارِ جَارُهُمْ ، وَنِعَمُ الْحَالِ حَالُهُمْ .

قوله جل ذكره : **وَاضْرِبْ لَمْ مَثَلًا** رجلين جَعَلْنَا

لِلْأَحْيَاءِ جَفْنَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ

وَحَفْنَاهُمَا يَنْبَلُ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا

زُرْعًا • كَلَّمَا الْجَفْنَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا

وَلَمْ تَقْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا

ثَجْرًا • وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ

وَهُوَ يَحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا

وَأَحَرُّ نَفْرًا • وَدَخَلَ جَفْنَهُ وَهُوَ

ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ

هَذِهِ أَبَدًا • وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

وَلَئِنْ دُعِيتُ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا

مِنْهَا مُنْقَلِبًا • قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ

يَحَاوِرُهُ أَكْفَرْتَ بِاللَّهِ خَلَقَكَ مِنْ

تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ مَوَاطِئَ رَجُلًا

• لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ

بِرَبِّي أَحَدًا • وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ

جَفْنَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ

إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ زَرَدْنَا أَنَا أَوْ قَلٌّ مِنْكَ مَالًا

وَوَلَّيْنَا • فَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا

من جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
 مِنَ السَّمَاءِ فُتُيْحًا صَعِيدًا زَلَقًا *
 أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَافِقًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ
 لَهُ مَلَأًا *

أخبر أنه خلقَ وجلينِ جبلَهما جنتينِ على الوصف الذي ذكره ، فشكلَ أحدهما
 مخالفةً وكفرَ الآخرَ برازقه ، فأصبحَ الكافرُ وجنته أصابها جامحةٌ ، وندم على ما صنعه
 من الشر ، وتوجه عليه اليوم .

وفي الإشارة بخلق عبدين يُطِيبُ لهما الوقت ، ويُهْدِي لهما بساطَ العطف ، ويمكن لهما من
 البسط . . فيستقيم أحدهما في الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحسن المنازلة وصديق
 المعاملة ، فضيز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالمها بحسن الاستقامة ، ثم ينتهق
 بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يُتَخَطَفُ منها بما يُكَلِّفُ به من حقائق التوحيد ، ويصبح
 مُنْتَفِيً عن جملة باستهلاكه في وجود ما يأن له من الحقائق .

والثاني لا يُقْدِرُ قَدْرَ ما أهل له من حسن البداية فيرجعُ إلى ما لوطنه ، فينكسُ أمره ،
 بانعطاله إلى ذمم مادته ، فيردُّ من سلوكِ الطريقةِ ويردِّي^(١) في ظلمةِ الغفلة ؛ فيصيرُ وقتَه
 ليلاً مظلماً ، وينطوحُ في أوديةِ التفرقة ، ويوسمُ العرَّةَ ، ويسقي شرابَ الإهانة ، وينخرطُ
 في سلكِ الهجر . . وذلك جزاء من لم يردِّمَ الحقُّ لوصلة أهلاً ، ولم يجعل لولائهم في التحقيق
 والقبول أصلاً :

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا يَا حَسْرَةَ لَيْلِنِ ابْنِي عَوْضًا لِسُلَى فَلَمْ يَجِدِ
 قَوْلَهُ جَلْ ذَكَرَهُ : وَأَحِيطَ بِسَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلَّبُ
 كَفْقِهِ عَلَى مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهُوَ خَاوِيَةٌ
 عَلَى عُرْوَتِهَا يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ
 بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ رَفِيقَةٌ

(١) وردت (ويردِّي) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح من السياق .

يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُتَقَدِّراً ﴿١﴾

إذا ظهر خسائراً من أثر حظه على حق الله، قرع باب تدماته، ثم لا ينفعه .
ولو قرع باب كبريه في الدنيا — حين وقعت له الفتنة — لأشكاه^(١) عند ضرورته ،
أنجاه من ووطته . . ولكنه رُبط بالخذلان ، ولُبسَ عليه الأمرُ بحكم الاستخراج .
قوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه » : من أشتهر أمره بسخط السلطان عليه لم ينظر
إليه أحد من الجنود والرعية ، كذلك من وسمه الحق بكى البجر لم يرث له ملك ولا نبي ،
ولم يحميه صديق ولا ولي .

قوله جل ذكره : ﴿ هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .

هو الحق للتفرّد بنسب ملكوته ، لا يشرك في جلال سلطانه من الخدنان أحداً ،
وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيما هناك لخدنان
ولا خطر ، كلاً . . بل هو الله الخلاق الواحد القهار .

هناك الولاية لله أي القدرة — والواو هنا بالكسر ،

وهناك الولاية لله أي النصرة — والواو هنا بالفتح^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرب لهم مثلاً الحيات الدنيا
كلها أنزلناه من السماء فاختلط به
نبت الأرض فصاح حياً تذروه
الرياح ، وكان الله على كل شيء
مُقْتَدِراً ﴾ .

(١) أشكاه : أزال سبب شكواه ، وأهانته .

(٢) الولاية (بالكسر) بمعنى القدرة أي : السلطان والملك كله ، يقول الله كل مضطرب فيكون
قوله : « لم أشرك بين أحدا » كلمة الجيء إليها فقالها جزءاً من شؤون كفره — ولولا ذلك لم يلقها .
أو على الولاية (بالفتح) بمعنى النصرة تعريفاً لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دونه الله »

من وَطَنَ النَّفْسَ عَلَى الدُّنْيَا وَيَجْتَنِبُهَا فَرْتُهُ بِأَمَانِيهَا ، وَخَدَعْتَهُ بِالْأَطْلَاحِ فِيهَا . ثُمَّ إِنَّمَا تَخْفَى الصَّابِ فِي شَرَابِهَا ، وَالْحَنْظَلُ فِي عَسَلِهَا ، وَالسَّرَابُ فِي مَآرِبِهَا ، تَعْدُو وَلَا تَقِي بِعِدَائِهَا ، وَتَوَفِّي آفَاتُهَا عَلَى خِيَرَاتِهَا . . . نَعْمُهَا مَشْوِيَةٌ يَنْقِيهَا ، وَيُوسِّسُهَا مَصْحُوبٌ بِمَأْتُوسِهَا ، وَيَلَاذِمُهَا فِي ضَمَنِ عَطَائِهَا . الْمُرُورُ مَنْ أَفْتَرَّ بِهَا ، وَالْمُسْتَبْرَأُ مَنْ انْقَضَعَ فِيهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

مَنْ اعْتَصَدَ بِمَتَانِهِ ، وَافْتَرَّ بِأَوْلَادِهِ ، وَكَيْسَى مَوْلَاهُ فِي أَوَانِ غَفْلَاتِهِ . . . تَحِيرَ فِي حَالِهِ ، وَتَدِيمَ عَلَى مَا فَاتَهُ فِي مَا كَانَهُ .

وَيَقَالُ زِينَةُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ ، وَزِينَةُ أَهْلِ الْوَصْلَةِ بِالْأَحْمَالِ وَالْيَقِينِ . . . فَيُؤَلِّدُ زِينَتَهُمْ لظَوَاهِرِهِمْ . . . وَهَؤُلَاءِ زِينَتُهُمْ لِبُيُودِيهِ ، وَافْتِخَارُهُمْ بِمَعْرِفَةِ رُبُوبِيَّتِهِ .

وَيَقَالُ مَا كَانَ لِلنَّفْسِ فِيهِ جُذْءٌ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْجِلْدُ وَقَبُولُ اللَّحْسِ ، وَكَذَلِكَ تَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْمَعْرُودَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَقِتَالِهَا .

وَيَقَالُ مَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ شِرْبٌ وَنَعِيبٌ فَهُوَ مَعْلُولٌ : إِنْ شَتَّتَ فِي حُلْجِهِ وَإِنْ شَتَّتَ فِي آجَلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكُمْ ﴾
فَوَابِئًا وَخَيْرٌ أَمَلًا .

وَمِنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَوَاعَدُ الْإِخْلَاصَ وَالصَّدْقَ .

وَيَقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا كَانَ خَالِصًا فَهُوَ تَمَالَى خَيْرٌ مِنْ شُوبٍ بِطَعْمِهِ ، وَلَا مَصْحُوبٍ بِتَرْتِيضِي .

وَيَقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا يَلُوحُ فِي السَّرَائِرِ مِنْ تَحْلِيلَةِ الْعَبْدِ بِالتَّوَتُّ ، وَيَفْزُوحُ تَشْرُهُ فِي سَمَاءِ اللَّسْكَوتِ .

وَيَقَالُ هِيَ الَّتِي سَقَتْ مِنَ النَّعِيبِ لَمْ بِالْقَرْبَةِ وَشَرِيفِ الزَّلْفَةِ .

ويقال هي ضياء شمس التوحيد المستكن (في السرائر مما لا يتعرض لكسوف المحبة) (١)

قوله جل ذكره : **وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا قَوْمَ قَوْمٍ نُنَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا** ﴿٢﴾

كما نُسِرُّ جبال الأرض (٢) يوم القيامة فإنها تُفْتَلَحُ بموت الأبدال الذين يديم بهم الحق — اليوم — إمساك الأرض ، فهؤلاء السادة — في الحقيقة — أوتاد العالم .
قوله : **د قلم** فنادر منهم أحداً : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسقى كأس المنية ، ولا ينادر الحق أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه . وإن شَرَّتهم في الدرجات في توكيفهم عن مساكنة الدنيا .

قوله جل ذكره : **وَنُحَرِّضُوا عَلَى رِيكٍ صَفَا** ﴿٣﴾
يقم كُلُّ واحدٍ يومَ العرض في شاهد مخصوص ، ويُلبسُ كُلُّ ما يؤهلُه ، فَمِنْ لباسٍ قوى ، ومن قيمي هوى ، ومن صدارٍ وُجْدٍ ، ومن صُدُورٍ محبة ، ومن رداء شوق ، ومن حُلَّةٍ وُصْلَةٍ .

ويقال يجرِّدُهم من كل صفة إلا ما عليه نظرم يوم القيامة . وينادي المنادي على أجسادهم : هذا الذي أتى وَوَجَدَ ، وهذا الذي أتى وَجَدَ . وهذا الذي خالفت فَأَصْرًا ، وهذا الذي أنعمنا عليه فَشَكَرَ ، وهذا الذي أَحْسَنَّا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذي أسقينا شرابنا ، ووزقناه محابنا ، وشوقناه إلى لقائنا ، ولَقِينَاهُ خصاصَ رِجَالِنَا (٣) .

وهذا الذي وَجَدناه بِحُجَّتِنَا ، وحرمانه وَجُوهَ قُرْبِنَا . وألبسناه فطلق فراقنا ، ومنعناه توفيق وفاقنا ، وهذا ، وهذا . . .

(١) تشبة في أسفل الصفحة موضحة في اللقطة بالعلامة X .

(٢) نلاحظ كثيراً أن القسري يتحدث عن الأوتاد والأبدال والقطب كما ورد في القرآن ذكر لجبال ، فكأن الله يحكم بها الأرض ويثبتها كذلك يوم هؤلاء يحفظ الحق ، ويكرامهم بدمع البلاد منهم .
(٣) الرعاء : الرماة والمحافظة .

واخرجني من وقوف وسط دارهم^(١) وقال لي مُنْضَبًا : مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلُ ؟
 قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَحْمَلَ لَكُمْ
 مَوْعِدًا﴾

جئتمونا بلا شفيع ولا ناصر، ولا معين ولا مظهر .
 قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم... كيف أنتم ؟ وكيف وَجَدْتُمْ مَقِيلَكُمْ ؟ وكَمِ إِلَى
 لِقَائِنَا أَشْتَمْتُمْ ؟

وقوم يُقال لهم : ما صُنْعُكُمْ ، وما صَيْغُكُمْ ؟ ما قَدَمْتُمْ ، وما أَخَرْتُمْ ؟ ما أَعْلَنْتُمْ ، وما أَسْرَرْتُمْ ؟
 قُلْ لِي بِالسَّنَةِ النَّفْسِ^(٢) كيف أَنْتَ وكيف حَلَاكَ ؟

ويقال يجبب بعضهم عند السؤال فيُفْصَحون عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ما لهم به من
 أحوال مع محبوبهم . وآخرون تملِكهم الحيرة وتُكَيِّمهم الغبشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق
 عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قالت سَكِينَةُ مَنْ هَذَا فَقُلْتُ لَهَا : أأنا الذي أَنْتَ مِنْ أَعْدَائِهِ زَهْوُوا
 قوله جل ذكره : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَرَى الْمَجْرِمِينَ
 مُشْفِقِينَ﴾

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المحفوظ ، لا ما في الكتاب الذي
 هو كتاب أحلام لِسَخَةِ ما في اللوح المحفوظ .

ويقال إنَّ عَامِلَ عِبَادًا بما في الكتاب الذي أثبتَه الْمَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده ياملهم
 بما في كتاب الْمَلَكِ — سبحانه ، وفرقٌ بين من يُعَامِلُ بما في كتاب الحق من الرحمة^(٣)
 والشفقة وبين مَنْ بِحَاصِبِهِ بما كُتِبَ عليه الْمَلَكُ من الزَلَّةِ^(٤)

(١) النفس : الاستراحة من السكد والتعب

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى « كتب على نفسه الرحمة » (آية ١٢ سورة الأنعام) وإلى قوله تعالى :

« قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » (آية ٥٤ سورة الأنعام) .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « إلى ورسلا إليهم يكتبون » (آية ٨٠ سورة الزخرف) .

ويقال إذا حاسبهم في القيامة ينصور لم كأنهم في الحال ما هرقوا الزقة ، وإن كانت
مباشرة الزقة قد مَضَتْ عليها سنون كثيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَنَا مِنَ الْكَتَابِ
لَا يُنَادِرُ صَوْفَةً وَلَا كِبَرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
وَوَجَدُوا مَا حُمِلُوا حَافِرًا وَلَا يَحْطَمُ
رُبُّكَ أَحَدًا ﴾

يملك الحزن قلبه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئة فهو في موضع العجب لتقصيره . وإن رأى
حسنة فهو في موضع العجب أيضاً لِقَلَّةِ توقيره ؛ فَحَبْلُهُ أَهْلُ الصَّدَقِ عند شهود حسناتهم توفى
وتزيد على خجلة أهل النعمة إذا همروا على رزقهم .

ويقال أصحابُ الطاعة إذا وجدوا ما قدّموا من العبادات فكلم السرور والبهجة وحياة
القلب والراحة ، وأما أصحاب الخالفات فإِنما يجدون فيها قدّموا بجوارزة الحدِّ وتقصّ الصَّهْدِ ،
وما في هذا الباب من الزَّنة وسوء القصد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

أظهر للملائكة شَيْطَانِيَّةَ مَا استخلص به آدم فسجدوا بتيسير من الله — سبحانه ،
وَسَكَّرَ بَصَرَ الْعَيْنِ فما شهد منه غير الْعَيْنِ^(١) فسق عن أمره ، ولا صدق في قوله :
« أنا خير منه » لما فسق عن الأمر ، ولكن أدركته الشقاوة الأصبغة فلم تنفضه
الوسيلة بالحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَتَتَخَفُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ

(١) أى نظر إبليس إلى الجسد المسمى لآدم فقال : خلقت من نار وغلغلت من عين ، ولم ينظر
إلى الجوهر ، والسبب في ذلك لي رأى القشيري أن الله أخلق عليه .

قَوْنِي وَمَ لَكُمْ عَذُوٌّ وَإِنِّي لَظَالِمٌ
بِدَلَالٍ

في الآية إشارة إلى أَنَّ مَنْ يَفْرُدُهُ بِالْوَلَايَةِ فَلَا يَتَقَنَّى عَقْدَهُ وَلَا يَخَافُ غَيْرَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ
الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾

أَكْتَفَى لِلنَّجْمِيِّينَ وَالْأَطْبَاءِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْهِئَاتِ وَالطَّبَائِعِ يَقُولُهُ : « مَا أَشْهَدُهُمْ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ » : وَيَبَيِّنُ أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ إِيضَابِ الطَّبَائِعِ لِهَذِهِ
الْكَلِمَاتِ لَا أَصْلَ لَهُ فِي التَّحْقِيقِ .

« وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ لِلْمُضِلِّينَ عَصَدًا » : أَيُّ لَمْ أَجْعَلِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاسَ مِنْ دِينِهِمْ
رُشْدَهُمْ فِي الْقَوْلِ بِالطَّبَائِعِ حُجَّةً ، وَلَمْ أَهْطِهِمْ لِتَصْحِيحِ مَا يَقُولُونَهُ بِرَهَاتَا .

وَيَقَالُ إِذَا تَقَاعَسَتْ عُلُومُ الْخَلْقِ مِنَ الْعِلْمِ بِأَنْفُسِهِمْ فَكَيْفَ تَحِيطُ عُلُومُهُمْ بِحَقَائِقِ الصُّدْبَةِ ،
وَاسْتِحْقَاقِهِ لِنَعْوِهِ إِلَّا بِتَقْدَارِ مَا يَنْصَحُهُمْ بِهِ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِرَبِّهِ كُلِّ أَحَدٍ
بِمَا جَعَلَهُ لَهُ أَحَلًّا ؟

وَيَقَالُ أُخْبِرْ أَنَّ عُلُومَهُمْ تَتَقَاعَسُ مِنَ الْإِحْاطَةِ بِمَجْمِيعِ أَوْصَافِهِمْ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَمِنْ كُلِّ
مَا فِي الْكَوْنِ ، وَلَا سَبِيلَ لَمْ إِلَى ذَلِكَ ؛ وَلا حَاجَةَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى مَا قَصَّرَتْ عُلُومُهُمْ عَنْهُ ،
إِذَا لَا يَتَلَقَّى ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ الْبَيْنِيَّةِ . فَالْإِشَارَةُ فِي هَذَا أَنَّ يَصْرِفُوا عَنَّا يَتِيمَهُمْ إِلَى طَلَبِ
الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ وَبِأَحْكَامِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَمْ — بِحَكْمِ الْإِبْدَاءِ — مِنَ التَّحْقِيقِ بِهَا ؛ إِذَا الْوَاجِبُ
عَلَى الْعَابِدِ مَعْرِفَةُ مَعْبُودِهِ بِمَا يَزِيلُ التَّرَدُّدَ عَنْ قَلْبِهِ فِي تَفَاصِيلِ مَسَائِلِ الصِّغَاتِ وَالْأَحْكَامِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ

(١) في هذا أبلغ رد على من يتهنون الصوفية بمجاناتهم للعلوم ، وكيف يجافونها وطلب العلم فريضة
على كل مسلم وصلة ؟

زَعَمْتُمْ قَدَّحْتُمْ ظِلْمَ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجِئْنَا بِهِمْ مَوْثِقًا ﴿١٧﴾

علم الحق - سبحانه - أَنَّ الأصنامَ لا تَنفَعُ ولا تَنْفَعُ ولا تَنْفَعُ ، ولكن يَرْتَفِعُ
في العاقبة بما يُصْبِرُ مَلَأَتْهُمْ شُرُورُهُ (١) حَتَّى لَا يَهْمُوا الْقَوْمَ ؛ حيثَ تَوَهَّوْا أَنَّ عِبَادَتَهُمْ
لِلْأَصْنَامِ فِيهَا نَوْعٌ تَقَرُّبٌ إِلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ لَهُ كَمَا ظَنُّوا : « مَا نَسْبُدُ إِلَّا لِغَيْرِ بَرٍّ إِلَى
اللَّهِ زُلْفَى » (٢) .

فَإِذَا تَحَقَّقُوا بِذَلِكَ صِدْقًا فِي النَّاسِ ، وَكَانَ اسْتِغْلَالُ الْهَسَرَةِ عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ مِنْ أَشَدِّ
الْعُقُوبَاتِ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَأَى الْمُهْرَمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مَوَاقِفُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهَا مَصْرُفًا ﴾

إِذَا صَارَتِ الْأَوْهَامُ مُنْقَطِعَةً ، وَالْمَلُوفُ شُرُورِيَّةً ، وَالنَّارُ مَعَانِيَّةً اسْتَبَقُوا أَنَّهُمْ وَأَقْوَمُوا
فِي النَّارِ ، فَلَا يَسْتَعِزُّ لَمْ عَدُوٌّ ، وَلَا تَنْفَعُ لَمْ حِيلَةٌ ، وَلَا تَقِيلُ فِيهِمْ شَفَاعَةٌ ، وَلَا يَخُذُ مِنْهُمْ
فِدَاءٌ وَلَا عَدْلٌ . . . قَدْ اسْتَكْنَتِ الْخَلِيقَةُ ، وَقَلَّبَ الْيَأْسُ ، وَحَصَلَ الْقَنُوطُ ، وَهَذَا
هُوَ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ
مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ
جَدَلًا ﴾

أَوْضَحَ لِلْكَافَةِ الْحَقِيقَ ، وَلَكِنْ لَبَسَ عَلَى قَوْمٍ التَّهَجُّعَ فَوَقَفُوا فِي الْعُرْجِ .
« وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » الْجَدَلُ فِي اللَّهِ مَحْمُودٌ مَعَ أَعْدَائِهِ ، وَالْجِدْلُ مَعَ اللَّهِ
شِرْكُهُ لِأَنَّهُ صَرَفَ إِلَى غَفَالَةٍ تُورِثُ أَنْ أَحَدًا يَسَارِضَ التَّقْدِيرَ ، وَتَجْوِيزُ ذَلِكَ اسْتِغْلَالُ

(١) الْمَلُوفُ إِذَا شُرُورِيَّةٌ أَوْ كَسِيَّةٌ ، وَالضَّرُورِيَّةُ مِنَ الْحَقِّ ، وَالْكَسِيَّةُ مِنَ الْحَقِّ .

(٢) آيَةُ ٣ سُورَةُ الزُّمَرِ .

عن الدين . ومن أمارات السعادة للمؤمن قَسَحُ بابِ العملِ عليه ، وإغلاقُ بابِ الجدلِ دونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَتَّعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ

الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ

تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ

الْعَذَابُ قُبُلًا ۝﴾

لا تُعَذِّبُهُمْ إِلَّا جَاءُوا إِلَى مَا تَعَاطَوْهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَتَرَكُوا لِلْبَاطِلِ إِلَى الْأُمُورِ ، وَلَا تَوْفِيقَ
بِإِسْأَدِهِمْ فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ حَوَارِ الْقَضَى إِلَى عَزَمِ الْقَتْلِ ، قَهْمٌ — وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بِنِعْمَتِ الْإِسْطَاعَةِ
عَلَى مَا لِيَسُوا يَضْلُوهُ — لِيَسُوا عَاجِزِينَ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَلَكِنْهُمْ يَحِثُّ لَوْ أَنَّ الْعَبْدَ يَحِثُّ أَنْ يُؤْمَرَ بِه
كَتَابِي مِنْهُ ذَلِكَ ، وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ؛ فَفِي الْحَالِ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى مَا لَيْسَ بِضِلَّةٍ وَلَا هُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ ،
وَهَذَا يَسْبِيهِ الْقَوْمُ حَالِ التَّخْلِيَةِ وَهِيَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ التَّمَرَّةِ وَالْمَجِزِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا الرُّسُلَ إِلَّا مِثْرِينَ

وَمُنْذِرِينَ وَيُبَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا

آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا ۝﴾

أَرْسَلَ الرُّسُلَ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — تَتَرَى ، وَأَيَّدَهُم بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ، وَأَمَرَهُم بِالْإِتِّدَادِ
وَالْتَّخَرُّفِ ، وَالتَّشَرُّفِ فِي عَيْنِ التَّكْلِيفِ ، وَتَضَمُّنِ ذَلِكَ بِالتَّحْقِيقِ ، وَلَكِنْ سَعِدَ قَوْمٌ
بِاتِّبَاعِهِمْ ، وَشَقِيَ آخَرُونَ بِخِلَافِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ

فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَيَّاَ بِأَقْدَمَتْ

يَدَاهُ إِنَّا جِئْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آخَانِهِمْ وَقُرْأَ

وَلِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ

يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدَا ۝﴾

لا أحد أعظم من ذكر ووضعه بالروح له من الآيت ، وبما شاعده وعرفه من أمر
 أصلاح أو شغل كفى أو دعاه أجيب له ، أو سوء أدب حصل منه ، فادب بما يكون قلبها
 له ، أو حصلت منه طاعة وكوفه في الحاجل إما بمعنى وجده في قلبه من بسط أو حلاوة
 أو أنس ، وإما بكفاية شغل أو إصلاح أمر . ثم إذا استقبله أمر ليس ما عول به ، أو أعرض
 عن تذكره ، وليس ما قدمت يده من خيره وشره ، فوجد في الوقت موجه . .
 ومن كانت هذه صفته جل على قلبه سراً وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركات ما ويحبه .
 ويقال من أعظم من يستقبله أمر مجازاة لما أسلفه من تركه أرى فيستهم ربه ، ويشكو
 بما يلاقيه ، وينسى حرمة الذي بسبه أصابه ما أصابه ؟ وكما قيل :

وهاجزُ الرأي مضياعُ لفرسته حتى إذا طأت أمرُ عاتب القدرَا

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ
 بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلُ لِمَ الْعَذَابُ ،
 بل لم يؤخذوا من دونه
 مؤثلاً ﴾

« غفور » : لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجبت المغفرة لهم .

ويقال « الغفور » : العاصين من عباده ، و « ذو الرحمة » بجميعهم فيصالح أحوال كآفاتهم .
 « لو يؤخذهم بما كسبوا » : لعجل لهم العذاب ، أي غاملكم بما استوجبوه من مصيبتهم ،
 فسيجل لهم العقوبة ، لكنه يؤخرها ليقضى حكمته ، ثم في العاقبة يفعل ما يفعل على قضية
 إرادته وحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
 وَجَعَلْنَا لِقَوْمِهِمْ يُؤْخَذُ ﴾

لما لم يشكروا النعم ولم يصبروا في الهن فحملنا لهم العقوبة .

ويقال لما ظلموا عن شهود التقدير ، وحرروا روع الرضا وكنناهم إلى ظلمات تدبرهم ،
 فطاحروا في أودية غفلاهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ
 حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
 حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا
 نَسُوا حَظِيْرَهُمَا فَاتَّخَذَ سَيْدُهُ فِي الْبَحْرِ
 سَرَبًا﴾

لما فُتِحَتْ صُحْبَةُ يُوْشَعَ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ اسْتَمَعَ اسْمَ الْفِتْوَى ، وَقَالَ قَالَ :
 « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » وَهُوَ اسْمُ كَرَامَةٍ لَا اسْمَ عَلَامَةٍ .

جعل دخول السلك للاداء علامة لوجود انقضاء هناك (١) ، ثم أدخل النسيان عليهما
 ليكون أبلغ في الآية ، وأجده من اختيار البشّر .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا تَجَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا
 لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾
 كان موسى في هذا السَّفَرِ مُتَحَمِّلًا ، قد كان سَفَرُ تَأْدِيبٍ واحْتِمَالٍ مُشَقَّةٍ ، لَأنَّهُ
 ذهب لاستكثار العلم . وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تحصيلِ المُشَقَّةِ ، ولهذا لَحِقَهُ
 الجوعُ ، فقال : « لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » .

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلحقه الجوعُ
 ولا اللشقةُ ، لأن ذِهابَهُ في هذا السفر كان إلى الله ، فكان محمولًا .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ
 فَإِنِّي لَسَيِّئُ الْحَوْتَ وَمَا إِسْنَانِيهِ
 إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ
 سَيْدُهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ

(١) كان الحوت سمكة مملوكة ، فتزلا ليله على شاطئه عين الحياة ونام موسى ، فلما أساب السكة الماء
 عاشت ووقعت في الماء (اللسان) .

ما كنّا ننبّر هرتداً على آثلوها
قصصاً^(١)

قال عليها السفر لانهما احتلجا إلى الانصراف إلى مكاتهما ، ثم قال يوشع :
« وما أسانيه إلا الشيطان أن أذكره » : الله — سبحانه — أدمك عليه النسيان ليكون
الصبيد من تكلفه ، ثم قال : « ذلك ما كنّا نبغ » : يس دخول السك للء وكان
مشوياً ، فصار ذلك معجزة له ، فلما انتهيا إلى اللّوَض لقي دخول السك فيه للءاء
لقياً انطصر .

قوله جل ذكره : ﴿ فوجئنا عبداً رّيناً عبادنا آتيناها
رحمة رّيناً عندنا ، وعفناً رّيناً
لّنا علماً ﴾

إذا سمعى الله إنساناً بأنه عبده جمعه من جملة الخواص ؛ فإذا قال : « عبدي »
جه من خاص الخواص .

« آتيناها رحمة من عندنا » : أى صار مرحوماً من قِبَلنا بِنِكَ الرحمة التى خصصناه بها من
عندنا ، فيكون النضر بِنِكَ الرحمة مرحوماً ، ويكون بهاراحاً على عبادنا .

« وعفناه من لّنا علماً » : قيل العلم من لّنا الله^(٢) ما يتحصل بطريق الإلهام دون
التكلف بالتعلُّب .

ويقال ما يُعرف به الحق — سبحانه — الخواص من عبادہ .

ويقال ما يُعرف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عبادہ .

(١) قال الزجاج : القصص اتباع الآخر ، قصص قصصاً : اتبع الآخر .

(٢) يحظ الصوفية من قصة الحضر وموسى مصداقاً ثورياً لاستمداد كثير من أمولهم فيما يتصل بالعلم
القدن وعلم الوراثة ، والولاية والتبوء ، والملاقة بين المريد والشيخ ، وفكرة الظاهر والباطن ، وللأمة
على ظاهر مستفتح باملته سليم ... ونحو ذلك .
وقد نجد خلال إشارات القشيري شيئاً من ذلك .

وقيل هو ما لا يهود منه قَنَعُ إلى صاحبه ، بل يكون نَفْعُهُ لعباده مِمَّا فيه حقُّ الله - سبحانه .

وقال هو ما لا يجدُ صاحبه سبيلاً إلى جحده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ، فهو سألته من برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى الطوم أبعدهما من الدليل (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُغَلِّبَ عَلَيَّ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

تَلَفَّتْ في الخطاب حيث سَلَّتْ طريق الاستئذان ، ثم صَرَحَ بمقصوده من الصبغة بقوله : « هل أن تعلمي مما علنت رُشداً » .

ويقال إن الذي خُصُّ به الخضرُ من العلم لم يكن تعلّمه من أستاذ ولا من شخص ، فلم يكن يتعلم أحد إياه .. متى كان يعلمه غيره ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ بَعِيَّ صَبْرًا ﴾ وكيف تصبرُ على مالم تُحِطْ به خُبْرًا ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾

سؤال بذلك الصلف وجوابٌ بهذا الصلف !

ثم تدارك قلبه بقوله : « وكيف تصبر على مالم تحيط به خُبْرًا ؟ » ، فأجابه موسى : « قال سَتَجِدُنِي ... » وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يصيبه فيها أمر به ، فأما الصبر ففكرته بالاستنشاء بمشيئة الله فقال : « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا » فصبر حق وَجِدَ صَابِرًا ، فلم يقبض على يدي الخضر فيا كلن منه من الفضل ، والثاني قوله : « لا أَعْصِي

(١) وسر قوة العلم الذي يجد من الدليل أنه من الحق ، ويقدر ما تختص الجوانب الإنسانية في العلم ونهز للكن الإلهية فيه تكون نضاعة برهانه وقوة بيانه .

لَكَ أَمْرًا : أطلقه ولم يُقرِّه بالاستنشاء ، فما استنشأ لأجله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخلف^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

فإنه ليس للمريد أن يقول : « لا » لشيءه ، ولا التلميذ لاستناده ، ولا العاصي للعالم للفق فيأ يفتي ويحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنِ الْبَعْثُ فَإِذَا رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ خَرَقُهَا ظَالَ أَخْرَقَهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾

لمساركبوا النُّفُكَ خرقها وكان ذلك إيقاعه على صاحبها لئلا يرغب في السفينة المفروقة اليك الطامع في السفن .

وقوله : « لتفرق أهلها » أى لتؤدى عاقبة هذا الأمر إلى غرق أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قصد إغراق أهل السفينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ صَبْرًا ﴾

أى أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإننا ننجربه من حيث الحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا تَأْتُونِي بِهَا نِسْبَتِي وَأَنَا تَرْهَقَنِي مِنْ أَمْرِ عَصْرًا ﴾

طالبه عا هو شرط العلم حيث قال : « لا تأتواخذنى بما نسبى » ؛ لأن النسب لا يدخل تحت التكليف ، وأيد ذلك بما قرئ به قوله : « ولا ترهقنى من أمرى عصرًا » فالتمسك من حقه

(٢) الخلف = الإخلاف ، فقد خالف موسى الأمر حين كان يلى ويقادى عيب كل حادثة في القصة ، وكان المحفر في كل مرة يقول : « ألم أقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » .

التكليف ، ومن لا يصح منه الفعل والترك لا يتوجه . (١) والناسي (٢) من جهتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْلُقْهُ إِذَا لَبِثَ غُلَامًا فَفَتَنَّهُ ،

قَالَ أَتَأْتِكُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ

نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝

كان يَحْتَلُّ العِلْمَ واجباً على موسى — عليه السلام — قَصْرُهُ حيث يرى في الظاهر غُلَامًا ،

ولكن فيما عرف من حاله انطهر من حقه التوقف ربما يعلم أنه أَلَمٌ بمحظور أو مُبَاح ،

ففي ذلك الوقت كان قلب السادة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صِرَافًا ۝

كرر قوله : « إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ . . . » لأنه واقف بشرط العلم ، وأما في عمل الكشف

فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال :

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا

فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي

عَذْرًا ۝

بلغ عصيانه ثلاثاً ، والثلاثة آخِرُ حَدِّ الْقِلَّةِ وَأَوَّلُ حَدِّ الْكَثْرَةِ ، فلم يجِدْ السُّأْلهُ

بعد ذلك (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْلُقْهُ حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ

اسْتَعْطَا أَهْلُهَا فَأَيَّوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا

فوجدوا فيها حِجَارًا يريد أن يَنْقُصَ

فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ

أَجْرًا ۝

(١) يباح في السجدة ، وترجع أن المقصود (عليه نوم) أو مواظبة .

(٢) وردت (والناسي) والسياتي يتطلب (والناسي) بإلفاء إذ جاء في الآية (. . . بما نسي) .

(٣) قد تكشف هذه العبارة عن تصور التفريق لأنفسى دخلت القنب العاقل فتوبة .

كان واجبا في ملتزم على أهل القرية إطعامها ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من التمسك عليهم ؛ بل كان أغفَى على ذلك منهم لئلا يكون أجبر .

فلما أطمع الغضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُتتَ بمخطوءه ، ولكنه قال له : « لو شئت لثخنت عليه أجراً » أى إن لم تأخذ بيدك قد أغضت بيننا لكان أخذك خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وجبَ حقهم فلم أخُذتَ بحقنا ؟

ويقال إن سفره ذلك كان سفر تاديب قرود إلى تحصيل المشقة ، وإلا فهو حين سقى لبنات شعيب فإن ما أصابه من التعب وما كان فيه من الجوع كان أكثر^(١) ، ولكنه كان في ذلك الوقت محولاً وفي هذا الوقت متحلاً . فلما قال موسى هذا قال له الغضر :

﴿ قال هذا فراقُ بيني وبينك
سأَنْبُطَكَ بِتَأْوِيلِهِ ما لم تَسْتَطِيعْ
عليه صَبْرًا ﴾

أى بعد هذا فلا صعبة بيننا .

ويقال قال الغضر إنك نبى . . وإنما أوأخذك بما قُلتَ ، فانت شرطتَ هذا الشرط ؛ وقلتَ : إن سألتُك من شيء بعد ما فلا تصاحبى ؛ وإنما أهلكك بقولك .

ويقال لما لم يصبر موسى معه في تركه السؤال لم يصبر الغضر أيضاً معه في إداعة الصعبة فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأل لأجل الغير — في أمر السفينة التي كانت للمساكين ، وقتل النفس بغير حق — لم يفارقه الغضر ، فلما صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه خطئ نفسه من طلب الطعام ابتلي بالفرقة ، فقال الغضر : « هذا فراق بيني وبينك » .

ويقال كما أن موسى — عليه السلام — كان يصحب صحبة الغضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الغضر كان يجب تركه صحبة موسى عليه السلام لينتازع الخطوة باقعه عن المخوفين .

(١) ومع ذلك لم يطلب أجراً ، ولم يسكن في ذلك البنية . . لأنه كان بحق الله ؛ ولكنه في هذا الوقت كان متكلها ، فهو يسكن بحضرة نفسه ، ولذا فكر في الأجر وطلب الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ
يُسَوِّدُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْسَلْنَا أَنْحَامَنَا
وَكَانَ وِزَارُهُمْ مَعَكَ يَأْخُذُ كُلُّ سَفِينَةٍ
غَصَبًا ۝

لما طرد الغصير موسى عليه السلام لم يُرَدَّ أَنْ يَبْقَى فِي قَلْبِ مُوسَى شَيْبَةٌ اعْتَرَاهُ ؛
فَأَزَالَ عَنْ قَلْبِهِ ذَلِكَ بِمَا أَوْضَحَ لَهُ مِنَ الْحَالِ ؛ وَكَشَفَ لَهُ أَنَّ السَّرَّ فِي قَصْدِهِ مِنْ خَرَقِ السَّفِينَةِ
سَلَامَتُهَا وَيَقَاوُمُهَا لِأَهْلِهَا حَيْثُ لَنْ يَطْمَحَ فِيهَا السَّلَكُ النَّاصِبُ ، فَبَقِيَ السَّفِينَةُ لِأَهْلِهَا — وَهِيَ
مَعِيَّةٌ — كَانَ خَيْرًا لَمْ مِنْ سَلَامَتِهَا وَهِيَ مَنْصُوعَةٌ .

قوله جل ذكره . ﴿ وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُنَادِيًا
لِخِثْيَانًا أَنْ يُهَيِّئَا حُفْيَانًا وَكُفْرًا ۝
فَأَرْسَلْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ
دَكَّةً وَقُرْبَةَ رَحْمَةٍ ۝

بَيَّنَّ لَهُ أَنَّ تَحْتَلَ الْفُلَامُ لِمَا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ مَضَى مِنْ اللَّهِ الْخَلْقُ أَنْ فِي بَقَائِهِ فَتَنَةٌ لَوَاهِدِيهِ ،
وَفِي لِحَالِ الْخَلْقِ عَنْهُ سَعَادَةٌ لَهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ
فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا سَاخِمًا يُؤَادِرُ رَبَّهُمَا أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ وَمَا تَعْلَمُونَ عَنْ أَمْرِهِ ،
ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا ۝

أَمَّا تَسْوِيَةُ الْجِدَارِ فَلَا تَسْتَبْقَاهُ كَنْزُ الْغُلَامَيْنِ وَتَرْكُ طَلَبِ الرِّفْقِ مِنَ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا
تَطَّلَعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ مِنْ
دُونِهَا سِتْرًا﴾ كذلك وقد آتينا
بما لديه خيراً * ثم أتبع سيئاً *

أقوام هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل
مغرب الشمس الغالب عليهم استتارُ شمسهم .. كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد : منهم
الغالب عليهم طلوع شمسهم ، والحضور منهم والشهود وصفهم والتوحيد حقهم ، وآخرون لهم
من شمس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرضي .

قوله جل ذكره : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ
دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَتْقَوْنَ
قَوْلًا﴾ قالوا إذا القومين إن ياجوج
وماجوج مفسدون في الأرض فهل
نعمل لك خراجاً على أن نعمل بيننا
وبينهم سداً * قال ما سكتي فيه
رأيي خير فأعينوني بقوة أجعل
بينكم وبينهم ردماً *

أي ما كانوا يبتعدون إلا إلى لسان أفئسهم ، وما كانوا يثقون فقه غيرهم فلجثوا إلى
غير آتهم في شرح قصتهم ، ورفضوا إليه — في باب ياجوج وماجوج — مظهرهم ،
وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤالهم ، وحقق لهم بُشيتهم ، ولم يأخذ منهم
ما ضمنوا له من الجباية ، لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب السكنة .

قوله جل ذكره : ﴿آتَوْنِي زُجْرَ الْحديدِ حَتَّىٰ إِذَا سَازِئُ
بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْخَضُوا حَتَّىٰ إِذَا

جعله ناراً تَلْ آتَوْنِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ
فَلْأَرَأَيْتُمْ

استعان بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال : « آتَوْنِي زِرَ الحديد » فلما فعلوا ما أمرهم به ، وفضخوا فيه النار جعل الله بين الصديقين أي جاني الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي الْخُرُوجِ ، وتندفعُ عن الناس عادية (....) (١) إلى الوقت للضروب لهم في التقدير .

وبعد ذلك يكون مِنْ شَأْنِهِمْ ما يريد الله . وَيُنْ — سبحانه — أَنْ خُرُوجَهُمْ مِنْ وَرَاءِ سَدِّهِمْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاةٍ مِنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾

فَنظَرُوا بِأَعْيُنِهِمْ لَأَنَّهُمْ فَقَدُوا نَظَرَ الْقَلْبِ مِنْ حَيْثُ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَمْعٌ لِإِجَابَةِ لِمَا قَدَرُوا مِنَ التَّوْفِيقِ ، فَتَوَجَّهَ عَلَيْهِمُ التَّكْلِيفُ وَلَمْ يُسَاعِدْهُمْ التَّعْرِيفُ . قوله : « وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » : لَأَنَّهُمْ فَقَدُوا مِنْ قَبُولِ — سبحانه — الْإِسْمَاعِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا لِمَ الْقَبُولِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَتَحْسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَخَذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءِ إِنَّآ آخِذُونَ بِهِمْ سَمْعًا كَمَا كُنْتُمْ تَزُولُونَ ﴾

أَي تَوَحَّوْا أَنَّهُ يَنْفَعُهُمْ مَا فَعَلُوهُ حَسْبَ قَلْبِهِمْ ، وَاعْتَقَدُوا فِي أَصْنَافِهِمْ اسْتِحْقَاقَ التَّنْظِيمِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » (٢) ، وَهُمْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ يَصْنَعُونَ صِنَاعًا ، وَيَدَّاهُنَّ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسِبُونَ .

(١) مشبهة .

(٢) آية ٣ سورة الزمر .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ

أَعْمَالًا﴾ الذين ضلَّ سَمْعُهُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا ﴿

ضلَّ سَمْعُهُمْ لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا لِلنَّيْرِ الْإِلَهِيِّ . . وما كان للنَّيْرِ إلهٌ فلا ينفع .

ويقال الذين ضلَّ سَمْعُهُمْ هم الذين قَرَنُوا أَعْمَالَهُمْ بِالزَّيَادَةِ ، ووصفوا أحوالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ ، وأبطالوا إحسانَهُمْ بِالْمَلاحِظَةِ أَوْ بِالْمَنْ .

ويقال هم الذين يَلَاحِظُونَ أَعْمَالَهُمْ وما مِنْهُمْ بَيْنَ الْإِسْتِكْثَارِ (١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعُونَ أَنَّهُمْ يُخْسِنُونَ

صُنْعًا﴾

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فَمِلُوا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ ، ولم يَكُونُوا عَلَى وَثِيقَةٍ (٢)

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

وَلِقَائِهِ فَصَبَّطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ

لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَانًا﴾

عَمُوا مِنْ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ فَبَقُوا فِي ظِلْمَةِ الْجَمْعِ ، فَتَفَرَّقَتْ بِهِمُ الْأَوْهَامُ وَالظُّلُومُ ، ولم يَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ ، ولم تستقر قلوبُهُمْ عَلَى حَقِيقَةِ مَقْطُوعِ نَبَاهٍ ، فليس لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَزْنٌ وَلَا حَقَرٌ ، الْيَوْمَ هُمْ كَالْأَنْعَامِ ، وَغَدًا وَاقِفُونَ سَاقِطُونَ (٣) (٤) الْأَقْدَامِ .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا

وَانْخَسَفُوا آيَاتِي وَرَسُولِي هُزُوءًا﴾

(١) ملاحظة الأعمال واستكثارها من أخطار دعاوى النفس . كثيراً ما حذر منها أهل الملامة في نيسابور — موطن القشيري .

(٢) الوثيقة ما يضيئ به الأمر ويخمس .

(٣) مشتبهة ، وقد ضبطنا (الْأَقْدَامِ) بفتح الهاء مراعاة للانجاس مع (الْأَسَامِ) على عادة القشيري في ضبط الموسيقى الداخلية فجعل والفترات ، ومع ذلك فإن صحة ضبطها تتوقف على معرفة الكلمة للشبهة .

هم اليوم في عقوبة الجحد ، وغداً في عقوبة الرد . اليوم هم في ذلّ الفراق ، وغداً في أليم الاحترق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

لم جنات مُنمَّجة سراً ، ولم جنان مؤجلة جبراً .
اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .
اليوم جنان العرقان وغداً جنان الرضوان .

قوله جل ذكره : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

هولنا — سبحانه — أن ما يبتغونه لم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون من أفضالهم ، ولا يفرجون عن أحوالهم ، فهم أبداً في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لم الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِشَاءَ بَيْنِلِهِ مَدَدًا ﴾

أي لا تنفذ ما نفي كلمات الله لأنه لا نهاية لها ؛ فإن متعلقات الصفة القديمة لا نهاية لها ؛ كمعلومات الحق — سبحانه — ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .
والذي هو غلظ ^(٢) لا يستوفي ما هو غير متناه — وإن كثرت ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكَ الْوَاحِدُ ﴾

(١) القشيري من الباحثين الذين يصرحون بالرؤية بالأبصار في الآخرة ، أما في الدنيا فيقول : الأقوى فيه أنه لا يجوز ، الرسالة ص ١٧٥ .
(٢) يقصد (البحر) إذا صار ممدداً ؛ والبحر يتشامى . وكلمات الله لا تنفد .

أَخْبِرْ أَفَلَمْ يَأْتِكُمْ مَسَاسِكِلُ ، وَالتَّرْقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَخَصِصْ اللهُ
— سبحانه — لِيَاكُ بِالرَّسَالَةِ ، وَتَرْكُهُ لِإِمَامٍ فِي الْجِهَالَةِ .

ويقال : قل اختصمى بما لى من (الاصطفاء)^(١) ، وإن كنا — أنا وأنت —
في الصورة أكفاه .

قوله جل ذكره : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِ أَحَدًا﴾

خَلُ الرِّجَالُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى خَوْفِ الْقُوَّةِ وَوَجَاهِ لِلثَّوْبَةِ حَسَنٌ ، وَلَكِنْ تَرَكْنَا هَذَا عَلَى
ظَاهِرِهِ أَوَّلَى ؛ فَالْمُؤْمِنُونَ قَاطِبَةً يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ .

والعارف بالله — سبحانه — يرجو لقاء الله والنظر إليه

والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقاءه هو صَبْرُهُ عَلَى لَوَاعِجِ اشْتِيَاقِهِ ، وَأَنْ يُفْعَلَ
فِي مَعْنَاهِ .

« وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ » : أَيْ لَا يَلَاخِظُ عَمَلَهُ ، وَلَا يَسْتَكْبِرُ طَاعَتَهُ ، وَيَتَبَرَأُ مِنْ
حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد (وجود الصراط ورويته وانتظار وقته)^(٢)

(١) هنا كلمة منبهة في الخط ، فوضنا كلمة (الاصطفاء) من عندنا فهي أقرب للمعنى والبيان .
(٢) ممكن أن يـ و ليس واضحاً عودة النص في (رويته) هل هي على الصراط أم على الحق . فنحن
نظن أن القشيري عايناً من حيث منهجية الفقه ، ونلم كذلك أن الشافعي يقول : لو علم ابن إدريس
أنه لا يرى ربّه يوم القيامة ما شهدّه .

انتهت سورة الكهف بهذا التنزيل في السقطة من .

[ثمّ يعود الله تعالى وحسن توفيقه نصف أول الز تفسير

عقن إمام أبو قاسم القشيري رحة الله عليه بتاريخ ١٧ شهر شوال سنة ١١٣٤ هـ .]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلی الله علی سیدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسلیماً کثیراً

سورة مریم علیها السلام

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ ، اسم عزیز مِّنْ عِبَادِهِ قَامِلٌ جِهَادِهِ ، وَمِنْ طَلَبِهِ وَدَعَّ وَصَادَهُ ، وَمِنْ عَرَفَةِ
أَنْكَرِ أَحِبَّاهُ . وَمِنْ يَسَّرَ لَهُ أَوْقَعَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ .
مِّنْ ذَكَرِهِ لَيْسَ اسْمُهُ ، وَمِنْ شَهِدَهُ فَقَدْ عَقَلَهُ وَلَبَّاهُ (١) .

اسم عزیز جُهِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ ، وَكُلَّ قَلْبٍ لَيْسَ يَوْقَعُهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ ، فَلَيْسَ
بِحِجَلَةٍ يَصِلُ .

اسمٌ مَا انْصَفَتْ أَشْبَاحُ الْأَبْرَارِ إِلَّا بِعِبَادَتِهِ ، وَمَا اعْتَكَفَتْ أَرْوَاحُ الْأَحْرَارِ إِلَّا
بِمُشَاهَدَتِهِ .

اسم عزیز مِّنْ عَرَفَةِ اعْتَرَفَ أَنَّهُ وَرَاءَهُ مَا وَصَفَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ كَتَبَ مِصْرًا ﴾

تعريفٌ لِلْأَحْبَابِ بِأَسْرَارِ مَعَانِي الْخُطَابِ ، حُرُوفٍ نَّحْوِ الْحَقِّ لِلْخَاطِبِ بِهَا
بِفَهْمٍ مَعَانِيهَا ، وَإِنَّمَا كَانَ لِلْأَخْيَارِ مِمَّا عَمَّا وَذِكْرُهَا ، فَكُلُّ سَوَّلٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ —
قَبْلُهَا وَبِهَا .

وَقَالَ أَشَارَ بِالْكَفِّ إِلَى أَنَّهُ الْكَفِّ فِي الْإِنْعَامِ وَالْإِتْقَانِ ، وَالرِّفْعِ وَالْوَضْعِ عَلَى
مَا سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ وَالْحُكْمُ .

(١) المقصود بلفظ العقل واللب هنا هيبة التمييز في حال الشهود .

ويقال في الكلف تعريفُ بكونه مع أولياته ، وتخويفُ بحقِّ مَكْرَهٍ في بلاءه .
ويقال في الكلف إشارة إلى كتابته الرحمة على نفسه قبل كتابة الملائكة الزلزلة على عباده .

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه ،
وماله من الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يُسر رِغْبِهِ بعد عُسْرِ حَيْثِهِ . وإلى يده اللبسولة بالرحمة للمؤمنين
من عباده .

والعين تشير إلى عِلْمِهِ بأحوالِ عِبْدِهِ في سِرِّهِ وَجْهِهِ ، وَقَوْلِهِ وَكَثْرِهِ ، وحالِهِ وَمَا لَهُ ،
وقدْرُ طاقته وحقِّ فاقته .

وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَكَرْ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ﴾
تخصيصه بإياه بإجابته في سؤال قَلْبِهِ ، وما أراد أن ينصل بأعقابهِ من تخصيص القربة له
وجميع أهلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾
وإنما ذلك لئلا يطلعَ أحدٌ على سِرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه
عن نفسه بالتمسك من شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسوء في نفسه ، ثم أخفى سِرَّهُ عن المطلق لئلا
يبلغَ لأحدٍ إشرافُ على حاله ، ولئلا يَشْتَبَهَ بمقاتله أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَحَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

أى لَقِيتُ بضمي عن خدمتك ما لا أُرْجِيهِ ؛ فطلعتُ في السنِّ ، ولا قوة بعد الشيب ؛
فَهَبْ لِي ولما ينوب عني في عبادتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ .
أى إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَمَّا بِإِجَابَتِكَ ؛ لَعَلِّي إِنِّي لَا أَشْقَى بِدُعَائِكَ فَإِنَّكَ نَحِيبٌ أَنْ تُسْأَلَ .

ويقال إنك عودتني إجابة الدعاء ، ولم تردني في سالف أيامي إذا دعوتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ دُونِي
وَكَانَتِ امْرَأَتِي مُعَارِفًا فَهْبًا لِي مِنْ
قُدْرَتِكَ وَلِيَا * يَرْثِي وَيُورِثُ مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبُّ رَضِيًّا * .

إِنِّي خِفْتُ أَنْ تَنْهَبَ النُّبُوَّةَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، وَتَنْتَقِلَ إِلَى بَنِي أَعْمَى فَهْبٌ لِي وَلَدًا يَعْبُدُكَ ،
وَيَكُونُ مِنْ نَسْلِي وَمِنْ أَهْلِي .

وهو لم يرْ ذُ الولدَ بشهوة الدنيا وأخذَ الحظوظَ منها ، وإنما طلبَ الولدَ ليعومَ بحقَّ الله ،
وفي قوله : « يَرِثِي » دليلٌ على أنه كما سألَ الولدَ سألَ بقاءَ ولده ؛ فقال : ولنا يكونَ وارثًا لي ؛
أي يبقى بَعْدِي ، ويرثُ من آلِ يعقوبَ النبوةَ وتبليغَ الرسالة .

واجعله ربُّ رَضِيًّا : رَضِيٌّ فصيلٌ بمعنى مفعولٌ أي تَرْضَى عنه فيكونَ مَرْضِيًّا لك . ويحتملُ
أن يكونَ مبالغةً من الفاعلِ أي راضِيًا منك ، وراضيًا بتقديرك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى
لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * .

أي استجبنا لدعائك ، ونزذك ولداً ذَكَرًا اسْمُهُ يَحْيَى ؛ فحيا به عُقْرَةُ أُمِّه ، ويحيا به
نَسَبُكَ ، ويحيا به ذِكْرُكَ ، وما سألته من أن يكونَ نائبا عنك ؛ فحيا به محلُّ العبادَةِ والنبوةِ
في بيتك .

لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا : افراده — عليه السلام — بالتسمية يدلُّ على افراده بالفضيلة ؛
أي لم يكن له سَمِيٌّ قَبْلَهُ ؛ فَلَا أَحَدٌ كَقَوْلِهِ فِي اسْتِجَابِ أَوْصَافِ فَضْلِهِ .

ويقال لم نجعل له من قبل نظيراً ؛ لأنه لم يكن أحدٌ لا ذنبَ له قَبْلَ النبوةِ ولا بعدها
خبره (١)

(١) هذا رأى لي منسوب للشعري السكاني يتصل بفضيلة هامة ؛ هل يكون من النبي ذنب ؟

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبُّ أُنْثَىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ

امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ

عِتْيًا ۚ

سأل الولد فلما أُجيب قال أنى يكون لى غلام؟ ومعنى ذلك — على ما جاء فى التفسير — أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدة طويلة؛ فكانه سأل الولد فى اشتداد حال سنّه، واستجبت دعوتّه بعد ما تنهى فى سنّه، فذلك قال: «أنى يكون لى غلام؟».

وقال أراد أن يعرف من يكون هذا الولد.. أمِنْ هذه المرأة وهى عاقِر أم من امرأة أخرى أزواج بها مملوكة أستفرشها؟ فالسؤال إنما كان لتعيين من منها يكون الولد. فقال تعالى:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۚ

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة فى هذا الوقت الذى فيه حسب مستقرّ العادة ولادة مثل هذه المرأة دلالة ومعجزة لك على قومك، فنكون للإجابة بالولد من وجه معجزة؛ ومن وجه راحة وكرامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۚ

دلّت الآية على أن المذموم ليس بشيء؛ لأنه نفى أن يكون قبل خلقه له كان شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبُّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ

أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۚ

أراد علامة على علق المرأة بالولد؛ ولم يرد علامة يستدل بها على صدق ما يقال له. فأخبره تعالى: أن آيتك علامة وقت إجابتك.. إن سألَكَ لا ينطق معهم بالخطابة — ولو اجتهدت كُلّ الجهد — ثلاثة أيام، وعليك أن تخاطبى، وأن تقرأ الكتب للترّة التى كانت فى وقتك. فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يكلمهم، وإذا أراد أن يقرأ الكتب أو يسمي الله أطلق مع الله لسانه.

قوله جل ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ

إِلَيْهِمْ أَنِ مَبْعُوثُ بُكْرَةٍ وَعَشِيًّا ۚ

أى فلما خرج عليهم عرفهم — من طريق الإشارة^(١) — أن اللسان الذى كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ ﴾

أى قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة ربنا ، حَمَصْنَاكَ بِهَا . . لا قوة يد ولكن قوة قلب ، وذلك خيرُ خَصْمَ الله تعالى به وهو النبوة .
ودلت الآية على أنه كان من الله له كتاب .
« وآتيناه الحكم صبياً » أى النبوة ، بعثه الله بها إلى قومه ، وأوحى إليه وهو صبي .
ويقال الحكم بالصواب والحق بين الناس .
ويقال الحكم هو لإحكام الفعل على وجه الأمر .

قوله « وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا . . . » أى آتيناه رحمةً من عندنا ، وطهارةً وتوفيقاً لمجاولات التقوى وتحقيقاً لموهباتها ؛ فإن التقوى على قسمين : مجموع ومجلوب يتوصل إليه العبد بِسُكُونِهِ وَتَقَلُّبِهِ ، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل إليه العبد بِبَيِّذْنِهِ سُبْحَانَهُ وَبُخْلِهِ .
قوله جل ذكره : ﴿ وَبَرَّآ بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ ﴾

« برآ بوالديه » كَأَمَرَ الله — سبحانه — له بذلك لا لمودَّةِ الْبَشَرِ وموجبِ عادةِ الْإِنْسَانِيَةِ .
ولم يكن متمرداً من الحق ، جاحداً لربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَسَّلْنَا عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدٍ وَيَوْمَ مَوْتٍ وَيَوْمَ يُنْعَمُ حَيًّا ۝ ﴾

أى له منّا أمان يوم القيامة ، ويوم ولادته في البداية ، ويوم وفاته في النهاية ، وهو أن يصونه عن الزَّيْغِ وَالْعَوَجِ في العقيدة بما يُشْهَدُهُ على الدوام من حقيقة الإلهية .

(١) كأنما يقصد التفسيرى إلى بيان أن الإشارة تنمى من العبارة وأنها بأمر إلى .

وكنذلك هو في القيامة له منه — سبحانه — الأمان ؛ فهو في الدنيا معصوم من الزلة .
محفوظٌ عن الآفة . وفي الآخرة معصومٌ من البلاء والمحنة .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مِرْيَمَ إِذِ انْتَبَهَتْ
مِنْ أَهْلِهَا تَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَانْضَضَتْ
مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا
رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝﴾

اعتزلت عنهم لتحصيل طهرها ، طسّرت عن أبصارهم .
فلما أبصرت جبريل في صورة إنسانٍ لم تنوره أحتت في نفسها رهبا ، ولم تكن لها
حيلةٌ إلا تخوفه بالله ، ورجوعها إلى الله .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ
كُنْتَ نَقِيًّا ۝﴾

قالت مريمُ لجبريل — وهي لم تعرفه — إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب
أن يُخافَ ويُتَّقَى منه ؛ أي إن كنتَ تقصدُ السوء . ومعنى قولها « بالرحمن » ولم تقل :
« بالله » — أي بالذي يرحمني فيحفظني منك .

ويقال بمنحله أن يكون معناه : إن كنتَ تعرف الله وتكون متقيا بخلافته أمره فأني أعوذ
بالله منك وأحذر عقوبته .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ
لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ۝﴾

تعرف جبريلُ إليها بما سكنَ روحها ، وقرَنَ مقالته بالتبشير لها ببعثي عليه السلام .

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَتِيًّا ۝ قَالَ
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ

ولنجه آية للناس ورحمة منا وكان
أمراً مقضياً ﴿

قالت أئى يكون لى قلده ولم أئى يزله ولا فاحشة ؟ فقال جبريلُ — عليه السلام — :
الأمرُ كما قلتَ لك ؛ فلا يتحق ذلك على الله تعالى ؛ إذ هو أقدر أن يجعل هذا الولدَ
دلالةً على كمال قدرته ، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه — سبحانه — لمن آمن ، وسببَ
جهنم للآخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَعَمَلَكُنَّ فَأَتَّبَعْتُكَ بِهِ مَكَانًا
قَسِيًّا ﴾

لما ظهر بها الحملُ ، وعلمتُ أن الناسَ يستمعون ذلك ، ولم تثقُ بأحدٍ فنفي
إليه سرها . . مضت إلى مكانٍ بعيدٍ عن الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَجْلَاهَا فَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ
نَسِيًّا ﴾

أَلْجَأَهَا وَجَعُ الْوِلَادَةِ إِلَى الْإِعْيَادِ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ . وَلَمَّا أَخَذَهَا الطَّلُقُ ، وَدَاخَلَهَا
الْخَلْجُ مِنْ قَوْمِهَا تَلَقَّتْ بِلِسَانِ الصَّجَرِ ، وَقَالَتْ : « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » .
ويقال بمضمحل أنها قالتها إشفافاً من قوما ، لأنها علمت أنهم سيبطون لساناً للامية
فيها بلسان النجر ؛ وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقةً على قوما لتلاصيحهم بسبكها عقوبةً .

ويقال قالت : « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » حتى لم أسمع من قال في الله تعالى بسبى إن عيسى
ابن الله وابن مريم ، وإن مريمَ زوجته . . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ۝

ويقال « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » : في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بى ، ولم تستبلى
هذه الخشونة في الحالة التي كُيِّمَتَنِي .

ويقال « يا ليتني ميتٌ قبل هذا » : في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب .

قوله جل ذكره : ﴿ فناداها من تحتها ألا تَمْزِنِي قَدِ

جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ ١١ ﴾

في التفسير أن للتي بقوله « من تحتها » : جبريل عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام .
وللقصود منه تسكين ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أي يرزقك
الله وقد آسريراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ تُسَاقِذُ

عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝ ١٢ ﴾

وكان جذماً يابساً أخرج الله تعالى منه في الوقت النمرة ، وهي الرطب الجني ، وكان
في ذلك آية ودلالة لها ، فإلى قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى — عليه السلام —
من غير أب .

ويقال هنما كانت مجردة بلا علاقة ، قد كان زكريا — عليه السلام — يحمدها
رزقاً من غير أن أمرت بحلاقة الولد أمرت بهز النخلة اليابسة —
وهي في أضيق حالها في زمان قرب ههنا بوضع الولد ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الْعَلَاةَ تَوْجِبُ
النماء والاشقة .

ويقال بل أمرت بهز النخلة اليابسة ، وكان تمكُّنها من ذلك أوضح دلالة على صدقها
في حالها .

ويقال لما لم يكن لها في هذه الحالة من يقوم بتسهيها تولى الله تعالى كفايتها ؛ لِيَعْلَمَ
المالون أنه لا يضيع خواص عياده في وقت حاجتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَقَرُّوا عَيْنًا ،

(١) - (الرعى = السيد الكريم ، وقيل هو نهر صحر أو جدول .

فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا .
 قُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
 فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِلنَّاسِ ۝

كانها أسباب ما احتاج إليه من أكلها وشربها ، وسكن من خوفها ،
 وطيب قلبها .

« يا ما ترين من البشر أحداً » : فلا تخاطبيهم وعرفيهم - بالإشارة - أنك نذرت
 للرحمن الصمت مع الخلق ، وتركته المخاطبة معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْتَ بِهِ قَوْمُهَا تَصْلَحُ ﴾ قالوا :

يا مريم لقد جفت شيئا فرياً •
 يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ
 سوّه وما كانت أمك بغيّاً ۝

يسط قَوْمُهَا فيها لسانَ اللامية لما رَأَوْهَا قد وَلَدَتْ - وظاهر الحال كان معهم -
 فقالوا لها على سبيل اللامة : يا مَنْ كُنَّا نَعُدُّكَ في الصلاح بمنزلة هارون للعرف بالسداد
 والصلاح .. مِنْ أَيْنَ لَكَ هذه الحقة الشنماء ؟

وقال كان أخوها اسمه هارون : ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم ، فقالوا :
 يا شبيهة في الفساد .. ما هذا الولد ؟

وقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يا أخت هارون ، وما مِنْ في حسابنا
 وظننا ما كان أبوك فيها سوء ولا فساد .. كيف أتيت بهذه الكبيدة المنظمة ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ
 مَنْ كَانَ فِي الْأَمْرِ صَبِيًّا ؟ ۝

في الظاهر أشارت إلى الولد ، وفي الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهما ما قرب وما بعد
 وقالوا : كيف نكلّم مَنْ هو أهل بأن يتوّم في الهد ؟

فـ « دكان » هـ احنافى اللفظ صـ .. وحلوا ذلك منها على الاستهانة بضمها .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾

لما قالوا ذلك أنطق الله عيسى حتى قال : إني عبد الله ، فظهرت براهه ساحتها بكلام عيسى قبل أن يتكلم مثله . وجرى على لسانه حتى قال : إني عبد الله ؛ ليُقَال للنصارى إن صدق عيسى أنه عبد الله بطل قولكم إنه ثالث ثلاثة ، وإن كذب قالى يكذب لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عبداً هوأه ، ولا فى أسر شئء سواه فمن تحرر من غيره فهو فى الحقيقة عبده .

« وآتاني الكتاب » : أى سيؤتىنى الكتاب أو آتاني فى سابق حكمه .

« وجعلنى نبياً » بفضل . وفى الآية ردٌ على من يقول إن النبوة تُستحق بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك فى حال ولادته ؛ ولم تكن منه بعد عبادة وأخبر أن الله جعله نبياً^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَا كُنْتُ

وَأَوْصَانِي بِالْعَلَّةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ

حَيًّا • وَرَأَى بَوَالِدَنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

جَبَّارًا شَقِيًّا •

أى نأصا للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويعنهم من ارتكاب الزلَّة التى فيها هلاكهم ، ومن استغناء بنوره نجا . فهذه بركاته التى كانت تصل إلى الخلق . ومن بركاته إغاثة الملهوف ، وإغاثة الضعيف ، ونصرة المظلوم ، ومواساة الفقير ، وإرشاد الضال ، والنصيحة للخلق ، وكف الأذى عنهم وسمل الأذى منهم .

« ورأى بوالدنى ولم يجعلنى جباراً شقياً » أى لم يجعلنى غير قابلي للنصيحة .

(١) فى موضع آخر حاول التشيرى ان يوضح ضرورة استغلال عمل الإنسان والنظر إليه بين الاستصغار وغبة منه ليربط كل شئ بالفضل والاجتناء الإلهيين ، فاستشهد بأن عيسى صار نبياً — وهو بعد لم تكن منه طاعة ولا عمل .

ويقال « شقياً » : أى متكبّراً متجبراً . ويقال غنوماً بكفراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

قال عيسى عليه السلام : « والسّلام علىّ » ، وقال لبيّنا عليه السلام ليلة للمّراج : « السّلام عليك أيّها النّبي ورحمة الله وبركاته » . . فشتن ماها !

والسلام بمعنى السلامة ، أى سلامة لى يوم الولادة مما نسبوا إلى من قول النصارى في مجاوزة الحدّ في المدح ، ومما وصفى به اليهود من القم^(١) ، قللت كما قالت الطائفتان جميعاً .

وسلام علىّ يوم أُموت ؛ ففي ذلك اليوم تكون لى سلامة حتى تكون بالسعادة وفانى .
وسلام علىّ يوم أُبْعَثُ ؛ أى سلامة لى في الأحوال ممّا يُبْتَلَى به غير أهل الوصال .
قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

أى الذى قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيسكون بقول إله ؟
وقد شكّ فيه أكثر المخلّقى قرّده قومٌ وتقبّله قومٌ ، والفرق بينهما في استحقاقه^(٢) .
وقوله : « قول الحق » أى يكون بقوله الحق وهو :

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كُنْ لَهُ أَنْ يَخْذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

لا يجوز أن يكون له ولدٌ على الحقيقة ؛ لانه واحد ، والولدُ بعضُ والده .

(١) قد اتهم اليهود أمه بأنّها .

(٢) أى في نصيبه من الحقّ للفرق بين الرّدّ والتّبول .

ولأنه لا داعي له إلى محبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة . ولا يجوز عليه التنبؤ لأحد
لقدّم الجنسية بينهما .

وقوله : « وإذا قضى أمراً . . . » إذا أراد إحداث شيء خلقه بقدرته ، وخالطه
بأمر التكوين^(١) ، ولا يتعمى عليه — في التحقيق — مقصور .

« وإن الله ربي وربكم » أى أمرنى بأن تطوا ذلك ؛ وأمرنى بتبليغ رسالتى ، واتباع
ما شرع الله من العبادات .

قوله جل ذكره : ﴿ اختلف الأحزاب من بينهم قويلٌ

لذين كفروا من مشهد يوم

عظيم ﴾

فَمَنْ نُجِنتْ بماء السعادة طينته أطلع في عاجله وما ضاع في آجله ، وَمَنْ أَفْضَتْ القسمة
السابقة لم تذهبه العزيمة اللاحقة ، وسيلقون غيب هذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ أجمعهم وأبصر يوم يأتوننا لئلك

الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾

صير معارفهم ضرورية ، وأحوالهم كلها منكوسة ، والحجة تناكده عليهم ، والحاجة
لا تسمع منهم ، والرحمة لا تملق بهم ، فلا ترحم شكهم ، ولا يسمع نداءهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنذرتهم يوم أسسرت إذ قضى

الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾

تقوم الساعة بقتله ، وتصادفهم التيامة وهم غير مستعدين لما فيتحسرون على ما قامهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القصة حين سبقت لقوم الشقاوة — وهم في نحو المدم ،
ولآخرين السعادة — وهم بنمت المصم ، ولم يكن من أولئك جرّم بعد ، ولا من هؤلاء
وفاق بعد .

(١) أى كن فيكون .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَالْبَنَاءُ يُجَنُّونَ﴾

يريد به إذا قبض أرواح بني آدم بجملتهم ، ولم يبق على وجه الأرض منهم واحد ،
وليس يريد به استحداث ملكه ، وهو اليوم مالك الأرض ومن عليها ، ومالك الكون
وما فيه .

ويقال إن ذكرها قال — لما سأل الولد : « يرثني ويورث من آل يعقوب » وقال تعالى
في صفة بني إسرائيل : « كذلك وأودناها بني إسرائيل »^(١) وقال : « إن الأرض لله
يورثها من يشاء من عباده »^(٢) ، ولما انتهى إلى هذه الأمة^(٣) قال : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا » . . فشتان بين مَنْ وَاِثْمُهُ الْوَكْدُ وبين مَنْ وَاِثْمُهُ الْأَحَدُ !
ويقال حان على السيد للسلم إذا ملت إذا كان الحق واثمه . . وهذا مخلوق يقول
في صفة مخلوق :

إِنْ يَكُ عِتَابٌ مَضَى لِسَيْدِهِ فَا مَلَتْ مِنْ يَبْقَى لَهُ مِثْلُ خَالِدٍ

وقال تعالى : « وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياء »^(٤) لماذا ؟ لأن
وَاِثْمَهُمُ اللَّهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا كُنَّا فِي الْكُنُوزِ إِبرَاهِيمَ إِنَّهُ
كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

الصدِّيقُ الكثير للعشق ، الذي لا يمزج صِدْقَهُ شوبٌ .

ويقال هو الصديق في أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصدِّيقُ لا يناقض سيرته حكمته .

(١) آية ٥٩ سورة الشراء .

(٢) آية ١٢٨ سورة الأعراف .

(٣) قصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٤) آية ١٦٨ سورة آل عمران .

ويقال هو الذي لا يشهد غير الله مثبتاً ولا نافيًا .

ويقال هو المستجيب لما يطالب به جملة وتفصيلاً .

ويقال هو الواقف مع الله في عموم الأوقات على حد الصدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْنِي

عَنْكَ شَيْئًا ۚ ﴾ .

دلّت الآية على استحقاق المعبود للوصف بالسمع والبصر على السكال دون نقصان فيه ،
وكنهك القول في القدرة على الضر والنفع .

وإذا رجع العبد إلى التحقيق فليعلم أن كل ما انطلق لا تصلح قدرة واحد منهم للإبداع
والإحداث ، فمن خلق قلبه بمخلوق ، أو توهم شظية منه من النفي والإثبات فقد ضاعى
عبدة الأصنام .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَمْ يَأْتِكَ ۖ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا

سَوِيًّا ۚ ﴾ .

أمره باتباعه لما ترجح عليه جانبُه في كونه الحقّ مه — وإن كان أكبر منه شيئاً ،
وبين أن الخلاص في اتباع أهل الحقّ ، وأن الهلاك في الابتداع والتطويع في مغالطة الطرق .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ

كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ ﴾ .

بين أن العلة في منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فبان أنه لا ينبغي أن تكون
طاعة لمن يعصى الله بحال .

ويقال أسس الدين هجران أرباب العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ

مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ ﴾ .

لم ينادِ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه ، ولم ينغم جيل وعظه ، ولم تجمع فيه كثرة نصحه ؛ فإنَّ مَنْ أَفْضَتْهُ سَوَابِقُ التَّقْدِيرِ لم تُخْلَصْهُ لَوَاحِقُ التَّدْبِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ هَذَا الَّذِي كَذَّبْتَ عَنْكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾
 منه إبراهيمُ بِجَمِيلِ الْمُعْطَى ، قَبْلَهُ بِنَوْعِهِ الْمُقْبُوعِ قَالَ :

﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُلِكَ وَاهْجُرْنِي مَيْلًا ﴾ .

فَأَجَابَهُ الْخَلِيلُ بِمُقْتَضَى سَكُونِ الْبَصِيرَةِ قَالَ :

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَفِيزُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

وهذا قبل أن يئسَ من إيمانه ، إذ كانت له به بعدُ بقيةٌ من الرجاء في شانه ، فلما تحقق أنه مخدومٌ له بالثغارة قال له :

﴿ وَاعْتَرَلَكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى الْأَكْرَبُونَ بِهِدْءَ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .

« ما تدعون » : أي ما تعبسون ، « وأدعوا ربِّي » : أي أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَمَّ بِآلِهِ إِسْحَاقُ وَيُضَوِّبُ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ .

لما أيسَ من أصلِهِ أَنََّّهُ اللَّهُ بما أكرمه من نَسَبِهِ ، فَأَنْبَنَهُمْ نَبِيًّا حَسَنًا ، وَوَقَّعَهُم النُّبُوَّةَ ، وَلِسَانُ الصِّدْقِ بِالْأَكْرَمِ عَلَى الدَّوَامِ ^(١) قَالَ :

(١) ربما يشير القسري بذلك إلى : (الملاءة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) في تشديد كل صلاة .

﴿ وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝ ﴾

قوله جل ذكره: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ
كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ ﴾

مُخْلِصًا خَالصًا لله ، ولم يكن لنيره بوجهه ، فلم تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يستغزه طمع
نحو إيثار حظير ، ولم يُفَضِّر في الله على شيء .

قوله جل ذكره: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝ ﴾

للتجوى مزية على النداء ، فجمع له الوصفين : النداء في بدايته ، والسماع والتجوى في نهايته ؛
فوقَّفه الحق وناداه ، وفي جميع الحالين تولاه .

« من جانب الطور » : ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور (١) .

قوله جل ذكره: ﴿ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝ ﴾

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبيًّا .

قوله جل ذكره: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا
نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝ ﴾

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه (٢) ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر
الفداء . وصدق الوعد لأنه حفظ العهد . وكان يأمر أهله بالصلاة — بأمر الله إياه — وبالزكاة ،
ويشتغل هنا على ما أمره إياه بالعبادة البدنية والمالية حينًا وكيفما كان .

(١) هذا يجنب القسري مؤلفاً خطراً فلا يكون النداء الإلهي من جهة . وعلى هذا تكون (وقربناه)

تقريب مكانة لا مكان .

(٢) من هذه الاشارة نعرف أن القسري يرى أن اسماعيل — لا إسحاق — هو مدار قصة
الذبح والفداء .

« وكان عند ربه مرضيا » وكان هذا أشرف خصاله وأجل صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيّاً ﴾ * ورفضه مكاناً عليّاً .

الصديق كثير الصلق ، لا يشوب صدقه مدق^(١) ، ويكون قائماً بالحق الحق ، ولا يكون فيه نفس لغير الله .
« ورفضه مكاناً عليّاً » : درجة عظيمة في التزوية لم يسأوه فيها أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدَمَ ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إيلهم وإسرائيل ومن هدينا واجتبننا إذا نزلنا عليهم آيات الرُّحْن خروا سُجُوداً وَبُكْيَا ﴾

أفانهم بشواهد الجمع ، وأخير أن يننته كائنته في تخصيصهم بأحوالهم ، وتأهيلهم ليأرقام إليه من اللال ، وأنه بفضل اختارهم واجتباهم . وما أنعم به عليهم من الخصائص رقةً تفرجهم ؛ فهم إذا نزل عليهم الآيتُ سجدوا ، وسجدوا طواهرهم يدل على سجود سرائرهم بما حقق لهم من شواهد الجمع ، وأملوة صحتهم ما وقهم إليه من عين الفرق ؛ فيوصف التفرقة قاموا بحسن آداب العبودية ، ونمت الجمع تصفوا بمقتضى الربوبية^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَصَلِّ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ أَضَاعُوا

(١) مدقّ الدين والعراب بالاء مذكّفاً أى متزججهً وعشطه ، ومدق الرد أى شابه ولم يزلهم .

(٢) هنا من أخذ البراهين نصاعة على تمسك التشرى بالعريضة ؛ فإن صدق البعد في الترجه أمارته ان يكون محوفاً — من ركب الحق — كي يؤدي فرائض الشرع .

الصلاة وأتبعوا الشهوات فسوف
يَلْقَوْنَ حَيَاً

الذين حلوا من طريقهم ، وضیعوا حق الشرع ، ونقضوا واجب الأمر ، وزاغوا عن
طريق الرشء ، وأخفوا بأدباب الشرع ، وانخرطوا فى سلك متابعة الشهوات — سيقون عن
قریب ما يستوجبونه ، ویسألون بما يستحقونه .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

شَيْئًا﴾ جَنَّتْ عَدْنُ الْقَى وَعَدَّ الرَّحْمَنُ

عِبَادَهُ بِالنَّيْبِ إِلَهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ تَدَارَكُهُمُ الرَّحْمَةُ الْأَزَلِيَّةُ ، وسيقون فى النعم السرمدية . يستجز الحق
لم عدايتهم ، ويوصلهم إلى درجاتهم ، ويحقق لهم ما وعدهم .

« إنه كان وعده مأتيا » : لأن ما أتيت به قد أتاك أو ما أتاك قد أتته (١) .

« لا يسمعون فيها لغوآ » : فإن أصحاحهم مصوة عن سماع الأعيار ، لا يسمعون
إلا من الله والله ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَمْ يَرَوْهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾

كانوا يمشون من عنده طعم البكرة والعشية من جملة اللباسير والأغنياء لكونهم
قراء ، وإن وجدوا خدامهم فى الغالب يخدمون عشاءهم ، وإن وجدوا عشاءهم فقلما كانوا
يخدمون خدامهم . ويقال فى « لم ما يشتهون فيها » : بمقدار الندو والعش من الزمان فى الجنة
أى كالوقت . ثم إن الأرواق تختلف فى الجنة ، فللاشجار رزق من مطوم وشروب ،
وللأرواح رزق من سماع وشهود ، ولكلى — على قدر استحقاقه — رزق معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا

مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾

(١) أى أن (مأتيا) إما اسم مفعول ، أو اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل مثل مجروح وجرح .

فالجنة للآقياء من هذه الأمة مُعَدَّة لهم ، والرحمة لِمَصَّة المسلمين مُعَدَّة لهم . الجنة لُفْتُ من الله تعالى ، والرحمة وَصْفُ لله تعالى . وقوله : « من عبدنا » : قَبْدُهُ على التخصوصية من كان اليوم في قيد أمره . وقوله : « من كان قنيا » : قوم يتقون المعالي والمخالفات ، وقوم يتقون الشهوات ، وآخرون يتقون الفضائل ، وآخرون يتقون شهود كُلِّ غير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ مَا يَدِينُ

أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَبِيًّا ﴾

إن الملائكة — عليهم السلام — أبدأ يَتَرَلُونَ بِإِذْنِ الْحَقِّ تعالى ، فبعضهم بالإنجاد المظلومين ، وبعضهم بإغاثة الملهوفين ، وبعضهم بتدبير الجاحدين ، وبعضهم بنصرة المؤمنين ، وبعضهم إلى ما لا يخص من أمور الناس أجمعين . والله — سبحانه — لا يترك جاحداً ولا عابداً من حفظ وإعلاء ، أو إهمال ونسكال ...

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ

لَهُ سُبُحَاتٌ

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربها ، ويكون مالكها ، ويكون قادراً عليها .

وإذا وجدت فهو فاعلها ، فمى كون فعل الشيء لفعله أنه في مقدوره وجوده .

وقال إذا كان ربُّ الأكبر من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغر من الضعفاء ، وقية العبد بمالِكِهِ وَقَدْرِهِ ^(١) ، لا بشئ في نفسه وَخَطَرِهِ .

قوله : « فاعبده » أى قَفَّ حيناً أمره ، ودَعَّ ما يقع لك ، وَخَلَّ رأيك وتدبيره .

قوله : « واصطبر لعبادته » : الاصطبر غاية الصبر .

قوله : « هل تعلم له سمياً » : أى كفوا ونظيروا . وقال هل تعرف أحداً يسمى « الله »

غير الله ؟ ويقال أئى بالنظر ... وهو بالقَدَر متوحد ! والتشبيه يقتضى التسوية بين المتشابهين ، ولا مثْلَ له ... لا موجداً ولا موعوداً .

(١) أى قدرها المالك

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَنَا مَلِيتُ ﴾ لسوق

أُخْرِجُ حَيًّا ۝ أولا يذكر الإنسان

أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝

أنكروا حديث البشر غاية الإنكار ، فأظم الحجة عليهم بالنشأة الأولى ، قال : إن الذي
قدم على خالق المخلوق في الابتداء ولم تطفُ ضفاه ، وقيل كانوا في أصلاب الآباء وأرحام
الأمهات ففطرهم ، وعلى ما شاء صوّرهم ، وفي الوقت الذي أراد — من ^(١) بطون
أمهاتهم أخرجهم .

قوله : « ولم يك شيئاً » فيه دليل على صحة أهل البصائر أن المعلوم لم يك شيئاً في حال
هَدْمِهِ ^(٢) .

ويقال أبطل لهم كل دعوى حيث ذكّرهم نسبهم وكوّنهم من العدم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَّيْكَ لَنُحْضِرَنَّهم وَالشَّيَاطِينَ

ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهم حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝

نحضرهم جميعاً فيجنسون في الرمة ^(٣) . ثم يختلف منقلبهم ؛ فيصور قوم إلى النار
ثم إلى دَرَكَاتٍ بعضها أسفل من بعض — واسمُ جهنم يجمع أماكُنهم . ويصور قوم إلى الجنة
ثم هي دَرَجَاتٌ بعضها أعلى وتبّة ودرجة من بعض — واسمُ الجنة يشتمل على جميع مساكنهم .
ويقال التفاوت في الجنة بين الفرجلة أكثر من التفاوت بين أهل الهارين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ من كل شيعةٍ آيَّهم أَشَدَّ

على الرجلِ جِثِيًّا ۝

(١) الأسوب أن تكون (من) كما ورد في الآية ٧٨ سورة النمل : « وَاِنَّ أَوَّلَ الْإِنْسَانِ لَكُنْ عَلِيًّا » .

(٢) وفيه رد على القائلين بأن المادة لا تدمر .

(٣) الرمة = ساحة النار أو صفيحة من الحديد توضع في التنور لينضج عليها الخبز
وهو (الوسيط)

مَنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْإِضْلَالِ، وَالضَّلَالِ ضَوْعٌ غَدًا الْعَذَابِ وَالْأَخْلَالِ .

﴿ ثُمَّ كُنْزُكُمْ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَذَىٰ بِهَا
صَلِيًّا ﴾

يُنْزَلُ فِي كُلِّ ذَرَكَةٍ مِنْ ذَرَكَاتِهَا مِنْ هُوَ أَهْلُهَا ، فَمَنْ كَانَ عَنْتَهُ الْيَوْمَ أَشَدُّ غُلُوقًا كَانَتْ
فِي النَّارِ أَسَدًّ مِنْ اللَّهِ وَأَهْدًّ عَقُوبَةً وَإِذْلَالًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾

كُلُّ شَيْءٍ يُرَدُّ إِلَى النَّارِ وَلَكِنْ لَا ضَيْرَ مِنْهَا وَلَا احْتِبَاسَ بِهَا لِأَحَدٍ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا عَلَيْهِ مِنْ (...) (١)
وَالْزَّلْزَلَةُ ، فَأَشَدُّهُمْ انْتِهَاكًا أَشَدُّهُمْ بِالنَّارِ اشْتِمَالًا وَاحْتِرَاقًا . وَقَوْمٌ يَرُدُّونَهَا — كَمَا فِي الْمَطْوِيِّ :
« إِنْ لَنَارٍ حَتْمٌ مَرُودٌ عَلَيْهِمْ إِذْوَاقُهُ كُلُّ ذَوَاقَةِ الْفَيْنِ ، فَيَسْلُخُونَهَا وَلَا يَصُونُ بِهَا ، فَإِذَا عَبَرُوهَا
قَالُوا : أَوَلَيْسَ وَعَدْنَا جَهَنَّمَ عَلَىٰ طَرِيقٍ ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ : عَيْرْتُمْ وَمَا شَعَرْتُمْ (٢) »

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴾

يُنْجَى مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ، بَعْضُهُمْ قَبْلَ بَعْضٍ ، وَبَعْضُهُمْ بَعْدَ بَعْضٍ ، وَلَكِنْ لَا يَبْقَى مِنْ

(١) مَشْتَبِهَةٌ هِيَ فِي الرَّسْمِ مَكْنًى (اللاتيات) وَرَبَّمَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ (اللاتيات) أَيْ الْوُجُوعُ
فِي (الْقِسْ) وَالْإِتْيَاسُ مَنَاسِبٌ (الزَّلْزَلَةُ) .

(٢) الْإِذْوَاقَةُ : الزَّيْدُ حِينَ يَوْضَعُ فِي الْبِرْمَةِ لِيَنَابِ (مَقَابِيسُ الْهَيْكَلِ لَابِنْ قَارِسٍ ج ٢ ص ٣٦٢) .
وَمِنْ جَاهِرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَلَّ عَنْ ذَلِكَ قَوْلًا : إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَلَيْسَ
قَدْ وَعَدْنَا رَبَّنَا أَنْ تَرُدَّ النَّارُ ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ قَدْ وُودَ تَوَعُّدُهَا وَهِيَ غَامِدَةٌ (الْقَاضِي الْبُخَّارِيُّ طُ الْمُهَيَّيْلُ
بِجَمْعَةٍ) ص ٤٩٠ .

وَمِنْ جَاهِرٍ أَيْضًا ، الْوُرُودُ الْفُخُولُ لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَها فَتُكْتَوَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ عِوَادًا وَسَلَامًا
كَأَنَّكَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ « [الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْقُرْطُبِيِّ ج ١١ ص ١٣٦ سَلْسَلَةُ التَّرَاثِ] .
وَمِنْ الْحَسَنِ « لَيْسَ الْوُرُودُ الْفُخُولُ ، إِنَّمَا يَحُولُ وَوَدَّتِ الْبَصَرَةُ وَلَمْ أَدْخُلْها » فَالْوُرُودُ أَنْ يَمْرُودَ عَلَى
الصَّرَاطِ » وَقَدْ اسْتَدْرَكَ كَثِيرٌ إِلَى رَأْيِ الْحَسَنِ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ الْحُسْنَى
أُولَئِكَ هُمَا فِي النَّارِ مِنْ خِلْفَةِ اللَّهِ أَنْ يَحْدِثَ عَنْهَا .

الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَنْجِيهِمْ . وَيَتْرَكَ الْكُفَّارَ فِيهَا بِنِعْتِ الْغَلِيَّةِ عَنْ الْخُرُوجِ مِنْهَا ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْتَدُ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ ، وَتُطَبِّقُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ، وَيَنْقَطِعُ مِنْهُمْ الرَّجَاءُ وَالْأَمَلُ .

وَأَمَّا يَنْجُو الْقَوْمَ بِحَسَبِ قَوَامِهِمْ ، فِزِيَادَةِ التَّقْوَى تَوْجِبُ لَهُمُ التَّجَمُّلُ فِي النِّجَاحِ ، فَمِنْ سَابِقٍ وَمِنْ لَاحِظٍ ، وَمِنْ مَنْقَطِعٍ ، وَمِنْ مَحْتَرِقٍ . . إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْأَلْوَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تَنَافَسْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْصَتُوا ﴾

قَالَ الْقَرْنِ كَفَرُوا فَالَّذِينَ آمَنُوا أَيْ

الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿

بَعْنِي إِذَا فُتِنْتُ عَلَيْهِمْ أَكْبَرُ التَّرَّانِ فَابْلُغْهَا بِالرَّدِّ وَالْجَمْدِ وَالسُّوِّ وَالزَّيْغِ ، وَيَدْعُوهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ ، وَلَا يَسْتَمِدُّونَ فِي ذَلِكَ إِلَّا عَلَى التَّحْدِثِ وَالظَّنِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ثُمَّ

أَحْسَنُ أَمَانًا وَرَحْمَةً ﴾

أَيَّ إِنْ هَؤُلَاءِ يَخْرُطُونَ فِي سِلْكٍ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ ، كَمَا سَلَكَوا فِي الرَّبِّ مِنْهَا جِهَةً ، وَسَيَلْقَوْنَ مَا يَسْتَوْجِبُونَهُ عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ (١) مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ

لَهُ الرَّحْمُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا

مَأْيُومَةً لَنَا مِنَ الْمَنَاقِبِ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا

وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُؤَلِّمُ الْكُفَّارَ لِيُرْكَنُوا إِلَى أَيْطَالِ ظَنُونِهِمْ ، وَيَفْتَرُوا بِسَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ ، فَيَسُوْنَهُ فِي غَفْلَةِ الْإِهْمَالِ وَالْإِعْتَرَارِ بِسَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ ، ثُمَّ يَنْشَامُ التَّقْدِيرُ بِمَا يَسْتَوْجِبُ حِسَابَهُمْ قَوْلُهُ « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ . . . » أَيْ يَمِلُ بِهِمْ مَوْعِدُ الْعُقُوبَةِ مُجَلِّدًا أَوْ قِيَامًا

(١) سُلِّطَ (قُلْ) مِنَ التَّنَاسُخِ فَأُجْبِئَهَا .

الساعة^(١) أجلاً ، فند ذلك بتضح لم ما قاموا عنه من شدة الانقلا ، وسيعطون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾

أى يُضَيِّقُ بنور البدر من الاستضاءة بنور النجم ، ثم بطاوع الفجر قبل طلوع الشمس ، فَإِذَا مَتَّعَ نَهَارُ الْعَرَّافِينَ فَلَا ظِلَّةَ وَلَا نَجْمَةٍ .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ

عِنْدَ رَبِّكَ نُورًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

« الباقيات الصالحات » : الشهادة بالربوبية خير من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص .

ويقال « الباقيات الصالحات » : التى تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : « خَيْرٌ » لأن فى استحقاق القبول زيادة لهدى ؛ فيصير عِلْمُ الْيَقِينِ مِنْ الْيَقِينِ ، وعينُ بَيِّنَتِهِمْ حَقُّ الْيَقِينِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ

لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا

أُخِرَ بِقِصَّةِ ذَلِكَ الْكَافِرُ^(٢) الَّذِي قَالَ يَسِينُ — من غير حجة — لَأُعْطِينَ مَالًا وَوَلَدًا ، ورأى أن يكون ليعينه تصديق ، فهل هو :

﴿ أَطْلَعَ النَّيِّبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ

الرَّحْمَنِ صِدْقًا ﴾

(١) وردت (السرعة) والصواب أن تكون (الساعة) فهكلا الآية :

(٢) من الحسن : أنها زلت فى الوليد بن المغيرة . والمشهور أنها فى الناس بن وائل هددوى ان غياض ابن الأوتى صالح لعماسى حليا فانتفضه الأجر فقال : لئنكم زعمون أنكم تتشرون وإن فى الجنة ذهباً وفضة فأنا أقضيه لكم فإنى أوفى مالا وولداً حبيزاً !

وقد ذكر الواحدى ثلاث روايات تزيد ذلك من مسروق وعن السكبي وعن عقائل . (أسباب التزول ط مؤسسة الحلبي) ص ٢٠٤ .

ورواه البزارى عن الجبدي عن سفيان ، ورواه مسلم عن الأعمش .

هل يقول ما يقول بتعريف منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك .
 ودليل المطلب يقتضي أن المؤمن إذا عُن بالله تعالى علناً جليلاً ، أو أَمَلَّ منه أشياء
 كثيرة فله تعالى يحتملها له ، ويصدقُ علته لأنه على عهد مع الله تعالى ، والله تعالى
 لا يخلف عهده .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّا سَكَتَ لَكُمْ مَا يَقُولُ وَنَدُّهُ
 مِنَ الْمَنَاقِبِ مَا دَأَّ • وَزُرْهُ مَا يَقُولُ
 وَيَأْتِينَا فَرْحًا ﴾

كلا . . . ليس الأمر على ما يقول ، وليس لقولهم تحقيق ، بل سندهم من المناقب مدأ
 أي سطريل في المناقب مدتهم .

« وزرّه ما يقول ... » لن نُمتِّمَهُ بأولاده وَحَشِيهِ وَخَدَمِهِ وَقَوْمِهِ ، ويود إلينا
 منفرداً منهم .

قوله جل ذكر : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا
 لَهُمْ مَرْزَا • كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِمِبَادِهِمْ
 وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

حكوا بظلمهم الناس إذ أن أصنامهم تمنعهم ، وأن ما عبوه من دون الله تعالى توجبُ عبادتهم
 لم عند الله تعالى وسيلة .. وهيئات ! هيئات أن تكون لمغالط حساباتهم لتحقيق ، بل إذا
 حُشِرُوا وَحُشِرَتْ أَصْنَامُهُمْ تَبَيَّرَاتِ أَصْنَامُهُمْ مِنْهُمْ ، وما أَمَلُوا فَعَمَّا مِنْهَا عَادَ ضَرُوراً عَلَيْهِمْ .
 ويقال طلبوا البر في أماكن اللل ، فأخفقوا في الطلب ، ونُفُوا عن الراد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّاطِلِينَ عَلَى
 الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَزًّا ﴾

تؤزم أي تزعمهم ، فخطر الشيطان يكون يلوذعاج وحة ، وخطر الحق يكون بروح
 وسكينة ، وعند إحدى الدلائل بينهما .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَجْعَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا تَعُدُّ لَهُمْ عَذَابُ ٱلْأَنفُسِ ٱلْفَاسِقِ ٱلْحَكِيمِ مَبْدُودَةٌ ۚ فَمَنْ لَمْ يَسْتَوْفِ فَلَا اقْتَضَاءَ لَهَا ، وَإِذَا أَتَاهِ ٱلْأَجَلُ فَلَا تَنْفَعُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ٱلْحِيلُ ، وَقَبْلَ اقْتَضَائِهِ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ بِٱلْعِلَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نُحْشَرُ ٱللتَّقِيَّ ٱلِلرَّحْمَنِ وَفَٱلْآخِرِ ۚ

قيل دكانا على نجائب طاعتهم ، وهم مختلفون ؛ فَمَنْ رَأَى كِبَرَ عَلَى صَدُورِ طَاعَاتِهِ ، وَمَنْ رَأَى كِبَرَ عَلَى مَرَآكِبِ هِمَمِهِ ، وَمَنْ رَأَى كِبَرَ عَلَى نَجَائِبِ أَنْوَارِهِ . وَمِنْ مَحْمُولٍ يَحْمِلُهُ ٱلْحَقُّ فِي عِقَابِهِ كَمَا يَحْمِلُهُ ٱلْيَوْمُ فِي دِيَارِهِ . وَلَيْسَ مَحْمُولُ ٱلْحَقِّ كَمَحْمُولِ ٱلْخَلْقِ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَٱلسُّوقُ ٱلْمُجْتَرِمِينَ ٱلِى جَهَنَّمَ وَرِدَا ۚ فَٱلْوَلَدُ ٱلْيَاقُونَ بِوصفِ ٱلْعِرْزِ ، وَهُوَ ٱلَّذِى يُسَاقُونَ بِنَسَبِ ٱلْقَدْرِ ، فَيَجْعَلُهُم ٱلسُّوقُ ، وَلَكِنْ يَكُونُ فِيهِمْ فِي مَعَانِيهِ .. فَشَتَّى مَا هَآءِ ! !

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ

وَذَٰلِكَ ٱلْعَهْدُ حِفْظُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ — يَوْمَ ٱلْيَاقِ — مِنْ ٱلتَّيَامِ بِٱلشَّهَادَةِ بِوَحْدَانِيَةِ مَوْلَاهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلرَّحْمَنَ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيْءَ إِذَا • نَكَادُ ٱلسَّنَوَاتُ يَتَّقَطُّونَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ عَدَا • أَنْ دَهَوَا ٱلرَّحْمَنَ وَٱلَّذِينَ ۚ

مَا أَكْثَرَ بَهْتَاتِهِمْ فِي مَقَالَتِهِمْ ! وَمَا أَشَدَّ جِرَآئِهِمْ فِي فَيْحِ حَالَتِهِمْ ! لَكِنَّ ٱلصَّدِيقَةَ مُتَقَدِّسَةً عَنْ عَائِلَةِ يَمُودِ إِلَيْهَا مِنْ زِينِ بِتَوْحِيدِ مَوْحِدٍ ، أَوْ شَيْئِينَ بِإِلْخَادِ مُلْجِدٍ ... فَٱشَاحَتْ ٱلْأَوُجُوهُ بِمَا خَاضُوا فِيهِ مِنْ مَقَالِمٍ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ ضَلَالَمٍ . كَمَا لَمْ تَجْعَلْ بِمَا ظَافَهُ ٱلْآخِرُونَ ٱلْإِلَاقَاتِلَ ، وَمَا عَادَ إِلَّا عَلَى ٱلْقَاقِلِ مُقَابِلٌ مِنْ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ينفي الرحمن أن يتخذَ قَدًّا
 إنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَذَابًا • قَدْ
 أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا • وَكُلُّهُمْ
 آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا ۝ ١٢ ۝ ﴾

أَنَّى بالرد وهو واحد. ١٢ وَأَنَّى بالولادة ولا جنس له وجوباً (١) ولا جوازاً ١٢
 « قَدْ أَحْصَاهُمْ .. » : لَا يَتَرَدَّبُ عَنْ عِلْمِهِ مَعْلُومٌ ، وَلَا يَنْفَكُ عَنْ قُدْرَتِهِ — عَمَّا يَصِحُّ
 أَنْ يُقَالَ حَقُّهُ — دَوْرُهُمْ .
 « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا » : لَا نَحْدَمُ يَصْجِبُهُمْ ، وَلَا حَسَمٌ يُلْحِقُهُمْ ، كُلُّ يَنْفَسِهِ
 مُشْتَرِكٌ ، وَمَنْ غَيْرُهُ مُنْفَرِدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝ ١٣ ۝ ﴾

يَجْعَلُ فِي قُلُوبِهِمْ وُدًّا فَهُوَ نَتِيجَةُ لِأَعْمَالِهِمُ الْخَالِصَةِ ، وَفِي الظُّلُمِ : « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَنْتَقِبُ
 إِلَى مَا لَتَوَاقَلَّ حَتَّى يَجِبِي وَأُحِبُّهُ » (٢) .
 وَيُقَالُ يَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ ، وَفِي قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ ، فَأَهْلُ الظُّلُمِ وَالطَّاعَةِ
 مُجْتَبِوْنَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ بِغُلٍّ (٣) .

(١) وَرَدَّتْ (وَجُودًا) وَالْأَرْجَحُ أَنْ تَكُونَ (وَجُوبًا) لِنَتْلَاهُ مَعَ (جَوَادًا) أَيْ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ
 وَلَا يَجُوزُ لَهُ وَصْفُهُ — لِنَتْنِسُهُ وَتَقَرُّهُ — أَنْ يَكُونَ لَهُ جِنْسٌ .
 (٢) (...) فَإِذَا أَحْبَبْتَ كَشَفَتْ عَنْهُ الْقِيَمَةُ بِهَا ، وَصَمَّهَ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَيَدْعُوَ الْقِيَمَةَ بِهَا ، وَهُوَ
 حَدِيثٌ قَدِيمٌ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَاحِدٌ مِنْ عَائِشَةَ ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ أَبِي إِمَامَةَ ،
 وَأَبْنُ السَّنَنِ عَنْ مَيْمُونٍ ، وَقَدْ أَخْطَأَ مِنْ ذِمِّهِ أَنَّ الْبُخَارِيَّ اتَّفَقَ بِرَوَايَتِهِ .
 (٣) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ (ص) قَالَ لَمَّا أَحْبَبَ اللَّهُ عَبْدًا تَدَايَ جَدِيلٌ : أَيْ
 قَدْ أَحْبَبْتَ فَلَتَاتًا فَأُحِبُّهُ ، فَيَتَدَايَ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ . . . وَنَكَتُ قَوْلَهُ تَدَايَ : « سَيَجْعَلُ
 لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » .
 السُّبُوطِيُّ فِي لُغَاتِهِ ص ١٩٩ ط مَعْطَلُ الْخَطِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا ۙ إِبْرَاهِيمَ إِسْرَٰهٖ بِسَاطِئِكَ لِيُخْرِجَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ تَفْقِدُ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۖ ﴾

الكلام واحد والمطلب واحد ، وهو قوم تيسير ، وآخرين تخويف وتهديد . فطوبى
لِمَنْ يَسْرِ لَمْ يَفْقَ بِهِ ، والويل لمن خُوفَ بِلِ خُلَيْلٍ فِيهِ . والقومُ بين موفِّقٍ ومُخْذَلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ
يُبْقِىُ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَوْ تَبْقَىٰ
لَهُمْ رَكِيزٌ ۖ ﴾

أثبتهم وأحيام ، وعلى ما شاء فطرم وأبقام ، ثم بعد ذلك — لما شاء — أماتهم وأفنام ،
ف: ادوا بأجمعهم ، وعلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير .
و: يَطْلُبُونَ — يوم النشور — والنشور والتقطير .

سورة طه

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَحَقَّقَ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ تَمَحَّضُ ^(١) فِي خُطُوبِ عِبَادَتِهِ ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى
ضِيَاءِ صِفَاتِهِ نَزَلَ عَنْ سِيَاءِ نَفْسِهِ .

اسم عزيز مَنْ عَرَفَهُ تَحَمَّضَ هِمَّتُهُ ، وَإِذَا سَمِعَ هِمَّتَهُ صَقَطَتْ عَنْ الْهَارِينِ طَلِبَتُهُ .
اسم مَنْ عَرَفَهُ زَالَ كَرُّهُ وَطَلَبَ قَلْبُهُ ؛ دَيْتُهُ رَبُّهُ ^(٢) وَجَنَّتْ حَيْثُ .

اسم عزيز مَنْ وَكَّنَتْ بِسُودِيَّتِهِ حَرَرَهُ مِنْ رِقِّ شَهْوَانِهِ ، وَأَعْتَقَهُ مِنْ أَسْرِ مَطَالِبِهِ ؛ فَلَا لَهُ
مُحِبُّوبٌ طَلِبٌ ، وَلَا يَسْتَفِزُّهُ لَهْوَورٌ هَرَبٌ .

(١) أَخْطَأَ النَّاسُخَ إِذْ جَعَلَهَا (وَأَمَّا)

(٢) الْهَضْبُ = الْإِنِّ الْخَالِصُ ، وَتَمَحَّضُ = خَلَسَ مِنَ الشَّوَابِ .

(٣) أَى عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ لِقَاتِهِ ؛ لَا طَلِبًا لِلرَّوَابِ وَلَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي الْبَادَةِ التَّلْبِيَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَهُ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ :

الطاء إشارة إلى قلبه — عليه السلام — من غير الله ، والماء إشارة إلى اعتناء قلبه إلى الله .

وقيل طاء بضمه بساط التربة فأنت لا تهتدى إلى غيرنا .

ويقال طوينا من سررك ذكر غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوي لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيش من اهتدى بك .

« ما أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » : أى ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك ، وإنما هذا استفتاح الوصية ، والتمهيد لبساط القرينة .

ويقال إنه لما قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متنا به أزواجاً منهم »^(١) وقف يفرد قسم تباعداً وتزهماً عن أن يقرب من الدنيا استمناهاً بها بوجه قليل له : طأ الأرض بتقديمك .. لم كل هذا التصب اذى تتحمله ؟ فزاد في تعبه ، ووقف ، حتى تقدمت قدماه^(٢) وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » أى لما أهلني من التوفيق حتى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا تَذَكُّرَ لَعَنَ يَحْشَى﴾

فالقرآن تبصرة قوى العقول ، تذكرة قوى الوصول ، فهو لاء به يستبصرون فينالون به راحة النفس في آجالهم ، وهو لاء به يذكرون فيجدون روح الأتس في عاجلهم .

قوله جل ذكره : ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّانَاتِ

الْعَلَى﴾

(١) آية ٨٨ سورة الحجر .

(٢) رجح أنها (تورمت قدماء) لأن السياق يذكرنا بالحديث :

[إنه كان يسلى حتى تورمت قدماءه فعيل له : يا رسول الله « أليس قد هزلك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »] الشيخان ، واللساني . والترمذي عن المعيرة بن شعبة .

(ويسجد العشي إلى فكرة « طأ بتقديمك الأرض » في آخر السورة عند تفسير آية : « ولا تمدن عينيك .. آية ١٣١) .

جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا لِبَائِدِهِ . وَنَفْسُ الْمَائِدِينَ أَرْضُ قَرَارٍ لَطَائِفِهِمْ ، وَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ قَرَارٌ لِعُلُوفِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

استواء عَرْشِهِ فِي السَّمَاءِ مَعْلُومٌ ، وَعَرْشُهُ فِي الْأَرْضِ قُلُوبُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَجْعَلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ سَبْعِينَ مِائَةً ﴾ ^(١) وَعَرْشُ الْقُلُوبِ : قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْوَدِيِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ^(٢) . أَمَّا عَرْشُ السَّمَاءِ فَالْرَّحْمَنُ عَلَيْهِ اسْتَوَى ، وَعَرْشُ الْقُلُوبِ الرَّحْمَنُ عَلَيْهِ اسْتَوَى . عَرْشُ السَّمَاءِ قِبْطَةُ دَعَاءِ الْخَلْقِ ، وَعَرْشُ الْقُلُوبِ عَمَلُ نَفْسِ الْخَلْقِ . فَتَشْتَبِهُ بَيْنَ عَرْشِي وَعَرْشِ

قوله جل ذكره . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

لَهُ الْأَخْيَارُ عَلَى الْعُيُودِ مَلَكُوتًا ، وَالْأَوْلِيَاءُ تَضَعِيصًا وَتَشْرِيقًا . لَهُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْمَدَى ، فَالْكُلُّ لَهُ إِيَّانًا وَخَلْقًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

السِّرُّ وَأَخْفَى

النَّفْسُ لَا تَقِفُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ لَا يَقِفُ عَلَى أَسْرَارِ الرُّوحِ ، وَالرُّوحُ لَا مِثِيلَ لَهُ إِلَى خَلْقِ السَّرِّ ، وَالَّذِي هُوَ أَخْفَى مِنَ السَّرِّ لَهُ مَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلْقُ ^(٣) .

وَيُقَالُ الَّذِي هُوَ أَخْفَى مِنَ السَّرِّ لَا يَضَعُهُ الشَّيْطَانُ ، وَلَا يَكْتَبُهُ الْمَلَكُوتُ ، وَيَسْتَأْذِنُ بِعِلْمِهِ الْجَبَّارُ ، وَلَا تَقِفُ عَلَيْهِ الْأَخْيَارُ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

الْحُسْنَى

(١) آية ١٧ سورة الحاقة .

(٢) آية ٧٠ سورة الإسراء .

(٣) يسجد التفسير في مواضع أخرى من مصنفاته (سر السر) أو (عين السر) الرسالة ص ٤٨

نقى كل موهوم من الخلدان بأن يكون شئ منه سالما للإبداع ، وأثبت كل ما في الوجود له
باستحقاق القديم .

« له الأسماء الحسنى » أى صفاته ، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى ^(١)
ويقال « له الأسماء الحسنى » : تعريفٌ للخلق بأن استحقاق الملو والتقديس عن
النقص له على وصف التفرّد به .

قوله جل ذكره ﴿وَهَلْ أُنَمَّاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾
سؤال فى صيغة الاستفهام وللراد منه التقرير ^(٢) والإثبات . وأجرى — تعالى — سؤله
فى كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام فى أكثر المواقع التى يذكر فيها حديث نبينا
صلّى الله عليه وسلم ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا وَلَكُلْ آتِيكُمْ مِنْهَا
بِقَبَسٍ أَوْ أَحَدُ عَلَى النَّارِ هَدًى﴾

الآح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصود إخراجهم من بينهم ، فكان
موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهله :

« امكثوا إني آنست نارا » فقال أهله : كيف تركنا والوادي مسبح ؟
قال : لأجلكم أفرقكم ؛ فكلل آتيكم من هذه النار بقبس .

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الاتزعاج ، فلم يبال حتى خرج . ففى القصة
أنه لما أتاها وجد شجرة تشتعل من أولها إلى آخرها ، فجمع موسى — عليه السلام —
حشائش يأخذ من تلك النار ، ففرق أن هذه النار لا تسمح لنفسها بأن تُعطى إلى
أحد شعة :

(١) الأرجح — حسب الذى ذكره القشيري فى كتابه التحير والتركيب — أنها (وصفه فعل) .
(٢) وودت (التعدير) والصواب أن تكون (التعرير) فهذا هو المصطلح البلاغى الذى يطلق على مثل
هذا الاستفهام

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَفْعُهُ لِمَنْ يَسْرِي بِلَيْلٍ وَلَا تَقْرِي
يَا مُوسَى هَذِهِ النَّارُ تَنْفَعُ، وَلَكِنْ لَا تَمْلِكُ لِأَحَدٍ مِنْهَا شَيْئًا . يَا مُوسَى هَذِهِ النَّارُ تَحْرَقُ
الْقُلُوبَ لَا النُّفُوسَ .

وَيَقَالُ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِرَاوَةِ قَيْسٍ مِنَ النَّارِ فَكَانَ يَحْتَالُ كَيْفَ يَأْخُذُ مِنْهَا
شَيْئًا ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي حَالِهِ إِذْ سَمِعَ النَّدَاءَ مِنَ الْحَقِّ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى • إِنِّي أَنَا
رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَمْلِيكَ إِنَّكَ بِالْهَرَادِ
الْمُنْدَسِ طَوًى ﴾

. عَلَّمَ مُوسَى أَنَّهُ كَلَامُ الْحَقِّ — سَبَّحَانَهُ — لَمَّا سَمِعَ فِيهِ التَّرْتِيبَ وَالتَّنْظِيمَ وَالتَّرَكِيبَ ، فَتَعَلَّمَ
أَنَّهُ خُطَابُ الْحَقِّ .

وَيَقَالُ إِنَّمَا حَرَفَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ بِتَرْبِيفٍ خَصَّةٍ الْحَقِّ
— سَبَّحَانَهُ — بِهِ مِنْ حَيْثُ الْإِلْهَامُ دُونَ نَوْعٍ مِنَ الْاِسْتِلَالِ .
« قَوْلُهُ : « فَاخْلَعْ نَمْلِيكَ . . » فَإِنْ بَسَّطَ حَضَرَةُ الْمَوْلَى لَا يُوحَا بِتَعْلِيلِهِ .

وَيَقَالُ أَلْقَى عَصَاهُ يَا مُوسَى ، وَاخْلَعْ نَمْلِيكَ ، وَأَقِمْ عِنْدَنَا هَذِهِ الْهَيْلَةَ وَلَا تَزِرْخَ .
وَيَقَالُ الْإِشَارَةُ فِي الْأَمْرِ بِاخْلَعْ التَّمْلِينَ قَرِيبٌ مِنَ حَدِيثِ الْفَارِسِيِّ ، وَالتَّجَرُّدُ لِلْحَقِّ
بِنَسَبِ الْأَفْرَادِ .

وَيَقَالُ « فَاخْلَعْ نَمْلِيكَ » : تَبَرُّأً عَنْ نَوْعِي أَضْلَاكَ ^(١) ، وَامْتَحَ عَنْ الشُّهُودِ جَنْبَيْ أَحْوَاكِ
مِنْ قَرِيبٍ وَيُؤَيِّدُ ، وَفَصْلًا وَفَصْلًا ، وَارْتِيَاكِ وَاجْتِيَاكِ ، وَفَنَاءَ وَفَنَاءَ . . وَكُنْ بِوَصْفِنَا ؛ فَإِنَّمَا
أَنْتَ بِمِثْلِنَا .

أُثْبِتَتْ فِي أَحْوَاكِ حَتَّى كَانَ كَالْمَجْرَدِ عَنْ جِلَّتِهِ ، الْمُسْتَطْلَكُ عَنْ شَوَاهِدِهِ .

(١) رَجَعَا حَدَثَ سَقُوطِ . فَالْكَلَامُ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحٍ (نَوْعِي أَضْلَاكَ) قِيَاسًا عَلَى مَا ذَكَرَ لِي (جَنْبَيْ
أَحْوَاكِ) وَتَرْجِيحُ أَنْ نَوْعِي الْفَصْلُ هَا الْأَمْرُ وَاللَّهْيُ ، أَوْ الْمَأْمُورُ بِهِ وَالْمَرْجُورُ عَنْهُ . . أَوْ مَا لِي هَذَا الْحَقِّ .

قوله : « إِنَّكَ الْوَادِي لِلنَّاسِ طَوِي » : أي إِنَّكَ الْوَادِي لِلنَّاسِ مِنَ الْأَحْلَالِ ؛
 وسألتُ الصَّديقهَ تَجَلُّدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلِإِعْلَانِ وَدَّيْنِ ؛ مِنْ زَيْنِ بِأَحْسَنَ وَتَيْنِ بِصَيَانِ ؛ لِأَنَّ
 الْوَادِيَّ سَطَمَاتُو مِنْ قَهْرِ كُلِّ شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاصْنِعْ لِيَ يَا يُوْحَىٰ ﴾
 وَعَلَىٰ كُلِّ مَنَ بَكَ اصْطَفَيْتَكَ ، وَجِزَّ ذُنُوكَ وَتَقَبَّلْتُكَ مِنْ دَلَسِ الْأَوْهَامِ وَكُلِّ
 مَا يَكْدُرُ صَفْوَتِكَ .

ويقال بعدما اختَرْتُكَ فَأَتَى لِي وَبِي ، وَأَنْتَ حَوِي فِي فَنَائِكَ هُنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾
 قَدْ سَتَّ عَنْ الْأَحْلَالِ فِي أَزَلِي ، وَتَزَهَتْ (.....) (١) وَالْأَشْكَالُ بِاسْتِحْقَاقِ
 الْجَلَالِ وَجَالِ .

ويقال « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا » : الْأَغْيَارُ فِي وَجُودِي فَقَدْ ، وَالرَّسُومُ وَالْأَطْلَالُ عِنْدَ ثُبُوتِ
 حَقِّي حَوِي

قوله : « فَاعْبُدْنِي » : أَي تَدَلَّلْ لِحُسْنِي ، وَأَنْفِذْ أَمْرِي ، وَاخْضَعْ لِحُبُورِ سُلْطَانِي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

إِقَامَتُهَا مِنْ غَيْرِ مَلَاخِظَةٍ جُغَرِيَا وَمُلْشِيهَا يُورِثُ الْإِعْجَابَ . وَإِذَا أَقَامَ الْمُبْدُ صَلَاتَهُ عَلَى نَتِ
 الشُّهُودِ وَالتَّحَقُّقِ بِأَنْ جُغَرِيَا غَيْرُهُ (٢) كَانَتْ الصَّلَاةُ بَيْنَا قَنَمًا لِبَابِ الْوَاوِلَةِ ، وَالْوُقُوفُ عَلَى
 حِمْلِ النُّجُومِ ، وَالتَّحَقُّقُ بِخُصَائِمِ الْقُرْبِ وَالزَّلَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

لَتَجُزِّيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿

الْفَائِدَةُ فِي تَرْجُمَةِ تَلْمِيحِ تَرْجُمِ السَّاعَةِ أَنْ يَسْتَفِيقُوا مِنْ غَفَلَاتِ التَّفَرُّقَةِ ، فَإِذَا حَضَرُوا

(١) حِثُّ مَنْ طَسَّ أَفْقَدْنَا بَقِيَّةَ الْجَلَّةِ ، وَبِمَا كَانَتْ (عَنِ الْأَمْثَالِ) .

(٢) الْغُبُورُ فِي (غَيْرِهِ) يَمُودُ عَلَى الْبَيْدِ وَالْمَقْصُودُ أَنْ يَحْقُقَ الْبَيْدُ بِأَنْ أَرَبَ هُوَ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ تَبَدُّلُهُ .

بقلوبهم - ففي حال استدامة الذكر - فما هو موعود في الأجل أكثره للحاضرين موجود في العاجل ؛ والحاضرة لم كالأخرة . وكذلك جعلوا من أموات الاستقامة شهود الوقت قيامه^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾

إذا أكرمهم الله بحسن التنبيه ، وأحضره بنمت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماه صفاته إلى جحيم أهل الغفلة في تطويعهم في أودية التفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَلَكَ بِبَيْتِكَ يَا مُوسَى ﴾

كرر عليه السؤال في غير آية من عصاه لما كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم للمعجزة .

ويقال إنما قال ذلك لأنه صحبته هيبه للقيام عند فجأة سماع الخطاب ؛ فليست كن بعض ما به من بوايد الإجلال . . رده إلى سماع حديث المعصا ، وأراه ما فيها من الآيات .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غلبات الهيبة له كان لا يبي ولا يطيق ذلك . . فقال له : وما تَلَكَ بِبَيْتِكَ يَا مُوسَى ؟

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّنُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنِيِّ وَلِيِّ فِيهَا مَا رَبُّ أُخْرَى ﴾

قال هي عصاى ، وأخذ يصد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾

(١) فالتباعد - هؤلاء تتوهم كل يوم غير مرة بالمعبر والنوى والفراق (و منهم الفراق اشد من جهنم الاخراق . . الخطايب في مواضع أخرى .

بأنك بنت التوحيد^(١)، واقف على ساطع التنريد، ومتى يصح ذلك، ومتى يسلم لك أن يكون لك مستد توكلأ عليه، ومستند عليه تسمين، وبه تنتفع؟

ثم قال: «ولى فيها مآرب أخرى»: أول قدم في الطريق ترك كل سبب، والتفتى من كل طلب، فكيف كان يسلم له أن يقول: أفضل بها، وأمتنع^(٢)، ولى فيها مآرب أخرى.

ويقال ما ازداد موسى — عليه السلام — تفضيلاً في انتفاعه بصداه إلا كان أقوى وأولى بأن يؤمن بإلقائها، والتفتى عن الانتفاع بها على موجب التنريد لله.

ويقال التوحيد التجريد، وعلامة صحته سقوط الإضافات^(٣) بأسرها، فلا جرم لما ذكر موسى — عليه السلام — ذلك أمر بإلقائها فجعلها الله حية نسي، وولى موسى هارباً ولم يقب. وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة، إذا كوشف صاحبها يسرها يهرب منها.

ويقال لما بسط الحق سبحانه كلامه أخذه أرمية سماع الخطاب، فأجلب حاشئاً وسأل وحاشاً لم يسأل قال: «ولى فيها مآرب أخرى»، ودكر وجوها من الانتفاع، منها أنه قال تولى^(٤) في حال وحدتي، وتضى لى الليل إذا أظلم، وتحسلى إذ غيبت في الطريق فأركبها، وأهش بها على غنى، وتدفع على هدوى. وأعظم مآرب لى فيها أنك قلت: «وما تلك يمينك؟» أية نية أو مآرب أو منفعة تكون أعظم من أن تقول لى: وماتك؟ ويقال قال الحق — بعد ما عهد موسى وجوه الآيات وصنوف انتفاعه بها — لك يا موسى فيها أشياء أخرى أنت غافل عنها وهى انقلابها حية، وفي ذاك لك معجزة وبرهان صديقي.

(١) إذا صح قل هذه العبارة عن الأصل فالشئى يصد بها (فانك موحد)، والموحد أعلى درجات المارفين.

(٢) أى تكون لى بها منة وقوة، وربما كانت (وأنتنع) وكلاماً صحيح لى الملى.

(٣) سقوط الإضافات أى لا يقول لى ولا لى ولا لى — وهذه آية صحة التوحيد عدم (أنظر الرسالة ص ١٤٩).

(٤) وردت (تسى)، وقد وجدنا (تونسى) أقرب لى الملى وإذ كانت بعيدة لى الرسم، فأترناها ونهتاً لى الأصل. أو ربما سقطت (مى) بعد (تسى) ويكون السياق آنذاك مسلجاً.

ويقال جميع ما عُدَّ من المنافع في المعساكن من رُقيل الله .. فكيف له أن ينسبها
ويضيقها إلى نفسه ، ولهاذا قالوا :

يَا جِنَّةَ الْخُلَيْرِ ، وَلَمْدَايَا إِذَا تُهْدَى إِلَيْكَ فَا مَتَكَ يَهْدَى
ويقال قال موسى لما رآها حيةً تهتز : لَقَدْ عَلِمْتُ كُلَّ وَصْفٍ بِهَذِهِ الْمَعَا ، أَمَّا هَذِهِ
الوَاحِدَةُ فَلَمْ أَعْرِفْهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا
هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَى ﴿

لَا عِزَّةَ بِمَا يَوْمُ ظَاهِرُ الْأَشْيَاءِ ؛ فَهَذَا يَوْمُ الظَّاهِرِ بَشَرٌ ثُمَّ يَبْدُو خِلَافَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ؛
فَصَارَ مُوسَى صَارَتْ حَيَّةً .

ثُمَّ قَالَ الْمَقْصُودُ بِذَلِكَ أَنْ تَكُونَ لَكَ آيَةٌ وَمُعْجِزَةٌ لَا بَلَاءَ وَفِتْنَةً ^(١) .

قوله : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . . . ﴾ : أَشْهَدُهُ — بِإِقْلَابِ الْمَعَا مِنْ خِلَالِ إِلَى حَالٍ ؛
مَرَّةً عَصَا ثُمَّ ثَمْبَاتًا ثُمَّ عَصَا مَرَّةً أُخْرَى — أَنَّهُ يُنْبِئُ عِيَادَهُ فِي حَالِ التَّلَوِينِ مَرَّةً وَمَرَّةً ؛
فَعَيْنٌ أَخَذَتْ مِنْ رَدٍّ ، وَمِنْ تَجَمُّعٍ وَمِنْ فَرْقٍ الْخِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخْرِجْ
بِیَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَى *
لِتُرِيَنَّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾

كَأَرَاهُ آيَةً مِنْ خَارِجٍ أَرَاهُ آيَةً مِنْ نَفْسِهِ ، وَهِيَ قَلْبٌ يَدُهُ بِيَضَاءٍ ؛ إِذْ جَمَعَهَا فِي جِيبِهِ
مِنْ غَيْرِ الْبَرَصِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ^(٣) .

(١) وهذا الكلام ينطبق . ذلك على الكرامة التي تظهر على يدي الول ، وهذا فرق بين المعجزة
والكرامة من ناحية وبين السحر من ناحية أخرى .

(٢) حتى يصلوا إلى حال (التكميل) .

(٣) آية ٥٣ سورة فصلت .

وإنا نأهل : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ وَلَمْ يَقُلْ كُنْ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا عَلَيْهِ مِنَ الْبَاسِ كُنْ .
 قوله : « لاريك »^(١) من آياتنا الكبرى : الآية الكبرى هي ما كان يهدى في نفسه من
 الشهود والوجود ، وما لا يكون بتكليف العبد وتصرفه من فنون الأحوال التي يدركها
 صاحبها فوقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾
 بعدما أحسن كلامه من غير واسطة ، وشرّف مقامه ، وأجزل إكرامه أمره بالذهاب
 ليدعو فرعون إلى الله — مع علمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يعترف — فنقّ على
 موسى ذهابه إلى فرعون ، وسمّحُ جندِه منه ، بعدما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه أتر
 أمره بحننه على مراحه نفسه .

وقال لما أمره بالذهاب إلى فرعون سأل الله أهية الثقل وما به يتم تبليغ ما حل من
 الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي
 وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾
 ﴿ لَسَانِي ﴾ يقهوا قولي ﴿

لَيْسَ أَنْ مِنْ قَرَطِ التَّكْلِيفِ التَّسْكُنِ مِنْ إِدَاءِ الْأُمُورِ بِهِ .
 ويقال إن موسى لما أخذ في المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأل فظل يدعو :
 « ربّ اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ... » وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .
 قوله « قال رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري » : حتى أطيع أن أسمع كلام غيره
 بعدما جهت منك . « واحلل عقدة من لساني » : حتى ينطق بمخاطبة غيره ، وقوّى حتى
 أرد ما أرد ... بك لا بي

قوله جل ذكره : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَمَلٍ ﴾ هارون
 أني • اشدّد به أزدري •

(١) أعطى الناسخ إذ جعلها (تروى) .

سَأَلَ أَنْ يَصْحَبَ أَخَاهُ هـ ، ولما ذهب لسباع كلام الله حين قال تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة » (١) كان بغيره هـ ، لأن الذهاب إلى الخلق يوجب الوحشة ؛ فطلب من أخيه الصعبة لِيُخَفِّفَ عَلَيْهِ كلفة المشقة .

ويقال إن المحبة توجب التجرد والافتراد وألا يكون للغير مع الحب مساهم ؛ ففى ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه هـ ، ولما كان الذهاب إلى الميقات لم يكن للغير سبيل إلى صحبته هـ ، إذ كان المقصود من ذهابه أن يكون مخصوصاً بهاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كَى لَسْبَحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذَرَكَ كَثِيرًا ۖ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ ﴾
بَيَّنَّ أَنَّ عَلَيْهِ مَشَاوَرَةً أَخِيهِ لَهُ بِحَقِّ رَبِّهِ لَا يَهْطُ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ : « كَى لَسْبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذَرَكَ كَثِيرًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ۚ ﴾
أَعْطَيْنَاكَ مَسْأَلَتَ ، وَتَنَاسَيْتَ ابْتِدَاءَ حَالِكَ حِينَ حَفَظْنَاكَ فِي الْيَمِّ وَنَجَّيْنَا أَمْلَكَ مِنْ ذِكِّ النَّفْسِ ، وَرَبَّيْنَاكَ فِي جَهَنَّمَ الْعَدُوِّ . فَأَيْنَ — حِينَئِذٍ — كَانَ سُؤْلُكَ وَاجْتِنَابُكَ وَدَعَاؤُكَ (٢) ؟
وَأَتَيْنَا بِقَلْبِ امْرَأَةٍ فَرَعُونَ شَقَّتْكَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ الْمَحَبَّةَ حَتَّى أَحْبَبَكَ عَدُوُّكَ ، وَرَبَّاكَ حَتَّى قَتَلَكَ يَسْبَحُكَ مَا لَا يَحْصَى مِنَ الْوَهْمَانِ ، وَأَلْقَى بَدَاؤَكَ بِهِنَا الْيَمِّنِ هُوَ الْاِقْدَى آتَاكَ سُؤْلَكَ ، وَحَقَّقَكَ مَأْمُولَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أَمْلِكَ مَا يَوْحِي ۖ ﴾
أَنْ اقْنِفِي فِي التَّسَاوُتِ فَاقْنِفِي فِي الْيَمِّ ، فَتَلْقِيهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ عَمَّا يَأْخُذُهُ عَدُوُّهُ وَوَعْدُوهُ ۖ

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) أى أن فعل الله دائم ، وسأله الدعاء ، وغير مرتبط بالاختيار الإنسانى ولا بإعمال الإنسانى ، وهذه نظرة فى الشمول قلنا يظن إليها غير الصوفية . فأين منهم المثرة الذين يوجبون على الله ؟! ذلك أحد المراتب البهيدة التى يعتمد عليها البشرى .

كان ذلك وحى الهام ، ألقى الله في قلبها أن تجعله في تابوت ، وتلقيه في الميم يمين نهر النيل ، ففعلت ، فألقاه النهر على الساحل ، فحِيلَ إلى فرعون . فلما وقع بصراً امرأة فرعون عليه بإشر حبه قلبها ، وكذلك وقعت بحبته في قلب فرعون ، ولكنها كانت أضف قلباً ، فسبقت بقولها « قرة عين لي ولك لا تقتلوه . . »^(١) ، ولولا أنها علّيت أنه أخذ شعبة من قلب فرعون ما أخذ من قلبها لم تقتل : « قرة عين لي ولك » .

قوله : « يأخذني عدو ويعدو له » : وبه في حجر العدو وكان قد قتل بسببه ألوفاً من الوثان . . ولكن من مآخيه يؤتى الخنزير ، وبلاء كل أحد كان بعده إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تقدّم عليه بسنين ، ففي اليوم الذي أخذ موسى في حجره كان قد أمر بقتل كثير من الوثان ، ثم إنه ربه ليكون إهلاكه ملكه على يده . . ليعلم أن أسرار الأقدار لا يطمها إلا الجبار .

ويقال كان فرعون يُسمّى والد موسى وأباه — ولم يكن . وكان يقال لأُم موسى ظئر^(٢) موسى — ولم تكن ؛ فمن حيث الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان للمولى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . هكذا الحديث والقصّة^(٣) .

ولقد جاء في القصّة أن موسى لما وُضع في حجر فرعون لطم وجهه فقال : إن هذا من أولاد الأعداء فيجب أن يُقتل ، قالت امرأته : إنه صبي لا تميز له ، ويشهد لهذا أنه لا يُميز بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأزاحت أن يصدق زوجها قالتها ، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمد يده إلى الجواهر فأخذ جبريل عليه السلام بيده وصرفها إلى النار فأخذت جرة بيده ، وقرّبها من فيه فاحترق لسانه — ويقال إن العدة التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق — فندد ذلك قالت امرأة فرعون : ها قد تبين أن هذا لا تميز له ؛ فقد أخذ الجرة إلى فيه . ونخلص موسى بهذا مما حصل منه من لطم فرعون .

(١) آية ٩ سورة القصص . (٢) الظئر . الرضعة لغير ولها .

(٣) بقصد الحديث والقصّة التصوف وأباه ؛ فقلب اليد مرتبط بقلبه وحقيقته باطنه لا بما يستفاد من ظاهره ورأى الناس فيه ، وهذا أصل من أصول أهل اللامعة التيسابورية .

وقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق من أخضر الجرة وهو صبي رضيع، ثم احترق لسانه، فلم الكل أن هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فعال لما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْبَتُ عَلَيْكَ حُبَّةً مِّنِّي﴾

أى أحبتك. ويقال فى لفظ الناس: فلان ألقى محبته على فلان أى أحبه. ويقال «أقبت عليك حبة منى»: أى مَرَحَتْ فى قلوب الناس حبة لك، فلقن إذا أحب حبة فكل من شاهده أحبه. ويقال للآخرة فى عينيهِ؛ فسكان لا يراه أحد إلا أحبه.

ويقال «أقبت عليك حبة منى»: أى أثبت فى قلبك محبى؛ فإن حبة البدر لله لا تكون إلا بإثبات الحق - سبحانه - ذلك فى قلبه، وفى معناه أشدوا: إِنَّ الهبة أمرها محبب تُلقى عليك وما لها سبب

قوله جل ذكره: ﴿وَلِتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾

أى برأى منى. ويقال لا أمكن غيرى بأن يستبدك حتى.

ويقال أحفظك من كل قَير، ومن كل حديث سوى حديثنا. ويقال ما وكننا حَفَظَكَ إلى أحد.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ

عَلَىٰ مَن يَكْفُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا...﴾

البلاء على حسَب قوة صاحبه وضعه، فكما كان للرء أقوى كان بلاؤه أوفى^(١)، وكما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أم موسى ضعيفة فردَّ إليها ولدها بعد أيام، وكان يقرب أقوى فى حاله فلم يعد إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَكَّلْتُ نَفْسًا فَجَعِلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾

(١) قال صلى الله عليه وسلم «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمتل فالأمتل» رواه الترمذى. وابن ماجة والحاكم من سعد بن أبى وقاص.

أجرى الله عليه ما هو في صورة كبيرة من قتل النفس بغير حق ، ثم بين الله أنه لا يضره ذلك ، فليست العبرة بقتل البهي في قتله وكثرته إنما العبرة ببناء الحق بشأن أحد أو عدو له .

وقال قد لا يموت كثير من المخلوق بغير من المنابر ، وكل من أناس لا يموتون وقد شربوا ألوفا من السياط ، وصاحب موسى عليه السلام ومقتولته ملت بوكزة إيش^(١) الذي أوجب وقته لولا أنه أراد به فتنة لموسى ؟ وفي بعض الكتب أنه — سبحانه — أعلم موسى كذا وكذا مقاما ، وأسمه كلامه كل مرة بإسم آخر ، وفي كل مرة كان يقول له : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » .

« فحينئذ من الغم » : أريناك حين أجمع حتى زال عنك ملائكتك من الغم بصفة مقتضى النفرة ، فلما أريناك مير جريان التندير فحينئذ من الغم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ .

استغناصك لنا حتى لا تكون لنسونا . وقال جئنا عليك البلاء ونوحنه حتى جردناك من كل اختيار وإرادة ، ثم جئنا رقيناك إلى ما استوجبت من السلم الذي أعلنك له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَن ﴾ .

وكنت عند الناس أنك أجير لشعب ، ولم يظهر لم ما أودعنا فيك ، وكان يكنى — عندهم — أن تكون ختانا^(٢) لشعب .

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ .

أي حددنا أيام كونك في مدين لشعب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شركك وعجبتك منتظرين لك ؛ فجئت على قدر .

(١) أي (أي شيء) وفي لغة تدمر مصطلحات التشيزي من حين إلى آخر . وجاء في الوسط ج ١

ص ٢٤ أن العرب تكلمت بها .

(٢) أي زوجا لآلته ، وفي الحديث « سئل عن رسول الله »

ويقال إِنَّ الْأَجَلَ إِذَا جَاءَ لِلْأَشْيَاءِ فَلَا تَأْخِيرَ فِيهِ وَلَا تَقْدِيمَ ، وَأَشْدُوا فِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى :

يَبْنَا خَاطِرُ الْمَلَى بِالتَّلَاقِ سَابِجٌ فِي فَوَادِي وَفَوَادِي
جَمَعَ اللَّهُ يَبْنَا فَالْتَقِينَا هَكَذَا بِنْتُهُ بَلَا مِثَارِ
قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْلَتْكَ لِنَفْسِي ﴾ .

استخلصتكَ لي حتى لا تصلح لأحدٍ غيري ، ولا يتأتى شيء منك غير تبليغ رسالتي ، وما هو مرادى منك .

ويقال أفردتُ بمرِّك لي ، وجعلتُ إقبالَكَ عليّ دون غيري ، وجعلتُ بينك وبين كل أحدٍ من هو دوني .

ويقال « واصلتكَ لِنَفْسِي » : قَطَعُهُ بهذا عن كلِّ أحدٍ ، ثم قال له : « اذهب إلى فرعون » .

قوله جل ذكره : ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي
وَلَا تَنِيَا فِي فِرْعَوْنَ ﴾ . ﴿ أَذْهَبَا إِلَى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .

تعلَّلَ موسى عليه السلام لما أُرْسِلَهُ الْحَقُّ إِلَى فِرْعَوْنَ بِوُجُوهٍ مِنَ الْعِلَلِ مِثْلَ قَوْلِهِ : « يَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » (١) ، « إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون » (٢) .. إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم يَنْضَحْ ذَلِكَ ، وَقَالَ اللَّهُ : « إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى » ، فَاسْتَقْلَ (٣) موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الْآنَ لَا أَبَالِي بِعَدَا مَا أَنْتَ مَعِي .

قوله جل ذكره : ﴿ قَوْلًا لَبِئْنَا كَلِمَةً يَنْذِرُ
أَوْ يَنْخَشِئُ ﴾ .

(١) آيَةُ ١٢ سُورَةِ النَّصِيِّ

(٢) آيَةُ ٢٢ سُورَةِ النَّصِيِّ

(٣) الْإِسْتِقْلَالَ مِنْهُ الْإِسْتِغْنَاءَ .

إنما أمرها باللائمة منه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْهُ إلى الدِّين ، وفي حال الدَّجوة يجب اليقين ^(١) ، فإنه وقت الشبهة ، فلا بدَّ من الإمهال ربنا ينظر ^(٢) ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : « وجادلهم بالتي هي أحسن ^(٣) » : وهو الإمهال حتى ينظروا ويستلثوا ، وكذلك قال : « قل إنما أهلكم بواحدة أن قوموا لله متين وفرادين ثم تمسكوا ما باصحابكم من حجة ^(٤) » .

ثم إذا ظهر من انقضاء التردد والإيهام غيبتنا يُقابلُ بالغلظة والخلف .
ويقال هلَّسها خطاب الأكابر ذوى الحشمة ؛ فرعونُ — وإنْ كان كافراً — إلا أنه كان سلطاناً وقته ، والمتسلطُ على عبادِ الله .

ويقال إذا كان الأمرُ في مخاطبة الأعداء بالترقيق ولللائمة .. فكيف مع المؤمنين في السؤال ؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال للكافرين في التبرر للمؤمن .

ويقال إذا كان رِقَّتُهُ مِنْ جَعْدَةٍ فكيف رِقَّتُهُ مِنْ وَحْدَةٍ ؟

ويقال إذا كان رِقَّتُهُ بِالْكَفَّارِ فكيف رِقَّتُهُ بِالْإِيمَانِ ؟

ويقال إذا كان رِقَّتُهُ مِنْ قَالٍ : أنا . فكيف رِقَّتُهُ مِنْ قَالٍ : أنت ؟

ويقال إنه ^(٥) أَحْسَنُ تَرْيَةٍ مَوْمِي عليه السلام ؛ فأراد أن يرفق به اليومَ في الدنيا على جهة المكافأة .

وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى » ^(٦) .

وقوله : « لله يتذكر أو ينسى » : أى كَوْنًا على وجهه أن يُؤْمِنَ . ولم يضرها أنه لا يؤمن

(١) وردت (التكسين) وهي خطأ في النسخ وقد اتفق أحد القراء إلى هذا الخطأ فوضع علامة استيعاب صغيرة .

(٢) انظر هنا ستاها التذكر في الأمر .

(٣) آية ١٢٥ سورة النحل .

(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

(٥) أى فرعون .

(٦) آية ١٨ سورة التاويل .

لثلاث تداعلها فترة في تبليغ الرسالة علماً منه^(١) بأنه لا يؤمن ولا يقبل .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ

عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَفْطِنَ ﴾

في الآية دليل على أن الخوف^(٢) الذي تقتضيه جملة الإنسان غير مألوم صاحبه عليه ،

حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام : « إِنَّا نَخَافُ » .

ثم إنه سبحانه سكن ما بهما من الخوف بوعد النصرة لهما .

ويقال لم يخافا على نفسيهما شقاً عليهما ، ولكن قالوا : إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَهْلُ بنا مَكِيدَةُ

من جهنم ، فلا يحصل فينا تأمرنا به قياماً بأمره ، فكان ذلك الخوف لأجل حق الله لا لأجل

حفظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من سلبط الله إله عليهما ، ولكنهما تأدبا

في الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْتَعِذُّ

وَأُرِي ﴾

تَلَطَّفَ في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله : « إِنِّي مَعَكُمَا » بقولهما :

« إِنَّا نَخَافُ » ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما : « إِنِّي مَعَكُمَا » وإلا فأتى بالخوف لِمَنْ

هو مخصوص بالنبوة ؟ !

ويقال سكنَ فيهما الخوف بقوله : « إِنِّي مَعَكُمَا » ، فقربا على العباب إليه ؛ إذ من شرط

التكليف التمكن .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَرْسَلْنَا قُلُوبَنَا بِرُسُلِنَا وَأَنزَلْنَا رُسُلَنَا بَ

رُسُلِنَا وَأَنزَلْنَا رُسُلَنَا بَ

رُسُلِنَا وَأَنزَلْنَا رُسُلَنَا بَ

(١) وردت (منهم) وهي خطأ في النسخ لأن المقصود : مع أنه سبحانه علم بأنه لن يؤمن ولن يقبل .

(٢) في هذه الإشارة توضيح هام لاسطلاح (الخوف) .

طالَّ البلاءُ بينَ إسرائيلَ من جهة فرعون ، فندركهم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين ،
بذلك أجرى سُنَّتَهُ أَنَّهُ يُرْخِي عَنْكَ الظَّالِمَ ، ولكن إذا أَخَذَهُ فَإِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾

من شَرِّطِ التَّكْلِيفَ التَّحْكِينَ بِالْبَيِّنَةِ وَالْآيَةِ لِلرَّسُولِ حَتَّى يَتَضَيَّحَ مَا يَدُلُّ عَلَى مِدْقِهِ
فَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ النَّبُوَّةِ . ثم إنَّ تلكَ الآيَةَ وَتِلْكَ الْبَيِّنَةُ مَا نَفَضَهُمْ ، وَإِنَّمَا تَأَكَّدَتْ بِهِمَا عَلَيْهِمُ
الْحُجَّةُ ؛ فَإِذَا حَيَّى بَصَرَ الْقَلْبِ فَأَنَّى تَتَفَعَّلُ بِصِيرَةِ الْحُجَّةِ ؟ وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا :

وَفِي نَظَرِ الْعَادِيِّ إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةٌ إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا سَبِيلَ لِلوَادِي

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾

إِنَّمَا يَنْفِيسُ الْهُدَى مَنْ كَمَلَ قَلْبُهُ بِنُورِ الْإِيمَانِ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ عَلَى قَلْبِهِ غَشَاوَةُ الْجَهْلِ ..
فَقِي يَسْمَعُ إِلَى الْهُدَى ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ

عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

مَا بَشَّرَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَقَدْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِهِ الْأَمْرَ ، وَبَشَّرَهُمُ بِالنَّوَابِ
عَلَى حِفْظِ الْأَمْرِ . وَالْعَذَابُ مُعْجَلٌ وَمُؤَجَّلٌ ؛ فَمُؤَجَّلُهُ لَا يُوقَفُ عَلَى تَقْصِيرِ الْأَعْمَادِ وَكَثْرَةِ
مُؤَجَّلِ النَّوَابِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمُ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (١) .

وَأَمَّا مُعْجَلُ الْعُقُوبَةِ فَأَنْوَاعٌ ، وَعَلَى حَسَبِ مَقَامِ الرَّءِ تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ لِلطَّالِبَاتِ ، وَازِيَادَةُ
فِي الْعُقُوبَةِ تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ اسْتِحْقَاقِ الرَّتَبَةِ ؛ كُلُّهُ وَالْمَبْدَى فِي الْحُلَّةِ . وَقِسْوَةُ الْقَلْبِ نَوْعُ
عُقُوبَةٍ ، وَمَا يَتَدَاخَلُ الطَّاعَةُ نَوْعُ عُقُوبَةٍ ، وَخِسْرَانُ نَصِيبٍ فِي اللَّالِ وَالْأَنْفُسُ نَوْعُ عُقُوبَةٍ ..
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى • قَالَ

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ

ثُمَّ هَدَى •

(١) آيَةُ ١٧ سُورَةِ السَّجْدَةِ .

« فن ريكما » على التثنية ، ثم قال : « يا موسى » فأفرده بالتطالع بعدما قال : « فن ريكما » . فيحتل أن ذلك لشاككة رهوس الآي ، ويحتل أن موسى كان مُقَدِّماً على هارون فَخَصَهُ بالنداء .

وإنما أجلب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على رِشْهِ — سبحانه — فقال : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه » لِيُظْهِرَ أَنَّ الدليلَ على إثباته — سبحانه — ما دلَّتْ عليه أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَنُكْفِرَنَّ بِهِ وَنُحِبِّبَنَّهُ لِمَلَائِكَتِهِمْ ﴾ قال
عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ
رَبِّي وَلَا يُنْسَى ﴿

لا يمكنني أن أخبركم إلا بما أخبرني به ربِّي ، فما عَرَفْنِي عَرَفْتُ ، وما ستره
على وَفَّقْتُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾

جَعَلَ الْأَرْضَ مَسْتَقَرًّا لِبَادَتِهِمْ ، وجعل أهدأهم مستقراً لعبادته ، وظهورهم مستقراً
لمعرفته (١) ، وأرواحهم مستقراً لمحبتة ، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنَّكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

هَيَّا لَهُمْ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ ، وكما نَظَرَ إِلَيْهِمْ وَرَزَقَهُمْ رَزَقَ دَوَابَّهُمُ الَّتِي يَنْتَفِعُونَ بِهَا ،

(١) وردت (وارواحهم مستقراً لعبادته) وللصواب ان تكون (وظهورهم مستقراً لمعرفته) حسبنا نعرف من مذهب التشيع في ترتيب المسالك الباطنية (انظر بحثنا في المكتوبات من الإمام التشيعي ونصونه) ط مؤسسة الحلبي .

وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَنْقَرُوا بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ ، وَلَنْ يَنْفَعُوا — مَا أَمَكْنَهُمْ — بِأَنْعَامِهِمْ رَيْكَذَلِ
لَهُمْ أَنْعَامُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

إِذْ خَلَقْنَاكُمْ مِنَ التُّرَابِ ، وَإِذْ أَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ صُلْبِهِ .. قَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنَ التُّرَابِ أَيْضًا .
وَالْأَجْسَادُ قَوَالِبُ وَالْأَرْوَاحُ وَدَائِعُ ، وَالْقَوَالِبُ لِسَبْتِهَا التُّرْبَةُ ^(١) ، وَالْوَدَائِعُ صَفَتُهَا التُّرْبَةُ ^(٢) ،
وَالْقَوَالِبُ بِزَيْنِهَا بِأَضْلَاهُ ، وَالْوَدَائِعُ بِحَيِّهَا بِكُشْفِ جِلَهِ وَلُطْفِ جَمَالِهِ . وَالْقَوَالِبُ الْيَوْمِ
اِهْتِكَافُ عَلَى سِلَاطِ عِبَادَتِهِ ، وَالْوَدَائِعُ اتِّصَافُ بِدَوَامِ مَعْرِفَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ
وَأَنَّى ﴾

أَمْرُهُ بِجَبْرِهِ ، وَأَمْرُهُ مِنْ شُهُودِ ذَلِكَ بِسِرِّهِ ، فَاتَّخَذَ فِيهِ كَلَامَهُ ، وَمَا اتَّخَذَ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ
اِتِّقَانِهِ ، وَبَدَّرَ لَهُ مِنْ لُفْظِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَجَعَلْنَا لَكُمْ خُرُوجًا مِنْ أَرْضِنَا
بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى • فَلَنَأْتِيَنَّكَ
بِسَحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ
مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ
مَكَانًا سُوًى ﴾

دَعَا مُوسَى إِلَى اللَّهِ ، وَخَاطَبَهُمْ فِي حَدِيثِ الْآخِرَةِ مِنْ تَبَشِيرِ بَشَوَابٍ ، وَإِنْذَارٍ بِعَذَابٍ ،
فَلَمْ يُجِيبُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدُّنْيَا ، وَمَا زَادَهُمْ تَذَكُّيرًا إِلَّا أَزْدَادُوا غَفْلَةً وَجَهَالَةً .

(١) ، (٢) ، (٣) وودتا (البرية) و (القوية) ولم نجد لـ (الجملتين) معنى على ذلك — في حدود ما نعرف —
بينما لو صارت الـ (البرية) إلى (القوية) كما تشير الآية وكما يشير كلام المصنف في بداية الفقرة ، ثم لو جعلنا
(القوية) بدل (القوية) لا نسجم السياق ، ونحن في هذا لا نصدور إلا عن استخدام التبشيري لهذا الأسلوب
في مواضع مماثلة — واحة أحلم .

كذلك صفة من ونحو الحق بالإيجاد ، لم يكن له مرئان ، ولا بما يقال إيمان ، ولا يتأسف
على ما يفوته ، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده .

قوله : « فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه . . » تأهبوا لِلْأَمْسِيَةِ الحَقِيقَةِ ؛ وَتَسَمَّوْا
لِلْمُخَالَفَةِ ، فَقَصَّصْتُمُ الْمُنِيئَةَ وَكَبَّسْتُمُ الْقَمَرَةَ ، وكما قيل :

استقبلني وسيفه سلول ولال لي واحدا سنول
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ
يُخْشِرَ النَّاسَ ضَعْفَى ﴾

فكان في ذلك اليوم انتضالهم ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ
ثُمَّ أَتَى ﴾

كادَ فِرْعَوْنٌ فَكَيْدَهُ ، وأراد قلوبته إليه ، ودعا للاستعداد فأذِلَّ وأَذِيقَ الْبَأْسَ .
ولم يدع موسى شيئاً من الوعد والرقى ، ولم يتجاوز فرعون شيئاً من البؤس والخفق ، ولكن :
﴿ قَالَ لِمَ مَوْعِدُكُمْ لَا تَفْقَرُوا
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِذُنُوبِهِ
وَقَدْ خَابَ قَوْمُ اقْرَأْ ﴾ فتنازَعُوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى ﴿

اعلموا أنه لا طاقة لأحد مع الله — سبحانه — إذا عُدَّ به ، لعلوا مقاتله على الإفك ،
ورموا بمعجزته بالسحر فقالوا :

﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّرِيدَانِ
أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ

(١) يشير القسري بذلك إلى شاهد حمري يبين وروده :
من محل بغير ما هو فيه فضحه شواهد الامتحان
ويهدف إلى أن يثبت أن تزيين الطاهر لا جدوى منه في الحقيقة .

يسيرها ويذهباً بطريقكم المثل •
فَأَجِئُوا كَيْدُكُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفَا
وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى •

ما في دعوها كاذبان يَقْعِدَانِ إِلَى إِخْرَاجِكُمْ مِنْ بَلَدِكُمْ ، والتشويش عليكم
في مُتَعَدِّكُمْ .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ
نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾

أظهروا من أنفسهم التجلد فلما بَانَ النصرَةُ لَهُمْ ، وَإِخْلَافًا إِلَى مَا كَانَ السَّحَرَةُ يُسَوُّونَ
لَهُمْ ، فَخَيَّرُوا مُوسَى فِي الْإِبْتِدَاءِ بِنَاءً عَلَى مَا تَوَعَّاهُ مِنَ الْإِلْقَاءِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى :

﴿ قَالِ بَلْ أَتَقُولُ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ
وَعَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
أَنَّهُمْ تَسَوَّى • فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَى • وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ
سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ
اتَّبَعَ • فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبُجًا قَالُوا
أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى • قَالَ
هَاسِنٌ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ
فَلَا تَقْلَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
خِلَافِ ذَلِكُمْ فَتُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ
وَأَعْمَلْنَ أَيُّنَا أَشَدُّ عَدَاوَةً بَاقِي ﴾

قال لم موسى بل ألقوا أثم ، وليس ذلك إذنا لم في السحر ، ولكن أراد الحق إظهار
توحيدهم ، فلما خيّر الناس بإلقاء الجبال أنها حيايت ابتكمت عصا موسى جُمَّلةً ما صَعُرُوا ،
وَحَقَّقَ السَّحْرَةَ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مَحْلُوقٌ حَيْثُ تَلَاثَى عَيْنٌ مَا كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَوَّلِ (١) الْجِبَالِ ،
وَصَارَ التَّمْبَانُ عَصًا كَمَا كَانَ ، فَسَجَدُوا لِلَّهِ مُؤْمِنِينَ ، وَاقْلَبَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ خَائِبِينَ ،
وَتَوَحَّدَهُم بِالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ ، وَفَنَوْهُ مِنَ الْمَذَابِ الصَّبِّ ، وَبَسَمًا كَانُوا يَقْسِمُونَ بِعِزِّهِ
فِرْعَوْنُ صَارُوا يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيْنَاتِ وَاللّٰهِ فَعَلَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ
قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

أى بالله الذى فطرنا إنا لن نُؤْمِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ . وَلَمَّا طَلَّتْ فِي أَسْرَادِهِمْ
شُمُوسُ الْعُرْفَانِ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَنْوَارُ الْعَنَاةِ أَبْصَرُوا الْحَقَّ صُبْحَانَهُ بِأَسْرَادِهِمْ ، فَتَقَوُّوا بَيِّنَاتِ
التَّصْدِيقِ ، وَسَجَدُوا بِقُلُوبِهِمْ لِلْمَشْهُودِ ، وَلَمْ يَحْتَشِبُوا مِمَّا تَوَحَّدَهُمْ بِهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَرَأَوْا ذَلِكَ
مِنْ اللَّهِ فَاسْتَمَدُّوا الْبَلَاءَ ، وَحَصَلُوا الْأَوَاءَ (٢) ، فَكَانُوا فِي الْفَدَاةِ كُفْرًا سَحْرَةً ، وَأَسْمَوْا
أَخْيَارًا بِرَّزَّةٍ (٣) .

قوله « فاقض ما أنت قاضي . . . » هَلِّوْا أَنَّ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا يَنْقُضُ — وَإِنْ تَمَادَى ،
وَيَنْتَهَى وَإِنْ تَنَاهَى (٤)

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُكَفِّرَ لَنَا خَطَايَانَا
وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللّٰهُ
خَبِيرٌ وَاعْتَقِ ﴾ .

أَمْ الْأَشْيَاءُ — عَلَى مَنْ عَرَفَهُ — مَفْزَعُهُ غُلَطَايَاهُ ؛ فَهَذَا أَمُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لَا

(١) الْأَوَّلُ جَمْعٌ وَقَرَأَ = الْحُلُّ الْعَمَلُ .

(٢) الْأَوَاءُ = ضَيْقُ الْمَيْسَةِ وَضَمُّ الْمَرْصِ (الْوَسِيطِ) .

(٣) فِي هَذِهِ الْإِشَارَةِ فَتَحَ لِبَابِ الْأَمَلِ أَمَامَ الصَّادِ نَظَرًا لِنُفْصَالِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ، وَنَظَرًا
بَيْنَ الْعَنَاءِ وَالْمَاءِ .

(٤) أَيْ وَإِنْ تَمَادَى فِي الشَّدَّةِ .

استكشف^(١) من حله ، وحلّ به ماحلّ قال : « رب إني ظلمت نفسي ... »^(٢) وقال لنبينا
— صلى الله عليه وسلم — « واستغفر لذنبك »^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان
على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة »^(٤) . ومنّ عليه بقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم
من ذنبك وما تأخر »^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آوَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ
بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْبَحْرِ
يَبِيسًا لَا تَخَافُ دَرَسًا وَلَا نَشْئًا •
فَأَتَيْنَاهُمُ فِرْعَوْنَ بِمُجْنَدِهِ فَجَشِعَهُمْ مِثْقَ
الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ • وَأَخْلَىٰ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُ وَمَآ هَدَىٰ •

لما هبّ موسى ببني إسرائيل البحر ، وقرب منه فرعون ، ورأى البحر منفلقا والطريق
فيه يَبِيسًا عَرَّ قَوْمَهُ بتليسه فقال : « إنه يمشتني افلق ، فأنا ربكم الأعلى ا » وحصل
— كما في القصة — من دخوله بِسُكْرِهِ البحر حتى دخل آخره ، ولم أن يخرج أولهم ، فأمر الله
البحر حتى انطلعت أمواجه ففرقوا بمجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له اليأس^(٦) ، ولم ينفعه
إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره ، وقد أدركته الشقاوة التي سَهَبَتْ له من التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ
عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ وَزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ •

-
- (١) يلمد القسري حين (بنت لها سواتنها وانكشفت) وربما كانت في الأصل (استكشف)
أي حبل مما قبل فهي قرية في الكتابة وملأمة السجاق .
(٢) آية ١٦ سورة القصص
(٣) آية ٥٥ سورة طه
(٤) من امر موبنة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى
في اليوم والأول مائة مرة . أخرجه مسلم وأبو داود .
(٥) آية ٢ سورة الفتح .
(٦) ربما كانت (اليأس) بإلفاء فهي ملأمة السجاق .

يَذَكِّرُهُمْ آلَاءَهُ ، وَيَعِذُّ عَلَيْهِمْ نَهْلَهُ ، وَيَأْمُرُهُم بِالْإِزْمَارِ الطَّاعَةِ وَالْتِيَامِ بِالشُّكْرِ لَا أَسْبِيغَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَنُونِ النَّفَمِ . ثُمَّ يَذَكِّرُهُمْ مَأْمَنَهُ بِهِ عَلَى أَسْلَافِهِمْ مِنْ إِزْأَالِ الْمُنِّ وَالسُّلُوى ، وَضُرُوبِ الْيَحْيَى وَفَنُونِ الْبُلُوى .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ .

الطَّيِّبُ مَا كَانَ حَلَالًا . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ مَا لَا يَقَعِي اللَّهُ مُكْتَسِبُهُ . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَكُونُ عَلَى مَشَاهِدَةِ الرِّزَاقِ . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ مَا حَصَلَ مِنْهُ الشُّكْرُ . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَأْخُذُهُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ ، فَمَا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مُؤَجَّلٌ فِي عِقَابِهِمْ جِهْرًا ، مُعْتَبَلٌ لِأَصْنِيَانِهِ فِي دُنْيَاهُمْ سِرًّا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ آخِذِينَ مَا آتَيْنَاهُمْ بِهِمْ ﴾ (١) .

وَالْأَرْزَاقُ غُضَلَةٌ ، فَلَا قَوَامَ حُطُوطُ النُّفُوسِ وَلِآخِرِينَ حَقُوقُ الْقُلُوبِ ، وَلِأَقْوَامٍ شُهُودُ الْأَسْرَارِ ، فَرِزْقُ النُّفُوسِ التَّوْفِيقُ ، وَرِزْقُ الْقُلُوبِ التَّصَدِيقُ ، وَرِزْقُ الْأَوْرَاحِ التَّحْقِيقُ (٢) .

قوله : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ : بِمَجَاوِزَةِ الْحُلَالِ إِلَى الْحَرَامِ .

وَيُقَالُ « لَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْكَفَافِ (٣) ، وَمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِمَّا زَادَ عَلَى سَدِّ الرِّمْقِ . وَيَعَالُ « لَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بِالْأَكْلِ عَلَى الْغَفْلَةِ وَالنَّسْيَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ .

فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي بِالْخُذْلَانِ لِنَتَابَةِ الزَّلَّةِ بَعْدَ الزَّلَّةِ .

وَيُقَالُ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي لِتَفْقِدِكُمُ التَّأْسُفَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ .

وَيُقَالُ بِالرِّضَا بِمَا أَتَمَّ فِيهِ مِنْ تَقْصَانِ الْحَالِ .

(١) آيَةُ ١٦ سُورَةِ الْتَّوْبَاتِ .

(٢) نَضَحَ ذَلِكَ فِي اعْتِبَارِنَا حَتَّى يَحْتَ الْمَسْكَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَوُطْأَتِهَا وَأَقَاتِهَا ... وَأَرْزَاقِهَا .

(٣) الْكَفَافُ مِنَ الرِّزْقِ مَا كَلَّنَ عَلَى مَقْدَارِ الْحَاجَةِ مِنْ هَبْرٍ زِيَادَةً وَلَا تَقْصَانًا .

قوله جل ذكره: ﴿وإِنِّي لَنَفَارٍ لِّتَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

النَّفَارُ كثيرُ المغفرة؛ فَمِنْكَ التَّوْبَةُ عَنْ ذَنْبٍ وَاحِدٍ وَمِنْهُ الْمَغْفِرَةُ لِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ، وَمِنْهُ الشَّرِيَّةُ الَّتِي لَا إِطْلَاعَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ عَلَيْهَا وَمَا لِلْمَلَائِكَةِ عَلَيْهَا إِطْلَاعٌ. وَهُوَ يَغْفِرُ لِمَنْ عَمِلَ مِثْلَ عَمَلِكَ، وَهُوَ يَغْفِرُ لِمَنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ لَهُ بِالْخَيْرِ وَالنِّسْمَةِ، وَكَأَقْوَا.

إِنِّي — عَلَى جَفَوَاتِهَا — فِرَیْهَا وَبِكُلِّ مُتَعَبِلٍ بِهَا مُتَوَسِّلُ وَأَحِبُّهَا وَأَحِبُّ مَنْزِلَهَا الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ وَأَحِبُّ أَهْلَ الْمَنْزِلِ

قوله «وإني لنفار لمن تاب وآمن»: فَلَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ مُؤْمِنًا.

وقوله هنا: «وآمن»: أَيْ آمَنَ فِي الْمَالِ كَأَنَّهُ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ.

ويقال آمَنَ بِأَنَّهُ لَيْسَتْ نَجَاتُهُ بِتَوْبَتِهِ وَبِإِيمَانِهِ وَمَطَاعَتِهِ، إِنَّمَا نَجَاتُهُ بِرَحْمَتِهِ.

ويقال «وإني لنفار لمن تاب»: مِنْ الزُّلَّةِ «وآمن»: فَلَمْ يَرَّ أَحَدًا مِنْ نَفْسِهِ، وَآمَنَ بِأَنَّ جَمِيعَ الْحَوَادِثِ مِنَ الْحَقِّ — سَبَّحَانَهُ — «وَعَمِلَ صَالِحًا»: فَلَمْ يَخْلُ بِالْفَرَائِضِ ثُمَّ اهْتَدَى لِسُنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ^(١).

ويقال «ثم»: لِلتَّارِخِي؛ أَيْ آمَنَ فِي الْحَالِ «ثم» اهْتَدَى فِي الْمَالِ.

ويقال مَنْ جَمَعَ مِنْهُ «وإني» لَا يَقُولُ بِهَذَا ذِكْرُ: «إِنِّي»^(٢)

ويقال مَنْ شَفَّهَ سَمَلُ قَوْلِهِ: «وإني» اسْتَهْلَكَ فِي اسْتِغْلَاءِ مَا خَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيَاءِ الْقُرْبَةِ، فَإِذَا جَاءَتْ «كَتْفَارُ» صَارَ فِيهِ بَعَيْنُ الْحَوْرِ، وَلَمْ يَنْمَلِكْ بِذُنُوبِ أَصْحَابِهِ وَأَقْرَابِهِ وَكُلِّ مَنْ يَتَنَبَّأُ بِشَأْنِهِ.

ويقال «إني لنفار» كثيرُ المغفرة لمن تاب مرةً؛ فَيَغْفِرُ لَهُ أَنْوَاعًا مِنْ ذُنُوبِهِ الَّتِي لَمْ يَنْبَغِ مِنْهَا سِرُّهَا وَجَهْرُهَا، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، وَمَا يَنْدَكِرُ مِنْهَا وَمَا لَا يَنْدَكِرُ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ:

(١) وَاضِحٌ حَرَمُ الشُّعْبَرِيِّ السَّقَى عَلَى النَّسَكِ بِلَيْتِهِ — وَهَذَا أَسْلُ ثَابِتٍ فِي مَدْحِهِ سِوَاهُ فِي عِلْمِ السَّلَامِ أَوْ فِي عِلْمِ التَّصَوُّفِ.

(٢) فَاتَوَحَّجِدُ الصَّادِقُ إِسْقَاطَ الْبَيِّنَاتِ وَنَقَلَ كُلَّ دَعْوَى لِنَفْسِهِ.

عملت « عملاً صالحاً » : بل يلاحظ عكسه بين الاستنصار ، وحالته بغير الاستقرار .
وقوله « ثم اعتدى » : أى اعتدى إلينا بنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَهْلَكَ مِنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾
أَخْرَجَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ لَمَّا اسْتَعْجَبَهُمْ ، ثُمَّ قَدَّمَهُمْ ^(١) بِمَطْلُوتَاتٍ فَتَاخَرُوا عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ
مِرَاعَاةُ لِحَقِّ حُجَّتِهِمْ .

ويقال قومٌ يَمُتُّونَ لِتَأْخُرِهِمْ وَأَخْرُونَ لِتَقَدُّمِهِمْ .. فشتان ما !

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَهُ أُولَاءُ عَلَى أَثَرِي وَيَجْعَلُكَ
إِلَيْكَ رَبُّكَ لَتَرَى ﴾

أى عَجِلْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا إِلَيْكَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ هَذَا الْمَطْلَابَ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ اسْتَنْطَقَهُ
لَمَّا أَخْبَرَ بِهِ مُوسَى ^(٢) .

قوله « ثم أولاء على أثرى .. » أى ما خَلَقْتُهُمْ لِتَصِيْبِي أَيْتَى ، وَلَكِنْ عَجِلْتُ إِلَيْكَ
لَتَرَى . قال : يا موسى إِنَّ رِضَايَ فِي أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ وَأَلَّا تَسْبِقَهُمْ ، فَكَوْنُكَ مَعَ الضَّعِيفِ
الَّذِينَ اسْتَعْجَبْتَهُمْ — فِي مَعْنَى حُصُولِ رِضَايَ — أَيْلُغَ مِنْ تَقَدُّمِكَ عَلَيْهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾
فَتَنَّا قَوْمَكَ فَضَلُّوا وَعَبَدُوا الْعِجْلَ ؛ فَأَخْبَرَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — أَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَقْدِيرِ ،
وَفِي هَذَا تَكْذِيبٌ لِمَنْ جَعَلَ الْقَوْلَ بِالْقَدْرِ .

ويقال تَلَبَّسَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — رِضَاهُ الْحَقِّ ، وَقَدَّرَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — فَتَنَةً .
تَوْبِهِ قَالَ : « إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ » ، ثُمَّ الْحُكْمُ اللَّهُ ، وَلَمْ يَكُنْ يُدْرِكُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
مِنْ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ — فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَى اللَّهِ — وَمِنْ الْعِلْمِ بِحَقِّ الْغُرَى أَنْ يُضِلَّ مَا يَشَاءُ ،
وَأَتَشَدُّوا :

أُرِيدَ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَنْتَ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

(١) حين ذهب ليقابل ربه .

(٢) وإلا كان دعوى من النفس . ويعيدنا هذا الرأي في تحفة الإصباح والكتبان .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْلِمُ السَّامِرِيُّ﴾

يدعاه لإلهم إلى عبادة العجل ، وهو نوع من التفرغ ، وحصل ما حصل ، وظهر ما ظهر من (...) (١) .

قوله جل ذكره: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

ورجع نبينا — صلى الله عليه وسلم — من المعراج بنت البسط ، وجاء بالنجوى (٢) لأصحابه فيها أوجب الله عليهم من الصلاة ، وأكرمهم به من القرية بألفة . . فشتان ما لها !
ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف ، وخطبهم ببيان الغتاب :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ
وَعَدًا حَسَنًا أَفْتَالًا عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ ؟
أَمْ أَدْرَأْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ
مِنْ رَبِّكُمْ فَاصْلَخْتُمْ مَوْعِدِي﴾

غلونا بنبئهم غلن السوء في خلقه الوعد ، فَلَخَبَهُمْ شَوْمٌ ذَكَ حَتَّى زَاغُوا عَنْ الْعَهْدِ ،
وَأَشْرَكُوا فِي الْعُدَّةِ . . وَكَذَلِكَ يَكُونُ الْأَمْرُ إِذَا لَمْ يَفِ لِلرَّهْ بِمَقْدَمِهِ ، فَإِنَّهُ يَنْغَرُطُ
فِي هَذَا السُّكُوتِ

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا

وَلَكِنَّا مُخِلُّنَا أَوْ زَادَآ مِنْ زِينَةٍ
الْيَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَّبْتَكَ أَتَقَى
السَّامِرِيُّ﴾

قَالُوا لَمْ نَكُنْ فِي ابْتِدَاءِ حَالِنَا فَاصْدِرْ إِلَى مَا حَصَلَ مِنَّا ، وَلَا عَلَيْنِ بِمَا آتَتْ إِلَيْهِ عَاقِبَةُ

(١) - مثلية ، وهي قرية لى الخط من (التمدية) وربما كانت صحيحة بمعنى التمدى ، لأنهم تركوا عبادة
الله إلى عبادة العجل فظنوا أنهم تجاوزوا حدودهم .
(٢) - ربما كانت (بالنجاة) حيث تنضح العقاب بين أمة عاد إليها نبيا من عند ربه (بالنجاة) وأمة
عاد إليها نبيا منفرا بالطوبى ومع ذلك فقد قلنا (للنجوى) على أساس أنها جوهر الصلاة .

حَالَتًا ، وإن الذي حلنا من حُلِّي القبط صاغ السامري^(١) منه العجل . . . وكنفك الحرام من حطام الدنيا لا يخلو من شؤم^(٢) آثره . فلقد كانت التنبيه وأموال المشركين حراماً عليهم ، فاستعملوا الحلي من القبط ، وآكل إليهم ما كان في أيديهم من المقت^(٣) ، فكان سبب عبادتهم العجل . . . كنفك من أتمسك في طلب الدنيا من غير وجه حلال يكون على خطيئ من رقة دينه ، قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إليه هواه »^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَخْرَجَ لِمِيعِلًا جُدًّا لَهُ خَوَارًا ﴾ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى
فَنَسِيَ • أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ
قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ قَرَارًا وَلَا نَقَارًا •

يقال إنهم لما مروا على قوم يبدون أصناماً لم قالوا موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان يملهم إلى عبادته مُسْتَكِينًا في قلوبهم ، فصاغ السامري العجل على تلك الصورة . وفي هذه إشارة إلى أن خاليا الهوى إذا استكننت في القلب قَلَامٌ يُغْفِشُ ذَلِكَ الشَرَّ بِمَنْقَاشٍ لِلنَّازَةِ يُغْفِشُ أَنْ يَلْقَى صَاحِبَهُ (. . .)^(٥) .

ويقال إن موسى — عليه السلام — خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضَ قَوْمَهُ بِعبادة العجل ، ونيينا — عليه السلام — خرج من بين أمته وأنت سنون كثيرة ولو ذكركم واحد عند من أخلص من أمته في التوحيد حديثاً في التشبيه لعنوا ذلك منه كبيرة ليس له منها تخلف^(٦) .

كنفك فإتهم استحقوا كتابهم فبدلوه تبديلاً ، بينا ضمن الحق — سبحانه — إعراز هذا الكتاب بقوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّه له لحافظون »^(٧) .

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) مثلية وهي في الرسم تعرب من (تنبيه) والتعريب صوت الغراب . . . فهل يفسد الشربى — ما ذكره منذ قليل — أن صاحبه يلقى شؤم أثر ذلك ؟ أم أن اللفظة في الأصل غير ذلك ؟ وما كانت (محبة) أو (نية) أو (مقبلة) .

(٣) لأن المشبه يدنون بتصوراتهم المادية عن الألوهية من عبدة العجل .

(٤) آية ٥ سورة الحجر .

وقال : « ليظهره على الدين كله » (١) .

قوله : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً . . . » يبين أن من لا قول له لا ينكلم ، ومن لا ملك الضر والنفع لا يستحق العبادة ، وفيه رد على من لم يثبت له في الأزل القول ، ولم يصفه بالقدرة على الخير والشر :

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد قال لم هارون من قبل يا قوم

إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن

فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر من هو أعلى رتبة كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلة ؟ فمن ترك أمر الحق . . كيف يطع فيه أن يهزم الشيوخ وأكل الناس ؟ لهذا قيل : لأحرمة فناسق ؛ لأنه إذا ترك حق الحق فحق يحفظ حق أنطلق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين

حتى يرجع إلينا موسى ﴾

كان ذلك تملأ منهم بالباطل ، فقالوا إنهم كانوا عازمين على ترك عبادة العجل ، إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة غير الله . . ولكن كل متعللي يستفيد إلى ما يحتاج به من الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم

صَلُّوا * ألا تتبين أفعصيت

أمرى ﴾

ضاق قلب موسى — عليه السلام — لما شاهد من قومه لمعاينة عبادة العجل ، ولقد كان سمع من الله أن السامري أدخلهم حين قال : « إننا قد فتنا قومك » ، ولكن قديماً قيل : ليس الظاهر كالبيان ، فلما عاين ذلك ضاق قلبه ، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر (٢) ،

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) إشارة إلى أنه أخذ بشر رأسه يمينه ، ولجيت بهالة غضباً ، وهجرة في الله .

وقيل : مَنْ ضاق قلبُهُ اتسع لسانُهُ . ولما ظهر لموسى — عليه السلام — ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللين وحسن للدراة . . . وكذلك الواجب في الصفة لئلا يرتقى الأمر إلى الوحشة ، فاستلطفه في الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي
وَلَا يَأْسِ لِي خَشْيَتُ أَنْ أَتُحَوَّلَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي ﴾

أَنْتَ أَمَرْتَنِي أَلَّا أَكْرِهَهُمْ . وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى في الوقت الذي احتجبتَ أَنْ تَمْنَحِيَ إِيَّاهُمْ قُلْتَ : « وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » ، وقلت : « أَرَسَهُ مِنِّي » ، وقلت حين مضيتُ إلى سماع كلام الحق : « اخلُفني في قومي » . . . فإِذا كنتُ بِأَنْ لَمْ تَسْتَصِحْبِي . . . وَخَلَفْتَنِي ! وقد عَلِمْتُ أَنِّي بَرِيءُ السَّاحَةِ مِمَّا فَعَلُوا فَأَخَذْتُ بِلِحْيَتِي وَبِرَأْسِي . . . أَلَمْ تَرْضَ بِمَا أَنَا فِيهِ حَتَّى تَزِيدَنِي حَرًّا عَلَى حَرِّي (١) . . . لو قال ذلك لكان موضعهُ ، وَلَكِنْ لِحْيَتِي ، وَلِعَلِّيهِ — بِأَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ حُكْمٌ دِيْنُهُمْ — قَدْ قَابَلَ كُلَّ شَيْءٍ بِالرَّضَا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَاصْطَلِكْ بِأَسْمِيرٍ ﴾

سأل موسى كل واحدٍ منهم بنوعٍ آخر ، وإن مما بينته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ، وَتَغْيِيرُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَاسْتِيلَاءُ الْغَضَبِ عَلَيْهِ — لَمْ يَنْتِزِعْ التَّقْدِيرَ ، وَلَمْ يُؤَخِّرِ الْحُكْمَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾

فَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنَ أَمْرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾

عَلِمْتُ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ بَنُو إِسْرَءِيلَ فَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ ، فَقَبِضْتُ الْقَرَابَ مِنْ مَوْضِعِ حَافِرِ

(١) الحري = الغضب (الوسيط ج ١ ص ١٦٩)

دأبته ، وألقي في رَوْحِي أن ذلك سببُ حياة العجل فطرَحُها في جوفه ... هكذا زَيَّنْتَ لي نفسِي فَأَتَيْتُ هَوَاهَا .

ثم كان هلاكه .. لئلا يأمنَ أحدٌ حتى مَكَّرَ التقدير ، ولا يركنَ إلى ما في الصورة من رَفَقِي فَلَمَّه — في الحقيقة — يكون مَكْرًا ، ولقد أُنشِوا :

فَأَمِئْتُهُ فَأَتَانَحَ لِي مِنْ مَأْمِنِي مَكْرًا ، كُنَّا مِنْ يَأْمِنُ الْأَحْبَابَا

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ غَاذِبٌ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ

تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا

لَنْ نُخْلِفَهُ ﴾

لم يَخْفَ على موسى — عليه السلام — تأثيرُ التقديرِ وافترادِ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال في خطابه مع الحق : « إن هي إلا فتنتك » ، ولكنه لم يدع — مع ذلك — بإِحلال العقوبةِ بالسامري والأمر في بابِه بما يستوجبه ؛ ليعلمَ أن الحُكْمَ في الإبداع والإيجاد — وإن كان لله — فالمعاقبة والمُعَالِبة تتوجَّهان على اتِّفَاقٍ في مقتضى التكليف ، وإجراء الحق ما يُجْزِيه ليس حُجَّةً لعبد ولا عُدْرًا له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ

عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ

نَسْفًا ﴾

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله بِتَسْفِئِهِ الحقُّ — سبحانه بِمُحِبَّةٍ^(١) ؛ ولهذا يُلقَى الأصنامَ غداً في النار مع الكفار ، وليس لها جُزْمٌ ، ولا عليها تَكْلِيفٌ ، ولا لها عِلْمٌ ولا خير .. وإِنَّمَا هي جاداتٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

إِى إِلْهِكُمْ الَّذِي تَعْبُدُونَ عَلَيْكُمْ عِبَادَتُهُ بِحَقِّ أَمْرِهِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وهو بوصف الجلال ، والذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ من المعلومات هو الله ، وليس مثْلُ الَّذِي هُوَ جاد لا يَعْلَمُ

(١) الباء هنا متناهما (مع) .

ولا يَقْدِرُ ، ولا يَحْيا ولا يَسْمَع ولا يَبْصُر . ويمكنه أن يَسْتَحَقَّ هذا الجَازَ وبِحرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ كُنْطُكَ نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾

نُفِّرُكَ أَحْوالَ الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِيسَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ طُرُقِهِمْ ؛ فَنَتَأَدَّبَ بِأَدَابِهِمْ وَنَجْتَمِعَ فِيكَ مُتَّفَعَاتٌ مِنْ أَعْيُنِهِمْ... ولكن اعلم أنَّا لم نُبَلِّغْ أَحَدًا مِنْكَ ، ولم يكن لأحد مِنَّا مَالُكَ ؛ آتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِنَا شَرْعًا وَغَيْرًا لم يَشْرَكَكَ فِيهِمَا أَحَدٌ ، وَذَكَرْنَاكَ مَا سَلَفَ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ مِنَّا ، وَجَدَدْنَا لَكَ فِيهِمْ تَخْصِيصَاتًا لِيَاكَ ، وَكَرِيمَ إِقْبَالِنَا عَلَيْكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾

الْمَعْرُضُونَ عَنْهُ شَرَكَا يَحْمِلُونَ غَدًا وَزْرًا وَثِقَلًا ، أُولَئِكَ بَعُدُوا عَنْ مَحَلِّ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ خَطَرٌ فِي التَّحْقِيقِ ؛ فَعُقُوبَتُهُمْ لَا تَزِيدُ عَلَى آلَامِ نَفْسِهِمْ وَإِحْرَاقِ أَشْيَائِهِمْ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْخُصُوصِيَّةِ فَهَرَفُوا عَنْهُ سَاعَةً وَلَسَوْهَ لِحَفْظَةِ لَدَارٍ — فِي الْحَالِ — عَلَى رَهْمِهِمْ الْبَلَا بِمَحِثٍ تَلَاثَى فِي جَهَنَّمَ عَقُوبَةُ كُلِّ أَحَدٍ (بِالإِضَافَةِ إِلَى هَذِهِ الْعُقُوبَةِ) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا ﴾ * يَتَخَفَتُونَ فِيهِمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا *

قَوْمَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ مُؤْجَل ، وَهُوَ بَعْدَ النْفَخِ فِي الصُّورِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَفِي الظُّهْرِ لِلْأَنْوَرِ .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ أَمْتَاءٌ مِنْ عِنْدِنَا لِيَنْفَخَ الْمَوْفِقُ الْمَطْلُوبَ حَسْبًا نَرَفُ مِنْ مَذْهَبِ الصُّوْلِيَّةِ أَنْ عِدَابَ الْفَرَاقِ أَشَدَّ مِنْ عِدَابِ الْإِحْرَاقِ .

وللآخرين قيامةٌ مُجَلَّةٌ^(١) ؛ فيها محاسبةٌ وعليهم فيها مطالبةٌ ، وهوانٌ حاسرٌ وعذابٌ حاصلٌ ، فسكا تَرَدُّ على ظواهر قومٍ في الآخرة عقوباتٌ ، تَرَدُّ على مرائر آخرين عقوباتٌ في الحياة الحاضرة ، وللماملة مع كلٍّ أحديهما مخالفٌ للماملة مع صاحبه .

قوله « يتخافتون بينهم ... » من تَفَرَّغَ لِمَدَّةِ الْأَوَالِ والتَّيْمِيزِ بين اختلاف الحالات فنوعٌ غيرٌ مستوفٍ في بلائه ، وأمره سهلٌ ... ومن كان يَرَادُ المَقَى من حديثه لا ينفِغُ إلى نمت الحال ؛ فالأحوال تُغَيِّرُ عنه وهو لا يُسْأَلُ هن الخبير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَأْتِيكَ مِنَ الْجِبَالِ فَتُحِلُّ لِنَفْسِهَا

وَبِى نَفْسًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝

لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝

كما أنَّ في القيامةِ الموعودةِ تَغْيِيرُ الجبالِ عن أحوالِها فهي كاللِّبَنِ لِلنَّفُوشِ فكذلك في القيامةِ الموجودةِ ... فلا يَغْيِرُكَ عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتًا ؛ فإنه يَدْخُلُ عليهم من الأحوال ما يمحطمهم عن شواهدهم ، ويأخذهم عن أقرانهم ... كذا سُفِّتُهُ سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاهِيَّ لَا عِوَجَ لَهُ

وَشَخَّعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا

تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝

تقطع الأوهام ، وتقف الأنفهام ، وتنخس العقول ، وتندرس العلوم ، وتغير المعارف ، وينلاشي ما هو نَمَتْ الخلق ، ويستولى سلطانُ الحقيقةِ . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أثرٌ ، ولا رسمٌ ولا ظلٌ ولا قَبْرٌ ، في الحضور خَرَسٌ ، وعلى البساط قَفَاةٌ ، ولرسم امتحانٌ ، وإنما الصحة على الشبث .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ

أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝

(١) أي القيامة التي تحمل بأرباب القلوب في هذه الحياة الدنيا

(٢) لأنه يكون ثابتاً من نفسه ، والناظم عنه ربه .

. دليلُ المطالب أنَّ مَنْ أذِنَ له في الشفاعة تنفذه الشفاعةُ ، وإذا قُبِلَتْ شفاعةُ أحدٍ ياذنُ الرحمنُ قَبْلَ الْمَحَالِّ أَلَّا تُقْبَلَ شفاعةُ الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو أفضلُ الكافةِ ، وشفاعةُ الأكابر من صفوته مقبولةٌ في الأصغر في المؤجل وفي المُجَلِّ . والحقُّ سبحانه يُشْفَعُ الشيوخُ في مريدِهِم اليوم^(١)

ويقال شفاعةُ الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادةِ الدرجة ، ولعاصين بنفزان الزُّلَّةُ ، كذلك شفاعةُ الشيوخ — اليوم — للمريدين على قسمين : للذين هم أصحابُ السُّلوكِ فبزيادةِ التحقيق والتوفيق ، وللذين هم أصحابُ التَّخَيُّطِ والغِرَّةِ فبالتجاوز عنهم ، وعلى هذا يُجَمَّلُ قولُ قائلِهِم :

إذا مَرَضْتُمُ أَتَيْتُكُمْ مُوَدُّكُمْ وَتَذَنُّيُومُ فَنَاتِيَكُمْ وَنَعْتَدُّكُمْ

وحكايتُ السُّلَفِ من الشيوخ مع مريدِهِم في أوْلاتِ فترتهم معروفة ، وهي مُسَكَّلةٌ لهذه الجِلَّةِ ، وإن شفاعَتَهُم لا تكون إلا بتعريفٍ من قَبْلِ اللَّهِ في الباطن ، ويكون ذلك أدباً لهم في ذلك

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ خِلَافًا ﴾

لا ينبغي على الحقِّ شيءٌ مما مضى من أحوالِهِم ولا مِنْ آتِيَا ، ولا يحيطون بِهِ خِلَافًا . والكناية^(٢) في قوله : « به » يحتملُ أن يعود إلى ما بين أَيْدِيهِم وما خَلْفَهُم ، ويحتملُ أن يعود إلى الحقِّ — سبحانه — ، وهو طريقةُ السُّلَفِ ، يقولون . يعلمُ الخَلْقُ ولا يصيط به العلمُ ، كما قالوا : إنه يَرَى ولا يَدْرِكُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَسَى أَن يَرَاهُ اللَّهُ شَاءَ النَّاسِ ﴾ . خَلَبَ مَنْ حَكَمَ ظُلْمًا .

(١) بينما يكرر المتزلة الشفاعة (أنظر الملل والنحل للمهر ستان) حيث تشيرى الشفاعة لا الرسول قط بل للأولياء في المارين ، والشيوخ في هذه الحياة الدنيا .. على نحو ما هو واضح من إشارته .
(٢) الكناية في تمييز الشئى منهاها (الضمير) ، وهو هنا الهاء في (به) .

ذَلَّتْ لَهُ الرِّقَابُ وَاسْتَسْلِمَ لِحُكْمِهِ الْخَلْقُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَمَنْ اقْتَرَفَ الظُّلْمَ بَقِيَ فِي ظُلُمَاتِهِ، وَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فِي الزَّادَةِ وَالنَّقْصَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْرَ حَبْثٍ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا تَعْثَبًا ۖ ﴾ .

العمل الصالح ما يصلح للقبول ، فاعله هو المتجرّد عن الآفات الواقة لحقيقة الأمر .
ويقال العمل الصالح ما لم يستعمل عليه صاحبه أجراً .

قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المآكل كما هو مؤمن فى الحال .

ويقال هو مؤمن مصدّق لربه أنه لا يسطى المؤمن لأجل إيمانه شيئاً ، ولكن بفضلّه ، وإيمانه أمانة فذلك لا موجب له ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ ﴾ .

أَتَمَعْنَا ذليلاً بعد دليل ، وبشئاً رسولاً بعد رسول ، وحدّثناهم بوجود من التعريفات ، وإظهار كثير من الآيات

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ ﴾ .

تعالى الله فى كبريائه ، وكبريائه : سناؤه وعلاؤه ومجده ورقيته وعظمته ، كل ذلك بمعنى واحد ، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتمظيم .

و « الملك » : مبالغة من الملك ، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد ، والانفراد بذلك .

و « الحق » : فى وصفه — سبحانه — بمعنى الموجود ، ومنه قوله عليه السلام :

« الذين حق » ^(٢) أى موجود .

(١) على خلاف قول المتزلة الذين يوجبون على الله أن يثبت من أطاع ويباقب من أذنب .

(٢) يقول التشيعى فى تحميمه ص ٦٨ « الحق من أسمائه سبحانه بمعنى الموجود الكائن ، وكذا معناه فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام : « السرحى » أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق .

ويكون الحق بمعنى ذى الحق، ويكون بمعنى مُحَقِّق الحق. كل ذلك صحيح .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي حِلْمًا ۖ ﴾ .

كان يتمجل بالتلف من جبريل مخافة النسيان ، فأمره بالتثبت في التلقين ، وأمنه من طوارق النسيان ، وعرفه أن الذى يحفظ عليه ذلك هو الله .
 والآية تشير إلى طرف من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إن لم يوجد ما يُوجبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بمقتضى اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف .
 فالآية تشير إلى التثبت في الأمور وضرورة التمسك واللبث قصداً للاحتياط ^(١) .
 قوله : (وقل رب زدنى علماً) : فإذا كان أعلمُ البشر ، وسيدُ العرب والعجم ، ومن شهد له الحقُ بخصائص العلم حين قال « وعلمك ما لم تكن تعلم » ^(٢) يقال له : « وقل رب زدنى علماً » — علمٌ أن ما يخصُّ به الحقُّ أوليائه من لطائف العلوم لا حصرَ له .

ويقال أحاله على نفسه ^(٣) في استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له : « هل أتيتك على أن تُعلِّمَ مما علمت رشداً » فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له : « إنك لن تستطيع معي صبراً » ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر :
 « هذا فراق بيني وبينك . . . وبين عبدٍ أمرٌ عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال : قُلْ يا محمد : « وقل رب زدنى علماً » !

ويقال لما قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له » ^(٤) ، قال له : « وقل رب زدنى علماً » ليُعلم أن أشرف خصال المبدء الوقوفُ في محلِّ الانتظار ، والانصاف بنتت الدعاء دون الوقوف في معرض الدعوى ^(٥) .

(١) هنا يوضح مدى تحفظ المصنف واحتياطه في تناول التمسك التلقين .

(٢) آية ١١٣ سورة النساء .

(٣) (على نفسه) الضمير هنا يعود على الحق سبحانه كما سيوضح بعد قليل .

(٤) البخاري من أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له) .

والشيخان من عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأخذكُم له خشية) .

١٥٦ أى أن يكون المبدء داعياً لا دافعاً .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ
فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾

لم نجد له قوةً بالكمال ، وانكشافاً في مراعاة الأمر حتى وقمت عليه سمةُ العصيان بقوله :
«وعسى آدم ربه» (١) .

ويقال «لم نجد له عزماً» : على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عزماً في التصدي على الخلاف (٢) ، وإن كان.. فنذلك يقتضى النسيان ، قال
تعالى «فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» على خلاف الأمر ، وإن كان منه اتباع لبعض مطالبات الأمر .
ويقال شرح قصة آدم — عليه السلام — لأولاده على حجة النكيت لقرينهم حتى لا يقتنطوا
من رحمة الله ؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرق ، واستقبلته هذه الخطيئة ، وقوله تعالى
«فَنَسِيَ» من النسيان ، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .
ويقال عاتبه بقوله : «فَنَسِيَ» ثم أظهر عذره فقال : «ولم نجد له عزماً» .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القدر ، ولم تتقدم (٣) [من آدم عليه السلام طاعة
ولا عبادة فخلقَه الحقُّ بيده ، ورَفَعَ شأنَه بعدما علَّمه ، وحَلَّ إلى الجنة ، وأَمَرَ الملائكةَ
في كل سماء أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء ، واختياراً لهم . فسجدوا بأجمعهم . وانزع
إبليسُ من بينهم ، فُلِقَى من الموان ماسيق له في حكم التقدير . والعَجَبُ من يفتي عليه أن
مثل هذا يجري من دون إرادة الحقِّ ومشيئته وهو عالمٌ بأنه كذلك يجري ، واعتبروا الحكمةَ
في أفعاله وأحكامه ، ويرضون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته ، وكثرة مخالفات

(١) آية ١٢١ من السورة نفسها .

(٢) الخلاف = المخالفة .

(٣) ابتداء من هذا الوضع وحتى ينتهي الكلام بين القوسين الكبيرين وضعه الناسخ خطأ فيما بين
الورقة ٤١٨ والورقة ٤٢٢ عند تقسيم سورة الفرقان أي في مكان متأخر كثيراً وقد صححنا وضعه ، ونهينا
إلى ذلك في مدخل هذا الكتاب (الجلد الأول)

أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ثم يقولون إن الحق سبحانه أراد خلاف ما علم ، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالم ، وكان علما بما سيكون ! ثم خلق إبليس ومكنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك ! ويدعون حسن ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة . . . فسيحان من أعنى بسائرهم ، وعوى حقيقة التوحيد عليهم !

قوله بل ذكره : ﴿ فَقُلْ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ
وَزَوْجَكَ فَلَا يَخْرُجْكَ مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْقَى ﴾

وما كان ينفعهم التَّمَحُّ وقد أراد بهم ما عذرهم ، وعلم أنهم سيلقون ما خوفهم به .
قوله : « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » : علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء : وأما إنه أضاف الشقاء إلى آدم وحده - وكلاهما لحقه شقاء الدنيا - فذلك للضارعة رموس الآي ، أو لأن التَّسَبُّ على الرجال دون النساء . ومن أصفى إلى قول عدوه فإنه يتجرع الندم ثم لا ينفعه .

قوله بل ذكره : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلْجَاجَ فِيهَا وَلَا تَرَى ﴾
وَأَنْتَ لَا تَقْضَى فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿

لا تصديق أتم من تصديق آدم ، ولا وعظ أشد رحمة من الله ، ولا يقين أقوى من يقينه . . ولكن ما قاسى آدم الشقاء قبل ذلك ، فلما استقبل الأمر وذاق ما خوف به من العناء والسكد ندم وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

« وأنت لا تقضى فيها ولا تضحى » أوثر بكل وبه ، فلم يرف قدر العافية والسلامة ، إلى أن جرى ما هو محكوم به من سابق القصة .

ويقال تتمم آدم في الجنة ولم يرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوع والمطر ، والبلاء من كل (. . .) (١)

(١) هنا طمس أغنى لفظة في نهاية السطر وهي أقرب إلى أن تكون (فن) ونحن نتبناها ، فالعشيرة يتسملها في مواضع مماثلة (أنزل مثلاً استمالة) منود الخذلان) عند تفسير الآية التي سأتى بعد قليل : ومن اعرض عن ذكرى . . .) ، و (فن) تكون بمعنى (نوع) كما سيأتى في العبارة التالية .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدد له نوع من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه السلام يأتي ويقول : « ربك يقرئك السلام ويقول : لم تبكي ؟ فكان يُدكر جبريل عليه السلام وهو يقول : أهذا الذي قلت : « وأبكي لا تنظما فيها ولا تفضي ... ! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن ؟ »

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلُقِ وَمُتَّكَ لَا يَبْلَى ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحق يعلم ذلك ولم يدكر آدم في الحال أن هذا من نزغات من قال له — سبحانه : « إن هذا عدوك » .

ويقال : لو تم على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها معنيها ، ولو لم يكن (...)^(١) حتى دلّه على تلك الشجرة (إيتس)^(٢) الذي كان يمنه منه إلا أن الحكم منه بذلك سبق ، والإرادة به تملقت ؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له : يا شقي ، فعلت وصنعت ... ! فقال إبليس لآدم : إن كنت شيطانك فمن كان شيطاني^(٣) ؟

ويقال تمى الشيطان شيطانا لبمه عن طاعة الله ، فكل بعيد عن طاعة الله يبعد الناس عن طاعة الله فهو شيطان ، ولذلك يقال : شياطين الإنس ، وشياطين الإنس شر من شياطين الجن .

ويقال لما طمع آدم في البقاء خافا وجده الشيطان سبيلا إليه يوسوسته .
والناس تكلّموا في الشجرة : ما كانت ؟ والصحيح أن يقال إنها كانت شجرة الحنة .
ويقال لو لم تخلق في الجنة تلك الشجرة لسا كان في الجنة نقصان في رتبها^(٤)

(١) مشقة .

(٢) صناعا (فأى شيء ؟) وهي هنا استهلامية .

(٣) في ذلك تنصل من العين أساسه المبالغة والتليس .

(٤) أي أن الجنة في حرف هذا التشكم (محلوقة) و (حادثة) .

ويقال لولا أنه أراد لأدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لتصل إليها يده ،
ولكنه — كما في القصة — كانت لا تصل إلى أوراقها يده — يده ما أكل منها — حينما
أراد أن يأخذ منها لِيَسْتَرَّ عورته ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوْءَاتُهَا ﴾
لما ارتكبا المني عنه ظهر ما يُسْتَحْي من ظهوره ، ولكن الله — سبحانه — أَلَطَفَ
مهما في هذه الحالة بقوله : فَبَدَّتْ لَهَا سَوْءَاتُهَا ، ولم يَقُلْ — مُطْلَقًا — فَبَدَّتْ سَوْءَاتُهَا ؛
أي أنه لم يُطْلِعْ على سوءهما غيرهما .

ويقال لما تَجَرَّدَا عن لباس التنوى تاتر عنهما لباسهما الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقِّ الْجَنَّةِ ﴾

أولُ الحَرْفِ والصناعات — على مقتضى هذا — الخياطة ، وخياطة الرِّقَاع بعضها
على بعض لتقترأ ميراث من أبنائهم — عليه السلام ^(٢) .

ويقال كان آدم — عليه السلام — قد أصبح وعليه من حُلَل الجنة وفنون الألباس
ما الله به أعلم ، ثم لم يُمس حتى كان يَخْصِف على نفسه من ورق الجنة ، وهكذا كان
في الابتداء ما هو موروث في أولاده من هناء بعده بلاء .

قوله تعالى : « وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ؟ » ^(٣) : عند ذلك وقعت عليهما
الغلبة لما وَرَدَ عليهما خطاب الحق : « أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ ... » ولهذا قيل : كَفَى لِمُقَصِّرِ
الحياة يوم اللقاء

قوله تعالى : « فَلَا رِبَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ... » ^(٤) : لم يتكلم بلسان الحجة فقالا : « ربنا
ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » ، ولم يقلوا : بظلمنا صرنا من الظالمين ، بل قالوا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا

(١) وفي هذا محذور ضيق للأكابر من الوقوع في الإزلة ، وكيف أن كرامة الولد تتلانى بزلته .

(٢) لاحظ أهمية ذلك عندما نؤرخ للفترة والمعرفة عند الصوفية .

(٣) آية ٢٢ سورة الأعراف .

(٤) آية ٢٢ سورة الأعراف .

لنكون من الخاسرين « لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى حُكْمِ الرَّبِّ لَا عَلَى جُزْمِ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾

لَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ سِنَّةُ الْمَعْيَانِ - وهو أولُ البشر - كان في ذكر هذا تنفيس
لأولاده ؛ أن نجري عليهم ذلَّةٌ وهم بوصف النسيية في حين الفترة .
ويقال كانت تلك الأكلة شيئاً واحداً ، ولكن قصتها يحفظها ويردها الصبيان
إلى يوم القيامة .

وعصى آدم ربَّه لِيُعْلَمَ أَنَّ عِظَمَ الذُّنُوبِ لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَعِظَمُ قَدْرِهِ . . لا لكثرة المخالفة
في نفسها .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كل ما فعله اجتباه ربُّه ؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا حِلَّةٍ (١)
اجتياه ثانياً بعد الزَّلَّةِ ، فَتَابَ عَلَيْهِ ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ ، « هدى » : أى هداه إليه
حتى اعتنر واستغفر .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جِئْنَا بِكُم بِالْمَعْصِيَةِ

عَدُوًّا فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ
اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقُّ ﴾

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ، وقد توالى المهنُ على آدم وجواه بعد خروجهما
من الجنة بسمة المعصيان ، ومفارقة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعداوة الشيطان ، والابتلاء
بالشهوات . ثم قال :
« فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ . . . » وَرَكَعَ هَوَاهُ ، وَلَمْ يَصِلْ بِوَسوسةِ الْمَدُونِ فَلَهُ كُلُّ خَيْرٍ ،
وَلَا يَلْعَنُهُ شَيْءٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً مَّنْشُكًّا ﴾

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكليّة فله للمعيشة المنك في الدنيا ، وفي القبر ،

(١) تنقيد هذه البارة في بيان أهمية الاصطفاء الإلهي ، وأن التمثل للإنسان له الدرجة الثانية
في الأهمية . ثم تنقيد في بيان الفرق في الاصطلاح بين (الاصطفاء) و (الاجتباء) .

وفي النار ، وبالقلب من حيث وحشة الكفر ، وبالوقت من حيث انقلاق الأمور .
ويقال مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْإِنْخِرَاطِ فِي قَصَايَا الْوَفَاقِ انْتَالَتْ عَلَيْهِ فَنُونُ الْخُذْلَانِ ،
وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اسْتِمَاعَةِ ذِكْرِهِ — سَجَاتِهِ — بِالْقَلْبِ تَوَالَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَفْرِقَةِ الْقَلْبِ
مَا يَسْلُبُ عَنْهُ كُلُّ رَوْحٍ .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْاسْتِنَاسِ بِذِكْرِهِ افْتَتَحَتْ عَلَيْهِ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ وَهُوَ اجْسُ النَّفْسِ
بِمَا يُوْجِبُ لَهُ وَحْشَةَ الضَّمِيرِ ، وَاسْتِدَادَ أَبْوَابَ الرَّاحَةِ وَالْبَسَاطَةِ .
ويقال مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي إِطْلَاقِ قَبْضِ اللَّهِ لَهُ فِي الظَّاهِرِ مِنَ التَّرْتِيبِ السَّوِّءِ
مَا تَوَجَّبَ رُؤْيَاهُ لَهُ قَبْضُ الْقُلُوبِ وَاسْتِغْلَاءُ الْوَحْشَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قال
رَبِّ لِمَ نَحْشُرُنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ
بَصِيرًا • قال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا
فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿

في الخبر : « مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » فَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبِ يُحْشَرُ
عَلَى حَالَتِهِ ، وَمَنْ يَعْشَى عَلَى جَهْلٍ يُحْشَرُ عَلَى جَهْلٍ ، وَلَقَدْ يَقُولُونَ : « مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ » (١)
إِلَى أَنْ تُصَوِّرَ مَا رَفَعَهُمْ ضَرُورِيَّةً .

وَمَا يُتْرَكُ كُنْ — الْيَوْمَ — التَّنْدَبُ فِي آيَاتِهِ يُتْرَكُ غَدًا فِي الْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ
عَلَى ضَعْفِ حَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ
بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَأُنْفَى ﴾

جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يُجَازِيَ كُلًّا بِمَا يَلِيقُ بِحَالِهِ ، فَمَا أَسْلَفَهُ لِنَفْسِهِ سَلَقَ غِيَبُهُ ، عَلَى الْغَيْرِ
خَيْرًا ، وَعَلَى الشَّرِّ شَرًّا .

(١) آية ٥٢ سورة يس .

قوله جل ذكره : نَرَاظُمُ بِهِدٍ لَمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ
يَعْمُونَ، في مساكنهم إِنَّ في ذلك

لآيَاتٍ لِأُولَى الْأَبْصَارِ ﴿١﴾

أى أَظْلًا يَنْظُرُونَ فَيَنْفَكِرُونَ^(١) ؟ ثم إذا استبصروا أَظْلًا يَنْتَبِهُونَ ؟ وإذا اعتبرا
أَفْلًا يَرْجِعُونَ ؟ أم على وجههم -- في ميادين تَفْلَاجِهِمْ يَرْكُضُونَ ، وعن سوء معاملتهم
لا يرجعون ؟ ألا ساء ما يعبأون !

قوله جل ذكره : وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكُنَّا

زَايَاً وَأَبِلَ مُسَى ﴿٢﴾

لَوْلَا أَنَّ كَلِمَةً أَفْوَ سَبَقَتْ بِتَأْخِيرِ الْقُوَّةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَأْذِنُ لَهَا جَمَاعَةٌ
مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي أَسْلَاحِهِمْ لَعَجَلُ عَقُوبَتِهِمْ ، وَلَكِنْ : . . . كَمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَحْوَالِ أَمَهُلَهُمْ مَدَّةً
مَبْلُومَةً ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْلَمْهُمْ أَصْلًا .

وإذا كانت الكلمة بالسادة لقوم والثقاوة لقوم قد سبقت ، والعلم بالمحفوظ بجميع
ما هو كائن قد جرى -- فالسوء والجهل ، والانكسار والجد . . . متى تنفع ؟ لكنه
من القصة أيتها ما ظهر .

قوله جل ذكره : وَنَحْنُ نَقُصِّرُ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آثَارِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ

وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَمَلِكٍ مُرْتَضًى ﴿٣﴾

سماع الأذى يوجب للشقة ، فأزال عنه ما كان لحقه من اللشقة عند سماع ما كانوا
يقولون ، وأمره : إِنْ كَانَ سَمَاعُ مَا يَقُولُونَ يُوجِشُكَ فَتَسْبِيحُنَا -- أَيْ تَنْفِي بِهِ
عَلَيْنَا -- يَرْوَحُكَ .

« قبل طلوع الشمس » : أى في صدر النهار ، ليبارك لك في نهارك ، ونتم صباحك .

« وقبل غروبها » أى عند قصان النهار ، لطيب ليلتك ، ونتم روائحك .

(١) (الغاء) هنا حرف عطف لا (فاء) سبب ، ولو اعتراها سببه قول (فينفكروا) لوقوعها
بعد أسلوب طلعي ، ولكننا أقمنا ما جاء في النص فتكرار ذلك فيها تلاه .

« ومن آتاه الليل » أى فى ساعات الليل ؛ لأن كمال الصغوة فى ذكر الله فى حال الخلوة .
« وأطراف النهار » أى استديم ذكر الله فى جميع أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ
أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

فضل^(١) الرؤية فيما لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام ، والذى له عند الله منزل
وقدر فليحزن على جميع أحواله عتيدة ؛ إذ لا يرضى منه أن يبدل شيئاً من حركاته وسكناته
وجميع حالاته فيما ليس لله - سبحانه - فيه رضاء ، وفي مناه أنشدوا :

فمضى إذا استحسنفت قبركم أمرتُ الصموع بتأديها

ويقال لما أؤدبه فى ألا ينظر إلى زينة الدنيا بكمال نظره وقفَّ على وجه الأرض بفرد
قدم تصاوناً عنها حتى قيل له : « طه » أى طأ الأرض بقدميك .. ولم كل هذه المجاهدة
وكل هذا التباعد حتى وقف بفرد قدمه ؟ طأ الأرض بقدميك .

« زهرة الحياة الدنيا . . . » الفتنة ما يشغل به عن الحق ، ويستولى حبه على القلب ،
ويجسر وجوده على العصيان ، ويحمل الاستمتاع به على البطر والأشر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

القليل من الحلال - وفيه رضاء الرحمن - خير من الكثير من الحرام والحطام .
ومنه منقطع . ويقال قليل يشبه ذلك ربك خير من كثير ينسبك ربك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُمْرَأُكَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ عَلَيْهَا ﴾

الصلاة استنجاح بلب الرزق ، وعليها أحال فى تيسر الفتوح عند وقوع الحاجة إليه .
ويقال الصلاة رزق القلوب ، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قوت النفس قرى قوت القلب .
وأمر - الرسول - عليه السلام - بأن يأمر أهله بالصلاة ، وأن يصطبر عليها .

(١) الفضل هنا مناه الزيادة (وتفضل الرؤية) زيادة التطلع إلى أكثر من المباح .

وللاصطبار مزية على الصبر ؛ وهو ألا يجده صاحبه الألم بل يكون محمولا مَرَوَّعًا .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَسْأَلْ رِزْقًا ﴾

أى لا تسألك برزق أحدٍ ؛ فإنَّ الرزقَ اللهُ - سبحانه - دون تأخير الخلق ، فنحن نرزقك ونرزق الجميع .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نرزقك والمآبَةُ للتقوى ﴾

هما شيان : وجود الأرزاق وشهود الرزاق ؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة ^(١) النفوس ، وشهود الرزاق يوجب قوة ^(٢) القلوب .

ويقال استقلال ^(٣) العامة بوجود الأرزاق ، واستقلال الخواص بشهود الأرزاق .

ويقال تنى عن وقته الفرق بين أوصاف الرزق حين قال : « نحن نرزقك » ؛ فإنَّ من شَهِدَ وتفقَّق بقوله : « نحن » سقط عنه التمييز بين رزقي ورزق .

ويقال خُفَّتْ على القراء مناساة رِقَّةِ الرزق وتأخيره عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله : « نحن » ^(٤)

قوله : « والمآبَةُ للتقوى » : أى المآبَةُ بالمعنى لأهل التقوى .

ويقال المراد بالتقوى السُّبْقِي ، فقد بسى الموصوف بما هو المصدر ^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا بَأْتِنَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ

أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَنِ الصُّحُبِ

الأولى ﴾

حَيْثُ بَصَّارُمُ وَادَّعَوْا أَنَّهُ لَا بَرَهَانَ لَهُ ، ولم يكن التصورُ فى الآفة بل كان انكسارُ
فى بصائرهم ، ولو جمع الله لم كل آية اقترحت على رسولٍ ثم لم يرُدَّ اللهُ أَن يُوِينُوا لَمَّا

(١) ، (٢) ربما كانا قوت النفوس ، وقوت القلوب ؛ باتناء المتوَحَّة و قد سجا هكذا عند الليل ، وإن كان السياق لا يجمع (قوة النفوس وقوة القلوب) .

(٣) استقلال هنا بمعنى اكتماء .

(٤) لأن من عاش ؛ (نحن) اكتمل بها ولم يستكمل شيئاً .

(٥) كما يقال مثلاً (رجل عدل) ونحو ذلك .

ازدادوا إلا غنياً وكثراً وخسرانا . . . وتلك سنة أسلافهم في تكذيب أنبيائهم ،
ولنا قال :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَمَلْنَاكُمْ بِنِاسٍ مِّنْ
قَبْلِهِ لَمَلَّوْا رَبَّنَا وَلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا
رَسُولًا فَتَنْصِبَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ
أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ .

إن أرسلنا إليهم الرسل قابلهم بفتون من الجحد ، ووجوه من الملل ، مرة يقولون
فيا بال هذا الرسول بشر ؟ هلأ أرسله ملكاً ؟ ولو أرسلنا ملكاً لقالوا هلأ أرسل إلينا
مثلنا بشر ؟ ولو أظهر عليهم آية لقالوا : هذا سحرٌ مقترى ! ولو أعلنهم من رسول
وعلمتهم بما استوجبوه من تكذيب قتلوا :

” هلأ بعث إلينا رسولاً حتى كنا نؤمن ؟ فلبست تنقطع أعلامهم ، ولا تنفك —
عما لا يرضى — أحوالهم . وكذلك سبيل من لا ينجح إلى الوصال ولا يرقب في الوداد ،
في معناه أفسدوا :

وكذا المول إذا أراد قطيعةً ملّ الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ رَبِّكُمْ قَاتِلُوا
فَتَرْبُّوْا قَسِطُونَ مِّنْ أَصْحَابِ الصُّرَاطِ
السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ .

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثقة ، ينتظرون ما سيبدو في السئاتف ،
إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو مما يقتضيه حكم الأفعلا ، وما الذي توجبه
الطباع والنجوم . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في رّوح التوحيد ، والباقون
في ظلمات الشر .

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾ .

بسم الله اسم عزيز من تَسَلَّ إليه بطاعته تَفَضَّلَ عليه بجِبريل ضمه ؛ إن أطاع فَضَّلَهُ ، وإن أَضَاعَ أَمَلَهُ ، ثم إن أَبَّ وَأَقْرَبَ . . ذِكْرَهُ ، وإن عصى وطب سَقَرَهُ ، فإن تَنَصَّلَ رَحِمَهُ ، وإن تَكَبَّرَ قَسَمَهُ (١) .

اسم عزيز ما استنزلت الظواهر إلا بآثار توفيقه ، وما استنضات السرائر إلا بأنوار تحقيقه ؛ يتوفيقه وَصَلَ المايدون إلى مجاهدتهم ، ويتحققه وَجَدَ المارفون كمال مشاهدتهم ، ويتمام مجاهدتهم وجداً آجِلْ ثوابهم ، ويدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَمِمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ ۝ ﴾ .

فالطبعون منهم عَظُمَ لدينناوايهم ، والماعصون منهم حَقَّ مِنَّا عقابهم .

« في غفلة » يقال الغفلة على قسمين : غافل عن حساب باستغراقه في دنياه وهواه ، وغافل عن حساب لاستهلاكه في موله ؛ فالغفلة الأولى رِجْمَةُ الحجر والغفلة الثانية صِفَةُ الوَصْلِ ؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من مَكْرَةِ اللوت ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبداً الأبدِ لثَنَانِهِمْ في وجود الحق تعالى (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّشٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَمِنْ يَلْمِزُونَ ۝ ﴾ .

(١) يمكن القول أن هناك نوعاً من الترابط والانسجام بين إشارات البسملة — على هذا النحو — وبين جريئات السورة ، حيث اعتمد الناس لإزاء الأنبياء إلى مصدق ومكذب ، ومؤمن وحادث . . ونال كل جراه .

(٢) تهتمنا هذه الإشارة عند دراسة المصطلح السؤل في فاللفة نوعان : مذمومة ومجودة ؛ فلفة ناشئة من الحجر ولفة ناشئة من الوصل .

لم يجدد إليهم رسولا إلا ازداحوا نفورا ، ولم يُنزلْ عليهم خطاباً إلا اردؤوه جحداً
ومكذبياً ، وما زدناهم فضلاً إلا عدّوه هزلاً ، وما جددنا لهم نعمة إلا افلأوا ما استوجبوا
قصة ، فكلن الذي أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم . . . وهذه صفة من أساء مع الله خلّقه ،
وخيرَ عند الله حقّه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشِيرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

تمحيّت بصائرهم وغاشت أفهامهم ، فهم في غباوة لا يستبصرون ، وفي أسكنة عما أقبل لهم
من البرهان فهم لا يملكون .

قوله : « وأسروا النجوى . . . » لتأعجزوا عن مراضته ، وسقطوا عند التحدى ،
وظهرت عليهم حجته رجحوا فيه النكرو ، وقسموا فيه الظن ؛ فرة لسبه إلى السحر ، ومرة
وصفه بقول السحر ، ومرة رموه بالجنون وفنون من السيوب . وقيل ذلك كانوا يقولون عنه :
هو محمد الأمين ، كما قيل :

أشاعوا لنا في الحق أشنع قصير . وكانوا لنا سبلاً فصاروا لنا حراً

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

الأكابر التي يسماها الحق — سبحانه — مختلفة ؛ فمن خطاب بعضهم مع بعض ، ومن
بعضهم مع الحق . والذين يخاطبون الحق : قن سائل يسأل الدنيا ، ومن داع يطلب كرائم
الآلآقي ، ومن ممن يثني على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والآقي .
ويقال يسمع أنين المذنبين سراً عن أتلقي حذراً أن يتفتحوها ، ويسمع مناجاة
المابدين بنعت التسبيح إذا تمجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مستهم البرّاحة ^(١) فضجروا
من شدة الآشفاق .

(١) البرحاء : الشدة .

وَقَالَ يَسْمَعْ خُطَابَ مَنْ يَنْجِيهِ مِيرَا بَسْرٌ ، وَكَذَلِكَ تَسْبِيحُ مَنْ يَهْدِيهِ وَيَنْقِي عَلَيْهِ
بِلِسَانٍ سِرٍّ .

قوله جل ذكره : ﴿يَلْقَاوَا أَهْلَكُنَّ أَحْلَامُ تَلِّ افْتَرَا
بِلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَا تَنَا بَايَةً كَأَرْسِلَ
الْأُولُونَ﴾

نَوَّهُوا مَا لَسِبُوا إِلَيْهِ — بَعْدَمَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِ الْأَمْرَ — مِنْ حَيْثُ كَانُوا ، وَلَمْ يَشَاهِدُوا
هِمَّةً عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي كَانُوا يَصِفُونَهُ بِهِ مِنْ صَدَقَ فِي الْحَالِ وَالْمَقَالِ ، وَكَأَقِيلَ :
رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَأَسَلَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
أَقْنَمُ يَوْمُنَّ﴾

أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجْرَى سُنَّتِهِ أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ كَانَ لِلْعُلُومِ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ
لَا فِي الْحَالِ وَلَا فِي اللَّأَلِ . وَإِنَّ هَوْلَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَصْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا نَكْمُ
فِي الْكَفَرَانِ ، وَقَدْ حَكَّمَ الْحَقُّ لَمْ بِالْخِرْمَانِ وَالْخَفْلَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي
إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ﴾

لَمَّا قَالُوا وَلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا لِلْمَلَكَةِ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا فِيمَا سَبَقَ مِنْ
الْأَزْمَانِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْغَالِيَةِ إِلَّا بَشَرًا ، وَذَكَرَ أَنَّ الْخُصُوصِيَّةَ لَمْ كَانَتْ بِإِرْسَالِ
اللَّهِ لِيَامِ .

نَمَّ قَالَ : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » : الْخُطَابُ لِلْكَسَلِ وَاللِّرَادِمَةِ الْأَمَةِ ،
وَأَهْلُ الذِّكْرِ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَكْبَرِ هَذِهِ الْأَمَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وَيَقَالُ هُمُ أَهْلُ الْفَهْمِ مِنَ اللَّهِ أَصْحَابُ الْإِلْهَامِ الَّذِينَ فِي عَمَلِ الْإِعْلَامِ مِنَ الْحَقِّ — سَبْحَانَهُ — أَوْ مِنْ
يُحَسِّنُ الْإِفْهَامَ عَنِ الْحَقِّ .

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات ، وإذا اشتكت الواقعة فيخبر عن اجتهاده ، وشرطه ألا يكون مغفلاً ، ويكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يخالف النص وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه ، وأما الحكم فإذا نكلم في المعاملة فإذا يقبل منه إذا سبقت منه المنازعة لما يُقْبَلُ به فإن لم تنضم له من قبله المنازعة ففتواه في هذا الطريق كفتوى للفقهاء في مسائل الشرع .

فأما الماروف فيجب أن يحكم في هذا الطريق عن وجده — إن كان — وإلا فلا تُقبل فتواه ولا تُسمع ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلناكم جمّةً لا يأكولون

الطعام وما كانوا خالدين ﴾

لما عهدوا الرسول — عليه السلام — بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . أخبر أن أكل الطعام ليس بمادح في المقي الذي يختص به الأكبر ، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تُكِنُّه القلوب والسرائر من وجوه التعريف .

ويقال النفوس لا خبر لها بما به القلوب ، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح والعلف منه وهو السر .

قوله : « وما كانوا خالدين » : أي لانهم على ممي ومعبر ، ولا سبيل اليوم لخالق إلى الخلد .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم صدقناهم الوعدَ فأنجيناهم ومن

نشا وأهلكنا المسترفين ﴾

الحق — سبحانه — يَحَقُّ وعده وإن تباطأ بتحقيقه الوقت فيما أخبر أنه يكون . والوعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدين ، وإرغام من نأبذ الحق من الجاحدين ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ أهل الشبهة .

(١) نهم هذه الإشارة في توصية الشيوخ إذا استنظام المريدون ، كانتهم في توضيح ما يمكن أن نسبه « أصول الفقه عند الصوفية » .

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : ﴿فيه ذِكْرُكُمْ﴾ : أى شرفُكم وعلمُكم ، فنَّ استبصر بما فيه من النور سَمِعَ في دنياه وأُخراه .

قوله جل ذكره . ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ كِتَابًا ظَلَمْنَا وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا تَوْحِيدًا آخِرِينَ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ يُبْهِلُ الظَّالِمَ حِينًا لَكِن يَأْخُذْ أَخَذَ قَهْرٍ وَانْتِقَامٍ ، وقد حَكَّمُ اللَّهُ بُغْرَابِ مَسَاكِينِ الظَّالِمِينَ ، وقد جاء الظهير : ﴿لَوْ كَانَ الظَّالِمُ يَبْتَغِي فِي الْجَنَّةِ لَسُلْطًا عَلَيْهِ لَطْرَابٍ﴾ ، فإذا ظلم العبدُ نَفْسَهُ حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَهَا التَّوْفِيقُ وَجَلَّهَا مَوْطِنُ الْإِذْلَانِ ، فإذا ظلمَ قَلْبُهُ بِالْفَضْلَةِ سَلَّطَ عَلَيْهِ الْغَوَاطِرَ الرَّدِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَسْوَاسُ الشَّيْطَانِ وَدَوَاعِي الْفُجُورِ . وعَلِ هَذَا التَّيَاسُ فِي الْقِتْلَةِ وَالكَثْرَةِ ، إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرِبَتْ زَابَلَتْهَا الْحَقَائِقُ وَالْهَلَابُ ، وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهَا الْعِلَاقُ وَالْمَسَاكِنَاتُ .

قوله جل ذكره : ﴿فَلَمَّا أَحَسُوا بِأَرْسَالِنَا إِذَا مِنْهُمْ بَرَكُوتُونَ﴾ .

لَمَّا ذَاقُوا وَبَالَ أَعْمَالِهِمْ اضْطَرُّوا فِي أَحْوَالِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ نَدَمُهُمْ ، وَلَمْ تَعُدْ إِلَى عَمَلِهِمْ أَقْدَامُهُمْ ، وَبَعْدَ ظُهُورِ الْخِيَاةِ لَا تُقْبَلُ الْأَمَانَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ قَتَلْتُمْ فَأَسْأَلُونَكُمْ﴾ .

وَالْخِيَاةُ سَرَابٌ^(١) ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْغِيَاةُ لَمْ تَفِ السَّرَابُ ، وَإِذَا فُرِغَتِ السَّفِينَةُ فَلَيْسَ بِيَدِ الْمَلَّاحِ إِلَّا إِنْظَارُ الْأَسْفِ ، وَهِيَئَاتُ أَنْ يُجْبَدِيَ ذَلِكَ ؛

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .

(١) سرى المرح أو السوء سراب . أى دام الأثم منها حتى حدث الموت . ويقال سرى التعريم وسرى التنى أى تعدى إلى غير المحرم أو الحق (الوسيط) .

للإقرار زمان ؛ فإذا فلت وقتك فكافى المثل : يسبق الفريص المريص . ووُضِعَ
القوس بعد إرسال السهم لا قيمة له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَزَالَتْ ثَلَاثُ دُمُومٍ حَقَّ جَلَنَاهُمْ
حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾

إِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ أَنْ يَشْكُوَ لِلرَّءِ فلا يُسَمَّح ، ويُسَكَّى فلا يَنْفَع ، ويدنو فَيُقْعَصَى ، ويعرض
فلا يُعَاد ، ويعتذر فلا يُقْبَل . . وغايةُ البلاء التَّكْفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَاعِبِينَ ﴾

الْقَيْبُ نَسْتُ مَنْ زَالَ مِنْ حَدِّ الصَّوَابِ ، واستجلب بفعله أَلَا تَذَاذ ، وانجبر في حَبْلِ
السُّفَى . وَحَقُّ الْحَقِّ مُتَقَدِّسٌ عَنْ هَذِهِ الْجَلَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَخَلَقْنَاهُ
مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا مُعْلِمِينَ ﴾

يُضَاهِيهِمْ عَلَى حَسَبِ أَهْلِهِمْ ؛ وَإِلَّا . . فَاكْفَى لَا يَمْتَرُهُ سَهْوٌ لَا يَسْتَفِزُّهُ لَهْوٌ ، والحقُّ
لَا يَمْتَرُهُ وَلَا يَضْلَعِيهِ كُفُوٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ تَقْدِرُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

نُذِيرٌ لِنَارِ التَّنْقِيقِ عَلَى لِيَالِي الْأَوْهَامِ فَيَنْقَشِعُ سَحَابُ الْقِيَةِ ، وينجلي ضبابُ الْأَوْهَامِ ،
وتنير شمسُ الْبَقِيَّةِ ، وتصحو سماءُ الْحَقَائِقِ عَنْ كُلِّ خُبَارِ التَّهْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ مِنْ فِي السَّنَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ
عِنْدَهُ لَا يَسْكَرُ مِنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

الحادثات له سبحانه ملكاً والكائنات له حكماً ، وتعالى الله عن أن يتجلى بوقاي
أو ينص بخلاف ، وبالتقدير ظهور الجميع ، وعلى حسب الاختيار^(١) تنصرف الكلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾
للطبع المختار يسبحه بالقول الصدق ، والكل من المخلوقات تسبحها بدلالة الخلق ،
وبرهان اليقينة^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا آلهة ترس الأرض
م يفترون ﴾

تفرّد الحق بالإبداع والإيجاد ، وقدس من الأمثال والأنداد ، فالذين يعبّدون من دونه
أموات غير أحياء . وم^(٣) بالضرورة يعرفون . . أفلا يفترون وألا يزجون ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا
فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون ﴾

أخبر أن كل أمر يتأطّ به جماعة لا يجري على النظام ، إذ ينشأ بينهم النزاع والخلاف .
ولما كانت أمر العالم في الترتيب منسقة قد دلّ ذلك على أنها حاصلة بتقدير مدبّر حكيم ؛
فالسما في علوها تدور على النظام أفلاكها ، وليس لها محمد لإمساكها ، والأرض مستقرة
بأقطارها على ترتيب تماقّب ليلها ونهارها . والشمس والقمر والنجوم السائرة تدور في فروج ،
ورقعة السماء تتسع من غير فروج . . ذلك لتقدير العزيز العليم علامة ، وعلى وحدانيته دلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾

ليكون الخلق له ، وهم يسألون لزوم حقه عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا

برهانكم ، هذا ذكر من معي

(١) الاختيار : بما يتصور به الاختيار الإلهي .

(٢) صير القسري عن هذا الموضع سابق حين ذكر أن كل الكائنات شاهدة على وحدانيته ؛
فتناطق منها توحيد القالة ، ولغير الناطق توحيد الدلالة .

(٣) الضمير (م) يعود على من يعبدون من دون الله آله .

وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بِلْ أَكْثَرِمْ
لَا يَطْلُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُشْرُؤُونَ ﴿١﴾

دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى فَسَادِ الْقَوْلِ بِالتَّقْلِيدِ ، وَوَجوبِ إِطَاعَةِ الْحُجَّةِ وَالْهَدْيِ .
وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى تَوْحِيدِ الْمَبُودِ ، وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى إِثْبَاتِ الْكَسْبِ الْعَبِيدِ ، إِذْ قَوْلُهُ
لَمْ يَنْجُوهُمْ عَلَيْهِمُ الْوَمُ وَالْمَثْبُ (١) . وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ ، أَوْ تَوَكَّمْ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ حَصُولَ
شَيْءٍ قَدْ دَخَلَ فِي غَمَارِ هَؤُلَاءِ لِأَنَّ الْإِلَهَ مَنْ يَصْحُ مِنْهُ الْإِبْجَادُ .
قَوْلُهُ : « هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَى وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » : الْإِشَارَةُ مِنْهُ أَنَّ الدِّينَ تَوْحِيدُ الْحَقِّ ،
وَإِفْرَادُ الرَّبِّ عَلَى وَصْفِ التَّفَرُّدِ وَنَعْتِ الْوَحْدَانِيَّةِ .

ثُمَّ قَالَ : « بِلْ أَكْثَرِمْ لَا يَطْلُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُرْضُونَ » إِنَّمَا عَدِمُوا الْعِلْمَ لِأَمْرَائِهِمْ
عَنِ النَّظَرِ ، وَلَوْ وَضَعُوا النَّظَرَ مَوْضِعَهُ تَوَجَّبَ لَهُمُ الْعِلْمُ لَا حَقْلَهُ ، وَالْأَمْرُ يَدُلُّ عَلَى وَجوبِ النَّظَرِ ،
وَأَنَّ الْعِلْمَ الدِّينِيَّةَ كُلُّهَا كَسْبِيَّةٌ (٢) .

قَوْلُهُ جَلِ ذِكْرُهُ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاصْبِرُونَ ﴾

التَّوْحِيدُ فِي كُلِّ شَرِيعَةٍ وَاحِدٌ ، وَالتَّعْبِيدُ - عَلَى مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ الرُّسُولُ - وَاجِبٌ ،
وَلَكِنْ الْأَفْضَالُ لِلنَّسَخِ وَالتَّبْدِيلِ مُرَضَّةٌ ، أَمَّا التَّوْحِيدُ وَطَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ فَلَا يَجُوزُ
فِي ذَلِكَ النَّسَخُ وَالتَّبْدِيلُ .

قَوْلُهُ جَلِ ذِكْرُهُ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ
بِلْ حَيْثُ ذُكِّرُوا مُشْكِرُونَ ﴾

فِي الْآيَةِ رَخْصَةٌ فِي ذِكْرِ أَقْوَابِلِ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْبِدْعِ عَلَى وَجْهِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، وَكَشْفٌ

(١) هَذَا رَأَى عَلَى جَانِبِ خَطَرِ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ فِي عِلْمِ السَّلَامِ ، وَصَدُورِهِ مِنْ بَاحِثٍ سَوِيٍّ يُمْرِفُ أَنَّ الرِّبْدَ
— عَلَى الْحَقِيقَةِ — مِنْ لَا إِرَادَةَ لَهُ يَزِيدُ فِي أَهْمِيَّةِ الْأَمْرِ .
(٢) فِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ يَتَّبِعُونَ الصُّوفِيَّةَ بِإِنْكَارِهِمُ الْعِلْمَ .

عوداتهم ، والتنبؤ على مواضع خطاياهم ، وأنه إن وسوس الشيطان إلى أحد بشئ منه كان في ذلك حجة للانفصال عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَمَ أَمْرِهِ يَسْمَلُونَ ﴾

أخبر أن الملائكة معصومون من مخالفة أمره — سبحانه ، وأنهم لا يقصرون في واجب عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْمَلُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنْشَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَمِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾

﴿ يَسْمَلُ الْقَدِيمُ — سبحانه — لا يختص بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : « لَا يَنْشَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ » دل على أنهم يشفعون لقوم ، وأن الله يتقبل شفاعتهم (١) .

قوله : « وَمِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » : ليس لم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعبثهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يميز أن يُعَذِّبَ البرى ، لكاتوا لا يخافونه لهم أنهم لم يرتكبوا ذللاً (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَفْكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

أخبر أنهم معرضون عن الزلة بكل وجه . ثم قال : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ »

(١) أي أن التشيخي يؤمن بالشفاعة — على عكس بعض فرق التشكيك الذين يشكرونها .

(٢) هنا رأى آخر له أهميته من الوجهة الكلامية ، حيث يرى المحترق — وقد سوا أنفسهم أهل العدل — أن الله لا يعذب البرى .

وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه ، فخلق
— سبحانه — يعلم ما لا يكون كيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ ﴾

دَاخَلْنَاهُمْ الشَّجْبَةَ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَالْقِيَامَةِ وَالنَّشْرِ ، فَأَقَامَ اللَّهُ الْحِجَةَ عَلَيْهِمْ بِأَن قَال :
أَلَيْسَا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ سَمَكَ السَّيْلَ وَبَسَطَ الْأَرْضَ . فإِذَا قَدَر
عَلَى ذَلِكَ فَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِعَادَةِ بَعْدَ الْإِبَادَةِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ حَتَّى قَيْنَ الْمَاءِ خَلَقَهُ ، فَإِنَّ أَوَّلَ الْحَيَوَانِ الَّذِي حَصَلَ بِالنَّاسِلِ النُّطْفَةُ ،
وَهِيَ مِنْ جِلَّةِ الْمَاءِ .

وَحَيَاةُ النَّفْسِ بِمَاءِ السَّمَاءِ مِنْ حَيْثُ الْغِذَاءُ ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ بِمَاءِ الرَّحْمَةِ ، وَحَيَاةُ الْأَسْرَارِ
بِمَاءِ التَّعْظِيمِ . وَأَقْوَامُ حَيَاتِهِمْ بِمَاءِ الْحَيَاةِ . . . وَهَزِيْزُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ
تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

الْأَوَّلِيَاءُ هُمُ الرُّوَاسِي فِي الْأَرْضِ وَبِهِمْ ^(١) يَرْزُقُونَ ، وَبِهِمْ يُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءُ ، وَبِهِمْ يُوفَى
عَلَيْهِمُ الْعَطَاءُ . وَكَأَنَّهُ لَوْلَا الْجِبَالُ الرُّوَاسِي لَمْ تَكُنْ لِلْأَرْضِ أَوْتَادٌ . . . فَكَذَلِكَ الشَّيْخُ
الَّذِينَ هُمُ أَوْتَادُ الْأَرْضِ (فَلَوْلَاهُمْ) لَفَزَلَتْ بِهِمُ الشَّمَةُ .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّعَلَّهِمْ
يَهْتَدُونَ ﴾

كَأَنَّ فِي الْأَرْضِ سُبُلًا يَسْلُكُونَهَا لِيَصِلُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ كَذَلِكَ جَبَلُ السُّبُلِ إِلَيْهِ

(١) الضمير في (بهم) يعود على الخلق ، ولم يكن للتشديد بحاجة إلى ذكر (الملق) هنا لكثرة
ما أعاد في هذا الموضوع من قبل . .

مسلوكة بما بين على ألسنتهم من هداية للريدين ، وقيادة السالكين ، كما يَسُرُّ بهداهم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّيَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴾ .

في ظاهر السكون السواء منيرة ، والأرض مسكونة . كذلك للنفوس أراضي هي مساكن الطاعات ، وفي سماء القلوب نجومُ العقول وأقارُ العلم وشعوسُ التوحيد والرفان . وكما جُمِلَتْ النجومُ رجوماً للشياطين جُمِلَ من المعارف رجوماً للشياطين . وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آيات القلوب مما فيها من الأنوار غافلون ، لا يكاد يعرفها إلا الغوامس

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

كما أن الحق - سبحانه - في الظاهر يكوِّر الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ في نهار البسط ليل القبض . والبسط في الزيادة والنقصان . فكما أن الشمس أبداً في برجها لا تزيد ولا تنقص ، والقمر مرة في الحاق ، ومرة في الإشراق . . . فصاحب التوحيد بنمت التمكن - يرتقى من حدٍّ تأمل البرهان إلى رَوْح البيان ، ثم هو متحقق بما هو كالمسيح . وصاحب العلم مرة يَرُدُّ إلى تجديده نظيره وتذكُّره ، ومرة يشاهد غير في حال غفلته فهو صاحب تلوين^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ مِثْلَهُ خَلْقًا وَتَبَعًا ﴾ .

إنك في هذه الدنيا عابرٌ سبيل ، لكننا لم نتركك فرداً في الدنيا ، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في النار : ما غلظك باثنين الله ثالثهما ١٩ .

(١) دامل التمكن كالشمس في ثيابها ، وأهل التلويح كالقمر في تدرجه وتغير أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْغَيْبِ غَنَةً﴾ .

الموتُ به آفة قوم ، وفيه راحة قوم ؛ قوم انتهاء مدة الاثنيان ، ولآخرين اختراع باب الفراق ، قوم وقوع فتنتهم ولآخرين خلاص من محنتهم ، قوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ أَن يَخْشَوْاكُمْ لَا تَخْشَوْهُمْ أَوْ يَخْشَوُوكُم بِمَا فِي بُطُونِهِمْ إِنَّا نَحْنُ مُخْشَوْنَ﴾ .

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رقاه إليه من اللزلة لظفروا به خاضعين ، ولكنهم خشيوا عن معانيه وسريته ، وما ينووا منه جسده وصورته .

قوله جل ذكره : ﴿يَخْلُقُ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَاءَ مَا يَكُونُ آيَاتٍ فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

السَّجَّةُ مذمومة والسَّارعةُ محمودة ؛ فالسَّارعةُ اليدارُ إلى الشيء في أول وقته ، والسَّجَّةُ استقباله قبل وقته ، والمجلةُ نتيجة وسوسة الشيطان ، والسَّارعةُ قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيها وعدوم ، فاستعجلوا حصول ما توعدوم به .
ولو علموا ما ينالهم لكان السكون منهم ، فالفرعُ يدلُّ على استعجالهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ مِنْ وَجْهِهِ النَّارَ...﴾ .

... لأمسكوا اليوم عن الانفراف في عذاب^(١) الظنون ، والاعتذار بمواعيد الشيطان .

(١) ضبطنا ما (عذاب) بكسر الهمزة وتشديد الجيم (عذب) فقد حرم ما عيأت لهم الظنون فاستذبروا .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ يَتَذَكَّرُ اللَّهُ لَكُمْ يَوْمَ تَتُوبُونَ﴾
 ﴿فَلَا يَسْتَعِيبُونَ زُنُوهَكُمْ أَلَّا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾
 العقوبة إذا أنت فجأة كانت أنسكى وأشد . وسنة الله في الانتقام أن يُبَيِّرَ رِيحَ البتة
 في حال الانتهاء في النعمة والنية .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ اسْتَبْرَأُ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ
 فَطَاقَ الْبَلَدِينَ ۖ سَخَّرَهَا لَهُمْ فِرْعَوْنُ وَهَارُونُ ۖ وَلَمَّا مَكَانَهُمْ
 بَيْنَهُمْ يَخْرُجُونَ ۖ﴾
 يستهزون .

أسلية له ، وتعريف بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين ؛ أى من
 قريب متجددون وقال ما استوجبوه من العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُم بِالْبَلَدِ وَالْهَلَالِ
 مِنَ الرِّحْلِ ۖ﴾
 من الرحمن . . .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين فيما بينهم ، وقد جربوا ذلك في أحوال محنتهم ،
 فكيف لا يبرءون من ليس لهم شيء ، وما ليس منه نفع ولا ضرر ؟ وفي ذلك تنبيه
 للمؤمنين بأن ما رآهم إلى الظهورات من نوعي النفع والدفع من الله عز وجل ، فواجب دوام
 اعتكافهم بقرينهم بقوة كرمه وجوده .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْ لَمْ آتِهِمْ آيَاتُنَا مِنْ قَبْلُ ۖ بَلْ عَصَوْا ۖ فَكَانُوا
 فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ ۖ﴾
 بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجملات ، وأصنامهم
 التي عبدوها من تلك الجملات ، ولم يرد منهم — على تكرار هذه الألفاظ — إلا هجراً
 واقطاع قول .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ يَتَذَكَّرُ اللَّهُ لَكُمْ يَوْمَ تَتُوبُونَ﴾
 عليهم العمرُّ أفلا يرون أننا تأتي
 الأرض ننقصها من أطرافها أفنم
 الفالبون .

طول الامتناع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق ، مشفوهاً بالعصاة كل مكرراً واستتواباً ،

وزيادة في العقوبة . والحق كما ياقب بالآلام والأحوال يماقب بالإملاء والإمهال .
 وقال : أفلا يرون أنا نأى الأرض . . . « تنوالى القسوة حتى لا يبقى أثر قسوة ؛
 فيتماقب الخذلان حتى يتواتر المصيان ، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان .
 ويقال تنقص بنحاب الأكاير ويبقى الأراذل وينمرض الأفاضل . وفي هذا أيضاً إشارة
 إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل : (١)
 آخرُ الأمر ما شوى القبرُ والحمدُ والثرى

وكما قيل :

طوى المصران (٢) ما تشراه منى وأبلى جدى تشرو وطى
 أراى كل يوم فى انقاص ولا يبقى — مع النقصان — شى

قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ولا يَسْمَعُ الصمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾

أى بأمر الله أعلمكم بموضع الخافة ، ويوحى إلى فى بابكم أن أخوفكم باليم عقابه ،
 ولكن الذى هديم تمنع التوفيق . . أئى ينفعه تكرار الأمر بالقبول عليه ١٩

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

أى إنهم لا يصبرون على أقل شىء من العقوبة ؛ وإن الحق إذا شاء أن يؤلم أحداً
 فلا يحتاج إلى مدح وهون .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَضَعُ لِلوَازِنِ الْقِيَاسَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(١) هنا نهاية الجزء الذى أخطأ الناسخ في تحله من أواخر « طه » وأوائل « الأنبياء » إلى مكان آخر من « الفرقان » .
 (٢) المصران : للنداء والمعنى ، أو الليل والنهار .

فلا تظلم نفس شيئا وإن
مثقال حبة من خردل آتينا بها
وكتبنا بنا حاسين ﴿٥٥﴾

توزن الأعمال بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاص لا يُقبل ، وتوزن الأحوال بميزان
الصدق فما يكون فيه الإعجاب لا يُقبل ، وتوزن الأغصان بميزان (. . .) (١) فما فيه حظوظ
ومساكنات لا يُقبل .

ويقال يتصف المظلوم من الظالم ، ويتنم الضعيف من القوى .
ويقال ما كان لغير الله لا يصلح القبول .

ويقال يكافئ كلاً بما يليق بمهله فمن لم يرحم عباده في دنياه لا يرحمه الله ، ومن لم يحسن
إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومن ظلم غيره كوفي بما يليق بسوء فعله .

قوله : « فلا تظلم نفس شيئا » : أى يجازى المظلومين وينتم من الظالمين ، ويتنصّف
المظلوم من مثقال الذرة ومقياس الحبة ، وإن حمل خيراً بذلك المقدار فيسليق جزاءه ،
ويجهد هوّنه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان
وضياء وذكراً للمتقين ﴾

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنور ، والحجة والبرهان يشاركون
المتحيزين من أممهم في الاستبصار به . . .

فكنفك الاكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا — صلى الله عليه وسلم — في الاستبصار
بنور اليقين .

و « المتقي » هو المجانب لما يشغله ويحجبه عن الله ، فيتقى أسباب الحجاب وموجباتها .

(١) ترى انه قد حدث سقوط لفظ في هذا المكان ، ولابد انها بمعنى الخلوقة والتجرد من
كل الملاهي ، وربما كانت أيضاً (الحقوق) أى حقوق الله .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ
السَّاعَةِ مُخْفُونَ﴾

صار لم في استحقاق هذه البصائر والخشية بالغيب إطرار السريّة ، وفي أوان الحضور
استثمار الوجيز من جريان سوء الأدب ، والحدّ من أن يبدو من الغيب من خفايا التقدير
ما يؤيّب حجة العبد .

والإشفاق من الساعة على ضريين : خوف قيام الساعة الموعودة العامة ، وخوف قيام
الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم^(١) ، فإنّ ما يستأهل السكّانة في الحشر ممّجّل لم في الوقت
من تقريب ومن تبديد ، ومن تحفر ومن أثبت .

قوله جل ذكره : ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ
لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

وصف القرآن بأنه «مبارك» ، وهو إخبار عن دوامه^(٢) ، من قولهم : برّك الطائر
على الماء أي دأّم .

وإنّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وما لا ابتداء له — وهو
كلامه القديم — فلا انتهاء لكتّاب المال عليه .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ
وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾

أراد به ما تعرّف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول^(٣) ، لولا أنّه
خصّه في الابتداء بالترديد . . وإلاّ متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خلقه لولا ما أضاه^(٤)
عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق ؟
ويقال هو ما كاشف به رُوحه قبل إبداءها من تحيّل الحقيقة .

(١) أي أرباب الأحوال

(٢) وودعت (بيانه) وآخرا — طبقاً لسياق — أن نجسها (دوامه)

(٣) إشارة إلى أن إبراهيم لما رأى أفول الشمس والقمر والنجم قال : «إني لأحب الأفلين» .

(٤) (أضاه) مقبولة في السياق ولكننا لا نسلّم أنها ربما كانت في الأصل (أضاء) أي (أنم) .

قوله جل ذكره ﴿إِذْ قَالَ لَآئِيهِ وَقَوْمَهُ مَا هَذِهِ الْتَمَائِلُ﴾

التي أنتم لها عاكفون ﴿﴾

خاطب قومه وأباه (١) ببيان التنبيه طمعا في استغفارهم من سكرة الغفلة ، ورجوعهم من غلة (٢) الغفلة ، وخروجهم من ضيق الشبهة .

ثم سأل الله إعادتهم بطلب الهداية لهم . فلما تبين له أنهم لا يؤمنون ، وعلى كفرهم يصيرون تبرا منهم أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ قال

لقد كنتم أنتم وآبائكم في ضلال مبين

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ

اللاحين ﴿﴾

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد ، فكان من جوابه الحكم بالسوية بينهم وبين آباءهم في الضلال ، والحجة للترجية على سلفهم لزموها وتوجبت عليهم ، فلم يرضوا منه بنخلة آباءهم حتى قالوا : « أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاحِينَ ؟ » فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان قال :

﴿قَالَ بَلْذُرِّيَّتُكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

الذي قَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ رَءٍ

الشاهدين ﴿﴾

فأحكم على النظر والاستدلال والتعرف (٣) من حيث أدلة العقول (٤) لأن إنبات الصانع

(١) وردت (وأباه) والصواب أن تكون (أباه) كما في الآية .

(٢) وردت في (غلة) وفي م (ظل) والصواب أن تكون (غلة) ما تشير إلى يستعمل الظل للتماية وما في معناها .

(٣) في م (والتعرف) وفي م (التعرف) ونحن نرجح هذه .

(٤) في م (القول) ونحن نرجح (القول) لتلازمها مع السابق .

لَا يُعْرِفُ بِالْمُعْجَزَاتُ ، وَإِنَّمَا لِلْمُعْجَزَاتُ عِلْمٌ بِصِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَذَلِكَ فِرْعَ
لِمُرْفَةِ الصَّانِعِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ لَمْ أَنَّ مَا عِبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَحْتَلِ بِمَا يُصِيبُهُ مِنْ
الْبَلَاءِ قِتَّةً مِنْهُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ اللَّتَنَزُّدُ بِالْإِبْدَاعِ ، فَلَا أَحَدَ يَمُكُّ لَهُ (١) ضَرًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَتَسَاءَلُوا
فِيَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَكِنِ
الظَّالِمِينَ • قَالُوا سَمِعْنَا قَوْمِي يَذْكُرُونَهُ
يَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾

أَي يَذْكُرُهُمُ بِالسُّوءِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَعْلِهِ . . فَسَأَلُوهُ ، فَسَأَلُوهُ (٢) قَالُ : بَلْ
فَعَلَهُ كِبَرُهُمْ .

فَقَالُوا كَيْفَ نَدْرِكُ الذَّنْبَ عَلَيْهِ ؟ وَكَيْفَ نَصِلُنَا فِي السُّؤَالِ عَلَيْهِ — وَهُوَ جَاد ؟

قَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَجِيزُونَ عِبَادَةَ مَا هُوَ جَادٌّ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ السُّوءَ ؟

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ ثُمَّ نَكْبِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ قَدْ عَلِمْتَ
مَا هَؤُلَاءِ يَنْقُتُونَ ﴾

قَالَ : شَرٌّ وَأَمْرٌ (٣) . . كَيْفَ تَسْتَحِقُّ أَمْثَالَهُ هَذِهِ . . الْعِبَادَةَ ؟

فَلَمَّا تَوَجَّهَتْ الْحُبَّةُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ دَاخَلَكَهُمْ الْأَفَنَةُ وَالْحَمِيَّةُ فَقَالُوا : سَمِعْنَا أَنَّ
فَعَلَهُ شَرٌّ قِيْلَةً ، وَأَنَّ لِعَامِلِهِ مَا يَخُوفُنَا بِهِ مِنَ النَّارِ . فَقَالُوا : « ابْنُوا لَهُ بَنِيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » ،
فَلَمَّا رَمَوْهُ فِي النَّارِ :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾

(١) الضمير لى (فسأله) يسوء على إبراهيم عليه السلام .

(٢) أى أن لى الكلام كما يقول البلاغيون — لم يجاز حذف .

(٣) أى هذا قدر أفتح من الذنب .

لو عصته من نار^(١) نمرود ولم يمكنه من رثته في النار من المنجنيق لكان - في الظاهر - أقرب من النمرود، ولكن حفظه في النار من غير أن ينسأ أم أم في باب النمرة والمعجزة والكرامة .

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان كثيراً ما يقول : أواه من النار !

قال تعالى : « إن إبراهيم لأواه حليم »^(٢)

فلما رى في النار، وجعل الله عليه النار يرد آ قيل له : لا تقل بعد هذا . أواه من النار !
الاستعاذه بالله من الله . . لا من غيره .

قوله : « وسلاماً » : أي وسلامة عليه وله ، فإنه إذا كان بعد السلامة بالنار والبرد هتفه سيان .

ويقال إن الذي يهرق في النار من في النار يقدم على حفظه في النار .
ولما سلم قلبه من غير الله بكل وجه في الاستنصار^(٣) والاستعاذه وسلم من طلب شيء بكل وجه . . . تعرض له جبريل - عليه السلام - في الهواء وقد رى من المنجنيق وقال له :

هل من حاجة ؟

قال : أما إليك . . فلا !

فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً ؛ إذ لما كان سليم القلب من الأفيار وجد سلامة النفس من البلاء والأهلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ فمخلصهم

الأخسرين ﴿

من حذر أوليائه وقع فيها حفرة ، ومن كان مشغولاً بالله لم يتول الانتقام منه سوى الله .

(١) في م (يد) نمرود وكلاماً مقبول في السياق .

(٢) آية ١١٤ سورة النوبة .

(٣) هكذا في م وهي أصح من : الاستنصار (في م لانجرام) الاستنصار (مع) الاستعاذه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَجِّنَاهُ لَوْلَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي

يَاذِرُ كُنَّا فِيهَا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي أَنْبِيَائِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّهُ إِذَا نَجَّى مِنْهُمْ وَاحِدًا أَشْرَكَ بِهِ مِنْ مَكَانٍ مُسَاهِمًا لَهُ فِي ضُرِّهِ وَمَقَاسِدِ مَشَقَّتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً

وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾

مَنْ عَلَيْهِ بَأْنُ أَخْرَجٍ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ ، فَآكَرًا لَهُ ، فَإِنَّ مَفَاحِيرَ الْإِبْنَاءِ مَنَاقِبُ لِلْآبَاءِ ، كَمَا أَنَّ مَنَاقِبَ الْآبَاءِ شَرَفٌ لِلْإِبْنَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا

عَابِدِينَ ﴾

الْإِمَامُ مُقَدِّمُ الْقَوْمِ ، وَاسْتِحْقَاقُ رُتْبَةِ الْإِمَامَةِ بِاسْتِحْجَاعِ الْإِخْلَاصِ الْمَهْمُودَةِ الَّتِي فِي الْأُمَّةِ فِيهِ ، فَكُنْ لَمْ تَتَجَمَّعْ فِيهِ مُتَّفَرِّقَاتُ الْإِخْلَاصِ الْمَهْمُودَةِ لَمْ يَسْتَحِقْ مَنَزَلَةَ الْإِمَامَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ

الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْغِيَابَاتِ لَهُمْ .

كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٌ فَلْيَقِينِ ﴾

أَكَلُ لَهُ الْأَنْعَامُ بِمَصْنَعِهِ مِنْ مِثْلِ مَا امْتَحَنَ بِهِ قَوْمَهُ ، ثُمَّ بِخُلَاصِهِ مِنْهُمْ بِإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَفِيهِمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ

الصَّالِحِينَ ﴾

يَبِينُ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ نِمَ قَالَ : « إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » ؛ فَلَا عَاجِلَ مَنْ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ كَانَ صَالِحًا .

وقوله : « وأدخلناه في رحمتنا » إخبارٌ عن عين الجمع ، وقوله : « إنه من الصالحين » : إخبار عن عين الفرق ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَنوحاً إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمِينَ﴾

كان نوح - عليه السلام - أطولكم عمراً ، وأكثركم بلاء . ففي القصة أنه كلن بضرب سبعين مرة ، وكان الرجل المرم يحصل حفيده إليه ويقول . لا تقبل قول هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته . وكان نوح - عليه السلام - يصبر على مفاضة الأذى ، ويدعوه إلى الله ، فلما آيس من إيمانهم ، وأوحى إليه : « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » ^(٢) دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » ^(٣) فقال تعالى : « ونوحاً إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ » فأزحق الشرك وأغرق أهل .

- قوله جل ذكره ﴿وداود وسليمان إِذْ يَخْسِفَانِ فِي الْكُرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ففهمناها
- سورة مريم
- سورة طه

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين دوجتيهما تفاوت . . . في مسألة واحدة أثبت لسليمان - عليه السلام - بها خصوصية ؛ إذ من عليه بقوله : « ففهمناها سليمان » ولم يمن عليه بشيء من تلك التي أعطاه بمثل مامن عليه بذلك ، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين - وإن اختلفوا - . إذا كان اختلافهم في فروع الدين ؛ حيث قال : « وكلاً آتينا

(١) لأن الرحمة من صفات ذاته - سبحانه ، وصلاح التبدية شيء من كسب الممد .

(٢) آية ٣٦ سورة هود .

(٣) آية ٢٦ سورة نوح .

حكماً وعلماً ، ولئن قال بتصريب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلُّق بقوله : « فنهناها سليمان » (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

أمرَ الجبالِ وسَخَّرَها لتساعدَ داودَ — عليه السلام — في التسييح ، ففي الأثر : كان
داود — عليه السلام — يمرُّ وصَفَاحَ (٢) الجبالِ نجاوليه ، وكذلك الطيور كانت تساعدُه
عند تأويله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبِئْسٍ لَّكُم
شِحْنَةٍ تَن بَاسِكُمْ فَمَلِ أَنْتُمْ
شَاكِرُونَ ﴾

سَخَّرَ اللهُ — سبحانه — لداود الحديد ، ولأنه في يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى :
« وَأَلَّمْنَاهُ الْجَدِيدَ » ليتحصن من السهم في الحروب ، قال تعالى : « وَقَبِّدْ فِي السَّرِّدِ » وأَحْكِمِ
الصنعة وأوثِقِ المسامر . . . ولكن لما قصدهم رِسهامُ التقدير ما أصابت إلا حدقته حين نظر
إلى امرأة أوريا — من غير قصدٍ — فكان ما كان .

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نفسه باب البيت ، وأخذ يصلي ساعة ، وقرأ التوراة
مرة ، والزبور أخرى ، حتى مضى وينتهي ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أوحى إليه أنه يوم
فتنة ، فأمر الخُجَّابَ والبواب ألا يؤذَنَ عليه أحدٌ ، فوقع من كَوْرَةِ البيت طيرٌ لم ير مثله

(١) هذا رأى التشبُّر في (الاجتهاد) ومداه ، ويجدر الاهتمام به إذا شئت أن ثبت في « أصول
الفقه عند الصوفية » .

(٢) صلاح جمع صفح ، وصفح الشيء هرضه (مقاييس اللغة ج ٣ ص ٢٩٣) .
ويقول القرطبي (قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحاً ، والجبال نجاوليه بالتسييح ، وكذلك الطير)
وبضيف القرطبي شيئاً هاماً بالنسبة لتفسير الصوى : (كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى
يشتاق ، ولهذا قال - « وسخرنا » أي جعلناها بحيث تطعمه) .

« الجامع لأحكام القرآن » ج ١١ ص ٢١٩
وهذه المناسبة نود أن نستذكّر شيئاً لم نثر إليه في مدخل الكتاب ، وهو أن القرطبي كثيراً ما يستفيد
من آراء الصوفية ، وبصفة خاصة من التشبُّر ، وهو في معظم الأحيان عبد الرحمن التشبُّري أحد أبناء
المصنف .

في الحسن ، فهم أن يأخذ ، فتباعد ، ولم يطر كالطعم له في أخذه ، فلم يزل يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوة البيت ، فبصر داود ينظر إليه من الكوة من وراءه ، فوقع بصره على امرأة أوربا ، وكانت قد تجمّدت من ثيابها تنفس في بستان خلف البيت الذي به داود ، فحصل في قلبه ما حصل ، وأصاب سهم التقدير حدقته ، ولم تنفعه صنعة القيوس التي كان تعلّمها لتحصنه من بأسه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولشبان الریح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكُنّا بكل شيء عالمين ﴾

سخر الله له الریح عُدوها شهر ورواحها شهر ، ولو أراد أن يزيد في قدر مساقمها شيئاً لما استطاع ، تمرطاً بأنه موقوف على حكم التقدير ، فشهود التقدير كان بمنه من الإعجاب بما أكرم به من التسخير ، ولقد تبه — سبحانه — من حيث الإشارة أن التي ملكه سليمان كالريم إذا مرّ وقت ، أو أنه لا يبقى باليد منه شيء (١) .

وفي القصة أنه لاحظ ذلك يوماً فالت الریح ببساطه قليلاً ، فقال سليمان للريح : استو . فقالت له الریح : استو أنت . أي إنما مني ببساطك ليك بقلبك بملاحظتك ؛ فإذا استويت أنت استويت أنا (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الشياطين من يقصون له ويعتلون عتلاً دون ذلك وكُنّا لهم حافظين ﴾

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة . ثم إنه أراد يوماً أن يسود إلى مكانه فجاءه ملك الموت فضالّبه بروحه ، قال : إلى أين أرجع إلى مكاني . فقال له : لا وجه لفتاخير ، وقبضة وهو قائم ينكس على عصاه ويقب بجأته ، ولم تلم الجئ ،

(١) هو كما قيل : باطل وقبيح الریح .

(٢) في ذلك إشارة إلى أصحاب الأحوال بأنه إذا غيرت أو تعدلت الأمور فالسبب كامن في نفوسهم .

إلى أَنْ أَكَلَتْ دَابَّةُ الْأَرْضِ — كما في القصة — عصاه ، فلما خَرَّ سَلِيَانٌ حَلَسَتْ الشَّيَاطِينُ بِعَوْنِهِ ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ الَّذِي بِالْعَصَا قِيَامُهُ قَقْبَرُ الْمَوْتِ يُلْهِنُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسِيءٌ
الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

أَيُّ وَإِذَا ذَكَرَ أَيُّوبَ (١) نَدَى رَبَّهُ . وَتَحَى أَيُّوبَ لِكثْرَةِ لِيَالِهِ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ .

وَلَمْ يَقُلْ : اِرْحَمْنِي ، بَلْ حَفِظَ أَحَبَّ الْخُطَابِ قَالًا : « وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .
وَمِنْ عِلَامَاتِ الْوَلَايَةِ أَنْ يَكُونَ الْمَبْدُ عَفْوَكَ عَلَيْهِ وَقَتُّهُ فِي أَوَانِ الْبَلَاءِ .

وَيَقَالُ إِنْخِبَارُهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « مَسَى الضَّرُّ » لَمْ يَسْلُبْ اسْمَ الصَّبْرِ حَيْثُ أَخْبَرَ عَنْهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » لِأَنَّ الْغَالِبَ كَلَنَ مِنْ أَحْوَالِهِ الصَّبْرِ ، فَتَادِرُ قَالَتْ لَمْ يَسْلُبْ عَنْهُ الْغَالِبَ مِنْ حَالَتِهِ . وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا إِلَى أَنَّ الْغَالِبَ مِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِ الْمَعْرِفَةِ ، أَوْ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فَهِيَ الَّتِي يَسْتَفْرِقُ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ ، وَلَا يَخْطُرُ مِنْهُ لَحْظَةٌ ؛ وَتَادِرُ زَلَّاتِهِ — مَعَ دَائِمِ لِيَالِيَتِهِ — لَا يُذَكِّرُ الْوَصْفَ الْغَالِبَ .

وَيَقَالُ ؛ لَمَّا لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ : مَسَى الضَّرُّ عَلَى وَجْهِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى التَّقْدِيرِ — بَلْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْإِظْهَارِ الْمَجِزِ — فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُنَافِيًا لَصِفَةِ الصَّبْرِ .

وَيَقَالُ اسْتَفْرَجَ مِنْهُ هَذَا الْقَوْلُ لِيَكُونَ فِيهِ مُتَنَفِّسٌ لِلضَّمْعَاءِ فِي هَذِهِ الْأَمَةِ حَتَّى إِذَا ضَجُّوا فِي حَالِ الْبَلَاءِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُنَافِيًا لَصِفَةِ الصَّبْرِ .

وَيَقَالُ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ عَلَى جِهَةِ الشُّكْوَى ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ حَيْثُ الشُّكْرُ ؛ أَيْ مَسَى الضَّرُّ « الَّذِي تَخَصَّصُ بِهِ أَوْلِيَائِهِ » ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ لَتَأَخَّصْتَنِي بِهَذَا ، وَلَكِنْ بِرَحْمَتِكَ أَهْلَيْتَنِي لِهَذَا .

(١) فِي تَقْدِيرِهِ أَنْ مَا كَتَبَهُ الْقَشِيرِيُّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَنْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَجْلِ مَا كَتَبَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ سِوَاهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأَدَبِيَّةِ أَوْ مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِشَارِيَّةِ .

ويقال لم يكن هذا القول من أيوب ولكنه استفادة البلاء منه ، فلم يُطَقِ البلاء صُحْبَتَهُ
فَضِجَ منه البلاء لا أيوبَ صُجَّجَ من البلاء . . . وفي معناه أشبهوا .

صَابِرُ الصَّبْرِ اسْتَقْبَلَ بِهِ الصَّبْرُ فَصَاحَ الْمَهْجُ بِالصَّبْرِ صَبْرًا

ويقال همزة الاستفهام فيه مضرة ، ومنه : أَيْمَنُ الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ؟ كَمَا قَالَ
« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيْهَا » (١) أَيْ أَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيْهَا أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟

ويقال إِنْ جَبْرِيْلَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَيْ أَيُّوبَ قَالَ : لِمَ تَسْكُتُ ؟ قَالَتْ : مَاذَا أَصْنَعُ ؟
قَالَ : إِنْ اللَّهَ سَيَلَنَ عَنْهُ بِلَاؤُكَ وَشَفَاؤُكَ . . . فَسَأَلَ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ قَالَ أَيُّوبُ : إِنْ
مَسَّنِيَ الضَّرُّ ، قَالَتْ تَعَالَى : « فَكَشَفْنَا عَنْهُ غُصْرَهُ » وَالْفَاءُ تَقْتَضِي التَّعْقِيبَ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ :
فَوَافِيَاءَهُ فِي الْوَقْتِ . وَكَأَنَّهُ قَالَ : يَا أَيُّوبُ ، لَوْ طَلَبْتَ الْعَاقِبَةَ قَبْلَ هَذَا لَأَسْتَجَبْنَا لَكَ .

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بَدَنِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَرَفَعَهَا أَيُّوبُ وَوَضَعَهَا عَلَى
مَوْضِعِهَا ، فَفَرَزَتْهُ عَقْرَةً حَيْلَ صَبْرِهِ قَالَ : مَسَّنِيَ الضَّرُّ ، قِيلَ لَهُ : يَا أَيُّوبُ : أَنْصَبِرْ مَعَنَا ؟
لَوْلَا أَيْ صَبْرُكَ لَمْ تَكُنْ كُلَّ شَعْرَةٍ مِنْ شَعْرَاتِكَ كَذَاخِيَةً مِنَ الصَّبْرِ . . . مَا صَبَّرْتَ سَاعَةً ؟
ويقال كانت النُّفُوسُ الَّتِي تَأْكُلُ مِنْهُ أَكَلَتْ مَا عَلَا بِدَنِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا لِسَانُهُ
وَقَلْبُهُ ، فَصَعِمَتْ دَوْدَةُ إِلَى لِسَانِهِ ، وَأُخْرَى إِلَى قَلْبِهِ قَالَ :

« مَسَّنِيَ الضَّرُّ » . . . فَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا لِسَانٌ بِهِ أَذْكَرُكَ ، أَوْ قَلْبٌ بِهِ أَعْرِفُكَ ، وَإِذْ
لَمْ يَبْقَ لِي ذَلِكَ فَلَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَحْيَا وَأَصْبِرَ !

ويقال استعجمت عليه جهة البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تنذيراً
أو تزييناً أو تخفيفاً أو تحميماً . . . وَكَذَلِكَ كَانَتْ صَحْبَتُهُ (٢) .

ويقال قِيلَ لِأَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَلِّ الْعَاقِبَةَ قَالَ :

« حَيْثُ فِي النَّفْسِ سَبْعِينَ سَنَةً خَفِيَ يَأْتِي عَلَى سَبْعِينَ سَنَةً فِي الْبَلَاءِ . . . وَهَذَا أَسْأَلُ
اللَّهَ الْعَاقِبَةَ !

(١) آيَةُ ٢٢ سُورَةِ الشُّرَاءِ .

(٢) أَيْ وَكَهَذَا كَانَتْ صَحْبَةُ الْخَلْقِ لَوْلِيهِ دَائِمًا .

وقيل لَمَّا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ الْبَلَاءَ قِيلَ لَهُ : مَا أَشَدُّ مَا قَبِيتَ فِي أَيَّامِ الْبَلَاءِ ؟ فقال
شجاعة الأعداء .

وفي القصة أن تلامذة أبواب كسروا أقلامهم ، وحرّقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان
عند الله منزلةٌ لَمَّا ابْتُلَاكَ بِكُلِّ هَذَا الْبَلَاءِ !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجة ، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام ، فهي التي بقيت
معه وكانت تحبّه وتحميه .

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب —
عليه السلام .

وقيل إنما قال : متى أضربُ لَمَّا تال لها الشيطان : إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَشْفِيَكَ مَرِيضُكَ فَاسْجُدِي
لي ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظهر لها في صورة إنسان ، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندئذٍ :
« سَيِّئَ الضَّرْبُ » .

ويقال لَمَّا ظهر به البلاءُ اجتمع قومه وقالوا لها : أخرجي هذا المريضَ من قريتنا ، فإننا
نخاف العدوى وأن يمسنا بلاؤه ، وأن نُعَذِّبَ إِلَيْنَا عِلَّتَهُ ، فَأَخْرَجَتْهُ إِلَى بَابِ الْقَرْيَةِ فَقَالُوا :
إِنَّا إِذَا أَصْبَحْنَا وَقَمْتُ أَبْصَارُنَا عَلَيْهِ ، فَتَشَاهَمُ بِهِ ، فَأَقْبِدِيهِ عَنْ أَبْصَارِنَا ، لَعَلَّنَا إِلَى أَرْضٍ
قَفْرٍ ، وَكَانَتْ تَسْخُلُ الْبِلَدَ ، وَتُسْتَأْجَرُ لِلْخَبْرِ وَالْمِلِّ فِي الدُّورِ ، فَتَأْخُذُ الْأَجْرَ وَتَحْمِلُهَا إِلَيْهِ ،
فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا أَمْرَأَةٌ اسْتَفْزَرُوهَا وَلَمْ يَسْتَمْلُوهَا .

ويقال إنها كانت ذات فوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ،
فباعت ذوائبها بربيعٍ أخذته لتحمله إليه ، فوسوس له الشيطان بأنها ضلت الفحشاء ، وأن
شعرها جزئ في ذلك فَحَلَفَ أَيُّوبُ أَنْ يَجْلِدَهَا إِذَا صَحَّ حَدْسُهُ ، وَكَانَتِ الْهِنَةُ عَلَى قَلْبِهِ
تلك المرأة أشدَّ مما على بَدَنِ أَيُّوبَ مِنْ كُلِّ الْهِنِ .

وقيل إن امرأته غابت ودخلت البلد ، ضاعف اللهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وعاد شاباً طويلاً
كما قال في قصته قوله : « أَرَكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُفْقِلٌ بَرْدٍ وَشَرَابٌ »^(١) . فلما رجعت

امرأته ولم تره حيث أنه أكله سُبُعٌ أو أصابته آفةٌ ، فأغضت بكي وتولول ، فقال لما أيوب — وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً — ما كنتِ يا امرأة ؟

قالت : كان لي ما هنا مريض فقَدَدته . فقال لما أيوب : أنا ذاك الذي تطليينه !

وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرضَ له إبليسُ فقال : إن أردتِ العافية فاسجدي لي سجدةً ، فقال : « سني الضرُّ » .

ويقال إن أيوب — عليه السلام — كان مكافئاً بالحقيقة ، مأخوذاً عنه ، فكان لا يُمسُّ بالبلاء ، فسَترَ عليه مرةً ، وردَّه إليه ، فقال : مسني الضرُّ (١) .

ويقال أدخلَ على أيوب تلك الحالة ، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية .
ويقال أوحى الله إلى أيوب — عليه السلام — أن هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قبلك فما اخترته إلا لك ، ملأً أراد كشفه عنه قال : مسني الضرُّ !

وقيل كشف بمعنى من للمعانى فلم يجدَ ألمَ البلاء فقال : مسني الضرُّ ليفقدني ألمَ الضرُّ .
وقال جعفر الصادق : حبسَ عنه الوحي أربعين يوماً فقال : مسني الضرُّ لما لحقته من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأن ردَّ عليه قُوته ليقوم بحق الطاعة .

ويقال طلب الزيادة في الرضا فاستجيب له بكشف ما كان به من ضعف الرضا .

ويقال إن الضرُّ الذي شكاه أنه بقيت عليه قية ، وبلينه كانت ببقينه ، فلما أخذَ عنه بالكلية زال البلاء ، ولهذا قال « فكشفنا ما به من ضرٍّ » وكانت نَفْسُ ضرٍّ ، وردَّ عليه السلامة والعافية والأمل — في الظاهر — لما صار مأخوذاً بالكلية عنه ، مُتَّقٍ عن كل بقية ، وعند ذلك يستوى البلاء والعافية ، والوجود والعدم .

(١) أي أن العبد الزوال لا يحس بنفسه وهو في حال الجمع ، ويحس بها وهو في حال العرق . وقد سكت القشيري في الرسالة أن بعضهم قلمت وجهه حيث كانت بها غرغرينة فلم يشعر . بينما ألمت بعضهم قلة . وهو في خال الفرق .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾
كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٥٠﴾

أى واذا ذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : « كل من الصابرين » ، ثم قال :

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

يَبَيِّنُ الْحُكْمَ وَالْمَعْنَى ؛ الْحُكْمُ صَبْرُهُمْ وَصَلَاتُهُمْ ، وَالْمَعْنَى إِدْخَالُهُ إِيَّاهُمْ فِي الرَّحْمَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا النُّوْجُ إِذْ ذَهَبَ مُمَاضِيًا فَلَنْ يَنصُرَهُنَّ فِيهِمْ فَجُودًا﴾

أَنْ لَّنْ قَدِيرَ عَلَيْهِ فَتَادِي فِي

الظلمات أن لا إله إلا أنت

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٠﴾

« مناضبا » : على مِثْلِ وقته حيث اختاره لقبوة ، وسأله : لم اخترتني ؟ فقال : لقد أوحي الله لي نبيي : أن قل للغلابي لئلا ياتي حتى يختار واحدا ليرسل إلى نينوى بالرسالة . فنقل كل ذي النون لما اختاره للملك ؛ لأنه علم أن النبوة مقرونة بالبلاء ، فكان غضبه عليه الملك (١).

ويقال مناضباً على قومه لما امتنعوا عن الإيعان وخرج من بينهم .

ويقاتل مناضباً على نفسه أى شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مخالفيه .

« فظنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، أَيْ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ » (٢) بطن الحوت ، من قوله :
« وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » (٣) أَيْ ضَيَّقَ .

(١) هن امن عباس : أراد شيئا الذي ولكل حزينا أن يبيت يونس إلى مكة ينوي الذي كان قد خزا بني إسرائيل وصهي الكثير منهم ليكنه حتى يرسل معه بني إسرائيل ، وكان الأنبياء ، في ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسجاسة إلى مكة قد اختاروه ، فيصل على وحى ذلك النبي ، وقد أوحى لشيئا : أن كل حزينا ولكل أن يختار نبيا قويا من بني إسرائيل إلى أهل نينوى .. فقال يونس لشيئا : هل أمرت الله بالخروجي ؟ قال : لا ، قال : فها أنت أمانة أمناه أقوياء ، فأخبره .. فخرج فعاضا نبي ، ولكل وقومه ، حتى أتى بحر الروم .. وكان من قصته ما كان ، وأجلى بين الموت تركه أمرا شيئا .. قال تعالى : فالتفتلح الموت وعوملهم .

(٢) (أن لن نثيق عليه) مفقودة في : من موجهة في والساق يقتضى وجوده .

ويقال فظن أن لن نمر عليه من حبس في بطن الحوت .

وخرج من بين قومه لما أخبر بأن الله يَنْصَبُ قومه ، وخرج بأهله .

ويقال إن السج اقترب أهل في الطريق ، وأخذ النمر أبنا صغيراً له كلن معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنه الآخر ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجه ، وأشرقت السفينة على الفرق ، وأخذ الناس في إلقاء الأمتة في البحر تخفيفاً عن السفينة ، وطلباً لسلامتها من الفرق ، فقال لهم يونس : لا تَلْقُوا أمتعتكم في البحر بل اطرحوني فيه فإنا الجرم فيما بينكم لتخلصوا : فنظروا إليه وقالوا : نرى عليك سوء المصالح ، وليست تسمح ففوضنا إليك في البحر ، فقال تعالى عجباً عنه : « فسام فكان من المحضين »^(١) أي قتلهم ، فاستهوا ، فوفقت القرعة عليه .

وفي القصة أنه أتى حرق السفينة ، وكان الحوت فاعزاه ، فجاء إلى الجانب الآخر لجاء الحوت إليه كذلك ، حتى جاز كل جانب . ثم لما علم أنه مراد بالبلاء ألقي نفسه في الماء فابتلعه الحوت وهو مليح : « أي أتى بما يلام عليه ، قال تعالى : « فالتقمه الحوت وهو مليح »^(٢) .

وأوحى الله إلى السك : لا تتحدث منه كذباً ولا تسكبر منه عظماً ، فهو ودية عندك وليس بطعمة لك . فبقي في بطنه - كما في القصة - أربعين يوماً .

وقيل إن السك الذي ابتلعه أمير بأن يطوف في البحر ، (وخلق الله له إدراك ما في البحر)^(٣) ، وكان ينظر إلى ذلك .

ويقال إن يونس عليه السلام صلب الحوت أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له : ذا النون ، ولم تبطل عنه هذه النسبة . « فالتقمه الحوت » سبعين سنة ، ولازم قلباً محبته ومعرفة طول عمره . . ترى أيبطل هذا ؟ لا يُطَنُّ بِكَرَمِهِ ذَلِكَ !

« فنادى في الظلمات . . . » يقال غلظة الليل وغلظة البحر وغلظة بطن الحوت - هذا بيان

(١) آية ١٤١ سورة المافات

(٢) آية ١٤٢ سورة المافات

(٣) موجودة في م ومفردة في س

التفسير ، ويحصل (١) أن تكون الظلمات ما تنبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجِّنَاهُ مِنَ النَّارِ ﴾
وكذلك تنجي للؤمنين ﴿

استجبنا له ولم نجبر منه دعه ، لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ، ولم يفر بالظلم إلا وهو يستغفر منه .
ثم قال : « ونجيناه من النار » » . يعني : سُكِّلَ مَنْ قَالِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا أَصَابَهُ غَمٌّ ،
أو استقبله مُؤَمٌّ - مثلاً قال ذو النون نجيناه كما نجيناه ذا النون .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾

سأل الولد ، وإنما سأله ليكون له مُبِينًا على عبادة ربّه وليقوم في النبوة مقامه ،
ولئلا تنقطع بركة الرسالة من بيته (٢) ، ولقد طأى زكريا من البلاء ما طأى حتى حاولوا قطعه
بالمشاة ، ولما التجأ إلى شجرة انشقت له وتوسّطها ، والتأمت الشجرة ، وغطوا إلى ذلك
قطعوها الشجرة بالمشاة ، وصبر لله ، وسبحان الله !

كان انشقاق الشجرة له معجزة ، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم ، ثم لو لم يطمعهم عليه
لسكان في ذلك سلامته ، ولعلمهم - لو قتلوه - لم يُصَيِّبه من الألم القدر الذي لحقه من القطع
بالمشاة طول إقامته ، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة ، فقوى بذلك يقينه
لما رأى عجب الأمر فيه من نقض العادة (٣) ، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ،
ولقد قال عائله : « إنما يستعذب الأولياء البلوى للنجاة مع المولى » .

(١) هذا النوع من الظلمات - وهو المرتبط بالنفس - متوقع صدوره من مفسر صواب علم بأحوال النفس .

(٢) أي أنه لم يسأل الولد لحظ نفسه بل لحق وبه ، وهذه ببرى إجابة الدعاء .

(٣) أي أن المعجزة ليست فقط من أجل القوم الذين ذمهم التي بل في حسابها تلجيت قلب النبي وترسيخ يقينه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَا لَهُ عِصْيَ
وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ أَلَيْسَ كَانُوا
يُسَارِعُونَ فِي الْفِعْلِ وَبَدَعُونَا
رَغْبًا وَوَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيقِينَ ﴾

معي يصي لأنه سمي به عقراً له .

وقوله : « وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ » : لتكون الكرامة لم جميعاً بالولد ، ولئلا يسبى
ذكرها بفرح الولد دونها مراعاة لحق محبتها . . وهذه سنة الله في باب إكرام أوليائه ،
وفي مناه أئشوا :

إِنَّ الْكَرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلَهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْغَضَبُ

ثم قال : « إِنْهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْفِعْلِ وَبَدَعُونَا . . . » وفي هذا إشارة لجميع
المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة
لكان قنوطاً والقنوط كفر^(١) ، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر^(٢) .

قوله : « وَكَانُوا لَنَا خَلِيقِينَ » الخشوع قشيرة القلب عند اطلاع الرب ، وكان لم
ذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاقْنِ أَحْسَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَعْنَا بِهَا
مَنْ رُوحَنَا وَجَعَلْنَاهَا نَبْهًا آيَةً
لِلْعَالَمِينَ ﴾

يعني مريم ، وقد نفى عنها رجمة الفحشاء وحننة الدم .

وقال فنفعنا فيها من روحنا ، وكان النفع من جبريل عليه السلام ، ولكن لما كان بأمره —
سبحانه — صَحَّتْ الإِضَافَةُ إِلَيْهِ ، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بإِزال
ملك فتصيح^١ الإِضَافَةُ إِلَى اللَّهِ إِذْ كَانَ بِأَمْرِهِ . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص .
كقوله : (نَاقَةُ اللَّهِ ، وَيَقِي) . . . ونحو ذلك . (وجعلنا وابنها آية للعالمين) : ولم يدل آيين

(١) قال تمال : « ومن ينط من رجة ربه إلا الضالون » ٥٦ المجر .

(٢) قال تمال : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ٩٩ الأعراف .

لأن أمرهما كان معجزة ودلالة ، ويصح أن يراد أن كل واحد منهما آية — على طريقة العرب في أمثال هذا .

وفيه نبي لهمة من قال إنها حيلت من الله ... تعالى الله عن قولهم !
قوله (آية للمالين) : وإن لم يهتد بهما جميع الناس .. لكنهما كانا آية . ومن نظرَ
في أمرهما ، ووضع النظر موضعه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فآية لا تخرج من كونها
حجة ودلالة بتقصير المقصر في بابها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ .

أى كلكم خليفته ، وكلكم اتقتم في الفقر ، وفي الضعف ، وفي الحاجة . « وأنا ربكم » :
وخالفكم على وصف التفرّد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقَطَّلُوا أَمْرَمَ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ .

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرقت أحوالهم ، فاستأصلتهم البلياء .
قوله : (كل إلى النار راجعون) : وكيف لا ... وهم ما يتقلبون إلا في قبضة التقدير ؟
قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ .

من تعقّل الله لم يضر على الله ، ومن تصلّل لله مشقة وجب حقه (على) ^(١) الله : قوله : وهو مؤمن) بصد قوله : (يعمل من الصالحات) دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً .
فناهية قوله هاهنا : (وهو مؤمن) في السأل والماقية ، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يحتمل له بالسادة ، فيكون في الحال مؤمناً وعمله يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له ، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد خيئته لا يضيع سعيه .

(١) يرجع أنها في الأصل (من) لأن التشبى في مواضع شق ماضى أى وجوب (على) الله .. وطالاً أوضحت ذلك في الهوامش .

قوله جل ذكره : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

أى لا نهلك قوماً وإن تمادوا فى المعصية إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة نُنَقِّمُ أُمُورَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .

أى بحق القول عليهم ، ويتم الأجل للضروب لم ، فعند ذلك تظهر أيامهم ، وإلى القدر للمعول فى التقدير لا تحصل نجاة الناس من شرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاقْرَبِ الْوَعْدَ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

تأخذهم القيامة بشفة ، وتظهر أشراف الساعة فجأة ، ويقر الكاذبون بأن الذنب عليهم ، ولكن فى وقت لا تقبل فيه معذرتهم ، وأوان لا ينفعهم فيه لعالمهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنَّهُمْ لَهَا دَارُونَ ﴾ .

« وما تعبدون من دون الله » : أى الأصنام التى عبدها ، ولم تدخل فى اعطاب الملائكة التى عبدها قوم ، ولا عيسى وإن عيَّده قوم لأنه قال :

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل « إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ »^(١) . فَيُحْشَرُ الْكَافِرُونَ فى النار ، وَتُحْشَرُ أَصْنَانُهُمْ مَعَهُمْ . وَالْأَصْنَامُ جَدَاتٌ فَلَاجَرْتُمْ لَهَا ، وَلَا احْتِرَاقَهَا عَقُوبَةُ لَهَا ، وَلَكِنَّهُ عَلَى جِهَةِ بَرَاءَةِ سَاحَتِهَا ، فَالذَّنْبُ لِكُفْرَانِهَا وَمَا الْأَصْنَامُ إِلَّا جَدَاتٌ .

(١) لأن (ما) اسم موصول لغير المائل و (من) اسم موصول للمائل .

﴿لو كان هؤلاء آية﴾ ما وَرَدُّوها
وكلٌ فيها خائفون ﴿

القوم قالوا : « ما نصيهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »^(١) فَعَلُوا أَنْ الْأَصْنَامَ جَادَاتُ ،
ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً ، وأنَّ مَنْ عِبَدَهَا يَقْرُبُ بِسَادَتِهَا مِنْ اللَّهِ ، فَيُبَيِّنُ اللَّهُ
لهم — غداً — بأنَّها لو كانت تستحق العبادة ، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَّا أُلْقِيَتْ فِي
النار ، وَلَمَّا أُحْرِقَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿لَمْ يَلَمْ فِيهَا زَيْفٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾

« لم » : أى لِمَبَدَةِ الْأَصْنَامِ ، « فيها » أى فى النار . « زفير » لمصرتهم على ما قامهم ،
« وهم فيها لا يسمعون » مِنْ نَدَائِهِمْ بِاتِّفَاضِ حَقَوِيَّتِهِمْ .
وعكس أحوالهم عُصَاةُ الْمُسْلِمِينَ^(٢) فى النَّارِ فَهَمْ — وَإِنْ عُدُّوْا حِينًا — فَذَنبُهُمْ يَسْمَعُونَ
قَوْلَ مَنْ يَبْشُرُهُمْ يَوْمًا بِاتِّفَاضِ عِقَابِهِمْ — وَإِنْ كَانَ بِدَمْدَمَةٍ مَدِيدَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾
أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿

« سبقت لهم منا الحسنى » : أى السَّكْمَةُ بِالْحُسْنَى ، وَالْمُسْتَيْثَةُ وَالْإِرَادَةُ بِالْحُسْنَى ، لِأَنَّ الْحُسْنَى
فَعْلٌ ، وَقَوْلُهُ : « سَبَقَتْ » إِبْخَارٌ عَنْ قِدَمِهِ ، وَالَّذِي كَانَ لَهُمْ فِي الْقَدَمِ هُوَ السَّكْمَةُ الَّتِي هِيَ
صِفَةٌ تَعَلَّقَتْ بِهِمْ فِي مَعْنَى الْإِخْيَارِ بِالسَّعَادَةِ .

ثم قال : « أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » أى عن النار ، وَلَمْ يَقُلْ مُتَبَاعِدُونَ لِئَلَّا يَعْلَمَ الْعَالِمُونَ أَنَّ
لِلدَّارِ عَلَى التَّقْدِيرِ ، وَسَابِقِ الْحُكْمِ مِنْ اللَّهِ ، لَا عَلَى تَبَاعُدِ الْعَبْدِ أَوْ بِنَقَرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيهَا اشْتِغَلَتْ﴾
أَفْئُتُهُمْ خَائِفُونَ ﴿

(١) آية ٣ سورة (الزمر)

(٢) تسمى هذه فى علم الكلام : الفُرْقَةُ بَيْنَ الْفَرَقَيْنِ وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَبِئْسَ عَقُوبَةُ مَوْلَا .
— كَأَنَّ هُوَ قَاتِلُ الْكَافِرِ — عَلَى التَّائِيدِ .. كَأَيُّ الْفَرَقَةِ .

يدل ذلك على أنهم لا يُعَذَّبُونَ فيها بكل وجع . والمراد منه العبادُ من المؤمنين الذين لا جُرمَ لهم .

« وهم فيما اشتهت أنفسهم خللون » : مقبضين لا يرحون .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

قيل الفزعُ الأكبرُ قولُ المَلَكِ : « لا بشرى يومئذٍ للمجرمين » (١)
وقال إذا قيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » (٢)

وقال إذا قيل : يا أهل الجنة . . خلوداً لا موتَ فيه ، ويا أهل النار . خلوداً لا موتَ فيه !

وقيل إذا : « قال اخشوا فيها ولا تكتلبون » (٣)

وقيل الفزعُ الأكبرُ هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك .

قوله « وتلقاهم الملائكة » يقال لم هذا يومكم الذي كنتم وعِدْتُمْ فيه بالثواب ؛ فمنهم مَنْ يُلْقَاهُ الْمَلَكُ ، ومنهم مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِ الْغَطْلَابَ والتعريف من الْمَلَكِ (٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِّيلِ لِلْكُنْثِيرِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُمِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

إنما كانت السماء صفقاً مرفوحاً حين كان الأولياء تحنها ، والأرض كانت فراشاً إذ كانوا عليها ، فإذا ارتفع الأحياء عنها تحرب ديارهم . . على المادة فيما بين الخلق من خراب الديار بعد مفارقة الأحياء .

(١) آية ٢٢ سورة الفرقان

(٢) آية ٥٩ سورة يس

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) أى من الله سبحانه — وهؤلاء هم صفوة الأحياء .

وقال نطوى السماء التي إليها عرجت دواوينُ العصاة من المسلمين لئلا تشهد عليهم بالإجرام ، وتبدلُ الأرض التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .
أو نطوى السماء لنقربَ قطع المسافات على الأجباب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقْدِ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾

« الذِّكْر » هنا هو التوراة ، و « كَتَبَ » : أى أخبر وحكَّم ، و « الصَّالِحُونَ »
أمة محمد - صلى الله عليه وسلم : أن « الأرض » هم الذين يرثونها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
أَنَا مَنْ أَسْلَمَ قَبْلَكَ يَنْجُونَ ، وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ فَلَا نَمْلِكُهُمْ مَا دُمْتَ فِيهِمْ ؛ فَأَنْتَ رَحْمَةٌ مِّنَّا
على الإطلاق أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّا يَوْسَىٰ إِلَىٰ أَنَا إِلَهُكَ إِلَهٌ
وَاحِدٌ قُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

واحدٌ في ذاته ، واحدٌ في صفاته ، واحدٌ في أفعاله . واحد بلا قسم ، واحد بلا شبيه ،
واحد بلا شريك .

« قُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ » مخلصون في عقد التوحيد بالتبرئ من كل غير في حساب
صَلَاحِيَّتِهِ لِلْإِلَهِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ
وَلَنْ أَزِيدَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ
مَا تَوْعَدُونَ ﴾

إن أهرضوا ولم يؤمنوا قُلْ : إني بالالتزام أخلصكم ، ولكن للإكرام ما أخلصكم ،
فَتَوَجَّهْتُ إِلَيْكُمْ الْحُبَّةَ وَاسْتَبَهَتْ عَلَيْكُمْ الْحَبَّةُ .

قوله : « وإن أدرى أقرب أم بعيد . . » إنَّ على متقاصرٍ عن تفصيل أحوالكم في مآلكم ، ووقت ما توعدون به في القيامة من تفصيل أحوالكم ، ولكنَّ حكمُ الله غيرُ متأخِّرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

لا يخفى عليه سركم ونهواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم . . فعل قَدَرٍ استحقاقكم بمجازيكم ، وبموجب أفعالكم بحاسبكم وبكافكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَذْرَى كُنَّهٌ فَئِنَّهٌ لَكُمْ وَمَنَافِعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

ليس يحيط على (إلا)^(١) بما يُفْلِئُنِي ، وإعلامه إلی ليس باختياري ، ولا هو مقصود على حسب مرادى وإلثاري .

قوله جل ذكره ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامة لكل أحد ، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد .

السورة التي يذكر فيها « الحج »

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

سماعُ « بسم الله » يوجب المحبة والنية وذلك وقت محوم . وسماعُ « الرحمن الرحيم » يوجب الأتس والقربة ، وذلك وقت محوم . . فنجد سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سلك واحد .

سماعُ « بسم الله » يوجب نزهاج القلوب وعنده يحصل داء جنونهم^(٢) ، وسماعُ « الرحمن

(١) سقطت (إلا) في س وموجودة في م .

(٢) ليس الجنون والتنون هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يتبادر فذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل وإزالة في الهويوب ، وهذه هي المرة الأولى التي تصادف فيها هاتين اللفظتين في مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بهلا من (جنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مبهم ومتم) [انظر التحبير في التذكير ص ٦٧] .

الرحيم » يوجب ابتهاج القلوب وبه يحصل شفاء قلوبهم ، فعودة قلوبهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زُكُوتَ

السَّاعَةِ شَىْ عَظِيمٌ ﴾

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ » نداء علامة ، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » نداء كرامة ، وبكل واحد من القسمين يفتتح الحق خطابه في السور ؛ وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرة ، وصفة التبصير أخرى .

والتنوي هي التحرز والاحتياط وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات قرص ، وتجنب الفضلات والشواغل - وإن كان من جملة المباحات - تقل ، فتواب الأول أكثر ولكنه مؤجل ، وتواب الثقل أقل ولكنه متجمل ^(١) .

ويقال خوفهم بقوله : « اتقوا » . ثم سكن ما بينهم من انطوف بقوله : « رَبَّكُمْ » فإن سماع الربوبية يوجب الاستئذان وجعل الكفاية .

قوله : « إِنَّ زُلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْ عَظِيمٌ » : وتسمية المصوم « شَيْئاً » توسع ، ويدل على أنه ليس في المصم زلزلة بالافتاق وإن كان مطلقاً اللفظ يقتضيه ، وكذلك القول في تسميته « شَيْئاً » هو توسع .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْهَا تَهْلِكُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ

عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَلْيٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى

وَمَا مِمَّنْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ

اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

لكل ذلك اليوم شغل يستوفيه ويستغرقه ، وترى الناس سكارى أى من هول ذلك

== ومن المبدأ أن نسوق نفاً لإحدى الجانبين :

مصر الناس ما جلست ولكن لنا سكرانة وقلبي صاح

أنا مقصودة بحب حبيب لست أبهى من هابه من براح

(الروض الفائق ص ٣٦٢) وكتابتنا (نشأة التصوف الإسلامي ط المعارف ص ١٧٨ .

(١) هذا أصل يضاف إلى أصول اللغة الصوري عند التفهيري .

اليوم عقولهم ذاهبة ، والأحوال في القيامة وأحوالها غالبية . وكأنهم سكرى وما م في الحقيقة يسكرى ، ولكن عذاب الله شديد ، وليشدته يحرم ولا يبيحهم على أحوالهم . وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سُكَارَى ، ولكن موجب ذلك يختلف ، ففهم من سُكَرُهُ يَأْتِي بِصِيبِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ ، ومنهم من سُكَرُهُ لاسْتِهْلَاكَه فِي عَيْنِ الْوَصَالِ .

كذلك فَسُكَرُومُ الْيَوْمِ مُخْتَلَفٌ ؛ ففهم من سكره سكر الشراب ، ومنهم من سكره سكر الهاب . . وشتان بين سكر وسُكَرٍ ، سُكَرٌ هُوَ سُكَرُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ ، وَسُكَرٌ هُوَ سُكَرُ أَهْلِ الْوَصْلَةِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ

عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّزِيدٍ ﴾

المجادلة لله — مع أعداء الحق وجاحدى الدين — من موجبات القرية ، والمجادلة في الله ، والمجاراة مع أوليائه ، والإصرار على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة ، وما كان يوسوس الشيطان ونزغاته قفساره النار .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ

وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

مَنْ وَافَقَ الشَّيْطَانَ بِمَنَاجَةِ دَوَاعِيهِ لَا يَهْدِيهِ إِلَّا إِلَى الضَّلَالِ ، ثُمَّ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ يَتَّبِعُ مِنْ مُوَافَقَتِهِ ، وَيَلْمِزُ جَمَلَةً مُّتَّبِعِيهِ . فنسود بالله من الشيطان ونزغاته ، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجاته .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ

الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نَّبَائِمٍ مِّنْ

نُطْقَةٍ مِّنْ هَلَكَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ

وغير مُخَلَّقَةٍ لِّتُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّفَ فِي

الْأَرْحَامِ مَا لَشَاءِ إِلَى أَجَلٍ مُّشْكُوعٍ

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . . ﴾

(١) حديث التشيرى في (السكر) هنا مفيد عند دراسة هذا المصطلح .

التبس عليهم جواز (بنته أخلق) (١) واستبعدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتج عليهم في ذلك بما قطع حجبتهم ، **فَنَ تَبِعَ هَدَاةَ رَبِّهِ ، وَمَنْ أَمَرَ عَلَى غَيْبٍ رَدَّى فِي مَهْوَةِ هَلَاكِهِ .**

واحتج عليهم في جواز البعث بما أقروا به في الابتداء أن الله خَلَقَهُمْ وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى ؛ فبداهم من نقطة إلى حلقة ومنها ومنها ... إلى أَنْ تَقْلَهُمْ من حال شبابهم إلى زمان شبَّيهم ، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم .

واحتج أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض — في حال الربيع — بعد موتها ، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة . واقدى يَقْدِرُ على هذه الأشياء بقدر على خَلْقِ الحياة في الرُّمَّةِ البالية والعظام النخرة .

قوله : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال المحجة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السى المحفوظ بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر الزلة في زمان للشيب .

ويقال أرذل العمر الإلحاة في منازل المصيان .

ويقال أرذل العمر التعرُّيج في (أوطان) (٢) المنلة .

ويقال أرذل العمر العشرة مع الأعداء .

ويقال أرذل العمر (حيث) (٣) المرء بحيث لا يعرف قدره .

ويقال أرذل العمر بأن يؤكل إلى قفيه .

ويقال أرذل العمر التطوح في أودية الحسبان أن شيئاً ينير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النفس ، والتمس عن شهود تقدير الحق .

(١) هكذا إم أما لم يفس فهم (بنتهم الحق) ويرجع الأول إذ الله استبعدوه أن يمتأقوا أحداً من الحق .

(٢) هكذا في م وهي غير موجودة في س .

(٣) في م (عيش) المرء ولي س (حيث) المرء . وقد رجحنا (حيث) على معنى أن الله يمنحه من العمر ما لا يكون خلاله تقدير من الحق له .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ

الْمَوْقَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الله هو الحق ، والحق المطلق الوجود^(١) ، وهو الحق أى ذو الحق .

« وَأَنَّهُ يَحْيَى الْمَوْقَى » أى الأرض التى أصابتهَا وَخْشَةُ الشَّتَاءِ^(٢) يحييها وقت الربيع .

ويقال يحيى النفوس بتوفيق العبادات ، ويحيى القلوب بأنوار المشاهدات .

ويقال يحيى أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم .

ويقال حياة الأولاد بموافقة الأمر ، ثم يجمل الرضا وسكون الجناش عند جريان التقدير .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَنِ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ

عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾

دليل الغلطاب يقتضى حواز المجادلة فى الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة

ليستطيع المناظرة عن دينه ، قال سبحانه لئنبيته: « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » وَمَنْ لَمْ يُحْمِمْ

مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَتَخَلَّقُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَةِ لَمْ يَكُنْهُ الْإِنْفَصَالُ عَنْ شُبُهَتِهِ ، وإذا لم تكن له قوة

الانفصال فلا يَسْتَحْبُّ لَهُ أَنْ يَجَادِلَ الْأَقْوِيَاءَ^(٣) مِنْهُمْ ، وهذا يدل على وجوب تعلم علم

الأسول^(٤) ، وفى هذا ود على مَنْ جَحَدَ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره ﴿ثَانِيًا عَطَفَهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم تصادفنا من قبل فى أى مصنف للشيرى ، ونحن نطبعها

أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود ، فهم يعتبرون الوجود المطلق الحق

وما هنا موجوده نسبي مشترك متعدد ، وهذا لا بأس به ، ولكن النتائج التى رتبوها عليه خطيرة . ولئن

أنها (الموجود) يدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية « ثَمَالِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ »

من سورة طه وكذا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه « التصريح فى التذكير » .

(٢) هكذا فى م ولكننا فى س (الشتاء) بالكتاب ونحن نؤثر الأولى لأن المقصود المقاطعة بين الربيع

و (الشتاء) .

(٣) هكذا فى م ولكننا فى س (إلا قوماً) .

(٤) فى هذا وفيما بعده رد على من يشهدون الصوفية بمجانفهم العلم ، وعدم احترامهم لعل ، كما أن فيه

رداً على قضية أنارها بعض المتكلمين حول وجوب أو عدم تعلم السلم أصول التوحيد كى يصح

إيمانها ، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم .

له في الدنيا خزيٌ ونُدْبَةٌ يوم
القيامة عذابَ الحريقِ ❦

يريد أنه متكبر عن قبول الحق ، زاهداً في التحصيل ، غير واضحٍ نظره موضعه ؛
إذ لو فعل ذلك لكان عليه التخلص من شُبُهته .

ثم قال : « له في الدنيا خزي » أي مذلة وهوان ، وفي الآخرة عذاب الحريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ
فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ
أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ أَعْلَبَ عَلَى وَجْهِ خَيْرٍ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ
الْمُبِينُ ﴾ ❦

يعنى يكون على جانبٍ ، غير مخلص . . . لاله استجابة توجب الوفاق ، ولا جحداً مبين
الشفاق ؛ فإن أصابه أمنٌ وخيرٌ ولينٌ اطمأن به وسكن إليه ، وإن أصابته فتنةٌ أو نالته محنة
ارتد على عقبه ناكساً ، وصار لئلاً أظهر من وقاه عاكساً . ومن كانت هذه صفته فقد خسر
في الدارين ، وأخفق في الميزانين .

قوله جل ذكره : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ
وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
الْبَعِيدُ • يَدْعُو لَكِنَّ صُرُهُ أَقْرَبُ
مِن فَتْنَةٍ لَّيْسَ الْمَوْتَى وَلَيْسَ
الْعَشِيرُ ﴾ ❦

أى يبد من المصرة في عبادته أكثر من النفع منه ، بل ليس في عبادته النفع بمال ،
فالمصر المتيقن في عبادتهم الأصنام هو بيان ركازة عقولهم ، وروية الناس خطأ فعملهم .
والنفع الذي يترجمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : « لبس المولى ولبس المشير » : أى لبس الناصر الصم لم ، ولبس القوم
م للصم ، ولم لا ؟ ولأجله وصوا فى عقوبة الأيد .

قوله جل ذكره ﴿ إِنْ أَتَى اللَّهَ يَدْعُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَحَلُوا
الصالحاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
النَّهَارُ إِنْ أَتَى اللَّهَ يَفْعَلْ مَا يَرِيدُ ﴾

« الذين آمنوا » : أى صدّقوا ثم حقّقوا ؛ فالإيمان ظاهره التصديق وباطنه التحقيق ،
ولا يصل البعد إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان (اتسام) (١) الحق فى السر .

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان ، فى الحلال يجب الإيمان وفى المآل يوجب الأمان ،
فمَجْعَلُ الإيمان من (. . .) (٢) المسلمين ، ومَوْجَلُهُ انخلاص من محبة الكافرين الفاسقين .

وقوله : « وعملوا الصالحات » : العمل الصالح ما يصلح لقبول ، ويصلح لقنواب ،
وهو أن يكون على الوجه الذى تعلّق به الإيمان .

والجنان التى يدخل المؤمنون فيها موجلة ومبجلة ؛ فالْمُوجَلَةُ ثواب وتوبة ، والمُبَجَلَةُ
أحوال وقربة ، قال تعالى : « وَلَنْ خَلَفَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ » (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَتْلُكُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ »

فى الدنيا والآخرة فَلْيَسْتَدْ بِسَبَبِ

إِلَى السَّاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ

يُدْهِنُ كَيْدَهُ مَا يَنْظُرُ

أى أن الحق — سبحانه — يرفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم تطلب

(١) فى م (اتسام) وفى س (اتسام) ، ونحن نفعل منه على تلك على أنها صفة (اتسام) من
(تنسم) فلان العلم أو الخبر أى تلفظ فى التماسه حتى تبيته وتبه .

(٢) فى م (سبب) وفى س (سلف) ونحن نؤثر الأول لئلا الذى يؤمن يأمن — فى الحال —
من بلى المسلمين أمروا يقتال أعدائهم جهاداً فى سبيل إغلاء كلمة الإيمان .

(٣) آية ٤٦ سورة الرحمن .

نفسه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتل نفسه من التبط خنقاً ، ثم لا ينفعه ذلك ، كما قيل :

إِنْ كُنْتُ لَا تَرْضَى بِمَا قَدْ تَرَى فَدَوِّلَكَ الْحَبْلَ بِهِ فَاتَّقِنِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَآ آيَاتِ يَسَّنَّى وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدَى مَن يَرِيدُ ﴾

« آيات يَسَّنَّى » : أى دلالات وعلامات نَصَبَهَا الحق سبحانه لعباده ، فمن الآيات ماهوقضية العقل ، ومنها ماهوقضية الظبر والنقل ، ومنها ماهو ترميزات فى أوقات المعاملات (١) فإيجده العبد فى حالاته من التلاقي ، واشتداد قبض ، وحصول خسران ، ووجوه امتناع . . لا شك ولا مرة إذا أَخْلُ بِوَاجِبٍ أَوْ أَلَمْ بِمَحْظُورٍ (٢) . أو تكون زيادة بسط أو حلاوة طاعة ، أو تيسير عسير من الأمور ، أو تجديد إنعام عند حصول شىء من طاعته .
ثم قد يكون آيات فى الأسرار ، هى خطاب الحق ومحادثة معه ، كما فى الظبر :
« لقد كان فى الأمم مُخَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِى أَمْرِ ضَعْفٍ » (٣)
ثم يقال الآيات ظاهرة ، والخبير زاهرة ، ولكن الشأن فىمن يستبصر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الولي والصدوق ، والموحد والجاهل ، والمؤمن يوم الحشر ، ثم الحق - سبحانه - يعامل كل بما وعده ؛ إما بوصول بلامدى ، أو بأحوال

(١) يمكن القول إن هذه هى المصادر الأساسية لما أطلقنا عليه من قبل (أصول الفقه الصوري) ومنها يضح اهتمام التشيرى بالعقل ثم النقل ثم ما يحصل من الفرقان نتيجة الجاهليات .
(٢) تارة الامم ما حاك فى صدرك . . كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .
(٣) وهى التى يطلق عليها التشيرى (الفراسة) انظر الرسالة ص ١١٥ وما بعدها .

بلا منتهى . الوقت واحد ؛ وكل واحد لما أُعيد له رافده ، وعلى ما خُلق له وارد ..

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ

وَالنَّوَابِیُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ

سَخَّرَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُمِيزِ اللَّهُ فَإِنَّهُ

مِنَ الشَّاكِرِينَ إِنَّ اللَّهَ يُفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝

أهل العرفان يسجدون له سجود عبادة ، وأرباب الجحود كل جزء منهم يسجد له سجود

دلالة وشهادة .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَانِ خَصَائِفُ أَوْسَعُ فِي رُءُوسِهِمْ

فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ شُلُوبٌ مِّنْ

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝

أما الذين كفروا فلهم اليوم لباس الشر وطرأه الحرمان ، ثم صدار الإنكاف وطرأه

الظذلان . وفي الآخرة لباسهم القطران وطرأه المهجران ، قال تعالى : « اخسئوا فيها

ولا تكلمون » .

أما أصحاب الإيمان فلباسهم اليوم التقوى ، وتنقسم إلى اجتناب الشر ثم مجانبته

المخالفة ، ثم مباينة الفعلة ، ثم مجانبته السكون إلى غير الله والاستبشار إلى ماسوى الله .

وفي الآخرة لباسهم فيها حرير ، وآخرون لباسهم صدار المحبة ، وآخرون لباسهم الانفراد به ،

وآخرون هم أصحاب التجريد ، فلا حال ولا مقام ولا منزلة ولا محل وهم الغرباء^(١) ، وهم

الطبقة العليا ، وهم أحرار من رِق كل مألحقه التكوين .

(١) يقول ابن الجلاء في تعريف الصوف : فدر مجرد عن الأسباب ، كل مع الله بلا نيك ، ولا بدم ،
الحق — سبحانه — من علم كل مكان (الرسالة ص ١٤٠) ويقول الحمصى : « الصوف لا تفلح أروى
ولا تفلح سماء » الرسالة (الصفحة ذاتها) .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يَحْكُمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وُلُوفٌ أُخْضِرُوا وَيَسَاءُلُهُمْ فِيهَا رَبٌّ

التحلية فخصين لهم ، وسر لأحوالهم ؛ فهم للجنة زينة ، وليس لهم الجنة زينة :

وَإِذَا الدَّرُ زَانَ حُسْنٌ وَجُودِ كَانَ الدَّرُ حُسْنٌ وَجُودِ زَيْنًا

قوله جل ذكره: ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ
وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ﴾

الطيب من القول ماصدر من قلب خالص ، وبير صافي (مما يرضى به علم التوحيد ،
فهو الذي لا اعتراض عليه للأصول)^(١)

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظماً للسترشين ، ويقال الطيب من القول هو
إرشاد المريدن إلى الله .

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كله حق عند من يخاف ويؤجى^(٢) .

ويقال الشهادتان عن قلب مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً^(٣) وهو مستنطق .

(١) حكنا في ص ولا فرق بين البارة في س ، م إلا أنها جاءت في الأخيرة (مما رضى به ...)
والقصود أن أقوال أرباب القلوب ينبغي ألا تتعارض مع أقوال أرباب أصول التوحيد لأن الحقيقة لا تتعارض
الفرقية في شي . فالضير (هو) يعود على الطيب من القول الصادر من القلب الخالص والسر العالي .
(٢) أى عند صاحب سلطان ، وقد عرف الصوفية يشجعهم الرأفة في مواجهة أصحاب الأمر والنهي
من الحكام وهيم .

(٣) حكنا في ص أما في م طي (مفقوداً) وعلى الأول يكون المق أن قوله مسحوح به — ظاهرياً —
حيث لا يستثنى في الباطن ، وعلى الثاني : أى يكون قائله في حال القدر فهو لا ينطق بنفسه بل بالله .

ويقال هو بيان الاستغفار والمبد يرى من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : « ربنا ظننا أنفسنا » (١) .

ويقال أن تدعو للسلمين بما لا يكون لك فيه نصيب .

وأما صراط الحميد : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع (أى للمسجد الجامع) والصراط الحميد : الطريق للرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّسْجِدِ الْهَرَامِ الَّذِي

جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوْكَاً أَلَمْ يَكْفُ فِيهِ

وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْهَادِ يُظْلَمْ

نُذْرَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ » .

الصدء عن السجد الحرام بإخافة السيل ، وينصّب للال الذى لوبقى فى يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : « سواء المأكف فيه والبادى (٢) » وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكرام يستوى فيه الإقدام ، فمن وصل إلى تلك القوة فلا ترتيب ولا رد ، وبعد الوصول فلا زجر ولا صد ، أما فى الطريق فرما يعتبر التقدم والتأخر ، قال تعالى : « ولقد علمنا المتقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » (٣) ، ولكن فى الوصول فلا تفاوت ولا تباین ، ثم إذا اجتمعت النفوس فى الموضع الواحد يجمعهم ، ولكن لكل حال ينفرد بها .

(١) آية ٢٣ سورة الأعراف .

(٢) البادى = غير المقيم .

(٣) آية ٢٤ سورة المير .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ
 أَلا تَتَشْرِكُ فِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي
 لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
 السُّجُودِ﴾ .

أصلحنا له مكان البيت ومسكنناه منه ، وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأهناؤه عليه ،
 وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم
 عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله « ألا تشرك في شئاً » ، أى لا تلاحظ
 البيت ولا يناله له .

« وطهر بيى . . . » يعنى المكبة - وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فرغ
 قلبك من الأشياء كلها سوى ذكره - سبحانه .

وفى بعض الكتب : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء فرغ لي بيتاً أسكنه » ، فقال ذلك
 الرسول : « إلى . . . أى بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدى المؤمن » . والمراد
 منه ذكر الله تعالى ، فالإشارة فيه أن يفرغ قلبه لذكر الله . وتفرغ القلب على أقسام :
 أوله من الغفلة ثم من توهم شئ من الحدثن من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بصون القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة
 على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال « وطهر بيى » : أى قلبك عن التطلوع والاختيار ، ألا يكون لك عند الله حظ
 فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تكون عبداً له بكامل قيامك بمقتضى العبودية .

« ويقال طهر بيى » : أى بإخراج كل نصيب لك فى الدنيا والآخرة من تطلوع وإكرام ،
 أو تكلب وإنعام ، أو إرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال .

ويقال طهر قلبك للطائفتين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . « والتائمين »
 وهى الأشياء المقيمة من مستودعات^(١) العرفان فى القلب من الأمور المشيئة عن البرهان ،

(١) مكنا فى أمالى من هى (مستوطنات) .

وينطلق بما هو حقائق البيان التي هي كاليان كما في الخور : « كأنك تراه » . (١)
 « والركب السجود » : هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرغبة ، والرجاه والخافة
 والتبض والبسط ، وفي معناه أنشدوا :

لست من جملة المهين إن لم أجعل القلب بينه والمقام
 وطواف إجلالة السر فيه وهو ركني إذا أردت استلاما
 قوله : « لا تترك في شيئا » : لا تلاحظ البيت ولا بينه (٢) للبيت .
 ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربه البيت .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا
 وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ
 فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

أذن إبراهيم - عليه السلام - بالحج ونادى ، وأسمع الله نداءه جميع النورية في أصلاب
 آباهم ، فاستجاب من المومنين من حاله أنه يبعج .

وقد تم الرجاء على الركبان لأن السهل على المركوب أكثر (٣) .

ولذلك ايجال على الجبال خصوصية لأنها مركب الأحباب ، وفي قريب من معناه أنشدوا :

وإنَّ حِجَالاً قَدْ عَمَلَا بِحِجَالِكُمْ — وَإِنْ قُطِعَتْ أَسْبَابُ — لِحَبَائِبِ

ويقال « يأتين من كل فج عميق » هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .

وكم قدر مسافة الدنيا بجملة ١ ؟ ولكن لأجل قدر أفضالهم وتنظيم صنيعهم يقول ذلك
 إظهاراً لفضله وكرمه .

(١) إضافة إلى الحديث (أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك من الموقنين) .

الطبراني عن أبي الررداء ، وحسن السيوطي سننه ، ورواه البيهقي عن معاذ . وفي الحلية (أعبد الله
 كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراه ...) .

(٢) هكذا في م أما في س فقد وردت (ولا تبال) ونحن ترجح ما جاء في م .

(٣) فتقدم الرجاء فيه تخصيص نظراً لما يذنبونه من جهد أكبر .

قوله جل ذكره: ﴿لِيَسْهَبُوا مَتَاعَهُمْ﴾ .

أرباب الأموال منافسهم أموالهم ، وأرباب الأعمال منافسهم حلاوة طاعتهم ، وأصحاب الأحوال منافسهم صفاته أنفسهم ، وأهل التوحيد منافسهم رضاهم باختيار الحق ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّسْكُومَاتٍ﴾ (١)

على ما رزقهم من بيممة الأنام ﴿

لأنهم عند التقرب بقراينهم وسوق هديهم (٢) . وآخرون يذكرون اسمه عند ذبيحتهم أمانهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله يحتموا سوى الله .

قوله جل ذكره: ﴿فَسَكُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ

الْفَقِيرَ﴾ .

شاكروا الفقراء في الأصل من ذبيحتكم - ألقى ليس بواجب - لتلحظكم بركتُ الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا (٣) ساحة التضوع والتواضع ، وبجانبه الزهو والشكر .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَشْتَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نَذْوَرَهُمْ﴾

ليقضوا حوائجهم وليحققوا هودمهم ، وليؤفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقولهم ، فمن كان عقده التوبة فوفاءه ألا يرجع إلى العصيان . ومن كان عقده اعتناق الطاعة فشرط وفاءه ترك قصده . ومن كان عقده ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إلى كرام فوفاءه استقامته على الجملة في هذا الطريق بالأرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء حظ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِيُطَوُّوا بِالْبَيْتِ الْمُنَبِّقِ﴾

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنفسه حول البيت ، وقبله في ملكوت السماء ، ويريه في ساحات الملكوت .

(١) أبو حنيفة : هي هرة ذى الحجة وآخر ما يوم النحر . وأكثر المفسرين : هي أيام النحر .

(٢) الهدى = ما يهدي إلى الحرم من الصم ، قال تعالى : « ولا تخلفوا رجوعكم حتى يبلغ الهدى محله » .

(٣) مكنا في م وفي س (يذكروا) وربما كانت في الأصل ألا يذكروا فكذلك يفتى السباق .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ
فِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عَدْرِ رَبِّهِ﴾

تنظيم الحرمات (١) بتنظيم أمره ، وتنظيم أمره يترك مخالفته .
ويقال من طلب الرضا بفرد رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه ،
ولا محالة سيلقى سرياً خيراً (٢) .

ويقال تنظيم حرمانه بالنسبة إلى إيمانه (وما فجر صاحب حرمة قط (٣)) .
ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة ، وترك الحرمة يوجب العزلة .
ويقال كل شيء من المخالفات فلعنوه فيه مسانغ وللأمل إليه طريق ، وترك الحرمة على
خطر ألا يفكر . . . وذلك بأن يؤدى ثبوته بصاحبه إلى أن يحتل دينه وتوحيده . /

قوله جل ذكره: ﴿وَأَحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ﴾ .

فالخزير من جملة المحرمات ، وكذلك النطيحة والموقوفة ، وما يجيء تفصيله
في نص الشرع .

قوله جل ذكره: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ
وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ .

«من» هاهنا للجنس لا للتبويض ، وهوى كل من اتبعه مبيوه ، ومنهم كل أحد نفسه .
«واجتنبوا قول الزور» : ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعد قول القلب
ونطقه ، ومن عاهد الله بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور .

قوله جل ذكره: ﴿حُنُفًا لَّهُ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ

(١) هكذا في م وفي س (الجهات) ونرجح الأول حيث وردت في الآية .

(٢) هكذا في م وفي س (بحبه) ورجح (به) بمعنى عاقبته .

(٣) هكذا في م وفي س (وما فجر صاحب طرفة لفظ) والبراءة الأول أقرب إلى المعنى .

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَيْفَا مَا خَرَّ مِنْ
السَّمَاءِ فَتَتَخَلَّفُهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١﴾ .

الحنيف المائل إلى الحق من الباطل في القلب والنفس ، في الجهر وفي السر ،
في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال

« غير مشركين به » : الشُّرْكُ جِلِّيٌّ وَخَفِيٌّ (١) .

قوله « ومن يشرك بالله فكيفاً ما ... » كيف لا .. وهو يهوى في جهنم وتتجاذبه ملائكة
المناب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق .. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى :
« لسوا الله قسم » (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا
مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

يقف المؤمن على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جبراً ، وبخواطر الإلهام سرّاً .
وكالأنجوز مخالفة شهادة الشرع لأنجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإن خاطر الحق لا يكذب ،
وعزیزٌ مَنْ لَهُ حَلِيهِ وَقُوفٌ . وكذا أَنَّ النَّفْسَ لَا تَصْدُقُ قَالِقِبْ لَا يَكْتَبُ ، وإذا خولف
القلب عَمِيَ فِي اللَّسْتَقْبَلِ ، واقطعت عنه تريفات الحقيقة ، والعبارة (٣) والشرح يتقاصران
عن ذكر هذا على التبيين والتفسير . ويقوى القلب بتحقيق المنازلة ؛ فإذا خرسَت النفوسُ ،
وزالت هواجسها ، فالقلبُ تنطق بما تُكاشفُ به من الأمور .

ومن التفرق بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن القى طريقه العلم يعلم
صاحبه أولاً ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجرى ويحصل ثم يسره يعلم من جرى عليه

(١) الشرك الجلي معروف أما الشرك الخفي فهو أن ينازعه منازع في قلبك من هوى أو حظ أو حلافة
تنأى بك عنه .

(٢) آية ٦٧ سورة التوبة .

(٣) في م و س (والعبادة) وقد رأينا أن تكون (العبادة) بإزاء أى أن التمييز عن ذلك بالسكام
والشرح قاصر

ذلك معناه ، ولا يكون الذي يجري عليه ما يجري مضطراً إلى ما يجري . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار^(٢) ، بل يكون مختاراً ولكن سببه عليه مشكل ، والمجب من هذا أن العبارة عنه كالجميد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۖ ﴾ .

لكل من تلك الجملة منفعة يقدره وحده^(٣) ؛ فلا قوام بركلت في دفع البلاء من نفوسهم وعن أموالهم ، ولا آخرين في إغاظات بسطهم ، ولا آخرين في حلالة طاعتهم ، ولا آخرين في أنس أنفسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا لِدَٰكِرُهَا أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَٰرِئَةٍ ۖ ﴾ .

الشرائع مختلفة فيما كان من الماملات ، متفقة فيما كان من جملة اللطوف ، ثم هم فيها مختلفون : قوم هم أصحاب التضييف^(٤) فيا أوجب عليهم وجعل لهم ، وقوم هم أصحاب التخصيف فيا أزموا وفيا وعده لهم . قوله « ليدذكروا اسم الله على . . » وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام : منها مرقمهم إتمام الله بذلك عليهم . . وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على ما رزقهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي ينيبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا ۖ وَبَشِّرِ الصَّٰخِرِينَ ۖ ﴾ .

أى استسلموا لملكه بلا تمييز ولا استكراه من داخل القلب .

(١) هذه وجهة نظر باحث سوى فيما يشغل المتكلمين من الجبر والاختيار .

(٢) أى بحسب ماله من قدر ومة ، وما هو واقف عنده من حد ووتية .

(٣) أصحاب التضييف أى أصحاب التشدد الذين يأمرون اتباع الرخص ، لأن الرخص لا تكون إلا لأرباب

الحرمان والأفعال ومؤلاء لا حاجة ولا دخل لهم إلا بالحق .

والإسلام^(١) يكون بمعنى الإخلاص ، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات ، ثم تصفية الأحوال ، ثم تصفية الأنفس . « وبشرُ الخبيثين » : الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة . ومن أمارات الإخبات كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع ، وفلك بإطراق السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

الوجلُّ الخوفُ من المخافة ، والوجلُّ عند الذكر على أقسام : إما خوف عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تنجم ، أو غلوج من الدنيا على غفلة من غير استعداد للموت ، أو إصلاح أهية ، أو حياء من الله سبحانه في أمور إذا ذكر إطلاعه — سبحانه — عليها لما بذرت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة .

ويقال الوجلُّ على حسب تجلٍ الحق للقلب ؛ فإن القلب في حال المطالعة والتجلى تكون بوصف الوجل والمهية .

ويقال وجلُّ له سبب ووجل بلا سبب ؛ فالأول مخافة من قصير ، والثاني ممدود في جملة المهية^(٢) .

ويقال الوجلُّ خوفُ المكْر والاستدراج ، وأقربهم من الله قلباً أكثرهم من الله — على هذا الوجه — خوفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ .

أى خالدين تحت جريان الحكم من غير استكرام ولا تمى خرجية ، ولا رزم فرجية بل يستسلم طوعاً :

(١) مكنا في م وليكتها في م (السلام) والصواب الأول في الآية (أسلوا) .
(٢) فالخوف إذن أدنى منزلة من المهية ، والترتيب هكذا : الخوف والرجاء ثم التبتى والبسط ثم المهية والأنس (الرسالة ص ٣٥ و ص ٣٦) .

ويقال الصابرين على ما أصابهم . أى الحافظين معه أسرارهم ، لا يطلبون السادة باطلاع
الخلق^(١) على أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْقِيَصَاةُ﴾ .

أى إذا اشتدت بهم البؤى فزعوا إلى الوقوف على عمل النجوى :
إذا ما نمحي الناس رَوْحًا وَرَاحَةً نَمْنَيْتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ فَتَسْمَعًا
قوله جل ذكره : ﴿وَمَارَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ .

عند المعاملة من أموالهم ، وفى قضايا المنازلة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك
وبك لطوارق التقدير ؛ فينفقون أيادهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبهم على
التسليم والحدود تحت جريان الأحكام بمطالبات الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ ضَعَائِرِ
اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَّهْتُمْ جُنُوبَهَا
فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ
كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ .

أقسام الخيل فيها كثيرة بالكوب والخلل عليها (وشرب ألباتها وأكل لحومها والانتفاع
بوبرها ثم الاعتبار بخلقيتها كيف سخرت للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان
فى البروك عند الخلل عليها وركوبها والتزول منها ووضع الحمل عنها)^(٢) وصبرها على العطش
فى الأسفار ، وعلى قليل العلف ، ثم ما فى طبيعتها من لطيف الطبع ، وحيث تستريح بالخداء مع
كثافة صورتها إلى غير ذلك .

(١) هكذا فى م (بإطلاق الحق) والصواب الأول لأنهم لا يزعون الحق طلباً للسلوة
فما يسيبهم من الحق وفى هذا حفظ لأسرارهم .
(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط من م .

« فَاِذَا وَجِئَتْ جَنُوبُهَا » : أى سقطت على وجه الأرض فى حال النحر فاطمعوها القانع الذى ألقى جلباب الحياء وأظهر فطره للناس ، والمُستعْرِ الذى هو فى تحمله مُتَحَمِّلٌ ، ولمواضع فاقته كاتم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا يَمْلُوهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِهَا اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْحَسَنِينَ ﴾

لاِهْبَةِ بأعيان الأضال سواء كانت بدنية محضة ، أو مادية مبرقة ، أو بما له تعلق بالوجيبين ، ولكن المبرة باقترانها بالإخلاص^(١) ، فإذا انضالى إلى أكسب الجوارح إخلاصُ القصد ، وتجردت عن ملاحظة أعضائها للأغيار صككت لقبول^(٢) .

ويقال التقوى شهود الحق ينفتح التفرّد ، فلا يشأبُ تفرُّكٌ بملاحظة أحدٍ ، ولا تأخذ حوضاً على علمٍ من بشرى .

« لشكروا الله على ما هداكم » : أى هداكم وأرشدكم إلى القيام بحق المبودية على قضية الشرع .

« وبشر الحسنين » : والإحسان كافى الظير : « أن تميد الله كأنك تراه . . . » .

وأمانة محمه ستوط التميز بالقلب من صاحبه ، فلا يستقل شيئاً ، ولا يتروم بشىء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَمُؤْمِرٍ ﴾

(١) يقال إن سبب زول هذه الآية أن أهل الجاهلية كانوا إذا نَحَرُوا الإبل نَحَرُوا السماء ~ لى البيت ولطغوه باللهم ، فلما صح المسلمون أرادوا مثل ذلك فزلت الآية .

(٢) يرى القشيري أن هنا جوهر المبادات جيداً ، أن تكون خالصة لله ، وقد فصلنا ذلك عند بحثنا عن القشيري المفسر .

انظر كتابنا (الإمام القشيري ومذهبه فى التصوف) ط مؤسسة الحلبي .

يدفع من صدورهم نزقات الشيطان ، وعن قلوبهم خطرات المصيان ، وعن أرواحهم طوارق الثنيتان .

والغاية على أقسام : خيانة في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية ، وخيانة في الأعمال ، وخيانة في الأحوال ، وخيانة الأعمال بالربا والتصنع ، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإهمال والمساكنة ، وشرها الإهمال ، ثم المساكنة وأخطاها الملاحظة^(١) .

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا (على) ^(٢) طلب الأموال ليجنوا في الآخرة حسن المسأل . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد خيانة لأنهم تركوا دينهم لله ولكن لوجود العوض على تركهم ذلك من قبل الله .

وخيانة العابدين أن يدعوا شهواتهم ثم يرجعون إلى الرخص ، فلو صدقوا في مرامهم كما انحطوا إلى الرخص بعد ترقبهم منها .

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعم لنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقرب .

وخيانة المحبين روم فرحة^(٣) بما يحسم من يرحاه المواجيد ، وإبتغاء خرجة مما يشتد عليهم^(٤) من استيلاء صد ، أو غلبت شوق ، أو تعادى إليهم هجر .

وخيانة أرباب التوحيد أن يتحرك لم للاختيار هرق ، ووجوعهم — بعد امتناعهم عنهم — إلى شغلة من أحكام الفرق ، اللهم إلا أن يكون ذلك منهم : جوداً ، وهم عنه مقودون^(٥) .

(١) تلت النظر إلى أهمية ذلك عند دراسة المصطلح الصوري ، خاصة وأن التشيرى لم يحكم من ذلك في رسالته .

(٢) (على) طلب الأموال منهاها لأجل طلب الأموال .

(٣) (روم) في س و (روح) في م ، ونظن أنها (فرجة) بالجيم كما سبق منذ قليل حين استعمل التشيرى (فرجة ، وخرجة) في سياق مماثل .

(٤) حكناً في م وهي في س مما (يشق عليهم) وكلاماً مقبول في السياق .

(٥) معنى هذا أن التشيرى يسلم بأنه قد يحدث من اللبد الواله ما يلبى أن يضر فيه . إن صح صدقه في التوجه ، واشتد وقع الحو عليه .

قوله جل ذكره: ﴿أَذِنَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَعْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ .

إذا أصابهم ضرٌّ أو سَمٌّ — ما هو في الظاهر — ذُلٌّ من الأعدى يجرى عليهم صَبْرٌ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاء وظلمٌ . . فالحق — سبحانه — ينتقم من أعدائهم لأجلهم ، فهم بنمت التسليم والسكون في أغلب الأحوال ، وتفاصيل الأقدار جارية باستئصال من يناوهم ، وبإحالة الدائرة على أعدائهم . وفي بعض الأحيان ينصبهم الحق سبحانه بنمت الفلكنة والتسكين من زولهم بساعات من يناوهم بحسن الظفر ، وتعام حصول الدائرة على من ناصبهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكل ذلك يتفق ، وأنواع النصر من الله — سبحانه — حاصلة ، والله — في الجلالة — غالب على أمره .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ .

المظلوم منصور ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلوم حميد المقى ، والظالم وشيك الانتقام منه بشديد البوى : « فذلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » (١) . وقد يجرى من النفس وهواجسها على القلوب لبعض الأولياء وأهل القصبة — فظلم ، ويحصل لسكان القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء ، وتستولى غَاغَةُ النَّفْسِ ، فتعمل في القلوب بالنسب بسبب استيطان الغفلة حتى تنداعى القلوب للخراب من (٢) طوارق الحقائق وشوارق الأحوال ، كما قال لائلهم :

أُنِي إِلَيْكَ قَلْبًا طَالَمَا هَطَلْتُ سَحَابُ الْجُودِ فِيهَا ابْتُرَ الْحِكْمُ

فَيَهْرَمُ الْحَقُّ — سبحانه — بجنود الإقبال أَرَاذِلُ الْمَوَاجِسِ ، وينصر عسكِرُ الْحَقِّقِ بِأَمْثَادِ الْكُشُوفَاتِ . وَيَتَجَدَّدُ دَارِسُ الْمَهْدِ ، وَتَطْلُعُ شُمُوسُ السَّعْدِ فِي بِلَالِ السِّرِّ ، وَتُكْشَفُ الْقُلُوبُ وَتُطَهَّرُ مِنْ آثَارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ ، كما قيل :

(١) آية ٥٢ سورة النمل .

(٢) (الخراب من طوارق الحقائق) أي بسبب خلوها من طوارق الحقائق

أَطْلَالُ سَعْدَى بِالْوَى تَتَجَدَّدُ

إذا هبَّتْ هل تلك القلوب رطخُ العناية ، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صوب^(١)
التجلى ، وأنبت فيها أزهار البسط فينضح فيها نهار الوصل ، ثم يوجد فيها اسم القرب إلى
أن تطلع شموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لَفَسَدَتِ سَوَاعِجُ وَبِيعَ وَصَلَاتُ
وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كُتُبًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ .

يتجاوز عن الأصغر لِقَدْرِ الأكابر ، ويغفو عن العوام لاحترام الكرام .. وتلك
سنة أجراها الله لاستبقاء^(٢) منازل العبادة ، واستصفاء مناهل العرفان . ولا تحويل لِسُنَّتِهِ ،
ولا تبدل لكرم عاداته .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانُ فِي الْأَرْضِ أَطَمُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَفُو
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝ ﴾ .

إذا طالت بهم المدة ، وصاعدت المرء لم يستغفروا أهلهم في استجلاب حفظهم ،
ولا في اقتناء محبوبيهم من الدنيا أو مطلوبهم ، ولكن قاموا بأداء حقوقنا .

وقوله : « أَمَرُوا الصَّلَاةَ » : في الظاهر ، واستداموا المواصلات في البذل .

(١) الصوب = المطر يهطل ما ينفع ولا يؤذي (الوسيط) .

(٢) هكذا في م ولكتبها في س (لاستبقاء) . وقد آثرنا (استبقاء) لئلا منها (لاستبقاء) التي بعدها
ولا يستبعد أنها قد تكون (لاستبقاء) في الأصل على معنى : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لما بقيت
منازل العبادة ، لأن الكافرين إذا انصروا لم يتركوا معابد .

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها ؛ فتشتم — بين يدي الله — مَنْ أنت ، وَمَنْ تتجاهى ،
وَمَنْ القريب عليك ، ومن القريب منك .

وقوله : « وآتوا الزكاة » : الأغنياء منهم يوفون بزيادة أموالهم ، وفقراؤهم يؤثرون
زكاة أحوالهم ؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين حصة للفقراء والباقي لهم ، وزكاة الأحوال أن
يكون من مائتي نفس تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نفس — من
المائتين — لك . . . وذلك أيضاً حلة^(١)

قوله « وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر » : يتدبئون في الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر بأنفسهم ثم بأعيانهم ، فإذا أخنوا في ذلك لم ينفرخوا من أنفسهم إلى غيرهم .

وقال « الأمر بالمعروف » حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه
إجلالا لِقَدْرِهِ .

ويقال الأمر بالمعروف على نفسك ، ثم إذا قرَّعت من ذلك تأخذ في نهيها عن المنكر
ومن وجوب المنكر الرأى والإحباب والمساكنة والملاحظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ

قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ • وَقَوْمُ

لِإِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ • وَأَصْحَابُ

مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ

لِلْكَافِرِينَ فَمِنْ آخِذَتِهِمْ فَكَفَرُوا

كَانَ نَكِيرٌ • ﴿

في الآيات تسلية للنبى — صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ حتم عليه بالصبر على مقاساة
ما كان يلتقى من قومه من فنون البلاء وصنوف الأسواء^(٢) .

(١) لأنه ينبغي ألا تكون لك في نفسك بقية على الإطلاق ، ويجب أن تكون بكتلتك للحق .
(٢) أسواء = جمع سوء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ .

الظلمُ يوجبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه ، فالوحشة التي هي غالبية على الظلمة من ضيق صدورهم ، وسوء أخلاقهم ، وفقر في قلوبهم ، وتقرط في قلوبهم ، كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم ، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظلمة ربما يتأخر وربما ينجل . وخرابُ نفوسهم في تعطلها عن المبادات لشؤم ظلمهم ، وخرابُ قلوبهم باستيلاء النفاق عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم (١) غير مستأخر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَبْقَى مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴾ .

الإشارة في « يَبْقَى مَعْطَلَةٌ » : إلى الميرون المنفجرة التي كانت في بواطنهم ، وكانوا يستقون منها ، وفي ذلك الاستقاء حياة أوقاتهم من غلبت الإرادة وقوة المواجيد ، فإذا انصفوا بظلمهم قَلَبَ قُلُوبَهُمْ (٢) واقطع ماؤها بالسداد عيونها .

والإشارة في « قصر مشيد » إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأنس ، وغلو أرواحهم من أنوار المحاب ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف المواجيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُوا لِمَ قُلُوبُكُمْ يَمْغُلُونَ بِهَا أَوْ آذَانُكُمْ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْقَى الْإِنشَاءَ وَلَكِنْ تَعْقَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(١) (تقد) هنا معناه 'مسيجل' ، تتأهل (وعد) في المؤجل .

(٢) التفتت = القاسد من الماء ، المتقلب بين الأشياء من وجه الأرض والرفوة العذرة .

كانت لم تلوذ من حيث الخلقة ، فلما زابتها صفاتها المحبودة صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخيراً أنعم على القلب وكذلك العزم ، وإذا صحَّ وصف القلب بالسمع والبصر صحَّ وصفه بأسر صفات الخلق من وجوه الإدراكات ؛ فكما تبصر القلوب بنور اليقين يدرك لسم الإقبال يمتص السُر ، وفي الخبر :

« إني لأجد نفس ربكم من قهقري الجن » وقال تعالى مخبراً عن يتوب عليه السلام :
« إني لأجد ربك يوسف »^(١) وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتغال بصريح الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَنَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ ﴾

هدم تصديقهم تخلفهم على استعمال ما توعدهم به ، قال تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها »^(٢) ولم آمنوا لصدقوا ، ولو صدقوا لتسكنوا . « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » : أي إن الأيام عنده تتساوى ، إذ لا استعمال له في الأمور ؛ فواء عنده يوم واحد وألف سنة ؛ إذ من لا يجزى عليه الزمان وهو يجزى الزمان تسواء عليه وجود الزمان ، وعدم الزمان وقلة الزمان وكثرة الزمان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهُي ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ۝ ﴾

الإهمال يكون من الله — سبحانه وتعالى ، والإهمال يكون بأن ينزع الظالم في غلظه حيناً ، ويوسع له الحبل^(٣) ، ويطلق به المهمل ، فيتوهم أنه اغفلت من قبضة التقدير ، وذلك غلظه الذي

(١) آية ٩٤ سورة يوسف .

(٢) آية ١٨ سورة الشورى .

(٣) هكذا في م ولكتها في م (الحبل) بالياء جمع حيلة ، وربما تأييد عنه بقوله فيما بعد (وكيف يستبق بالحيلة ما حق في تقديره هدمه) .

أرادَه ، ثم يأخذه من حيث لا يَرْتَقِب ، فيطوه نَدَمٌ ، ولات حينه ، وكيف يستيق بالحيلة
ما حق في التقدير عَدَمُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ
نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ :

أَشَابِكُمْ فِي الصُّورَةِ وَلَكِنِّي أَبَايُنُكُمْ مِنْ حَيْثُ السَّرِيَّةِ ، وَأَنَا لِيُحْشِنَكُمْ بِشِيرٍ ،
وَلِيُسَيِّنَكُمْ نَذِيرٌ ، وَقَدْ آيَدْتُ بِأَمَامَةِ الْبَرَاهِينِ مَا حِشِنَكُمْ بِهِ مِنْ وَجْهِ الْأَمْرِ
بِالطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
ثَوَابٌ كَثِيرٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

الناس — في المغفرة — حل أقسام : فَنَهَمٌ مِنْ يَسْتَرُ^(١) عَلَيْهِ زُلَّتُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَرُ
عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ صِيَانَةً لَهُ مِنَ الْمَلَاظَمَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَرُ حَالَهُ لثَلَاثُ تَصْبِيَةٍ مِنَ الشُّبُهَةِ
ثَنَّةً^(٢) ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا :

لَا تُفَكِّرَنَّ جُحْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذَاكَ الْجُحُودُ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُسْبِلٌ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَرُهُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِهِ ، تِلْكَ وَرَدَةٌ فِي السَّكْنَبِ : « أَوْلِيَايَ فِي تَقَايَ ، لَا يَشْهَدُ
أَوْلِيَايَ غَيْرِي » .

« وَالرِّزْقُ الْكَرِيمُ » مَا يَكُونُ مِنْ وَجْهِ الْحَلَالِ . وَيُقَالُ مَا يَكُونُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ الْعَبْدُ .

ويقال هو الذي يبدو — من غير ارتقابٍ — على رَفْقٍ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ .

ويقال هو مَا يَحْتَمِلُ الْمَرْزُوقُ عَلَى صَرْفِهِ فِي وَجْهِ الْقَرْبَةِ . وَيُقَالُ مَا فِيهِ الْبَرَكَةُ .

ويقال الرِّزْقُ الْكَرِيمُ الَّذِي يُنَالُ مِنْ غَيْرِ تَمَبٍ^(٣) ، وَلَا يَتَقَدَّرُ مِنْهُ مَخْلُوقٌ .

(١) لِأَنَّهُ كَفَسَ مَعْنَاهَا فِي الْفَتْحِ كَسْرٌ .

(٢) وَهَذِهِ إِسْدَى الْأَفْكَارِ الَّتِي لَفِظُ أَصْحَابِ الْمَلَامَةِ فِي الصَّلَاحِ بِهَا ، وَحَدِّثُوا أَنْبَاءَهُمْ عَلَيْهَا .

(٣) (الَّذِي يُنَالُ مِنْ غَيْرِ تَمَبٍ) مَعْنَاهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِحْجَالٍ ، وَمِنْ غَيْرِ يَسَرٍّ عَنْ التَّوَلُّوسِ وَالتَّوَكُّلِ ،
وَمِنْ غَيْرِ اعْتِدَادٍ عَلَى مَخْلُوقٍ . وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ يَهْدِمُ صَرْحُ الْأَسْتِغْلَامِ السَّكَالِ الْفَرَارِاقِ الرَّهَابِ سَبْجَانَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آتَانَا مُعَاجِزِينَ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

في الحال في سَجَلِهِ الوَحْشَة وَاِسْتِدَادُ أَبْوَابِ الرُّشْدِ ، وَتَنْفَعُ الْعَيْشُ ، وَالاِبْتِلَاءُ مِنْ
لَا يَصْطَلِفُ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَخَافُونَ اللَّهَ .

وفي الآخرة مَا سَيَلْقَوْنَ مِنْ أَلَمٍ الْقُوَّةِ عَلَى حَسَبِ الْأَجْرَامِ ..

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ
فِي أَسْنَانِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي
الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

الشَّيْطَانِ يَتَمَرَّضُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَلَكِنْ لَا سُلْطَانَ وَلَا تَأْثِيرَ فِي أَحْوَالِهِمْ مِنْهُمْ ،
وَنَبِيًّا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَفْضَلُ الْجَمَاعَةِ .

وَإِنَّمَا مِنَ الشَّيْطَانِ تَضْيِيلٌ وَتَسْوِيلٌ (من التضييل) ^(١) . وَكَانَ لِنَبِيِّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ — سَكَنَاتٌ فِي خِلَالِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ اقْتِضَاءِ الْآيَاتِ ، فَيَتَلَفَّظُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ
الْأَلْفَاظِ ^(٢) ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَحْصِيلُ تَوْحِيدِهِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْفَاظِ الرَّسُولِ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
وَصَارَ فِتْنَةً لِقَوْمٍ .

(١) هَكَذَا لَمْ يَمْ وَلَكِنْ لَمْ يَمْ وَوَدِدْتُ هَكَذَا (وَلَيْسَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ التَضْيِيلِ) وَنَحْسَبُ أَنَّ هَذَا أَكْثَرُ
مَلَامَةٍ السَّبَاقِ حَسْبًا يَضْحِكُ مِنَ الْخَاطِئِ التَّالِي .

(٢) قِيلَ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ يَقْرَأُ بَيْنَ قَوْمِهِ سُورَةَ التَّجِيمِ حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى (وَمِنَاءِ
الثَّانِيَةِ الْآخَرَى) جَرَى عَلَى لِسَانِهِ تِلْكَ الْفَرَائِيقُ الْعُلَى ، وَإِنْ شَافَهُنَّ لَتَرْتَجِي «فِيهِ جَبْرِيلُ مَا لَمْ يَفْطَنْ لَهُ ،
وَحَيْثُ ذُنُوبُهُ مَعْصُومٌ مِنْ أَعْرَافِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ ، وَمَعْصُومٌ مِنَ الْغَلَّةِ . وَلَئِنْ لَا يُمْتَقَلُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَى
لِسَانِهِ مَدْحٌ لِلْأَمْنَامِ — فَقَدْ جَاءَ تَعْطِيبُهَا — بِقِرَاءَةِ بَعْضِ الْمُسْرِينِ أَنَّ الشَّيْطَانَ تَكَلَّمَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ —
وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ أُحُدٍ — وَتَبَاخَلَتْ الْكَلِمَاتُ فِي قِرَاءَةِ النَّبِيِّ (ص) أَمَّا سَكَنَةُ مِنْ سَكَاتِهِ —
كَأَنَّ نَبِيَّهُ الْفَشِيرِي .

أما — الذين أيدم بقوة العصمة ، وأدركتهم النجاة فقد استبصروا ولم يُضِرُّهُمْ^(١) ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً

لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرِيضٌ وَالْقَاسِيَةِ

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ

بَعِيدٍ﴾ .

إذا أراد الله بِعَبْدِهِ خيراً أمدّه بنور انشراح ، وأيدّه بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ، فلا يضلّه غمام الرّيب ، وينجى عنه فطاه الغفلة ، فلا تأوّر لضباب الغدّة في شلح الشمس عند منوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْفِتَ

لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ الْكَبِيرَ الَّذِي آمَنُوا

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالِ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي يَرِيبَةٍ مِّنْهُ حَتَّى

تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ

عَذَابٌ يَوْمَ مَعْقِمٍ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ فَهِيمٌ

عَالِمٌ بِالْغُيُوبِ﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات

في جنّات النعيم :

لم ينخصص مَنك — سبحانه — بيوم ، ولم تتحدّد له وقتية أمر ، ولا لجلاله

قدّر^(٢) ، ولكنّ الدماوى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجويّزات تلاشى^(٣) ،

فللمؤمنين وأهل الوفاق نعيم ، ولكفار وأصحاب الشقاق عذاب .

(١) ضبطناها هكذا ولا بأس — من حيث المعنى — أن يُضبط (ولم يضرهم ذلك) لما حدث من

الفتنة لم يبلح بهم شيئاً ولا ضرراً ، فقد أدركتهم النجاة .

(٢) أى أنه يجل من التحدّد بزمان وقدّر فهو المطلق الذى لا يتناهى .

(٣) الدماوى والظنون والتجويّزات هى نهم النفس والمعل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ • وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا
أَوْ مَاتُوا كَبُرَتْهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَيْرٌ رَّازِقِينَ •

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مهين .
« والذين هاجروا . . . » : للقلب حلاوة العرفان ، وللأرواح حلة المحاب ، وللأسماء
دوام الشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُّدْخَلٌ يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ
لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ •

إدخالاً فوق ما يَتَمَنَوْنَ ، وإبقاء على الوصف الذي يَهْدُونَهُ . . ذلك في أوان محوهم لينالوا
لطائف الأنس على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البسط على أهل أحوال السور .
قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّيَبَ بِهِ
ثُمَّ يُبَيِّ عَلَيْهِ لِيُغْصِرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوفٌ غَفُورٌ •

نَصْرُهُ — سبحانه — للأولياء نصر عزيز ، وانتقامه بتمام ، واستقصائه بكمال ، وإزهاقه
أعداءه بتمحيق جهنم ، وألا يحتاج المنصور إلى الاحتياط أو الاعتصام بأشكال (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُرِيعُ الْفَيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُرِيعُ النَّهَارَ فِي الْفَيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ
صَبِيرٌ •

(١) أى لا يحتاج المنصور إلى حيلة أو أي تدبير إنساني من جانبه ، بل يسقط تدبيره ، لأن النصر له من
عند الله ، ولا يحتاج المنصور إلى أن يتعبد بأشكاله من المخلوقات فكأن الله له ناصراً ومعيناً .

كأني أنقِ المآلَمَ لَيْلٌ ونهارٌ فكذلك السرائرُ ليلٌ ونهارٌ ، فعند التجلّي نهارٌ وعند
الستر ليلٌ ، وليلُ السرِّ ونهارُ زيادةٍ وقمعانٍ ، فبقدر التّبيضِ ليلٌ وبقدر البسطِ نهارٌ ،
ويزيد أحدهما على الآخر وينقص . . . وهذا للمارفين . فأما المحقّقون فلهُم الأُنسُ والميعةُ
مكانٌ قبضِ قومٍ وبسطِهِم ، وذلك في حالي صومٍ ومحوٍ ، ويزيد أحدهما وينقص ، ومنهم
من يدوم نهاره ولا يدخل عليه ليلٌ . . . وذلك لأهل الأُنسِ قط^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذُكِرْ بِأَنَّهُ اللهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ
مَآيَدَهُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ،
وَأَنَّ اللهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

إذا بدا هِلْمٌ من الحقائق حَصَلَتْ بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلّي ، ثم يزيد
ظهور ما يبدو وينبسط ، وتتناقص آثارُ التفرقة وتلاشي ، قال : صلى الله عليه وسلم :
« إذا أُقبلَ التَّهَارُ من هاهنا أُديرَ الليلُ من هاهنا » فإذا نأى البعدُ بالكليّة عن الإحساس
بما دون الله فلا يشهد أولاً الأشياء إلا للحق ، ثم لا يشهدا إلا بالحق ، ثم لا يشهد إلا للحق . .
فلا إحساس له بفقر الحق ، ومن جملة ما يفسده . . نفسه والكون كله^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ خُضْرًا إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها ، وماء الرحمة يحيي أحوال أهل الزّليّة بعد تركها ،
وماء العناية يحيي أحوال (. . .)^(٣) بعد زوال روتها ، وماء الوصلة يحيي أهل القرية
بعد لضيوبها .

(١) كثير من المصطلحات الصوفية لا يفهمها دقيقاً إلا بطريق المعارفة المتحددة على مظاهر الطبيعة
كالبُلبُل والتهار والجبال والبحار والسحب . . . إلخ .

وقد استعمل التشييزي — في ظلال القرآن الكريم — هنا الجانب .

(٢) تفيد هذه الفقرة في توضيح مراتب الدُّيُود .

(٣) في م (الناس) وفي م مكتوبة هكذا (العاليس) .

قوله جل ذكره : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

المَلِكُ له ، وهو عن الجميع غني ، فهو لا يستغنى بِمَلِكُهُ ، بل مَلِكُهُ بصير موجوداً بِخَلْقِهِ
لِيَاه ؛ إِذِ الْمَدْمُومُ لَهُ مَقْدُورٌ وَالْمَقْدُورُ هُوَ الْمَلُوكُ .

ويقال كما أنه ^(١) غني عن الأَجناب بمن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غني عن الأكابر
وجميع الأولياء .

ويقال إذا كان الغني حقيقاً فعلى ذلك أنه يُعْطَى حتى يُشْكِر .

ويقال الغني الحليم للشيخ الحمد : أعطى أو لم يُعْطِ ؛ فَإِنْ أُعْطِيَ اسْتَحَقَّ الْحَمْدَ الَّذِي
هُوَ الشُّكْرُ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِ اسْتَحَقَّ الْحَمْدَ الَّذِي هُوَ الْمَدْحُ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿لَمْ يَلَمْسْ أَنْ يَكُنْ لَكَ
مِثْرُ الْأَرْضِ وَالْمَلَكُ تَهْوِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَيُنْصِتُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى
الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرْحِيمٌ﴾

أراد به تسخير الانتفاع بها ؛ فَمَا لَخَلَقَ ^(٣) به انتفاع وميسر له في الاستمتاع به فهو
كَالسُّخَّرِ له على معنى تمكينه منه ، ثم يَرَاهِي فِيهِ الْإِذْنَ ؛ فَمَنْ اسْتَمْتَحَ بِشَيْءٍ عَلَى وَجْهِ الْإِبَاحَةِ
وَالِإِذْنِ وَالِدَعَاءِ إِلَيْهِ وَالْأَمْرِ بِهِ فَتَلَكُ إِذْنٌ وَلَمْ يَكْرَاهُ ، وَمَنْ كَانَ بِالْعَكْسِ فَكُرٌّ وَاسْتِدْرَاجٌ .

وَأَمَّا السَّفِينَةُ .. فَالْهَامُ الْعَبْدُ بِصَنْعِهَا وَوَجْهُ الْإِنتِفَاعِ بِهَا ؛ بِاتِّخَالِفِهَا وَدَوْكُهَا قَبْلَ أَهْلِهَا إِحْسَانًا
اللَّهُ وَإِرْفَاقَهُ بِالْعَبْدِ ، ثُمَّ مَا يَحْصُلُ بِهَا مِنْ قَطْعِ لِلْسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ ، وَالتَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى الْمَضَارِبِ

(١) هكذا في م وهي في ص (أنت) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٢) دُجِلَ هَذَا فَقَوْلِي صِلَاتَا : « الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أَيْ نَشْكُرُكَ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَنَعْبُدُكَ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(٣) وَبَدَتْ مَعْنَاهُ فِي م وَهِيَ فِي ص (لحق) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

النائية، والتمسكن من وجوه الاتفانغ فى ذلك أعظمُ نعمة، وأكلُ حافية .

وجعل الأرضَ للخلقِ قوارراً من غير أن تميد ، وجعل السماء بناء من غير وقوع ، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الانتهاء فى الظلام ، ثم هى زينة السماء — وفى ذلك من الأدلة ما يوجب تلجج الصدر وبردة اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾

﴿ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾

إحياء النفوس وإماتتها مرات محصورة ، وإحياء أوقات العباد وإماتتها لا حصر له ولا عدد ، وفى مناه أُنشدوا .

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وتم أموت

ويقال يُحيى الآمال بإشهاد تفضله ، ثم يميتها بالاطلاع على تعززه .

ويقال هذه صفة العوام منهم ، فأما الأفاضل لحيايتهم مسرعة واتماتتهم مؤبد . وأتى بحيا غيره وفى وجوده — سبحانه — غنية وخلف من كل ثامت (١) ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْشُورًا ﴾

﴿ فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاوَدُّ إِلَى ﴾

﴿ وَلَيْكَ إِلَٰهٌ لِّكُلِّ هُتَّىٰ مُسْتَقِيمٌ ﴾

جَمَلٌ لِّكُلِّ فَرِيقٍ شَرْعَةً مَّ وَارِدُهَا ، وَلِكُلِّ جَمَاعَةٍ طَرِيقَةٌ مَّ سَالِكُهَا .

وجعل لكل مقام سُكَّانَهُ ، وَلِكُلِّ قَطْآنَةٍ ، قَدْرٌ رِبْطٌ كَلَّا بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَأَوْصَلَ كُلًّا إِلَى مَا جَعَلَهُ مَحَلًّا لَهُ ؛ فَيَسَاطُ التَّعْبِيدِ مَوْطُوءٌ بِأَقْدَامِ الْعَابِدِينَ ، وَمَشَاهِدُ الْجَهْدِ مَسُورَةٌ بِأَحْصَابِ التَّكْلِيفِ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَجَالِسُ الْأَحْصَابِ لِلْعَارِفِ مَأْنُوسَةٌ بِزُيُومِ الْعَارِفِينَ ، وَمَنْزَلُ الْمُحِبِّينَ مَأْهُولٌ بِحُضُورِ الْوَارِدِينَ .

(١) هكذا فى اللسنتين ، ونحن لا نتعبد أن تكون فى الأصل (فان) و سواء كان الفناء بالحقى الحروف أو بالحق المعرف فانها متسجمة مع السياق . ولأن القشبرى يستعمل هذا الأسلوب كثيراً : فسكى به خلقاً لك عند فناءك هناك .

قوله : « فلا ينازحك في الأمر الأمر ... » إشهد تصاريق الأقدار ، واعمل بموجب التكليف ، وافته دون ما أذنت له من المناهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ جَادَلْكَ فَقُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

سَكِلْتُمْ إِلَيْنَا عِنْدَمَا رَامُوا مِنَ الْجِدَالِ ، وَلَا تَسْكُلْ عَلَى مَا تَخْتَارُهُ مِنَ الْاِحْتِيَالِ ، وَاحْذَرْ جُنُوحَ قَلْبِكَ إِلَى الْاِسْتِمَاعَةِ بِالْأَمْثَالِ وَالْأَشْكَالِ ، فَانْهَمْ قَوَالِبُ خَلْوِيَّةٍ ، وَأَشْبِغْ عَنِ الْمَعَانِي خَالِيَةً .
قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أَمَّا الْأَجَانِبُ فَيَقُولُ لَمْ : « كُنِيَ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبًا » (١) ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَقَوْمٌ مِنْهُمْ بِحَسَابِهِمْ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَأَقْوَامٌ مَخْصُوصُونَ يَقُولُ لَمْ : يَبْنِي وَيُنْشِئُ حَسَبًا ؛ فَلَا جَبْرِيلَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَلَا مِيكَائِيلَ ، وَلَا نَبِيَّ مُرْسَلٍ ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ .
« اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَمِيعَ خَصَائِمِهَا ، وَيَأْمُرُ بِإِرْضَائِهِمْ جَمِيعَ غُرُمَاتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى ، وَمَا تَكُونُ حَاجَةُ الْعَبِيدِ لَهُ أَمْسَ وَأَقْوَى ، وَبِكُلِّ وَجْهِ هُوَ بِالْعَبْدِ أَوْلَى ، وَلَهُ أَنْ يَحْمِلَ لَهُ الْفُتْصَى ، وَيَزِيلَ عَنْهُ التَّيْلُوسَ ، وَلَا يَسْمَعُ مِنْهُ الشُّكْوَى ، فَهُوَ الْحَكَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

الآية تشير إلى أن من كان من جملة خواصه أفراد — سبحانه — وبرهان ، وأيده بيان ، وأمره سلطان . ومن لا سلطان له يند إليه قهره ، ومن لا برهان له ينسبط عنه — إلى غيره — نوذه ، فهو يحزّل عن جلته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا نُنشِئُ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَثْنُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ إِنَّا نُبَشِّرُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَهَئَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُنْسِلُ لِلصُّورِ ﴾

لِسَاعِ انْطِلَابِ أَرْفِي الْقُلُوبِ مِنَ الْاِسْتِشَارِ وَالْبَهْجَةِ ، أَوِ الْإِنْكَارِ^(١) وَالْوَحْشَةِ . ثم ما تخافه السرائر يوح على الأيسرة في الظاهر ، فكانت الآيات عند نزولها إذا تليّت على الكفار يوح على رجوعهم ذخان ما تنطوى عليه قلوبهم من ظلمات التكذيب ، فما كان يقع عليهم طرّف إلا آتياً من جهودهم ، وطأت إلى القلوب النبوءة عن إقلاهم . ثم أخبر أن الذي هم بعدّونه في الآخرة من أليم العقوبة شرّ بكل وجه لم يما يود إلى الرائيين لم عند شهودهم . وإن المناظر الوضيّة للرائيين مُبْهِجَةٌ ، والمناظر المنكرة للناظرين إليها موحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(١) هكذا في م ولكتبا في م (الانكسار) بالسين وهي خطأ لأن المقصود بيان المقابلة بين أثر القرآن على المؤمنين بالاستبشار والبهجة مع أثر القرآن على الكافرين (بالإنكار) والوحشة وظلمات التكذيب .

تَبَّهَ الْأَفْكَارَ الْمُشْتَبَّهَةَ ، وَالْخَوَاطِرَ لِلتَّفَرُّقَةِ عَلَى الْاِسْتِجَاعِ لِإِبْرَاهِيمَ مَا أَرَادَ تَضْمِينَهُ فِيهَا ؛
فَاسْتَحْضَرَهَا فَقَالَ : « حُرِّبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . . »

ثُمَّ بَيَّنَّ الْمَعْنَى فَقَالَ إِنَّ الَّذِينَ تَدَّعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَتَدْعُونَهَا آلِهَةً ؛ أَيْ وَتَسْمُونَهَا
آلِهَةً (وَأَنَّهَا لَمُعَادَةٌ مُسْتَحَقَّةٌ)^(١) لَنْ يَخْلُقُوا بِأَجْمَعِهِمْ ذِبَابًا ، وَلَا دُونَ ذَلِكَ . وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ
الذَّبَابُ شَيْئًا بَانَ يَتَّعِ عَلَى طَعَامِهِمْ فَلَيْسَ فِي وَسْمِهِمْ اسْتِنْفَادُ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَمَنْ كَانَ بِهِذِهِ
الصِّفَةُ فَسَاءَ النَّثْلُ مِثْلُهُمْ ، وَضَعَفَ وَصْفُهُمْ ، وَقَلَّ خَطَرُهُمْ .

وَيَقَالُ إِنَّ الَّذِي لَا يَقَاوِمُ ذِبَابًا فَيَصِيرُ بِهِ مَتَلُوبًا فَأَهْوُونَ بِقُدْرِهِ ١

قوله جل ذكره : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

مَاعُرفوه حَقُّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا وَصَفُوهُ بِجَلَالِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ النَّمُوتِ . وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي عَقِيدَتِهِ
تَقْضَى لِمَا يَسْتَحِيلُ فِي وَصْفِهِ — سَبْحَانَهُ — لَمْ تُبَاشِرْ خِلَاصَةُ التَّوْحِيدِ سِرَّهُ ، وَهُوَ فِي رَجْمِ
فِكْرِهِ ، وَنَجْوِيزِ ظَنِّهِ ، وَخَطَرِ تَعَسُّفٍ ، يَقَعُ فِي كُلِّ وَهْدَةٍ مِنَ الضَّلَالِ .

وَيَقَالُ لِلْعَوَامِّ اجْتِهَادُهُمْ فِي رَفْضِهِمُ الْأَحْمَالَ الْخَلِيشَةَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ، وَالْخَوَاصِّ جَهْدَهُمْ
فِي تَقْضِي عَقِيدَتِهِمُ لِلْأَوْصَافِ الَّتِي تَحْمِلُ عَنْهَا الصِّمْدِيَّةُ ، وَبَيْنَهُمَا (. . .)^(٢) بَمِيدٌ .

« إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » قَوِيٌّ أَيْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مَنْ هُوَ قُوْفُهُمْ فِي التَّحْصِيلِ وَكُلِّ الْعُقُولِ .
« عَزِيزٌ » : أَيْ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ قُدْرَتَهُ — إِلَّا بِمَا يَلِيقُ بِصِفَةِ الْبَشَرِ — يَقْدِرُ مِنَ الْعِرْفَانِ .

وَيَقَالُ مَنْ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ فَلَيْسَ النَّسْتُ لَهُ إِلَّا بِوَصْفِ الْقُصُورِ ، وَلَكِنْ كُلُّ يَوْجِدِهِ
مُرَبُوطٌ ، وَبِحِدَّةٍ فِي هِمَّتِهِ مَوْقُوفٌ ، وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ عَزِيزٌ^(٣) .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي مِ مَقْعُودٍ فِي مِ

(٢) فِي مِ جَاءَتْ (وَفَقَاتِ) وَفِي مِ جَاءَتْ (فِرْقَانِ) وَالْأَوَّلَى مَرْفُوضَةٌ ، وَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ يَسْتَعْمَلُ
الْفَشْرِيُّ (فِرْق) أَوْ (يُون) بِمِيدِ .

(٣) كَلَامُ النَّشْرِيِّ هُنَا فِي (قَوِيٌّ) وَفِي (عَزِيزٌ) هَامٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي مَبْنَعِهِ الْمُسْتَقِلُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ
الْإِلَهِيَةِ الَّتِي ضَمَّنَتْ كِتَابَ (التَّحْقِيرِ فِي التَّذْكِيرِ) الَّتِي حَقَّقَهَا وَنَشَرَتْ دَارُ الْكَتَابِ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ١٩٦٩ .

قوله جل ذكره : ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ شَبِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .

الاجتناب والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القدر ، وتخصيص الطول ، وتقديمهم على أشكالم في المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعض درجات ، فالفضيلة بحق الرسل ، لا لخصوصية في الخلقة في الرسل .

قوله جل ذكره : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

يعلم حاتم ومآلهم ، وظاهرهم وباطنهم ، ويومهم وغدهم ، ويعلم تقصمهم عهدهم ، فيأليه منقلبهم ، وفي قبضته تقلبهم .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

الركوع والسجود والعبادة كلها بمعنى الصلاة ، لأن الصلاة تشتمل على هذه الأفعال جميعا ، ولكن فرقها في الذكر^(١) مراعاة لقلبك من الخوف عند الأمر بالصلاة ، ففلسها ليكون مع كل لفظة ومعنى نوع من التخفيف والترقية ، ولتغلب أهل المعرفة في كل لفظة راحة جديدة .

ويقال لَوْن عليهم العبادة ، وأمرهم بها ، ثم جميعها عبادة واحدة ، ووعد عليها من الثواب الكثير ما تقصر عن حله البصائر .

وقال عليم أن الأحباب يحبون سماع كلامه فطول عليهم القول إلى آخر الآية ؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أتما على أنس ، وروحاً على روح ، ومماذ خطاب الأحباب هو روح روحهم ، وكال راحتهم .

(١) ما يلي من الكلام في هذه الفقرة مفيد في الباحة البلاغية فائدة كبيرة .

ثم قال بعد هذا : « واثقلوا الظفر » فادخل فيه جميع أنواع القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ .

(« حَقَّ جِهَادِهِ » : حق الجهاد ما وافق الأمر في القدر والوقت والنوع ، فإذا حصلت في شيء منه مخالفة فليس حَقَّ جِهَادِهِ ^(١) .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدة بالنفس ، ومجاهدة بالقلب ، ومجاهدة بالمال . فالمجاهدة بالنفس ألا يدخر العبد ميسوراً إلا بذكه في الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطلب الرخص والإرفاق ^(٢) . والمجاهدة بالقلب صوته عن الطواغر الزديئة مثل الغلبة ، والمزم على المخالفات ، ونذكر ما سلف أيام الفترة والبطالات . والمجاهدة بالمال بالنبل والسخاء ثم بالجد والإينار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأسق ، وتقديم الأسق على الأسهل — وإن كان في الأخت أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يتأخر العبد عن مجاهدة النفس لحظة ، قال قائمهم .

يَازِبُ إِنَّ جِهَادِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ فَكُلُّ أَرْضِي لِي تَنْزَ طَرَسُوسُ

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾

بمعنى أنه يقول من حق اجتباكم إياكم أَنْ تُعْطُوا أَمْرَ مَوْلَاكُمْ

وبمعنى أن يقال هو الذي اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لَمَا جَاهَدْتُمْ ، فلاجتباكم إياكم وَلَقَدْ كُنْتُمْ حَتَّى جَاهَدْتُمْ .

ويقال علم ما كنت تفعله قبل أَنْ خَلَقْتُكَ ولم يمنه ذلك مِنْ أَنْ يَجْتَنِبَكَ ، وكذلك إن رأى ما فعلت فلا يمنه ذلك أَنْ يتجاوزَ هنك ولا يماقبك

(١) ما بين قوسين موجود في م و ناقص في س .

(٢) إذا كانت (الإرفاق) لشاء السهيل ، والفتوى لا يرى به غالباً لأبواب الطريق لأنهم يأتون عن الأسق ، وإذا كانت (الأرفاق) فهي جمع رفق وقد نسي الفتوى في نهاية رسالته عن رفق النسوان والصبيان فهم الأثان والجلب ... إلخ . والسباق هنا بعيد عن ذلك مما يرجح أنها الإرفاق بكسر الهمزة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جئَلْ عليكم في الدين من حَرَجٍ ﴾ .

الشرع مبناه على السهولة ، والذى به تصل إلى رضوانه وتسوجب جزيل فضله وإحسانه ، وتخلص به من ألم عقابه وامتحانه — يسير^(١) من الأمر لا يستغرق كُنْه إمكانك ؛ يعنى أنك إن أردتَ فَعَلَهُ لَقَدَرْتَ عليه ، وإن لم تَوْصَفْ في الحال بأنك مستطيعٌ ما ليس بوجوده فيك .

قوله جل ذكره : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

أى اتَّبِعُوا والزَمُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام في البَدَلِ والسَّخَاءِ والْجُودِ والْعِفَّةِ والإِحْسَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ نَحْنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ .

اللهُ هو الذى اجبأكم ، وهو الذى بالإسلام والرفقان نَحْنُكم الْمُسْلِمِينَ . وقيل إِبْرَاهِيمَ هو الذى مَحَاكمُ الْمُسْلِمِينَ بقوله : « ومن خُذِيتْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ »^(٢) .

قوله : « لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ » ، نَسَبَ الرَّسُولَ بالشَّهَادَةِ عَلَيْنَا ، وأَمَرَهُ بالشَّهَادَةِ لَأَمَّتْ ، وإِنَّمَا يَشْهَدُ عَلَيْنَا بِمَقْدَارِ مَا يَبْقَى لِلشَّهَادَةِ مَوْضِعًا وَمَحَلًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

وَتِلْكَ الشَّهَادَةُ إِنَّمَا لِقُدِّيَا اللَّهِ ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ شَهَادَةٌ عِنْدَ أَحَدٍ — وَهُوَ كَرِيمٌ — فَلَا يَجْرَحُ شَاهِدُهُ ، بَلْ يَسْمَى بِمَا يَمُرُّ إِلَى تَزْكِيَةِ شَهِيدِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

(١) يسيرٌ خبر لاسم الوصول (والذى به ...) (٢) آية ١٢٨ سورة البقرة .

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بحكم الإتمام ، ونعت الاستدامة ، وجعل الاستقامة .
والاعتصام بالله التبرى من الحول والقوة ، والنهوض بعبادة الله بالله ﷻ . ويقال الاعتصام
بالله التمسك بالكتاب والسنة . ويقال الاعتصام بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستقامة .
« هو مولاي » : سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه .
« فنعم المولى ونعم النصير » : نعم المولى : إخباراً من عظمته ، ونعم النصير : إخباراً
من رحمته .

ويقال إن قال لأيوب : « نعم العبد »^(١) ولسليمان « نعم العبد »^(٢) فلهذا قال لنا « نعم
للمولى ونعم النصير » ، وبيده لنفسه أعزُّ وأجلُّ من مدهه لك .
وقال « نعم المولى » : بذكائك بالهبة قبل أن أحبيته ، وقبل أن عرفته أو طلبته
أو عهدته .

« ونعم النصير » : إذا انصرف عنك جميع مَنْ فَكَّ فلا يدخل القبر مَعَكَ أحدٌ
كأن ناصرَكَ ، ولا عند السؤال أو عند الصراط .

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جل ذكره ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

الاسم اشتقاقه من السور ، وليس من هذا الاسم اشتقاق العلو ، فالانتم اسم لسموه من
الْقَدَم ، والحقُّ حقُّ لوهو بحقِّ الْقَدَم .

ويقال مَنْ عرف « بسم الله » سمعَ حِمْتَهُ من الموصيات ، وَمَنْ أَحَبَّ بسم الله صَفَتِ
حالته من مساكنة الموهومات ..

اسم مَنْ طَلَبَهُ نَسِيَ من النارين أَرَبَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهُ وَجَدَ بقلبه مالا يعرف سَبِيَّهُ .

(١) « إنا وجنناه صابراً نعم العبد إنه أواب » آية ٤٤ سورة من .

(٢) « وهبنا لقنود سليمان نعم العبد إنه أواب » آية ٣٠ سورة من .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الذين هم

في صلاتهم خاشعون ﴿

ظَنِرَ بِالْبُغْيَةِ وَكَازَ بِالطُّلْبَةِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .

و « الْفَلَاحُ » : الْفَوْزُ بِالْمَطْلُوبِ وَالظَّفَرُ بِالْمَقْصُودِ .

والإيمانُ اتِّسَامُ الْحَقِّ فِي السَّرِيَّةِ ، وَخَامَرَةُ التَّصَدِيقِ خِلَاصَةُ الْقَلْبِ ، وَاسْتِمَكَانُ التَّحْقِيقِ مِنْ تَأْمُورِ الْفَوَادِ (١) .

وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِطْرَاقُ السُّرِّ عَلَى سِطَاطِ النَّجْوَى بِاسْتِكَالِ نَعْتِ الْهِيبَةِ ، وَالذُّوبَانُ نَحْتِ سُلْطَانِ الْكُشْفِ ، وَالْإِمْتِنَاعُ عِنْدَ حَلَكَاتِ التَّجَلِّيِ .

وَيَقَالُ أَذْرَكَ تَمَرَاتِ الْقُرْبِ وَكَازَ بِكَالِ الْأَنْسِ مَنْ وَقَفَ عَلَى سِطَاطِ النَّجْوَى بِنَمَتِ الْهِيبَةِ ، وَمِرَاحَةِ آدَابِ الْخُضْرَةِ . وَلَا يَسْكُنُ الْأَنْسُ بِلِقَاءِ الْمَحْبُوبِ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِ الرَّقِيبِ . وَأَشَدُّ الرِّقَابِ وَأَكْثَرُهُمْ تَنْصِيصًا لِأَوَانِ الْقُرْبِ النَّفْسُ ؛ فَلَا رَاحَةَ لِقَمَلٍ مَعَ حُضُورِ نَفْسِهِ ، (فَإِذَا خَسِنَ عَنْ نَفْسِهِ) (٢) وَشَهِدَهُ عَدِيمُ إِحْسَاسِهِ بِأَفَاتِ نَفْسِهِ ، وَطَابَ لَهُ الْعَيْشُ ، وَتَمَّتْ لَهُ النُّعْمَى ، وَتَجَلَّتْ لَهُ الْبَشَرَى ، وَوُجِدَتْ لَهُ الْحَيَاةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ مَعْزُونُونَ ﴾

مَا يَشْتَلُّ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ سَهْوٌ ، وَمَا لَيْسَ اللَّهُ فَهُوَ حَشْوٌ ، وَمَا لَيْسَ بِمَسْمُوعٍ مِنْ اللَّهِ أَوْ بِمَعْتُولٍ مَعَ اللَّهِ فَهُوَ لَوْثٌ ، (وَمَا هُوَ غَيْرُ الْحَقِّ صِبْغَانَهُ فَهُوَ كُفْرٌ ، وَالتَّعْرِيجُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا بَعْدَهُ وَهَجْرٌ) (٣) .

وَيَقَالُ مَا لَيْسَ بِتَنْزِيهِ اللَّهِ وَمَنْدَحِهِ مِنْ كَلَامِ خَلْقِهِ فَسَكَلْ ذَلِكَ لَوْثٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ فَاعِلُونَ ﴾

(١) يُقَالُ أَجَلَ هَذَا الْأَمْرِ فِي تَأْمُورِكَ أَيْ دَاخِلَ قَلْبِكَ (الرَّوْشِدُ : مَادَّةُ أَمْرٍ) .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي مَوْجِبٍ مَوْجُودٌ فِي مَوْجِبٍ .

(٣) مَوْجُودٌ فِي مَوْجِبٍ مَوْجُودٌ فِي مَوْجِبٍ .

الزكاة النماء ، ومن عمل للنماء فأمارة ذلك أن يكون بنقصانه في نفسه عن شواهد
ولا يبلغ العبد إلى كمال الوصف في المبودية إلا بنوياته من شاهده .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون *
إلا على أزواجهم أو ما ملكت
أيمنهم فلاهم غير ملومين ﴾

لفروجهم حافظون ابتغاء نسلي يقوم بحق الله ، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التمتع
والتعاون من مخالفت الإثم .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك
هم العادون ﴾

أى من تجاوز قصه إظهار الحقوق ، وجنح إلى جانب استيفاء المخطوط . . فقد تعدى
حل الأكابر ، وخالف طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم
راعون ﴾

الأمانات مختلفة ، وعند كل أحد أمانة أخرى ، تقوم عندهم الوظائف بظواهرهم ،
وآخرون عندهم الطامع في سرائرهم ، وتقوم بماملاتهم ، وآخرين منازلاتهم ،
ولآخرين مواصلاتهم .

وكنلك مهودم متفاوتة فبهم من عاهده ألا يعبد سواه ، ومنهم من عاهده ألا يشهد
في الكونين سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين ، ولا يدعهم المنادى وهم ليسوا بالباب ، فهم
في الصف الأول بظواهرهم ، وكنلك في الصف الأول بسرائرهم

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون
الفرحوس هم فيها خالون ﴾

الإرث على حسب النسب ، وفي استحقاق الفردوس بوصف الإرث لِنَسَبِ الإيمان في الأصل ، ثم الطاعات في الفضل .

وكا في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان : بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك في الطاعات ؛ ففهم من هم في الفردوس بنفوسهم ، وفي الأحوال الطيبة بقلوبهم ، ثم هم خالدين بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يرحلون عن مثال قوسهم ولا (. . .) (١) من حالات قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ

مِنْ طِينٍ ﴾

عَرَفَهُمْ أَصْلَهُمْ لئَلَا يُعْجَبُوا بِفِعْلِهِمْ .

ويقال نَسَبَهُمْ لئَلَا يَفْرَجُوا عَنْ حَدِّهِمْ ، ولا يَنْطَلِقُوا فِي نفوسهم .

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ سُلَّتْ مِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ ؛ ففهم من طينته من جُرْدَةٍ (٢) أو من سَبْخَةٍ (٣) أو من سَهْلٍ ، أو من وَهْرٍ . . . ولذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بَسَطَ حَدِّدَهُمْ حَنْدَ السَّكَاتَةِ ؛ فَإِنَّ الْخُلُقَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . . . ما الذي يُنْتَظَرُ منه ؟

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، وَالْقَدَرُ لِلتَّوْبَةِ لَا لِلتَّوْبَةِ .

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ وَلَكِنْ مَعْدِنٌ لِلْعَرَفَةِ وَمَرْتَعٌ لِلْهَبَرِ وَمَتَلَقٌ الْعِنَايَةِ مِنْهُ لَمْ ؛

قَالَ تَعَالَى : « يَجْعَلُهُمْ وَيَجْعَرُهُ » .

ويقال خَلَقَهُمْ ، ثُمَّ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَقَلَّبَهُمْ ، يُنْزِلُهُمْ مَا شَاءَ تَغْيِيرُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُثَةً فِي قَرَارِ شَكَبِينَ ﴾

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُثَةَ خَلْقَةً فَخَلَقْنَا السَّلَكَةَ

مُصْنَعَةً فَخَلَقْنَا الْمَصْنَعَةَ عِظَامًا ،

فَكَسَوْنَاهَا الْمِطْلَامَ لِحْمًا ﴾

(١) متعلية في من ، م وديما كانت (ولا يفككون) .

(٢) الأرض الجردة التي لا نبات فيها .

(٣) السَّبْخَةُ التي فيها ملح ونور ولا تسكاه تلبت .

قطرة أجزائها متائلة ، ونظفة أبعاضها متشاككة ، ثم جعل بعضها لحمًا وبعضها عظمًا ،
وبعضها شعرًا ، وبعضها ظفرًا ، وبعضها عصبًا ، وبعضها جلدًا ، وبعضها منًا ، وبعضها
حرًا . ثم خصَّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ، وكلَّ جزءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ . ثم الصفات التي
للإنسان خلقها متفاوتةٌ ، من السَّمْعِ والبَصَرِ والفِكْرِ والنَّفْسِ والقدرةِ والعلمِ والإرادةِ
والشجاعةِ والحقدِ والجودِ والأوصافِ التي يتقاصر عنها الحُصْرُ والمَدُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكْهُ
اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

في التفسير أنه صورة الوجه ، ويحتل ما تركب فيه من الحياة ، واغتص به من السَّمْعِ
والبصر والعقل والتمييز ، وما تفرَّد به بعضُ منهم بمزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات .

ويقال « ثم أنشأناه خلقًا آخر » : وهو أن هَيَّأَ لآحوالٍ عزيزةٍ يُظهرها عليهم بعد
بلوغهم ، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال ، فلقومٌ تُخصِّصُ برزينة المبودية ،
ولقومٍ تهرُرُ من رِقِّ البشرية ، ولآخرين تُحقِّقُ بالصفات الصمدية بانتهاهم من الإحساس
بإمام عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبَارَكْهُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

خلق السموات والأرضين بمجملتها ، والمرش والكوسى ، مع المخلوقات من الجنة والنار
بكلينها - ثم لما أُخبر بذلك لم يقبه بهذا التمسح الذي ذكره بعد نصت خَلَقَهُ بَنَى آدَمَ
تخصيصًا لهم وتمييزًا ، وإفرادًا لهم من بين المخلوقات .

وبالإن إن لم يَقُلْ لَكَ إِنَّكَ أَحْسَنُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلَقَدْ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى :
« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »^(١) .

(١) الآية ٤ سورة التين .

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين — ولم يُننِ عليك بذلك فلقد أننى على نفسه بقوله : « تبارك الله أحسن الخالقين » ، وثناؤه على نفسه وتمجده بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن ينفي عليك .

ويقال لما ذكر نمتك ، وتلواتِ حالِك في ابتداء خَلْقِكَ ، ولم يكن منك لسانٌ شكري ينطق ، ولا بيانٌ مدحٍ ينطلق .. نأبَ عنك في الثناء على نفسه ، فقال : « تبارك الله أحسن الخالقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِمَدَّ ذِكِّ لَمَيِّنُونَ ﴾

أنشدوا :

آخر الأمر ما ترى للقبر والحمد والثرى

وأنشدوا :

حيثما عندنا قروضٌ ونحن بعد للوت في التقلبي
لا بدَّ مِنْ رَدٍّ ما اقترضنا كلُّ غريمٍ بِذاك راضى

ويقال نعالك إلى نفسك بقوله : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بِمَدَّ ذِكِّ لَمَيِّنُونَ » وكلُّ ما هو آتٍ قريب .
ويقال كسر على أهل الفلة سطورة غفلتهم ، وفلَّ دونهم سيفَ صولتهم بقوله : ثُمَّ إِنَّكُمْ بِمَدَّ ذِكِّ لَمَيِّنُونَ ، ولجأ مضاهاون ، وعن للسكنة والقدرة والاستطاعة والقوة أُمِّمِدُونَ ، وفى عداد ما لا خطرَ له من الأمور معدودون .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْشَرُونَ ﴾

فصد ذلك يتصل الحسابُ والغلبُ ، والسؤالُ والغلبُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموسولُ من المهجور .

ويومُ القيامة يومٌ خوفٌ به العالمُ حتى لو قبل للقيامة : ممن تخافين ؟ لقات من القيامة .
وفى القيامة ترى الناسَ كسَّارى حَيَّارى لا يعرفون أحواكم ، ولا يتحققون بما تقول إليه أمورهم ، إلى أن يتبين لكل واحدٍ أمرُهُ وخَيْرُهُ وشرُّه : فيثقل بالظلمات ميزانه ، أو يخف

عن الطائفة أو يخلو ديوانه . وما بين الموت والقيامة : **إِذَا مَا رَأَيْتُمُ الْمَوْتَ ، أَوْ آلَامَ**
وَأَقْلَمْتُ غَيْرَ مُنْفَصِلَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ۚ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝ ﴾

الحق — سبحانه — لا يستتر عن رؤيته مدركه ، ولا تخفى عليه — من مخلوقاته —
خافية . وإنما الحجب على أبصار الخلق وبصارهم ، فالمادة جلوية بأنه لا يخلق لنا الإدراك
ليأوراه الحجب . وكذلك إذا حلت الغلة القلوب استولى عليها الجهول ، وانسدت
بصائرهما ، وانتفت فهوما

وفوقنا حجب ظاهرة وباطنة ، وفي الظاهر السموات حجب محول بيننا وبين المنازل
العالية ، وحل القلوب أغشية وأغطية كالنبيق والشهوة ، والإراحات والشاغلة ، والغلات المتركة .
أما المريدون فإذا أغلقتهم سحاب الغفوة ، وسكن هيجان إرادتهم فنلك من الطرائق
التي عليهم .

وأما الزامدون فإذا تحرك بهم حرق الرغبة أنفلت^(١) قوة زهدهم ، وضعت دهم
صبرهم ، فبتر حصون الجنوح إلى بمص التأويلات ، فتعود رغباتهم قليلاً قليلاً ، وتختل
رتبة عزوفهم ، وتهدد دهم زهدهم ، وبداية ذلك من الطرائق التي خلق فوقهم .

وأما المارفون فرمما تظلمهم في بعض أحيائهم وقفة في تصاعد سرهم إلى ساحات الحقائق .
فيصعدون موقنين ريثا يتفضل الحق — سبحانه — عليهم بكفاية ذلك فيجدون فاذاً ،
ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق .

وفي جميع هذا فإن الحق سبحانه غير غافل عن الخلق ، ولا تارك للعباد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ۚ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ
بِهِ لَقَادِرُونَ ۝ ﴾

(١) أنفل = السيف ، وانفل = انقلب ، وانفل = انقلب = انهموا .

أُزِلَ من السماء ماء المطر الذي هو سببُ حياة الأرضين ، وذلك بقدرِ معلوم . ثم ..
البلادُ مختلفةٌ في السقي : فبعضها خصبٌ ، وبعضها جَدْبٌ ، وسنةٌ يزيدُ وسنةٌ ينقصُ ، سنةٌ
يفيضُ وسنةٌ يفيضُ .

كذلك أُزِلَ من السماء ماء الرحمة فيحيي القلوب ، وهي مختلفةٌ في الشرب : فمن موسعٍ
عليه وزقه منه ، ومن مُضَيِّقٍ مُقَاتِلٍ عليه . ومن وقتٍ هو وقت سحٍّ ، ومن وقتٍ هو
وقت حَبْسٍ .

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنُ النُصَاةِ وَأَكَارَ زُلَّتِيهِمْ وَأَوْشَارَ عَدْرَتِهِمْ ، وماء
هو سقى قلوبهم يزيل به عطشَ تَجْوِيمِ ، ويحيي به مَوَاتَ أَحْوَالِهِمْ ، فَتَنَبَّطُ في رياض قلوبهم
فنونُ أَزْهَارِ البسط ، وصنوفُ أنوار الروح . وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحت
الغرب ، فيزيل عنها به حَشَّةَ الوصف ، ويسكن به قلوباً فيمطلها عن التميز ، ويمهلها على
التجاسرِ يَبْذُلُ الروح ، فإذا شربوا طَرَبُوا ، وإذا طَرَبُوا لم يُبَالُوا بما وهبوا ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

كما يحيي بماء السماء الفياضَ والرياض ، ويصنّف فيها الأزهارَ والأنوارَ ، وتشر الأَشْجَارُ
وتجري الأنهار .. فكذلك يُمِيتُ القلوبَ بماء العرفان فتورق وتشر بعدما تزهر ، وتلوي
أَكْلَهَا : من طيب عيش ، وكآلِ بسطٍ ، ثم وفور هبة ثم دَوَّحِ أَسْرِ ، وتناجُرِ نَجَلٍ ، وهواند
قُرْبٍ .. إلى ما تنقاصر العباراتُ عن شرحه ، ولا تطمع الإشارات في حصره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْهَارِ كَيْفَرَةٌ
لَسَقِيكُمْ بِهَا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

الإشارات منه أَنَّ السكوراتِ المَاجِةَ لِإِخْرَاجِهَا وَلَا مَبَالَاةَ ، فَإِنَّ اللَّبْنَ أَغْلَاصَ السَّائِغِ
يُخْرَجُ مِنْ أَغْلَافِ الْأَمَامِ مِنْ بَيْنِ مَا تَطْوِي حَوَايِهَا عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْشَةِ ، لَكِنَّهُ صَافٍ لَمْ يُوَثِّرْ

(١) حتى لو كان ما وهبوه أرواحهم .

فيه منها بحكم الجوار ، وكذلك الصفه يوجد أكثره من عين الكسورة ؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حق ولا باطل . ومن أشرف على (سر) ^(١) التوحيد تحقق بأن ظهور جميع الحدثنان من التقدير ، فتسقط عنه كلمة التمييز ، فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يخبو .

« ولكم فيها منافع » : لازمة لكم ، وشمعية منكم إلى كل متصل بكم :

إني — على جفواتها — برها وبكل متصل بها متوصل

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ .

يحمضهم في السفينة في بحار القطرة ، ويحمضهم في سفينة السلامة والعصمة في بحار القدرة ، وإن بحار القدرة تنالطم أمواجها ، والناس فيها فرق إلا من يحفظه الحق — سبحانه — في سفينة العناية .

وصفة أهل الفلك إذا مسهم شدة خوف الفرق ما ذكر الله في قوله : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » ^(٢) كذلك من شاهد نفسه على شفا الملائكة والفرق ، والتجأ إلى صيدق الاستمارة ودوام الاستغاثة فمند ذلك يصحبه الحق — سبحانه — من مخلوقات التقدير . ويقال إن وجه الأرض بحار الفلك ، وما عليه الناس من أسباب التفرقة بحار مهلكة والناس فيها فرق ، وكما قال بعضهم :

الناس بحر حقيق واليمدو هم سفينة

وقد نصحتك فانظر لنفسك للسكينة

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

(١) موجودة في م وغير موجودة في ص .

(٢) آية ٦٥ سورة السجدة .

كَرَّرَ قِصَّةَ نُوحٍ لِمَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الْآيَاتِ مِنْ طُولِ مَقَامِهِ فِي قَوْمِهِ ، وَشَدِيدِ مِقَاسَةِ الْبِلَاءِ مِنْهُمْ ، وَتَمَامِ صَبْرِهِ عَلَى مَا اسْتَقْبَلَهُ فِي طُولِ عَمَرِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكِ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصْرَ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكِ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصْرَ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَفَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَمْ يَبَالِ — سَبِيحَانَهُ — بِأَنْ أَهْلَكَ جَهَنَّمِ . وَلَقَدْ ذَكَرَ فِي التَّقْصِصِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ نَبَا أَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ كَانِ لَهَا مَوْلُودٌ ، فَحَمَلَتْهُ وَطَلَمَتْ حَامِلَةً لَهُ تَرْضَعُهُ عَنِ الطُّوفَانِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ إِلَى يَدَيِهَا رَفَعَتْهُ إِلَى مَا فَوْقَ رَأْسِهَا — قَدَرًا مَا أَمْكَنَهَا — إِبْقَاءَ عَلَى وَلَدِهَا ، وَإِشْفَاقًا حَلِيَةً مِنَ الْهَلَاكِ ، إِلَى أَنْ حَقَبَهَا الْمَاءُ وَتَلَفَّتْ وَلَدَهَا . فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لَوْ أَنِّي كُنْتُ أَرْحِمُ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَرَحِمْتُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَلَدَهَا .

وَلِي الظُّهْرِ أَنْ نُوحًا كَانَ اسْمُهُ بِشْكَرٍ ، وَلِكثْرَةِ مَا كَانَ يَبْكِي أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : يَا نُوحُ .. إِلَى كَمْ نُوحٍ ؟ نَسَمَاهُ نُوحًا . وَيُقَالُ إِنَّ ذَنْبَهُ أَنَّهُ مَرَّ يَوْمًا بِكَلْبٍ فَقَالَ : مَا أَوْحَشَهُ ! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : اخْلُقِي أَنْتِ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ؛ فَكَانَ يَبْكِي مُتَذَرِّعًا عَنْ قَاتِلِهِ تِلْكَ . وَكَانَ قَوْمُهُ يَلْحَظُونَهُ بَيْنَ الْجَنُّونِ ، وَمَا زَادَ لَمْ دَعْوَةً إِلَّا أَزْدَادُوا عَنْ إِبْجَابَتِهِ نَبْوَةً ، وَمَا زَادَ لَمْ صَفْوَةً إِلَّا أَزْدَادُوا عَلَى طُولِ الْمَلَّةِ قَسْوَةً عَلَى قَسْوَةٍ .

وَلَمَّا حَمَلَ السَّفِينَةَ ظَهَرَ الطُّوفَانُ ، وَأَدْخَلَ فِي السَّفِينَةِ أَهْلَهُ ، تَرَضَّضَ لَهُ إِبْلِيسُ — كَمَا جَاءَ فِي الْقِصَّةِ — وَقَالَ : إِجْمَلِي مَعَكَ فِي السَّفِينَةِ ، فَأَبَى نُوحٌ وَقَالَ : يَا شَقِي . . . تَطْعَمُ فِي حِمْلِي إِيَّاكَ وَأَنْتِ رَأْسُ الْكُفْرَةِ ؟ !

فَقَالَ إِبْلِيسُ : أَمَّا حَلَمْتُ — يَا نُوحُ — أَنْ اللَّهَ أَنْظِرَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ يَنْجُو الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ ؟

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ أَنَّ أَحَدَهُ فَكَانَ إِبْلِيسُ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِابْنِهِ مَعَهُ مَكَانٌ فِي السَّفِينَةِ . (وَفِي هَذَا ظُهُورُ عَيْنِ التَّوْحِيدِ وَأَنَّ الْحُكْمَ مِنَ اللَّهِ غَيْرُ مَمْلُوكٍ) ^(١) لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَعْنَى أَنَّ ابْنَهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ لَهُ مَكَانٌ لِكُفْرِهِ فَبِإِبْلِيسُ يُشْكَلُ . . . وَلَكِنَّهَا أَحْكَامٌ غَيْرُ مَمْلُوءَةٍ ، وَجَازَ — سَبِيحَانَهُ — أَنْ يَقُولَ مَا يَرِيدُ : يَصِلُ ^(٢) مَنْ شَاءَ وَيَرُدُّ مَنْ شَاءَ

(١) مَا بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَمَوْجُودٍ فِي مَوْجِبِهِ مَوْجُودٍ لِي س -

(٢) وَوَدِدْتُ فِي (يَصِلُ) بِالضَّادِ وَنَحْنُ نَجِدُ (يَصِلُ) أَكْثَرَ انْسِجَامًا مَعَ الْمَعْنَى لِنَتَقَابَلَ (يَرُدُّ)

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً
وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ .

الإنزال المبارك أن يكون بالله والله، وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفاً
لأمر الله

ويقال الإنزال المبارك الاستعجاب بشهود الوصف عنك ، ثم الاستغراق باستيلاء
سلطان القرب عليك ، ثم الاستهلاك بإحراق أنوار التجلّي حتى لا تبقى عين ولا أثر ،
فإذا تمّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك ، لأنك بلا أنت . . بكليتك من
غير بقية أو أثر عنك .

قوله جل ذكره ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

تناهت القرون على طريقة واحدة في التكذيب ، وغرّم طول الاهمال ، وما مكثهم
من رقة العيش وتخفّض الدعة ، فلم يقبضوا إلا على أنفسهم ، ولم يتم لهم طرف إلى من
نورهم في الحال وللآخرة ، فقالوا : أنؤمن بمن يردد في الأسواق ، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟
ولئن أظننا بشراً مثلنا لسلكنا سبيل الفج ، وتكفينا سنة الرشد . فأجرهم الله
في الإهانة وإحلال العقوبة بهم بحري واحد ، وأذاقهم حذاب الخزي . وأعظم ما أدخلهم
من الشبهة والاستبعاد أمر الجيهر والنشر ، ولم يرتقوا لهم بأن الإعادة كالابتداء في الجواز
وعدم الانحالة ، والله يهدي من يشاء ويقوى من يريد .

ثم إن الله في هذه السورة ذكر قصة موسى عليه السلام ، ثم بعد قصة عيسى عليه السلام ،
وخصّ كل واحد منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الفاهرة (١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

كلوا من الطيبات مما أحلّ لكم وأباح ، وما هو محكوم بأنه طيب — على شريطة مطابقة

(١) تلاحظ هنا أن التشبيح قد اختصر الكلام فقفز إلى الآية . . دون تعمل أمام كل آية كما تعودنا منه

رُخصَبة الشريعة — مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً ما ذكروا لم فيه . وكذلك أهلهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بننون بطاعتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ .

معبودكم واحد ، ونبيكم واحد ، وشرعكم واحد ، فأتقوا في الأصول شرع سواه ، فلا تسلكوا ثلثيات الطرق (١) فتطيحوا في أودية الضلالة . وعليكم باتباع سلفكم ، واحذروا موافقة ابتداع خلفكم .

« وأنا ربكم فاتقون » خالفوا مخالفة أمرى ، واحذروا عظيم قدرى ، واحفظوا في جريان التقدير سيرى ، واستدعوا بقاؤكم ذكرى ، فهدوا في مآلكم غفرى ، وتحفظوا ببجيلة برى .
قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرُونَ ﴾ .

فستقيم على حقّه ، وتأنه في حقّه ، وتصرّ على خصيائه وفيضه ، وتقيم على إحسانه وصديقه ، كلُّ مربوط بهذه ، موقوف بما قضى له في البداية من شأنه ، كلُّ ينتحل طريقته ويؤدّي بحسن طريقته حقيقة ، وعند مصور سماء قلوب أرباب التوحيد لا غبار في الطريق ، وهم على بين معارفهم ، فلا ريب يتخالجهم ولا شبهة .

وأهل الباطل في عَمَى جهلهم ، وغبار جهنم ، وغلبة تقليدكم ، وعنه شككم ..

قوله جل ذكره : ﴿ فَذَرِكُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ .

إن مدة أخدم تربية ، والمقوبة عليهم — إذا أخذوا — لشديدة ، ولسوف يبين لهم خطوهم من صوابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَيْسَ بَيْنَ أُنْسَا نُفِيدُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ • لَارِعْ لَمْ فِي الْغِيَرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

(١) ثنية الطريق = متصلة .

هذا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحق بهم بتبليس للنجاح ؛ رَأَوْ سَرَابًا ظَنُّوهُ
شَرَابًا ، وَدَسَّ لَمْ فِي شَهْدِمٍ صَابًا فَنَوَمُوهُ عَذَابًا^(١) ، وَحِينَ لَقُوا عَذَابًا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ
يُضِلُّوا صَوَابًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ
تُشْفِقُونَ ﴾

أَمَارَةُ الْإِشْفَاقِ مِنَ الْخَشْيَةِ إِطْرَاقُ السَّرِيقَةِ فِي حَالِ الْوَقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ بِشَوَاهِدِ
الْأَدَبِ ، وَحَافِظَةُ بَقَاةِ الطَّرْدِ ، لَا يَسْتَرِبُّهُمْ قَرَارٌ لِيَا دَاخِلَهُمْ مِنَ الرَّعْبِ ، وَاسْتَوَلَى
عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانِ الْهَيْبَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمِنُونَ ﴾
تلك الآياتُ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَمِنْهَا مَا يُسَكِّفُونَ بِهِ فِي الْأَقْطَارِ مِنْ اخْتِلَافِ الْأَوْدَارِ ، وَمِنْهَا فِيهِ
النَّاسُ مِنْ فَنُونِ الْهَمِّ وَصُنُوفِ الثُّبُوتِ وَالْإِرَادَاتِ ، فَإِذَا آمَنَ الْعَبْدُ بِهَا ، وَاعْتَبَرَ بِهَا اقْتَنَعَ بِمَا يَرَى
نَفْسَهُ مُطَالِبًا بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾
يَدْرُونَ جُلَّ الشُّرْكِ وَخَبِيْثِهِ ؛ وَالشُّرْكَ الْغُلْفَى مِلَاحَظَةُ الْغُلْفَى فِي أَوَانِ الطَّاعَاتِ ،
وَالِاسْتِبْشَارُ بِمَدْحِ الْغُلْفَى وَقَبُولُهَا ، وَالْانْكَسَارُ وَالْقَبُولُ عِنْدَ اقْتِطَاعِ رُؤْيَا الْغُلْفَى .
وَيُقَالُ الشُّرْكَ الْغُلْفَى إِحَاةُ النَّادِرِ مِنَ الْحَالَاتِ — فِي السَّارِ وَالنَّصَارِ — عَلَى الْأَسْبَابِ
كَقَوْلِ الْقَائِلِ : « لَوْلَا دَعَاؤُكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ » وَ « لَوْلَا هِمَّةُ فُلَانٍ لَمْ أَفْلَحْ » . . . وَأَمْثَالُ
هَذَا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَا يَزْنِ أَكْثَرُكُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٢) .

وَكَذَلِكَ تَوْحُّدُ حُصُولِ الشِّفَاءِ مِنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ .

فَإِذَا أَتَيْنَ الْعَبْدُ بِسِرِّهِ أَلَا شَيْءٌ مِنَ الْخُدَعَاتِ ، وَلَمْ يَتَوَعَّذْ ذَلِكَ ، وَأَيُّقِنُ أَلَا شَيْءٌ إِلَّا مِنْ
التَّقْدِيرِ فَهَذَا ذَلِكَ يَبْقَى عَنِ الشُّرْكِ^(٣) .

(١) الْجِدَابُ جَمْعُ هَذَبٍ وَهُوَ السَّائِعُ مِنَ الطَّامِ وَالْهَرَابُ وَنَحْوُهَا (الْوَسِيطُ) .

(٢) آيَةُ ١٠٦ سُورَةِ يُوسُفَ .

(٣) أَيُّ أَلَا الشُّبُهَى لَا يُشْكِرُ الْأَسْبَابَ وَلَكِنْ يَتَنَبَّهُ عَلَى مَنْ يَتَوَعَّذُ أَنْ مِنَ الْخُدَعَاتِ شَيْئًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ أُولَئِكَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾

يُخْلِصُونَ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ الْإِثْمِ بِتَقْصِيرٍ ، أَوْ تَرْجِيحٍ فِي أَوْطَانِ الْكَسَلِ ، أَوْ جُنُوحٍ
إِلَى الْأَسْتِرْوَاحِ بِالرَّخْصِ . ثُمَّ يَخَافُونَ كَأَنَّهُمْ أَكْبَرُوا بِالْفَوَاحِشِ ، وَيَلْحَظُونَ أَحْوَالَهُمْ بَيْنَ
الْإِسْتِصْفَاءِ ، وَالْإِسْتِغْفَارِ ، وَيَخَافُونَ بَقَايَا التَّقْدِيرِ ، وَقَضَايَا السَّخَطِ ، وَكَأَقِيلٍ :

يَتَجَنَّبُ الْإِثْمَ ثُمَّ يَضَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ أَمْتَانٌ

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُولَئِكَ يُسَارِعُونَ ^(١) فِي الْخَيْرَاتِ
وَمَا سَابِقُونَ ﴾

سُارِعٌ بِقُدْرَتِهِ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَاتِ ، وَسَارِعٌ بِهَيْمَتِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَوَاصِلَاتِ ، وَسَارِعٌ
بِنِدْمَتِهِ مِنْ حَيْثُ نَجْمِ الْحَسَرَاتِ ، وَالْكُلُّ مُصِيبٌ ، وَكُلُّ مِنْ إِقْبَالِهِ — عَلَى مَا يَلِيقُ
بِحَالِهِ — نَصِيبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا
كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

الْمَطَالِبَاتُ فِي الشَّرْعِ مُصَنَّفَةٌ بِالسَّهُولَةِ ، وَأَمَّا مَطَالِبَاتُ الْحَقِيقَةِ فَكَمَا ظَلَمُوا : لَيْسَ إِلَّا بِذَلِّ
الرُّوحِ ، وَلِهَذَا فَمَنْ لَا تُشْغَلُهُمُ التَّرَهَّاتُ ^(٢) . قَالَ لِأَهْلِ الرِّخْصِ وَالْمُسْتَضْمِنِينَ فِي الْحَالِ :
« وَمَا جِئْتُ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ^(٣) ، وَأَمَّا أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ ؛ فَقَالَ : « وَإِنْ تُبَدِّلُوا
مَا لِي أَنْفُسَكُمْ أَوْ تَخَفَوْهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ » ^(٤) وَقَالَ : « وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » ^(٥) ،
وَقَالَ : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » ^(٦) .

(١) لِي سَ أَخْطَأُ النَّاسِخَ إِذَا زَادَ (لَهُمْ) بَدَأَ يُسَارِعُونَ .

(٢) التَّرَهَّاتُ جَمْعُ تَرَهٍّ وَهِيَ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا نَفْعَ فِيهِ ، أَوِ الطَّرِيقُ الصَّمِيمَةُ الْمُنْتَهِيَةُ مِنَ
الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ .

(٣) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

(٤) آيَةُ ٢٨٤ حُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(٥) آيَةُ ١٥ سُورَةِ التَّوْبَةِ .

(٦) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

قوله : « ولدينا كتابٌ ينطق بالحق ، وهم لا يظلمون » : فولا غفلتهم عن تواضع الحقيقة لما خفهم بكتابة التلخيص ، ولكن غفلوا عن شهود الحق خوفاً منهم بإطلاع الملائكة ، وكتابتهم عليهم أعمالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هٰذَا ، وَلَمْ أَحْمَلْ مِّنْ دُونِ ذٰلِكَ مِمَّا لَهَا عَٰبِدُونَ ﴾

لا يَصْلُحُ لهذا الشأن ^(١) إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال ، لا شغل له في الدنيا والآخرة ، فأما مَنْ له شغلٌ بدنيّاه ، أو على قلبه حديثٌ عقيده ، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه ، وفي الظاهر « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنيّاهم ، وأرباب الآخرة مشغولون ببقائهم ، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلاياهم ، وإن الذي له في الدنيا والآخرة غير مولاه - حين الفراغ - جزيء ، قال تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغلٍ فاكهون » ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ حَقٌّ اِذَا اخْتَلَفْنَا فَمُنْقَرِعِينَ بِالْمَدَآئِنِ اِذَا مِمَّ يَجْسَرُونَ ﴾

إنه - سبحانه - يُنْزِلُ ولكنّه لا يُهْلِلُ ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْهُ شَيْدٌ ، قال تعالى : « إن يمشن ربك لشديد » ^(٣) فَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَهْلاً الْكِبَارَ - حين يحل بهم الانتقام - في الجواب ودوا في الموان ، ويقال لهم :

﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ لَكُمْ مَنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴾

فإذا افضل من السبِّ حُكْمٌ فلا مردّ لتفديره .

(١) هذا الشأن يقصد به طريق رباب الأحوال

(٢) آية ٥٥ سورة يس .

(٣) آية ١٢ سورة القبرج .

وقال لعناية سرية ، فإذا أمسك الجاني عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يحض حكم السرية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَانَ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَكَفَرْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ مستكبرين به سامعاً تهجرون به

ذكر هذا من باب إملاء المُنذِر ، وإلزام الحجة ، والقطع بالألّا ينفع - الآن - الجزع ولا يُسمع المُنذِر ، والملك إذا أمروا بحكما ، والاستغاثه غير مؤثرة في الحاصل منهم ، قال تالهم :

إذا انصرفت نفسي من الشيء لم تكذب إليه بوجه - آخر الدهر - تفصيل
قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْلَمَ يَدُورُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ يَا بَنِي آدَامَ الْأَوَّلِينَ ﴾

يعني أنهم لو آمنوا بالنظر ، وسلطوا على أحوالهم صائب الفكر لاستبصروا في الحال ، ولاتقن من قلوبهم الاستعجاب والإشكال ، ولكنهم استوطنوا مركب الكسل ، وعرجوا في أوطان التباقل ، فتمودوا الحبل ، وأيسوا من الاستبصار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾

دُهِلُوا عن التحقيق فَتَطَوَّحُوا في أودية المغاليط ، وَرَبَّجَتْ بِهِمِ الظُّلُومُ انْطِلَاطَهُ ، وَمَلَكَّتْهُمْ كَوَاضِبُ التَّنْذِيرَاتِ ^(١) ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ (الرَّسُولَ) ^(٢) مِنْ أحوالهم ؛ فَرَفَعْنَا عَلَيْهِ بِالتَّكْذِيبِ ، وَمَرَّةً زَمَوْهُ بِالسَّحْرِ ، وَمَرَّةً عَابَهُ بِتَعَالِيهِ أفعال المأذون بما عليه الناس من المأكَل والمشارب ، وَمَرَّةً قَدَّحُوا فِيهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْقَرِّ وَقَلْبَرِ ذَاتِ الْيَدْرِ ... فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ تَشْتَتُّ أحوالهم ، وَتَقَسُّمِ أفعالهم

(١) مكنى في مآل في (التقدير) ونحن نرجح الأول حق يقتصر إطلاق (التقدير) بالمراد على الفعل الإلهي أما هنا فهي (التنذيرات الإنسانية) أي بالقرآن .
(٢) السبيل يتطلب وجود كلمة (الرسول) وهي غير موجودة في النص الحقيقي وصفا ما من عندنا لنيسج الأسلوب .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْ أَنِيعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
بَلْ أَنِينَامُ بِذِكْرِكُمْ فَهُمْ مِّنْ ذِكْرِكُمْ
مُتَعَرِّضُونَ﴾

وذلك لتضاد مُتَاهُمْ وأهوائهم ؛ إذ هم متشاكسون في السؤال والمراد ، وتحصيل ذلك مُحال
تقديره في الوجود . قَبِيْنُ الله — سبحانه — أنه لو أجرى جُكُنْه على وفق مرادهم لاختلَّ
أمر السموات والأرض ، ولخرجَ عن حدِّ الإحكام والإتقان .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَمَّا سَأْلُهُمْ فَبِمَا خَرَجُوا مِنْ دُونِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
وَهُوَ خَيْرٌ لِّلرَّازِقِينَ﴾ .

أى إنَّكَ لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجر ، ولا بإعطاء مَوْضِعٍ حتى تكون موضع
التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة . أم لَسَّكَ تريد أن يَتَعَدَّوْا لك الرِّبَا . ثم قال : والذي لك
من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن اللآب يُغْنِيكَ عن التصدَّى لتبلي ما يكون في حصوله
منهم مطمع . وهذا كان سُنَّةُ الأنبياء والمرسلين ؛ حملوا الله ولم يطلبوا أجراً من غير الله .
والعلاء وَرَثَةُ الأنبياء فيسبِّحهم التَّوَقُّعُ عن التَّدْنُسِ بالأطع ، والأكل بالدين فإنه رِيَاءٌ مُّضِرٌّ
بالإيمان ؛ فإذا كان العمل لله فالأجر مُنْتَظَرٌ من الله ، وهو موهودٌ من رِقْبِ الله (١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَنَّكَ كَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

الصراط المستقيمُ شهودُ الرب بنمت الأفراد في جميع الأعياء ، وفي الإيجاد ، والاستسلام
لقضاء الإلزام بمواطاة القلب من غير استكراؤ الحكم .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ هُمُ
الصِّرَاطُ لَنَا كَيُونُ﴾ .

(١) للتشعير هنا يبدو بالمرأف كثير من الوطأ المحترفين الذين اعتلوا بهم عصره ، ومنذ عهد الحسن
البحري — الذي طالما نبه إلى خطورة هذا الأمر — ونحن نسع هذه العيبة ناهية ما آل إليه أمم المحترفين
إلى التهاوت والتهاك على أطراف الدنيا الزائفة .

زأغوا عن الحجة المثلى بقاؤهم فوقوا في جميع الفرقة ، وستميل ونزل أقدامهم غداً
عن الصراط ، فيقومون في نار الحرقه ؛ فهم ناكبون في دنياهم وعقباهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طغيَانِهِمْ يَسْمُوهُمْ ﴾ .

أخبر عن صادق علمه بهم ، وذلك صادر عن سابق حُكْمِهِ فِيهِمْ ، فقال : لو كشفنا عنهم
في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المال ، ولقد عَلِمَ أَنَّهُمْ سَيَكْفُرُونَ ، وَحَكَمَ
عليهم بأنهم يكفرون ؛ إذ لا يجوز أن يكون حُكْمُهُ فِيهِمْ بِخِلَافِ عَلَيْهِ ^(١) بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْمُنَافِ فَاسْتَكَاثُوا
لَهُمْ وَمَا يَنْصُرُهُمْ ﴾ .

أَذَقْنَاهُمْ مَقْدَمَاتِ الْمُنَافِ دُونَ شِدَائِهِ . . تنبيهاً لهم ، فَا اتَّبِعُوا وَمَا اتَّزَجَرُوا ، وَلَوْ أَنَّهُمْ
إِذْ رَأَوْا الْمُنَافِ فَرَّعُوا إِلَى التَّضَرُّعِ وَالْإِبْتِهَالِ لِأَسْرَعِ زَوَالِهِ عَنْهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ أَمْسَرُوا عَلَى
بَاطِلِهِمْ ، رِيْقَضَى اللَّهُ أَمْرًا كَأَن مَفْعُولًا .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ
شَدِيدٍ إِذَا فِيهِ مُؤَلِّسُونَ ﴾

لَمَّا أَجَلْنَا بِهِمْ أَشَدَّ الْعُقُوبَاتِ صَعُفُوا عَنْ تَحَمُّلِهَا ، وَأَخَذُوا بِقَنَةٍ ، وَلَمْ يَنْفَعِهِمْ مَا قَدَّمُوا
مِنَ الْإِبْتِهَالِ ، فَيَكْسِرُوا عَنِ الْإِجَابَةِ ، وَهَرَجُوا فِي أَوَّلَانِ الْقَنُوطِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

ذَكَرَ عَظِيمَ مَنِّهِ عَلَيْهِمْ بِأَن خَلَقَ لَهُمْ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ ، وَطَالَ بِهِمُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا .
وَشَكَرْتُمْ عَلَيْهَا اسْتِمْلَافًا فِي طَاعَتِهِ ؛ فَشَكَرُ السَّمْعِ أَلَّا تَسْمَعَ إِلَّا بِاللَّهِ وَهُوَ ، وَشَكَرُ
الْبَصَرِ أَلَّا تَنْظُرَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَشَكَرُ الْقَلْبِ أَلَّا تَشْهَدَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَالْأَنْفِ بِهَا
غَيْرَ اللَّهِ .

(١) هنا التمييز بين الحكم والملك له أهميته الكبيرة في قضية التذکر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الْقَيُّومُ ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴾

الابتداء للحادثات من الله بدءاً ، والانهاء إليه هوداً ، والتوحيد ينتظم هذه المائى ؛
تتصرف أنَّ الحادثات بالله ظهوراً ، والله ملكاً ، ومن الله ابتداء ، وإلى الله انتهاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الْقَيُّومُ يُعِى وَيُمِيتُ ، وَلَهُ
اِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴾

يُعِى النفوس وَيُمِيتُ والمعنى فى ذلك معلوم ، وكذلك يعِى القلوب ويمِيتُها ؛ فموتُ
القلب بالكفر والجحد ، وحياة القلب بالإيمان والتوحيد ، وكأنَّ القلوب حياة وموتاً
فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ ، لحياة الأوقات بين إقباله ، وموت الأوقات بمحنة
إمراضه ، وفى معناه أنشدوا :

أَمُوتَ إِذَا ذَكَرْتُكَ تَمَّ أَحِبَّا فَمَكَّ أَحِبَّا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتَ

قوله : « وله اختلاف الليل والنهار » ؛ فليس كل اختلافها فى ضيائها وظلمتها ، وطولها
وقصرها ، بل ليلال الحيين تختلف فى الطول والقصر ، وفى الروح والنوح ؛ فَمِنَّ اللَّيَالِى
ما هو أضوأ من اللَّائِى ، ومن النهار ما هو أشد من الحفادس ، يقول قائمهم : ليلال بعد
الظاعنين شكول .

ويقول قائمهم :

وَكَمَّ لظلام الليلِ عِنْدِي مِنْ تَخَبُّرٍ أَنَّ الْمَاتِيَةَ تَكْذِيبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا :

ليالى وصالي قد مَضَيْنَ كَأَنَّها لآلى حقودٍ فى نهور الكواعبِ
وأيامٌ هَجَرٍ أَعَقَبَتْها كَأَنَّها بياضٌ مشبِير فى سواد اللوابِ

قوله جل ذكره : ﴿يَلْزَمُ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ *
قَالُوا أَمِئذًا مِثْنًا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظَامًا
أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لقد وَعِدْنَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

سلكوا في التكذيب مَسَلَكَ سَلَكْنَاهُمْ ، وأسرفوا في الضاد مثل سَرَفْنَاهُمْ ، فأصاب
ما أصاب الأولين من هلاكهم وتَلَفْنَاهُمْ .

قوله : « لقد وعدنا ... » كَمَا طَال عَلَيْهِمْ وَقْتُ الْحُشْرِ ، وما توقعدهم به من
العذاب بعد البعث وَالْفُشْرَ زَادَ ذَلِكَ فِي أَرْتِيَابِهِمْ ، وجعلوا ذلك حُجَّةً فِي كُتُبِهِمْ واضطربهم ،
فَقَالُوا : لقد وَعِدْنَا مِثْلَ هَذَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لِنَاكَ تَحْقِيقٌ ، فَا نَحْنُ إِلَّا أَشْهَابٌ .
فَاجْتَنَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي جَوَازِ الْحُشْرِ بِمَا أَقْرَأُوا بِهِ مِنْ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ :

فَقَالَ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا
تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مَلَكُوتُ
كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾

أَمَرَهُ — عليه السلام — أَنْ يُلَوِّنَ عَلَيْهِمُ الْأَمثلةَ ، وَعَقَّبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ
— مُخْبِرًا عَنْهُمْ — أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ : اللَّهُ ، ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِقَالَئِهِمْ تِلْكَ ، بَلْ عَاتَبَهُمْ عَلَى

نجرّد قولهم عن التّدكّر والفهم والعلم ، تنبيهاً على أن القول — وإن كان في نفسه صدقاً — فلم تكن فيه غنية ؛ إذ لم يصدر عن علم و يقين .

ثمّ نبههم على كمال قدرته ، وأنّ القدرة القديمة إذا تعلّقت بمقدوره ضدّ تعلّقت بصدّه ، ويتعلّق بمثل متعلّقه .

والعجب من اعترافهم بكمال أوصاف جلّله ، ثمّ تجويزهم عبادة الأصنام التي هي جمادات لا محيا ، ولا تضرّ ولا تنفع .

ويقال أولاً قال : « أفلا تدكرون » ، ثمّ قال بعده : « أفلا تتقون » ، فقدّم التّدكّر على التقوى ؛ لأنهم بتذكّرهم يصلّون إلى للفترة ، ثمّ بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاء مخالفته . ثمّ بعد ذلك قال : « فأتى تسحرون » ؛ أي بعد وضوح الحجة أتى شك بقي حقّ تنسبوه إلى السحرة ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَا اخْتَفَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْإِلَهِ ﴾

اختاذ الأولاد لا يصحّ كاختاذ الشريك ، والأمران جميعاً داخلان في حدّ الاستعانة ، لأن الولد أو الشريك يوجب للسواة في القدر ، والصدقية تنقدّس من جواز أن يكون له مثل أو جنس .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا لَدَّعَبَ كُلُّ لَدٍّ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانَ اللَّهِ مَا يَصْنَعُونَ • هَالِكِ النَّبِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَمَالِ مَا يُشْرِكُونَ ﴾

سُئِلَ لِمَ رُيِّعَ ابْنَيْنِ فَقَدْ اتَّفَقَ عَنْهُ النَّظَامُ وَصَحَّةُ التَّرْتِيبِ ، وَأَدْعَى التَّحَالُفَ مَذْكُورَ
فِي مَسْأَلَةِ الْأَصُولِ .

« سُبْحَانَ اللَّهِ » تَقْدِيسًا لَهُ ، وَتَفْزِيحًا عَمَّا وَصَفُوهُ بِهِ . « عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » : تَنْزَعٌ عَنْ
أَوَّلِهِمْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَظَنُونِ مَنْ أَرَادَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرَيَّنِي مَا يُؤْخَذُونَ ﴾
يقول إن جعلت لهم ما توعدهم به فلا يجعلني في جنتهم ، ولا توصل إلي صومًا مثلما
توصل إليهم من عقوبتهم . وفي هذا دليل على أَنَّ لَعْنَهُ أَنْ يَضِلَّ مَا يَرِيدُ ، وَلَوْ هَذَبَ الْإِسْرَءِيلَ
لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ ظُلْمًا وَلَا قَبِيحًا ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيَاكَ مَا تَعِدُّهُمْ
لَقَادِرُونَ ﴾

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عُلِمَ ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَجْهِيلِ عَقُوبَتِهِمْ
فَلَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَكُفِّتِ الْقُدْرَةُ عَلَى خِلَافِ الْمَعْلُومِ ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السِّتَةِ ﴾
أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ

الميزة في « أحسن » يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْمِثَالَةِ ؛ وَيَكُونُ الْمَعْنَى إِدْفَعِ بِالْحَسَنِ السِّتَةَ .
أَوْ أَنَّ تَكُونَ لِلْمِثَالَةِ ؛ فَتَكُونُ الْمَكَاافَةُ جَائِزَةً وَالْفَوْزُ عَنْهَا — فِي الْحُسْنِ — أَشَدَّ مِثَالَةً .

وَيُقَالُ ادْفَعْ الْجَهْلَ بِالْعِلْمِ ، وَجَرَّمَ أَهْلَ الصِّيَانِ بِحُكْمِ الْإِحْسَانِ .

وَيُقَالُ ادْفَعْ مَا هُوَ خَطَرُكَ إِذَا حَصَلَ مَا هُوَ جَوِّقُ لَهُ .

وَيُقَالُ اسْلُكْ سُلُوكَ الْكَرَمِ ، وَلَا تَجْنَحْ إِلَى طَرِيقِ الْمَكَاافَةِ .

(١) لِأَنَّ أَعْمَالَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَمُوتُ بِالْأَفْرَاسِ ، لِذَلِكَ لَا يَسُودُ عَلَيْهِ سِبْطُهُ مِنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ مَصْلَحَةٍ .

(٢) فِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُنْزِلَةِ لِلتَّائِلِينَ بِإِنْكَارِ الصِّفَاتِ ، إِذْ يَتَضَعُ أَنَّ صِفَةَ الْعِلْمِ مُتَبَيِّنَةٌ عَنْ صِفَةِ
الْقُدْرَةِ ، فَالْإِسْمَاءُ — وَمِنْهُمْ الْقُدْرَةُ — حِينَ يَتَّبِعُونَ الصِّفَاتِ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْمَعْنَى اللَّائِيَّةَ بِذَاتِهِ ، وَمِنْ مَعَانٍ
وَأَنْ تَتَوَعَّدَ فَيَكُونُ طَوَارِئُ ، عَلَى الْقَادَاتِ ، وَإِنَّمَا النَّاتِجُ لَاحِقُهُ بِهَا .

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القلبُ ، والسيئةُ ما تنمى إليه النفسُ .

ويقال الأحسنُ ما كان إشارة الحقيقة ، والسيئةُ ما كان بوساوس الشيطان .

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائق ، والسيئةُ ظلمةُ الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ

الشياطين ﴾ . وأعوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَهْمَزُونِ ﴿

الاستعاذة — على الحقيقة — تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم :
« أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ »^(١) ، ولكنه — سبحانه — أراد أن تُقْبَلَهُ بالاستعاذة به من الشيطان ،
بل مِنْ كُلِّ ما هو مُسَلِّطٌ علينا ، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مفرتنا بجمري العادة .
والأمر . فلو كان بالشيطان من إغواء الخلق شيء لكان يُمكنك على الهداية نفسه ! فمن
صبر عن أن يَهْمِزَ نفسه كان من إغواء غيره أشدَّ همزاً ، وأشدَّ :
جسدي فيك تليس وعقلي فيك تهويس .

فَقَسْ أَدَمَ إِلَهُهُ وَمَنْ فِي (...) (٢) إِبْلِيسَ

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَحَدَهُمُ لِلوْتِ قُلْ

رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ . لَعَلَّ أَحَدٌ سَالِحًا

فِيَّا زَكَّيْكُمْ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ

قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى

يَوْمٍ يُعْتَقُونَ ﴿

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمَعَالِكَ مِنْ عِقَابِكَ » .
مسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والبيهقي ، والترمذي .

(٢) في م (الب) ، وفي م (آقبن) ، والبيتان للحلاج في الطواصين ص ٤٦ وفي ديوانه (المقطعة الثامنة
والعشرون) جاءت البين ، والحق أن آدم الذي خلقته من طين هو سبب بلقيس فسجودى له سجوداً لم يترك .
وفي البيتين بعض الموهوم والسطح ، ولهذا نجب من استبعاد التفسير بها . ونحن نلاحظ أنه بينما لم يكتب
التفسير في رسالته شيئاً عن سيرة الحسين بن منصور الحلاج إلا أنه طالما يلقبهم بأقواله شراً وتراً ..
وقد عشنا لذلك في كتابنا « الإمام التفسيرى ونصوه » ط مؤسسة الحلبي .

إذا أخذ البلاء بمنافعهم ، واستكن الضرب من أحوالهم ، وعلواً ألا يحصى ولا يحيد
أخذوا في التضرع والاستكاث ، ودون ما يرومون خرواً القتاد ! ويقال لهم هلاً كان عثراً
مشر هذا قبل هذا ؟ وقد قيل :

قلتُ قنصر : إن أردت رجوماً طارجي قبل أن يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ
بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴾ .

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطع الأسبابُ ، ولا ينفع النعم ، وسيلقى كلُّ رغبٍ ما اجرم ؛
لَنْ تُفْلِتَ بطهرات موازينه لاح عليه تزيينه . ومن ظنَّ ما يشينه لله من البلاء فوه ،
تلفح وجوههم النار ، وتلفح من شواهدم الآثار ، ويتوجه عليهم الحجاج ، فلا جواب لهم
يُسْمَعُ ، ولا عذر منهم يُقْبَلُ ، ولا عذاب عنهم يُرْفَعُ ، ولا عقابُ عنهم يَقْطَعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّخَذُوا مِنْكُمْ هُمُومًا وَعَلَيْنَا شِغْرًا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ .

فتلقوا بالحق ... ولكن في يومٍ لا ينفع فيه الإقرار ، ولا يُقْبَلُ الاعتذار ،
ثم يقولون :

﴿ وَبِئْسَ الْأَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَلَا ظَلْمَ لَنَا ﴾ .

والحق يقول : لو ردُّوا لما سُوءوا عنه . عليمٌ أنَّ ردِّهم إلى الدنيا لا يكون ، ولكنه
عليمٌ أنَّه لو كان فكيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّخَذُوا مِنْكُمْ هُمُومًا وَعَلَيْنَا شِغْرًا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ .

عند ذلك يتم عليهم البلاء ، ويشتدُّ عليهم العناء ، لأنهم مداوموا يذكرون الله لم يصل
الفراق بالكلية ، فإذا جيلٌ بينهم وبين ذكره تم لهم الهنة ، وهو أحد ما قيل في قوله
ولا يميزهم الفزع الأكبر ،^(١) .

(١) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

وفي الظلم : أنهم يتصرفون بعد ذلك فإذا لم يحواكموا الأذى . وبض الناس ثلث
من أحوالهم ؛ لأن الحق يقول لم : « اخشوا فيها » ، فيقولون : يا ليتنا يقول لنا أليس
هو يخطئنا بذلك ؟ وهؤلاء يقولون : قدّم الأجلب الله من مدح الأجانب ، ويشعرون
في هذا المعنى :

إتاني عنك سُبُكٌ لي .. ضُيِّبُ أليس جرى بينك اسمي ؟ تخشع

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّه كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ حِبادِي يَقُولُونَ
رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارحمْنَا وَأَنْتَ
خَبِيرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فانفذهم سخرية
حق أنسوكم ذكرى وكنتم منهم
تضحكون • إني جزيتهم اليوم بما
صبروا أنهم هم الفائزون •

الحق — سبحانه — ينتقم من أعدائه بما يطيب به قلوب أوليائه ، وتلك خصومة الحق ،
فيقول : قد كان قوم من أوليائي يُنصِّحون بدمي وثأني ، ويتصنون بدمي وإطرائي ،
فانفذهم سخرية ... فأنا اليوم أجزيهم ، وأنتقم من كل يائسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدُدَ
سِنِينَ • هَؤُلَاءِ لَبِثُوا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمِ هَؤُلَاءِ الْعَالَمِينَ • قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا أَوْ أَنْتُمْ كَتُمُ تَعْبُونَ •

عددُ سنين الأشياء — وإن كانت كثيرة — قد تهمز أو تُل بالإضافة إلى ما يوفى
وعُرِّيَ في حليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ؛ وإن كانوا في الراحة قد تُل بالإضافة إلى
الراحات التي يلقونها في القيامة ، وإن كانت شديدة فتتلاشى في جنب ما يورثه ذلك اليوم من
ألم تلك العوالم المتوالية .

قوله جل ذكره: ﴿ اَقْبِسْكُمْ اَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ صِفَاتٍ
وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

الميثُ البهر ، والحبُّ والاشتغالُ بما يُلَوِّسُ عن الحقِّ ، واللهُ لم يأمر العبادَ بذلك ،
ولم يَدْعُهُمْ إلى ذلك ، ولم يَنْدِهِمْ إليه .

والمابِثُ في فعلِهِ مَنْ فَعَلَهُ على غيرِ حدِّ الاستقامة ، ويكونُ هَازِلًا مُسْتَجْلِبًا بفعله أحكامَ
البهر إلى نفسه ، مُبَادِيًا في سهوه ، مُسْتَلِذًا التفرقة في قصده . وكلُّ هذا من صفات ذوى
البشرية ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ التَّعْتُ عن هذه الجِلَّةِ ، فلا هو بِفِعْلِ شَيْءٍ عَابِثٍ ،
ولا بِشَيْءٍ مِنَ الْمَبِثِّ أَمِيرٌ .

قوله جل ذكره: ﴿ فَتَسَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ .

الحقُّ — بنعمتِ جلاله — مُتَوَحِّدٌ ، وفي عِزِّ آزاله وأوصافه مُتَفَرِّدٌ ، فَذَاتُهُ حَقٌّ ،
وصفاته حَقٌّ ، وقوله صِدْقٌ ، ولا يَتَوَجَّهُ لِمَخْلُوقٍ عليه حَقٌّ ، وما يفعله من إحسانٍ بعباده فليس
شَيْءٌ منها بِمَسْتَحَقٍّ ^(١) .

« لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » : ما تَجَمَّلَ بالعرشِ ، ولكنْ تَعَزَّزَ العرشُ
بأنه أضافه إلى نفسه إضافةً خصوصيةً .
والكريمُ الْحَسَنُ ، والكريمُ نَفَى الدنائة .

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
لَا يَرْهَأَنَّ لَهُ بِهِ إِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

حسابُهُ على اللَّهِ في آجِلِهِ . وعنايُهُ من اللَّهِ له في طابِعه ، وهو الجِهلُ الذی أودَعَ قلبه
حتى رَضِيَ بِأَنْ يَعْبُدَ مَعَهُ غَيْرَهُ . وقولهم : « ما نعبُدُ إِلَّا لِيُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » كلامٌ

(١) من هذه العبارة أنه لا يجب على الله شيء في إحسانه لعباده ، فهو إذا أحسن إليهم فهذا من فضله ،
وليس نتيجة وجوب على الله أو حق عليه .

حاصل من غير دليل عقل ، ولا شهادة خبر أو قل ، فما هو إلا إنك وبينان ، وقول ليس بإمامه برهان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وَأَنْتَ خَبِيرٌ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

اغفر الذنوب ، واستر السيوب ، وأجزل الموهوب . وارحم حتى لا تستولى علينا هواجيم التفرقة ونوازل الخطوب . والرحمة المطلوبة بالنظام من صنوف النعمة ، ويسى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز (١) .

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

بسم الله اسم تذكير الوافق لفرقته ، اسم بشيد الحياة وصلته ، اسم حبيب الروح حرقته ، اسم راحة الروح إحصائه ، اسم كمال الأنس إقباله ، اسم فتنة طوبى المهتئين جماله ، اسم من شؤده دامت سلامته ، اسم من وجدته قامت قيمته ، اسم لا إليه حظوة ، ولا يهونه سلوة .

قوله جل ذكره : ﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ .

سورة هي شرف لك — يحمده — أنزلناها لأن أقل ما ورد به التحدى سورة (٢) ، فشكل سورة شرف له عليه السلام لأنها له معجزة ، ينشأها وشرعنا فيها من الحلال والحرام ، وبيننا (فيها من الأحكام ما) (٣) لكم به اعتناء ، ولقلوب من غيرة الاستعجاب شفاء .

أنزلنا فيها آيات بينات ، ودلائل واضحة ، وحججاً لأشعات ، لتذكروا تلك الآيات ، وتنبهوا بما فيها من البراهين والبيّنات .

(١) لأن الرحمة — في الأصل — وصف للذات ، والصفة من صفات القبل .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » ، وإلى قوله تعالى في سورة يونس : « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْتَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

(٣) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

قوله جل ذكره : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ .

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة ، ولكن جعل إثبات أمره وتقرير حكمه والقطع بكونه على أكثر الناس خصلة عسيرة بعيدة ، إذ لا تقبل الشهادة عليه حتى يقول : رأيت ذلك منه في ذلك منها ؛ وذلك أمر ليس بالمعين ، فسبحان من أعظم العقوبة على تلك النعمة الفحشاء ، ثم جعل الأمر في إثباتها بناية الكثرة والعناء ؛ وحين اعترف واحد له بذلك قال له صلى الله عليه وسلم : لعلك قبلت .. لعلك لا مست ، وقال لبعض أصحابه : « استكبره » (١) وكل ذلك روماً ليدرك الحد عنه ، إلى أن ألح وأصر على الاعتراف .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾

ما يأمر به الحق ففراجب مقابلته بالسع والطوع .

والرحمة من موجب الشرع وهو المحمود ، فأما ما يقتضيه الطبع والعادة والسوء فمذموم غير محمود . ونهى عن الرحمة على من خرق الشرع ، وترك الأمر ، وأساء الأدب ، وانتصب في مواطن المخالفة .

ويقال ثمانا عن الرحمة بهم ، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم — بشك النعمة الفحشاء — رقم الإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢) ولولا رحمة لما استبقى عليه حلة إيمانه مع قبيح جرمه ونسبائه .

(١) وردت الإشارة إلى حادث « مامر » في هامش سبق ، وقوله « استكبره » أي اجنأ هل في له ربح الخمر ، وبهذا سألته النبي للمرة الأخيرة « أذيت ؟ فقال نعم . فأمر به فزجر » صحيح مسلم ط أول سنة ١٩٣٠ م المصرية بالأزهر ج ١١ ص ١٩٩ .
(٢) عن أبي سلفة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب أنها قالوا : من أبي هريرة أن النبي (ص) قال (لا يزني ... ولا يفرق السارق حين يفرق وهو مؤمن ولا يفرق الخمر حين يفرقها وهو مؤمن) صحيح مسلم ج ٢ ص ٤١ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أَي لِيَكُونَ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ ، وَلِيَكُونَ نَجْوًى لِّمَتَاعِ ذَلِكَ الْفِعْلِ ، ثُمَّ مِنْ حَقِّ الْقَدِيرِ يَشْهَدُونَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ أَنْ يَذْكُرُوا عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، وَكَيْفَ عَصَمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . وَإِنْ جَرَى مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَذْكُرُوا عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ كَيْفَ سَتَرَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَفْضَحْهُمْ ، وَلَمْ يُنَبِّهِمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّتِي أَظْلَمَ فِيهَا هَذَا التَّبَتُّلُ بِهِ . وَسَبِيلُ مَنْ يَشْهَدُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ أَلَّا يُعَيَّرَ صَاحِبَهُ بِذَلِكَ ، وَأَلَّا يَنْسَى حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِقْدَامِهِ عَلَى جُرْمِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً

أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا

إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

النَّاسُ أَشْكَالٌ ؛ فَكُلُّ تَطْيِيرٍ ^(١) مَعَ شَكْلِهِ ، وَكُلُّ يُنَاكِئُ شَكْلَهُ ، وَأَشْدُّوا :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَتَسْأَلُ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنَةِ يَتَنَدَّى

فَأَهْلُ الْفَسَادِ الْفَسَادُ يَجْمَعُهُمْ - وَإِنْ تَبَاعَدَ مَزَارُهُمْ (وَأَهْلُ السَّادَةِ السَّادَةُ يَجْمَعُهُمْ -

وَإِنْ تَنَاهَتْ دِيَارُهُمْ) ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَالْجُنُودُ مَثْنَيْنِ

جَفَّةٌ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا

وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

لثَلَا يَسْتَبِيحُوا أَعْرَاضَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلثَلَا يَنْشَكُوا أَسْتَارَ النَّاسِ أَمَرَ بِتَأْذِيهِمْ ، وَإِثَامَهُ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ إِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ .

(١) هَكَذَا فِي مَوْحِي فِي م (وَكُلُّ طَيْرٍ ..) وَبِمَا كَانَتْ (وَكُلُّ طَيْرٍ) أَوْ (فَكُلُّ طَيْرٍ) ، وَالْمَثَلُ يَقُولُ : (الطَّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَتَّبَعُ) .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَرْيَتَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي س .

ثم يبالغ في عدد الشهود، وألا تقبل تلك الشهادة إلا بالتضريح التام، ثم أكمله بقوله
«ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً». وفي الظاهر المستند قوله عليه السلام: «من أتى منكم بشيء من
هذه التافذورات فليست بستر الله، فإن من أبهى لنا صفته، أفتنا عليه حد الله»^(١)

قوله جل ذكره ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾
فإن الله غفور رحيم

جعل من شرط قبول شهادته صحة توبته، وجعل علامة صحة توبته إصلاحه، فقال:
«وأصلحوا»، وهو أن تأتي على توبته مدة تنشر فيها بالصلاح صفته، كما اشتهرت بهتكم
أمرضو للمسلمين قائمه. كل هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

لما ضاق الأمر على من رأى أهله على فاحشة، إذ أن في ذلك قبول لسبب غير صحيح —
فقد نهى الشرع عن استلحاقه ولما من غيره. وكان أمراً محظوراً عندكم عريض المرأة
والشهادة عليها بالفحشاء، إذ يجوز أن يكون الأمر في الحبيب، أي بخلاف ما يدعيه الزوج.
ولأن ذلك أمر فحظير شرع الله حكم القلعان^(٢) ليكون للخصومة قاطعاً، ولتقديم على

(١) رواه البيهقي والحاكم عن ابن حزم بإسناد جيد يلفظ: «اجتنبوا هذه التافذورات التي نهى الله تعالى عنها، فمن أبهى منها فليست بستر الله، ويلب إلى الله، فإنه من بيد لنا صفته تكم عليه كتاب الله» (س ١٥٥ ج ١ فيض القدير شرح الجامع الصغير للناوي الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ).

(٢) القلعان في العربية أن يقيم الزوج أربع مرات على صفته في خلف زوجته بائناً، والخامسة باستغفاره لئلا الله لأن كان كاذباً وهذا يبدأ من حقه الخلف. ثم تكم الزوجة أربع مرات على كذبه، والخامسة باستغفائها فغضب الله لأن كان صادقاً فتنها من حد الزنا. وقد نزلت آية القلعان في ملال بن أمية أو عمر بن الخطاب فوجدت على بطن امرأتى غرة شريك بن سعد فكذبته، فلما نهى (س) بينهما. فإذا خلف الزوج زوجته بائناً — وما من أهل الشهادة — صح القلعان بينهما، واختلف الفقهاء هل تعد الفرقة بينهما بالتلاعن أم بتفريق القاضي.

الناحية زاجراً ، ففي مثل هذه الأحوال عنها خَرَجَةٌ^(١) . ولولا أن الله على كل شيء قدير وإلا ففي عادة الناس . مَنْ الذي يَهْدِي لِثَلْثِ هذا الحكم لولا تريفُ سخاوى وأمر نبوى ، من الوحي مُتَلَقَاهُ^(٢) ، ومن الله مُبْتَدَاهُ وإليه مُتَبَاهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ .

... لبقين في هذه الواقعة المعضلة ، ولم تهندوا للخروج من هذه الحالة المشككة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَصِيبُ لَكُمْ بِهَا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . لكل أمرى منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كِبْرَهُ منهم له عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝

هذه قصة عائشة رضى الله عنها ، وما كان من حديث الإفك .

بَيَّنَّ اللَّهُ — سبحانه — أنه لا يُغْنِي أَحَدًا من المحنة والبلاء ، في المحبة والولاء ؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم « يُنْتَحَنُ الرَّجُلُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ » ، وقال : « أَشَدُّ النَّاسِ بِلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ »^(٣) .

ويقال إن الله — سبحانه — غيَّورٌ على قلوب خواص عباده ، فإذا حصلت مساكنةٌ بعضي إلى بعضي يُجَرِّى اللَّهُ مَا يَرُدُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ صَاحِبِهِ ، ويردُّه إلى نفسه ، وأشدوا :

إِذَا عَزَلْتُ رُوحِي بِشَيْءٍ ، تَمَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيْمَنِ كَيْ تَسْلُبَنِيَا

وإن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما قيل له : أى الناس أحب إليك ؟

(١) الخرجة هي الخروج والخلاص من أمر صديد .

(٢) هكذا في س وى لى م (مستفاد) وكلاما صحيح ؛ ولكن الأول أقوى مراعاة للموسيق اللغوية ، وربما كانت (مستفاه) .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح ... وقد سبق تخريج هذا الحديث .

قال : عائشة . فساكنها .

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت : « يا رسول الله إني أحبك وأحب قريك » . . .
فأجبرني الله حديث الإفك حتى ردّ قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عنها إلى الله ،
وردّ قلب عائشة عنه إلى الله ، حيث قال — لما ظهرت براءة صاحبها : بحمد الله لا بحمدك
كشف الله عنها به تلك الحقة ، وأزال الشك ، وأظهر صديقتها وبراءة صاحبها .

وقال ابن النجاشي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور
الله » (١) ، فإذا كانت الفراسة صفة المؤمن فأولى الناس بالفراسة كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءة صاحبها ، حتى كان يقول : « إن فتكت فتوب » .
والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يسدّ الله على أوليائه عيون الفراسة لا كلاً قبلاء .
وكذلك إبراهيم — عليه السلام — لم يمتد ولم يعرف ملائكة حيث قدّم إليهم العجل
الحنيذ ، وتوهمهم أضيافاً . ولو ط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه
أنهم ملائكة .

ويقال إنه كان — صلى الله عليه وسلم — يقول لمائكة : « يا حَبِيرَاء » .

فما كان زمان الإفك ، وأوصلها إلى بيت أبيها ، واستوحش الأيوان معها ، ومَرَّصَتْ
عائشة — رضى الله عنها — من الحزن والوجد ، كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
إذا رأى واحداً من حار أبي بكر يقول :

كيف يبتسم ؟ لا عائشة ولا حمراء ، فما كان يطيب بالنفاخل عنها ، فتبسمه — إن
لم يُفهم بالتصريح — فيفقه بالتلويح .

ثم إنه — سبحانه — قال : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ
منهم ما اكتسب من الآم » : فبقدر جرّتهم احتمل كل واحد ما يفضّه من الوزر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(١) للترمذي والطبراني ، الترمذي من حديث أبي سعد ، والطبراني وأبو نعيم بسند حسن عن أنس .

والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا
هنا إنك تُثيبن ۞ .

عائهم على المبادرة إلى الاعتراض وبسط ألسنتهم بالسوء عنها ، وتركمهم الإعراض
من حرم النبي صلى الله عليه . ثم قال : وهلاً جاءوا على ما قالوا بالشهاد ؟ وإذا لم يبسوا ذلك
فهل مكثوا عن بسط اللسان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته
في الدنيا والآخرة لمكنكم فيها أنفسكم
فيه عذاب عظيم ۞ .

لأنه أخبر أن جرهم — وإن كان عظيم — فإنه في علم الله عنهم غير مؤثر ، ولولا
أن الله — سبحانه — ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلهذا لم يذكر هذه المبالغة في أمرهم ؛
فإن الذي يقوله الأجانب والكفار في وصف الحق — سبحانه — بما يستحيل وجوده
وكونه يوفى ويربى على كل سوء — ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم ، ولا يمنع عنهم أرفاقهم ،
ولكن ما تعلق به حقوق أوليائه — لا سيما حتى الرسول صلى الله عليه وسلم — فذاك
عظيم عند الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون
بأنفائهم ما ليس لكم به علم
ونحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ۞

بالنق في الشكاية منهم لينا أفدوا عليه بما نأذى به قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم — وقوب جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال : « ونحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » : وسبيل للؤمى ألا يستصغر في الواقع
طاعة ، ولا يستصغر في الخلاف زلة ؛ فإن تعظيم الأمر تعظيم للأمر . وأهل التحقيق
لا ينظرون ما ذاك الفعل ولكن ينظرون من الأمر به .

وقال : يسير الزلة — يلاحظها السد بين الاستحار — فتعيط كثيراً من الأحوال ،
وتكدر كثيراً من صافي للشارب .

واليسير من الطاعة — ربما يَسْتَقِلُّهَا الْعَبْدُ — ثم فيها نجاته ونجاة عالم معه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَّكِلَ بِهَذَا سَعْيَاكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾

استأخ الغيبة نوع من الغيبة ، بل مستمع الغيبة شر للفتنانيين ؛ إذ سماعة بن ميم قصده صاحبه . وإذا سمع المؤمن ما هو سوء فاقه في السليدين — مما لامعه له في التحقيق — فالواجب الرد على فاعله ، ولا يكتفى في ذلك السكوت دون التنكير ، ويجب رد فاعله بأحسن نصيحة ، وأحق موعظة ، ونوع تشاغل عن إظهار للشاركة له فيها يستطيع من نشره من إيجاب لقائه موثري ، فإن أبى إلا انهماكاً فيها يقول فورد عليه بما أمكن ؛ لأنه إن لم يستمع فاعله من قوله فلا ينبغي أن يستمع للسمع من الرد عليه (١) .

قوله جل ذكره ﴿ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَهًا آخَرَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

يعلق هنا بأن من بسط لسانه في عائته — رضى الله عنها — بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية ، (ولعمري قائل ذلك مرتكب كبيرة ولكن لا يخرج من الإيمان بذلك) (٢) ؛ أى ينبغي للمؤمن ألا يتكلم في هذا ، وهذا كما يقول القائل : « إِنْ كُنْتَ أَخِي فَوَاسِي شِدْدَتِي » ؛ فإن لم نواسي لم نخرج من الأخوة بذلك . . . ومعنى هذا القول أنه ينبغي للأخ أن يواسي أخاه في حال عقرته ، وترك ذلك لا يُبَيِّطُ النِّسْبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

(١) في هذه الوسية تتجلى نعمة التقوى فيها يمكن أن لسيه (آداب السوك) وترجع بهون الله أن تخرج بمشاً شاملاً من « علم الأخلاق عند الصوفية » .

(٢) ما بين المؤمنين موجود في م وغير موجود في م ، والعبارة عامة في توضيح الرأي في مرتكب الكبيرة ، ورد على من يصفون وصية الكفر — دون حساب — بالكبر من الناس .

الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم

لا تعلمون ﴿١﴾

هؤلاء في استحقاق القم أقيح منزلة ، وأشد وزراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين ، ومن أركان الدين مظاهره للمسلمين ، وإهانة أولى الدين ، وإرادة الظهور لكافة المؤمنين . والذي يؤد فتنةً للمسلمين فهو شرُّ الخلق ، والله لا يرضى منه بحاله ، ولا يؤمله لمنال خلاصة التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته وأنَّ

اللهُ دَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

كرّر قوله : « ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته . . » لِيُبَيِّنَ للجميع أنَّ حُسنَ الدفع عنهم كان بفضلِهِ ورحمته وجيل المنع لهم ، وكلُّ يشهد حُسنَ المنع ويشكر عليه ، وعزیز حبه يشهد حُسنَ الدفع عنه فيحمده على ذلك ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

فإنَّه يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

إذا تَنَقَّى القلبُ من الوسوس ، وصفا عن المواجهس بَدَتْ فيه أنوارُ الخواطر ، فإذا سما وقتُ العبدِ عن ذلك سَقَطَتْ الخواطر ، وبَدَتْ فيه أحاديثُ الحق — سبحانه — كما قال في الظهور : « لقد كان في الأمِّ محدثون فلأن يكن في أمِّي قَمَرٌ » . وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تمرغاً يبق مع العبد ، ولا يكون فيه احتمال ولا إشكال ولا إزعاج ، وصاحبه يجب أن يكون أميناً ، غير مُظهِرٍ لِسِرِّ ما كُشِفَ بِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته لمزكئُ

منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله

يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(١) أي يكثر في الحياة من يشكر على نعمة المنع ويقل من يشكر على نعمة الدفع لأن الأولى تجري بأثر ملوس ، والثانية تجري ولا يكاد يشعر بها المرء .
(٢) هنا تعبد التفسيرى يطالب بالكتبان دون الإفصاح في الكتبان حفظ للأمانة .

رَدَّم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما من الحق في قسي النفع والدفع ، وحالتي السر والبسر ، والركى^(١) من الله ، والشمى من الله ، والآلاء من الله ، قال تعالى : « وما يكمن من نعمة فمن الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا النُّفْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُوتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُفْضُوا ﴾
وليُفْضُوا

نحرك في أبي بكر عرق من البشرية في وصف الانتقام من مسطح^(٢) حين شرع وخاض في ذلك الحديث ، وكان في رفق أبي بكر قطع عنه ذلك ، وأخبر به الرسول — صلى الله عليه وسلم — وانتظر الأمر من الله في ذلك ، فأزل الله تعالى : « وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا النُّفْلِ مِنْكُمْ . . . » فلم يرض من الصديق رضى الله عنه أن ينحرك فيه عرق من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية ، فأعاد أبو بكر له ما كان يضل في ماضى أيامه . والإحسان إلى الحسن مكافأة ، وإلى من لا يسوء ولا يحسن فضل ، وإلى الجاني فتوة وكرم^(٣) ، وفي مناه أنشوا :

وما رضوا بالغو عن كل زلة حتى أنزلوا كفته وأغادوا

قوله : « وليفوضوا وليصفحوا » : الغو والصفح بمعنى ، فكرهما تأكيذاً .

ويقال الغو في الأفعال ، والصفح في جنابات القلوب^(٤) .

(١) الركي والزكاء = النقاء والزيادة ، وزكى الشيء = أسلحه وعلمه .

(٢) مسطح ابن خاتة أبي بكر ، وكان مسكيناً ، يهدى مهنراً ، كان يفتق عليه أبو بكر ، فلما قرأ الرسول عليه الآية قال : بلى : أحب أن يفر الله لي ، ورد لي مسطح فلتت رغم ما خاض لي فاشف رضى الله عنها .

(٣) يمكن أن يضاف هذا الشاهد إلى الباب الذى طعنه القشيري « الفتوة » في رسالته .

(٤) تنوع عن القشيري أنه لا يتحسس كثيراً بقول بأن بالقرآن تكراراً ، لأجل ذلك نراه يسرع إلى التميز بين الغو والصفح معيب ذكره أنهما معنى .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَتَغَيَّرَ اللَّهُ لَكُمْ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

هذا من كمال تلطفه — سبحانه . وفي الظاهر : أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر — رضي الله عنه : « بلى ، أحبُّ إليَّ » ، وعنا من مطلع . وإن الله لا يفتخر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم ، وإن الكراهة من الخلق وللنفوذ بالإيجاد الله ؟! وفي معناه أشدوا :

وَبُ رَامٍ لِي بِأَحْبَارِ الْأَذَى لَمْ أَجِدْ بَدَأًا مِنَ الْمَطْفِ عَلَيْهِ
نَفْسِي أَنْ يَطْلُعَ اللَّهُ عَلَيَّ قَدْ سَرَّ الْقَوْمَ قَيْدُنِي إِلَيْهِ

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ

الْعَافِيَاتِ لِلْمُؤْمِنَاتِ كَيْفَ تَبْلُغْنَ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

بالغ في توعده لم حيث ذكر لفظ العفة في شأنهم .

وَوَصَفَ الْمُحْصَنَاتِ بِالْعَفَةِ : أي بالعفة عما يُنْتَهَى إليه ؛ فليس الوصف على جهة الذم ، ولكن لبيان تباعدهن عما قيل فيهن .

واستحقاقُ القَذْفَةِ لِلْعَفَةِ — في الدنيا والآخرة — يدل على أنه لشوم زلتم تنهيد عواقبهم ، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تُشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَتْهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾

تشهد عليهم أعضاؤهم بما علوا من غير اختيار منهم ، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم ، فالعين كما تشهد : أنه تنظر بي ، تشهد بأنه يكره بي .. وكذلك سائر الأعضاء .

(١) عن ابن عباس رضي الله عنه : من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاف في أمر عائشة . وهذا تطهير ومبالغة في أمر الإثام .

ويقال شهادة الأعضاء في القيامة مُوجَّلة ، وشهادتها في الحبة اليوم مُسَّجلة ؛ من صُفوة الوجه إذا بدا المحبوب ، وشحوب اللون ، ونحافة الجسم ، واسكاب الدموع ، ونحفلان القلب ، وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾
ويسلمون أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١﴾

يمازيم على قدر استحقاقهم ؛ لعابدين الجنان وللثوية على توفية أحوالهم ، ولعابدين بالوصلة والقرية على تصفية أحوالهم ؛ فؤلاء لم تُهَلِّ الدراجات ، وهؤلاء لم الألس بزينة للشهادات وحوام للنالجة .

« ويسلمون أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » : فتصيرُ للقرية ضرورية ؛ فيجدون المُعَاذَةَ من النَّظَرِ وَتَذَكُّرِهِ ، ويسرع القلبُ من وَضْعِ تَرْذِيهِ وَتَغْيِيرِهِ : (لاستغفائه ببصائرهِ من تَبَصُّرِهِ)^(١) .

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحق ؛ فهم قاعونَ الحق مع الحق ، يبين لهم أسرار التوحيد وحقيقته ، ويكون القائمُ عنهم ، والأخذُ لهم منهم من غير أَن يُرَدُّمَ إليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الْغَيْثُ الْغَيْثُ ﴾
الغِيثُ

« الغيثات » : من الأعمال وهي المخطورات « الغيثين » : من الرجال المؤثرين لهاطوعاً ، والذين يمنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها ، كلُّ مربوطٍ بما يليق به ؛ فالغيثُ لا يلقى بفاعله ، والفاعلُ يفعله في الطهارة والقناعة ، والنفاة والنفساسة ، والشرف والسرف .

ويقال « الغيثات » : من الأحوال ؛ وهي المخطوطُ والثني والشهوات لأصحابها والساعين لها . والساعون لثلاثها ، غيرَ ممنوعٍ أحدهما من صاحبه ، فالصنعة للموصوف ملزمة ، والموصوف ليصنعتهم ملزمة .

(١) هكذا في السكتين ، ويكون مراد التشيرى أَنه لم يعد مجال لتبصر فقد أصبح المبدء مياناً ، ومحلقة لهم الرؤية البصرية التي لم ينالوها في الدنيا ، ونعم أَن التشيرى لا يرى الرؤية الجانية إلا في الآخرة .

ويقال « اغنيئات » : من الأشياء الغنيثين من الأشخاص ، وهم الراضون بالنازل السحيقة ... وإن طعام الكلاب الجيف .

ويقال « اغنيئات » : من الأموال — وهي التي ليست بجلال — لمن بها رتبته ، وعليها تمنك حمت ، فغنيثون من الرجال لا يملون إلا لئلا تلك الأموال ، وتلك الأموال لا تساعد إلا مثل أولئك الرجال .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيبات الطيبين والطيبون الطيبات ﴾ .

« الطيبات » : من الأعمال هي الطاعات والترتب الطيبين ، والطيبون هم المؤثرون لها والساعون في تصحيحها .

« والطيبات » : من الأحوال — وهي تحقيق للواصلات بما هو حق الحق ، مجرداً عن المخلوط — « الطيبين » من الرجال ، وهم الذين تمت همهم عن كل مبتذل خسيس ، ولم فوس تسمو إلى المالى ، وهي التجميل بالتذلل لمن له العزة .

ويقال الطيبات من الأموال — وهي التي لا تكسر لشرع عليها ، ولا مئة مخلوق فيها — للطيبين من الرجال ، وهم الأحرار الذين تخلصوا من رق الكون .

ويقال « الطيبات » من الأشخاص وهم المبرآت من وهج الخطر ، المنتقيات من سفاسف أخلاق البشرية ، وهم التبرج في أوطان الشهوات — « الطيبين » من الرجال الذين هم قائمون بحق الحق ، لا يصحبون الخلق إلا لتنقيب ، دون استجلاب الشهوات .

﴿ لم مغفرة ورزق كريم ﴾

لم مغفرة في المال ، ورزق كريم في الحال وهو ما يثابون من غير استغراف ، ولا تطلب طمع ، ولا ذل منة^(١) ، ولا تقديم نصير^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدمحلوا بيوتاً غير

(١) أى (منة) من مخلوق .

(٢) (النصير) الذى ينفذ من الاستجبال وعدم التفويض ونفس التفة .

بيوتكم حتى تستأنيوا وتسلموا
على أهلها ذلك خير لكم لكم
تذكرون ﴿٢٠﴾

الطواصِلُ لَا يَرَوْنَ لِأَنفُسِهِمْ مِلْكَاً يُفْرَدُونَ بِهِ ؛ لِأَمْنِ الْأَمْوَالِ الْمُتَقُولَةِ وَلَا مِنْ الْمَسَاكِينِ
الَّتِي تَصْلُحُ لِأَنْ تَكُونَ مَسْخُوفَةً ، قَمَرٌ فَالْمَكْمَمُ يَشْهُو مِنْهَا فَلَا يَكُونُ مِنْهُمْ مَنَعٌ وَلَا رَجُزٌ ،
وَلَا حَجَبٌ لِأَحَدٍ وَلَا حَظَرٌ . . . هَذَا فِيَا يُبْطِئُ بِهِمْ . أَمَّا فِيَا ارْتَبِطَ بِهِمْ فَلَا يَتَرَضُّونَ لِمَنْ هِيَ
فِي أَيْدِيهِمْ ؛ لِأَسْتِشْرَافِ طَمَعٍ ، وَلَا بِطَرِيقِ سَوَالٍ ، وَلَا عَلَى وَجْهِ انْبِسَاطٍ^(١) . فَإِنْ كَانَ حَكْمُ
الْوَقْتِ يَقْتَضِي شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَالْحَقُّ يُلْجِيهِ مَنْ فِي يَدِهِ الشَّيْءُ لِيُحِيلَهُ إِلَيْهِ بِحَكْمِ التَّوَاضُعِ وَالتَّقَرُّبِ ،
وَالْوَلِيُّ يَأْخُذُ ذَلِكَ بِنَعْتِ التَّنَزُّزِ ، وَلَا يَبْلُغُ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَّا بِأَحْوَالِ تِلْكَ الْقِصَّةِ^(٢) ، وَأَشَدُّ بَعْضُهُمْ
فِي هَذَا الْمَعْنَى :

وَلِئَلَّا تَسْتَحْيَ مِنْ اللَّهِ أَنْ أَرَى أَسِيرَ بِخَيْلٍ لِبَسَ مِنْهُ بَيْرُ
وَأَنْ أَسْأَلَ الرِّءَاثَةَ بِبَيْرِهِ وَبِعِرَافَتِهِ فِي الْبِلَادِ كَثِيرَةٍ

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا
فَلَا تَسْخُطُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾

فِي هَذَا حِفْظُ أَمْرِ اللَّهِ وَحِفْظُ حُرْمَةِ صَاحِبِ الْبَارِ ؛ لِأَنَّ مَنْ دَخَلَهَا بِغَيْرِ إِذْنِ صَاحِبِهَا
رَبَّمَا تَكُونُ فِيهَا عَوْرَةٌ مُنْكَشِفَةٌ ، وَبِمَا يَكُونُ لِمَا يَكُونُ الْبَارِ أَمْرٌ لَا يَرِيدُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ
غَيْرُهُ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ .

﴿ فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ
أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَصَلُّونَ عَلَيْكُمْ ﴾

(١) يقول السري السعفي في مثل هذا السياق : وأمر طريها غنصرأ قصداً إلى الجنة . فقبل له
ما هو ؟ فقال : لا تأل من أحد شيئاً . ولا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا يكن منك شيء تعطي منه أحداً
« الرسالة ص ١١ » .

(٢) أي بأرواب الطريق الصوفي

إن قيل لكم : ارجوا .. فارجوا ، فقد تكون الأعذار قائمة ، وصاحب الملك يملكه أولى .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جناح أن تنكحوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ .

رَفَعَ اللهُ الْجَنَاحَ وَالخُرْجَ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِمَا لَا يُسْتَفْرَضُ بِهِ صَاحِبُهُ بِشَيْءٍ إِذْنُهُ ؛ كَدُخُولِ أَرْضٍ فَلَا يَخْلُصُ فِيهَا أَفْرَاضُ قَضَاءِ حَاجَتِهِ — وَلَا يَجِدُ طَرِيقاً غَيْرَ ذَلِكَ — إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي دُخُولِهِ ضَرَرٌ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَجَرَى هَذَا جَرَى الْإِسْتِظْلَالِ بِظُلْمِ حَاطِئِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَاعِداً فِي مِلْكِهِ ، وَكَانَ النَّظَرُ فِي الْمَرْأَةِ لِلنَّصُوبَةِ فِي جِدَارٍ غَيْرِهِ .. وَكُلُّ هَذَا إِنَّمَا يُسْتَبَاحٌ بِالْشَّرْعِ دُونَ قَضِيَةِ الْقَتْلِ — عَلَى مَا تَوَهَّمَهُ قَوْمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَنْفُسُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لِمَنْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ :

« يَنْفُسُوا » : مِنْ أَبْصَارِ الظَّوَاهِرِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَمِنْ أَبْصَارِ الْقُلُوبِ عَنِ الْفِكْرِ الرَّدِّيَّةِ ، وَمِنْ تَصَوُّرِ اللَّغَائِبَاتِ مِنَ الْمَعَانِيَةِ ^(١) ، وَقَدْ ظَلَمُوا : إِنَّ الْعَيْنَ سَبَبُ الْخَلْقَيْنِ ، وَفِي سَنَاءِ أَشْهُمُوا : وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرَفَكَ رَاغِباً لِقَلْبِكَ — يَوْمًا — أَتَمَّيْتَكِ الْمَنَاطِرَ وَظَلَمُوا : مَنْ أَرْسَلَ طَرَفَهُ اقْتَضَى حَقَّهُ .

وَأِنْ النَّظَرَ إِلَى الْأَشْيَاءِ بِالْبَصَرِ يُوجِبُ فَتْرَةَ الْقُلُوبِ .

وَيَقَالُ إِنَّ الْعَمَلُ إِبْلِيسَ يَقُولُ : قَوْمِي الْقَدِيمُ وَمَنْعِي الْقَدِيمُ لَا يَخْطِئُ النَّظَرُ . وَأُرِيَابُ

(١) ربما قصد القسري أن ينهى عن إتمام فكرة النظر بالعين في الأمور العينية ، وبمعنى آخر انتهى من إضمار كل شيء فحسب ، فطبيعة العينية تختص من ذلك ؛ وَلَا كُنْتُ كُنْ بِمَحَاوِلِ عِبُورِ الْمَاءِ فَوْقَ جَوَادِ ، أَوْ يَبِيرِ الْيَابِسَةِ وَهُوَ فِي سَفِينَةٍ — عَلَى حَدِّ تَبْيِيرِ جَلَالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ فِي سِيَاقِ عَمَلِي .

المجاهدات إذا أداوا صَوْنَ قلوبهم من الغواطر الردية لم ينظروا إلى المحسّات — وهذا أصلٌ كبيرٌ لم في المجاهدة في أحوال الرضا^(١).

ويقال قَرَنَ اللهُ النّهي عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفَرْجِ فقال : « ويصنفوا فروجهم » تنبيهاً على عظيم خطر النظر ، فإنه يدمر إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الرّعاة ، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل الرفان ، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود ، ثم الحق — سبحانه — يكاشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تمريضٍ أو تكلف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَنْقُصَنَّ مِنْ

أَبْصَارِهِنَّ وَيَسْفُتْنَ فُرُوجَهُنَّ

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَلِيُضْهِرْنَ بِحُجُرِهِنَّ مِنْ جِوَاهِرٍ ﴾

المطالبةُ عليهن كالمطالبة على الرجال لشمول التكليف للجنسين ، فالواجب عليهن تركُ المحظورات ، والتنبُّه والنظر لمن صَوَّنَ القلب عن الشواغل والغواطر الردية ، ثم إنَّ أَرْقِيَّ عن هذه الحادثة فالتماهي بقلوبهن من غير المعبود ، والله يختص برحمته من يشاء .

قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » : ما أُلحِ اللهُ — سبحانه — على بيان مسائل الفقه فمستثنى من المحظر ، وما وُجد ذلك فالواجب عليهن حفظ أنفسهن عن العقوبات في الآجل ، والتعاون من أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده . والله سبحانه كما يحفظ أوليائه عما يضرهم في الدُّنْيَا يصونهم مما يكون سبباً لفتنة قلوبهم ، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخلق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ .

وفي الجملة ما فيه زينة العبد لا يجوز إظهاره ؛ فكما أن للنساء حودةً ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك مَنْ أظهر للخلق ما هو زينة سراره^(٢) من صفاء أحواله ، وزكاه أعماله

(١) سقطت (الرضا) من النسخة ص .

(٢) هنا مجرد التقدير رأيه بدقة في قضية الإفصاح والكتبان . فالأصل منه الكتبان ، فإذا أصبح العبد فلا يكون ذلك إلا لا يضطار ويكون خدته غير مواظ لآله يهدى عن التمثل والتكلف .

اُغْلِبَ رَيْنُهُ شَيْئًا ، إِلَّا إِنْ ظَهَرَ عَلَى أَحَدٍ شَيْءٌ — لَا يَنْعَمُهُ وَلَا يَنْكُفُهُ — فَذَلِكَ مُسْتَقْبَلٌ لِأَنَّهُ
غَيْرُ مُؤَخَّرٍ بِمَا لَمْ يَكُنْ يَنْصَرُهُ وَتَسْكُفُهُ ، فَتَوَاتِ الْمَحَارِمُ عَلَى تَفْصِيلِ بَيَانِ الشَّرِيعَةِ يُسْتَفْقَى
حُكْمُهُنَّ مِنَ الْخَطَرِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَى التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِثْمِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوْ الْطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَنْظُرُوا
عَلَى حُورَاتِ النَّسَاءِ ﴾

ترأى في جميع ذلك آدابُ الشرع في الإباحة والخطر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ
لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾

التوبة الرجوعُ عن المذموماتِ إلى الأفعالِ إلى أضعافها الحمودة ، وجميع المؤمنين
مأمورون بالتوبة ، فتوبةٌ عن الزَّالَةِ وهي توبة العوام ، وتوبة عن النِّفَّةِ وهي توبة الخواص .
وتوبةٌ على مخالفة العقوبة ، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر .

ويقال أمرَ الكافة بالتوبة ، العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية ، والمطيعين من
رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق ، وخاصَّ أنخاصَّ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة للوفق .

ويقال أمرَ الكلِّ بالتوبة لئلا يُضِلَّ العاصي من الرجوع بافتراده .

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء — رِفْقًا بِهِمْ — من أمورات الكرم .

ويقال في قوله : « لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » يبين أنه أمرهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك ،
لا ليكون للعق — سبحانه — بتوبتهم وطاعتهم ثبيل .

ويقال أحوجُّ الناس إلى التوبة مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ لَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ ﴾

(١) يصلح هنا نموذجاً (لقياس) إن أردنا بحث ما اسميتاه (اللغة الصوق) .

من عبادكم وإمائكم إن يكونوا
فَقَرَأُوا يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

إذا كان القصد في لناكمة التأديب بأدب الشرع يكتفى الله ببركاته مطالبات النفس
والطبع ، وإنما يجب أن يكون القصد إلى التفتت ثم رجاء لسله يقوم بحق الله (١) .
قوله : « إن يكونوا قراءاً يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ في من فضله : يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ في الحال ، أولاً بالنفس ثم غنى
القلب ، وحق القلب غني عن الشيء ، فالغني عن الدنيا أتم من الغني بالدنيا .
وقال إن يكونوا قراءاً في الحال يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ في المستأنف والمآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَيْسَتِغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا
حَقَّ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

من تهاوس وسعه عن الإلتفات على النبال فليصبر على مقاساة التحمل في الحال ، فمن
قريب فيجيبه نفسه إلى سقوط الأرب ، أو الحق — سبحانه — يهود عليه بتسهيل السبب
من حيث لا يحتسب ، ولا تفلح حال المتفتت عن هذه الوجوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ يَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُومٌ إِنْ حَلَلْتُمْ
فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتُومٌ مِمَّنْ لَدَى اللَّهِ
الَّذِي آتَاكُمْ ﴾

أى إن سمحت نفوسكم بإزالة الرق من المالك — الذين هم في الدين إخوانكم —
من غير عرض تلاحظون منهم فلن تضروا على الله في صفتكم . وإن أبيت إلا العوض
ودعوا إلى الكتابة ، وعلمت بغالب ظنكم صحة الوفاء بمال الكتابة من قبلهم فكاتبوم (٢) ،

(١) كذلك دعا الأنبياء وبيهم حين طلبوا القرية .

(٢) المكتوبة أن يقول لمالك : « كاتبتك على ألف درهم » مثلاً ، فإن أداها حق ، ومناها كسبت
عليك بالوفاء وكسبت على بالحق ، ويجوز أداء المال حالا ومؤجلاً ومتجهاً وغير متجهم لإطلاق الأمر .

ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجه ، من قدر يحط من مال الكتابة ، وإطاقه لم من فروض الزكاة^(١) ، وإماله يقدر ما يحتمل المكاتب ليكون ترفها له .

وإذا كنا في الشرح مأمورين بكل هذا الرقو حتى يصل المملوك المسكين إلى عتقه فبالحرى أن يسمو الرجاء إلى الله بمجمل الظن أن يُفتق العبد من النار بكثرة تضرعه ، وقديم سعيه — بقدر وسعه — من عناء قسائه ، وفضل من الله — عن قديم — رجاءه^(٢) .

ثم في الخبر : « إن المكاتب عبد ما بقي عليه حرم » : والعبد يسمى بجهده ليصل إلى تحرر قلبه ، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار وإرادة شيء من الأغيار فهو بكامل رقه وليس في الحقيقة بحر^٣ .. فالمكاتب عبد ما بقي عليه حرم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِنَاءِ
إِنْ أَرَدْتُمْ كَفَّهْنَا لَتَتَّبِعُنَا عَرْضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْمُ فَإِنَّ
اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ .

حامل الماضى على زلته ، والماضى له إلى عاقبته ، والمعين له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوزر أكثر من غيره ، وبهكه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ
وَمَثَلًا لِقَوْمٍ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(١) إشارة إلى قوله تعالى في أسم الزكاة : (وفي الرقاب) وعند الشافعي — رحمه الله — حطوا من بدل الكتابة رها .

(٢) للنسك كلام لطيف يصلح لتوضيح مقصد القشيري حيث يقول : الساهد كالعبد فهو يشتري نفسه من ربه بتجوم مرتبة ليسى في فسك وقت خوف من البقاء في رتبة اليهودية وطعما في فتح باب الحرية ليسرج في رياض الجنة ، فله في اليوم وأهية خمس ، وفي الماتق حرم خمسة ، وفي السنة دهر ، وفي السر زودة ؛ إشارة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج على الترتيب .

'لم ينادر على وجه الدليل مُبَرَّة' (١) ، ولم يترك الحق — سبحانه — للإشكال محلاً ؛ بل أوضح المنهاج وأضاء السراج ، وأفاد السبيل وألح الدليل ، فمن أراد أن يستبصر فلا يلحقه نصيب ، ولا يحس تعب .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أى هادى أهل السموات والأرض ، ومنه نورها . والذي منه الشيء يسى باسمه الشيء . ومنه نور السموات والأرض خلقاً ؛ فنظام السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إلتقانها حاصل بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أى منورها وخالق ما فيها من الضياء والزينة ، وموجد ما أودعها من الأدلة اللامعة .

ويقال نور الله الساء بنجومها فقال : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » (٢) فكذلك زين القلوب بأنوار هي نور العقل ونور الفهم ونور العلم ونور اليقين ونور المعرفة ونور التوحيد (٣) ، فلكل شيء من هذه الأنوار مطروح شاعره بقدره فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْلَةِ نَارٍ فِي مِصْبَاحٍ ﴾

للمصباح فى زجاجة الزجاج كائناً
كوكبٌ دُرِّىُّ يوقدُ من شجرة
مبلوكة زينة لا شرقية ولا غربية
يكاد زينها يفيء ، ولو لم تفسد
فلو نور على نور يهتدى الله ليؤدبه من
يشاء ويضرب الله الأمثال للناس
والله بكل شيء عليم .

قوله « مثل نوره كشكاة .. » : أراد بهذا نور قلب المؤمن وهو معرفته ، فشبه صدره

(١) القبرة = لطف العبار .

(٢) آية ١٢ سورة فصلت .

(٣) نلت النظر إلى أهمية هذا الترتيب فى توضيح مراحل المعرفة عند الصوفية وهى تندرج فى الضياء من السراج إلى النجم إلى القمر إلى البدر إلى الشمس إلى خمس الشمس .

بالمشكاة ، وشبه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة ، وشبه القنديل — الذي هو قلبه — بالكوكب القوي ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمد السراج في الاشتغال . ثم وصف الزيت بأنه على كل إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خللٍ منه . ثم وصف ذلك الزيت — في صفوته — بأنه بحيث يكاد يتوحد من غير أن تمتلئ نار .

ويقال إن حُرْبَ اللَّئْلِ لمسرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ودينه الخفي ، فأكلن يهودياً — وهم الذين قبلتهم إلى جانب المغرب ، ولا نصرانياً — وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق .

وقوله : « نور على نور » : نور اكتسبه به يهدم بنظرهم واستدلالهم ، ونور وجوده بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم ، أو عيان أضافه إلى بياتهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — ونور معرفته موقد من شجرة هي إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : « لاشرقية » بحيث تصيبه الشمس بالمشى دون النداء ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالنداء دون المشى ، بل تصيبه الشمس طول النهار لئتم نضج زيتونه ، ويكمل صفاء زيتيه . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد جلالهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يتبدلان ؛ فلا يثلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هيبتهم أنسهم ، وقبضتهم بسطهم ، ومحوهم عوهم ، ويقاوم فناءهم ، وقيامهم بأدب الشريعة تحفظهم بمجرام الحقيقة ^(١) .

ويقال « لاشرقية ولا غربية » : أي أن همهم لا سكن شرقياً ولا غربياً ، ولا علوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عرشاً ولا كرسياً ، سطت ^(٢) عن الأكوان ، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة ؛ لأن الحق "منزه" عن الحقوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالخلق غير

(١) قاله بين أسبين من أصابع الرحمن يقبله بين طرق الأحوال حتى يصلوه .

(٢) مكنا في م وهي في م (سطت) ووجما قبلها قالها لا يرضها .

متصلة^(١)؛ وعنده صفة الغرياء . . وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ .

ويقال نور القلب: ثم موجه هو دوام الانزعاج فلا ينره يرجع في أقطار الكسل ، فيصل سريره يسراه في استعمال فكره ، والحق معه : بنور التوفيق حتى لا يصد عنه عواضد الاجتهاد شيء من حُب رياسة ، أو ميل لسوء ، أو هواة . فإذا أسفر صُبْحُ فِكره ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلم لا محالة . ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبيح والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجهد ، وحصول التوجّد عند أداء الورد .

ثم ينده نور المائدة ، ثم نور الخازنة ، ثم متوخ نهار المواقاة . وشمس التوحيد مشرقة ، وليس في عمله أسرارهم صاحب ولا في هوائها ضباب ، قال تعالى ، « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » .

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة ، فإذا نظّر في ديوانه ، وما أسلفه من عسيانه يحصل له نور المائدة ، فيعود على نفسه باللائمة ، ويتجرّع كأساتير نذيره ، فيرتق عن هذا باستدامة قصده ، والتثقي عما كان عليه في أولت فقرته . فإذا استقام في ذلك كوشف بنور المراقبة ؛ فيعلم أنه — سبحانه — مُطْلِعُ عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائح تبدو في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلى الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير له نهاراً ، ونجومه أقداراً ، وأقاربه بدوراً ، وبدوره شموساً . ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفرّد ، ثم مالا تتناوله مبلورة ولا تتركه إشارة ، فالعبادات — عند ذلك — خرسٌ ، والشواهد طمسٌ ، وشهود الغير عند ذلك محال^(٢) . عند ذلك : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُمرت ، وإذا المشار عطلت »^(٣) ، « وإذا السماء انشقت ، واضطربت . . »

(١) هذا نموذج تصوف الإسلام الحق الذي لا تقوى شائلة حلول أو اتحاد أو امتزاج ، قلب رب والعباد معاً ، ولا تماثل بينهما .

(٢) لأنه لا وجود عندئذ للغير والسرى ، فقد في البعد من نفع ومن الغير الله تماماً فناءً فوقها شهودها ، لا فناء طبيعياً كما هو الشأن في بعض التصوفات الأخرى .

(٣) سورة التكوير .

ففيه كلها أقسام الكون . وما من العدم لم صار إلى العدم . القائم عنهم غيرهم ، والكان عنهم سوام . وجلت الأحدىة وعزت الصمدية ، وتقدست الديمومية ، وتزهت الإلمية .

قوله جل ذكره : ﴿ فِي بَيْوتِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ ﴾

فيها اسمه يُسَمَّحُ له فيها بالقدور

والأصالة رجالاً لا تُتَلَبَّهَمُ بمجادة

ولا يَبِيعُ عن ذِكْرِ اللَّهِ وإقام

الصلاة وإتياء الزكاة ﴿

للساجد بيوته — سبحانه — وإنَّ اللَّهَ أَذِنَ أَنْ تُرْفَعَ الْحَوَائِجُ فيها إليه فيقضيها ،

ورَفَعَ أَقْدَارَ تلك البيوت على غيرها من الأبنية والآثار . المساجد بيوت العبادة والقلوب

بيوت الإرادة ، فالما يدُ يَهْدُ عبادته إلى ثوابِ اللَّهِ ، والقاصدُ يصلُ بمراده إلى اللَّهِ .

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة ، والأرواحُ مشاهدُ المحبة ، والأسرارُ محالُ المشاهدة .

قوله : « يسبح له فيها بالقدور . . . » لم يقل : لا يتجرون ولا يشارون ولا يبيعون ،

بل قال : لا تَلَبَّهَمُ تجارة ولا يَبِيعُ عن ذكر اللَّهِ ، فإنَّ أمكن الجمع بينهما فلا بأس — ولكنه

كالتمندر — إلا على الأكابر الذين يجرى عليهم الأمور وم عنها مأخوذون^(١) .

ويقال هم الذين يُؤْزِرُونَ حقوقَ الحقِّ على حظوظِ النفس .

ويقال إذا سمعوا صوت المؤذن : حى على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع ،

وقاموا لأداء حقه .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم

من عذاب أليم » عن التحقق بذكره من غير ملاحظة موضوع أو مطالعة سبب .

قوله جل ذكره : ﴿ يَخَانُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ﴾

والأبصار ﴿

(١) هذا رأى حاسم في معنى وجوب الحسى من أجل الرزق على طوائف أرباب الأحوال وتقدير لموقف

من يمحزون عن ذلك .

أَقْرَأَ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَوْجِلٌ لَمْ ، وآخَرُونَ: ذَلِكَ لَمْ مُعْجِلٌ وَهُوَ بِحَسَبِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْوَقْتِ ؛
فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْخَوْفِ تَرَقُّبُ الْمُقَوَّبَاتِ مَعَ مَجَارَى الْأَنْفَاسِ .

• قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

مَنْ رَفَعَ الْحِسَابَ مِنَ الْوَسْطِ يَرْفَعُ مَعَهُ الْحِسَابَ^(١) ، وَمَنْ هُوَ فِي أَسْرِ مَطَالِبَاتِهِ فَلَوْزَنْ
يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ .

وَالرِّزْقُ بَغَيْرِ حِسَابٍ فِي أَرْزَاقِ الْأَرْوَاحِ ، فَأَمَّا أَرْزَاقُ الْأَشْبَاحِ فَحَصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ ؛
لِأَنَّ أَرْزَاقَ الْأَشْبَاحِ حَفُوظٌ ؛ وَهِيَ وَجُودُ أَفْضَالٍ وَفُتُونٍ لَوَالٍ . وَمَا حَصَرَهُ الْوُجُودُ مِنْ
الْحَوَادِثِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ الْمَدَدُ ، وَأَمَّا مَكَاثِمُ الْأَرْوَاحِ بِشُهُودِ الْجَلَالِ وَالْجَلَالِ فَتُذَكَّرُ
عَلَى الْقَوَامِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ

يَقِيقَةٍ يَخْتَبِرُ الظَّلَامُ مِنْهُ حَتَّى
إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ
اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾^(٢) ، وَقَالَ : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
شَيْءٍ ﴾^(٣) . وَمَنْ أَمَلَ الْمَرَابَّ شَرَابًا فَلَا يَلْبِثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ تَخْيِيلًا ؛
فَالْمَعْلُوكُ يَزْدَادُ ، وَالرُّوحُ تَدْهَوُ الْخُرُوجِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَشَاءُ

(١) وَيَمَّا يَهْدِي الْقَشِيرَى مِنْ هَذِهِ الْمُبَارَاةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْمُونَ أَفْعَ لِنَاثَةِ دُونِ حِسَابٍ فِي الْعَلَاةِ لِنَوَابِ
أَوْ حَقَابٍ ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي الْمُبَارَاةِ التَّالِيَةِ (وَمَنْ هُوَ فِي أَسْرِ مَطَالِبَاتِهِ . .) أَيْ مِنْ ابْتِغَاءِ الْعُوضِ ؛
لِأَنَّهُ يَكُونُ عَلَى حِدِّ تَمْيِيرٍ وَاهِبَةٍ كَالْأَجِيرِ السَّوْدِ .
(٢) آيَةُ ١٠٤ سُورَةِ الْكَهْفِ .
(٣) آيَةُ ١٨ سُورَةِ الْمَجَادَّةِ .

مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ، غُلَامَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ
يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا
فَإِنَّهُ مِنْ نُورٍ ﴿١﴾

ظلماتُ الحسبان ، وفيومُ التفرقة ، وليالي الجُحدِ ، وحناسُ الشكِّ إذا اجتمعت
فلا سراجٌ لصاحبها ولا نجوم ، ولا أقدارٌ ولا شمسٌ .. فالويلُ ثم الويلُ !

قوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : إذا لم يسبق لبيدِ نورِ القسمة ،
ولم يساعده تعلُّقُ الجُهدِ وكُدُّه ، وسَعْيُه وحِدُّه حقُّمٌ من ثمراته ، موئسٌ من نيلِ بركاته .
والبداياتُ غالبيةُ النهايات ؛ فالتقبُّولُ لأهلِهِ غيرُ مُجْتَنَبٍ ، والردُّ لأهلِهِ غيرُ مُكْتَسَبٍ .
وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادةِ في حِلِّهِ في آزاله ، وأراد كونَ ما عَلمَ من أفعاله يكون ، وأخبر
أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعَلمَ ^(١) .
وهكذا القول في الشقاوة ؛ فليس لأفعاله عِلَّةٌ ، ولا تتوجَّهُ عليه لأحدٍ حُبٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْرِ
صَافَّاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

التسبيح على قسيتين : تسبيحُ قولٍ ولفظٍ ، وتسبيحُ دلالةٍ وتخلُّقٍ ؛ فتسبيحُ
التخلُّقِ عامٌ من كلِّ مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ ، منه تسبيحُ خاصٍ بالحيوانات ، وتسبيحُ خاصٍ
بالفلاذ وهذا منقسم إلى قسيتين : تسبيحُ صادرٍ عن بصيرة ، وتسبيحُ حاصلٍ من غير
بصيرة ؛ فالذي قرينته البصيرة مقبولٌ ، والذي تَجَرَّدَ عن الرُفْقِ مردودٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفِيهِ نُفُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴾

(١) هنا طرح جبل لفكرة التشبُّه من : « الله خالقُ أفعالِ العباد » التي هي إحدى أصولِ عقيدته الكلامية .

لِللَّهِ مُبَالِغَةٌ مِّنْ لِّلَّهِ ، وَاللَّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِبْهَادِ ، فَالْقُدْرَةُ — قَبْلُ وَجُودِهَا —
لِلْخَالِقِ مُمْلَكَةٌ ، كَذَلِكَ فِي أحوالِ حَدُوثِهَا بَعْدَ عَدَمِهَا عَائِدَةٌ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا كُنْهُ
لَا يَحْدُثُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَقُولُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَى الْبَطُولِ .

قوله جل ذكره : **وَاللَّهُ يَزِيدُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكْلًا فَتَتَوَلَّى**
الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنْ
السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُغِيبُ
بِهِ مَن يَشَاءُ وَيُصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ
يَكَلِّدُ سَنًا يَرْتَوِي فِيهَا بِالْأَبْصَارِ •
يَغْلِبُ اللَّهُ الْغَيْلَ وَالنَّهَارَ إِن فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ •

تعرّف إلى قلوب العلماء بدلالات صنّو في تدبّر حكته ، وبما يدل منها على كمال قدرته ،
وشمول علمه وحكمته ، وفنوّ إرادته ومشيتة . فَمَنْ أُنْمِ النَّظَرُ وَصَلَ إِلَى بَرْدِ الْبَرَدِ ، وَمَنْ
أَعْرَضَ بَقِيَ فِي وَهْدَةِ الْجَمْعِ وظلمات الجبل .

ترفع قدرته بخفوات البحر ، وتصعد بنسيجه ^(١) وتقدّره إلى الهواء وهو السحاب ،
ثم يديرها إلى سمت يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرة
قطرة ، ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير حادّ فيقلبه حادّا ، ويسمّي السحاب
سَكْبًا ، فيوصل إلى سكر موضع قدراً يكون له مراداً معلوماً ، لا بالجهد من الخلقين يُسَكُّ
أَوْ يُنْزَلُ ، ولا بالجليّة يُسْتَنْزَلُ على المسكن الذي لا يُعْطَرُه ^(٢) .

« **يَغْلِبُ اللَّهُ الْغَيْلَ وَالنَّهَارَ** » : وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار . . . ذلك تقدير
العزيم العليم .

(١) وبما كانه في الأصل (بنسجه) وكلاماً مقبول في السياق .
(٢) غي الجهد والحيطة من أمارات الاعتماد على التقدير وإسقاط التدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمَنْ يَمْشِي
على رِجْلَيْنِ وَمَنْ يَمْشِي على
أربعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ على
كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾

يريد خلق كل حيوان من ماء ، يخرج من صلب الأب وتربية (١) الأم . ثم أجزاء الماء
متساوية متباينة ، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن ، فيختص كل عضو
وينفرد كل شئ (٢) بنوع من الهيئة والصورة ، وضرب من الشكل والهيئة . ثم اختلاف
حيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخالب ، ثم في القامة والنظر ،
ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم ورسن وخ و عصب وعروق وشعر .
فالنظر في هذا — مع العبارة به — يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾
الآيات بيّنة ولكن الله يهدي إليها قوماً ويُلَبِّسُ على آخرين ، والذي سُدَّ بصره أنى
ينفمه طلوع الشمس والنجوم ؟ وكذلك الذي سُدَّتْ بصيرته أنى تنفمه شواهد العلوم
ودلائل الفهم ؟ وقالوا في معناه :

وما انتفع أخى الدنيا بعقله إذا استوت حنّده الأنوار والغلم

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا
ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(١) وردت (تربية) والصواب أن تكون (تربية) الأم وهي عظمة الصدر مما يلي الترقوتين والجمع
تراثب .
(٢) الثار = الضر .

يَسْتَلِمُونَ فِي الظَّاهِرِ وَيُقَرِّونَ بِاللَّسَانِ ، ثُمَّ الْخُلَاصُ يَبْقَى عَلَى صَدَقِهِ .
وَالَّذِي قَالَ غُلَوفٌ سِبْغَ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ لِيَقْرَضَ لَهُ آخَرُ فَاسِدٌ يَتَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ ، وَيَنْحَازُ
إِلَى جَانِبِ الْكَافِرَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾
علموا أن افتضاحهم في حكم بينهم ، فمن علم أنه قاسط في بصيرته لم يعلب نفساً بحسبه .
وَكُنْكَ الْمَرْبُ يَهْرَبُ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَجْتَبِهُ فِي الْفِرَارِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لِمِ الْحَقِّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُذْنِبِينَ ﴾ .

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حكمه إيماناً . وكذلك شأن المريض الذي يميل
بين الصحة والسقم ، فأرباب التناقض مترددون بين الشك والطمع ، فليس منهم نَفْقٌ بالتقطع
ولا إثبات بالعلم ، فهم منطوِّحون في أودية الشك ، وهذا معنى قوله :

﴿ أَمَّا قُلُوبُهُمْ مَرَضٌ لِمَ ارْتَابُوا أَمْ
يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِيَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَدُوسُهُ بِلِ أَوْلَئِكَ مِ الظَّالِمُونَ ﴾ .
فلما انخرطوا في ملك التجويز ما حصلوا إلا في غُلْظِ الشك ، ولما لم يكن لهم يقين
في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا
إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ
مِ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(١) ذكر الواحدى في « أسباب النزول » ص ٢٦١ أن هذه الآية نزلت في بدر المناقض وخضه
اليهودى حين اختصا في أرض ، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله (ص) ليحكم بينهما ، وجعل المناقض
يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمداً يحيف علينا ... إلخ .

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنهم قيامهم بإظهار ما ضمنوه من التحقيق .
ومن يقابل أمر الله بالطاعة ، ويستقبل حكمه بالاستخفاف .. فأولئك هم الصادقون
في الحقيقة ، السالكون في الطريقة ، الآخذون بالوثيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْسُوا بِاللهِ جِهَةً إِيْمَانَهُمْ كَثِيرٌ
أَمْرَهُمْ لِيَخْرِجَنَّهُ قُلُوبُ لَا تَقْسُوا
طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أقسوا بالله غاية البين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل ،
تقال : لا تمّدوا بما هو معلوم منكم ألا تقوا به ؛ فطاعة في الوقت أولى من مساوية بالوعد .
ثم قال : قُلْ يَا مَعْزِلُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرّسولَ .. فإن أجابوا سجدوا في الدارين ،
وأحسنوا إلى أنفسهم . وإن تَوَلَّوْا عَنْ الإِجَابَةِ فَأَضرُّوا إلّا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل
عليهم ، وسوف يلقون سوء عواقبهم ، وليس على الرّسول إلا حَسَنُ البَلاغ . ويومَ الحشر
يُعْطَى كُلُّ أَحَدٍ كِتَابَهُ ، ويُعَاقَلُ بِمَقْتَضَى حِسَابِ نَفْسِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيَسْكُنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
لَهُمْ وَلَيَبْذُرَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ فَمِنْهُمْ
أَمَنَّا يَمْدُونَنِي لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ،
وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ .

وَعَدَ اللهُ حقَّ وكلامه صدقٌ ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه — بالإجماع —

لم يتقدمهم في الفضيلة — إلى يومنا — أحد^(١) ؛ فأولئك مقطوع بإمامتهم ، وصدق وعد^٢ الله فيهم ، وهم على الدين للرضى من قبل الله ، ولقد آمنوا بعد خوفهم ، وقاموا ببسيلة المسلمين ، والدَّبَّ عن حوزة الإسلام أحسن قيام .

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المسيلة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده ، المهادون من يسترشده في الله ؛ إذ انخلل في أمر المسلمين من الولاة الظلة ضرره مقصور على ما يتعلق بأحكام الدنيا ، فأما حفاظ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قوم هم حفاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفاظ القرآن وهم بمنزلة الخوذة ، وقوم هم علماء الأصول الراؤون على أهل العناد وأصحاب اليدع بواضح الأدلة ، وهم بطارقة الإسلام وشجائه .

وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المعامرات وحكم الجراحات والديبات ، وما في معاني الأيمان والنذور والدعاوى ، وفصل الحكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في الملك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان ؛ فالدين معمور بهؤلاء — على اختلافهم إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَمْهَمُ النَّارُ وَلَيْشَ لِلصَّيْرِ ﴾ .

إن الباطل قد تكون له دولة ولكنها تخييل — وما لذلك بقاء — وأهل لبشاً من عارض يشأ عن الغيظ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَذْنَكُمْ فِي الدِّينِ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ

(١) في م يدهما (وما يهدم مختلف فيهم) .

يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ مِنْ
قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ... ﴿١١﴾

صَبَّحَ الْأَمْرَ مِنْ وَجْهِ وَوَسْمَةٍ مِنْ وَجْهِ ، وَأَمْرَ بِمِرَاعَةِ الْإِحْتِيَاظِ وَحَسَنِ السِّيَاسَةِ لِأَحْكَامِ
الَّذِينَ وَمِرَاعَةِ أَمْرِ الْحُرْمِ ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ خُفَاوِ الْفِتْنَةِ ، وَإِذَا كَانَتْ الْجَوَانِبُ مُحَرَّوَةً صَارَتْ
الْمُحَلُوفُ مَأْمُونَةً.

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ
وَأَنْ يَسْتَمْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يُحَدِّثُ تَأْثِيرُ الْمَضْرُوءَةِ لِبَنَاتِ الصَّدُورِ مِنْ دَوَائِي الْفِتْنَةِ وَاسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ الشَّهْوَةِ ؛ فَإِذَا
سَكَنَتْ تِلْكَ النَّشَاطَةُ سَهِّلَ الْبَابُ ، وَأُيِّبَتِ الرَّخَصُ وَأُمِيتَتِ الْفِتْنَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ .

إِذَا جَامَعَتِ الْأَعْدَارُ سَهِّلَ الْامْتِحَانُ وَالْإِخْتِيَارُ ، وَإِذَا حَصَلَتِ الْقِرَابَةُ صَقَلَتِ الْحَشَمَةُ ،
وَإِذَا صَدَقَتِ الْقِرَابَةُ انْتَفَتِ التَّفَرُّقَةُ وَالْأَجَنِيَّةُ ؛ فَبِشَهَادَةِ هَذِهِ الْآيَةِ إِذَا انْتَفَتِ هَذِهِ الشَّرُوطُ
صَحَّتِ الْمُبَاسَطَةُ فِي الْإِرْتِفَاقِ .

(١) ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الرَّسُولَ (ص) وَجَّهَ غَلَامًا مِنَ الْأَنْصَارِ بِقَالِهِ مَدْلُجٌ بَيْنَ عَمْرٍو إِلَى مَرِّ
ابْنِ الْخَطَّابِ وَضَى اللَّهُ عَنْهُ وَقْتُ الظُّهْرِ لِيُدْعُوهُ ، فَدَخَلَ مَرَأَى مَرِّ بِمَجَالَةِ كَرِهِ عَمْرٍو بَيْنَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَدِدْتُ أَنْ أُنَاقِلَ تَعَالَى أَمْرَنَا وَنَهَانَا فِي حَالِ الْإِسْتِغْنَاءِ ، فَتَزَلَّ هَذِهِ الْآيَةُ .
وَقَالَ مُطَافِلٌ نَزَلَتْ فِي أَسْمَاءَ بِنْتُ مَرْثَدٍ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهَا عَلَامُ كَيْدِهِ فِي وَقْتِ كَرِهَتِهِ فَتَنَّتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ .
(٢) بَنَاتُ الصَّدُورِ تَبِيرٌ بِالسَّكْنَاءِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ .

ثم قال : « أوصيكم » : وعزيزٌ من يصدق في الصداقة ؛ فيكون في الباطن كما يرى في الظاهر ، ولا يكون في الوجه كالمرآة ومن وراءك كلفراض ، وفي معناه ما قلت :

مَنْ لِي مِنْ يَثِقُ الْفَوَادِ بَوْدُهُ فَإِذَا رَحَلَ لَمْ يَزِغْ عَنْ عَهْدِهِ
يَا بَوْسَ نَفْسِي مِنْ أَخْمَ لِي بِأَذْلٍ حَسَنَ الْوَفَاءِ بوعده لَا تَقْدِهِ
يُرْوِي الصَّنَاءَ بِنُطْقِهِ لَا خُلُقِهِ وَيَسْجُو صَابَاً فِي حِلَاوَةِ شَهْدِهِ
فَلَسَانُهُ يَبْدُو جَوَاهِرَ عَقْدِهِ وَجَنَانُهُ تَقِلُّ مَوَاجِلُ حَقْدِهِ
لَا مُمَّ لِي لَا أَطِيقُ مِرَاسَهُ بَكَ اسْتَعِيدَ مِنَ الْحُسُودِ وَكَيْدِهِ

(وقوله : « أوصيكم » مَنْ تَوَكَّنْ مِنْهُ هَذِهِ الْخُصَالُ وَأَمثالها)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
تَحِيَّةٌ مِنْ جِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ تَلْبِيَةٌ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

السلامُ الأمانُ ، وسبيلُ المؤمنين إذا دخل بيتاً أَنْ يُسَلِّمَ مِنْ اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ ؛ أى يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لَتَسَلِّمَ نَفْسُهُ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ ، إذ لَا يَجِلُّ لِسُلَيْمٍ أَنْ يَفْتَرَّ حُلْفَةً عَنِ الِاسْتِجَارَةِ بِاللَّهِ حَتَّى لَا يَرْفَعَ عَنْهُ — سُبْحَانَهُ — ظِلٌّ حِصْنِيهِ ؛ بِإِدَامَةِ حِفْظِهِ عَنِ الْإِتْعَافِ بِمَكْرُوهِ فِي الشَّرْعِ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ
لَمْ يَنهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْصَيْنِ مَوْجُودٌ لِي مِنْ وَطَرٍ مَوْجُودٌ لِي م .

(٢) لِي مِنْهُ الْإِشَارَةُ غَمَزَ بِأَصْحَابِ الْبِدْعِ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ مَا يَخَالِفُ الشَّرْعَ بِدَعْوَى الْوَلَةِ وَالْإِتْعَافِ

لِيَقْبَضُوا شَأْنَهُمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئَتْ
مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ

شرطُ الاتِّباعِ موافقةُ المتَّبوعِ ، وألا يَتَفَرَّقُوا فيصيروا أَحْزَاباً كما قال : « بحسبهم جيماً وقلوبهم شتى » (١) والعلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ ، والمريدون لشيوخهم كالأُمَمِ لِنَبِيِّهِمْ ؛ فَشَرَطُ المريدِ أَلَّا يَتَكَبَّرَ بِنَفْسِهِ إِلَّا بِإِذْنِ شَيْخِهِ ، وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ فِي نَفْسِهِ — سِرّاً أَوْ جَهْراً — فَإِنَّهُ يَرَى فِيهِ سَرِيحاً فِي غَيْرِ مَا يُحِبُّهُ . وَخَالِفَةُ الشَّيْخِ لَهَا يَسْتَرْوَن (٢) مِنْهُمْ أَشَدُّ مِمَّا يَظْهَرُ بِالْجَهْرِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّهُ يَلْتَحِقُ بِالْعِلَاقَةِ . وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ لَا يَشُمُّ رَاحَةَ الصَّدَقِ ، فَإِنَّ بَدْوَهُ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَعَلِيهِ بِسُرْعَةِ الِاعْتِنَاءِ وَالْإِفْصَاحِ عَمَّا حَصَلَ مِنْهُ مِنَ الْخَالَفَةِ وَالْعِلَاقَةِ ، لِيَهْدِيَهُ شَيْخُهُ إِلَى مَا فِيهِ كَفَّارَةُ جُرْمِهِ ، وَيَلْتَزِمَ فِي الْغَرَامَةِ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ . وَإِذَا رَجَعَ لِلْمُرِيدِ إِلَى شَيْخِهِ بِالصَّدَقِ وَجِبَ عَلَى شَيْخِهِ جِهَانٌ تَقْصِيرُهُ بِهِتَهُ ؛ فَإِنَّ الْمُرِيدِينَ حِيَالُ عَلَى الشَّيْخِ ؛ فَرُضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ مِنْ قُوَّةِ أَحْوَالِهِمْ بِمَا يَكُونُ جِهَاناً تَقْصِيرِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لِأَذَا ﴾

أَيَّ عَظُمُوهُ فِي الْمَطْلَبِ ، وَاحْفَظُوا فِي خِدْمَتِهِ الْأَدَبَ ، وَاعْتَقُوا طَاعَتَهُ عَلَى مِرَاعَاتِ الْحَيَةِ وَالتَّوْقِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾
أَنَّ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ

(١) آية ١٤ سورة الحفر .

(٢) أي من (يستبرونه) و (يستره) ونحن نؤيد هذه حتى تتلاءم مع (ما يظهر بالجهر) يلتزم السابق بها .

(٣) يقال خالفة عن الأمر إذا صدقته دونه .

سعادة الفارين في متابعة السنة ، وشقاوة المتزلزين في مخالفة السنة . ومن أيسر ما يصيب من خالف سنتك حرمان المراقبة ، وتدنر المتابعة بعده ، وسقوط حشمة الفارين عن قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا يَأْتِيهِ أَفْئُتٌ مِنَ السُّبُوتِ وَالْأَرْضِ﴾

قد يظن ما أنتم عليه ويومئرجون^(١)

إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل

شيء عليم ﴿٢﴾

إن اليوم غداً ، ولما فضل المبدح حساباً ، وسبط ألب المكف بالصغير والكبير ، والنهبر والتعظيم .

سورة الفرقان

قوله جل ذكره : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

بسم الله اسم جليل شهد بجلاله أفضاله ، وتلقته بمجابه أفضاله . دلت على إثباته آياته ، وأخبرت عن صفاته منولاته .

بسم الله اسم عزيز عرفته بفضل قدرته ، اسم كريم شهدته بفضل نصرته .

بسم الله اسم عزيز عرفته العقلاء بدلالات أفضاله ، وعرفه الأصفياء باستحقاقه بجلاله وجماله ؛ فبلطف جماله عرفوا وجوده ، وبكشف بجلاله عرفوا وجوده .

بسم الله اسم عزيز من دعاه لبه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن توسل إليه أكرمه وآواه ، ومن تمسك إليه^(٣) رجه وأدناه ، ومن شكا إليه أشكاه^(٤) ، ومن سأله خوله وأعطاه .

(١) وفي قراءة (يهرجون) يفتح الياء وكسر الجيم .

(٢) يروى أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم وفرها على وجهه لوسعت الروم به لأست

(٣) تمسك إليه هنا مناهما تبرا من ذنبه وتاب .

(٤) أشكى أى قبل الشكوة وأمان الشاكى .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾

يقال بَرَكَةُ الطَّيْرِ عَلَى الْمَاءِ إِذَا دَامَ وَفَوْقَهُ عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ . وَبَارَكُ الْإِبِلُ مَوَاضِعُ إِطَاعَتِهَا بِاللَّيْلِ . وَتَبَارَكَ عَلَى وَزْنِ قَنَاقِلٍ تَحِيدُ دَوَامَ بَقَايِهِ ، وَاسْتِحْقَاقِهِ لِقَدَمِ ثُبُوتِهِ وَبَقَايِهِ وَجُودِهِ لَا عَنْ اسْتِفْطَاحٍ وَلَا إِلَى اسْتِطْلَاحٍ .

وفي التفسير « تبارك » أى تعظم وتكبر . وعند قوم أنه من البركة وهى الزيادة والنفع ، فدوامه وجوده ، وتكبره مستحق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير إلى فضله وإحسانه ولطفه .

فوجوه الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقه ، وثناء بذكر وصفه وعزه ، وثناء بذكر إحسانه وفعله ؛ فكلية « تبارك » جمع الثناء عليه — سبحانه .

« الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » وهو القرآن « عَلَى عَبْدِهِ » : فأكرمه بأن نبأه وفضله ، وإلى الخلق أرسله ، وَبَيَّنَّ مُعْجَزَتَهُ وَأَمَارَةَ صِدْقِهِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي عَلَيْهِ أُنْزِلَ ، وَجَعَلَهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَسَرَّاجًا مُنِيرًا .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ ﴾

تَفَرَّدَ بِالْمُلْكِ فَلَا شَرِيكَ يَسَاعِدُهُ ، وَتَوَحَّدَ بِالْجَلَالِ فَلَا نَظِيرَ يُقَاسِمُهُ ؛ فهو الواحد بلا قسيم فى ذاته ، ولا شريك فى مخلوقاته ، ولا شبيه فى حقه ولا فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْمَخْدُومَاتُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ لَا يُخَلِّقُونَ

شَيْئًا وَهُمْ يُخَلَّقُونَ وَلَا يُنْبِئُكَوْنَ

لَأَنْفُسِهِمْ مَرًّا وَلَا نُفُوسًا وَلَا يُنْبِئُكَوْنَ

مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝ ﴾

انمخنوا من دون الله آلهة لا يملكون قلوبهم ، ولا يخلقون قلوباً ، ولا يذنبون عنهم

كثيراً ولا يسيراً ، ولا ينفعونهم ولا يُسهّلون عليهم عسيراً ، ولا يملكون لأحدٍ موتاً^(١)
ولا نُشوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا
إفكٌ افتراه وأهانه عليه قومٌ آخرون
قد جاءوا ظلماً وزوراً ﴾ . وقالوا
أساطيرُ الأولين اكتبتهَا في
سُورٍ عليه بُكْرَةٌ وأصيلٌ * قل
أنزله الذي يعلمُ السُّرَّ في السمواتِ
والأرضِ إنه كان غفوراً رحيماً ﴿

ظَنُّوه كما كانوا ، ولَمَّا كانوا بأمنائِمٍ قد استعانوا فيها بحِزِّوا عنه من أمورِهم ، واستحدثوا
لأمنائِمٍ واستكانوا — فقد قالوا من غيرِ حُجَّةٍ وَتَقَوُّوا ، ولم يكن لقولهم تحصيل ، ولأساطيرُ
الأولين رُتَاهِمُ^(٢) التي لا يُدرى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعرفُ كيف كانت
ومنى كانت ؟

ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتابُ — الذي أنزله الذي يعلمُ السُّرَّ في السمواتِ
والأرضِ — لا يُقدِّرُ أحدٌ على الإتيانِ بمثله ولو تشاغلوا^(٣) من الوقت الذي أتى به أعداءُ
الدينِ ، وهم على كثيرٍ من مجتهدين في معارضته بما يوجب مساواته ؛ فادَّعوا تكذيبه . واتَّعَلَّتْ
الأعصارُ واقتضتِ الأحمارُ ، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله ، فاتتني الرِّيبُ من صدِّيقه ، وَجَبَّ
الإقرارُ بحَقِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا ما لَيْدًا الرسولُ يا أُكلُ الطَّعامِ

(١) مَكَّنَّا لِي م وَهِي لِي س (حِيَاةٌ وَلَا نُشُورَا) وَالْمَعْنَى يَتَجَلَّيْهَا أَيْضًا .

(٢) مَكَّنَّا لِي م وَهِي لِي م (رُتَاهِمُ الْقَدَى ...) وَلَكِنَّا آتَيْنَا بِدَلِيلِ التَّائِبِينَ لِي (كَانَتْ) مُكَرَّرًا .

(٣) مَكَّنَّا لِي س وَهِي لِي س (وَلَوْ تَشَاغَلُوا) .

وَيَسْئَلُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا • أَوْ يُلْقَى
إِلَيْهِ كَثِيرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ سَجَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْمُورًا •
اظْفُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
فَقَالُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا •
تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْبًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا •

لما عجزوا عن ملابضته أخذوا يسيبونه بكونه بشرًا من جنسهم يمشى في الأسواق، ويأكل
الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلَّا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فَنُزِّلَ بِهِ آيَاتًا؟ وهَلَّا جِئَ لَهُ الْكَوْنُورُ
فَأَسْكَنَتْ مَا لَهُ؟ وهَلَّا خُصَّ بِآيَاتٍ — اقترحوها — فَتَقَطَّعَ الْمُنْذِرُ وَتُرِيْلَ عَنَّا إِشْكَالًا؟ وما هذا
الرجل إلا بشرٌ نتمريه من دواعي الشهوات ما يعترى غيره 1 فأى خصوصية له حتى تَلْزَمُنَا
متابعته ولن يُظْهِرَ لنا حجة؟ فأجاب الله عنهم وقال: إِنَّ الْحَقَّ قَادِرٌ عَلَى تَمْلِيكِكَ مَا قَالُوا
وَأَضَاعَ ذَلِكَ، وفي قدرته إظهارُ ما اقترحوه وأضاعَ ذَلِكَ، ولكن ليس لم هذا التخيير (٢)
بعد ما أُرْزِخَ الْمُنْذِرُ بإظهارِ معجزة واحدة، واقترح ما يَهْوُونَ تَحَكُّمَهُ عَلَى التَّقْدِيرِ، وليس
لم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضاعه لم يؤمنوا؛ لأن حُكْمَ اللَّهِ بِالشَّقَاوَةِ
سَابِقٌ لَمْ، وقال:

(١) يذكر ابي عباس أنه لما هرب المشركون عمداً (ص) بالفاقة أقل وضوان خلون الجنة عليه وقال :
يا محمد، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك : هذه مفاتيح خزان الدنيا مع ما لا يلتصق لك مما عندك
في الآخرة مثل جناح بهيمة فقال النبي : يا وضوان لا حاجة لي فيها ، لأحب إلى أن أكون عبداً صابراً
شكرواً فقال وضوان : أصبت أصابك الله . ورفع الرسول يصره فإذا منازله فوق منازل الأنبياء وغرهم
دمعا النبي : اللهم اجل ما أردت أن تطبق في الدنيا ذخيرة عندك في الصفحة يوم القيامة .
(٢) يمكن أن تكون (التحيز) لتلجم مع (ما اقترحوه) ومع (ما يهجون) ولكننا لا نسبند
أن تكون (التحيز) لملء لكثرة جفهم حول ما يلبي — في تصوموم — فرسول .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ
كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ .

فهم في حُكم الله من جملة الكفار ، والله أَعَدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيد الأبد ..
فلا محالة يُمتحنون به .

قوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوًا فلا يستطيعون سيلاً » : دليل على جواز
التكليف بما لا يقدر عليه العبد في الحال ؛ لأنه أخير أنهم لا يستطيعون سيلاً ، وم
ماتيون مكفون .

قوله جل ذكره : ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ تَمَكَّنَ أَيْدِي سَمْعُوا
لَهَا تَمِيقًا وَزَفِيرًا﴾ .

فوحشة النار توجد من مسافة بعيدة قبل شهودها والامتحان بها ، ونسبُ الجنة يوجد
قبل شهودها والدخول فيها ، والنار تُسَجَّرُ منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزَيَّنُ منذ
سنين قبل المستتمين بها . وكذب مَنْ أقال^(١) وجودها قبل كون سكانها وقطاعها من
المتنمين أو الماقبين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتها التي لا تكون إلا بوجود حيث قال :

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَائًا ضِيقًا
مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُمَاكَ ثُبُورًا *
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا
وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ .

راحة الجنة مقرونة بسنها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيضيق عليهم مكابهم ،
ويضيق عليهم قلوبهم ، ويضيق عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتهم تبطل وكانوا ينخلصون

(١) لهذا الرأي أهميته حيث يرى كثير من المتزلة أن الجنة والنار لا يوجدان الآن وإنما
يوجدان في الآخرة عند الحزاء ، وأخرج المتزلة — بمخلاف جهم وحده — أنها لا تفتيان ولا يفتي
أهلها ، وم في هنا يخلطون مع الأشاعرة . أما مخالفة جهم لذلك فقد ذكرها التهرستاني في (الملل والنحل
ج ١ ص ١١١ ط الخانجي) بدعوى أن تلد أهل الجنة بنسبها وتأم أهل النار بمحبسها حركات تنامي مع
أن نصوص القرآن صريحة في دوامها .. والقصيرى الأشعري يصرح بذلك في الألبت التالية .

منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تتلقى، وعين لا تنقضي؛ كلما رماوا فرجة قيل لهم :
فلن تريدكم إلا عذاباً .

قوله جل ذكره ﴿ قُلْ أَذِلَّةٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةٌ الْخَالِدَةِ الَّتِي
وَعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَعِيراً ﴾

المتقون أبداً في النعيم المقيم ؛ حور وسرور وجبور ، وروحٌ وريحانٌ ، وبهجة وإحسان ،
ولطف جديد وفضلٌ مزيد ، وألفٌ شرابٍ وكسائبُ حُلب ، وبسطٌ قلبٍ وطيبٌ حال ، وكال
أنسٍ ودوام طرب ونعمان جَذَلٍ ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سننم وإستبرق ، والأسماء
أسماء في الدنيا والأعيان بخلاف المهودات فيها^(١) . ثم فيها ما يشاؤون ، وهم أبداً مقيمون
لا يرحلون ، ولا هم عنها يخرجون .

قوله جل ذكره : ﴿ لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ .

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادة ما علم أنه سيفعله ، فما هو المعلوم لله أنه لا ينفذ
لا تتعلق به إرادتهم ، ويمتنع من قلوبهم مشيئته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يُنْشَرُ مِنْ
حُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ هِيَائِي
هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ .

اللهُ ينشرُ الكفارَ وينشرُ الأصنامَ التي عبدوها من حون الله ، فيحْيِيها ويقول لها :
هل أمرتم هؤلاء بعبادتكُم ؟ فيترأون . . كلُّهُ تهويلٌ وتضليلٌ للشأن ، وإلا فهو حليم بما كان
وما لم يكن . فالأصنامُ تنبرا منهم ، وتقابلهم بالتكذيب ، وهم ينادون حل أنفسهم بالخطأ
والضلال ، فيلقون في النار ، ويبقىون في الرغيد إلى الأبد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا أَنْهُمْ لَيْسَ كُلُّونَ الطَّعَامِ وَكَمَشُونَ
فِي الْأَوَاقِي ﴾ :

(١) هنا تلييه مام جيداً لتوضيح حقيقة النعم التي في الآخرة .

أخبر أن الذين تقدّموه من الرسل كانوا يَشْتَرَأ ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهور
المميزات عليهم . وفي الجنة الفضائل الجمالي لا بالصورة ، ثم قال :

« وجعلنا بعضكم لبعض
فِتْنَةً أَنْصُرُونِ وَكُنْ رِبَكِ
بصهاً » .

(فُتِّلَ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ ، وَأُمِرَ الْمُفْتَضِلُ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا ، وَالْمُفْتَاضِلُ بِالشُّكْرِ عَلَى الْمَطَامِ)^(١)
وخصّ قومًا بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصّ قومًا بالعوائف ، وآخرين بالإسقام
والآلام ، فلا يَلِيَنَّ نعمة منقلب ، ولا يَلِيَنَّ امتحان منايب .. فبحسبكم لا يجرّهم ، وبفضله
لا يضلّهم ، وبإرادته لا يبيدّهم ، وباختياره لا يأوثرهم ، وبأقداره لا يؤزّارهم ،
وبه لا يحجم .

قوله : « أَنْصُرُونِ ؟ » استفهام في معنى الأمر ، فَمَنْ سَاعَدَهُ التَّوْفِيقُ صَبَرَ وَشَكَرَ ،
وَمَنْ ظَلَمَهُ لُغْظَانُ أَبِي وَكَفَر .

قوله جل ذكره : وَيَقَالُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا
أَنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ تَرَى
رَبَّنَا قَدْ اسْتَغْنَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ
عَمُوا كَبْهَاءً .

« لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » : لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ فِي الْقِيَامَةِ مِنَ الدُّنْيَا .
وَمَا كَانُوا لَا يَخَافُونَ الْعَذَابَ ، وَلَا يَنْتَظِرُونَ الْحَشَرَ كَمَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ قَدَرَ اللَّهِ .
فَتُسَكَّرُ الرَّؤْيَا مِنْ أَهْلِ الْقِيَامَةِ — عَنِ يَوْمِينَ بِالْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ — مُشَارِكُهُ لَوْلَا فِي جَعْلِهِ
مَا وَرَدَ بِهِ الظُّهْرُ وَالنَّقْلُ ؛ لِأَنَّ النَّقْلَ كَانَ وَرَدَ بِكَوْنِ الْحَشْرِ وَرَدَ بِكَوْنِ الرَّؤْيَا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ^(٢) .
فَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا ظَلَمُوا عَلَى جِهَةِ رُؤْيَا الْقِيَامَةِ لَأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّهُ مُسَلِّمٌ لَهُمْ مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ زُفُولِ

(١) مَا بَيْنَ التَّوَسُّلِ فِي مَوْجِبِ مَوْجُودٍ فِي س .
(٢) يَسُودُ الْقِدْرِيُّ بِسَدِّ قَلِيلٍ إِلَى شَرْحِ مَوْضِعِ الرَّؤْيَا عِنْدَ تَسْوِيَةِ الْآيَةِ : « وَكَفَى رِبَكِ مَا دَايَا وَنَصِيرًا »

اللائكة عليهم رؤيـة ربهم . وذلك وإن كان في القدرة جائزاً — إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُدْرَم بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ اللَّائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ .

اقترحوا شينين : رؤيـة اللائكة ورؤيـة الله ، فأخبر أنهم يرون اللائكة عند التوفى ، ولكن تقول اللائكة لهم : « لا بشرى لكم ! » .

« حجراً محجوراً » : أى حراماً ممنوعاً متى رؤيـة الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وسُئل على ذلك أولى من سأل على الجنة ، ولم يجبر لها هنا ذكرٌ . ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤيـة لأنهم يرون لللائكة ويشرونهم بالجنة ، قال تعالى : « تتنزل عليهم لللائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »^(١) فكان لا تكون للكفار بشارة بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون للرؤيـة للكفار وتكون للمؤمنين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ آمَلٍ فَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ .

هذه آفة الكفار ؛ ضاع سعيهم وخاب جهنم ، وضاع عزمهم وتغيرت صفاتهم واقطع رجائهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلج قلبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال رُوحهم ، وتنادى إلى قلوبهم من الراحات ما يضيق عن وصفه شرحهم ، ويتقاسرون ثنائهم نطقهم ، حيث يسمعون قوله : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحق لأجله : « وقدمنا إلى ... قهم » إذا سمعوا ذلك وجب لهم من الأرمية ما يشغلهم عن الاهتمام بقوله : « فجعلناه هباءً منثوراً » ويقولون : ياليت

(١) آية ٣٠ سورة نمل .

لنا أعمال أهل الدارين ثم لا تُثَقِّلُ منها ذرةً وهو يقول بسببها : وقد منّا إلى ما عملوا من عمل ... » لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الغلج من أعمالهم عدّوا ذلك من أجل ما ينالون من الاحسان إليهم^(١) ، وفي مناه أئسّوا :

سأرجع من حجٍّ حايٍ مُتَجَبِّلًا^(٢) لأنّ الذي قد سلكن لا يُثَقِّلُ^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ ﴾ .

أصحاب الجنة هم الراضون بها ، الواصلون إليها ، وللكفّون بوجدانها ، غسّنت لهم أوطانهم ، وطلب لهم مستقرّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالنَّهَارِ وَيُزَلَّزَلُ السَّمَاءُ فَيُزِيلًا ۖ ﴾ .

يريد يوم القيامة إذا بدت أهرالها ، وظهّرت للبعوثين أحوالها حاروا وبحقّقوا — ذلك اليوم — أنّ للآلئ الرحمن ، ولم يتخصّص ملكه بذلك اليوم ، وإنما علمهم ويقينهم حصل لهم ذلك الوقت .

وقال تنقطع دواحي الأغيال ، وتنقضي أوهام الخلق فلا يتجدّد له — سبحانه — وصف ولكن تتلاشى للخلق أوصاف ، وذلك يوم على الكافرين عسير ، ودليل الغلّاب يقتضى أنّ ذلك اليوم على المؤمنين يسرّ وإلا بطل الفرق ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلاّ وذلك اليوم يكون عليه هيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يَبْضُغُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ۖ ﴾^(٤)

(١) مله إشارة دقيقة غاية الدقة ، تأمل أن يظن إليها الفارسي ، ويستبح بها .

(٢) معنى البيت مرتبط بالكرة الصوفية أن عمل الإنسان لا قيمة له ، والأمل كله مقود على الفضل الإلهي ، فكما استعصر المأبد عبادته بجانب هذا الفضل صرّ بمصوره وارثي في التجريد والتفويض منزلة بعد منزلة وفي هذا تقول رابعة بعد عبادة ليلة كاملة ، إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار .

(٣) قول نزلت منه الآية في أبي بن خلف ، وقد قتله الرسول (ص) يوم أحد في مبارزة ، وقيل نزلت في حبة بن أبي معيط وكان محالاً لأبي .

يقول ياليتي انخفضت مع الرسول
سيلاً • يَا وَيْلَتَا لَيْتَى لَمْ أَخَذْ غَلَاةً
خَلِيلاً •

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل انطباط يقتضى سرور المؤمنين بمصاحبة
أعدائهم وأحبابهم في الله ، وأما الكافر فينبغي صاحبه فيقع منه في التبور ، ولكن المؤمن
يهدي صاحبه إلى الرشدي فيصل به إلى السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الرسول يارب إن فؤمي
انخفضوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنة المرسلين ؛ أخبر الله عن يعقوب — عليه السلام —
أنه قال : « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله » فن شكا من الله فهو جلد ، ومن شكا إلى الله
فهو عارف واجد .

ثم إنه أخبر أنه لم يخلو نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلباً عليه عدواً في
قته ، إلا أنه لم يفتخر من أعدائهم أحداً ، وأذاقهم وبال ما استوجبوه على
كفرهم وغييبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ .

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

ويقال آخر فتنة المؤمنين ما ورد في الخبر : أن كل أمة ترى في القيامة الضم الذي عبده
ينعمونه فيحشرون إلى النار ، فيلقون فيها ويبقى للوحشون ، فيقال لهم : ما كنتم ؟ فيقولون :
إنا رأوا معبودهم فعبودهم ونحن لم نر معبودنا ؛ فيقال لهم : ولو رأيتموه . . قبل تعرفونه ؟
فيقولون : نعم . فيقال لهم : ثم تعرفونه ؟

فيقولون : بئنا وبينه علامة . فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم : أنا معبودكم
فيقولون : معاذ الله . . نود بالله منك ؛ ما عبدناك . فينبغي الحق لهم فيسجدون له .

على أقدامهم يُخشيهم غداً على وجوههم» (١) ، وهو على ذلك قادر ، وذلك منه غير مستحيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾

وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴾

كلما يجرى في القرآن لتيننا - صلى الله عليه وسلم - ذِكْرٌ إلا ويذكر الله مُقْبِيه
موسى عليه السلام . وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه ،
لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب
التفصيل في الوصف ؛ لأن القصة الواحدة إذا أُخِيت مراتب كثيرة كانت في باب البلاغة أتم
لأسبابها إذا كانت في كل مرة فائدة زائدة (٢) .

ثم بين أنه قال لها :

﴿ قلنا اذهبا إلى القوم الذين

كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ﴾

أي فذهبا فبجهد القوم فدمرناهم تدميراً (٣) أي أهلكناهم إهلاكاً ، وفي ذلك تسلية
للنبي - صلى الله عليه وسلم - فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء ، ووعد له بالجلب
في أنه سيهلك أعداءه كلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل

أغرقناهم ففعلناهم قناساً ﴾

وأخذنا الظالمين عذاباً أليماً ﴾

أطلقناهم العقوبة كما أهلكنا بأمثلهم ، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقومناهم . ثم عقب هذه
الآيات بذكر عاد وعود وأصحاب الركن ، ومن ذكرهم على الجملة من غير تفصيل ، وما أهلك

(١) القسم الأول من الخبر على النحو التالي : د يمحرم الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف
على أبواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم . قيل يا رسول الله : كيف يمحرون على وجوههم
فقال عليه السلام : الذين أمصام

(٢) يضاه هذا إلى ما سبق أن نبهنا إليه من موقف القميري من التكرار .
(٣) يلفت القميري نظرنا إلى ما يبرق في البلاغة بإيجاز الخلف ، فقد اكتفى بذكر أول القصة وآخرها
وعد أحسن القميري حين وظأ لذلك بكلام في القصة الواحدة التي تباد أكثر من مرة .

به قوم لوحٍ حيث علوا الخبايا... كل ذلك تطيباً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتسكيناً
لِسِرِّهِ ، وإعلاماً وتزييناً بأنه سيهلك مَنْ يُعاديهِ ، ويدبر مَنْ يُلويهِ ، وقد قُتِلَ مِنْ ذَلِكَ
الكثير في حال حياته ، والباقي بعد مُضِيِّهِ — عليه السلام — من الدنيا وذهابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا

هُزُوءًا أَوْ أَدْبَاً أَلْفَى يَتَّبِعَ اللَّهُ

رَسُولًا... ﴾

كانت تكون له سلوة لو ذكر حاله وشكا إليه قصته ، فإذا أخبر الله وقص عليه
ما كان يلاقيه كان أَوْجِبَ لِسَلْوَةٍ وَأَقْرَبَ مِنَ الْأُنْسِ ، وغاية سلوة أربابِ الحق أن يذكرُوا
لأحبائهم ما لقوا في أيام احتاجهم كما قال قائمهم :

يودُّ بأن يمضى سقياً كُلَّهَا إذا سمعت منه بشكوى ترأسه

ويهنئ للمعروف في مَلَكِبِ الْمَلَى لئلاَّ كَرَّ يوماً عند سلى شمالك

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه — عليه السلام — بين الازدراء والتصغير لشأنه ؛
لأنهم كانوا لا يعرفون قدره ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَمِيزُونَ ﴾^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ

تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْنَ ؛ يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يَجْرُونَ على متنفى
ما يقع لهم . ولِلَّذِينَ يَحْكُمُ اللَّهُ لَا يَحْكُمُ نَفْسَهُ ، وبهذا يتضح الفرقان^(٢) بين رجل وبين رجل .
والذي يعيش على ما يقع له فعايدُ هواه ، ومتحقق بالذن ذكركم الحق بالسورة في هذه الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ بِسْمِعُونَ

أَوْ يَسْمَعُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَلَّا تَعْلَمُ

بَلْ هُمْ أَصْغَلُ سَبِيلًا ﴾

(١) آية ١٩٨ سورة الأعراف

(٢) فرق بين الشين فرقا وفرقا نانا . والفرقان البرهان والحجة ، وكل ما شَرَقَ به بين الحق والباطل .

كالأنعام التي ليس لها همٌّ إلا في أَسْكَنَةٍ وَشَرِيَةٍ ، وَمَنْ اسْتَجْلَبَ حَظوظَ قَبِيهِ
فكألبهايم . وَإِنَّ اللَّهَ - سبحانه - خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ وَعَلَى الْعَقْلِ جَبَلَهُمْ ، وَالبَهَائِمَ
وَعَلَى الْهَوَى فَطَرَهُمْ ، وَبَنَى آدَمَ وَدَكَّبَ فِيهِمُ الْأُمُورَ ؛ فَمَنْ غَلَبَ هَوَاهُ عَقْلُهُ فَهُوَ شَرٌّ
مِنَ الْبَهَائِمِ ، وَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ هَوَاهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . . . كَذَلِكَ قَالَ الْمَشَائِخُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾
وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ
إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿

قِيلَ نَزَلَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بَعْضِ أَصْفَارِهِ وَقَدْ التَّيَلَّوْا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ
وَكَانُوا خَلْقًا كَثِيرًا فَمَدَّ اللَّهُ ظِلَّ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَتَّى وَسِعَ جَمِيعَهُمْ وَكَانُوا كَثِيرِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ
هَذِهِ الْآيَةَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ جَعْلِهِ سَجَرَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقِيلَ إِنَّ اللَّهَ فِي ابْتِدَاءِ النَّهَارِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَجْعَلُ الْأَرْضَ كُلَّهَا ظِلًّا ، ثُمَّ إِذَا طَلَعَتِ
الشَّمْسُ ، وَانْبَسَطَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ شِعَاعُهَا فَكُلُّ شَيْءٍ يُبَسِّطُ لَهُ ظِلًّا ، وَلَا يُصِيبُ ذَلِكَ
الْمَوْضِعَ شِعَاعُ الشَّمْسِ ، ثُمَّ يَنْتَاقِصُ إِلَى وَقْتِ الزَّوَالِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي الزِّيَادَةِ وَقَدْ زَالِ .
وَذَلِكَ مِنْ أَمَارَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُ أَجْرَى الْمَادَّةِ بِخَلْقِ الظِّلِّ وَالضَّوءِ وَالْفَيْءِ .

قوله : « وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » : أَيْ دَائِمًا . « ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا » : أَيْ حَالِ
ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ وَتَقْصُصِ الظِّلِّ .

وَيَقَالُ : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ظِلَّ النَّبَاةِ عَلَى أَحْوَالِ أَوْلِيَائِهِ ؛ فَقَوْمٌ هُمْ فِي ظِلِّ الْحِمَاةِ ،
وآخَرُونَ فِي ظِلِّ الرِّعَايَةِ ، وَآخَرُونَ فِي ظِلِّ النَّبَاةِ ، وَالْقَرَاءِ فِي ظِلِّ الْكِفَايَةِ ، وَالْأَغْنِيَاءِ
فِي ظِلِّ الرَّاحَةِ مِنَ الشَّكَايَةِ .

ظِلُّهُ هُوَ ظِلُّ الْمَعِصَةِ ، وَظِلُّهُ هُوَ ظِلُّ الرَّحْمَةِ ؛ فَالْمَعِصَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ثُمَّ لِلْأَوْلِيَاءِ ،
وَالرَّحْمَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ فِي الدُّنْيَا لِكُلِّ فِرَاقٍ أَجْمَعِينَ . وَيَقَالُ قَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ » ثُمَّ قَوْلُهُ : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » سِرًّا لِمَا كَانَ كَاشِفَةً بِهِ أَوَّلًا ، لِإِجْرَاءِ السَّنَةِ

في إغناخ الحلال عن الرقيب. قال لموسى عليه السلام : « لَنْ تَرَانِي » . وقال لنبينا عليه السلام :
« أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » وشتان ما هما !

ويقال أحياء قلبه بقوله : « أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » إلى أن قال : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » فجعل
استغلا به بقوله : « أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » إلى أن سمع ذكر الظل . ويقال أحياء بقوله :
« أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ » ثم أفناه بقوله : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » وكنا سُئِلَ مع عباده ؛ يُرَدُّ دُمُ بَيْنِ
إِقْنَاهُ وَإِقْنَاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا

وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ^(١) » وجعل النهار نَشُورًا ﴿

جعل الليل وقتاً لسكون قومٍ ووقتاً لارتعاج آخرين ؛ فأرأى الغفلة يسكنون في ليالهم ،
والهيبون يسهرون في ليالهم إن كانوا في رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النومُ لِكَمَالِ أُنْسِهِمْ ،
وإن كانوا في ألمِ الفراق فلا يأخذهم النومُ لِكَمَالِ قَلَمِهِمْ ، فالسَّهْرُ لِلْأَحْبَابِ صِفَةٌ : إِمَّا لِكَمَالِ
السُّرُورِ أَوْ لِهَجُومِ الْحُومِ . ويقال جعل النومَ لِلْأَحْبَابِ وقتَ التَّجَلُّي بِمَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ
في البِقْطَةِ ، فإذا رَأَوْا رَبَّهُمْ في المنام يُوَثِّرُونَ النَّوْمَ عَلَى السَّهْرِ ^(٢) ، قال قائلهم :

وإِنِّي لَأَسْتَفْقِي وَمَا بِي نَسَةٍ لِّلْخِيَالِ مِنْكَ يَلْقَى خَيَالِيَا

وقال قائلهم :

رَأَيْتُ مَرُودَ قَلْبِي فِي مَنَامِي فَأَحْبَبْتُ التَّنَمُّصَ وَالْمَنَامَا

ويقال النوم لأهل الغفلة عقوبةٌ ولأهل الاجتهاد رحمةٌ ؛ فإن الحقَّ — سبحانه —
يُدْخِلُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ ضُرُورَةً رَحْمَةً مِنْهُ بِنَفْسِهِمْ لِيَسْتَرْيَحُوا مِنْ كَدِّ الْمَجَاهِدَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً طَهُورًا ﴿

(١) السَّبْتُ = الطَّعْ . والثَّامُ مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته . وقيل السَّابُ = لَوْتُ ، وللسَّوْتُ
اليت لأنه مقطوع الحياة . وهو كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » ، ويضعه ذكر النَّشُورِ
في مقابلته .

(٢) ذكر العسري في باب « رؤيا النوم » برسائله أمتة كثيرة لشكرامات التي تحفَّت للاوليا . أمَّا
نومهم ، وكان بعضها ذا تأثير عظيم في مجرى حيواتهم . (الرسالة ص ١٩٢ وما بعدها) .

يُرْسِلُ رِيَّاحَ الْكَرَمِ قَهَبَ عَلَى قُلُوبِ ذَوِي الْحَاجَاتِ قَرَّبَهَا إِلَى طَلَبِ مَبَاهِلِهِ ،
وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْوَلَايَةِ قَهَبَ عَلَى قُلُوبِ اطِّوَاسِ طَهْرُهَا مِنْ جَمِيعِ الْإِرَادَاتِ فَتُكْفَى بِاللهِ ،
وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ لَطُوفِهِ عَلَى قُلُوبِ الْمُصَافَةِ فَتَحْلِمُ عَلَى التَّذَمُّرِ ، وَتَطْهَرُهَا مِنَ الْإِصْرَادِ فَتَرْجِعُ
إِلَى التَّوْبَةِ ، وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْأَشْتِيَاقِ عَلَى قُلُوبِ الْأَحْيَابِ قَرَّبَهَا مِنَ الْمَسَاكِنَاتِ ،
وَتَطْهَرُهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ الْوَاغِجِ فَلَا تَسْتَقِرُّ إِلَّا بِالْكَشْفِ وَالتَّجَلِّيِ .

وَيَقَالُ إِذَا تَنَسَّمَ التَّلَبُّ نَسِيمَ الْقُرْبِ عَامَ فِي مَلَكُوتِ الْجَلَالِ ، وَامْتَنَحَى مِنْ كُلِّ
مَرْسُومٍ وَمَعْهُدٍ .

قوله جل ذكره: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾

لِنُحْيِيَ بِهِ بَهِيمَةً مِثْلَكُمْ وَلِنُفِيقَهُ
بِمَا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِآيَاتٍ كَثُرُوا
فَإِنِّي أَكْثَرُ النَّاسِ لَا كُفُورًا .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً الْمَطَرَ فَأَحْيَا بِهِ النِّبَاتَ وَالرِّيَاضَ ، وَأَنْبَتَ بِهِ الْأَزْهَارَ وَالْأَنْوَارَ ،
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً الرَّحْمَةَ فَفَسَلَ الْمَصَاةَ مَا تَلَطَّخُوا بِهِ مِنَ الْأَوْضَارِ ، وَمَا تَدَبَّهُوا بِهِ
مِنَ الْأَوْزَارِ .

و « الطُّهُورُ » هُوَ الطَّاهَرُ الْمُطَهَّرُ ، وَمَاءُ الْحَيَاءِ يُطَهِّرُ قُلُوبَ الْمَارْفِقِينَ مِنَ الْجَنُوحِ
إِلَى الْمَسَاكِنَاتِ وَمَا يَتَدَاخَلُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنَ النَّفَلَاتِ . وَمَاءُ الرَّعَايَةِ يُحْيِي بِهِ قُلُوبَ
لِلشَّاقِيقِينَ بِمَا يَتَدَارَكُهَا مِنْ أَنْوَارِ التَّجَلِّيِ حَتَّى يَزُولَ عَنْهَا قَهْلُ الشَّاقِيقِ وَيَحْصُلُ فِيهَا مِنَ
سَكِينَةِ الْاسْتِفْلَالِ ، وَيَحْيِي بِهِ قَنُوسًا مِثْلَ بَاتِيحِ^(١) الشَّمُورَاتِ فَيُرْدهَا إِلَى الْقِيَامِ بِالْمَبَادَاتِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ
نَذِيرًا ﴾

(١) الْبَاتِيحُ فِي (بَاتِيحٍ) مِثْلَهَا (بَسْبَبٍ) .

إِنَّ اللَّهَ - سبحانه - خَصَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ فَضَّلَهُ عَلَى السَّكَافَةِ ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْجَلَّةِ ، وَبِالْأَيْدِي تَنْسَخَ شَرْعَهُ إِلَى الْأَبَدِ . وَبِهَذِهِ الْآيَةُ أَذْبَهُ بِأَقْدَقِ إِشْلَوةٍ ، حَيْثُ قَالَ : « وَلَوْ شِئْنَا لَظَهَرْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا » وَهَذَا كَمَا قَالَ : « وَلَوْ شِئْنَا لَنُذَهِّبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » (١) .

وَقَصْدُ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ خَوَاصُّ عِبَادِهِ أَيْدًا مَعْصُومِينَ عَنْ شَوَاهِدِهِمْ .

وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَهَّجَ وَقَفًا بِكَثْرَةِ مَا كَانَ يُسْأَلُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى أَلْفِ نَبِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَصْبَحُوا رُسُلًا ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَضَاقَ قَلْبُ مُوسَى وَقَالَ : يَا رَبِّ ، إِنِّي لَا أَطِيقُ ذَلِكَ ، فَخَبَسَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

أَيُّ كُنْ قَائِمًا بِمَقْنَأٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْكَ جَنُوحٌ إِلَى غَيْرِنَا أَوْ مِبَالَةً بَيْنَ سَوَانَا ، فَإِنَّا نَمَصِّلُكَ بِكُلِّ وَجْهِ ، وَلَا نَرْفَعُ عَنْكَ غِلًّا هُنَابَةً بِحَالٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا مَذْبُوبًا فُرَاتٌ وَهَذَا يَمْلُحٌ أَجَاجٌ وَجَبَلٌ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ وَحِجْرٌ مَحْجُورٌ ﴾

الْبَحْرُ الْمِلْحُ لَا عَذُوبَةَ فِيهِ ، وَالْمَذْبُوبُ لَا مِلْحَةَ فِيهِ ، وَهَذَا فِي الْجَوْهَرِيَةِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ - بِقُدْرَتِهِ - غَايَرَ بَيْنَهُمَا فِي الصِّفَةِ ، كَذَلِكَ خَلَقَ الْقُلُوبَ ؛ وَبَعْضُهَا مَمْدُونُ الْبَقِيَّةِ وَالْعَرَفَانِ ؛ وَبَعْضُهَا مَحَلُّ الشُّكِّ وَالْكَفْرَانِ .

وَيَقَالُ أُثْبِتْ فِي قَلْبِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْخُوفَ وَالرَّجَاءَ ، فَلَا الْخُوفَ يَنْلَبِ الرِّجَاءُ ، وَلَا الرِّجَاءَ يَنْلَبِ الْخُوفُ .

(١) آيَةُ ٨٦ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ .

وَيَقَالُ خَلَقَ الْقُلُوبَ عَلَى وَصْفَيْنِ : قلب المؤمن مضيئاً (مشرقاً ^(١)) وقلب الكافر أسود مظلماً ، هذا بنور الإيمان مَرَيْنٌ ، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَمٌ .
ويقال قلوبُ العوامِ في أسرِ المطالبِ ورغائبِ الحظوظِ ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَقَةٌ عن المطالبِ ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

أَخْلَقُ مُشَاكِلُونَ فِي أَوَّلِ الْخَلْقَةِ ، مَائِلُونَ فِي الْجَوْهَرِيَّةِ ، مُتَبَايِنُونَ فِي الصِّفَةِ ، مُخْتَلِفُونَ فِي الصُّورَةِ ؛ فَنَفُوسُ الْأَعْدَاءِ مَطْلَامُهُمْ تَسُوقُهُمْ إِلَى النَّارِ ، وَنَفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ مَطْلَامُهُمْ تَحْمِلُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . وَأَخْلَقُ بَشَرٌ . . . وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ بَشَرٍ كَبَشَرٍ ؛ وَاحِدٌ عَدُوٌّ لَا يَسْتَوِي إِلَّا فِي مُخَالَفَتِهِ . وَلَا يَبِيشُ إِلَّا بِنَصِيبِهِ وَحَظِّهِ ، وَلَا يَحْتَمِلُ الرِّبَاةَ وَلَا يَرْتَقِي عَنْ حَدِّ الْوَقَاةِ وَالْخَاسَةِ ، وَوَاحِدٌ وَلِيٌّ لَا يَقْتَرُ عَنْ طَاعَتِهِ ، وَلَا يَنْزِلُ عَنْ هِمَّتِهِ ، فَهُوَ فِي سَمَاءِ تَمَرُّزِهِ بِمُصَوِّدِهِ .

وَيُنْهَمَا قُلُوبَ النَّاسِ مَنَاهِلَ وَمَشَارِبَ ؛ فَوَاحِدٌ يَكُونُ كَمَا قَالَ :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾

يَكْتَفِي بِالْمُنْحَوْتِ مِنَ الْخَشَبِ ، وَالْمُصْنُوعِ مِنَ الصَّخْرِ ، وَالْمُتَّخَذِ مِنَ النَّحْلِ ، وَكُلِّهَا جَادَاتٍ لَا تَعْلُ وَلَا تَسْمَعُ ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ .

أَمَّا لِلْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ مِنْ صَفَاءِ أَنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْعَرْشِ — وَإِنْ عَلا ، وَلَا يَنْقَادُ بِقَلْبِهِ لَخُلُوقِ — وَإِنْ انْصَفَ بِمَنَاقِبِ لَا تُحْصَى

(١) ووردت في م ولم ترد في س .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

رسولاً مبشراً ، مأموراً بالإنذار والتنبيه ، واقعاً حيث وقفناك على نعت التبليغ ، غير طالب منهم أجراً ، وغير طامع في أن تجهد منهم خطئاً .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ

سَبِيلًا﴾ .

«إلا» أداة استثناء منقطع ، إذا ابتناؤم السبيل إلى ربهم ليس بأجر يأخذه منهم ،

فهو لين أقبل بشيء ، ولين أعرض بغير .

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي

لا يموت﴾ .

التوكلُ فريضُ الأمور إلى الله . وحقه وأصله علمُ العبد بأن الحوادث كلها حاصلة

من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيره .

فإذا عرفَ هذا فهو فبا محتج إليه — إذا علمَ أن مراده لا يرتفع إلا من قبل الله —

حصل له أصل التوكل . وهذا القدرُ قرضٌ ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول :

«وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»^(١) وما زاد على هذا القدر — وهو مسكون القلب

وزوال الازعاج والاضطرار — فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن قرّرَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكل دوجة من هذه

الأقسام اسم : إيمان حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفى بما في يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب

الزيادة . . ونسعى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بال حاصل له

(١) آية ٢٣ سورة المائدة .

وللغالب منا أن نلاحظ دائماً ظاهرة عامة نهينا إليها في مدخل هذا الكتاب ، وهي أن القسري بمحاول
أولاً استمداد المصطلح الصولي من كتاب الله ، (فالتوكل) الذي هو ركن هام من أركان الطريق الصولي
له أصل في القرآن ، ثم تأتي من بعد ذلك مرحلة البحث لي تطور هذا الأصل ونحوه لي ينشأ للتصوفة .

فلا يستزيد. ثم اكفاه كل أحد يختلف في التفة والكثرة وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحرص والزيادة.

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عدم وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلاً على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتبني بوعده ولا يهتدئ في ضيائه ، فيسكن — عند فقد الأسباب — بقلبه ثقةً منه بوعده . . ويسمى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمان الرب ، أو سكون الجالس في طلب الملائن ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم تقدره ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

واللفظ من هذا أن يكتبني يعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله ، ويصل على طاعته ، ولا يراعى إنجاز ما وعدّه ، بل يسكن أمره إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض^(١) ، وهو أن يسكن أمره إلى الله ، ولا يقترح على مولاه بمحال ، ولا يجتار ، ويستوى عنده وجود الأسباب وعدمها ، فيشتغل بأداء ما أمره الله ، ولا يفكر في حال نفسه ، ويعلم أنه مملوك لمولاه ، والسيد أولى بعبده من العبد بنفسه^(٢) .

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجدّ راحة في التمتع ، واستغنى ما يستقبله من الرزق . . . وتلك هي مرتبة الرضا^(٣) ، ويحصل له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه مالا يحصل لغيره من هذه الحالة في وجود المقصود .

(١) الواقع أن التعبد هنا متأثر بالأداء الكثيرة التي أدلى بها الشيوخ في هذا الموضوع ، وعلى وجه الخصوص يشبهه الحقان ، الذي يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض ، فالتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتبني بعهده ، وصاحب التفويض يرضى بحكم . ويقول كذلك : التوكل بداية والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . ويقول كذلك : التوكل صفة للمؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة للموحدين . (الرسالة ص ٨٥) .

(٢) يروي في هذا الباب أن جماعة سألوا الجنييد : أي نطلب الرزق ؟

عقال : إن علمت في أي موضع هو قاطنوه . قالوا : فسأل الله تعالى ذلك .

عقال : إن علمت أنه يسلك في أي مكان فذكروه . فقالوا : ندخل لبيته فتوكل ؟

عقال : العبرة شئت قالوا : في الحيلة ؟

عقال : ترك الحيلة (الرسالة الصفحة ذاتها) .

(٣) كذلك ربط السراج في ٢ له « بين التوكل والرضا بوصفها مقامين متتاليين في مقامات الطريق

(انظر ص ٧٩ من أسفل) .

وسيد هذا المواقفة، وهي ألا يجد الراحة في المتبر، بل يجد بدل هذا عند لسم القرب زوائد الأُس بفسيان كل آرب، ولسان وجود سبب أو عدم وجود سبب، فسكان حلوة الطاعة تصاهر عند برّ الرضا — وأصحاب الرضا يسمون ذلك حباً — فسكان أهل الأُس بالله . . بفسيان كل فقير ووجير، وبالتنازل عن أحوالهم في الوجود والعدم يمدون التزول إلى استنقاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا قصاصاً في الحال .

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جلته بالكلية، والعبارة عن هذه الحالة أنه يمحو الخلود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفساد . . وأمثال هذا، وذلك هو عين التوحيد، فسد ذلك لا أنس ولا هية، ولا لذة ولا راحة، ولا وحشة ولا آفة .

هذا بيان ترتيبهم^(١) . فأما ما دون ذلك فتلطير عن أحوال المتوكلين — على تباين شريهم — يختلف على حسب اختلاف محالهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد، لا شيء من قبيله إلا أن يرضعه من هو في حضاته^(٢) .

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار .

ويقال التوكل السكون عند مجاوى الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بمجرىان القسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح في توكله^(٣) .

ويقال حوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا، وإذا منعموا صبروا . وخواصهم إذا أعطوا آكروا، وإذا منعموا شكروا .

(١) هذا الترتيب اأى ذكره القشيري على جانب كبير من الأهمية لأنه أولاً يكتنف من التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى، والفتاى السلب المرتبطة بكل منها، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من الغفائم — التي هي وجود — إلى الأحوال التي هي عين الخلود . وواضح أن (الرضا) يحمل في طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية، وقد طالع القشيري هذه الطامرة في رسالته من ٩٧ .
(٢) القشيري متأثر بأقوال الشيوخ في ذلك : يحمد للتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ندى أمه (الرسالة من ٨٥ وقولهم) (الصوفية أطفال في حبر الحق) الرسالة من ١٣٩ .
(٣) هذه نقطة هامة جداً توضح أن التوكل الموصى الحق لا يتعارض مع الكسب، ولا يتعارض مع الكسب . . وقد كذب من ادعى التواكل وكشف من اتهم الصوفية بالتكاسل .

ويقال الحق يهود على الأولياء — إذا توكلوا — بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويمجد على الأصفياء بسقوط الأرب ... وإذا لم يكن الأربُ فحق يكون الطلب ؟

ويقال التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ ، فأما التوكل على الله في إصلاحه — سبحانه — أمورٌ آخرة العبد فهذا أشدُّ غوصاً ، وأكثرُ خفاءً . فالواجبُ في الأسباب الدنيوية أن يكون السكونُ من طلبها غالباً ، والحركة تكون ضرورة . فأما في أمور الآخرة وما يتعلقُ بالطاعة فالواجبُ الهدارُ والجدُّ والانكشافُ ، والغروجُ عن أوطان الكسل والجنوح إلى الفضل .

والذي يَنْصِفُ بالتواني في العبادات ، ويتباطئ في تلافٍ ما ضيَّعه من لإرضاء العاصوم والقيام بحقِّ الواجبات ، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكلٌ على الله وأنه — سبحانه — يفي عنه فهو مُتَّبِعٌ مملولُ الحالِ ، مكورٌ مُسْتَدْرَجٌ ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستغفر وسعته . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستند إلى سكوته وحركته ، ويتبدأ بِسِرِّهِ من حَوَالِهِ وقُوَّته . ثم يكون حَسَنُ الظنِّ بربه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته ، اللهم إلا أن يُغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الخفايا عن الفكرة في السواقب ؛ فإن ذلك — إذا حصلَ — فالوقتُ غالبٌ ، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم : الوقت سيفٌ (١)

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

انتظم به السكونُ — والعرضُ من جملة الكون — ولم يتجمل الحقُّ — سبحانه — بشيء

(١) في هذا المثل يقول القشيري « أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمنحه الحق ويحريه غالب ، وكما أن السيف لين منه قاطع حده فن لا يته سلم ، ومن خاشعته اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه فيها ، ومن عارضه انتكس وتردى ، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكه الوقت فالوقت عليه مقت . وسعت الأستاذ أبا هل الفائق هول : الوقت مبرد يسطك ولا يمسكك » الرسالة ص ٣٤ .

من إظهار برِّيته ؛ فلوَّه على العرش بهرته وقدرته ، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بنسوة أجزائه وصورته ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْجَدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۖ ۞ ﴾

أقبل الحق — سبحانه — بلفظه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتمزُّقه فلذلك جحدوه ؛ فطَرَّمْهُمُ عَلَى سَيِّئَةِ الْبُعْدِ ، وَعَجَّنَ طِينَتَهُمْ بِمَاءِ الْتَقَاوَةِ وَالْعَمْدِ ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجبل والجحد .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَرَأَ مُنِيرًا ۖ ۞ ﴾

زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ، وَخَلَقَ فِيهَا الْبُرُوجَ ، وَبَثَّ فِيهَا السَّكَاكِبَ ، وَصَانَ مِنَ الظُّلُمِ وَالشَّوْشِ أَضْلَاحَهَا وَمَنَاقِبَهَا ، وَأَدَارَ قُدْرَتَهُ أَغْلَاكَهَا ، وَأَدَامَ عَلَى مَا أَرَادَ إِسْكَكَهَا . وكما أثبت في السماء يروجاً (أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه يروجاً) ^(٢) ؛ فبروج السماء معدودة ويروج القلب مشهودة .

ويروجُ السماء (بيوت) ^(٣) ، شجيبها وقرها ونعيمها ، ويروجُ القلوب مطالعُ أنوارها ومشارقُ شغوسها ونعيمها . وتلك النجوم التي هي نجوم القلوب كالقفل والنهم والبصيرة والعلم ، وقرُّ القلوب المعرفة .

(١) كانت هذه الآية وأمثالها فرصة لأراء كلامية خطيرة سواء من ناحية استواء الله — سبحانه — على العرش ومسالمة تزعمه عن للسكانية ، أو من ناحية خلق الله ما بين السموات والأرض وهل للقصود بذلك خلق أفعال الإنسان . وقد ناقش البلاغتي في كتابه (التمهيد في أصول الدين) كلا الأمرين ، والواقع أن القسري — تنفيذ البلاغتي — متأثر بجراء أستاذة إلى حد كبير ، وإن كان البلاغتي أقل تأويلاً لصفات بشرية منه .

(٢) غير موجودة في ص وموجودة في م .

(٣) في م (بيوت) وفي م (بيوت) وقد رجحنا هذه لأن الراجح (بيت بيت على سور المدينة ولي أعلامها) كما جاء في المعاجم .

• قرُّ السَّاءِ له نقصانٌ وعحاق ، وفي بعض الأحيان هو يَدْرُ يوصف الكمال ، وقرُّ المعرفة أبدأً له إشراقٌ وليس له نقصانٌ أو عحاق ، ولذا قال قائلهم :

جمع الأقارَ تحبُّوا أو تنه
لما يَدْرُ تخلُّ له البيدور

فأما شمسُ القلوبِ فهي التوحيد ، وشمسُ السَّاءِ تقربٌ ولكن شمسُ القلوبِ لا تغيب ولا تقرب ، وفي معناه قالوا :

إن شمسَ النهارِ تقرب بالليل وشمسُ القلوبِ ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمسَ النهارِ تقرب بالليل ، وشمسُ القلوبِ سلطانها في الضوء والمطلع بالليل أم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّئِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ كُنتُمْ آيَةً ﴾
شُكُوراً .

الأوقاتُ متجاليةٌ ، وتفضيلُها بعضها على بعضٍ على معنى أنَّ الطاعة في البعض أفضل والنوابُ عليها أكثر . والليلُ خلفُ النهارِ والنهارُ خلفُ الليلِ ، فمن وقع له في طاعة الليل خللٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجودٌ جيِّرٌ ، وإن حصل في طاعة النهار خللٌ فإذا حضر بالليل ففي ذلك إتمامٌ لنقصانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوًّا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ .

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وقَّعوا للطاعات ، فبرحتهم وصلوا إلى التوفيق للطاعة . وعِبَادُ الرحمن الذين يستحقون غمًّا رحمةً هم التائبون برحمتهم وصلوا إلى طاعتهم . . هكذا بيان الحقيقة ، وبطاعتهم وصلوا إلى جنتِهِ . . هكذا لسان الشريعة .

ومعنى « هونا » متواضعين متخاشعين

ويقال قَرِطُ التواضع وَحْدَهُ أَلَا يَسْتَحْسِنَ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِ ، حَتَّى قَالُوا^(١) : إِذَا نَظَرُ إِلَى رَجُلِهِ لَا يَسْتَحْسِنُ شَيْئًا تَعْلَهُ ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ لَا يُسَارِكُنْ أَعْمَالَهُ ، وَلَا يَلَاظُ أَحْوَالَهُ .
قوله : « وَإِذَا خَلِطَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » : قِيلَ سَدَادُ الْمُنَاطِقِ ؛ وَيُقَالُ مَنْ خَاطَبَهُمْ بِالْقُدْحِ فَهُمْ يَجَاوِرُونَهُ بِاللُدْحِ لَهُ .

ويقال إِذَا خَلِطَهُمُ الْجَاهِلُونَ بِأَحْوَالِهِمْ ، الطَّاعِنُونَ فِيهِمْ ، الْعَائِبُونَ لَهُمْ قَابِلُوا ذَلِكَ بِالزُّفْقِ ، وَحُسْنِ الظُّلُقِ ، وَالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالسَّكَامِ الطَّيِّبِ .
ويقال يَخْبِرُونَ مَنْ جَفَلَمُ أَنَّهُمْ فِي أَمَانٍ مِنَ الْجَهْلَةِ^(٢)

قوله جَلْ ذَكَرَهُ ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سَلْجِدِينَ ، وَيَصْبَحُونَ وَاحِدِينَ ؛ فَوَجَدُ صَبَاحَهُمْ ثِمَرَاتُ سَجُودِ أَرْوَاحِهِمْ ، كَذَا فِي الظُّلَمِ : « مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِالْإِيلِ حَسَنَ وَجْهِهِ بِالنَّهَارِ » أَيْ عَظُمَ مَا وَجَّهَهُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَحْسَنُ الْأَشْيَاءِ ظَاهِرُ السَّجُودِ حَسَنَ وَبُلْغُنُ الْبُجُودِ مَزِينٌ .
ويقال مُتَعَسِّفِينَ بِالسَّجُودِ قِيَامًا بِآدَابِ الْوُجُودِ .

قوله جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ هَذَا عَنَّا هَذَا بَجَهْمٍ إِنَّ هَذَا بَيْتُنَا كُنْ غَرَامًا ﴾
• إِنَّهَا صَاعَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا •

يَجْتَبِهُونَ غَايَةَ الْاجْتِهَادِ ، وَيَسْتَفْرِغُونَ نَهَايَةَ الْوَسْعِ ، وَعِنْدَ السُّؤَالِ يَتَزَلَّزَلُونَ مَقَرَّةَ الْعَصَاةِ ، وَيَقِفُونَ مَوْقِفَ أَهْلِ الْإِعْتِدَارِ ، وَيَخَاطِبُونَ بِلِسَانِ التَّنْصُلِ^(٣) كَمَا قِيلَ :

وَمَارُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى حَلَلْتُ مَحَلَّةَ الْعَبْدِ الْقَذِيلِ

(١) هذا القول سمعته القشيري من شيخه العياشي (الرسالة ص ٧٤) .

(٢) ووردت (المكافاة) والصواب أن تكون (الجافاة) بمعنى أنهم لا يقابلون الجفاء بالجفاء ، فمن عاداهم آمن من انتقامهم أو على معنى أن جفاف الأعذار لا تصيهم بأذى إذ ليس في مقدور أحد أن يؤذي أولياء الله .

(٣) ول ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « الذين يؤتون ما آتوا وتقر بهم وجلة » . رواه أحمد عن عائشة ، والترمذي وابن أبي حاتم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقُوا لَمْ يَسْوَءُوا وَلَا يَسْتَرْفُوا وَلَا يَخْتَفُوا وَلَكِنَّ بَيْنَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ .

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النفس ، فأما ما كان لله فليس فيه إسراف ، والإقتارُ ما كان ادخلاً عن الله . فأما التضييقُ على النفس منماً لها عن اتباع الشهوات ولتنعود الإحتذاء باليسير فليس بالإقتار المذموم .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(١)

﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ : في الظاهر عبادة الأصنام المعبودة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار . وكما تنصف بهذا النفوسُ والأبشارُ فكذلك توهمُ المبالغة والمضالمة من الأغيار شركاً .

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ...﴾ من النفوس المُحرَّم قتلها على العبد نفسه المسكينه ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢) . وقتلُ النفس من غير حق تمكينك لها من اتباع ما فيه هلاكها في الآخرة ؛ فإنَّ العبد إذا لم يَنْهَ مأموراً .

(١) (من ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ووزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا : إن الذي نقول ونسبوا إليه الحسن أو نخبرنا أن لما حملنا كفارة فزكنا الآية : «والذين لا يمدحون مع الله إلهاً آخر...» إلى قوله تعالى : «ظفروا وسجيا» رواه مسلم عن إبراهيم بن دينار عن حجاج . و (من عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي القرب أعظم ؟ قال : أن تحمل قته ندأ وهو يخلطك . قال : قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم منك . قال قلت ثم أي ؟

قال : أن تزاني حيلة حارك . فانزل الله هذه الآية وما بعدها تصديهاً لذلك) رواه البخاري ومسلم عن عثمان بن أبي شيبة ، عن جرير .

و (عن ابن جرير عن عطاء بن ابن عباس ، قال : أتني وحشي إلى النبي (ص) فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرتني حتى أسمع كلام الله ، فقال الرسول : قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جوارى حتى أسمع كلام الله . قال : فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيته ، هل يقبل الله مني توبة ؟ فصبت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية . . . وأسلم وحشي) .
(٢) آية ٢٩ سورة النساء .

ثم دليلُ الخطأ أن تقتلها بالحق^(١) ، وذلك بِذَنبِهَا بِسَكِينِ المَخَالِفَات ، فما فَلاحَكَ
إلا بِقَتْلِ نَفْسِكَ التي بين جنبيك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ .

يضاعفُ لهم المذابُ يومَ القيامةِ بمسراتِ الفرةِ وفوراتِ الحرقة . وآخرون يضاعفُ لهم
المذابُ اليومَ بقراكم الخذلانَ ووشكَ المعجرانِ ودوامِ الحرمانِ . بل مَنْ كَانَ مضاعفَ المذابِ
في عقابه فهو الذي يكون مضاعفَ المذابِ في دنياه ؛ جله في الظاهر : مَنْ كَانَ بِمُحَالَةٍ لِقَى
اللهِ بها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَأُولَئِكَ يَجْزِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
وَكُنَّ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

إلا من تاب من الذنب في الحال ؛ وآمن في المال .

ويقال « وآمن » أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، « وعمل صالحاً » لا ينقض توبته .

ويقال إنْ نَقَضَ توبته عَمِلَ صالحاً أَى جَدَّدَ توبته ؛ « فلولاه يُبدل الله سيئاتهم
حسنات » . ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان^(٢) .

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم .

ويقال يحو ذلةَ رُلَّائِهِمْ ، ويثبت بدلتها الطيراتِ والحسناتِ ، وفي مناه أنشدوا :

ولما رضوا بالغفر عن ذى زَلَّةٍ حتى أنالوا كَنَّةً وأطادوا

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا

مُرُوا بِالْغُرِّ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ وَالَّذِينَ

(١) تذكر كيف يفرق القسري بين حفظ النفس وحق الله ، ولاحظ كيف أحسن استغلال الاستثناء
هنا (كل النفس إلا بالحق) أى ذنبها يسكن المجاهدات في سبيل حق الله .
(٢) واضح من هذا الرأى مدى اتساع صدور الصورية للأمل في الأخذ بيد النصاة ، مرجحة الله
— لي نظرم — أكثر رجاءة من أن تضيق لي وجه من عثرت أقدامه .

إِذَا ذَكُّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَأْمُرُوا
عَلَيْهَا سُبُوحًا وَعُتُوبًا ۝

يستمكنون في مواطن الصدق لا يرحون عنها ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلًا . وإذا مروا
بأصناف الزلات ومساكن المخالفات مروا متسكبين مُعْرِضِينَ لَا يَسْأَلُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْحَالَةِ .
ويقال نزلت الآية في أقوام مروا — لما دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يعبثون
فيها الأصنام مرة — متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللَّهُ لَمْ ذَلِكَ .
ثم قال في صفتهم : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم ينفروا عليها سُبُوحًا وَعُتُوبًا :
بل تالها بها بالنفكير والتأمل ، واستعمال النظر .

قوله جل ذكره : « والذين يقولون ربنا هب لنا من
أزواجنا وذرياتنا فِرَّةً أَهْبَاءً
واجملنا للثقلين إمامًا ۝ » .

قرة العين من به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحق الله قائمًا .
ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه ماثلاً ، ولخائفته أمره منارًا .
« واجملنا للثقلين إمامًا » الإمام من يُقْتَدَى به ولا يَبْتَدِعُ .

ويقال إن الله منح أقوامًا ذكرُوا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدعوا فيها
اختيارهم ؛ فالإمامة بالعهدة لا بالدعوى ، فقالوا : « واجملنا للثقلين إمامًا » .

قوله جل ذكره : « أولئك يُجْزَوْنَ الثَّرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَجْمَةً وَسَلَامًا ۝ » .

يعطى — سبحانه — الكثير من عطائه ويصده قليلاً ، ويقبل اليسير من طاعة العبد
ويصده كثيراً عظيمًا ، يعطيهم الجنة قصوراً وحوراً ثم يقول : « أولئك يجزون الثرفة » ،
ويقبل اليسير من العبد فيقول : « فجاء بسجل محين » ^(١) .

(١) آية ٢٢ سورة النازيات .

قوله : « ويلقون فيها تحية وسلاماً » : يسمون سلامه عليهم بلا واسطة ، ويشجل لهم
ليرؤوه من غير تكلف قتل ، ولا تحمل قطع مسافة (١)

ويقال « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » (٢) : اليوم يحضر المبدأ بيته لأداء العبادة ،
وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفهم قطع المسافة ، فهم على أرائكم
— في مستقر عزهم — يسمون كلام الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : « بما صبروا » أى صبروا عما نهاوا عنه ، وصبروا على الأحكام التى أوجراها عليهم
بترك اختيارهم ، وحسن الرضا بتقديره .

قوله جل ذكره : « خالدين فيها حسنت مستغراً مقاماً »
مقيمين لا يرحلون منازلهم (٣) ، ولما أحوالهم حسن مستغرم مستغراً ، وحسن
مقامهم مقاماً .

قوله جل ذكره : « قل ما يفتيا بكم ربى لولا دعاؤكم
لقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » .
لولا عبادتكم الأمانم ودعاؤكم بإياها باستحقاق العبادة وتسبيحكم لها آلهة . . متى كان
يخلدكم فى النار ؟ .

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الانبهاال لأدام بكم البلاء ، ولكن لما أخذتم
فى الاستكثانة والدعاء ، وتضرعتم رحمكم وكشف الضر عنكم .

(١) يضاف هنا الكلام إلى رأى القشبرى فى موضوع الرؤية فى الآخرة

(٢) آية : ٦٠ سورة الرحمن .

(٣) يضاف هنا الكلام إلى رأى القشبرى فى تأييد تنم أهل الجنة .

مَمَّ الْجِلْدُ الْغَافِي وَيَلِيهِ الْجِلْدُ الْثَالِثُ
وَأَوَّلُهُ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

فهرس

المسحة

- سورة التوبة ٥
- سورة يونس ٧٦
- سورة هود ١٢٠
- سورة يوسف ١٦٤
- سورة الرعد ٢١٥
- سورة إبراهيم ٢٣٨
- سورة الحجر ٢٦٢
- سورة النحل ٢٨٤
- سورة بني إسرائيل ٣٣٣
- سورة الكهف ٣٧٥
- سورة مريم ٤١٨
- سورة طه ٤٤٤
- سورة الأنبياء ٤٩١
- سورة الحج ٥٢٧
- سورة المؤمنون ٥٦٦
- سورة النور ٥٩٢
- سورة الفرقان ٦٢٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٦٩ / ٢٠٠٠

I . S . B N 977 - 01 - 6599 - 9

هذا هو المجلد الثاني من (لطائف الإشارات) للإمام القشيري رحمه الله الذي اعتمد فيه على إبراز الجانب الإلهي في تجليه على أصفياه من خلقه وفي ذلك يقول: «أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفى رموزه، بما لَوَّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما اسر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق - سبحانه وتعالى - يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يثيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويدرون». فانظر عزيزي القارئ كيف خَصَّ الله خُصَّ عباده وأصفياه من خلقه - وإلى الجزء الثالث.

Bibliotheca Alexandrina



0553399

